

كتاب الأزمنة والأمكنة

تأليف
الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن الرزوقي الأصفهاني
المتوفى سنة ٤٢١ هـ

ضبطه وخرّج آياته
فهميل المنصور

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نضع بين يدي قرائنا الكرام كتاب الأزمنة والأمكنة فهو كتاب جامع شامل لموضوعات لها من الأهمية شأن كبير في معرفة علوم زاد الاهتمام بها في الماضي كثيراً وما يزال الاهتمام بها في العصر الحاضر يأخذ مجالاً واسعاً لكونها تبحث في الطبيعة وفي حركة الكواكب وتسمياتها وقوانينها وهي قاعدة انطلاق أساسية في العصر الحاضر للتعرف على الفضاء وعلى معرفة جوانب منه ما زالت غامضة وتشغل الكثير من العلماء في العصر الحاضر ويعتبر الكشف عنها أو البحث فيها يخدم الإنسانية فهي مترابطة إلى حد بعيد مع بعضها فالعلوم جميعاً تكمل بعضها البعض فإثبات صحة تجربة علمية أحياناً وللتأكد من نجاحها يتطلب إجراء اختبارات لها في الفضاء لهذا فإن أجدادنا العرب في الماضي اهتموا كثيراً بالعلوم التي كان لها علاقة مباشرة بحياتهم في حلهم وترحالهم ومن أهم هذه العلوم علم الفلك الذي كان له دور كبير ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهم لمعرفة أحوال الجو وللإهداء بالنجوم والكواكب في السير ولمعرفة الزمن وأقسامه، وأدركوا مدى الارتباط بين الزمان والمكان وأهمية هذا الترابط الوثيق بينهما للدرجة أنه لا يمكن لأحدهما أن يكون بدون الآخر.

وقد قسم الكتاب إلى أبواب وفصول اشتملت على مضمون الكتاب حسب تسلسل الحروف الأبجدية وقد بدأها في ذكر الآي المنهية من القرآن على نعم الله تعالى على خلقه في آناء الليل والنهار وفي ذكر أسماء الزمان والمكان ومتى تسمى ظروفاً ومعنى قول النحويين الزمان ظرف الأفعال. المهم أن العناوين تجسدت فيها روح النصوص ولم تنفصل عن بعضها البعض فكلها أعطت للكتاب أهمية خاصة في جعله وحدة متكاملة مثل أسماء الشمس وأسماء القمر وختمها في ذكر مشاهير الكواكب التي تسمى الثابتة وغيرها المتحركة. أما المؤلف فقد كان له باع طويل في رفد العلم بمؤلفاته الفريدة في فنون العلوم فقد

ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٧ / ٤٧٥ فقال إمام النحو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي وذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٣٤ / ٥ ، ٣٥ كما ذكره صاحب كتاب انباه الرواة وغيره وقد عاش أبو علي وعمر طويلاً فقد قارب التسعين عاماً وتوفي في ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وأربع مائة وكان له أكبر الأثر في إتحاف المكتبة العربية بمؤلفاته العلمية والأدبية.

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تُحصى آلاؤه بتحديد، ولا تعد نعمائه بتعديد، خالق الظلم والأنوار بعجائب صنعته، ومالك المدد والأقدار بغرائب حكمته، فله في كل ما أنشأ وابتدع، وفي جميع ما أوجب واخترع، عند تناسخ الأزمنة في أهاليها وتعاقب الملل والدول بين مُترفيها، أماد ورُتب وآيات وعبر لا يجمع جملها إلا إدراكه وعلمه، ولا ينوع تفاصيلها إلا إحصاؤه وحفظه، وإن كان كثير منها يحصله العيان ويُصوّره الأذهان من الأفلاك وبروجها، ومنازل التيرين فيها واستمرار مسيرها في حدي الاستقامة والزجة والبطر، والسرعة، وتكوين الليل على النهار، وتكوين النهار على الليل وتبدل رطوبتها وبردها وحرها ويابسها ولينها، وتغير أدوار النجوم في طلوعها وأفولها، قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكوين: الآيات ١٥-١٨] وفي الاختفاء عن بعض الأمصار وظهورها وتساوي الجميع في الدلالة على حكم الآثار، وله الخلق والأمر، وإليه المرجع والمستقر، تبارك الله أحسن الخالقين وصلاته على من اختاره للنذارة، وتبليغ الرسالة، فصّدع بأمره وأدى حق نعمته في خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإنّ الإنسان وإن كان ذا لدود وخِصام، وجدال فيما يهوى وجذاب بتيقن الحوادث بوجه الثبوت، ويتسبب إلى الازدياد، بحب التوسع فيرى جلائل الأقدار كأنّها تواريه أو تلاعبه، ويحسب غوائل الأخطار كأنّها تساوفه أو تسابقه، ترشح بما رشح له عناصره عند الاختبار، وتجليه لما هبىء له مكاسره لدى الاعتبار، فهم فيما يترددون فيه طلعة خباءة، وعن صفايا غنائمهم غفلة نومه لا يردون مُستكرأ، ولا يجدون عند الزلة مُستمسكاً، نجدهم على تفاوت من أجسامهم، وأقدارهم، ومناشئهم، ومدارجهم، وأسماحهم، وأيابهم، ومآخذهم في استقرار مآربهم، وفي أداتهم، ولغاتهم، وصورهم وهيأتهم واقتراحاتهم وشهواتهم وأقواتهم، ومطاعمهم وحرفهم ومكاسبهم، وتباين ألسنتهم وألوانهم، وعلى تنافس بينهم شديد، وتحاسد في خلال أحوالهم عجيب، وتضاغن يلوح من مستكن سرايرهم، وتباغض يبوح به تداني جوارهم.

قد جبلوا على ما إليه سيقوا، وخلقوا لما عليه أدبروا، متوافقين في الانجذاب إلى مدى من حب الوطن والسكن، والصبر على مراري الزمن، والاستظهار في تخليد الذكر باتخاذ المصانع المؤبدة، والمباني المشيدة، كالخورنق، والحضر، والأبق الفرد، وغمدان، والمشقر، والهرمين، ومنف، وهو مسكن فرعون وتدمر والشعراء ذكروها في ذلك قوله:

اشربْ هنيئاً عليك التاجُ مُرتفعاً في رأسِ غمدانَ دارِ أمِنِكَ مِحْلالاً
تلك المكارمُ لا قعبانَ من لبنٍ شيباً بماءٍ فماذا بعد أبوالا
وقول الآخر: شعراً:

ماذا أوَمَلِ بعد آلٍ محرَّقٍ تركوا منازلهم وبعد إِيادٍ
أهل الخورنقِ والتديرِ وبارقِ والقصر ذي البُشرفات من سِنَادٍ
أرض تخبِرها الطَّيب مقلها كعب بن مامة وابن أمِّ داودِ
وقول الآخر شعراً:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجَلَة نحى إليه والخابورُ
شاده مرمراً وجلَّله كلساً فللطيِّر في ذراه وكورُ
وقول النابغة:

وَخَيْسَ الجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ يَنُونَ تَدْمُرُ بالصَّفَّاحِ والعُمْدِ
وكايوان كسرى أنوشيروان، وهي من الأبنية القديمة والتهالك في مناصب القرون الخالية، والأرزاء بمناصبهم وطلب التقدّم عليهم فيما حمدوا فيه وإن كان كلّ منهم يذمّ زمانه ويحمد زمان غيره حتى روي قول لبّيد شعراً:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجرِبِ
ومن قول عائشة رضي الله عنها فيه ما روي:

وسار متى قصروا عنه ذمّوا وإن ما هم استأنسوا فيه ملّوا

لا جرم أنهم ابترموا مما اختبر لهم فيجمعوا أيديهم عليه موثرين لقبوله، ومقتنعين بحصوله كمن اطلع على ما أبدله في القسم فاغتتمه، وأوذن بما أعدله عند السوم فاختمه، فترى ذكر الزمان في المكان في جميع ما يندرجون فيه شقيق أرواحهم ومشروع الزّوج لأفئدتهم ومُستمد لذاتهم، ومشتكى أحزانهم، به يكشفُ البلوى ويُستنزل المطر، فليسوا

بشيء من حظوظهم أقنع منهم باجتماع الوطن والمطر، واستطلاع المستنجد من العين والأثر، لذلك قال شاعرهم:

وكنْتُ فيه كممطورٍ ببلدته فسر إن جمعَ الأوطان والمطرًا

وقد قيل: ليس الناسُ بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم، فلولا ما منَّ الله تعالى به على طوائف الأمم وعصائب الزمر من الألفاظ في تحبيب ما حب وتأنيس من أنس، والمنع من الاستيثار والاقتدار، والإجتهاد بنهمة الاقتار، لما رضيت المهج الكريمة بمجاورة البلاد والذيار، ولا سكنت القلاع، في قلل الجبال والتلاع، ولا عمرت المهاري والأرانب في مساكن الأسود والضباع، ولا نبت حبال الألفة.

ونقطع نظام ما له فسبحان من جعل الاختلاف سبباً للاتلاف، وبدل التنافر فصيرهُ داعياً إلى التوافق، والله الحمد على ما أمضى وقدر، ونسأله التوفيق فيما أتى وغير، وقل عن اشتمام الأبنية الزفة إلى غاية ما في نفوسهم، بل يدعون منه شياحين يلزمهم اسم التمام والفراغ ليس للكلام نهاية، ولا لاختلافهم غاية، لأنَّ عددهم كثير، والنظر فيهم قديم وطبائعهم مختلفة، وقواهم متفاوتة وألستهم مُرسلة، وخواطهم مطلقة، ولو كان الفاسد يشعر فساد، والمنقوص يجد من نقصه لكان الفاسد صالحاً والناقص وافرًا.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من باع داراً أو عقاراً، فلم يجعل ثمنها في مثلها كان كرمادٍ اشتدَّت به الريح في يومٍ عاصف».

وذكر أحمد بن أبي طاهر أنه سُمع آذرباد المؤبد يقول: إنه وجد في حكم الفرس تربة الصبي تغرس في القلب حرمة كما تغرس الولادة في الكبد رقة، ومما قيل في الوطن:

عجبت لعطارٍ أتانا يسومنا بدسكرة القيوم دهن البنفسج
فويحك يا عطار هلاً آتينا بضغثٍ حزار أو بخوصة عرفج

وقالوا: خلق الله آدم من ترابٍ فهمته في التراب، وخلق حواء من ضلعٍ من أضلاع آدم فهمتها في الرجال، ومما يعرف به موقع الوطن والزمن من ذوي البصائر السليمة والعقائد الصحيحة قول جرير:

سقى الله البشام وكلَّ أرضٍ من الغورين أنبت البشاما
فيا نعيم الزمان به علينا ويا نعيم المقام به المقاما

فجمعهما في قول، وأنشدني أبو أحمد العسكري، قال أنشد الصولي:

سقى الله دارَ الغاضرية منزلاً ترف عليه الروض خضر الرِّفارف

وأيامنا والغاضريّون خضرُ وعيشي بهم يهتز لدن المعاطف
ورأينا الله تعالى قسم مصالح خلقه ولذاذهبهم بين المقام والطقن فجعل أكثر مجاري
الأرزاق مع الحركة والاضطراب، واغتنام الأرباب بعد التقادي في البلاد لذلك قال الشاعر:
فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المُسافرُ
وقال آخر:

سُررتُ بجعفرٍ والقرب منه كما سُرَّ المُسافرُ بالإياب
وقد شهد أصحاب المعاني لابن الرومي، فقالوا: لم يبن أحد العلة في الحنين إلى
الوطن إبانته حين قال:

وحبّ أوطانَ الرّجال إليهم مآربُ قضاها الشّبابُ هُنالكِ
وقد قال الأسدي أيضاً شعراً:

أحبُّ بلادَ اللَّهِ ما بين منعجٍ إليّ ورضوى أن نصوبَ سحابها
بلادُ بها نيطتُ عليّ تمائي وأزل أرضٍ منّ جلدي تراثها
وأخذ ابن ميادة فقال:

بلادُ بها نيطتُ عليّ تمائي وقطعنَ عني حين أدركني عقلي

وقال بعض أصحاب المعاني: العلة التي من أجلها تساوت الطّباع المختلفة في الحنين
إلى الآلاف، وحب ما مضى من الزّمان هي أنّ الدّوات فينا ومنا لما كانت لا تحصل إلّا في
مكانٍ وزمان صارت لتضمّنها لهما ولكونهما ناشئة حياتها وفاتحة شيبتهما، وطالعة نماثها،
تشوقهما وتستنشئ على البعد أرواحهما حتى كأنّهما منها.

وفسّر بعضهم قول ابن الرومي، فقال: يُريد بالمآرب المقضية للشّباب ما أقامه الصّبيّ
من روادف الهوى، وقد ظفر بالمرتاد، أو كان على استقبال من العمر وقوة من الركن،
واستعلام من الأمل، واستخبار من الأجل، وتماسك من الجوارح وتساعد من الأعضاء
الحوامل، ورخاء من البال وأمن من عوارض الآفات.

والذي شرحه هذا المُفسر الزائد فيه على مذهبه كالواصل إليه لاجتماعهما في
غواشي العشق والصّبر تحت بيان الحب رجاء الفوز بالمراد، وأظنّ جميعه في قول امرئ
القيس:

وهل ينعمن إلا خلّي مخلد قليلُ الهموم ما يبيت بأوجال

وهذا في قضايا الأوقات كما اقتصر الجاحظ من تعصبه لمصره، فقال: من فضلة البصرة ما خصت به من أرض الصدقة إنه لا يسوغ تغييرها ولا يتيهناً تبديلها، ومن المد والجزر المبخر خصوصاً لأهلها المجمعول نوماً بين قاطنها ومسافرهما، ومصعدها، ومنحدرها على مقابلات من الأوقات ومقادير من الساعات، وعلى منازل القمر في زيادة النور وامتلائه، ونقصان ضوئه واستساراه، فلا يعرف مضر جاهلي، ولا إسلامي أفضل من البصرة، ولا أرض جرى عليها الآثار أشرف من أرض الصدقة، ولا شجرة أفضل من النخلة ولا بلد أقرب برّاً من البصرة، فهي واسطة أبجر، وخضراء من بداو، وربعاء من فلاة، وقانص وحش من صائد سمك، وملاحاً من جمال من البصرة.

فهي وسطة الأرض وفرضة البحر ومضبض الأفطار، وقلب الدنيا فساحله بعض المتقضية للغيث، وبلاده بأن قال: الكرمة أفضل الأشجار، والعنب سيد الثمار، ناعمة الورق كأنها سرقة ناضرة الخضرة بديعة الشكل، سلسلة الأفنان، رقيقة الجلد عند المذاق يسرح في البدن نورها، وفي القلب سرورها، مع ذكاء العرق وصحة الجوهر إن عرشت على عمد الخشب، وطبقات القصب تضاعف علتها، وتكامل حسننها ودخلها ورأفة جهارتها وأنتق يعنها، وإن بسطت أغصانها على الدار التي هي فيها أظلت وإن مدت على الجدران وقيدت إلى حدود الجيران سامحت قائدها وقلّ اعتياضها تغني عن الشارات والفساطيط، ولكفّ صيد الحر في حمارة القيظ، واحتدام الشمس أوان الحاجة إلى الروح وترّد عواصف الرياح وقواصفها، بكثافة ورقها، وضفاقة ظلّها في كلام يتصل بين الفريقين ولا ينقضي.

وليس من همتي ولا سدمي إنما أردت التنبيه على أنّ كل ذي أرب همته في نظرية بلدته طبعاً لا تكلفاً وكل ذي سبب نهمته في تزكية ممكنة عمداً لا سهواً، ثم حسن الشيء وقبحه وفضله ونقصه لما عليه في نفسه لا لجوى راصد أو ألف جاذب. والحديث شجون، والفخر بالشيء فنون، لكنّ الله تعالى لما ذكر الديار فخير عن موقعها من عباده حتى سوى بين قتل أنفسهم والخروج من ديارهم في قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ [سورة النساء: ٦٦] وفي موضع آخر: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ [سورة البقرة: ٢٤] جعل لهم في الأرض بيتاً نسبته إلى نفسه بإزاء البيت المعمور لملائكته، وصيره حرماً وأمناً، ومطافاً يلودّ به الخائف ولو كان من الوحش.

كما يأوي إليه الهارب من الأنس عظيماً شأنه منيعاً جاره لا يغشى أهله غضاضة الامتهان، ولا سامة الابتذال، فهم على مر الأيام وكلّة وحسن في أديانهم متمنعة، وقد كان من الفيل والحبشة ما أرّخ به الزمن كما أرّخت الحوادث والتحل، وكما قيدت أيام النبوات

بما يكشفها من أنباء الفترات وأحوال الأنبياء والمعجزات، وذكرَ الله تعالى النعمة على قريش، فانبأ عن رحلة الشتاء والصيف بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام لسكان مكة فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦]، وقد كان قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧] فاستجاب الله دعوته فهم يصيفون (الطائف)، ويشتون (جدة) وأنواع الخير منهم بمرصد وفعل مثل ذلك في الزمان فعظم ليلة القدر وجعلها ﴿خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بما ضمنها من تنزل الملائكة بقضاياء إلى رأس الحول، ولأنها ليلة السلامة والأمن من كل داء وبلاء إلى مطلع الفجر.

فالحمد لله الذي بنوره اهتدينا وبفضله غينا، حين أدب الأخلاف بما درج عليه الأسلاف، وقرن العبادَة باعتبار ما أمضى عليه القرون الماضية في الدهور الخالية فإنهم وإن مضوا سلفاً فقد السَّيْل عليهم، والناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم، وقد أكثرت، وظهر الفرض فيما أبدأت، وأعدت، والتَّرفية عن المطبة أعون في إملاء قطع الدود أن من نكص عن المنهاج تاه في الفجاج، فإنما هذا الكلام وصلة إلى كتاب في الأزمنة والأمكنة، وما يتعلّق بهما من أسماء اللَّيْلِ والنَّهَارِ والبوارح^(١)، والأمطار، والمزالف، والمآلف، وما أخذ أخذها مما تعداده يطول وينطق به الحدود بعد هذا.

والفصول فقد قدّمت ذكرها، وقد غبرت مدة من الزَّمان، وهذا الكتاب منّي ببال أتصفّح ورقه بأيدي فكري، وأنصوّر مضمونه في مطارح فهمي، فنيّلني إذا صادفته جموحاً، ويولّيني إذا صافحته ازوراراً، وشسوعاً، كأنه يُطلب لنفسه حظاً زائداً على ما أوتيّه، وسهماً عالياً لما أجيّله فأعطيّه إلى أن تبوأ من علو الوكد، والاهتمام في أعلى الرّبي، ومن مرتقى الثّوفر في الإعتناء في أسنى الذرى.

فحيثُ أطلع الله على ضميري نور الأستاذ النفيس أبي علي إسماعيل بن أحمد أدام الله رفعتّه، وبرهان سلفه قرناً بعد قرن، وكابراً عن كابر من كمال النبل، وجماع الفضل والجمال الظاهر، والكرم الغامر، والنّهوض بأعباء الرّئاسة، والاستظهار في أنحاء السّياسة، وتديب المسالك والمهالك، والمدائن والممالك، والميل إلى ذوي الأخطار، وأعلام الآداب. فهم يكرعون من جدهم في أعذب المشارع، وأكرم الموارد.

هذا إلى ما حباه الله في خاص وعام قصده من مُحييات القلوب، ومزيات القبول. فإنّ العزيز الشّريف والتّبت الرّفيع إذا أشر بالدّونة المعطف، وسهولة الملتقى، والمختبر ترجما عن الكمال، ووفرأ ابهة الجلال. وهذا الثناء منّي ليس على طريقة المادحين فأتجوّز، ولا

قصدي فيه قصد المجتدير فأتسمح، بل إملأ طول الصّحبة بلسان الخبرة، فعليه فيه حكم الحق والمعلوم مع تواطؤ الأخبار عنه وشهادة الإثارة له، وتوارد الوسائل فأقبل بتغاير أبوابه، واثال عليّ وتسابق أجزائه، وفصوله تنساق إليّ كأنه كان من رباط الشّد في عقال فأنشط، ومن حفاظ المنع في وثاق فأهمل، وييد الله تعالى أمره تسهيل المراد وتعجيل الفراغ بحوله ومنه.

واعلم أنّ رؤساء الأمم أربعة بالاتفاق: العرب، وفارس، والهند، والروم وهم على طبقاتهم في الذكاء والكيس، والدّهاء، والكيد، والجمال، والعناد وتملك الممالك والبلاد، والسياسة والإيالة، واستنباط العلوم وإثارة الحكم في جوامع الأمور ومعلوم شأنهم معروف أمرهم، وما في على طبقاتهم في الغباوة والعظاظة وسوء الفهم والدّراية والقسوة، والغدامة، والنوك، والجهالة مراعون لما رهنوا به وقيضوا له، وقد صاروا إلى وجوه المعاش، وفنون الممارسات، والإغراب في أسرار الصناعات، والإبداع في أنواع التركيبات، انفتح لهم من أبواب المعرفة، وحسن التّوفيق في الإصابة، ما لم يفتح لهم في سواه وذلك ما لا يدرك غوره من غرائب حكمة الله تعالى فيما دبر، وامضى وإن كان للعرب خاصة طبع عجيب في الأخبار، والاستخبار، والمباحثة، والاستكشاف، وسرعة إدراك ما يسفر عن الأواخر عند النظر في الأوائل، فحصل لهم بذلك أخلاق عادت مفاخر، وأفعال صارت مناقب، مع ثبات فيما يعز، وجلد، وبيان ولدّد، وافتنان في الخطب والشّعر والرّجز على اختلاف أنواعها وتصاريف أساليبها، وعلى كثرة الأمثال الحكيمة، وطرائف الآداب الكريمة.

ثم لهم الفراسة الصّحيحة، والكهانة العجيبة، وصدق الفأل الحسن، والحسن المصيب مع العلم بأثر القدم في الصّخر الأصم، والقاع العفراء، وقيافة الأثر مع قيافة البشر، ليست لغير العرب لأنهم يرون المتفاوتين في الطّول والقصر، والمختلفين في الألوان والنّعم فيعلمون أنّ هذا الأسود ابن هذا الأبيض، وهذا القصير ابن أخ هذا الطّويل، مع الرّعاية لأنسابهم وأيامهم، ومحاسن أسلافهم ومساوىء أكفائهم، للتّعابير بالقبيح والتّفاخر بالجميل، وليجعلوه مبعثاً على اصطناع الخير، ومزجراً عن ادخار الشر، ولهم تبين أحوال النّجوم سعدا ونحسا، والأنواء ومقتضياتها والأمطار ومواقيتها، وبوارح الرّياح في إبانها وحينها، والرّجز المغني عن التّنجيم وحسن الاهتداء في المسالك المهلكة، والمرامي غير المسلوكة.

وهم على كلّ حال من عيشهم يخافون مأثور الحديث ويتجرّعون من غوارب البحار، ويحبّون المادحين وتقريظهم، ويؤثرون على أنفسهم الخيل، وعلى عيالهم الضّيفان أصحاب حياء وأنفة، وجود، وفروسية، وفخر، وهمة لا تطل دماؤهم ولا يعجز طوائلهم، ولا

يُنْسِيهِمْ طَوْلَ الْأَيَّامِ دَفَائِنَ أَحْقَادِهِمْ، يِرَاعُونَ الدِّمَمَ، وَيُوفُونَ بِالْمَوَائِقِ، وَيُوجِبُونَ الْجَوَارِ
بِاعْلَاقِ الدَّلُوِّ بِالدَّلُوِّ وَشِدِّ الطَّنْبِ بِالطَّنْبِ حَتَّى قَالَ زُهَيْرٌ:

وَجَارٍ سَارٍ مَعْتَمِداً عَلَيْنَا أَجَابَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
فَجَاوَرَ مَكْرَماً حَتَّى إِذَا مَا دَعَاهُ الصَّيْفُ. وَانصَرَمَ الشِّتَاءُ
ضَمَمْنَا مَا لَهُ فَعَدَا عَلَيْنَا جَمِيعاً نَقَضَهُ وَلَهُ النَّمَاءُ

ثُمَّ لَمْ يَرْضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِسْمِ الْوَاحِدِ، وَالْكُنْيَةِ الْوَاحِدَةِ، وَالنَّعْتِ الشَّرِيفِ وَالذِّكْرِ
الرَّفِيعِ وَالْمَنْصِبِ الْمَفْخَمِ، وَالْفَخْرِ الْمَقْدَمِ حَتَّى تَنْقَلُوا فِي أَسَامِي وَكُنَى كَمَا اكْتَنَى حِمْزَةُ بْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأَبِي يَغْلَى - وَأَبِي عِمَارَةَ، وَعَبْدُ الْعَزَى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأَبِي لَهَبٍ - وَأَبِي عَتَبَةَ،
وَصَخْرُ بْنُ حَرْبٍ بِأَبِي سُفْيَانَ - وَأَبِي حَنْظَلَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَأَبِي الْحُسَّامِ،
وَعِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي عَمْرٍو، أَوْ أَبِي لَيْلَى وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَبِي بَكْرٍ، وَأَبِي
حَبِيبٍ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

وَالَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ كُنَى كَثِيرٌ فِي الْعَرَبِ يُسَمَّى بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِسَمَاتٍ تَفِيدُ التَّفْخِيمَ
وَالْتَعْظِيمَ كَقَوْلِهِمْ: مَلَاعِبُ الْأُسْتَةِ، وَسَمِ الْفَرَسَانِ وَزَيْدُ الْخَيْلِ، وَمَحْكَمُ الْأَقْرَانِ وَأَشْبَاهُ
ذَلِكَ. فَهَذِهِ الْخِصَالُ تَخْتَصُّ بِهِمْ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا إِنْ شَغَلْنَا الْكَلَامَ بِهِ خَرَجْنَا عَنْ الْغَرَضِ
الْمَنْصُوبِ وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا شَاءَ، وَيَصْطَفِي بِفَضْلِهِ مَنْ شَاءَ، وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْعَلِيمُ، وَلَوْلَا اهْتِزَازِي لَتَقْدِيمِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ هَمَّةٌ بِرَّ أَشَادِ النَّفِيسِ، وَسُرْعَةُ إِجَابَتِي إِذَا أَهَابَ لِمَا
رَهَبْتُهُ، وَلِيَحْصَلَ لِي بِهِ الْفَالُ الْحَسَنُ وَالذِّكْرُ الْمُؤَبَّدُ، وَالِاتِّدَاذُ بِالْدِّخُولِ فِي جُمْلَةِ أَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْإِسْتِنَانِ بِسَنَنِهِمْ فِي إِذَاعَةِ مَا تَكْسِيهِمُ الْأَيَّامُ وَيَقْدِهِمُ الْإِجْتِهَادُ لَبَقِيَتْ فِي حَجَرِ الْفَنِّ
بِمَا أَوْرَدَهُ لَمَّا أَرَى فِي أَهْلِ الزَّمَانِ مِنْ اطْرَاحِ الْعِلْمِ، وَاحْتِقَارِ أَهْلِ الْفَضْلِ، وَلَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا
مَخَافَةَ الْخُرُوجِ إِلَى مَا يُعَدُّ سَرَفًا، بَلْ أَنْشُدُ قَوْلَ الْأَوَّلِ شِعْرًا:

إِذَا مَجْلِسُ الْأَنْصَارِ حَفَّ مِنْ أَهْلِهِ وَحَلَّتْ مَغَانِيهِ غِفَارٌ وَأَسْلَمُ
فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ وَلَا الدُّهْرُ بِالدُّهْرِ الَّذِي كُنْتُ أَعْلَمُ

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَرَبَ الشَّيْءِ فِي الْوَهْمِ لَيْسَ بِمَوْجِبِ حَصُولِهِ، وَلَا بَعْدَهُ فِيهِ يَقْتَضِي بَطُولَهُ،
وَهَذَا الْكِتَابُ لَيْسَ اخْتِيَارِي لِعِلْمِهِ لَغْلَبَتِهِ، وَلَا اشْتِغَالِي بِهِ عَنْ شِبْهِهِ لَكُنِّي حَصْنَتُهُ تَحْصِينَ
الْحِزْمِ، وَصَنْتُهُ صَوْنَ الْعَرَضِ الْمَكْرَمِ، فَهُوَ مَذْخُورَةُ الْمُتْلَهْفِ، وَعَقْدُ الْمَعْتَالِ الْمُحْتَكَمِ، ثَمَرُهُ
عِنْدَ الْيَنْعِ لَا يَخْلَفُ، وَمَاؤُهُ عَلَى الْمِيحِ لَا يَكْدُرُ.

وَقَدْ قِيلَ لِحَاضِنِكَ عَلَيْكَ حَقُّ اللَّبَنِ، وَلِتَرْتَبِكَ حُبُّ الْوَطَنِ، وَلِنَسْلِكَ حَرَمَةِ السَّكَنِ،
وَلِطَرَبِكَ خَلْعُ الرَّسَنِ، كَمَا أَنَّ لِمَا تَخْلُدُ بِهِ ذِكْرَكَ مِنْ نَثَرٍ أَوْ نَظْمٍ عَلَيْكَ شَرَفُ التَّحْلِيَةِ، وَحَسَنُ

التعت والتسمية، وجمع الفوائد الزكية، وهجر الهوى والعصية، وبيد الله تبليغ المراد وتوطير المرتاد.

واعلم أنَّ مدار الأدب على الطلب، وعمدته البحث، ومصرفه الرغبة، والحث وأزمة الجميع بيد القريحة فإذا سلمت القريحة من عوارض الآفات وتملست من شوائب الأقدار، والعاهات، وترقت في مدارجها من دلائل الرسوم إلى حقائق الحدود أقبلت تصنع في نيل المطلوب صنعة من طب لمن حب، وإني وإن أنشأت هذا الكتاب فما في نفسي إدعاء الفضل على الأسلاف؛ وكيف أستجيز ذلك ومن ذكرتهم ننفق، وبشهاداتهم نتوثق، وبين المسلم والمنازع ما بينهما من برزخ التضاد، ولكن لمن ضمّ النشر، وسوى في البناء التضد وتأنق في الإثارة، ثم بلغ وتناهى إلى الغاية، فسدد حقه من العمل. نسأل الله تعالى حسن التوفيق فيما نأتي ونذر، وعليه المعول في إيزاعنا شكر نعمته، وإعانتنا على ما تعرب من رحمته، ونعم المولى ونعم النصير.

هذا كتاب الأزمنة والأمكنة، وبيان ما يختلف من أحوالها ويتفق من أسمائها، وصفاتها، وأطرافها، وإقطاعها، ومتعلقات الكواكب منها في صعودها وهبوطها وطلوعها وغروبها، وجميع ما يأخذ أخذها، أو يعدّ معها، أو لا ينفك في الوقوع والاستمرار منها، أو متسبب بضرب من ضروب التشابه، أو قسم من أقسام التشارك إلى الدخول في أثنائها موشحة بما يصححها من أشعارهم وأمثالهم، وأسجاعهم ومقامات وقوفهم ومنافراتهم جادّين وهازلين، ومن كلام رؤادهم وورادهم وكتابهم في ظعنهم وإقامتهم وتبّعهم مساقط الغيث وبوارح الريح، وعندما يقيمون من الجذب، والخصب والسلم والحرب، وقرى الضيف في الشتاء والصيف، وأعيادهم، وحجهم، ونسكهم، ووجوه معاشهم ومكاسبهم، وآدابهم.

وقد صدرته بجميع آي من كتاب الله تعالى بعض حقائقه لثرد المعاني إذا شافهت الالتباس، بين الوجوب والجواز والامتناع فيتسع أمد القول ويمتد نفسه بحسب الحاجة وعلى قدر العناية، ومن أنكر في طلب الحق واجباً، أورد جائراً، أو جحد مُمتنعاً فقد صافح الخذلان. كما أنَّ من قصر وكده على ما لا يرد من دينه فائتاً ولا يعمر ثابتاً، فقد جانب حسن التوفيق. وعلى الله في الأحوال كلها المعول والتكلان.

وبعد الفراغ من ذلك أتبعته بالكلام في حقيقة الزمان والمكان، والرّد على من تكلم بغير الحق فهماً بعد تتبع لما أصله شديد، وبحث عنه بليغ، ورّد للسابق من دعاويهم على اللاحق^(١) على الوارد إذ كانا عندي كالأصل في إلحاد أكثر الملحدّين من الأوائل

والمُتَأَخَّرِينَ، وإذ كنتُ قد شِدت من قبل فصول ما ذكرت، ووصوله بلمعٍ من الكلام في المحكم والمتشابه والاستدلال بالشاهد على الغائب، وبيان أسماء الله تعالى وصفاته، وما يجوز إطلاقه عليه أو يمتنع لأن أطراف هذه الأبواب متعلقة بموارد الآي التي تكلفت الكلام فيها ومصادرها، ومستقيّة من العيون التي تحوم أطيارها حوله، وفي جوانبها ولأنّ الاشتغال به هو الغرض المرمي في تأليف حل هذا الكتاب وترتيبه، وتنسيقه هذا إلى غير ذلك مما خلا منه مؤلفات اللّغويين والتّحويين والباحثين عن طرائق العرب، وما يراعونه من مُعتقداتهم في الأنواء وغيرها، وإيمان من آمن منهم بالكواكب حتى عبدوها لما ألفوه من استمرار العادات بهم واطرادها على حد سالم من التبدّل والتحوّل.

ثم شرعت في الكتاب وتبويب معاطفه وتنويع أساليبه ومدارجه، وأستعينُ الله تعالى على بلوغ ما يزلّف عنده، ويستحقّ به مزيد الإحسان وأصحاب التوفيق الكامل منه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ذكر أبواب الأزمنة والأمكنة، وفصولها

هي ثلاثة وستون باباً، ونيف وتسعون فصلاً:

أ: في ذكر الآي المنهية من القرآن على نعم الله تعالى على خلقه في آناء الليل والنهار، وبيان النسيء، وفي ذكر أخبار مروية، وفي ذكر الأنواء، وذكر مُعتقدات العرب فيها وفيما يجري مجراه، وذكر فصل في جواب مسائل للمشهد من الكتاب والسنة، وفي بيان المحكم والمتشابه وغيرهما، وبيان أسماء الله تعالى وصفاته، وهو يحوي تسعة وعشرين فصلاً.

ب: في ذكر أسماء الزمان والمكان، ومتى تُسمى ظروفًا، ومعنى قول النحويين الزمان ظرف الأفعال، والرّد على من قال فهما بغير الحق من الأوائل والأواخر، ويحتوي على فصول أربعة.

ج: هو يشتمل على بيان الليل والنهار، وعلى فصول من الإعراب تتعلق بظروف الأزمنة والأمكنة، وفصوله ثلاثة.

د: ذكر ابتداء الزمان، وأقسامه، والتنبية على مبادئ السنة في جميع المذاهب، وما يشاكل من تقسيمها على البروج.

هـ: في قسمة الأزمنة ودورانها واختلاف الأمم فيها.

و: في ذكر الأنواء واختلاف العرب فيها، ومنازل القمر مقسمة الفصول على السنة، وأعداد كواكبها، وتصوير مأخذها ضارة، ونافعة، وفصوله أربعة.

ز: في تحديد سنّي العرب، والفرس، والزّوم، وأوقات فصول السنة.

ح: في تقدير أوقات التهجد التي ذكرها الله تعالى في كتابه عن نبيّه والصّحابة، وتبيين ما يتصل بها من ذكر حلول الشّمس في البروج الإثني عشر.

ط: في ذكر البوراح، والأمطار مقسمة على الفصول، والبروج، وفي ذكر المراقبة، وهو فصلان.

ي: في ذكر الأعياد والأشهر الحرم والأيام المعلومات والأيام المعدودات، والصلوات الوسطى، وهو فصلان.

يا: في ذكر سحر، وغدوة، ويكرة، وما أشبهها والحين والقرن والآن وأيان، وأوان، والحقبة، والكلام في إذ، وإذا، وهما للزمان وإيان، وإفان، وهو فصلان.

يب: في لفظة أمس، وغد، والحول، والسنة، والعام، وما يتلو تلو، ولفظة حيث، وما يتصل به، والغايات كقبل وبعد، وذكر أول وحيث، وقط، وإذ، وإذا المكانية، ومنذ، ومنذ، ومن، وعلى وهو فصلان.

يج: فيما جاء مثني من أسماء الزمان، والليل، والنهار، ومن أسماء الكواكب وترتيب الأوقات وتنزيلها، وهو أربعة فصول.

يد: في أسماء الأيام على اختلاف اللغات وقياسات اشتقاقها وتثنيها وجمعها.

يه: في أسماء الشهور على اختلاف اللغات، وذكر اشتقاقاتها، وما يتصل بذلك من تثنيها وجمعها، وهو فصلان.

يو: في أسماء الدهر واقطاعه، وما يتصل بذلك، وهو فصلان.

يز: في اقطاع الدهر، وأطراف الليل والنهار، وطوائفهما وما يتصل بذلك من ذكر الحوادث فيها، وهو ثلاثة فصول.

يج: في اشتقاق أسماء المنازل، والبروج، وصورها، وما يأخذ مأخذها، وهو فصلان.

يط: في اقطاع الليل، وطوائفه، وما يتصل بذلك ويجري مجراه.

لك: في اقطاع النهار، وطوائفه، وما يتصل بذلك ويجري مجراه.

كا: في أسماء السماء والكواكب، والفلك والبروج، وهو ثلاثة فصول.

كب: في برد الأزمنة، ووصف الأيام والليالي به.

كج: في حرّ الأزمنة، ووصف الأيام والليالي به.

كد: في شدة الأيام ورخاؤها وخصبها وجدها، وما يتصل بذلك.

كه: في أسماء الشمس وصفاتها، وما يتعلق بها.

كو: في أسماء القمر وصفاته، وما يتصل بها من أحواله، وهو فصلان.

كز: في ذكر أسماء الهلال من أول الشهر إلى آخره، وما ورد عنهم فيها من الأسجاع، وغيرها.

كح: في أسماء الأوقات، والأفعال الواقعة في الليل والنَّهار، وأسماء الأفعال المختصة بأوقات في الفصول والأزمان..

كط: في ذكر الرياح الأربع، وتحديدتها بها، وما عدل عنها، وهو فصلان.

ل: في أسماء المطر وصفاته وأجناسه، وهو فصلان.

لا: في السَّحاب، وأسمائه وتحليه بالمطر، وهو فصلان.

لب: في الرِّعد والبرق، والصَّواعق وأسمائها وأحوالها، وهو فصلان.

لج: في قوس قزح وفي الدائرة حول القمر، وفي البرد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [سورة النور، الآية: ٤٣]، وهو ثلاثة فصول.

لد: في ذكر المياه والنبات ممَّا يحسن وقوعه في هذا الباب، وهو ثلاثة فصول.

له: في ذكر المراتع الخصبة والمجدبة، والمحاضر، والمبادي، وهو فصلان.

لو: في ذكر أحوال البادين والحاضرين، وبيان تنقلهم وتصرف الزَّمان بهم.

لز: في ذكر الرِّواد وحكاياتهم، وهو فصلان.

لح: في ذكر الرِّواد ومن جرى مجراهم من الوفود.

لط: في السَّبر والتَّعاس، والمنيح، والاستقاء، وورود المياه.

م: في ذكر أسواق العرب.

ما: في ذكر مواقيت الضَّراب والتَّاج.

مب: فيما روي من أسجاع العرب عند تجدد الأنواء والفصول، وتفسيرها، وهو فصلان.

مج: في ذكر الصَّيام، والقيافة، والكهانة، وهو ثلاثة فصول.

مد: في ذكر ما لهم من الأوقات حتى لا يبين للسامع وما شرح منه.

مه: في الاهتداء بالنَّجوم وجودة استدلال العرب بها وإصابتهم في أمهم.

مو: في صفة ظلام الليل واستحكامه، وامتزاجه.

مز: في صفة طول الليل والنَّهار وقصرهما، وتشبيه النَّجوم فيهما.

مح: في ذكر السَّراب، ولوامع البروق، ومتخيلات المناظر، ووصف السَّحاب.

مط: في تذكُّر طيب الزَّمان، والتَّلهف عليه والحنين إلى الألف، والأوطان.

ن: في ذكر أنواع الظلّ وأسمائه ونُعوته.

نا: في ذكر التاريخ وابتدائه، والسبب الموجب له وما كانت العرب عليه لدى الحاجة إليه في ضبط آماذ الحوادث والمواليد، وهو فصلان.

نب: فيما هو متمم لما عند العرب ومن داناهم وأدركوه بالتفقد وطول الدّرية، ولم يدخل في أسجاعهم.

نج: في انقلاب طبائع الأزمنة، وثباتها، وامتزاجها، والاستكمال والامتحاق، وأزمان مقاطع النّجوم في الفلك، ومعرفة ساعات اللّيل من رؤية الهلال، ومواقيت الزّوال على طريق الإجمال.

ند: في اشتداد الزّمان بعوارض الجذب، وامتداده بلواحق الخصب.

نه: ويشتمل من حدّها على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزّمان.

نو: في ذكر الكواكب اليمانية، والشّامية، وتمييز بعضها عن بعض، وذكر ما يجري مجراها من تفسير الألقاب.

نز: في ذكر الفجر، والشّفق، والزّوال، ومعرفة الاستدلال بالكواكب وتبين القبلة.

نح: في معرفة أيام العرب في الجاهلية، وما كانوا يحرفونه ويتعاشون منه، وذكر ما انتقلوا إليه في الإسلام على اختلاف طبقاتهم.

نط: في ذكر أفعال الرّياح لواقحها، وحوائلها، وما جاء من خواصها في هبوبها وصنوفها.

نس: في ذكر الأيام المحمودّة للنّوء والمطر وسائر الأفعال، وذكر ما يتطيّر منه، أو يُستدفع الشرّ به.

سا: في ذكر الاستدلال بالبرق، والحمرة في الأفق وغيرهما على الغيث.

سب: في الكواكب الخمس، وفي هلال شهر رمضان.

سج: في ذكر مشاهير الكواكب التي تسمّى الثابتة، وهذه التسمية على الأغلب من أمرها إذ كانت حركة مسيرها خافية غير محسوسة.

الباب الأول

اعلم أنَّ الله تعالى عَظَّمَ شأن القرآن، وفصل بيانه بالتَّظْم العجيب والتَّأليف الرَّصيف على سائر الكلام، وإنَّ وافقه في مِبانِيه، ومعانيه ثم أودعهُ من صنوف الحكم، وفنون الآداب والعذر، وجوامع الأحكام والسير، وطرائف الأمثال والعبر، ما لا يقف على كنهه ذوو القرائح الصَّافية، ولا في بعد فوائده أولو المعارف الوافية، وإنَّ تلاخَّطَ آلاَتِهِم، وتوافقت أسبابُ التَّفْهَم والافْهَام فيهم، فترى المشتغل به المتأمل له، وقد صرف فكره إليه، وقصر ذكره عليه، قد يجد نفسه أحياناً فيه بصورة من لم يكن سمعه، أو كان بعد السَّماع نسيه استغراباً لمراسِمِهِ، واستجلاءً لمعالِمِهِ، وذلك أنه تعالى لما أنزله ليفتح بتزييله التَّحْدي به إلى الأبد، ويختتم بترتيله وآدابه البَذارة إلى انقضاء السَّنَد، على ألسن الرُّسل، جعله من التَّشْبِهات العِليَّة والخَفِيَّة، والدَّلالات الظَّاهرة والباطنة ما قد استوى في إدراك الكثير منها العالم بالمقلد، والمتدبِّر، والمهمَل.

وإنَّ كان في أثنائه أغلاق لا تنفتح الأشياء بعد شيء بأفهام ثاقبة، وفي أزمان متباينة، ليُتَّصَلَ أمد الإعجاز به إلى الأجل المضروب لسقوط التَّكْلِيف، ولتجدد في كل أوان بعوائده وفوائده ما يهيج له بواعث الأفكار، ونتائج الاعتبار، فيتبين ثناؤه الرَّاسخ المثبَّت، والنَّاظر المتدبِّر عن قصور الزَّائغ المتطرَّف وتقصير الملول الطَّرَف. لذلك اختلفت الفِرَق، واستُحْدِثَت المذاهب والطُّرُق، فكلُّ يطلب برهانه على صحة ما يراه منه، وإنَّ ضلَّ عن سواء السَّبِيل من ضلَّ لسوء نظره وفساد تأنيهِ، وعدو له عن منهاج الصَّحابة والتَّابعين وصالحِي الأسلاف، فلما كان أمرُ القرآن الحكيم على ما وصفت، وكان الله تعالى فيما شرع من دينه وحدَّ عليه من عبادته، ودعا إليه من تبيين صنعه وتبَيُّه ما أقامه من أدلَّتِهِ. قال: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٤] مبيِّناً أنه اخترعها بما يشتمل عليه حقاً لا باطلاً وحتماً لا عبثاً لتوفَّر على طوائف خلقه منافعها، ومثبتها من يصدق بالرُّسل، ويميز جوامع الكلم على بعد غورها في قضايا التَّحْصِيل وتراجع الأفهام، والأوهام عن تقصي مأخذها بأوائل التَّكْلِيف.

ثم كرّر ذكرها في مواضع كثيرة في جملتها ما يقتضي الكشف عن نظومها وتصاريفها لما يكشفها من الغموض، وكان مبنى التأليف الذي هو مبني على كتب لا يتم من دون الكلام عليها بترتيبه، بأن جعلتها مقدّمة ثم تجاوزت إلى ما سواها والله المُعين على تسهيل المُراد منه بمنه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٣] الآية، وصفَ الله تعالى نفسه فيما بسط من كلامه هنا بفصول أربعة، كلّ فصل منها عند التأمّل جملة مكثّفة بنفسها عن غيرها، ودالة على كثير من صفاته التي استبدّ بها.

فالفصل الأول قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾، والمعنى في قوله: بالحق، أنّ الحكمة البالغة أوجبت ذلك، ففطرها ليدلّ على نفسه بها ويظهر من آثاره العجيبة فيها ما تحقّق إلهيته وثبت قَدَمه، وربوبيته ويظهر أنّ ما سواه مُدبّر مخلوق ومسخر مقهور، وأنه الحقّ تمّ له ما أحدثه، وأنشأه لا يبطل، ووجبت له العبادة من خليقته بقول فصل لا بهزل، فحجّته بيّنة وآياته محكمة، لا تخفى على الناظر، ولا تلبس على المتأمّل المباحث إذ كانت الأبصار لا تدركه، والحواس لا تلحقه، فعرف عباده قدرته، والزّمهم بما غمرهم من منافع ونعمة عبادته، فلا مانع لما منح، ولا واهب لما ارتجع، أو حرّم تسليمًا لأمره ورضى بحكمه.

والفصل الثاني قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٣] قوله: ويوم نصب على الظرف، والعامل فيه ما يدلّ عليه قوله الحق، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: يقول لأنه قد أضيف اليوم إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وقوله: فيكون معطوف على يقول، وما بعد القول، وهو جملة تكون حكاية في كلامهم، وكن في موضع المفعول ليقول، وقد أبان الله هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ لَنُ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤] لأنّ معنى الحكاية ظاهرٌ فيه ومفهوم منه، وإذا كان الأمر على هذا فقوله: كن، حكاية، والمعنى فيه إيجاب خروج الشيء المراد من العدم إلى الوجود. وقوله: فيكون بيان حسن المطاوعة من المراد وتكوّنه، وليس ذلك على أنّه مخاطبة المعدوم، ولكنّ الله تعالى أراد أن يُبين على عادة الآمرين إذا أمروا كيف يُقرّب مراده إذا أراد أمراً، فأخرج اللفظ على وجه يفهم منه ذلك، إذ كان لا لفظ في تصوير الاستعجال، وتقريب المراد أحضر من لفظة كن فاعلمه. وتلخيص الآية وإذا كان يوم البعث والنشر والسوق إلى الحشر يوجب وقوع المكون بقولنا: كن، فيقع بحسب الإرادة لا تأخير فيه ولا تدافع، لأنّ حكمنا فيه المحقوق الذي لا يُبدل، ولأنّ الملك فيه للملك الذي لا يُغالب ولا

يُمَانَعُ، فقولوه في الفصل الأول: بالحق - أي بما وجب في الحكمة وحسن فيها. وقوله في الفصل الثاني قوله الحق - أي المحقّق الذي لا يحول ولا يغيّر إذ كان البدء لا يجوز عليه، وأوائل الأمور في علمه كأواخرها.

والفصل الثالث قوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٣] يُريد به أنه في ذلك الوقت مُتَّفَرِّدٌ بتدبير الفِرَقِ والأمم وتزليلهم منازلهم من الطاعة والمعصية، كما أبدأهم فكما كان تعالى الأوّل لِقْدَمِهِ يكون الآخر لبقائه، لا مُشَارِكٌ له، ولا مُؤَاوِزٌ، وأَيِّنَ منه قوله في موضع آخر: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر، الآية: ١٦] وهذا حال المعاد، والمعنى إذا أردنا سوقهم بعد الإمامة للتشر لم يخفَ علينا شيء من أحوالهم لأننا نملكهم، فأمرنا حَتْمٌ لا تخيّر وفور لا تأخير، والإحصاء يجمعهم، والإدراك يعمهم. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٣] لم يُشِرْ به إلى وقت محدود الطرفين ولكن على عادة العرب في ذكر الزّمان الممتد الطويل باليوم، فهو كما يُقال: فعل كذا في يوم فلان، وعلى عهد فلان.

الفصل الرابع: قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٣] يريد أنه لا يخفى عليه ما فيه لأنّه العالم لنفسه فلا يغرب عنه أمر، والغائب عنده كالحاضر والبعيد كالقريب وهو حكيم فيما يمضيه عليم فيما يقضيه. لا يذهب عليه شيء من أحوال عبادته، ومن مواعيده فيحشرهم جميعاً، ويوقّهم مستحقّهم موفوراً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٧] إلى يسبحون، قوله: نسلخ منه النهار أي نخرجه منه إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، ألا ترى قوله في موضع آخر: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٥]، وفي هذا دلالة بيّنة على ما تذهب إليه العرب من أنّ الليل قبل النهار لأنّ النسلخ والكشف بمعنى واحد يبين ذلك أنّه يُقال: كسّطت الإهاب، والجلد عن الشيء، وسلخته أي كسفتّه، والنّسْلَاحُ الإهاب نفسه، وسلخت المرأة درعها نزعته، وسلخت الشهر: صرث في آخر يوم منه، وسلّخ الحيّة جلدها، وإذا كان ذلك، وكان الله تعالى قال: الليل نسلخ منه النهار، والمسلوخ منه يكون قبل المسلوخ فيجب أن يكون الليل قبل النهار، كما أنّ المغطى قبل الغطاء قوله: فإذا هم مُظْلِمُونَ - أي داخلون في الظلام يُقال: أظلم الليل إذا تغطى بسواده، وأظلمنا دخلنا في ظلمات، وهذا كما يقول: أجبتنا وأشملنا - أي دخلنا في الجنوب والشمال، وأنجدنا، وأتهمنا أي آتيناهم، ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [سورة - يس، الآية: ٣٨] وهذا يحتمل وجوهاً من التأويل.

أ - أن يكون المراد جرئها لاستقرار يحصل له إذا أراد الله وقوفها للأجل المضروب

لانتقضاء وقت عادتها في الطلوع والأفول.

ب - أن يكون المراد بالمستقر وقوفها عنده تعالى يوم القيامة، والشاهد لهذا قوله في آية أخرى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [سورة القيامة، الآية: ١٠، ١١] فهو كقوله في غير موضع: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، ﴿وَالِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٥]، ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٤٥].

ج - أن يكون المعنى أنها لا تزال جارية أبداً ما دامت الدنيا تظهر وتغيب بحساب مقدر كأنها تطلب المستقر الذي علمها صانعها فلا قرار لها؛ ويشهد لهذا الوجه قراءة من قرأ والشمس تجري لا مستقر لها، وذلك ظاهر بين يوضحه قوله تعالى بعقبه: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٨]، أي تقدير من لا يُغالب في سلطانه ولا يجاذب على حكمته، قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٩]، الآية. برفع القمر على، وآية لهم الليل وإن شئت على الابتداء، وينصب على، وقَدَرْنَاهُ والعُرْجُونَ) عود لعذق الذي تسمى الكباسة تركبه السماريخ مثله الأثكول والعثكول من العذق، فإذا جفّ وقدم دقّ وصغر وحيث يشبهه الهلال في أول الشهر وآخره.

وقال أبو إسحاق الزجاج: وزنه فعلول لأنه من الانعراج، وقال غيره: هو فعلول لأنه كالقتلول، ومعنى الآية وقَدَرْنَا القمر في منازل الثمانية والعشرين، وفي مأخذه من ضوء الشمس، فكان في أول مطلع دقيقتاً ضئيلاً، فلا يزال نوره يزيد حتى تكامل عند انتصاف الشهر بدرأ، وامتلائه من المقابلة نوراً، ثم أخذ في النقصان بمخالفته لمحاذاة، وتجاوزه لها حتى عاد إلى مثل حاله الأولى من الدقة والضوالة وذلك كله في منازل الثمانية والعشرين لأنه ربما امستر ليلة، وربما امستر ليلتين فمُشابهة الهلال للعرجون في المُستهل والمُنسلخ صحيحة.

فأما قوله: حتى عادَ فكانه جعل تصوّره في الآخر بصورته الأولى في الدقة مراجعة، ومعاودة. والقديم يُراد به المتقدم كما قال في قصة يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٩٥]. وقال الفراء القديم يقال لما أتى عليه حول. وقيل أيضاً: معنى عادَ صارَ، ويشهد لذلك قول الشاعر:

أطعتُ العرمَ في الشهواتِ حتى تعودَ لها عسيفاً عبدَ عبدٍ

ولم يكن عسيفاً قط، وقال امرؤ القيس:

وماء كلون البولِ قد عادَ أجناً قليل به الأقواتُ ذي كلاً مُخلٍ

أي صار، وقال الغنوي:

فإن تكن الأيام أحسن مرةً إليّ فقد عادت لهنّ ذنوبٌ

قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [سورة يس، الآية: ٤٠]، يعني ينبغي لها. أي: لو كانت تطلب إدراك القمر لما حصلت لها بغيتها، ولا ساعدتها طلبتها يُقال: بغيت الشيء، فانبغى لي. أي طلبته، فأطلبني، وإذا لم ينبغ لها لو طلبت، فيجب أن لا يحصل الفعل منها البتة، لأن الإدراك معناه اللّحوق وسببه الذي هو البقاء ممنوع منه، فكيف يحصل للسبب؟ وأيضاً فإن سرعة سير القمر وزيادته على سير الشّمس ظاهر فهو أبداً سابق لها بسرعه، وتلك متأخرة لبطوّها، وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [سورة يس، الآية: ٤٠] محمول على وجهين.

الأول: أن يكون المعنى بالسّبق أوّل إقباله وآخر إدبار النّهار.

والثاني: أن يكون المعنى آخر إدبار النّهار وأوّل إقبال الصّبح، وسبق اللّيل النّهار بإقباله أن يقبل أوّل اللّيل قبل آخر إدبار النّهار وهذا ما لا يكون.

وأما سبقه إياه بإدباره، فإن سبق آخر إدبار اللّيل أوّل إقبال الصّبح قبل كونه، وهذا أيضاً لا يكون، ولا يجوز كونه لأنهما ضدّان يتنافيان ويتعاقبان فلذلك لم يجر سبق اللّيل النّهار في شيء من أحواله.

وقيل معنى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي ليس لها أن تطلع ليلاً، ولا القمر له أن يطلع نهاراً لأن لكلّ منهما شأنًا قُدّر له ووقتاً أُفرد به، فلا يقع بينهما زاجر فيدخل أحدهما في حد الآخر قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، الآية: ٤٠] أي كلّ واحد منهما له فلّك يدور فيه فلا يملك انصرافاً عنه؛ ولا تأخراً إلى غيره، ولفظ الفلك يقتضي الاستدارة أي وكلّ له مكان من مسبحه مستدير يسبح فيه أي يسير بانبساط، ومنه السّباحة، وقال تعالى لنبيّه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية: ٧] ولا يمنع أن يكونَ يشير بقوله: في فلّك إلى الذي هو فلّك الأفلاك، وإذا جعل على هذا فهو أبهر في الآيات، وأدلّ على اقتدار صانعه وإنّما قال: يسبحون لأنّه لما نسب إليها على المجاز والسعة أفعال العقلاء المميّزين جعل الاخبار عنها على ذلك الحد، ومثله: ﴿رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٤] وهذا كثير.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] الآية نبه بهذه الآية، ويقول إنّ عدّة الشهور الآية على نعمه على خلقه فيما إن شاء حالاً بعد حال لهم، وابتدعه وما عرف مصالحه وقتاً بعد وقت، فيما قدّر لهم فكر وذكر ونصب للحاضرة والبادية من الأعلام والأدلة بالمنازل والأهله، ومطالع النجوم السيّارة وغير السيّارة حتى جعلت

مواقيت وآجالاً، ومواعيد، وآماداً، فعرفوا حلالها وحرامها ومُعاملها ومُعاديها وذا العاهة منها مما لا عاهة معها؛ وتبينوا بطول التجارب أضرَّها أنواء، وأعودها أمطاراً، وأعرَّها فقداناً، وأهونها أخلاقاً، فأخذوا لكلِّ أمرٍ أهبةً، ولكلِّ وقتٍ عدَّةً، إلى كثيرٍ من المنافع والمضار التي تتعلق باختلاف الأهواء وتفاوت الفصول والأوقات؛ ومن تدبَّر قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢]. ثم فكَّر في تميز أحدهما عن الآخر باختلاف حالهما في النور، والظلمة، والظهور والغيبة، ولماذا صارا يتناوبان في أخذ كلِّ واحد منهما من صاحبه، ويتعاقبان في إصلاح ما به مصالح عباده وبلاده؟ وكيف يكون نموُّ القمر من استهلاله إلى استكمالهِ ونقصه، وانمحاه من ليالي شهره وأيامه؟ وأتى يكون اجتماع الشَّمس والقمر، وافتراقهما، وتساويهما، وتباينهما، ظهر من حكمة الله تعالى له إذا تدبَّر، ورَدَّ آخره على أوَّلِهِ، وولي كلِّ فصلٍ منه ما هو أولى به.

ثم سلك مدارجها، وتتبَّع بالنظر معالمها ومناهجها أدبها الحال إلى أن يصيرَ من الراسخين في العلم به تعالى وبمواقع نعمه، وآثار ربوبيته، ألا ترى أنه لو جعل الليل سرمداً، أو جعل النهار أبداً لانقطع نظام التعايش، وانسدَّت أبواب النُّمو والتزايد، وتآدَّى انقلاب التدبُّر إلى ما شرَّحه بتعذر فسبحانه من حكيم رؤوف بعباده رحيم.

وقد سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن نقصان القمر وزيادته، فأنزل اللَّهُ تعالى: أَنَّ ذَلِكَ لِمَوَاقِيتِ حِجْجِكُمْ، وعمرتْكُمْ، وحل ديونكُمْ وانقضاء عدة نسائكُمْ، وقوله تعالى: ﴿آيَةُ اللَّيْلِ، وَآيَةُ النَّهَارِ﴾ إضافتهما على وجه التبيين والشَّيْء، قد يضاف إلى الشَّيْء لأدنى علاقة بينهما، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٥]. ولما كان هو المؤجل، وقال في موضع آخر: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣٤] لما كان الأجل لهم، فكذلك قوله: ﴿آيَةُ اللَّيْلِ، وَآيَةُ النَّهَارِ﴾، يعني الآية التي يختصُّ بهما هذا في إضافة الغير إلى الغير.

فأما إضافة البعض إلى الكلِّ فقولك: خاتم حديد، وثوب خز، فلا يمنع دخوله فيما نحن فيه، ويكون المعنى أَنَّ الآية الممحوة كانت بعض الليل، كما أَنَّ الخاتم، يكون بعض الحديد، كأنَّ الليل ازداد بالمحو آيتها سواداً، ويُقال: دمت ممحوة إذا درست آثارها وآياتها، ويُقال: محوت الشيء، أمحوه، وأمحاه وفي لغة علي محيته، وحكى بعضهم: محاً الشيء ومحاه غيره، وكتاب مح، وممحو ومحوة، اسم لريح الشمال لأنها تمحو السحاب، والمحو المطرة التي تمحو الجذب ومن كلامهم تركت الأرض محوة إذا جددت كلها.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون عنى بآية النَّهَارِ الشَّمس، وبآية اللَّيْلِ القمر، وعنَى بالمحو ما في ضوء القمر من النقصان، وحكى عن السلف أَنَّ المراد بالمحو الطَّخَاء الذي

في القمر قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] هو على طريق النسبة أي ذات إبصار، وفي موضع آخر: ﴿وَالنَّهَارِ مُبْصِرًا﴾ [سورة يونس، الآية: ٦٧] أي مضيئاً وكما يقال هو ناصب أي ذو نصب، ويجوز أن يكون لما كان الإبصار فيها جعله لها، كما يقال رجل مخبئ إذا صار أصحابه خبئاً، ونهاره صائم، وليله قائم.

وقال أبو عبيد يريد قد أضاء للناس أبصارهم، ويجوز أن يكون كقولهم: أصرم النخل أي أذن بالصرام، وأحمق الرجل إذا أتى بأولاد حمق وقوله: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] مثل قوله في موضع آخر: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [سورة يونس، الآية: ٦٧] ومثل قوله: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٧] وفي آخر: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [سورة النبا، الآية: ١١] ومثل قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة القصص، الآية: ٧٣] وهذه الآي، وإن تشابهت في معانيها، فقد اختلفت تفاصيل نظومها، فقوله: ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي يغشى كل شيء من الحيوان وغيره فيصير ذا دعة وسكون وانقطاع عما يعالجه في النهار لابتغاء الفضل فيه، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وقت معاش، والمعاش، والمعيش ما أعان على الحياة به مما الحياة به، وليس الحياة، قال أُمِيَّة:

ما أرى من معيشي في حياتي غير نفسي

وقد قال أبو العباس محمد بن يزيد: ثم يرى تفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد كلاً إلى ماله يُريد مثل قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا﴾ والسكون في الليل، والابتغاء في النهار، ومثله: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٢] وإنما هو من أحدهما، فإن قال قائل: ما تصنع على هذا بقول سيبويه: لا يقول لقيته في شهري ربيع إذا كان اللقاء في آخره قال: وكذلك لا يجوز أن يقول لقيته في يومين، واللقاء في أحدهما. قلت: هذا الذي قال صحيح لأن ذكر الشَّهر الذي لم يكن فيه اللقاء، فصل ولكن لو وصفت الشهرين بما يكون في واحد منهما فجمعت الصفة فيهما كان جيداً، وذلك قولك في الشتاء يكون المطر ويقعد في الشمس أي هذا وهذا، وكذلك في شهري ربيع تأكل الرطب والتمر أي هذا في أحدهما، وهذا في أحدهما كما يقول: لو لقيت زيداً وعمراً لوجدت عندهما نحواً أو خطأ، إن كان النحو عند أحدهما، والخط عند الآخر فليس هذا بمنزلة الأول لأن اللقاء في أحد الشهرين والآخر لا معنى لذكره البتة.

قال أبو العباس: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ١٩] ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٠] ثم خبر بفضائلهما فقال:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٢] وإنما خرج من الملح لا من العذب ولكنه ذكرهما ذكراً واحداً فخبر بما يتضمنانه. وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة القصص، الآية: ٧٣]، فالسكون في الليل والاكساب في النهار، ولكن كما جمعهما في الذكر ابتداء جمعهما في الخبر انتهاء، افتناناً في النظم وتبحراً في السبك وثقة بأن اللبس عنه بعيد كيف رتب وفي قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] إشارة إلى التواريخ وضبط مبالغ الديون والمعاملات وآمادها ومواقيتها، وما فيه معاشهم وريائهم وعليه تبتنى منافعهم ومصالحهم، وقد دخل تحت ما ذكرنا ما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَفْصِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] وإن كانت هدايته أبلغ، ومجامع بيانه من اللبس أبعد، فأما قوله تعالى من الآية الأخرى التي أوردتها مُستشهداً بها جعل الليل لباساً أي للتودع والسكون يُقال في فلان ملبس أي مُستمتع.

قال امرؤ القيس شعراً:

ألا إنَّ بعدَ العدم للمرءِ فنيةٌ وبعَدَ المشيبِ طولُ عمرٍ وملبِسا

وقال ابن أحمر:

لبستُ أبي حتَّى تعلَّيتُ عمره وملَّيتُ أعمامي وملَّيتُ خاليا

ويجوز أن يُريد باللباس السَّتر لأنَّ الليل غطاء كل شيء وستره كما قدَّمنا، والأحسن الأول يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧] وجعل العلة فيما أحلَّ منهنَّ لهم من الرَّفَثِ إليهنَّ كون الجميع لباساً أي مستمتعاً وقوله: ﴿والنوم سباتاً﴾ أي راحةً وأمناً ويُقال: رجل مسبوت إذا استرخى ونام وسبت فلان العمل بالفتح إذا ترك العمل واستراح وانسبت البسرة، إذا لانت وقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٧] مثل قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية: ٧] أي ذهاباً وتصرفاً في طلب الرزق، ولما كان النشور في النهار جعله على المجاز نفسه، كقولك: فلان أكل وشرب على تقدير هو ذو أكل فحذف المضاف، أو لغلبة الفعل عليه، جعله كأنه الفعل على هذين الوجهين يحمل قوله شعراً:

ترنَّعُ ما رنَّعتُ حتَّى إذا اذكَّرتُ فإتما هي إقبالٌ وإدبارُ

وهو يصف وحشية. قال بعض أصحاب المعاني النشور في الحقيقة الحياة بعد الموت بدلالة قوله شعراً:

حتى يقول النَّاسُ مما رأوا يا عجباً للميتِ النَّاشِر

وهو في هذا الموضع الانتباه من النوم والاضطراب من الدعة، وكما سمى الله تعالى نوم الإنسان وفاة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٤٢] كذلك وفق بين إبقاء من الموت في التسمية بالتشور.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٥] الآية قوله ألم تر لفظ استفهام وحقيقة البعث على النظر والمعنى انظر حتى تتعجب إلى ما مده الله من الظل وإنما قلنا هذا لأن المد مدرك متبين وتبين كيفيته يبعد في الوهم فكيف في الإدراك فلا يعلمه إلا الله وهذا على عاداتهم في التفاهم بينهم يقولون: رأيت كذا، والمراد أخبرني وأرايتك وألم تر كذا وهل رأيت كذا، ولم تر إلى كذا، وألم تر كيف كذا؟ والفصل في أكثره أن تعق المخاطب على ما تجب منه من المدعو إليه، وقد استعمل هل رأيت معدولاً به من حيث المعنى على ظاهره أيضاً؟ وذلك كقول القائل: متى إذا جنّ الظلام، واختلط جاءوا بمذق؟ هل رأيت الذئب قط؟ ويسمى مثل هذا التصوير لأنّ المعنى جاؤوا بمذق أوراق فصوّروا الورقة بلون الذئب، فأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٨] فمعناه أرايت كالذي حاجّه بين ذلك ما عطف عليه من بعد لأنه تعالى قال: ﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٩] لأنّ المعنى على ذلك، والكلام جار على التعجب، ولقطة إلى تأتي إذا حملت أرايت على النظر.

فأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [سورة الفيل، الآية: ١] فالمعنى ألم تعلم ولا يحتاج إلى ذكر إلى.

والمراد بالظل عند بعضهم الذي يكون بعد طلوع الفجر في انبساط وقبل طلوع الشمس وظهورها على الأرض، وقد قال أهل اللغة في الفرق بين الظل والقيء إنّ الظل يكون بالغداة والعشي، والقيء، لا يكون إلا بالعشي لأنه اسم للذي فاء من جانب إلى جانب. ومنه قولهم فيء المسلمين للغنائم والخراج الزاجعة إليهم. وقد جاء ما يفيد فائدته في صفة الظل في مواضع، منها أكلها دائم وظلّها. ومنها قوله: وظلّ ممدود، فجعل ما في الجنة ظلالاً فيئاً، وكان رؤية يقول: الظل ما لم تنسخه الشمس، وهو أول والقيء ما نسخته الشمس، وهو آخر، وقالوا: الظل بالغداة والعشي، والقيء بالعشي، وقيل أيضاً: الظل يكون ليلاً ونهاراً، والقيء لا يكون إلاّ بالنهار، وما نسخته الشمس ففيء وكان في أول النهار فلم تنسخه الشمس، وقيل الظل لليل في كلام العرب قال:

وكم هجرت وما أطلقت عنها وكم ربحت وظلّ الليل دان

فجعل ليل ظلاً وقول الآخر وتفيئوا الفردوس ذات الظلال، اتساع أيضاً لأنه جعل للأفياء ظلالاً فأما قوله شعراً:

فلا الظل من برد الضحى نستطيعه ولا الفياء من برد العشي ندوق
فقد فصل بينهما قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٥] سئل عنه
متى كان متحركاً فقليل: معنى السكون ها هنا الدوام والثبات، ألا ترى أنك تقول للماء
الساكن الواقف ماء دائم وراكد ويمكن أن يقال: إنَّ السَّاكِنَ ها هنا من السَّكَنَى لا من
السكون أي لو شاء لجعله ثابتاً لا يزول كما أنَّ سَكَنَى الرجل الدَّار يكون إذا قام وثبت.
وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٥] يُراد به أنه لولا الشمس لما
عرف الظل، فالله تعالى يقبضه ويبسطه في اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وعلى هذا يكون الدليل بمعنى
الدَّال.

وقال بعضهم المعنى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ونسخته أي أتبعناها إياه
قال: وبذلك على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٦] أي
شيئاً بعد شيء فعلى طريقته يكون دليلاً فعلياً في معنى مفعول لا في معنى الدَّال، وروي عن
الحسن أنه كان يقول: يا بن آدم أما ظلك فسجد لله، وأما أنت فتكفر بالله.

وقال بعضهم: وقد أحسن ما قال: الظل من آيات الله العظام الدالة بإلزامه الإنسان منه
ما لا يستطيع انفكاكاً عنه، فدلَّ بذلك على لزوم القمر له ولسائر الخلق قال الله تعالى:
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤْنَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ
دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٨] فظلال الأشياء تمتد عند طلوع الشمس من المشرق طولاً
ثم على حسب ارتفاع الشمس في كبد السماء تقصر حتى ترجع إلى القليل الذي لا تكاد
تحس، وحتى يصير عند انتصاف النَّهَارِ في بعض الزَّمان بمنزلة التعل للابسهاء، ثم يزيد في
المغرب شيئاً شيئاً حتى تطول طولاً مفرطاً، قبيل غروب الشمس وإلى غروبها. ثم يدوم
اللَّيْلُ كله، ثم يعود في النَّهَارِ إلى حاله الأولى، فالشمس دليل عليه لولا الشمس ما عرف
الظل، فالله بقدرته القاهرة يقبضه ويبسطه في اللَّيْلِ والنَّهَارِ. وإنما قال: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لأنَّ
الظل بعد غروب الشمس لا يذهب كله دفعةً واحدة، ولا يقبل الظلام كله جملةً واحدة،
وإنما يقبض الله تعالى ذلك الظل قبضاً خفياً و شيئاً بعد شيء، ويعقب كل جزء منه بقبضه
بجزء من سواد اللَّيْلِ حتى يذهب كله، فدلَّ الله على لطفه في معاقبته بين الظل والشمس
واللَّيْلِ، ومن كلامهم وردته والظل عقال وطباق وحذاء. وقال:

ولو احقت أخفافها طبقا والظل لم يفضل ولم يكر

أي لم ينقص، ويقولون: لم يزل الظل طارداً أو مطروداً، ومحولاً، وناسخاً،
ومنسوخاً، وسارقاً، ومسروقاً، وكل الذي ذكرت عند التحصيل بيان وتفصيل لما أجمل فيما
قدمته، وسيجيء من صفات الظل وأسمائه في باب ما تزداد به أسأ بما ذكرناه.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٨] الآية فقولُه: من شيء من دخلت للتبيين كدخولها مع المعرفة في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٣٠] والمعنى من شيء له ظل كالشخص، ومن هذه قد تجيء مع النكرة فتلزم ولا تحذف تقول: من ضربك من رجل وامرأة فاضربه. هذا في الجزء كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما كرهوا حذف من لأنهم خافوا أن يلتبس الكلام بالحال إذا قلت إلى ما خلق الله شيئاً، ومعنى الحال ها هنا بعيد فالزموه من ليعلم به أنه تفسير وتبيين لما قد وقع غير مؤقت يكشف هذا أنك لو قلت: لله درّه من رجل، جاز أن يقول: لله دره رجلاً، ومن رجال فإنك قد أمنت الالتباس بالحال إذا لم يكن ذلك موضعه.

فأما قولك: لله درك قائماً، فإنما جاز سقوط (من) لأن الذي قبله مؤقت فلم يبال التباسه بالحال، قوله تعالى: ﴿يَتَفَتَّحُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٨] معناه ما قدّمته في بيان قوله تعالى: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٥] وكشفه أن جميع ما خلقه عز وجل ظلّه يدور معه ويمتدّ لا ينفك منه حتى لو رام انسلاله من دونه لما قدر عليه يصحبه مقبلاً ومُدبراً، وكيف مال زائداً عليه وناقصاً منه ليذكره عجزه، ويصوّر له أنه على تصرفه المتين في لزام أضعف قرين وذلك تفيؤة أي ترجعه يمنة ويسرة ومتنعلاً من تحت، ومعتلياً من فوق على حسب اختلاف الأحوال، فيكون للأشخاص فيء عن اليمين والشمال إذا كانت الشمس على يمين الشخص، كان الفيء عن شماله، وإذا كانت على شماله كان الفيء عن يمينه، وقيل: أول النهار عن يمين القبلة، وفي آخره عن شمال القبلة، ومعنى قوله: ﴿سُجِّدَ لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٨] أنها بأثار الصنعة فيها خاضعة لله تعالى، وذكر السجود قد جاء في هذا المعنى في غير هذا الموضع قال: (غلب سواجد لم يدخل بها الحصر)، وقال آخر:

يُجْمَعُ تَضَلُّ الْبَلَقُ فِي حِجْرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سَجْدًا لِلْحَوَافِرِ

والمراد الاستسلام بالتسخير والانقياد.

فأما قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [سورة الكهف، الآية: ١٧] بعد أن قال: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ١١] فمعنى ضربنا على آذانهم أي أمتناهم، ومنعناهم الإدراك، ويقال في الجارحة: إذا أبطلتها ضربت عليها، وفي الممنوع عن التصرف في شيء ضربت على يده، ومعنى تزاور، وتزور تنحرف عنهم، أي تطلع على كهفهم ذات اليمين ولا تُصيهم، والعرب تقول: قرضته ذات اليمين، وقرضته ذات الشمال، وقرضته قبلاً وقرضته دبراً، وحذوته ذات اليمين وذات الشمال، أي كنت بحذائه من كلّ ناحية، وأصل القرض القطع - أي تعدل عنهم وتركهم.

وقيل: إِنَّ بَابَ الكَهْفِ كان بإزاء بنات نعش فلذلك لم يكن الشَّمْسُ تطلع عليه وإنما جعل الله تعالى ذلك آيةً فيهم، وهو أَنَّ الشَّمْسَ لا تقربهم في مطلعها ولا عند غروبها. وقال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٦] وقد بين الله المراد بما ذكرنا في آية أخرى فقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١٥] يُريد الانقياد في الطاعة من الملائكة والمؤمنين في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وأنه يستسلم من في الأرض من الكافرين كرهاً وخوفاً من القتل، وظلالهم بالغدو، والآصال يؤدي ما أودع من آيات الحكم وغرائب الأثر فسبحانه من معبود حَقَّتْ له العبادة من كلِّ وجه، وعلى كل حال فلا يتوجه إلا إليه وإن قصد بها غيره، ولا تليق إلا به دون من سواه والدَّآخِر: الصَّاعِر، ويُقال: تَقَيَّأت الشَّجَرَةُ بظلها إذا تميَّلت. فأما قوله شعراً:

تَبَّعَ أَفْيَاءَ الظَّلَالِ عَشِيَّةً على طرقٍ كأنهن سبوبُ

فإنما أضاف الأفياء إلى الظلال لأنه ليس كل ظل فيئاً، وكل فيء ظل، وتحقيق الكلام تتبع ما كان فيئاً من الظلال، ومثله في الاتساع قول الآخر:

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخِيَّةٍ وفاز باللحم للقوم المراجيلُ
لأن المنصوبة هي الأخيية، ويُقال: أَظْلَّ القوم عليهم أي أوقعوا عليهم ظلالهم، وإنما قال: وَهُمْ داخرون، لأن المنسوب إليها من أفعال العقلاء، فأعيرت عبارتهم، وقد مضى مثل هذا.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٧] إلى تظهرون.

اعلم أَنَّ قولك: سُبْحان مصدر كقولك: كفران، وغفران إلا أَنَّ فعله لم يستعمل، ولو استعمل لكان سُبْح مثل كفر وغفر، ومعناه التباعد من أَنْ يكون له ولداً، ويجوز الكذب عليه والتَّنْزِيه له، والبراءة من السَّوء وكل ما ينفي عنه إلا أنه التزم موضعاً ولم يجر مجرى سائر المصادر في التصرف والاستعمال. وذلك أَنَّهُ لا يأتي إلا منصوباً مضافاً وغير مضاف، لكنه إذا لم يضاف ترك صرفه فقيل: سُبْحان من زيد، قال الأعشى شعراً:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فخر فسُبْحان من علقمة الفاخر

فلم يصرفه لأنَّه معرفة في آخره ألف ونون زائدتان فهو كعثمان، وسفيان كأنَّه أجرى مجرى الإعلام في هذا، وهم يحملون المعاني على الدَّوَات في تخصيصها بأشياء كالإعلام لها، وعلى ذلك أسماء الأفعال، فأما قولهم: سَبَّحَ تسبيحاً، فهو فعل بُني على سُبْحان، ومعنى سَبَّحَ الله، أي قال: سُبْحان الله فهو عروض قولهم: بِسْمَلٍ إذا قال بسم الله، وقد

أطلق سبّح في وجوه سوى هذا.

منها الصلوة النافلة يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ١٤٣] أي من المصلّين، وهو مُستفيض أنّ السّبحه هي النافلة، وكان ابن عمر يُصلي سبّحته في موضعه الذي يُصلي فيه المكتوبة.

ومنها الاستثناء كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [سورة القلم، الآية: ٢٨] أي لولا تستثنون. وقيل: هي لغة لبعض أهل اليمن وليس للكلام وجه غيره لأنّه تعالى قد قال: قبل ذلك: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَشْنُونَ﴾ [سورة القلم، الآية: ١٧-١٨] ثم قال: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [سورة القلم، الآية: ٢٨] فأذكّرهم تركهم الاستثناء، والمراد من الله تعالى أن يعرفنا عبادته ويُعلمنا حمده وما يستحق به إذا أقمناه وكأنه قال: سبّحوا الله في هذه الأوقات وتذكروا في كلّ طرف منها ما يجدد عندكم من أنعامه، ثم قابلوا عليه بمقدار وسعكم من الحمد والتسبيح. قوله: حين تمسون وحين تصبحون - أي إذا أفضيتم إلى الصباح والمساء وحق النظم أن يكون حين تمسون وحين تصبحون وعشياً وحين تظهرون، لكنه اعترض بقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٨] ومثل هذا الاعتراض إلا أنه أبين الفعل والفاعل قوله شعراً:

وقد أدركتني والحوادثُ جمّةً أسنة قوم لا ضعافٍ ولا نكل عُزلٍ
وفي القرآن: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ وَإِنَّهُ لَفَرَّقَانُ كَزِيمٌ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٥-٧٦-٧٧]، ففصل بين اليمين وجوابها كما ترى، وحسن ذلك لأن المُعترض يؤكّد المُعترض في الأوّل، والحمد إذا اقترن بالتنزيه والتسبيح صار الأداء أوفر بهما وأبلغ، والصّبح، والصّباح، والإصباح كالسمي، والمساء، والإمساء، وهذا مما حمل فيه التقيض على التقيض، وعلى هذا المصباح والممسي، وجاء فالحق الإصباح، ويعني به الصّبح وصبّحت القوم أتيتهم صباحاً، أو ناولتهم الصّبح، ويقولون: يا صباحاه إذا استغاثوا، والمصباح السّراج، واصطبحت بالزيت، والصّباح قرط المصباح الذي في القنديل والعشي آخر النهار، فإذا قلت عشيّة: فهي ليوم واحد، والعشي السّحاب لأنّه يغشى البحر بالظلام الذي يتلخّص به الآية أن يعلم أنّ المساء منه ابتداء الظلمة كما يكون من الصّبح ابتداء النور، والظّهيرة نصف النهار، وفلان يرد الماء ظاهرة إذا ورد كلّ يوم نصف النهار يقول، فعلموا الله تعالى بما يدلُّ عليه آياته في الصّباح والمساء، والغدو، والزّواح فإنّ في معنى كلّ لمحة من هذه الأوقات بما يحويه من غرائب صنع الله في تبديل الابدال، وتحويل الأحوال وإبلاج اللّيل في النهار والنّهار في اللّيل إيجاب شكره علينا معشر عباده مؤتلف،

وإلزام حمده ببقاء الزمان متصل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٨] يريد به في أهل السماوات والأرض، فهو على حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ والمراد أهلها، والمعنى أنه محمود في كل مكان وبكل لسان.

وذكر بعض المفسرين أن قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٧] الآية دالة على أوقات الصلوة، وهذا سائغ وإن كانت الفوائد فيما ذكرناه أعم وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] الآية، منها على أوقات الصلوة مجملاً، وتاركاً تفصيلها وبيانها للنبي ﷺ، والدلوك مختلف فيه فمنهم من يجعله الزوال ومنهم من يجعله الغروب، وهذا كما اختلفوا في الآية الأخرى وهي: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٣٨]، فمنهم من قال: أراد بالوسطى العصر، ومنهم من قال: أراد بها الفجر ويجوز أن يكون المفروض بقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] أربع صلوات في النهار صلاتان: الظهر والعصر، وفي الليل صلاتان: المغرب والعشاء الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] أي يشهده الملائكة، ويجوز أن يكون المراد حقه أن يشهد، والغسق الظلمة. فأما اختصاص السموات والأرض بالذكر من بين الأشياء كلها فلشمولها لكل مخلوق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣] والمعنى وهو الذي يحق له العبادة، وإذا كان كذلك فكل مذكور معلوم داخل فيهما، ويكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣] خبراً ثانياً أي هو إله في الأرض كما هو إله في السماء لا يخفى عليه خافية.

ويحتمل أن يكون المراد وهو الله في السموات أي هو معبود فيها، وقد تم الكلام ويكون قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣] على أنه خبر ثان، والمراد أنه معبود في جميع ذلك عالم بالسر والجهر. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٨٤] أن الخلق يؤلهون إليه - أي يفزعون في الشدائد إليه مستعينين به^(١) وأهل الأرض متساوون في حاجتهم إلى رحمته وجميل تفضله. فأما قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٨٤] فإنه مشترك غير مخصوص وجاز فيه الجمع كما جاء: إجعل الآلهة إلهاً واحداً.

وكما قال: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وهو يعمل عمل الفعل، ألا ترى أن قوله:

(١) كذا في الأصل، والظاهر، وأهل السماء، وأهل الأرض ١٢ الحسن النعماني.

﴿وهو الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ الظَّرْفُ فيه متعلق بما في الإله من معنى الفعل وفي تقديره وإعرابه عدة وجوه: منها أن يقال: إنَّ العائد إلى الذي محذوف كأنَّه قال: وهو الذي هو في السَّمَاءِ إله وفي الأرض إله، وساغ حذف العائد بطول، وهي قوله في السَّمَاءِ إله وفي الأرض إله، وهذا كما حكى عنهم ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، وقد قال الخليل: إني أستحسنه إذا طال الكلام فهذا وجه، ويجوز أن يقال: إنه مرتفع بالابتداء وخبره في السَّمَاءِ وفي الأرض والعائد إلى الذي هو الذي يعود إلى إله لأنَّ الذي هو في المعنى والحمل على المعنى مذهب أبي عثمان، وقال مع ذلك لولا كثرت لرددته، ومثله قول القائل: أنت الذي فعلت، وقوله: (أنا الذي سمعني أُمِّي حَيْدَرُهُ) والقياس فعال، وسمته وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣] الظَّرْفُ لا يتعلق بالاسم أعني لفظة الله على حد ما يتعلق بإله إلا على حد ما ذكره لك، وهو أنَّ الاسم لما عرف منه معنى التدبير للأشياء وإبقائها بحفظ صورها في نحو: أنَّ الله يمسك السَّمَوَاتِ والأرض أن تزولا، ونحو: ويمسك السَّمَاءُ أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ونحو: أَمَّن جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، صار إذ ذكر كأنه ذكر المدبِّر والحافظ فيجوز أن يتعلَّق الظَّرْفُ بهذا الذي هو الاسم العالم بعد أن صار مخصوصاً وفي حكم أسماء الأعلام التي لا معنى فعل فيها، فهذا بمعنى الاسم، وما كان يدل عليه من قبل من معنى الفعل.

وعلى هذا تقول: هو حاتم جواداً، وهو أبو حنيفة فقيهاً، وهو زهير شاعراً، فتعلق الحال مما دخل في هذه الأسماء من معنى الفعل لاشتهارها بهذه المعاني، فلا ترى أنك لا تقول: هو زيد جواداً ما لم يعرف بذلك وعلى هذا تقول: هو حاتم كلِّ الجواد، وهو أبو حنيفة كلِّ الفقيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣] الآية، لما كان الله تعالى خالق الأشياء ومُبتدعها، ومُدبِّر الأفلاك ومسخرها، وكانت الأبصار لا تدركه، والأقطار لا تحده، وأراد مع ذلك أن يعرف نفسه إلى من يتعبده من خلقه لتسكن نفوسهم إلى مصطنعهم فيعتصموا به ويتمسكوا بدعائه أحالهم على مراده من ذلك بآثاره وآياته في أرضه وسمائه، إذ كان الطريق إلى معرفة الشيء أما أن يكون بما يؤدي إليه رواتب الحس، وهي الأجسام والأعراض، أو بما يبرهن عليه دلائل الصنع، وهو ما يكشف عند الاستدلال، فأعلم المُشركين فيما أنزله أنَّ الذي يجب تعظيمه ويحق ربوبيته هو خالق السَّمَاوَاتِ والأرض في ستة أيام، فتوصلوا إلى معرفة ما نصبه من أدلته، فسيشهد لكم من جلائل قوَّته وعزَّته ما يزيد في البيان على ما يصل إليه الواحد منكم بحاسته ويصوِّر لكم النَّظَرُ بما مهل في أوائل عقولكم ما تميَّز الشَّكُّ من اليقين لكم وتخلَّص الصفو من الكار.

في معتقدكم، فالآلة تامة، والعلّة متزاحة، وما كلف بما كلفتم إلا بحكمة بينة، وطريقة في فنون الصّواب ثابتة، وإنما خلقهما في ستة أيام ليعرف عباده أن الفرق في الأمور، وترك التعجل هو المرضي المختار في التدبير لأنّه تعالى لو شاء أن يخلقهما في أدنى اللّمحات، وأوحى^(١) الأوقات لما مسّه فيما يأتيه إعياء ولا لغوب، ولا أعجزه كلال ولا فتور.

وإنما أراد أن يحدثه حالاً بعد حال لتدرك ثمرات عبرهم شيئاً بعد شيء، وليتأدّب أولو البصائر بآياته، وحمله قرناً بعد قرن، يبين هذا أنه تعالى نهى نبيه عليه السلام فيما يتلقاه من وحيه، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقرضي إليك وحيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [سورة طه، الآية: ١١٤] وقال أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٢٣-٢٤]، ثم جعل فيما نزله مجملًا ومطلقًا ولو شاء لجعل الكلّ مفسرًا، ونعى على الكفار لما قالوا: لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة. وقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٣٢] وهذا أحسن.

وقال بعض مشائخ أهل النّظر: لو أراد الله تعالى أن يخلقها ويخلق أضعافاً كثيرة معها لفعله، وهو عليها قادر لكنه جعلها في ستة أيام ليعتبر بذلك ملائكته الذين كانوا يشاهدونه، وهو يحدث شيئاً بعد شيء في هذه الأيام الستة عبرة مجددة، ويستدل بكل ما يحدث دلالة مُستأنفة وليكون ذلك زيادةً في بصائرهم، والحجة التي يقيمها عليهم، فقل له في ذلك: إن كان ذلك حكمةً فيجب أن يطرد في جميع ما خلقه وليس الأمر على هذا على أن ذلك ليس بسائع لأنّ الملائكة لا يستغنون عن مكان يحويهم وإذا كان لا مكان في العالم إلا السّماء والأرض فليس يعقل كون الملائكة قبل كونهما.

ويمكن أن يُقال: في هذا والله أعلم أنه تعالى أعلمنا أنه أحدث شيئاً بعد شيء حتى وجدت عن آخرها في ستة أيام، ويبيّن لنا بذكر الأيام الستة ما أراد أن يعلمنا إياه من الحساب الذي لا سبيل لنا إلى معرفة شيء من أمور الدّنيا والدّين إلا به، كما قال: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٥] الآية. فأصل جميع الأعداد التامة ستة، ومنها: يتفرع سائر الأعداد بالغاً بذلك ما بلغ إذ كان ما عداها من الأعداد ناقصاً، أو زائداً.

ألا ترى أنّ لهذا النّصف وهو ثلاثة والثلث، وهو اثنان، والسدس، وهو واحد، وإذا حسبت جميعها كانت ستة، وعند من يعتني بهذا الشأن أن نظير الستة من العشرات ثمانية وعشرون، وكذلك لها في كل من المئتين والألوف نظير واحد، فالستة أول الأعداد التامة

كما أنَّ التسعة مُنتهى الأنواع كلها الأحاد والعشرات والمئات والألوف لاشتغالها على الفرد، وهو واحد والزَّوج وهو اثنان والزَّوج والفرد، وهو ثلاثة والزَّوجين، وهو أربعة، وقد انتهى أنَّ ما يجيء من بعد يكون مكرراً، وإذا حسبت الجميع كان تسعة، فكأنه سبحانه من حكيم أراد أن يكون انتهاء خلقه للعالم بأسره إلى عدد تام فيما يحصى كما أنَّه في نفسه تام لا بخس فيه ولا شطط فيما يروى ويتلى.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في موضع آخر: **وإن كان فيه زيادة بيان، وسنحكم القول في جميعه لأن ما فيه من زيادة بيان نقيضه إن شاء الله تعالى.**

وقوله تعالى: **﴿قُلْ أَنتُكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾** [سورة فصلت، الآية: ٩] إلى **﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾** [سورة فصلت، الآية: ١٠] يريد ما أضيف إليه لولا ذلك لما كان لقوله سواء للسائلين معنى فكأنه قال في تمام أربعة أيام سواء لمن يسأل عن ذلك، ثم قال: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾** [سورة فصلت، الآية: ١١] إلى **﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾** [سورة فصلت، الآية: ١٢].

واعترض بعض الملاحدة فقال: هذا باطل إنكم وفقتم بين التفصيل في هذه الآية وبين الإجمال في الآية المتقدمة، بأن تقولوا: قوله في أربعة أيام، يريد مع اليومين الذين خلق الأرض فيهما، فما قولكم في قوله: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾** الآية. فدلَّت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء.

وقال في موضع آخر: **﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾** إلى **﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾** [سورة النازعات، الآية: ٢٧، ٣٠] فدلَّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض.

والجواب أنه إنما كان يحد الطاعن متعلقاً لو قال: والأرض بعد ذلك خلقها، أو أنشأها وإنما قال: دحاهها، فابتدأ الخلق في يومين، ثم خلق السموات وكانت دُخَاناً في يومين، ثم دحا بعد ذلك الأرض أي بسطها ومدّها وأرسلها بالجبال وأنبَت فيها الأقوات في يومين فتلك ستة أيام وليس أحد أنه تعالى لها في ستة أيام إلا كتكوينه إياها في غير مدة ولا زمان لكن الحكمة التي دللها عليها أوجبت تقسيمها والإتيان بها على ما ترى.

وقال في موضع آخر: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** [سورة يونس، الآية: ٣] وكان عرشه على الماء، وهذا أبلغ في الأعجوبة أن يكون العرش هذا البناء العظيم على الماء وإنما يراعى في أسباب الأبنية ووضع قواعدها أن يكون على أحكم الأشياء فهو مثل ابتداع أعيانها وإقامتها بلا عهد ولا علاقة. وقوله: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾** [سورة فصلت، الآية: ١١] أي قصد خلق السماء كما خلق الأرض سواء، وعمد إليها بعقب خلقها من غير

حائل بينهما وذلك تكوينه لهما جميعاً كما أراد. وهذا كما يُقال: فعلنا كذا، ثم استوينا على طريقنا، أو استمررنا فيها سائرين ولم يشغلنا عن الامتداد شاغل. قال زهير في مصداق ذلك:

ثم استمروا وقالوا إنّ موعدكم ماءً شرقي سلمى فيداور كل
ويروى ثم استووا، وتنادوا، وقد كان الله تعالى قبل تسويته إياها على ما هي عليه
خلقها دخاناً، فكون بعد ذلك من الدخان سماءً وشمساً وقمرأً وكواكب ومنازل وبروجاً
وقوله: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣] يُريد الاستيلاء، والملك يدل عليه قول
بُعِث:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

يعني بشر بن مروان لما ولي العراق، والعرش يحتمل أن يكنى به عن الملك وإن كان
الأصل فيه ما يتخذ الملوك من الأسيرة، ولهذا قيل لقوام أمر الرجل العرش، وإذا اضطرب
قيل ثلّ عرشه، ويحتمل أن يُراد به السماوات والأرض لأنّ كلها سقف عند العرب، ويقال:
عرشت الشيء، وسمكت، وسقفت، وسطحته بمعنى، ويكون مجيء ثم على هذا النسق
خبراً على خبر لا لترتيب وقتٍ على وقت ومثل هذا قول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جدّه

وذكر بعض شيوخ أهل النظر أنّ ثم إنما هو لأمر حادث، واستيلاء الله على العرش
ليس بأمر حادث بل لم يزل مالكا لكل شيء، ومستولياً على كل شيء فيقول: إنّ ثم لرفع
العرش إلى فوق السماوات وهو مكانه الذي هو فيه فهو مستولٍ عليه ومالكٌ له فثم للرفع لا
للإستيلاء، والرفع محدث، قال ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ
مِنْكُمْ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣١] لأنّ حتّى يكون لأمر حادثٍ وعلم الله ليس بحادث. وإنّما
المعنى يجاهد المجاهدون ونحن نعلم ذلك وإنّما قال هذا لأنه لم يعرف ما ذكرناه من الوجه
الثاني في ثم، ومعنى يغشى الليل النهار أي يغطي ضياءه ونوره، فهو كقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ
فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٩] قوله: يطلبه حيثاً أي يطلب الليل
النهار، والحديث السريع، وذلك كما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [سورة
يس، الآية: ٤٠] جعل التعاقب كالطلب وقد مرّ القول في ذلك مستقصى.

قوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢] أي بإرادته وانتصب القمر وما
بعده بالفعل، وهو خلق، ومسَخَّرَات انتصبت على الحال أي سَخَّرت بالسير، والطلوع
والغروب. قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٥٤] المراد بالخلق

المخلوق وللأمر في اللغة وجوه تجيء ومعناه الإرادة والحال ومصدر أمرت، وتختص هنا بالإرادة على ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [سورة الروم، الآية: ٥٤]. والمعنى الأمر كله له لا شريك معه في شيء ولا معين، ولا وزير، ولا ظهير. وإن إرادته هي النافذة لا ترتد ولا تبوء، ولا تتوقف، ولا تكبو، بل يحصل المراد على الوجه الذي يريده بلا تعب ولا نصب.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة غافر، الآية: ٦٤] تمجيد وتجليل، وهذا تعليم من الله كيف يُمجد كما أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٢]، تعليم كيف يحمد، والعالمين الخلائق. وقال بعضهم: هو من العلامة لأنه بآثار الصنعة فيه يدل على الصانع فهو كالعلامة له في الأشياء، وقيل هو من العلم كأنه علم الصانع جرى مجرى قولهم الخاتم والطابع لأنه يختم بهما الشيء ويطبع، ثم اختير له جمع السلامة لغلبة العقلاء الناطقين. وقوله تعالى من الآية الأخرى: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٩] بعد قوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تبيكث للمخاطبين وإزاراً بهم. وإن أمثال كيدهم لا يعبا بها ولا تأثير لها مع خالق أصناف الأشياء كلها على اختلاف فطرها. وتلخيص الكلام. أنكفرون بمن هذه آثاره، وتجدون نعمه عليكم، مع إدعاء شركاء له ذلك رب الأرباب وخالق الأرض والسموات، وهو لنا ولكم بمرصاد.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [سورة فصلت، الآية: ١١] بيان التكوين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية: ١١] بيان حسن الطاعة، وسرعة التكوين لكنه لما جعل العبارة مبنية على الإبتداء والجواب بالألفاظ المستعارة والأمثال المضروبة لتمكن في نفوسهم وتعشش في صدورهم جرياً على عادتهم في أفانين الكلام، وأساليب التصاريح في الاستفهام والأفهام، وإخراجهم ما لا نطق له البتة في صورة الناطق حتى صارت أجوبة أسند لهم إذا واجهوها، وإن كانت من عندهم كأنها من مخاطب، إذ كان اعتبارهم يغني عن الجواب والمجيب، حتى قال بعضهم: إذا وقفت على المزارع المرفوضة والديار الدارسة المتروكة فقل: أين من شقق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ أين من بنى دورك وأسّس ربوعك وعرّش سقوفك؟ فإنها إن لم تجبك جواراً أجابتك اعتباراً. فعلى هذا الذي رتبنا الكلام صار ظاهر بناء الأمر بالإتيان طَوْعاً أَوْ كَرْهاً إيجاباً لحصول الفعل حتى لا معدل عنه إذا كان وقوع الفعل من الفاعلين لا يقع إلا على أحد هذين الوجهين، وهذا كافٍ لمن تدبر.

فأما الطوع والكراه والطائع والمكروه واستعمال الناس لهما فيما يثقل أو يخف ويهون أو يشتد فظاهر، وقد قال الله تعالى في قصة ابني آدم: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [سورة

المائدة، الآية: ٣] أي سهّله عليه ودمثته. وأما التأنيث في قال لها رَقَالَتَا فَلِلْفِظِ السَّمَاءِ والأَرْضِ وكونهما في لغتهم مؤنثين، وأما جمع السَّلَامَةِ في طائعين فأما أجرى عليهما من خطاب المميزين، وقد مضى مثله. وروي في التفسير أَنَّ ابتداء خلق الأرض كان في يوم الأحد، واستقام خلقها في الإثنين، وبارك فيها وجعل فيها رواسي في تنمة أربعة أيام مستويات تامّات للسائلين عنها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١١] أي عمد فقضاهن سبع سماوات في يومين أي أحكهما وفرغ منهما قال الهذلي:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قُضَاهُمَا داود أو صنع السَّوَابِغِ تَبَغْ

وقيل: اللَّام في للسائلين تعلق بقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١٠] والمعنى قدر الأقوات لكل محتاج إليها سائل لها، والأول أحسن في النظم وأجود، ويجوز أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد لبنائها من غير فصل ولا زمان كما يقال لمن كان في عمل وأريد منه إتمامه وترك الانقطاع عنه استقم ما أنت عليه ومعنى: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١٠] أي جبلاً ثوابت تمسكها، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبا، الآية: ٦، ٧] وقوله: ﴿سَوَاءٌ﴾ المُتَّصِبُ عَلَى الْمَصْدَرِ أي استوت سواء، واستواء، ويجوز الرفع على معنى وهي سواء أي مستويات. ويجوز الخفض على أن يكون صفة لقوله في: ﴿أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءٌ﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١٠] والمعنى مستويات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١١] المراد بالوحي الإرادة والتكوين، والمعنى أخرج كل واحدة من السَّمَاوَاتِ على اختلافها على ما أراد كونها عليه وقدرها من مراده قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٨] وكما جعل السَّمَاوَاتِ سبعاً شداداً كذلك خلق الأرض سبعاً طباقاً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ١٢] وقوله: ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١٢] يريد جعلنا الكواكب زينة للسماء وحفظناها من مُسْتَرْقَةِ السَّمْعِ، فالمصابيح يُسْتَضَاءُ بها في الأرض ليلاً ونهاراً، وقال: ﴿وَحِفْظًا﴾ لأنها بالليل رجوم للشياطين، وانتصب بفعل مقدر كأنه. قال: زَيَّنْتُ بِمَصَابِيحَ، وحفظت بها حفظاً، ثم ختم القصة بأن قال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فُصِّلَت، الآية: ١٢] نبه على حكمته فيما فعل وقدرته وأنه العالم بعواقب الأشياء حتى تقع وفق إرادته.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦١] إلى ﴿شُكُورًا﴾ أراد بالبروج الحمل، والثور إلى الحوت، فالفلك مقسوم بها، وكل برج منها ثلاثون قسمًا، ويُسمى الدَّرَجُ وإنما قَسَمَ الفلك بهذه القسمة ليكون لكل شهر برج منها لأنَّ

القمر يجتمع مع الشَّمْس في مدة هذه الأيام اثنتي عشرة مرة، فجعلت السَّنة إثني عشر شهراً، وهي التي تسمى الشهور القمرية، وجعل الفلك اثني عشر برجاً لأنَّ الشَّمْس تدور في هذا الفلك دوراً طبيعياً فتمت انتقلت من نقطة واحدة بعينها عادت إلى تلك النقطة بعد ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وقريب من ربع يوم ويستعد فيها فصول السَّنة التي هي الرِّبيع والصَّيف والخريف والشتاء. ولهذه العلة سُميت هذه الأيام سنة الشَّمْس.

فلما كانت العرب تُراعي القمر ومنازله، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في قسمة الأزمان والفصول والحكم على الأحداث الواقعة في الأحوال والشهور مُراعاة عجيبة. ولهم في ذلك من صدق التأمل واستمرار الإصابة ما ليس لسائر الأمم حتى تستدل منها على الخصب والجذب، ويعتمد منها على ما تبنى أمورهم عليه في الظن والإقامة ذكَّروهم الله تعالى بنعمته عليهم فيها، وعلى جميع الخلق ودعاهم إلى إقامة الشكر عليها ليستحقوا المزيد، فقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة نوح، الآية: ١٥] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ [سورة يونس، الآية: ٥] فقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ تعليم منه أي قولوا تبارك، والمعنى دام ذكره وثبت بركته عليكم ويمناً واستدامة الخير ونفعاً.

وأصل البروج في اللغة الحصون، فاستعيرت على التشبيه وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦١] أي الشَّمْس وقد كرر ذكر الأنوار والظلم في عدة مواضع؛ ولم يجعل لفظة السراج من بينها إلا للشَّمْس، وذلك لشيء حسن وهو أنَّ الضياء والنور والمصباح وما أشبهها من أسماء ما يستضاء به لا يقتضي شيء منها أن يكون في الموصوف به اتقاد وحمى إلا الشَّمْس، فنبه تعالى على ذلك فيه بأنَّ سماه سراجاً، ولا تسمى سراجاً حتى يكون محرقاً، وكشف الله تعالى عن المُراد بقوله في موضع آخر: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [سورة النبأ، الآية: ١٣]. والوهج ضوء الجمر واتقاده، فلهذا خصَّ الشَّمْس بأنَّ وصفت بالسراج وهذا بين. قوله: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٢] أي مختلفة يجيء هذا خلف هذا، وهذا خلف هذا، ويجوز أن يريد به أنها تجيء وبعضها يخلف بعضاً لأنها لا تستقر إلا بهذا بل تتابع وتختلف في قصورها ويكون شاهد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩٠]. وانتصاب خليفة يجوز أن يكون على الحال، وقوله: ﴿لَمَن أَرَادَ﴾ مفعولاً ثانياً لجعل، والمعنى صير اللَّيْل والنَّهَارَ على اختلافهما لمن أراد تذكراً، أو تشكراً، واللَّام في لمن تعلق بجعلنا، ويجوز أن يتصب خليفة على أنه مفعول ثانٍ لجعل، واللَّام في لمن تعلق بها حيثنَّ أي صير خليفة لهم ومن أجلهم والوجه في تفسير خليفة حيثنَّ أن يكون من الخلافة لا من الاختلاف فاعلمه،

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ روي عن الحسن فيه أنه قال: من فاته^(١) عمله من التذکر والتشکر كان له في الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

وتلخيص الآية من أراد الاستدلال على الله، فتفكر في آلائه التي لا تضبط وتذكر أنعمه التي لا تُحصى كانت أوقات الليل والنهار ميسرة له مهياة، فليأت منها كيف شاء، والشكر كل ما كان طاعة وثناء على الله، ويكون بالفعل والقول جميعاً قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٣] قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: ١٧] ومن تأمل هذا التوسيع من الله عليه حتى لا وقت من أوقاته إلا وله أن ينقطع فيه إلى الله من غير تضيق ولا مدافعة علم أن الله تعالى شكور كريم يقبل الإنابة كيف اتفقت، فنعتمه عند إنعام من شكره مثل نعمته حين يبتدىء من صنيعه، فسبحانه من منعم في كل حال.

ومنه قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة المرسلات، الآية: ٢٩] إلى ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا﴾ لم يرد به الأمر بالانطلاق وإنما هو مقدمة يأس من الأمور وبعث على الأخذ في غيره على هذا قوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقْنَا مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا﴾ [سورة ص، الآية: ٦] وهذا في المعنى كقولهم: طفق يفعل كذا، وأقبل يأمر بكذا، وقم بنا نفعل وإن لم يكن، ثم اقبال وقيام ويقولون: ذهب يقول في نفسه وإن لم يكن منه ذهاب لأن المراد ما كان مهياً لذلك وفي صورته وعلى هذا قولهم: تعال نفعل كذا وهلم نأخذ في كذا قوله تعالى: ﴿إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ الذي كذبوا به في الدنيا هو البعث والتشور وملائكة الله وكتبه ورسله وشيء من ذلك لم يوجهوا إليه إنما المراد صيروا إلى ما كنتم تحذرونه وتخوفون له فلا تعباؤن به ولا تنزجرون لمكانه وهذا تبكيك وتقريع.

قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [سورة المرسلات، الآية: ٣٠] ذكر أهل التفسير أنه يخرج لسان من النار فتحيط بهم كالسرادق، ثم تنشعب منه ثلاث شعب من الدخان فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم ويساقون إلى النار ولا يمنع أن يكون المراد انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من شذائد عقابه وأليم سخطه. ويكون انطلقوا الثاني شرحاً للأول، وكالتفسير له والمراد انطلقوا من العذاب إلى ما يلزمكم لزوم الظل ولا روح فيه ولا راحة من الحركة، كما كنتم ألفتيموه في الدنيا عند الحرب من لفح الهاجرة ولهب الحرور إلى الظلال الثابتة بل يرمي بشرر يتطاير، وكأنها في عظمها جمالات صفر، والجمالات جمع جمالة، وزيدت التاء توكيد التأنيث الجمع. وهذا كما يقال: بحر وبحارة وذكر وذكرارة، وقد قرأ ابن

مسعود جمالة، وقرىء جمالات وهو أكثر في القراءة وأقوى ولا تمنع في قراءة ابن مسعود أنها الطائفة منها، ويُراد بالجمالات الطوائف، وهذا كما يُقال: جمال، وجمالان، قال: عند التفرق في الهيجاء جمالان، ويكون جمالات، وجمال كحبال، وحبالات، وبيوت، وبيوتات للطوائف، وقد قيل: رجال ورجالة كرجالات في كلامهم يريدون ما فسرت وبينت لأنّ رجال نهاية الجمع ورجالة إذا جعلتها للطائفة فهي دونه، ومعنى صُفِرَ سود قال: هي صفر ألوانها كالزَّغب.

وقد قيل: جعلها صفراً لأنّ لون النَّار إلى الصّفرة قوله تعالى: ﴿يَشْرِقُ كَالْقَصْرِ﴾ [سورة المرسلات، الآية: ٣٢] قيل فيه: واحد القصور والتشبيه بها لعظمها، وقيل: القصر بسكون الصاد جمع قصرة، وهي الغليظ من الشجر وقرىء كالقصر بفتح الصاد وهي أعناق الإبل. فأما تكرير التشبيه وجعلها أولاً كالقصر وفي الثاني كالجمالات فكأنه أراد بالقصر الجنس فتحصل الموافقة لأنّ الجنس كالجمع في الدلالة على الكثرة؛ أو أراد تشبيه الشجرة الواحدة بالقصر، فإذا توالى شراً كثيراً فهي كالجمالات، فعلى هذا حصل التشبيه للواحد وللجمع والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا ظِلِيلٌ﴾ فهو كقولهم: داهية دهياء، ونهار أنهر، وليل أليل، وليلة ليلاء يتبعون الشيء بصفة مبنية منه. والمراد المُبالغة والتأكيد. وقال: ﴿ظِلٌّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [سورة المرسلات، الآية: ٣٠] لأنها محيطة بأهلها من جميع الجوانب إلاّ اللقاء لأنها لا تقف نفسها وعلى هذا كل ذي ظل إذا تأملته ويشهد للإحاطة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ قُوَّةٍهُمْ ظِلٌّ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ﴾ [سورة الزمر، الآية: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ قُوَّةِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٥٥]، وقال بعض أصحاب المعاني: في (ثلاث شُعب) المراد أنه غير ظليل، وأنه لا يُغني من اللهب وأنها ترمي بالشر كالقصر، وتحصيل هذا ذي ثلاث صفات.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٥] إلى ﴿الْعَالَمِينَ﴾ قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ يجوز أن يكون قوله: ﴿فَلَا﴾ نفيّاً لشيء قد تقدّم، وتكون الفاء عاطفة عليه وابتداء اليمين من قوله: ﴿أَقْسِمُ﴾ ويجوز أن تكون لا دخلت مؤكدة نافية كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٩]، والمعنى لأن يعلم، وقال بعضهم: لا دخلت لنفي الأقسام، وقال لأنّ الإيمان يتكلّفها المُتكلّم تأكيداً للإخبار، وإزالة لما يعترض فيها من التجوز والتسميح؛ وإذا كان الأمر على هذا فقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ يجوز أن يُراد به أنّ المحلوف له في الظهور وخلوصه من الشك أبين وأوضح من أن

يتكلف إثباته بالإيمان. وعلى هذا يكون قوله: **وإنه لقسمٌ يراد به أن الحلف بمواقع النجوم** عظيم متين أقسم بها، وقوله: **﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾** بعث على الفكر في المحلوف فيه وبما يتضمنه مما يعظم موقعه في الصدور عند تأمل الأحوال المبهجة للاستدلال؛ وقيل: أراد بالنجوم الأنواء وما يتعلق بها من حاجات القوس ومن المآرب والهموم على اختلاف المعتقدات فيها. وقيل: بل المراد بها فرق القرآن لأن الله تعالى أنزله نجوماً لما عرفه من مصالح المكلفين والمدعوين إلى الدين، ويكون الشاهد لهذا الوجه قوله: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾** [سورة الواقعة، الآية: ٧٧]، ويكون الطريق فيمن جعلها الأنواء التنبيه على وجوه النعم في الأنداء والغیوث، وما به قوام الخلق في متصرفاته. قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾** جواب اليمين عند من أثبتة يميناً و**﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾** [سورة الواقعة، الآية: ٧٨] يجوز أن يريد به اللوح المحفوظ لأنه أودع التنزيل اللوح، ثم فرق منه نجوماً ويشهد لهذا قوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾** [سورة الزخرف، الآية: ٤] وذكر الأم كما قيل في المجرة أم النجوم، وكما قيل مكة أم القرى، ومعنى كريم أنه خلص من جميع الأذناس، وطهر من الشوائب، يشهد لهذا قوله تعالى في صفة المؤمنين: **﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾** [سورة الفرقان، الآية: ٧٢]. وهذا كما يقال: في صفة الشيء العظيم الخطير هو مكرم علي أي يجلّ موقعه، والمراد بقوله تعالى: **﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾** [سورة الواقعة، الآية: ٧٩] الملائكة إذا جعلت الكتاب اللوح المحفوظ، والمعنى لا يصل إليه ولا يقربه غيرهم وذلك على حسب ما يصرفون فيه عند تنزيله، وإن جعلت الكتاب المكنون ما حكم الله به من قضاياه وتعبد به عباده من أصناف العبادات، وشاهد هذا قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [سورة الحجر، الآية: ٩] وإن حفظ الشيء وصيانه وكنه واحد، والشاهد في أن الكتاب المكنون هو الحكم المفروض. قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** [سورة النساء، الآية: ٦٦]، وقوله تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** [سورة البقرة، الآية: ١٨٣]، فحينئذ يكون معنى لا يمسه لا يطلبه كما قال:

مُسْنَا مِنَ الْإِبَاءِ شَيْئاً وَكُنَّا إِلَى حَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرَ وَاضِعٍ

وقد حكي أن اللمس والالتماس واللمس متفقات، والحجة في أن اللمس مثل الإلتماس قوله تعالى: **﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾** [سورة الجن، الآية: ٨]. وقول الشاعر:

أَلَامَ عَلَى تَبْكِيهِهِ وَالْمُسَّهُ فَلَا أَجْدُهُ

فقوله: لا أجده يشهد بأن المراد باللمس الطلب لا غير، وقد أحكمت القول في هذا: في (شرح الحماسة)، وقال بعض التظار: قوله تعالى: **﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾** [سورة الواقعة، الآية: ٧٩]، لفظه لفظ الخبر، والمراد به النهي، والمعنى لا يتناولن المصاحف إلا

المطهرون، فليس يجوز للجُنُب والحائض مَسَّ المصاحف، تعظيماً لها وإجلالاً. قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٨٠] تصديق للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع ما دعا إليه من الإيمان بالله تعالى أو في إبطاله دعاويهم وشهاداتهم في القرآن وسائر العبادات، وارتفع ﴿تَنْزِيلٌ﴾ على أنه صفة لقوله: ﴿قُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، أو على أنه خبر مُبتدأ محذوف.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٢]، كما يقولون إلى ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ذكر الله تعالى فيما وعظ من قبل قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٩] ثم أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤١]، والإنذار بالتبكيك الشديد والوعيد الممض إلزاماً للحجة، وإظهاراً للعناد منهم، وأنه هداهم فلم يهتدوا، وذكرهم فلم يعابوا إعجاباً برأيهم، وذهاباً عند التدبر، والنظر ليومهم وغدهم ودنياهم وآخرتهم، ثم أخذ عز وجل يحاجهم على لسان نبيهم فقال: قل لهؤلاء الذين ضلّوا عن الرّشاد، وعموا عن الصواب، إنّ الله تعالى لو شرّكه في ملكه غيره كما تدعون لفسدت الأحوال، وتقطّعت الوصل والأسباب. ولعلا بعضهم على بعض وكان يطلب كلّ الاقتسار، وتسليم الأمر له، كما قال هو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٢]. وكان لا ينفع الاستثناء فيما بينهم وترك الخلاف وإظهار الرّضاء، لأنّ الاستبداد، أو طلبه وإن لم يظهر فعلاً من واحد منهم فلا مهرب من تجويزه عليهم؛ وجوازه لن يحصل إلّا عن تقدير استضعاف، ومن قدر فيه ضعف فإنه لا يكون إلهاً وهذا بين. قوله تعالى: ﴿إِذَا لَا تَتَّبِعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٢]، أي طلبوا إلى أخصّهم بالملك، وأولاهم بالأمر منازعته ومجاذبته ومساواته ومسامته؛ قوله: ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ يجوز أن يُريد به ذا السلطان والعزّ، ويجوز أن يُريد به ذا السرير الذي حمله في السّماء والملائكة يطوفون حوله. كما أنّ البيت المعمور في السّماء الرابعة. وقال بعضهم: أي العرش، وأنشد قول الشّماخ: (فأدمج دمج ذي شطن بعيد). قال: يُريد أدمج شطن، فزاد ذي، فكذلك قوله: إلى ذي العرش، يُريد إلى العرش، والمعنى لطلبوا إلى الاستيلاء على العرش، والاستواء عليه طريقاً، قال ومثله لفظ حي أنشد أبو زيد:

يا قرّ إنّ أباك حيّ خويلدٍ قد كنت خائفه على الأحماق

يُريد أنّ أباك خويلد، فزاد قوله: حي، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُ الظّالمون﴾ بمعنى علا، والمعنى جلّ، وارتفع عما يقول المُشركون أكده بقوله: ﴿علوا﴾، ووصف العلو بالكبر مُبالغة في التباعد. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٤]. يُريد ما من شيء إلّا وبما فيه من أثر الصّنع يدلّ على قدرة الله تعالى ويشهد

بإلهيته، ويدعو إلى عبادته وينفي عنه مشابهة لخلقه، وجميع ما لا يليق بحكمته. ومعنى يُسَبِّحُ بحمده أي ينزهه، إما إعراباً باللسان، أو دلالةً بواضح البرهان، وفائدة قوله: ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي فيما يظهر من حكمته في خلق ما خلق. والأنعام على من أنعم حمداً له إذا لم يكن إعداد الشكر في مقابلة النعم أكثر من إضافة النعم إلى المنعم، فإذا كان الحمد تولية النعمة ربّها وإشادة ذكره ونسبتها إليه، فأثار النعم حامدة شاكرة لمُسديها. ألا ترى إلى قول القائل: (ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق). فنسبة الثناء إلى الحقائق كنسبة التسييح بالحمد لله إلى الدال عليه والمقيم له. وهذا حسن بالغ. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٢٢] أي تجحدونه، أو تعرضون عنه فعل من لا يفهم وهذا كقوله تعالى يصفهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٩]، ثم قال: ﴿أَوَلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٩]. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٤]، يريد هو حلیم حين لم يُعاجلهم فيما ادّعوه بالعقوبة ولكن تركهم إمهالاً ورفقاً، وهو غفورٌ لمن أناب وإن ارتكب كلّ منكر قبيح رحمةً منه لعباده وحسن تفضّل.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢] إلى ﴿عَلِيمٌ﴾، أثبت الله لنفسه أنه القادر الغالب، فهو يملك وجميع ما تدركه الأبصار والأوهام من أصناف العالم جليلها ودقيقها، خيرها وشرّها، يتصرّف فيها كما شاء؛ واختار تصرّف الملاك، فهو ملك مالك يُبدى، ويعيد، ويحيي ويميت، وقد أقرّت له الصعاب. وتدلّت له الرقاب. لا يمتنع عليه مراد وإن عزّ وشقّ. ولا يوجد عنه ذهاب فيما ثقل أو خفّ. إليه آماذ الأعمار، والأرزاق، ومصارف البقاء والفناء فهو القادر الحكيم، والعالم الغني، لا يخفى عليه معلوم وإن دقّ، ولا يعزب عن الظهور له مطلوب وإن رقّ، الأول في الوجود لقدمه لا عن ابتداء مدة، والآخر بعد فناء كل شيء خلقه في الدنيا لبقائه لا إلى غاية، لم يزل ولا يزال على ما هو عليه من ديموميته، وحكمته، وصواب فعله وقدرته، يحيي الأموات إذا شاء، ويميت الأحياء إذا شاء، ويفني المخلوقات إذا شاء، ويعيدها إذا شاء. الظاهر بما له من آياته التي لاتخفى، وعبره التي لا تفنى، والباطن لأنه لا تدركه الأبصار ولا تحصله الحواس، وهذا وجه في الآية. وقيل: أراد بالظاهر أنّه غالب على كل شيء، بما دلّ به على نفسه، من أصناف صنعه كما قال تعالى: ﴿فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [سورة الصف، الآية: ١٤]، أي عالين غالبين، ويقال: ظهرت على الجلي الواضح الذي هو كالجمر. وقيل في الباطن التي هي في خفائها كالسرّ فهو بما تجلّى منها ظاهر، وبما خفي منها باطن، وهذه آية لها جوانب تقتضي الكلام عليها وأنا إن شاء الله أبلغ الغاية بمقدار فهمي.

اعلم أَنَّ الله تعالى قال في موضع من كتابه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٦، ٢٧] ما قال على الموت لأنَّ الموت إنما نعدم به الحياة، والله تعالى قال: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا، ولم يقل حياة من عليها، وقال بعده: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾، والميت جيفة تبقى، وإذا كان كذلك فلا فضيلة في البقاء مع الشركة فيه، وإذا سقطت الفضيلة فلا تمدح لرب العالمين، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٨٨]. وذكر في صفات نفسه هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن. وكل هذه الآي دالة على أَنَّهُ تعالى يصير منفرداً بالوجود، كما كان مُنفرداً به من قبل أَن يخلق الخلق وأَنَّهُ تعالى يفني كل ما خلقه إِفْنَاءً لا يبقى له أثر ولا رسم حتى يصير بالفناء في حكم ما لم يخلق ولم يوجد، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [سورة الروم، الآية: ٢٧] وفي آخر: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ وَهُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٩]، والمعاد هو وجود على صفة لا زيادة عليها، وهو أَن يتقدّم الوجود للشيء فيبطل، ثم يُعاد إلى الذي كان عليه من الوجود، وإذا كان السمع قد أثبت معاداً، وحقيقة المعاد ما ذكرناه من أَنَّ ما سمّيناه في الأول إحداثاً ومحدثاً سمّيناه، وقد بطل واستجد الجادة في الثاني معاداً، ومستجداً فقد وضع معنى قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ والآي التي معها.

فإن قيل الذي يعرفه أهل اللغة من معنى الفناء هو نفاذ المركب قليلاً قليلاً كنفاذ الزّاد والاضمحلال والهزال هو تحلل الأجزاء؛ والإستحالة هو تغيّر مزاج الشيء. قلت: الفناء بطلان الشيء دفعةً واحدةً، وهو ضد الإنشاء والاختراع فإذا تجاوزت هذا الموضع فاستعماله على ضرب من التشبيه به فقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٦]، يُريد أَن جميع ما خلقه قبل الوقت الموعود للثواب والعقاب يبطله بمعنى يخزعه، إذا حصل فنى به الأجسام، والأعراض كلّها. فناء الضّد بالضّد، وليس ذلك المعنى بمقدور للعباد. والبقاء لا يجوز عليه، فإذا أفناهم بعزته الغالبة بذلك المعنى أعادهم بقدرته الواسعة كما كانوا قبل الفناء، ولا يصح ما أجمع عليه المسلمون من أمر المعاد والفناء إلّا على ما ذكرناه، وهو اللغة والشرع، والناظر فيما ذكرناه يبيّن له مُعرفة الفناء مثل ما بين له من معرفة المعاد. وحكمة وضع اللغة لأنَّ الذي ينقطع وجوده بالموت كالحَيِّ مَتّاً ظاهر التميز عما لا ينقطع وجوده بالفناء، وما أشبهه من الأعراض. وإذا كان كذلك فإنّنا نشبهه بالسمع كما ثبت جواز كونه وخلق الله له بالعقل ولكل معرفة حقيقة إلى الله تعالى، كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٥]. ويكون من جملة ما استأثر بعلمه، وإذا أعادهم حشرهم النّظر في أعمالهم في مواقف مختلفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِنَّمَا إِنَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٢٥، ٢٦]. وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ

مِيقَاتَا ﴿سُورَةُ النَّبَأِ، الْآيَةُ: ١٧﴾ إِلَى ﴿سَرَابٍ﴾ فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [سُورَةُ النَّبَأِ، الْآيَةُ: ١٩]. وَعَنْ وَجْهِ التَّشْبِيهِ بِالسَّرَابِ قُلْتُ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَبْوَابًا يُرِيدُ كَانَتْ ذَاتَ أَبْوَابٍ مَفْتُوحَةٍ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى صَارَتْ كُلُّهَا أَبْوَابًا، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: كَانَتْ فَرَاخًا يَبْوِضُهَا صَارَتْ كُلُّهَا فَرَاخًا، لِأَنَّهَا إِذَا صَارَتْ كُلُّهَا أَبْوَابًا عَادَتْ فُضَاءً، وَخَرَجَتْ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَبْوَابًا.

وَأَمَّا التَّشْبِيهِ بِالسَّرَابِ، فَالْمُرَادُ بِهِ بَيَانُ إِمَاعِهَا، وَتَخْلُخْلُهَا فِي نَفْسِهَا، وَالسَّرَابُ هُوَ الَّذِي يَتَخَيَّلُ لِلنَّظَرِ نِصْفَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ مَاءٌ يَطْرُدُ، وَيُقَالُ: سَرَبَ الْمَاءُ يَسْرِبُ، إِذَا سَالَ، وَالْمُرَادُ مَا يَتَدَاخَلُ النَّفْسُ مِنْ تَغْيِيرِ الْمَعْهُودِ، وَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَةَ الْقِيَامَةِ فِي مَعَارِضٍ مُخْتَلِفَةٍ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُسَوِّفِينَ، وَكَرَّرَ ذِكْرَهَا، وَحَذَّرَ مِنْهَا، وَتَبَّهَ مِنْ أَمْرِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَكُونُ فِيهَا لِيُبَيِّنَ فِطَاعَتَهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ، الْآيَةُ: ٨] إِلَى ﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ، الْآيَةُ: ٤٨] الْآيَةَ، فَتَبْدِيلُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَإِطْفَاءُ الضُّوءِ وَتَفْرِيجُ السَّمَاءِ وَتَحْلِيلُ عَقْدِهَا حَتَّى تَصِيرَ أَبْوَابًا وَطُمَسَ نَجُومُهَا؛ وَانْتِشَارُ كَوَاكِبِهَا، وَنَسْفُ جِبَالِهَا كُلِّ ذَلِكَ، أَوْ أَكْثَرُهَا مِمَّا تُوَكَّدُ حَالُ الْفَنَاءِ، وَإِزَالَةُ مَعَاقِدِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. وَقَدْ دَرَجَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ لِأَنَّهُ تَعَالَى رَدَّدَهَا مُتَفَتِّتَةً فِي أَوْقَاتِهَا بَيْنَ أَوَائِلِهَا، وَوَسَائِطِهَا، وَأَوَاخِرِهَا فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ، الْآيَةُ: ٦] إِلَى ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أَيُّ الْوَعْدِ بِهِ صِدْقٌ، أَوْ يَرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَوْمٌ حَقٌّ لَا بَاطِلَ مَعَهُ إِذَا قَامَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَيَجْتَمِعُ مُتَفَرِّقُ الْأَسْبَابِ، وَمُتَمَزِّقُ الْأَجْلَادِ، وَيَعُودُ غَائِبُ الْأَرْوَاحِ، وَيَحْشُرُ الْأَفْوَاجِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ، الْآيَةُ: ٣٤] وَالطَّائِفَةُ هِيَ الْعَالِيَةُ عَلَى مَا قَبْلُهَا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ، الْآيَةُ: ١] إِلَى ﴿وَأُخْرِثَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ، الْآيَةُ: ١] إِلَى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وَ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سُورَةُ التَّكْوِينِ، الْآيَةُ: ١] وَ﴿إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ، الْآيَةُ: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ، الْآيَةُ: ١٨٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَهَذَا السُّؤَالُ، وَالْجَوَابُ مِثْلُ سُّؤَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ فَقَوْلُهُ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا إِلَى رَبِّكَ مُتَّبِعَاهَا﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ، الْآيَةُ: ٤٤] مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ، الْآيَةُ: ١٢] وَالْإِبْدَاءُ إِبْدَاعُ الْخَلْقِ كُلِّهِ لَا مِنْ شَيْءٍ وَالْإِعَادَةُ مَا وَعَدَ بِهِ مِنَ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ، وَالْبَعْثُ، وَالْحَشْرُ، وَإِعْدَادُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَحَكِي عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: أُولَ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجُهَا فَهِيَ طَالِقٌ لَمْ يَعْلَمْ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ حَتَّى يُحْدِثَ بَعْدَهَا أُخْرَى، فَإِنْ مَاتَ لَمْ تَكُنْ أُولَ لَكِنَّهُ لَا تَشْرِكُهَا أُخْرَى.

قال أبو العباس المبرد: وهذا خطأ لأنّ قوله: **أَوَّلُ** هو موقع لما بعده وذلك أن تأتي بعده بما شئت، ولا يكون آخر إلا لشيء قبله غيره، وإنّما هو مأخوذ من آخره. وقيل: لما كان لا أول له. قال المبرد: ولا يجوز هذا إلا في صفة القديم تعالى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وقال الفقهاء: إذا قال الرجل: **أَوَّلُ** عبد أملكه فهو حر، فملك عبيد جميعاً معاً لم يعتق واحد منهما، وإنّ ملك بعد ذلك عبداً آخر لم يعتق أيضاً لأنه ليس بأول، ولو قال: **أَوَّلُ** عبد أملكه فهو حرّ، فملك عبداً ونصف عبد عتق العبد ولم يعتق النصف لأنّ هذا أول عبد ملكه، والنصف لا يُسمّى عبداً واحداً، ولو قال آخر: امرأة أتزوجها من النساء فهي طالق، فتزوّج امرأة، ثم تزوّج أخرى، ثم طلق الأولى، ثم تزوّجها، ثم مات فإنّ الطلاق يقع على الثانية التي تزوّجها وما يقع على التي تزوّجها أول مرة وليست بآخر، والتزوّج بها ثانياً لا يخرجها من كونها أول امرأة.

ألا ترى أنه لو نظر إلى امرأتين، فقال: آخر امرأة أتزوجها منكما فهي طالق، فتزوّج أحدهما، ثم تزوّج الأخرى طلقت الثانية حين يتزوجها لأنها آخر امرأة تزوّجها منهما ولو تزوّج الأولى بعد الثانية لم تطلق، وكان المبرد إنّما قال: لا يجوز هذا إلا في صفة القديم لمكان الآخر لأنه لم يزل ولا يزال، أولاً وآخرأ، والواحد متاً ليس كذلك فاعلمه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه، الآية: ١٤] وفي موضع آخر ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] إلى ﴿مَقَاماً مَّخْمُوداً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يُريد أدمها واثبت عليها فلان لا يقوم لكذا، وهذا يقوم علي بكذا، فله تصرف في الأمر واسع. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أقم الصلوة لتذكركني بها أي الصلوة ذكرى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي إذا ذكرتني، فأقم الصلوة كأنه يرجع التسيان كالذكر في الوجه الأول تسبيح الله وتمجيده بصفاته الكريمة، وفي الوجه الثاني الرجوع إليه بعد ذهول يسبق ونسيان يلحق، واللام من قوله: لذكرى أي عند ذكرى، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ أي عنده ولام الإضافة يدخل في الكلام لوجه.

أ - التملك: كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة النجم، الآية: ٣١] وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [سورة الجن، الآية: ١٨].

ب - أن يكون الشيء سبباً لغيره، وعلّة له مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِهِ اللَّهِ﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٩].

ج - أن يكون دخوله لمعنى الإرادة كقولك: قمت لأضرب زيداً أي قمت إرادة

لضربه، ولكي أضربه أي قمت من أجل هذه الإرادة، وقد يحذف اللام من هذا وأشباهه.

د - أن يكون بمعنى في كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢٠] أي في أول الحشر.

هـ - أن يكون لمرور الوقت على الشيء كقول النابغة شعراً:

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لَسْتُ أَعْوَامَ، وَذَا الْعَامِ سَابِعُ

أي عرفتُها وقد أتت عليها ستة أعوام، أو توهمتُها لذلك، ويقال أتى للصبي ستان عليه وكم سنة أتت لك؟

و - أن يكون بمعنى بعد كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «صُومُوا لِرُؤْيَيْتِهِ»، وقوله تعالى: ﴿فَطَلَّقُوهُمْ إِيذَنْهُمْ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ١] والعدة ها هنا ظرف للطلاق وبمنزلة وقت له لا علة ولا سبب، كما لم يكن الحشر علة لإخراج الذين كفروا إنما كان علة إخراجهم كفرهم، والدليل على ما قلنا أنه قال: لأول الحشر جعل له أولاً.

ز - أنه يُدخل لما ذكرناه أولاً، وهو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي لاصفراها عند غروبها دلكت فهي دالك وقال ابن عباس: لدلوك الشمس لزوالها الظهر، والعصر وأنشد:

شادخة^(١) الغرة غراء الضحك تبلغ الزهراء في جنح الدلك

فجعل الدلك غيبوبة الشمس، وقال أبو حاتم: روي عن أبي عمرو أن دلوكها زوالها فعلى هذا يجوز أن يكون المفروض بالآية أربع صلوات الظهر - والعصر، والمغرب، والعشاء - بالليل. ويجوز أن يكون إلى غسق في موضع مع، فيدل على فرض صلاتين من الليل والنهار، وثالثة يدل عليها: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨].

ثم سائر الصلوات يدل عليها بغير هذه من الآيات وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] يُريد، وأقم قرآن الفجر، والمعنى أقم الصلوة بالقراءة، وهذا يدل على أن الصلوة لا تكون إلا بقراءة، فالضمير في به يرجع إلى القرآن، ومعنى ﴿كَانَ مَشْهُوداً﴾ أي حقه أن يشهد أي يخرج له إلى المساجد، ويُقام مع الجماعة فيشاهد وقيل أراد تشهده الملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٧] معنى تهجد اسهر يُريد استيقظ، ومعنى به أي بالقرآن ويُقال هجداً أيضاً بمعنى نام.

قال:

هَجَدْنَا، فَقَدْ طَالَ الشُّرَى وَقَدَرْنَا أَنَّ خَنَا الدَّهْرَ غُفَلَ

يُرِيدُ يَوْمَنَا وَمِثْلَ هَجَدَ، وَتَهَجَّدَ قَوْلُهُمْ حَنْتَ وَتَحَنَّنْتَ لِأَنَّ مَعْنَى حَنْتَ لَمْ يَبْرَ فِي الْيَمِينِ، وَمَعْنَى تَحَنَّنْتَ أَلْقَى الْحَنْتَ عَنْ نَفْسِهِ.

وهذا الأمر اختص به النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفضيلاً له على جميع الخلق. ومعنى نافلة لك عطاء لك وتكرمة لذلك أتبعه بقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٩] أي افعل ذلك رجاء أن تثاب هذا الثواب العظيم.

وقيل في المقام المحمود إنَّ المراد به الشفاعة للمذنبين، والذي عليه الناس أنَّ الدُّلُوكَ مغيب الشمس، ويذهب العرب لذلك إلى أنَّ قول القائل:

هَذَا مَقَامٌ قَدَمِي رِيَّاحٍ غَدُوَّةٌ حَتَّى دَلَكْتَ بِرِيَّاحٍ

يدل على صحة قولهم وأصله أنَّ السَّافِي يَكْتَرِي عَلَى أَنْ يَسْقِي إِلَى غَيْبِةِ الشَّمْسِ، وَهُوَ فِي آخِرِ النَّهَارِ يَتَبَصَّرُ هَلْ غَابَتِ الشَّمْسُ. قوله: رِيَّاحٌ أَي يَضَعُ كَفَهُ فَوْقَ عَيْنِهِ وَيَتَبَصَّرُ، قَالَ: وَيَسْلَمُ لِلْحَدِيثِ مَا جَاءَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ غَسَقَ اللَّيْلِ ظِلْمَتَهُ الْأُولَى لِلْعِشَاءِ وَالْمَغْرَبِ، فَإِذَا زَادَتْ قَلِيلاً، فَهِيَ السَّدْفَةُ، وَقَوْلُهُ: (نافلة لك) لَيْسَتْ لِأَحَدٍ نَافِلَةً إِلَّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَخَافُ ذَنْبَهُ غَيْرُهُ فَإِنَّهُ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَعَمَلُهُ نَافِلَةٌ.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٤] إِلَى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية: ٢] الْآيَةُ طَرَفَا النَّهَارِ النَّهَارَ الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ وَكَمَا ثَنَى الطَّرَفَ هُنَا جَمَعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٣٩] إِلَى ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [سورة طه، الآية: ١٣٠] لِذَلِكَ اخْتَلَفَ النَّاسُ فَبَعْضُهُمْ جَعَلَهُ مِنْ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ، وَالْقَائِلُ بِهَذَا يَكُونُ عِنْدَهُ الْفَجْرُ مِنَ النَّهَارِ مُحْتَجاً بِأَنَّهُ ابْتِدَاءُ الصَّوْمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧] وَالَّذِينَ يَخَالِفُونَهُ يَجْعَلُونَهُ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدْعُونَ أَنَّ ابْتِدَاءَ النَّهَارِ طُلُوعُ الشَّمْسِ وَانْتِهَاءُ غُرُوبِهَا، وَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ انْتَصَفَ النَّهَارُ فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٣٩] فَيَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ النَّهَارَ لِلْجَنَسِ حَتَّى يَصِيرَ لَهُ أَطْرَافاً، وَيَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الْجَمِيعَ مُسْتَعَاراً لِلثَّنِيَةِ لِأَنَّ أَرْبَابَ اللُّغَةِ قَدْ تَوَسَّعُوا فِي ذَلِكَ أَلَا تَرَى قَوْلَهُ: يَا نَاحَةً وَدُخَيْلاً، ثُمَّ قَالَ: طَرَفَا فَتِلْكَ لَهَا تَنْمَى، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [سورة التحريم، الآية: ٤] وَلَيْسَ الْأَمْتَةُ وَالْأَمَكَةُ/م

بمستنكر أن تسمى الساعات أطرافاً، كما قيل أصيالة وعشيات في آخر الأصيل، والعشية .

قال أبو العباس ثعلب أطراف النهار قيل يعني صلاة الفجر، والظهر، والعصر، وهو وجه أن جعل الظهر، والعصر من طرف النهار الآخر، ثم يضم الفجر إليهما فيكون أطرافاً، وقال أبو العباس المبرد: معناه أطراف ساعات النهار أي من الليل سبحة وأطعه في أطراف ساعات النهار (الأناء) الساعات واحداً أنى، ويكون من آتيت - أي أخرت ومن قول الشاعر:

وَأَيْتُ الْعِشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَطَالَ بِي الْإِنَاءُ

وقال العجاج: طال الإناء، وانتظر الناس الغير من أمرهم على يدك، والتور طال الإناء وزايل الحق الأشر. وفي القرآن: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ﴾ فأما قوله تعالى: ﴿وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٤]، فالزلف الساعات ومن أبيات الكتاب:

طَيِّ اللَّيَالِي زُلْفًا فزلفاً سَمَاوَةَ الْهَلَالِ حَتَّى أَحَقَّوَقَفَا

والزلفة واحدة الزلف، ويُقال لفلان عندي زلفة، وزلفى، وهي القربة، وفي القرآن: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٩٠] أي قرّبت، وسميت المزلفة لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة من عرفات، وانتصب سماوة على المفعول من طي الليالي، والمعنى أن الليالي طوّت شخص الهلال، ونقصته شيئاً شيئاً حتى ضمر ودقّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٤] يجوز أن يُريد أن الحسنات من أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنين يبطلن سيئات الكفار والمجرمين، وهذا بشارة من الله للمؤمنين بأنه سيعلي كعبهم، وينفذ كلمتهم كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٨] ويجوز أن يكون مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبَيْتُمَا كِبَارَهُمَا تَتَّخِذَا مِثْلَ بَعِثَةٍ مِّنْهُنَّ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٠] ويكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٤] أي أخبرناك بما أخبرنا من ضمان النصرة، وقمع الباطل، وإعلاء كلمة الحق لكي تتذكر به فيزداد حرصاً على الإدخار والإصلاح ولأنك إذا أقررت به والتزمته فتذكرته تيسر لك المطلوب وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق، الآية: ٣٧] يريد أن الأمور بهذا، أو الموعوظ إذا قبله حصل لك بذلك ذكرٌ في الذّاكرين، وهذا ترغيبٌ لأنّ ما يبقى به الذّكر ليس كما يُلغى ويُنسى. قال:

فَقَالَ لَهُ هَلْ تَذْكُرَنَّ مَخْبِرًا يَدُلُّ عَلَى غَنَمٍ وَيَقْصُرُ مَعْمَلًا

أي هل تعتد بهذا الخبر فتذكره به، فأما قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية: ٢] أي من النصف، أو زد عليه، فانتصاب اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا أي قبله بقليل أو بعده بقليل لأنَّ بيان أو انقص منه، أو زد عليه ذلك، والمعنى قم نصف اللَّيْلَ، أو انقص من نصفه حتى يرجع إلى الثلث، أو زد على نصفه حتى يبلغ الثلثين، وفي هذه الأشياء منها أنَّه جعل نصف اللَّيْلَ قليلًا منه سواء جعلته بيانًا للقليل المُستثنى، أو جعلته بيانًا للباقى الواجب لأنَّ الكلام يقوم على الوجهين جميعاً ومنها أنَّ قوله: أو انقص منه قليلًا بمعنى إِلَّا قليلًا في التحصيل ولكنَّه ذكر مع الزيادة، وكان كالمكتر، وكثير من أهل النظر يذهبون إلى أنَّ القلة تقع على ما دون الثلث لقوله عليه السلام لسعد في الوصية: «والثلث كثير» ومنها أنَّ هذا التنويع يدل على أنَّه تعالى لم يفرضها عليه لكنَّه على سبيل الترغيب لأنَّ الفرائض التي يفرضها الله على عباده ليس يجعل الأمر فيها إليهم فينقصوا ما شاؤوا، ويزيدوا فيها ما شاؤوا، وقد قيل: إِنَّ الله تعالى كان فرضَ على رسوله وعلى المؤمنين قيام اللَّيْلَ، ثم نسخه إذ كان شقَّ عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [سورة المزمل، الآية: ٢٠] أي يعلم مواقيتها ويعلم أنكم لن تحصوه أي لن تطبقوا معرفة حقائق ذاك والقيام فيه، فتأب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن، قالوا: وهذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالمكتوبات الخمس.

وقوله تعالى: ﴿أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ يجوز أن يكون من دنا الشيء إذا سفل، فنزل كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أي نزل، ومنه قوله تعالى: ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلَابِيبِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٩] أي يُرسلن، وقال بعضهم: معنى أدنى أدون، لكنَّه قلب فقدَّم اللام وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية: ٥] يجوز أن يكون المعنى قولاً يثقل العمل به، ويجوز أن يريد به قولاً له وزن، وخطر بين الكلام إذا مِيز أي ليس بالسَّفَساف الدَّون، ومعنى يلقي ينزل فيتلقته. ومنه قولهم: أَلقيت على فلان مسألة كذا، فأعيتهُ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [سورة السجدة، الآية: ٢٣] فبعضهم يجعله من هذا أي لا تَكُ في شك من نزول هذا الكتاب قبلك، وكان شيخنا أبو علي ينكر أن يكون أَلقيت مَنْ لقيت، ويقول: إن لقي يتعدى إلى مفعول واحد يقول: لقيت زيداً فلو كان أَلقيت من لقيت لوجب أن يتعدى إلى مفعولين. كما أنه إذا دخل على ما لا يتعدى إلى المفعول عداه إلى واحد يقول: خرج زيد وأخرجته وذُهب زيد، وأذهبته.

وتقول في المتعدي: قرأ كذا وأقرأته أنا كذا، وسمع زيد شراً، وأسمعتهُ أنا خيراً. وإذا كان كذلك، ووجدنا لقي يتعدى إلى مفعول واحد، وأَلقيت مثله يتعدى إلى مفعول واحد

وعلمنا أنهما من أصلين فاعلمه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ [سورة المزمل، الآية: ٦] يريد الساعة منشأ الحدوث ويُقال فلان ناشئ ونشأت السحابة من قبل البحر، ويجوز أن يكون ناشئة يراد بها الحدث لا الفاعل فيكون كالألغية في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ١١] أي لغواً وكالكاذبة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٢] أي كذب ومثل ذلك قم قائماً أي قم قياماً. قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية: ٦] أي أبلغ في القيام وأبين في القراءة لما في الليل من السكون والقرار، ويجوز أن يُريد أنها أشد على الإنسان وأشق لأنَّ الليل للتودع والراحة. وقرىء وطاء بالواو والمد والمعنى أشدَّ مواطاة للقلب إذا نقله السمع.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ١٦] إلى ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ أول السورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ والانشقاق والانفطار، والانفتاح يتقارب في المعنى وذلك من أهوال القيامة، وما يتغير فيها من الأمور، ويتبدل. وقيل: المراد انشقت بالغمام كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ يَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٥]. وجواب إذا محذوف لما يدل عليه ما عرف من أهوال القيامة وشدائدها وتخمر في النفوس وتقرر. والمراد إذا انشقت السماء كان من أشراط القيامة فيكم ما عرفتموه، وتكرر عليكم وصفه، وقيل جوابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٦] وقيل جواب إذا مُضمر مقدم، والمراد اذكر إذا حدثت هذه الحوادث. وقيل جوابه أذنت، والواو زائدة. والتحييون على اختلافهم يردون هذا وكأنَّ قائله شبهه بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٧١] لأنَّ المعنى عنده فتحت والأجود عندي أن يكون جواب إذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٦] أي في ذلك الوقت يكون ذلك حالك، ومعنى أذنت لربها أطاعت، واستمعت، وأجابت، وحقَّت أي وجب ذلك عليها، وكانت محققةً بالانشقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٣] كأنه بسط مجموعها وأخرج مضمونها وموعدها حتى تخلَّت. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٦] عموم دخلت الكافة تحته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٦] يشير إلى ما قاساه مدة حياته واكتسبه في متصرفاته ونيل فيه من سعادة وشقوة وحياة وإماتة، وما تزوده من دنياه وأعدّه لأخراه، أي تسعى سعياً قد أثبتك وتلاقي له كل ما قدَّمته من عملك وتصير من حميته إلى ما تستحقه بفعلك. قال:

وما الدهر إلَّا تارتان فمنهما أموتُ وأخرى أبغني العيش أكلحُ

وقوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ من قولك: لاقيت من كذا جهداً وأذى، وقاسيتُ من كذا

مكروهاً. والضمير في ملاقيه إن شئت جعلته للكدر والأجود أن تجعله للرب، والمعنى تلاقي جزاءك منه فيكون على حذف المضاف. والشفق الحمرة تبقى من الشمس في المغرب إلى وقت العشاء. وقال بعضهم: هو البياض الذي إذا ذهب صليت العشاء الآخرة لأن الحمرة تذهب عند الظلام.

قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر. قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ١٧] أي جمع وأدرك من مقتضياته، وهوله ويجوز أن يكون وسق بمعنى، طرد يريد وما جاء به واحتمله، والوسيقة الطريدة. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ١٨] يُريد استتب، واستوسق لثلاث عشرة وأربع عشرة، ويجوز أن يريد باتساقه استمراره في سيره وتناهي في ازدياد ضيائه: ﴿لَتَرْكَبَنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ١٩] كما قيل سادوك كابرأ، عن كابر، والمعنى كبيراً عن كبير أي يترددون بعد أحوال مختلفة، ويخرجون من بعضها إلى بعض من نشر وحشر وفناء وإعادة؛ و (الطبق) الشدة قال: (قد طرقت بيكرها أم طبق).

وقال:

فلو رأي أبي حسان وانحسرت عني الأمور إلى أمر له طبق

يقال: رغب، ورهب أنت بينهما حب الحياة، وهول الموت والشفق وفائدة القسم تأكيد الوعيد على المخاطبين بهذا الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبَنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ١٩] وقرئ لتركبن جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد لتركبن طبقاً من طباق السماء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٢٠] لفظة استفهام معناه الإنكار، والتبكيث يقول: ما الذي منعهم من الإيمان، وقد وضحت الدلائل والسبل، وتكررت الآيات والنذر، وضافت المعذرة وحققت الكلمة. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الإنشقاق، الآية: ٢١] اكباراً وإعظاماً وإيماناً، وإيقاناً وهو من المعجزات الباهرة والإلزامات المسكتة. وهل ذهابهم عن تدبره واشتغالهم إلا عناد فبشرهم بعذاب أليم. أصل البشارة من البشارة استبشر بشيء انبسط جلده، ونضر وجهه، وهذا وأمثاله إذا استعملت في غيره كقوله: تحية بينهم ضرب وجيع. أي يقيمون بدل التحية عند اللقاء ذلك، فأما قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [سورة القمر، الآية: ١] فإنما معناه سينشق القمر، ومن أثبت ذلك دليلاً لاختصاصه به عبد الله بن مسعود، وإن سائر الناس لم يروه لأن الله حال بينهم وبين رؤيته بغمامة، أو غير ذلك. ويجوز أن يكون غير عبد الله بن مسعود قد رأى ذلك، فاقصر في نقله على رؤية عبد الله، وعلى ما نطق به القرآن من ذكر،

وكان الجاحظ ينفية ويقول: لم يتواتر الخبر به ويقول أيضاً: لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن يختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره في كل يوم ليلة فلو انشق لكان وقت انشقاؤه لا يسير.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة الملك، الآية: ٣] إلى ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أول السورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [سورة الملك، الآية: ١] وليس تفاعل هذا كتفاعل الذي يفيد التكلف للشيء عن غير موجب له نحو تخازر، وتعارج، وتساموا، وتجاهلوا لكنه بمعنى فعل وأصل البركة البقاء والزيادة، وكذلك لفظة تعالى في صفة الله، فهي بمعنى علا ومثله لعلا وتكبر بمعنى كبر وعلا، وهذا كما يُقال: علا قرنه، واستعلاه وقال زهير: وكان أمرين كل أمرهما يعلو. ومثله قرّ واستقر، وهزأ، واستهزأ، ويشهد لما قلنا قول امرئ القيس: تجبر بعد الأكل فهو نميص. وإنما يصف نبأً قد رعي ثم عاد منه شيء فتجبر بمعنى جبر من قوله: قد جبر الدين الإله فجبر.

وقد كشف عن المراد بقوله: فهو نميص أي لقصوه كآته ينمص بالنمص، وهو المنقاش، ومتى جعلت تجبر صار كالجبارة، وهي النخلة التي فاتت اليد طويلاً وأوقع آخر الكلام أوله لأن المنموص لا يتجبر ولا يطول. وعلى هذا قوله تعلّى الندى في منته وتحدّراً يُريد علا وحدر، وأنشد أبو عبيدة: تخاطأت النبل أحشاء معناه أخطأت، فهذا شاهد تبارك وتعالى، ومثل هذا أجاب، واستجاب وقوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [سورة الملك، الآية: ١] أي يملك الملك الذي يمكن عباده منه، ويصرفهم فيه، فالبقاء له والقدرة والتمكّن، والقمر بأمره وحكمه، وإضافة الفعل إلى اليد ضرب من التوسع يُقال: وفي يدي وملكي وفي قبضي، وهو قبضي. قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٧] أي يحكم فيها حكماً لا قصور فيه عن المراد، ولا تجاوز إلى أكثر من المرتاد، ففعله وفق إرادته ووفق قصده وإرادته، فخلق الحياة لمن يُريد استبقائه ليعبده، والموت إلى غير ما هو عليه إخباراً منه لطاعة المطيع منهم، فيثيبه ومعصية العاصي منهم فيعاقبه، وهو العزيز فلا يفوته الهارب، القدير فلا يعجزه المغالب. قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي بعضها فوق بعض وعلى حدة، فيطابقه، ويشابهه، ولا يخالفه فيبائنه وقال الشاعر شعراً:

إذا نزلَ الظلّ القصير بنحره فكانَ طباقُ الخفِ أو قل زائداً

ويُقال: طابق فلان فلاناً على كذا إذا وافقه عليه. ويُقال: النَّاسُ طبقات أي بعضهم فوق بعض. ومنه قولهم: طابق البعير إذا وضع خفيّ رجله في موضع خفيّ يديه. وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ [سورة فصلت، الآية: ١٢] فقوله الدُّنْيَا يدل على أن

بين السماوات تقارباً، وتباعداً، وأن التي هي فوق هذه ليست بالدنيا منه، قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ [سورة الملك، الآية: ٣] وقرىء من تفوت أي بنى ما خلقه على حكمه فلا يفوت بعضه بعضاً ولكنه يتعادل، وفي هذا المعنى قالوا: وجه مقسم إذا كان الحسن مقسوماً فيه فأعطى كل جزء نصيبه منه حتى لا استبداد فيه، وقالوا: ما أحسن قسمة وجهه وهذا بخلاف ما ذكرناه في تفسير المتفاوت لأنَّ المتفاوت ما يزيد على الاعتدال، أو يخرج عن القدر الملائم بالانتقاص، وذلك ضد التقدير وقوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [سورة الملك، الآية: ٣] المراد به أيها الإنسان قد أعطيت من الآلات، ورتب في عقلك وتحصيلك من البينات ما تدرك به حيناً، أو تقديرأ تراكيب الأشياء وسلامتها مما يشينها إذ دخولها فيما يجتذب وجوه الفساد إليها، فتأمل ما صنعه الله واخترعه في هذا الخلق العظيم واقتف آثاره فيها، وردد طرفك وعقلك في ظواهرها وبواطنها ومفرداتها؛ ومركباتها وتأمل بعد تقصّي وسمك واستفراغ جهدك، ورد المجمال على المفصل والمشاع على المقسوم، هل تجد فيه خللاً، أو هل تبيّن فيه عيباً؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ [سورة الملك، الآية: ٤] بعث على الكشف والبحث وتأکید في المبالغة فيهما وإنما قال هذا لما يعتقد العرب من أنَّ النظرة الأولى حمقاء فينبغي أن لا يكتفى بها في المزاوالت، والتتبع في المستكشفات حتى أن بعضهم قال في صفة امرأة شعراً:

لها النظرة الأولى عليهم وبسطة وإن كرت الأبصار كان لها العقب

يقول لهذه المرأة، على من يستقري محاسنها النظرة الأولى، فإن لم يقنعهم ذلك، فأخذوا يستنبطون في المعاودة، ويحيلون الطّرف في العين والأثر كان لها البسطة أيضاً، فإن أبوا إلا أن يكرروا الأبصار، ورددوا النظر حالاً بعد حال كان لها العقب، وهو ما يسلم على التعاقب من أواخر البحث فقله تعالى: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تأكيد على ما ذكرناه، وحكي لي عن بعض أهل النظر أنه قال: إنّ الله تعالى أمر بكر البصر ثلاث مرات لأنه قال: ارجع البصر، ثم ﴿أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وهذا الذي ذكره وعول عليه من ذكر الكرّتين لا يحصل له المراد، بل يفسد عليه ما اعتمده لأنه قال تعالى: ﴿أَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [سورة الملك، الآية: ٣] وهذا لا يقتضي إلا مرة واحدة، وقال من بعد: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الملك، الآية: ٤]، ولو اقتصر الكلام على فارّج البصر، ولم يأت بذكر الكرّتين لكان للسامع أن يتجاوز إلى ما فوقها من الكرّات لأنّ ثم لا يقتضي الحصر، ولا يوجب الوقوف.

فلما قال: كرّتين علم أنه أكّد به ما ذكر من الرجعتين على أن قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ ليس قبله فعل مذكور فيكون الرجوع عن ذلك الفعل لأنه قال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي

خلقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَازْجَعَ الْبَصَرَ ﴿سورة المُلْك، الآية: ٣﴾ فكان المراد انظر، فارجع، ثم ارجع أي لا ترض بالنظرة الأولى ولكن راجع بعدها، ثم راجع، وإذا كان التكرار هو الرجوع إلى الأول، والأول هنا النَّظَر المضمَر فقوله تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فُطُورٍ﴾ كَرَّرَ أَوَّلَ إلى النظر المُستدل عليه، وقوله: ﴿ثم ارجع البصرَ كرتين﴾، وإذا كان الأمر على هذا لم تحصل ثلاث كَرَّات فلذا اتبع الكلام بقوله كَرَّتَيْن وهذا جيد بالغ، وقوله تعالى: ﴿هل ترى من فُطُورٍ﴾ أي من شقوق وصدوع.

وقوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ [سورة الملك، الآية: ٤] المعنى إنك إن أدمت النَّظَرَ، واتبعت البصر تطلب العيب في حكمة الله والفطور في صنعه رجعت من مطلوبك خاسر الصفقة، صاغر الرجعة، خائب الطلبة بعيداً من البغية، والخاسيء من قولك خسأت الكلب إذا طردته وبعده خساً ولا تقل انخساً، والحسير الكال المعني. ويُقال: إبل حسرى لأنَّ حسيراً فاعيل بمعنى مفعول، فهو كجريح، وجرحى.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٣٧] الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٥] خضراء ملساء متصلة الجوانب والأكتاف مرتبة الوسائط، والأطراف محفوظة من مسترقة السمع بما أعد لها من الارصاد.

وتلخيص هذا يبين إذا ضمَّ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٠] لأنَّ المعنى يأتيهم أمر الله، والسَّماء كالوردة، وقد انفطرت بالغمام أي تشق بها، والملائكة تنزل منها في الغمام فكأنها تشق، وهم في تكاثفهم، وتراكمهم بما معهم كظلي من الغمام وهذا كما يُقال: رُفِعَ الباب بفلان - أي جاء من قبله، وسال الوادي ببني فلان إذا خرجوا منه، وكقول الشاعر:

وسالَتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ

وكما قال:

أَلَا صَرَمَتْ حَبَائِلُنَا الْجَنُوبُ ففَرَقْنَا وَمَالَ بِنَا قُضِيبُ

قُضِيب: وادٍ باليمامة، والمعنى أنجدنا لما افترقنا، وإنهت هذه المرأة ويُقال: نزل بقارة الوادي - أي أعلاه، وقوله: مال بها، كقوله: سالت الأباطح بأعناق المطي قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٣٧] يُريد تحوُّلها عما كانت، والورد الأحمر وليس بمشبع قال:

فهو ورد اللون في ازبِئِرارٍ وكميت اللون ما لم يَزَبِئِرْ
وقال الفراشية: تلون السماء تلون الوردية من الخيل لأنها تكون في الربيع إلى الصفرة،
فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كانت بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة قال عبد بني
الحسحاس شعراً:

فلو كنتُ ورداً أحمرأ لعشقتني ولكن ربي شائني بسواديا

وقيل في الدهان: إنها جلود حمر، وقيل: هي جمع دهن - أي تمور كالدهن صافية،
والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [سورة الطور، الآية: ٩] أي تتميع .
وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [سورة المعارج، الآية: ٨] وهو الصقر المذاب،
وكان التشبيه وقع بالذوب، فيكون المور والذوب على طريقة واحدة، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ
يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٢]، وقوله تعالى في سورة
الرحمن: عند ذكر وعيد الكفار، والإنذار من يوم الحشر، والمعاد وما يجري بمجره من
الإقتصاص، والأمر بالعدل والإنصاف: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن،
الآية: ١٣]. سأل سائل: أي شيء في هذا من الآلاء حتى ذكره الله ممتناً به في جملة ما عدده
من صنوف النعم، ووجوه القسم في الأولى والآخرة.

والجواب إن الله تعالى منعم في كل حال ومذكّر بما يزيد المتعبد استبصاراً في الأمر
الأولى ونفوراً، وزهداً في الدنيا، وواعظ بما يكون السامع له أقرب إلى الطاعة فيما يعمله
من الاستطاعة، وإذا كان الأمر على هذا فنعمه على خلقه في الإنذار والإعذار مثل نعمه في
التبشير والتحذير إذ كان الصّارف عن الشر بلطفه مثل الباعث على الخير بفضل، وقد توعد
الله جاحدي نعمه والمهملين لآياته ونذره بالخسف والزّحف والخزي الثابت، والبعث
المفاجيء، والمسح المرصد والريح العاصف والزلازل، والصّواعق بعد أن أمضى بها أو
بأكثرها الحكم على من حقت عليه الكلمة فمن سعد ووعظ بغيره فأجاب حين دعي، وأدرك
لما بصر ونفعته المهلة والإملاء، واستسعد بالإعادة، والإبداء ونبهه ضرب الأمثال والمبالغة
في الإبلاغ.

ثم عرف حال أولئك المستمرين في الضلالة والذاهبين عن طريق الهداية ومصائر
أحوالهم، فإنه إذا راجع نفسه درى عظم نعم الله عليه فيما وفقه، أو يسرّ أخذه به من العدول
عن سلوك مناهجهم، وأوجب على نفسه شكرين (الأول) لاهتدائه، (والثاني) لما زاده الله
من الاستضاءة بنور الهدى وقربه من التقوى.. ألا ترى قوله تعالى: حاكياً عن أهل الجنة
وقد استقروا في منازلهم منها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٤٣] قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٠] نصف

عقبي حالهم ﴿وَأَخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٠] وقال تعالى بين أحوالهم قبل ذلك: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٧] إلى ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [سورة مريم، الآية: ٧٢] فعلى هذا الذي بنينا الكلام عليه قدر الله نعمه على الجن والإنس في دنياهم، وأخراهم، ثم قال: يأيها تكذبون وكل ما تتصرفون فيه من حياة وممات ونعمة ونقمة وتيسير وتعسير، وتقريب وتبعد آثار إحساني فيها ناطقة وأعلام آلائي فيها سنة واضحة وهذا بمن الله ظاهر.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] إلى ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] الخلق هو الاحداث على تقدير من غير احتذاء مثال ولذلك لا يجوز إطلاقه إلا في صفة الله تعالى لأنه لا أحد جميع أفعاله على ترتيب من غير احتذاء أمثال إلا الله وإنما جمع السموات، ووحد الأرض لأن الأرضين لتشاكلها تشبه الجنس، والواحد كالرجل، والماء الذي لا يجوز جمعه إلا أن يراد الاختلاف، وليس يجري السموات مجرى الجنس المتفق لأنه دبر في كل سماء أمرها بالتدبير الذي هو حقها قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] يجوز أن يكون من الخلاف كالسواد والبياض لأن أحدهما لا يسد مسد الآخر في الأحوال.

ويجوز أن يكون من الخلف لأن كل واحد منهما يخلف صاحبه على طريق المعاقبة والنهار في اللغة يفيد الإتساع أيضاً، ويُقال: انهرت العنق إذ أوسعته، وذكر الله تعالى هذه الآيات مجموعة معظماً شأنها ليصرف بكريم عطفه وحسن نظره أوهام المخاطبين بها إليها، وإلى النظر في تراكيبها وابتداع خلقها مدرجاً إلى الاستدلال بها على خالق لا يشبه الأشياء ولا يشبه من جهة أنه لا يقدر على خلق الأجسام إلا القديم الذي ليس بجسم ولا عرض، إذ جميع ذلك محدث ولا بد له من محدث لاستحالة التسلسل، فتقديم السماوات والأرضين في الذكر لأنها المعظم في المشاهدات والأصل وما عداها تبع لها، ولتكون الحواس إلى تمييزها أسرع، والأذهان إلى تبحيثها أميل، والنفوس في الكشف عن سرائرها أرغب، والعقول عنها أفهم، واختلاف الليل والنهار يدل على عالم مدبر لأنه متقن في الصنع محكم في التدبر قريب التحول بعيد التأخر، فهو أبلغ أداء وأبين مأخذاً، وأفصح برهاناً، ﴿وَالْقُلُوبُ﴾ التي تجري في البحر بما ينفع الناس [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] لأنه فعل منعم عالم بما يكون قبل أن يكون هيا الله لمتافع الناس ومن جرى مجراهم لكي يفكروا، مع كثرة بلواهم بها، ومع تعذر فعل مثلها عليهم منها وليعلموا بمواقع حاجاتهم وتيسر مرافقهم بها أن الله لهو الحكيم الرؤوف المحدث لهم، والمنشئ والمصرف والمُسخر.

فأما الماء المُنزل من السَّماء، فيدل على الرازق المنعم المبدع لما شاء لا يعجزه شيء

مروم، ولا يتكأده مطلوب، لا يخطيء تدبيره، ولا يقصر عن الحاجة تقديره آخر مراده وفق أوله لائق بآخره.

وأما إحياء الأرض بعد موتها فتمثيل للحشر والبعث، وتنبه على أنه تعالى تتجدد منحه حالاً بعد حال، ووقتاً بعد وقت ليكون للعائشين بها أهناً، وفي إظهار القدرة عليها أحكم، ويجوز أن يُقال: وصفت الأرض بالحياة لينشأ النبات عنها كنشوء التاج عن الحيوان ف قيل: إذا كانت عامرة حيّة، وإذا كانت هادمة ميتة، ويجوز أن يُقال: وصفت بذلك لأنّها تخرج ما تحيي به النفوس من الثمار والزرّوع. قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] يُريد من جهة السّماء ومن نحو السّماء، وفي موضع آخر: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٨] يجوز أن يكون بدلاً من الماء، أو تبيناً له وتفسيراً، أو يكون كالفطور وأمثاله فلا يدل على الكثرة، وإذا جاز ذلك فيه فليس لأحد من الفقهاء أن يتعلق بظاهر الآية فيقول: إنّ طهوراً فعول، وهو صفة للماء فيجب أن يدل على الكثرة والمبالغة في الحكم الذي يجب في فعول إذا كان صفة لأنّ فعولاً قد يكون كالفطور فلا يدل على الكثرة، ولأنه قد يجوز أن لا يكون صفة للماء بل يكون بدلاً وتفسيراً، ويسقط التعلّق بظاهر الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَضَرِّفُ الرِّيحَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] فيستدلّ به على الاقتدار على ما لا يتأتى للعباد إن ميسرها لأوان فقرهم إليها إن شاء جعلها السبب في إهلاكهم بها، فهو مذكّر واعظ ومبشّر قادر، ومعنى تصرفها تحوّلها من حال إلى حال ومن جهة إلى جهة، وكذلك صرف الدهر قلبه، وقال الحسن: الصّرف النافلة، والعدل الفريضة.

قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتَةٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] أصل البث التفريق، ثم توسع فيه ف قيل بث فيه الشّراب والسّم، ويريد بالفلك السّفن إذا أصعدوا في البحر للتجارات وما يجري مجراها، ويقع على الواحد، والجمع قال تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١١٩] وإذا أنث فلائنه أريد به الجمع، وأصله الدّوران، ومنه تفلّكت الجارية إذا استدار ثديها، وإنما استوى الواحد، والجمع فيه لأنّ فعلا وفعلا يشتركان كثيراً كمثل قولهم: العرب العرب، والعجم، والعجم، والبخل، والبخل، فمن قال: في أسد أسد، قال: في فلك فلك، فجمعه على فعل، ومثل هذا قولهم: هجان لأن فعلاً وفعلاً يشتركان في الجمع، كقولك: قضيب وقضب، وكتاب وكتب، فمن قال: كريم وكرام، وطويل، وطوال يلزمه أن يقول: هجين، وهجان. فإنّ قال قائل: لم جمعت اللّيل ولم يجمع النهار؟ قلت: النّهار بمنزلة المصدر، فهو كقولك: الضياء والظلام، فوقع على القليل

والكثير، والليلة مخرجها مخرج الواحد من الليل على أنه قد جمع في الشذوذ على نهر قال:

لولا الثريد إن هلكنا بالضمّر ثريد ليل وثريد بالنهر

وأصل التسخير: التذليل، والمراد إن الله يمسكه، وتسكين الأجسام الثقال بغير دعامة ولا علاقة فعل من لا شبه له ولا نظير، فهو القادر الذي لا يعجزه مُراد قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] يريد أن هذه البراهين على التوحيد، وبطلان التشبيه يستدل بها العقلاء، فيصلون إلى العلم بما يلزمهم، ثم العمل بها ففيه مدح المُفسرين المتأملين، وذم لمن سلك غير طريقهم، فأهملوا مع المهملين.

ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٩] إلى قوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٦].

اعلم أن هذه الآي تشتمل على فوائد كثيرة ومسائل جمة عجيبة. فمنها بيان الفائدة في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وكيف جعل قرآناً متلوّاً؟ والظاهر أنه من كلام جبرائيل مخاطباً للنبي ﷺ عند أداء المنزل إليه، ومنها: كيف مورد قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٩] والقصد إلى تبكيت المعاندين وإنذارهم وجمع الحجّة عليهم وقل إنكارهم بدلالة قوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٩] إلى غير ذلك مما سنبينه شيئاً بعد شيء إن شاء الله تعالى، فنقول وبالله التوفيق.

أما لفظة قل: فحيث ما جاء في التنزيل مبتدأ كان، أو متوسطاً، فهو أمارة كونه من كلام الله خطاباً للنبي ﷺ تبصيراً عند افتتاح القول، وتهذيباً، أو إسقاطاً للسؤال، يوجهه المعاندون نحوه امتحاناً، فكان النبي ﷺ ينتظر في مثل هذه الأحوال ما يلقنه من وحي فيدفع به مضرتهم، أو يبطل به حجتهم، أو يتوصل به إلى تعجيزهم ورد كيدهم في نحورهم، أو يستظهر به داعياً عند طلب السلامة عليهم ظهر الابتداء المعقب بقل والله يمدّه بما يعلو به أمره، ويشد به أزره فلا يجيء لفظة قل في القرآن إلّا وهو تلقين للنبي ﷺ وكموعده ينتظر إنجازه على هذا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ٩]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [سورة ص، الآية: ٦٥] ﴿وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [سورة الكافرون، الآية: ١] ﴿وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص، الآية: ١] ﴿وَقُلْ أَعُوذُ﴾ [سورة الفلق، الآية: ١] وما أشبهها.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾ فإن القوم لما تقرر الكلام عليهم واستمرارهم في لزوم الجحد ومباينتهم لنهج الحق جعل الله ابتداء الكلام خطبة على عادة العرب في مقاماتهم وعند تصرفهم في منافراتهم لأنهم يبدؤون في مقارضاتهم بحمد الله، والثناء عليه والصلوة على رسوله يأخذون في مآربهم ويستقرون في وجه القول مدارجهم لتكون طرق البيان بها أوسع، وبراهين الموجبات فيها أثبت فقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي ابتداء بالثناء على الله فيما آتاك من فضله واختصك به من كرامته، ثم اتبعه بالتسليم على إخوانك من الأنبياء الذين اصطفاهم الله كما اصطفاك، وحملهم من أعباء الرسالة مثل ما حملك، ثم سل هؤلاء الذين يُنازعونك الأمر، ويرادونك فيما تدعو إليه القول، وقل الله خير أم ما تجعلونه شركاءه.

ومثل هذا من الكلام يُستعمل مع من حقت عليه الشّمانة ولزمت الحجة وتبرأت منه المعذرة فيقرع لسوء اختياره به ويرى بعدما بين أمره فيه، ثم أخذ تعالى في إحصاء نعم الله التي تفرد بإنشائها يقرّهم على ما يضطرون إلى تسليمها ونقص يد المنازعة فيها من خلق السّماء والأرض وإنزال الغيث الذي تنبت به الحقائق، ويحيي به الموات، ويعيش منه الناس والأنعام كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢١] الآية. يقول: انظر كيف أنزل الغيث، وكيف أحيا به الأرض؟ ثم جعله فيها ينابيع إلى أن أخرج به المرعى فجعله غثاء أحوى.

ووجه التقرير بهذا تأنيسهم بما كانوا لا ينكرونه لأنهم كانوا معترفين بأن ما يدعونه من الشركاء لم ينبتوا شجرها، فكيف ما عداها، وأنّ مثل الشركاء في العجز عنها مثلهم في أنفسهم لا تباين ولا تمايز لتساوي أحوالهم وتقارب آماد قواهم، فقال ذات بهجة، ولم يقل ذوات لأنه لما كانت الجموع مؤنثة اكتفى بالتأنيث عن الجمع ومثله القرون الأولى، والأسماء الحُسنى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٠] أم فيه لتحول الكلام، عن حالٍ إلى أخرى فهي أم المنقطعة لا المعادلة، وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يَشْكُرُونَ﴾ هي المُعادلة والمفسرة بأي، وفي كلّ منهما تبكيت شديد وتعنيف بليغ وإن اختلف طريقاهما لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لِلَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٠] ممتزج بوعيد وتعجيب. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٩] ممتزج بتسخير ولو قيل إلهاً بإضمار فعل جاز. ومثله:

أَعْبَدَا حَلَ فِي شَعْبِي غَرِيباً أَلَوْ مَا لَا أَبَا لَكَ وَأَغْتَرَابَا

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٠] حكم بأن الكلمة حقّت عليهم لعبادتهم ألا ترى أنه تابع بين البراهين الساطعة والإلزامات الدامغة، فأخذ يسألهم عن

الأرض ومصيرها قراراً للخلق وما في خلالها من الأنهار، وما ثبت بها من الجبال، وعن البحرين والحاجز بينهما، وعن إجابة المضطر، وإغاثة الملهوف من يقيهما فيقول: من أنشأها وجعلها كذلك تكرر التفرع، ومثل هذا من القول مع المصير الجاحد أبلغ من كل وعيد، وأوعظ من كل نكير. قوله تعالى: ﴿فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٢] يجري مجرى الالتفات في كلام البلغاء لأنه تعالى بعد تعداد آلائه عليهم وعلى جميع الخلق معهم، وبعد إظهار الآيات البينة وذهابهم عن المناهج المستقيمة وأنهم لا يرجون بالتندر ولا يراعون للعب.

قال: بلغت المقال في نكوصهم إليهم ويقبح فيما يورثونه من صوابهم لديهم: ﴿فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو لا يثبت بالقليل شيئاً وإنما هو نفي خالص فكأنه قال: لا تذكرن شيئاً، ويجوز أن يكون انتصاب قليلاً على الظرف وعلى أن يكون صفة لمصدر محذوف قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٣] يريد من يسيتركم ويرشدكم إلى القصد والسمت في تلك الحال، ﴿وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٣] أي أمام الغيث ناشرة، أو مبشرة، فقد قرىء نشرأ بالتون، وبشرأ بالباء، ومعنى النشر ضد الطي أي تفتح الأرض، وتخرج أطباقها للمطر والنبات كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٢٢]، وختم الكلام بإعادة التأكيد لأن هذه المسائل لا أجوبة لها تعالى الله عما يشركون، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٤] جعل الخطاب في هذا الفصل، وفي فصلين قبله وهما: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٢] و﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بلفظ المستقبل بعد أن ساق في أول الفصول الكلام على بناء الماضي فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٠] ﴿وَأَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [سورة النمل، الآية: ٦١] لأن بعض أفعاله عدم وحصل محصل المستكمل المفروغ منه، وفعل ما يساء في خلقه حالاً بعد حال، فهو كالمتمصل الدائم لذلك خالف الآخر الأول، وقال بعد المسائل التي ربها معجزاتها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٤] على مقاتلتكم، واستأنف تعليم النبي ﷺ بما يورده عليهم في إنكارهم البعث واستعجالهم من التشور بعد الموت لما قالوا: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٧] ﴿وَأَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٧] ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٨] فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٥] فما غاب عنكم كيف تحكمون عليه بالبطلان والامتناع، وقد استوى المخلوقون في استبهام أمر الساعة عليهم فلا يشعرون متى يبعثون ألا تسمع قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٧] وإذا

كان القيامة من الغيب الذي استأثر الله بعلمه لما تعلق بخفائه من مصالح المكلفين، فالمتكلم فيه آمن الكفار واقف من مطلوبه موقف الخزي والخيبة، والراجع من مرتاد القيامة يفوت السلامة:

قوله تعالى: بل أدرك علمهم في الآخرة استهزاء بهم جعل علمهم كالثمر المنتظر ينعه وتكامله، فإذا تم بلوغه قيل أدرك، وقرىء بل إدراك علمهم، والمعنى تدارك، وهو أبلغ في المعنى لأنَّ تفاعل بناء لما يحصل شيئاً بعد شيء على هذا قولهم: تداعى البناء وتلاحق القوم وما أشبهه، ثم قال مرزياً بهم ومبطلاً لظاهر ما أعطاهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٦٦] فانظر كيف ارتجع منهم ما بذله وعلى أي ترتيب رتبته لأنه قال: بل أدرك علمهم بلسان التهكم والهزاء، ثم حطهم عن تلك الرتبة فقال: بل هم في شك منها فضعف علمهم وإدراكهم بالشبهة العارضة لهم إذ كان الشك لا يحصل إلا لعارض شبهة، ثم قال: يجهلهم ويردهم إلى أسوأ منازل الباحث، فقال: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾، وقال بعض أصحاب المعاني: بلغني عن ابن عباس أنه قرأ: بلى إدراك يستفهم، ويشدد الدال، وهو وجه جيد لأنه أشبهه بالإستهزاء بأهل الجحد كقولك للرجل بكذبه والعمى المذكور بإنما هو من الرّي دون البصر، وهذا بين والحمد لله.

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥] إلى ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥] أراد بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نور السموات والأرض﴾ أنَّ الآيات الباهرة الدالة عليه وعلى أنه لا نظيره ولا شبيهه، وأنَّ العبادة لا تحق إلا له مبينة مضيقة لعذر من شبهه بخلقه ظاهرة ظهور المصباح لذي وصفه في المشكوة التي بين أمرها إذا كان الله تعالى خالق الظلم والأنوار، ثم جعل المصباح في زجاجة صافية تُشرق إشراق الكوكب المضيء الوقاد، وقد استصبح ذلك السراج بزيت من شجرة زيتون قد بورك فيها ثابتة على خط استواء لا شرقية، فيكون خطها منها العشيات فقط بل تستوفي قسطها مما ينميها ويربّيها كل وقت حتى إنَّ عصرها إذا اعتصر يقرب من أن يشرق وإن لم تمسه نار، ثم قال: ﴿نور على نور﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥] يعني نور المصباح، ونور الزجاج، ونور الزيت يدل على أنَّ أسبابه متعاونة في الإضاءة فكل موادها نور مفرد لو اكتفى به في الإشراق لأغنى عن غيره، فيقول: إنَّ هذه الأنوار المجتمعة المترادفة مثل لآيات الله في وضوحها، والدلالة على وحدانيته، فلا شبهة تعرض لناظر ولا مرية يتسلط على خاطر فكل من ضل عما دعي إليه فإنما أتى من قبل نفسه وسوء تأتبه، أو من هو يجذبها إلى الضلال فيرده. فإن قيل: هل تعرف في نظوم كلامهم مثل هذا التركيب، والتلفيق؟ أو هل تعرف في الأمثال المضروبة لتأكيد القصص والأخبار ما أسس هذا التأسيس؟

قلت: هم يقولون مثل هذا إذا قصدوا التنبية على تناهي الشيء وبلوغه أقصى مأخذه حتى يستغرق أكثر أوصافه على ذلك قول الأعشى، وهو يهول أمره ويعظمه فيما قاساه في الغزل حتى بلي فيه بما لا مزيد على شأنه فقال:

علقتُها عَرَضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرَّجُلَ
وعلقته فتاةً ما يخافُ لها من قومها ميت يهذي بها وهَلْ
وعلقتني فتاة ما تلا يماني فاجتمع الحبُّ حباً كلُّه تبَلْ
فكلنا هائم يهذي بصاحبه فآبَ ودانَ مخبولٌ ومختبل

فهذا من الباب الذي نحن فيه، وقد فعل الله مثل ذلك فيما ضربه من المثل للكفر والضلال فقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ﴾ الآية، فكما ضربَ للمثل بالنور على ذلك الحدّ من التأكيد ضربَ للكفر مثله وعلى حده.

فأما قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥] فإنه يحتمل وجهين: (أحدهما) أن يكون مثل قوله تعالى: ﴿أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢٢] وقوى بصيرته ونور منهاجه وقصده، ويجوز أن يُريد بالنور الذي يهديه له ما يفعل الله بالمؤمنين من إرشادهم إلى طريق الجنة، كما قال في صفتهم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَايمانُهُمْ﴾ [سورة التحريم، الآية: ٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قوله تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً﴾ [سورة الفتح، الآية: ٨] الآية، وهذا واضح بين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ إلى ﴿شِهَاباً رَّصَداً﴾ [سورة الجن، الآية: ٨] يُقال لمس والتمس بمعنى طلب وحمل عليهما المس أيضاً، فالحجة في الأول قوله الام على تبكيه فلا أجده يكشف ذلك قوله: فلا أجده، وفعل، وافتعل يتصاحبان كثيراً، وأما المس وخروجه إلى معنى اللمس فقد استشهد له بقوله:

مَسَسْنَا مِنَ الْآبَاءِ شَيْئاً وَكَلْنَا إلى حسب في قومه غير واضح

ف قيل المعنى طلبنا في نسب آبائنا هل فيه ما يقتضي ما أنكرناه من أخلاقهم لأنَّ المس بالجراحة لا يتأتى في الأنساب، والأحساب، ثم حمل قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٩]، وقيل معناه لا يطلب النظر في أدلة الله المنصوبة في كتابه العزيز للاقتباس من آدابه وحكمه، والاعتبار بأمثاله، وحججه إلا المطهرون من دنس الشرك ودغل الكفر، ويكون على هذا التأويل الكلام خيراً.

وقيل فيه أيضاً: إِنَّ المس هو التناول باليد، ويكون على هذا اللفظ لفظ الخبر، والمعنى معنى التهي كانه نهى الحائض والجنب، ومن جرى مجراهما من تناول المصاحف تنزيهاً لها، وتعظيماً لشأنها، والوجهان قريبان، فأما الآية فهي إخبار عن الجن المسترقة للسمع وأنهم كانوا قبل الإسلام يقعدون من السماء مقاعد تقرب الاستماع إلى الملائكة وتسهله في السماء الدنيا، فكانوا يلتقطون من تجاورهم وتذاكرهم بما يوحى إليهم امتحاناً لهم ما يلقونه على ألسن الكهنة حتى يتصوروا للناس بصورة من يعلم الغيب، فيؤمنوا بهم وذلك من الإضلال، وفساد الأدلة ما لا خفاء فيه، فقالوا: قد كان هذا فلما بعث النبي ﷺ منعنا من ذلك بما أرصد لنا من ثواب التجوم.

وقد اعتقد قوم أن انقضا الكواكب ظهر في الإسلام لأنها جعلت رجوماً للشياطين فيه، وقد جاء في الشعر القديم تشبيه المُسرع من الخيل وغيرها بمنقض الكواكب، فالأقرب في هذا أنه كثر في الإسلام، ومن قبل كان يتفق نادراً، أو يكون جعلها رجوماً إسلامياً وفيما تقدم من الزمان لم يكن لذلك من الشأن فإنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ [سورة الملك، الآية: ٥] وقوله تعالى لا يُبدل ولا يدخلُ التسميح بل هو الوحي المُحقق والخبر المُصدق.

فإن قيل: من أين لك أن الملائكة كان يرد عليهم الوحي فيتدارسونه بينهم ويجاذبونه حتى توصلت الشياطين منه إلى الاستماع. قلت: يدل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣٠] الآية، فبين أن قدم إلى الملائكة خبر ما أراه من آدم عليه السلام وما كان من ذريته في الأرض امتحاناً لهم. قوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً﴾ [سورة الجن، الآية: ٨] يعني الملائكة فدعاهم حرساً لما كان منهم من منع الشياطين من السمع. والحرس جمع حارس، ومثله غائب، وغيب. والشهب جمع شهاب، وهو النار ولولا فعل الله تعالى ذلك لكان الوحي إلى النبي يتخلله الفساد، بما يكون من الجن فله الحمد والشكر على نعمه في كل حال وسيجيء من الكلام من بعد فيه ما تزداد به هذه الجملة انشراحاً إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] الآية، نبه الله تعالى على عدد الشهور العربية، وهي التي تسمى شهور القمر. وميزان السنة اثنا عشر شهراً لأن القمر يجتمع مع الشمس في مدة هذه الأيام اثنتي عشرة مرة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً، وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [سورة يونس، الآية: ٥] وكذلك فعلت الفرس بقسمة أيام السنة باثني عشر قسماً، وجعلوا أيام كل شهر ثلاثين يوماً، وزادوا في آخر (ماه ابان) خمسة أيام سموها اللواحق، والمسرفة، الأزمنة والأمكنة / ٥

وسمّوها الكبيسة وإنما زادوا ذلك لتتم سنة الشمس .

وكذلك زادت الروم في أيام شهورهم ونقصت، وكبست ليكون أيام سنتهم موافقة لأيام سنة الشمس، وهي ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، وذكر بعضهم أن العرب كانت تعمل الكبيسة أيضاً لثلاث تغيير أحوال فصول سنتهم، وكان شتاؤهم أبداً في جمادي الأولى، وجمادي الآخرة، ويجمد الماء في هذين الشهرين ولذلك سموها بهذا الاسم، ويكون صيفهم في شهر رَمَضَانَ، وشوال، وسموا رَمَضَانَ بهذا الاسم لشدة الحر فيه، ووجدوا أيام السنة القمرية ثلاث مائة وأربعة وخمسين يوماً، وتنقص عن أيام السنة الشمسية نحو أحد عشر يوماً، وأحبوا أن تكون فصول سنتهم على حالٍ واحدة لا تتغير، وكانوا يكبسون في كل ثلاث سنين شهراً، ويجعلون سنتهم ثلاثة عشر شهراً ويسمونها النسي إلى أن بعث محمد ﷺ، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٧] الآية فلم يكبس بعد ذلك، فصار شهر رمضان يتقدم في كل سنة نحو أحد عشر يوماً، ويدور على جميع فصول السنة في نحو ثلاثين سنة، ولا يلزم نظاماً واحداً، وهذا الذي حكاه هذا الإنسان يبطله ما ذكره الله تعالى، ورواته نقلة الأخبار، وسأبيته من بعد .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] فالكتاب ها هنا هو الحكم والإيجاب ألا ترى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٦] و﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢]، والمعنى إنَّ الواجب عند الله أنَّ عدد الشهور على منازل القمر وأنَّ أعياد المسلمين وحتجهم وصلواتهم في أعيادهم وغير ذلك تدور وأنه أجراها على هذا المنهاج: ﴿يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، [سورة التوبة، الآية: ٣٦] ثم قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يُريد من الأشهر، أي جعل لها حرمة كما جعل البلد الحرام، والبيت الحرام ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] يُريد دين الإسلام قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] أي لا تدعوا مقاتلة عدوكم إذا قاتلوكم في هذه الأشهر، فتكونوا معينين على أنفسكم وظالمين لها بكشف هذا قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧]، والمعنى عن قتال في الشهر ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧] وقد تم جواب السؤال لكن الله تعالى زاد في الكلام ما انشرفت به القصة وأتى من وراء القصة، فقال: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧]، فقاتلوهم فإنكم معذرون، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَافَّةً﴾ جميعاً، ومحيطين بهم ومجتمعين . وانتصابه على الحال، ومثل كافة قولهم: قاموا معاً لا يدخلها الألف واللام، وكذلك قاموا جميعاً، وقال الزجاج: اشتقت من كفة الشيء

وهي حرفه وكأنها مأخوذة من كف لأنَّ الشيء إذا انتهى إلى ذلك كفَّ عن الزيادة ولا يُثنى ولا يُجمع لأنَّها مصدر في الأصل كالعاقبة، وقم قائماً، وكقولهم: العاقمة والخاصة.

ومن هذا قولهم: لقبته كفة كفة، والمعنى كفة ككفة، أو كفة إلى كفة، قوله تعالى: ﴿وَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] ضمان منه يُقال لنصرة المؤمنين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٧] النساء، التأخير، وقال: نسا الله في أجله، ومنه النَّسِيءُ في تأخير الدين يقول: فالذي يفعله الكافرون في تقديم الأشهر الحرم على أوقاتها التي جعلها الله لها وتأخيرها زيادة في كفر الكافرين، واستمرار في ضلالهم وذهاب عن الواجب عليهم وإنَّما كانوا يفعلون ذلك فيحلّون الشهر من هذه الشهور في بعض الأعوام ويحرّمونه في العام الآخر ليوافقوا بالتحليل تحريم الله تعالى فيحلّوا الحرام ويحرّموا الحلال.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٧] أي استحسنوا من ذلك ما هو سيئ وأتى بلفظ الخبر، عن المفعول ولا فاعل، ثم ومثله قولهم: أعجب بنفسه، وعنى بكذا وهذا كان من عادتهم كما كانوا يفعلونه في البحيرة والسائبة، والوصيلة، والحامي حتى أبطلها الله تعالى بما أنزل فيه: (والبحيرة) كانت النَّاقَةُ إذا انتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً شقّوا أذنّها، وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولا تمنع عن ماء وكلاء ولا يركبها المعى إذا لقيها.

والسائبة: كان الرّجل إذا نذر لقدم من سفر، أو براء من علة يقول: ناقتي سائبة، أو عبدي سائبة فلا يستعان بعد ذلك به ولا يُحدث عما يريده.

والوصيلة: هي الغنم إذا وضعت أنثى كانت لهم وإن وضعت ذكراً جعل لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً، وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذّكر لآلهتهم.

والحامي: كانوا إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحملون عليه ولا يمتنعونه من ماء ومرعى.

فصل في بيان النسيء

فيما قاله النَّاسُ نقلة الأخبار والمفسرون ذكروا أنه كان قوم من بني كِنانة يُقال لهم بنو فقيم يتولّون ذلك إذا اضطروا إليه عند اتفاق حرب عظيمة وداعية خطب قوية يرى في الواجب عليهم الإشتغال في المحرّم به، فكان في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب لموسمهم يقوم مُنادٍ فينادي: الآن استنسانا، واستفرضنا إلا أن المحرم صفر، وأنَّ صفر هو المُحرّم

الأكبر، فكانوا يحلّون في المُحرم ما كان فيه من قتال وسفك دم واستباحة حريم، ويحرمون في صفر ما كان مُباحاً عندهم وفي مذهبهم ليواطئوا العدة، ويبلغوا فيما رأوه من الإرادة، والمواطاة: الموافقة.

وحكى ثعلب أنّ الكناني كان يُقال له: نُعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم في الجاهلية فيقوم إذا أرادوا الصّدر عن منى فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أخاب، ولا يُرد لي قضاء فيقولون: صدقت انسينا شهراً، ويريدون آخرَ عَتَا حرمة المحرم، واجعلها في صفر فيفعله، ولهذا ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى أنّ الأشهر الحرم كانت في الجاهلية عشرون. من ذي الحجة، ثم المُحرم، ثم صفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر ربيع الآخر، وفي الإسلام هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمُحرم، ورجب ثلاثة مُتناسقة، وواحد مُنفرد، وكانت العرب تعظم رجباً، وتسميه منضل الأسنة، ومنضل الآل لأنهم كانوا ينزعون الأسنة من الحراب والزّماح توطيئاً للنفس على الكف عن المحظور فيه في مذهبهم ويسمّونه أيضاً شهر الله الأصم لأنه كان لا يسمع فيه تداعي القبائل ولا قعقة السلاح.

قالوا: فلما قام الدّين لمحمد ﷺ أنزل الله في النسيء ما أنزل ولتأكيد الأمر فيه ذكره ﷺ في خطبة الوداع فقال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السّموات والأرض السّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة مُتوالية ذو القعدة، وذو الحجة، والمُحرم، ورجب مُضر الذي بين جُمادي وشعبان». ثم انتسب الناس بعد فراغه مما أراد تأكيداً للقول فيه فقال: في أي يوم يخطب؟ ومن أي شهر هو؟ حتى أجابوه فأشهد الله على ما فعل فقال: «ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

فهذا الأمر النسيء، ومعنى قوله عليه السلام: قد استدار كهيئته هو أنهم كانوا يحلون المُحرم ويحرمون صفرًا كما ذكرنا.

ثم كانوا يحتاجون في سنة أخرى إلى تأخير صفر إلى الشّهر الذي بعده كحاجتهم في المُحرم فيؤخرون تحريره إلى ربيع، ثم يمكنون بذلك دعة، ثم يحتاجون إلى مثله، ثم كذلك، وكان يتدافع شهراً شهراً حتى دار التحريم على شهور السّنة كلّها. وقد رجع المُحرم إلى موضعه الذي وضعه الله به وذلك بعد دهر متناول، فكان النبي ﷺ أراد رجعة الأشهر إلى مواضعها وبطل النسيء.

وروي عن مُجاهد أنه قال: كانت العرب في الجاهلية يحجّون عامين في ذي القعدة، وعامين في ذي الحجة، فلمّا كانت السّنة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه كان الحج في السنة الثانية من ذي القعدة، وهي حجة قراءة براءة قرأها علي كرم الله وجهه على النّاس، ثم

حج النبي ﷺ فلما كانت السنة التي حج فيها النبي ﷺ عاد الحج إلى ذي الحجة، فذلك قوله: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

ثم قال لما فرغ من خطبته: «أَيُّ يَوْمَ هَذَا؟» قالوا: يوم حرام، قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قالوا: بلد حرام، فقال: «أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ». ومُرَاد النبي ﷺ أنه قد ثبت الحج في ذي الحجة على ما كان عليه في أيام إبراهيم عليه السلام، فهذا أيضاً طريقه، والأول أشبه وأشهر وجميع هذا، أو أكثره حكاه أبو عبيد القاسم بن سلام أيضاً. وقيل: إنما قيل رَجَبُ مُضَرٍّ لأنها كانت تعظّمه، وتحرمه، ولم يكن يستحلّه العرب إِلَّا حَيَاتَانِ خَثْعَمَ وَطِيءَ فَإِنَّهُمَا كَانَا يَسْتَحِلَّانِ الشُّهُورَ، فكان الذين ينسَوْنَ الشُّهُورَ أيامَ الموسم يقولون حرّمنا عليكم القتال في هذه الشُّهُورِ إِلَّا دِمَاءَ الْمُحْلَيْنِ.

فصل في تأويل أخبار مروية عن رسول الله ﷺ والصحابة وبيان ما يُحمد ويذم من معتقدات العرب في الأنواء والبوارح

وهذا الفصل لائق بما قدّمناه من التنزيل، فلذلك جعلناه من تمامه. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثَلَاثٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ الطَّعْنَ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةِ، وَالِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ». فالِاسْتِسْقَاءُ بِهَا مُنْكَرٌ، كما قال ﷺ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ مُخْتَلِفُونَ فِيْمَا يَرَاعُونَهُ مِنْ قِسْمَةِ الْأَزْمَانِ وَالْفُصُولِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْأَحْدَاثِ الْوَاقِعَةِ فِي الْأَحْوَالِ وَالشُّهُورِ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ صَدَقِ التَّأَمُّلِ، وَاسْتِمْرَارِ الْإِصَابَةِ مَا لَيْسَ لِسَائِرِ الْأُمَمِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا حَكَمُوا بِهِ قَدِيمًا عِنْدَ طُلُوعِ هَذَا الْمَنَازِلِ مِنْ تَحْتِ شِعَاعِ الشَّمْسِ بِالْغَدَوَاتِ فِي نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ وَسُقُوطِ نَظَائِرِهَا فِي الْمَغْرِبِ مِنْ أَحْوَالِ فُصُولِ السَّنَةِ، وَأَوْقَاتِ الْحَرِّ، وَالْبَرْدِ، وَمَجِيءِ الْأَمْطَارِ وَالزِّيَاحِ فَإِنَّهَا تَجْرِي عَلَى مَا حَكَمْتَ بِهِ إِلَى أَنْ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الشَّدُودِ، وَعَلَى وَجْهِ لَا يَحْصُلُ بِهِ الْإِعْتِدَادُ وَعَلَى ذَلِكَ فَهَمُّ مُخْتَلِفُونَ.

فمنهم من اعتقد أن تلك الحوادث من أفعال الكواكب، وأنها هي المُدْبِرَةُ لَهَا وَالْآتِيَةُ بِهَا حَتَّى صَارَتْ كَالْعِلَلِ فِيهَا وَالْأَسْبَابُ؛ وَأَنَّ لِلْأَزْمَنَةِ تَأْثِيرًا فِي أَهْلِهَا كَمَا أَنَّ لِلْأُمَكَةِ تَأْثِيرًا فِي أَهْلِهَا وَلِذَلِكَ أَخَذَ قَرْنٌ عَنْ قَرْنِ النَّاسِ بَزْمَانِهِمْ أَشْبَهَ مِنْهُمْ بِأَبَائِهِمْ، قَالُوا: فَتَصَارِيفُ الْأَزْمَانِ تَوَثَّرَ فِي الْخَلْقِ وَالْإِخْلَاقِ وَالصُّورِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَتَاجِرِ، وَالْمَكَاسِبِ وَالْهَمِّ وَالْمَآرَبِ وَالذَّوَاعِي وَالطَّبَائِعِ وَاللِّسَنِ؛ وَالْبَلَاغَاتِ وَالْحُكْمِ وَالْآدَابِ، فَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى طَرَائِفَهُمْ وَنَعَى عَلَيْهِمْ عَقَائِدَهُمْ، وَقَالَ حَاكِبًا عَنْهُمْ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَى وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية، الآية: ٢٤] الآية، وهذا تجهيل من الله تعالى لهم، وذكر بعضهم أَنَّ

الذي يدل على أنَّ شأنهم كان تعظيم الرجال والإستسلام للمنشأ والذهاب مع العصبية والهوى ما نجد من اعتقاد أكثر أهل البصرة وسوادهم لتقديم عثمان، واعتقاد أهل الكوفة لتعظيم علي، ومن اعتقاد أكثر الشاميين لدين بني أمية وحب بني مروان حتى غلط قوم فرعموا أنَّ هذا لا يكون إلا من قبل الطالع، أو من قبل التربة، كما تجد لأهل كل ماء وهواء نوعاً من المنظرة والرأي والطبيعة واللون واللغة، والشعواء والبلدة ولو كان ذلك كما ظنوا لما حسن الأمر والنهي ولا كان لإرسال الرسل معنى، ولما جاز الثواب والعقاب بلى لإستمالة الناس بالترغيب والترهيب والاصطناع والتقريب؛ والذهاب مع المألوف شأن عجيب.

وذكر بعض المفسرين وهو عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٨٢] أنه القول بالأنواء وقرأ علي، وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، فأما قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٧٨] فإنَّ للالف والعادة سلطاناً على النفوس والقلوب قوياً وأخذاً بالبصائر، والعيون عزيزاً. وكانوا إذا استهجنوا مُستكرماً، واستقبحوا مُستحسناً، وعدلوا عن مألوف إلى متروك، وعن معمول إلى مرفوض وتنقلت بهم الأحوال وتبدلت لهم الأبدال طلبوا المعاذير والعلل، وصرفوا الفكر في الأسباب والدواعي من جوانب الالف والعادة لا من نواحي النظر والتدبر لطلب الإصابة، فرضوا بأن يعملوا الظنون، والأوهام، وتحملوا تلك الأفاعيل على الأسماء فضلاً عن الذوات ثقة بما يشاهدون واغتراراً بآرائهم فيما يحكمون لذلك قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإنَّ الله هو الدهر» لأنه رآهم يقولون لذلك الإعتقاد الفاسد: أباد بني فلان الدهر، وأفناهم الليالي كقول بعضهم شعراً:

يا دهرُ قد أَكْثَرْتَ فجَعَلْتَنَا إِذَا بسراتنا ووقرت في العَظْمِ
وسهلتنا ما لست تعقبنا به يا دهرُ ما أنصفت في حِكمِ

وكقول الآخر:

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَعَلَهُ لَكَا لَدَهْرٍ لَا عَارَ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

ومعنى قوله ﷺ لا تسبوا الدهر أي لا تسبوا الذي يفعل هذه الأشياء فإنَّكم إذا سببتم فاعلها فإنَّما يقع السب على الله تعالى. ومنهم من اعتقد أنَّ تلك الحوادث من فعله تعالى لكنَّه أجرى العادة بأن يفعلها عند طلوع تلك النجوم، أو أفولها لأنَّهم مختلفون في ذلك أيضاً كأنهم يعدون تلك التغيرات أوقاتاً لها، وأمارات وسموها الأنواء باتفاقٍ منهم لأنَّ النوء يكون السقوط والطلوع، وهذا قريب في الدين والعقل لا إنكار فيه، وعلى هذا يحمل قول عمر للعباس حين استسقى: يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا. فإنَّ العلماء بها يزعمون أنها تعرض في الأفق سبعا لأنَّ هذا أمر عيان على مجار قائمة ومسير مركب، وقد جعل الله

تعالى في علم هذا وما أشبه مما ضمّنه هذا الفلك عبراً كثيرة، وآية مبصرة، ودلالة صادقة عم بجليله أكثر هذا الخلق، وخصّ بلطيفه خصائص منهم مدحهم حين تبيينه وأقاموا الشكر عليه فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] الآية، وقرأ بعضهم مبصرة فيكون مثل قول عنترة: والكفر مخبئة لنفس المنعم.

وإذا وضعت مفعلة في معنى فاعل كفت من الجمع والتأنيث يقولون: الولد مجبنة، وهذا العشب مليئة مسمنة فاعلمه.

وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ التَّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٧] الآية، وقد علمنا أنّ خلقاً كثيراً هلكوا بتفويض التدبير إلى التجوم ولإفراطهم في الأنواء قال رسول الله ﷺ: «ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبحت طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب».

وروي عنه أيضاً من وجه آخر: «لو أن الله عز وجل حبسَ المطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة بها كافرين يقولون مطرنا بنوء المجدح» ومما يدل على ذلك قول الشاعر شعراً:

يا سَحْمٌ من نتج الدَّراعين أَنَا قَتَّ مسائلُهُ حَتَّى بَلَغَنَ المُنَاجِيَا
المُنَاجَاةُ المَكَانَ المُرْتَفِعَ لَا يَبْلُغُهُ السَّيْلُ .
وقال آخر شعراً:

وَأَخْلَفَ نَوءُ المَرْزَمِ الأَرْضَ قَرَّةً لَهَا شَبِمٌ فِيهِ شَفِيفٌ وَجَالِدُ
وقال آخر:

تَرْبَعٌ من جنبي قنا فعوارض نتاج الثريا نوؤها غيرُ مُخْدَجٍ^(١)

ولو كان مُرادهم بقوله: مطرنا بنوئه كذا: أي مطرنا في نوئه على التشبيه بقول الناس: مطرنا في غرة الشهر لم يكن مكروهاً، وكذلك مذهبهم في تأمل الغيث أن لو كان على نحو توقع الناس أياماً للأوقات المعروفة بالمطر لم يكن به بأس، لأنّ الناس جميعاً يعلمون أنّ للحر والبرد والمطر والرياح من السنة وقتاً جرت العادة بتقدير الله تعالى أن يكون فيه أكثر ما

يكون، وإن كان الله تعالى يأتي به إذا شاء لولا ذلك ما عرفوا وقت حرث ولا بذر ولا ركوب بحر ولا بر، ولا انتظر حين لمجيء شيء ولا لانصراف شيء، ولكانوا ومن يُعاملهم كذلك في أجهل الجهل فمما هو ظاهر في زوال المكروه عنه قولهم: إذا طلعت الشعري سافراً ولم يروا مطراً فلا تعدون أمره ولا أمراً، لأنهم وجدوا ذلك مستمراً في العادة ومنه قول الشاعر شعراً:

إذا ما قَارَنَ القمرُ الثريا لخامسة فقد ذَهَبَ الشتاء

لأنَّ مقارنة الثريا في الليلة الخامسة من مُهِلِّهِ لا يكون أبداً إلا في قبل الدجفاء وكقول الآخر شعراً:

إذا كبَدَ النجمُ السَّمَاءَ بشقوةٍ على حين هَرَّ^(١) الكلبُ والتَّلجُ خاسفٌ

لأنه موافاته كبَدَ السَّمَاءَ في أوَّلِ اللَّيْلِ يكون في صبابة الشتاء ومما يكون على العكس من هذا في موافقة المكروه قول الآخر شعراً:

هَنَأَناهم حَتَّى أَعَانَ عليهمُ عوافي السَّمَاءِ ذِي السَّجَالِ السَّوَاجِمِ

قال أبو حنيفة الدينوري: هذا الشعر لجاهلي واتبع أثره بعض الإسلاميين فقال:

هَنَأَناهم حَتَّى أَعَانَ عليهم من الذَّلُو أوعو السَّمَاءِ سَجَالِها

قال وهنوء القوم أن يكفَّهم مؤنة وقد يجيء من كلامهم ما يغمض، فيرد بالتأويل إلى كل واحد من النَّاسِ، وللقائلين بالأحكام في النجوم مُضَاهَاة للقوم في إثباتهم السَّعد والنَّحس بمقتضيات الكواكب إلا من عَصَمَهُ اللهُ تعالى والله الأمر والحكم يفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد لا رادَّ لأمره، ولا مناص من قضائه.

وقد روي عنه ﷺ: «من تعلَّم باباً من النجوم تعلَّم باباً من السَّحَرِ ومن زاد استزاد». كما روي عنه ﷺ في بعض خطبه أنه قال: «ما بال أقوام يقولون إنَّ كسوفَ هذه الشَّمسِ، وخسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال قد كذبوا». الزَّوال، والزَّولان بمعنى وهذا يمكن حمله على قوله: إنَّ من البيان لسحراً، فيكون الكلام مدحاً لهذا العلم، وللمشتغلين به إذا تبرؤوا من الحول والقوة ومما يدخلهم في الإشراك بالله والتَّسليم إلى الكواكب.

وقال ابن عباس لعكرمة مولاه اخرج فانظر كم مضى من اللَّيْلِ؟ فقال: إني لا أبصر النجوم فقال له ابن عباس: نحن نتحدى بك فتیان العرب وأنت لا تعرف النجوم، وقال:

(١) هَرَّ الكلب: صات دون نباح.

وددت أني أعرف هفت، ودوازه يُريد النجوم السبعة السيارة، والبروج الاثني عشر، وقال معاوية لدغفل بن حنظلة العلامة وقد ضمه إلى يزيد علّمه العربية والأنساب والنجوم: أترى هؤلاء حضّوا على الضلالة، ورغبوا في السفاهة، فتأمل ما ذكرته فإنه واضح.

فإن قيل: إذا كان القول في قضايا النجوم على ما ذكرته فما وجه قول إبراهيم عليه السلام مخاطباً لقومه وهم يعبدون الأصنام ليقربهم إلى الله زلفى: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَتَنَزَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٨٧ - ٩٠] قلت: قد تكلم الناس في هذا فقال بعضهم النجوم جمع نجم، وهو ما نجم من كلامهم لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، ونظر نظرة معناه تفكر ليدبر حجة فقال: إني سقيم يُريد سقيم من كفرهم وإيمانهم بغيره، وهذا كما يُقال أنا مريض القلب من كذا وإنما تخلف عنهم لما أضمر من كيد أصنامهم لأنّ حجته عليهم في تعطيل عيدهم فلمّا غابت عيونهم جعلها جذاذاً.

وسئل ابن الأعرابي عن معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٦٠] معنى يذكُرهم يعيهم وأنشد:

لا تذكرني فرسي وما أطمعته فيكون جلدك مثل جلد الأجرِب

قال أبو إسحاق الزجاج: قال ذلك لقومه، وقد رأى نجماً فقال: إني سقيم يوهمهم أنّ به الطّاعون، فتولّوا عنه مُدْبِرِينَ فراراً من أن يعذبهم الطّاعون، وإنّما قال: إني سقيم لأنّ كل أحد وإن كان مُعافى لا بدّ له من أن يسقم ويموت. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٣] أي أنك ستموت فيما تستقبل فكذلك إني سقيم أي سأسقم لا محالة. وروي في الحديث لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا في ثلاث وإنّ هذه الثلاث وقعت فيها معارضة. وذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٦٣] فقد فعله كبيرهم، وقوله في سارة: هي أختي في الإسلام. وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٨٩] على ما فسرناه، وقال أبو مُسلم: عطف بالفاء هذا الكلام على ما تقدم من أمره في مخاطبة قومه بقوله: ماذا تعبدون، قال: ونظرة في النجوم هو الذي أخبر الله تعالى به عنه إذ يقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٠] إلى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٩] فكانت نظرته تلك للتين.

فلما أراه الله الآيات في نفسه، وفي الآفاق كما قال الله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ الآية، قال لقومه: ﴿أَتَفْكَا آلِهَةً دُونََ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٨٦] وذلك حين قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة

الأنعام، الآية: ٧٩] الآية، وكان قوله: ﴿إني سقيم﴾ قبل التبين، وأراد بالسقيم أنه ليس على يقين ولا شفاء من العلم ويقول الرجل إذا سأل عن شيء فصدّق عنه وبين له: شفاني فلان فلما كان العلم واليقين شفاء صلح تسمية الحال التي قبل كنه البيان سقماً.

وقد قال الله تعالى في قوم لم يكونوا على إيمان محض: ﴿ففي قلوبهم مرضٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٠]، وهذه الحال التي انتسب فيها إبراهيم عليه السلام إلى السقم هي الحال التي فيها البلوغ، ووقوع التكليف من الله عزّ وجلّ ولزوم أمره ونهيه، والفاء في قوله تعالى: ﴿فقتلوا﴾ فاء عطف أيضاً يعطف بها ما هي معه من الكلام على قوله: ﴿أنفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم بربّ العالمين﴾، فلما دعاهم إلى الله تعالى، وأنكر عليهم عبادة ما يعبدون دون الله تولوا عنه مُدبرين.

وزعم قومٌ لا يعقلون أنّ إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات هي واحدة منها، وحاش للرسول الذي اتّخذ الله خليلاً أن يكذب، أو يأتي بالقبايح، والذي توجهه التلاوة وشهادة بعض القرآن لبعض، ويحسن في أوصاف أنبياء الله وصفوته من عباده هو ما ذكرناه، وتلخيص ما في هذه القصة منذ ابتداء ذكر إبراهيم إلى حيث انتهينا أنّ الله تعالى أثنى على إبراهيم بأنّه وافق نوحاً في الإيمان والإخلاص حتى توفاه الله على ذلك سليم القلب لثلا يشرك به شيئاً وأنه نظر فيما خلق الله من النجوم فاستدلّ على خالقها بها وتبيّن له بالتأمل لها أنّ إلهاً وآلهة واحد ليس كمثله شيء وهو رب العالمين، وخالق الخلق أجمعين ودعا قومه إلى مثل ما أراد الله، وهداه له وزرّى عليهم، وعاب اختيارهم في عبادة الأصنام لا تسمع ولا تُبصر ولا تغني عنهم ولا عن أنفسهم شيئاً، فتولّى القوم عنه مدبرين عند ذكره ربّه كما قال تعالى في الكافرين من قوم النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخَدَّهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ [سورة المدثر، الآية: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَخْدَهُ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٤٥] الآية. وقال بعض أهل النظر إنه عليه السلام رآهم يعتمدون فيما يعن لهم ويحدث وفيما يستأنفون من مبادئ الأمور، ومفاتحها على النظر في النجوم وأحكامها، فاقتدى بهم تأنيساً لهم وأخذاً بعاداتهم ليسكنوا إليه بعض السكون وإن لم يركنوا كلّ الركون.

وقوله: ﴿إني سقيم﴾، وإنّ قاله مُتأولاً، ففيه استنباء، ورجاء رفق منهم إمّا لعله، وإمّا للتربص به حتى يأتموا شرّه، ويشهد لهذا قوله: ﴿فقتلوا عنه مُدبرين﴾ [سورة الصافات، الآية: ٩٠] وهذا حسن قريب.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٨٨] يعني به ما ينجم من نبات الأرض كأنه كان يقلب الأدوية متخيراً منها ما يقرب الشفاء عنده، وقيل

أيضاً أراد نظر فيما كان ينزل عليه من نجوم الوحي كيف يتوصل إلى ما يهم به في ألهمهم، وبماذا ابتدئ ومن أين مخلصه إذا أقدم ويكون قوله: ﴿إني سقيم﴾ اختداعاً منه لهم وإيداناً منه بأنه مشغول بنفسه تارك لما كان لا يؤمن من مكائد، وهذا نهاية ما يقال. فأما قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٩٣] يُريد مال عليها بالضرب، كما تقول: التقى الفريقان فراغ أحدهما: أي عزل عن الحرب يُقال دار فلان رائغة عن الطريق أي عدله، وقوله: باليمين قيل: بيده اليمين، وقيل: هي يمين كان حلف بها، وهي قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٥٧] وقيل بالقدرة كما قال:

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ تلقاها عرابةٌ باليمين

وقيل: راغ معناه أقبل مُستخفياً كروغان الثعلب، وكذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فجاءَ بِعَجَلٍ﴾ أي لم يُرد أن يشعروا به.

فصل آخر

وذكر أبو علي الفارسي فيما سمعته منه أنَّ قولَ النبي ﷺ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ القَمَرَ ليلةَ البدر لا تضامون في رؤيته» [سورة الذاريات، الآية: ٢٦] أنَّ هذا ليس من الرؤية التي هي إدراك البصر بل هي بمعنى العلم وساغ حذف المفعول الثاني الذي تقضيه تلك لأنَّ الكلام قد طال ما هو بمعنى المفعول الثاني لو أظهر، ألا ترى أنَّ قوله: كما تَرَوْنَ القَمَرَ ليلةَ البدر تأكيد، وتشديد للتيقن، وتبعد من اعتراض الشبه على العلم به تعالى، وإذا كان بمنزلة ما بمنزلة المفعول الثاني إذا جرى ذكره في الصلّات نحو: علمت أنَّ زيداً منطلقاً، وأحسب الناس أنَّ يتركوا فلماً سدَّ ما جرى في الصلّتين مسدِّ المفعولين، ومن قال: إنه يُضمَر في الموصولين مفعولاً ثانياً كان قياس قوله: أنَّ يضمَر هنا مفعولاً ثانياً كأنَّه ترونه مُتيقناً، ونحو ذلك وأن يُقال: إنَّ ما ذكر سدَّ مسدِّ المفعول الثاني أقيس.

ألا ترى أنَّ ما جرى في صلة أن بعد لو في قولك: إنك لو جئتني قد سدَّ مسدِّ المفعول الذي يقع بعد لو حتى لم يظهر ذلك الفعل معه، واختزل فكذلك المفعول مع الموصولين في هذا الباب، ومثل هذا قوله: أعنده عِلْمُ الغيبِ فهو يرى لأنَّ القولَ في يرى أنها التي تتعدى إلى مفعولين لأنَّ علم الغيب لا يوجب الحسن حتى إذا علمه أحسن شيئاً، وإنما المعنى عنده علم الغيب مثل ما يشهده لأنَّ من حصلَ لَهُ علم الغيب يعلم ما يغيب كما يعلم ما يُشاهد.

فإن قلت: فكيف حذف المفعولين جميعاً؟ قيل: المعنى أعنده علم الغيب، فهو يرى الغيب مثل المشاهد والمبتدأ والخبر قبل دخول رأيت عليه كان الغيب فيهما مثل المشاهدة، ثم حذفاً للدلالة عليهما وقد قال الأعشى:

فأنيت قيساً ولم أبله كما زعموا خير أهل اليمَن

وقال الكُميت: (ترى حَبَّهم عاراً علي وتحسبُ)، فالدلالة من الفحوى والمعنى في الآية على المفعولين المحذوفين كالدلالة عليهما في البيتين لجري ذكرهما فيهما وإنما ذكرنا ما قاله لغرابته.

فصل آخر في جواب مسائل للمشبهة من الكتاب والسنة مما تستدل به المشبهة

أنهم قالوا قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة غافر، الآية: ٧] وقال: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ خَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٧٥] ثم قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه، الآية: ٥] وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣] كما قال: ﴿وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٠٠] ولا فصل بين الكلامين وقال أيضاً: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥] والكرسي والعرش بمعنى ومما جاء في الخبر قول النبي ﷺ حيث حكم في بني قريظة: «لقد حكمتُ بحكم الله من فوق سبع سموات» (وعنه) حين قال: «فأقوم على يمين العرش» ولا يكون يمين إلا لما له يسار، قالوا فقول الله: ﴿ومن حوله﴾ و﴿حافين من حول العرش﴾ فيه دلالة على أنَّ العرش مطاف يطاف به، ودُوار يُدار عليه وهذه المواضع وأشباهها عمدتهم.

والجواب عنها أنَّ للعرش مواضع عدة في كلام العرب منها الملك والعز وقوام أمر الرجل وملاكه ويشهد له قولهم ثل عرش فلان إذا أزيل وحطَّت رتبته ومنها سرير الملك ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النمل، الآية: ٢٣] وقوله: ﴿أَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٤٢] ويجمع على العرشة والاعراش. ومنها سقف البيت وما يستظل به والعرش كذلك، ومنه قيل عرش المكرم فهو عرش وقالوا عرش السماك لكواكب أربعة تشبَّهاً به لأنه على صورة التعش. ومنها طي البير بالخشب بعدما يطوى موضع الماء منها بالحجارة، ويقولون عَرَّشُوا بَيْرَكُمْ وإذا ثبتت هذه الوجوه حقيقة وتشبَّهاً في لفظة العرش، فالواجب حملها حيث جاءت على الأليق بالمعنى مع قرائنه والأقرب في الاستعمال والأشبه في قضية السمع والعقل وهذا الذي ذكرناه هو الميزان عند طلب الرَّجْحَانِ حيث حصل الاشتراك في الألفاظ وغيرها.

فأما الخبر المروي وهو: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات» فقول من فوق ظرف لقوله حكم الله ومتعلق به فهو كما يقال حكم الله العالي المكان الرَّفِيعَ المحل

والقدر وأنت تصف الحكم ولا يجوز أن يكون متعلقاً بلفظة الله لأنه تعالى لا تحويه الأماكن ولا تحيط به الأقطار والجوانب والمعنى بحكم يشبه حكم الله الذي محلّه ومكانه من الإصابة والغلبة والعلو فوق سبع سموات وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [سورة غافر، الآية: ٧] ومنهم من يطوف به وكلّهم يسبح الله بالحمد له والاعتراف بنعمه والإيمان بجميع ما تعبد الله به خلقه ويستغفرون لمن في الأرض إلى الشفاعة التي قال الله تعالى ما حالهم ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة، الآية: ١٧] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة، الآية: ١٨] يريد أن جميع من خلق الله من البشر في ذلك اليوم يعرضون بأعمالهم وأقوالهم، وكلّ ما أعلنوه وأسرّوه أيام حياتهم فيحاسبون عليه، وذلك كما يستعرض السلطان جنده بأسلحتهم ودوابهم وآلاتهم، فأما العدد المذكور فهو مما استأثر الله به ومثله مما رأى الله تعالى إيهام الأمر فيه والكف عن بيانه كثير، وذلك لتعلّق المصلحة بأن يكون حازماً وسائر ما سألو عنه إذا أجملناه.

فإنّا نقول في جوابهم الشامل لمقالهم المسقط لكلامهم لما أن كان أسفل الأشياء الثرى وكان أعلى الأشياء السماء السابعة ثم الكرسي ثم العرش فكان الله تعالى قد جعل للأعلى في القلوب من التعظيم والقدر والشرف ما لم يجعل للأسفل، كما عظم بعض الشهور وبعض الأيام وبعض الليالي وبعض الساعات، وبعض البقاع وبعض المحال، وكان قد جعل للعرش ما لم يجعل للكرسي وجعل للكرسي ما لم يجعل للسماء السابعة ذكر العرش والكرسي والسماء بما لم يذكر به شيئاً من سائر خلقه فذكر مرة العرش والكرسي والسماء في جملة الخلق، وأنّه عال على جميعها بالسلطان والقدرة والقوة حيث قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٠٦] وحيث قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٤٥] وقد يقول الرجل فلان شديد الإشراف على عمّاله وليس يذهب إلى إشراف بدنه ورأسه، قد خيّر الله أنه على كلّ شيء قدير ومقتدر وحافظ وظاهر، وقد قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٣] والعرش شيء هو عالٍ عليه بالقدرة، والظاهر عليه بالسلطان وإنّما خصّه بالذكر إذ كان مخصوصاً عندنا بالنّباهة وأنّه فوق جميع الخلق فذكر مرة في الجملة ومرة بالإبانة قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥] فخبر أنه عالٍ عليه وحافظ له ومانع له من الزوال وقوله ﴿كُرْسِيِّهِ﴾ كقوله بيته ولو كان متى ذكر أنّ له كرسيّاً وعرشاً فقد أوجب الجلوس عليهما كان متى ذكر بيته فقد أوجب أنّه ينزله ويسكنه وليس بين بيته وعرشه وكرسيه وسمائه فرق، ولو كنّا إذا قلنا: سماؤه فقد جعلناه فيها كنّا إذا قلنا أرضه فقد جعلناه فيها قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴿سورة البقرة، الآية: ٩٨﴾ فأدخلهما في جملة الملائكة ثم أبانهما إذ كانا باثنين من سائر الملائكة، وكذلك سبيل القول في العرش والكرسي والسماء والأرض والحوث، والثرى، لأن الكرسي إذا كان مثل السماوات والأرض والعرش أعظم منه فمتى ذكر أنه عالٍ على العرش وظاهر عليه فقد خيّر أنه على كل شيء قدير، وقد يكون العلو بالقدرة والاعتلاء، فمرة يذكر العرش، ومرة يذكر الكرسي دون العرش، ومرة يذكر السماء دون الكرسي ومرة يقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣] بعد أن قال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ وترك ذكر الأرض فلو كان إذا ذكر السماء دون الأرض كان ذلك دليلاً على أنه ليس في الأرض كان في ذكره أنه على العرش، دليل على أنه ليس في السماء وقد قال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الملك، الآية: ١٧] ومرة يذكر معاً الأمور، وجلال الخلق، وكبار الأجسام وأعالى الأجرام، ومرة كل شخص كيف كان وحيث ما كان كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ٧] الآية. وقد قال أيضاً على هذا المعنى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقال: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٨٥].

فإن زعم القوم أنه إنما ذهب إلى معنى القدرة والعلم لأن قربه منهم كقربه من العرش قلنا: فقد صرتم إلى المجازات وتركتم قطع الشهادة على ما عليه ظاهر الكلام، فكيف نعتمد ذلك علينا، حين زعمنا أن تأويل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه، الآية: ٥] ليس على كون الملك على سريرته بل هو على معنى العلو والقدرة والحفظ والإحاطة والظهور بالسلطان والقوة وهذا بين والحمد لله.

فإن قالوا: ما تأويل استوى؟ وما فائدة على؟ قلنا: قد زعم أصحاب التفسير عن ابن عباس وهو صاحب التأويل والناس عليه عيال، أن تأويل قوله: استوى استولى، وقد قال تعالى لنوح: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٢٨] ولم يرد الله تعالى أنهم كانوا مائلين فاعتدلوا، وإنما معناه فإذا صرتم في السفينة فقل: كذا وكذا، وقد يقول الرجل: قلت كذا وكذا ثم استويت على ظهر الدابة بعد أن لم أكن عليها فقلت كذا وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢٢] وإنما يريد: فلما انتهى وبلغ جعلناه حكيماً، وكما يقال للغلام المقدود: هذا غلامٌ مُسَوٍّ فإن قالوا: قد عرفنا هذه الوجوه ولكن ما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [سورة فصلت، الآية: ١١] قلنا معناه: ثم عمد إلى السماء فخلقها كما قال ابن مقبل شعراً:

أقول وَقَدْ قَطَعْنَ بِنَا شُرُورِي عوامدِ اسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجْوَعِ

أي خرجن، وقال الآخر:

استوت العيرُ إلى مروانَ مسيرَ شهرٍ قبله شهرانِ

ولفظة على تختلف مواقعها، فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا آيَاتُهُمْ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٢٥] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة، الآية: ١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعَ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة، الآية: ١٨-١٩] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَضُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ﴾ والمراد في الجميع اللزوم والوجوب ومنها قول الفرزدق شعراً:

ولو أني ملكتُ يدي ونفسي لكان عليّ للقدّر الخيارُ

وإنما قال هذا حين نديم على تطبيق امرأته نوار وأوله:

نديمٌ ندامة الكسعي لما غدت مني مُطلقةً نوارُ

والمعنى لو ملكت أمري فكان عليّ أن أختار للقدّر، ولم يكن على القدر أن يختار لي، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود، الآية: ٧] وهذا كما أنّ السماوات بعضها على بعض، ويجوز أن يكون عليه على جهة الالتزاق. ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٣٣] وهذا من قولهم: على فلان نذر، وعليه حتم وعليه يمين. ومنها قوله:

سلامُ الله يا مَطَرُ عَلَيْهَا وليسَ عليك يا مَطَرُ السَّلامُ

ومنها قول الآخر شعراً:

ولا الحيّ على الحدثانِ قومي على الحدثانِ ما تبني السَّقوفُ

يقول: لا ألوم قومي أن يحنوا عليّ وأن يحدثوا الأحداث. فعليّ احتمال ذلك بنى بيت السّودد. ومنها قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٩] فمعنى مر على قرية مر بجنابتها، ولم يُرد أنّه مر فوقها، وقوله: هي خاوية على عروشها: يريد وهي خالية على عروشها أي هي على ما بها من السّقوف خالية كما يقال: زيد على كثرة محاسنه متواضع. وقال بعضهم: أراد بقيت حيطانها لا سقوف لها وما قلناه أشبه. وقال أبو عبيدة، هي الخيام وبيوت الأعراب، ومنها قولهم: عليك الجادة والطريق الأعظم في الإغراء بها وفي القرآن: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصْرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٠٥] هذا ما حضر من مواضع علي.

فصل آخر

وهو بيان قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٤] وبيان قول القائل: الله أعلم بنفسه من خلقه والفصل بينهما.

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٤] فلا يجوز أن يكون انتصاب حيث على حد انتصابه إذا كان ظرفاً لأن علمه تعالى في جميع الأماكن على حد واحد لا يدخله التزايد والتناقص، وإذا لم يسقم حمل أفعّل على زيادة علم في مكان فيجب أن يحمل على انتصابه انتصاب المفعول به، ويكون العامل فيه فعلاً مضمراً يدل عليه قوله: (أعلم) ويحصل الاكتفاء بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ ثم أعلم يدل على يعلم مضمراً أو التقدير الله أعلم العالمين يعلم حيث يجعل رسالاته فيختار لأدائها من يصطفيه ومثل هذا قول الشماخ شعراً:

وَجَلَاهُمَا عَنْ ذِي الْأَرَاكَِةِ عَامِرٌ أَخُو الْحَضِرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاجِرُ
فقوله: حيث مفعول لأنه هو المرمي إذ لم يجز أن يكون المعنى يرمي شيئاً في ذلك المكان وهذا مثل قول الآخر:

أَكْرُوا حِمَىً لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَاضْرِبْ مَنَا بِالسَّيْفِ الْقَوَانِيسَا

انتصب القوانيس بفعل مضمّر دلّ عليه قوله واضرب منا.

وأما قول القائل: الله أعلم بنفسه من خلقه حتى قيل: لم يزل معلوماً لنفسه فاعلم أنّ هذا الكلام له منصرفات بعضها يجوز ويحسن في وصفه تعالى، وبعضها يمتنع، فإن أردت بقولك نفسه صفة لأنه به حسن، وجاز ويكون هذا كقوله في صفة قدرته وتدبيره وعظمته وإرادته وكرمه ورحمته: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٩] وكذلك إن أردت أنّ علم العبد قد يعترض فيه الشك ويتسلط عليه التسيان ويعتريه الآفات كالغشي والنوم والموت فتعطله وعلم الله يدوم ويثبت على حد واحد كان صواباً وقائماً وصحيحاً (وإن أردت أنّ علمه بذاته متكامل فهو يسعها وعلم خلقه بها متناقص فيعزّ عن الإحاطة بها كان غير لائق به وممتنعاً من تجويزه فيه، وكذلك إن أجريت مجرى قول القائل إنّ جبرائيل أعلم بالله من الإنسان، تريد أنّ علمه أعلّق به وألزم له كما يزداد حبّاً على حب، ويكون تعين أثبت من تعين امتنع أيضاً وذكر النفس ليس يثبت به شيء غير الذات وكذلك الوجه في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٧] وليس ذلك على ما ينسب إلى المحدثين من الأعضاء وكذلك العين إذا قلت عين الشيء ويصح أن يقال: الله أعلم بنفسه من خلقه ويراد أنه أذكر لوجوه القدرة وصنوف ما تدل عليه الحكمة والعظمة

ولجميع صفاته العلى وأسمائه الحسنى فلا أمدّ لعلمه، ولا نهاية ولا مدد ولا غاية. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٧] الآية، وهذا لأنَّ العبد لا يكون ذاكرةً من وجوه القدرة والحكمة كلّها إلّا ما علم منها والله تعالى ذاكر لها كلّها، ويكون هذا كما يقال فلان أعلم بالله من فلان، ويراد أنه قد عرف أنَّ الدنيا محدثة من وجوه عدة، وأنَّ الآخر لا يعرف ذلك إلا من وجه واحد، وقد ظهر بما بيّناه الفصل بين ما يُسأل عنه في الموضوعين جميعاً.

فصل في تبين المحكم والمتشابه

من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ والحكمة في إنزاله مقسماً بين الوجهين المذكورين والكلام في المعارف والمعجز.

اعلم أنَّ الله تعالى لما ابتلى العقلاء بتكاليف الدّين بعد إزاحة العلل وتسهيل السبل وبعث الرّسل ربّ في مراسمه مراتب، وجعل لكلّ مرتبة قدراً من الجزاء والمثوبة ترغيباً في الاستكثار من طاعته، وحضاً على التنافس في أشرف المنازل لديه ومن أجل تلك المراسم ما ندب إليه من تدبّر كتابه الحكيم الجامع للأوامر والنّواهي وأصول الحلال والحرام، والمندوب إليه والمباح، وقصص الأمم السّالفة، وأخبار الأنبياء معهم، والمواعظ والأمثال، والحكم والآيات والنّذر والمثلات، والعبر والامتنان بأنواع النعم، والإخبار بالشيء، قبل كونه والتنبيه على مغيبات الأمور وسرائر القلوب من دونه، هذا وقد أنزله علماً لنبيّه يتحدّى زمان الفصاحة، وأوان التبليغ بالبلاغة جعل بعضه جلياً واضحاً وبعضه خفياً متشابهاً، ليعمل من تسمو نفسه إلى أعلى الدرجات فكره، فيمتاز في العاجل بما يستنبطه ويشيره من جليل العلم ودقيقه عن غيره ممن لم يسع سعيه، وإن جاهد في ربه ويعتاز في الأجل عند الله من الزّلفة وجزيل المثوبة ما يقرب من غايات الأنبياء وذوي العزم والتّصحيحه فلولا حكمة الله فيما ذكرته لبطل التّفاضل فيما هو أشرف وتدانّت الأقدار فيما هو أفخم.

ألا ترى أنَّ الصّبر في أعمال القلب وأعمال الفكر وكد الرّوح لتتأخّر النّظر ليس كالصّبر في إتعاب الجوارح وإنّصاب الأرباب والمفاصل، لذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩] فأما ما روي من أن لكل آية ظهراً وبطناً ومطلعاً فالمعنى لكلّها لفظ ومعنى، ومأتى أي طريق يؤتى منه فيتبين علمه من ذلك الطّريق وقيل أيضاً فيه: الظّهر للإخبار عن مخالفة الأمم وهلاكها والبطن يكون تحذيراً أي لا تفعلوا فعلهم فتهلكوا هلاكهم.

وحكى عن النظام أنه قال القرآن كله أو بعضه جاء على كلام العامة في أمثالهم إياك أعني فاسمعي يا جارة. وقد ظهر وجه الحكمة بما بيناه في تنزيله بعض الكتاب محكماً وبعضه متشابهاً فأما التنبيه على كل نوع منهما فإننا نقول وبالله التوفيق:

اعلم أنَّ المحكم من الآي هو الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً فيوافق ظاهره باطنه إذا تأول كأنه أحكم أمره ومنع متدبره من تسليط الشبهة عليه كما منع هو في نفسه من أن يتورده الاحتمال، وأصل الأحكام المنع. ومنه حكمة الدابة فإن قيل: إن الله تعالى قد وصف آيات القرآن كلها بمثل هذه الصفة لأنه قال تعالى: ﴿الرَّكَّابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود، الآية: ١] وإذا كان كذلك فالتشابه محكم أيضاً ويؤدي ظاهر الآيتين إلى تناقض قلت: إن قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ معناه أنقنت وأتي بها على حد من الوثاقة في النظم والإصابة في المواضع لا يتخللها اختلال، وهذا كما يقال للبناء الوثيق محكم. وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿الرَّكَّابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [سورة يونس، الآية: ١] فجعل الكتاب حكيماً بما تضمنه من الحكمة وإذا وضع ذلك فقد سلم ما قلناه ولم يحصل بحمد الله تناقض، ويشهد لما تأولنا عليه المحكم أنه جعل في مقابلة المتشابه.

وجوز بعض المتأولين أن يكون معنى أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ أجملت من حيث جاء بعده، ثم فُصِّلَتْ إذ كان الإجمال والتفصيل يتعاقبان، وهذا الذي قاله لا يعرف في اللغة، والمتشابه هو الذي دخل في شبه غيره فيعتوره تأويلات أو أكثر، ومن شرطه أن يرد إلى المحكم فيقضي به عليه، لهذا قال تعالى في صفة ثمر الجنة: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥] فقليل المعنى يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن. وقال المفسرون: يشبه بعضه بعضاً في الصورة ومختلف الطعوم وقد وصف تعالى الكتاب كله بالمتشابه كما وصفه بالحكيم، وكما وصف آية بالإحكام فقال: كتاباً متشابهاً والمعنى يصدق بعضه بعضاً فلا يختلف ولا يتناقض. وقل عليّ لابن عباس حين وجه به إلى الشُّرَاءِ^(١) قبل القتال لا تناظروهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال ذو وجوه، ولكن ناظروهم بالسنة فإنهم لا يكذبون عليها فقوله: حمّال أي: يحمل عليه كل تأويل، وهذا يترجم عن معنى المتشابه ومثال المحكم نحو قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي أَسْنَنِ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٤٥] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٠].

فأما وجوه المتشابهة فمختلفة، (منها) اتفاق اللفظين مع تنافي المعنيين في ظاهر آيتين كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٣] فهذا محكم لفظه استفهام

(١) قال في القاموس: الشراء الخوارج، والجل والطريق وجبل بنجد لطى.

ومعناه نفي، والمراد لا منشاء إلا الله. ثم قال تعالى في موضع آخر: ﴿قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١٤] فقلنا الخلق في كلامهم يكون الإنشاء ويكون التقدير يقال: خلقت الأديم إذا قدرته قال: ولأنت تعزي ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يعزي، والآية النافية تقضي على المثبتة بأن الخلق يكون فيه التقدير لا غير لأن الذي يخلص لله تعالى من معنى الخلق فلا يشارك فيه هو الإنشاء ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [سورة محمد، الآية: ١١] مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣٠] لأن المولى في اللغة يقع على السيد والعبد والمعنى والولي والناصر وابن العم، فمعنى لا مولى لهم: لا ناصر، ولا ولي ومعنى مولاهم الحق الإله والسيد الذي لا شك فيه يوم يكون الحكم والأمر له وهذا بَيِّنٌ. (ومنها): التنافي بين المعنيين في ظاهر آيتين وإن لم يكن عن اتفاق لفظين مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة الزلزلة، الآية: ٦] مع قوله تعالى: ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٩٩] وهاتان حالتان إحداهما حالة الوجود وهي عند البعث والنشور، والأخرى حالة الصدور والانسحاق إلى المعد من الثواب والعقاب، وهذا معنى ليروا أعمالهم فالمحكمة التي يرد إليها يصدر الناس أشتاتاً قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَنْفِرُ قَوْمٌ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٤] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحَضَّرُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٥-١٦] وهذا واضح ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٨٣] أي يدفعون ويستعجلون مع قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم، الآية: ٩٥] ومعنى فرداً لا عدد معه ولا عضد ولا عدة ولا ذخيرة والمحكمة التي ترد إليه هذه قوله تعالى: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [سورة مريم، الآية: ٨٠] وإذا كان كذلك انتفى التشابه.

ومنها استغلاق الآية في نفسها وبعدها بأشباهاها عن وضوح المراد منها ومن جعل وجه التشابه هذا وما يجري مجراه استدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتْلُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧] وجعل وجه الأحكام ظهور المعنى وتساوي السامعين في إدراك فهمه ولذلك مثل كثير من أهل العلم للمحكمات بالآي الثلاث التي في آخر الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥١] إِلَى ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣]، والمُتَشَابِهَاتُ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ، وَالرَّ، وكهيعص، وطه﴾ وما أشبهها. ومنها ألا يعلم السبب الذي نزلت الآية فيه على كنهه وحقه لاختلاف قديم يحصل فيه بين الزواة، وأدعاء بعضهم النسخ فيه ولغرابة القصة وقلة البلوى بمثلها والصواب عندي في مثل هذا أن يؤثر ما يكون لفظة الكتاب أشهد له وأدعى إليه،

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٠٦] إلى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦].

ومنها أن يروى في تفسير الآية عن طرق كثيرة وعن رجال ثقات عند نقاد الآثار ورواتها، أخبار يختلف في أنفسها ولا يتفق ولا يستجاز مخبرها أو يستبعد، ثم تجد إذا عرضتها على ظاهر الكتاب لا تلائم من أكثر جوانبها ولا توافقه وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٩] إلى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٩٠] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٢] إلى ﴿آتَاهُمْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٣] والوجه في الآيتين وأشباههما عندي أن يراعى لفظ الكتاب بعد الإيمان به ويبدل المجهود في انتزاع ما يتفق فيه أكثر الرواة من جهة الأخبار المروية وما هو أشبه بالقصة، وأقرب في الندين، ثم يفسر تفسيراً قصداً لا يخرج فيه عن قصة الرواية واللفظ ولا يترك الاستسلام بينهما للجواز والانقياد للاستبشار لما عرف من مصالحنا فيما يمنعنا علمه أو يقتنعنا عليه ألا ترى قوله تعالى فيما استأثر بعلمه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٥] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٨] بعد قوله تعالى: ﴿لَوْ آخِذَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر، الآية: ٢٩] ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [سورة المدثر، الآية: ٣٠] ومثل هذا الاستبشار ما فعل الله من الصرفة بيعقوب وبنيه حين انطوى عليهم خبر يوسف وكان بينه وبينهم من المسافة ما كان بينهم. ويشبهه الصرفة التي ذكرناها ما يفعل الله من سلب الانبساط من الكفار فيكون ذلك سبباً للتسلي فيما يتلون به من العقاب وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٣٩].

ومنها الالتباس حال التاريخ أو ما يجري مجراه في آيتين تتعارضان أو آية وخبر فتختلف في النسخة منهما والقاضية على الأخرى وذلك كما روي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩] وهو أمر بالحكم فنسخت ما قبلها وهو: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٢] وهو تخيير. وروي السدي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٢] قال نسختها: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩] وهذا قول أهل العراق ويرون النظر في أحكامهم إذا اختصموا إلى قضاة المسلمين والأئمة، ولما روي من رجم النبي ﷺ اليهودية واليهود، وأمّا أهل الحجاز فلا يرون إقامة الحدود عليهم يذهبون

إلى أنهم قد صولحوا على شركهم وهو من أعظم الحدود التي يأبون ويتأولون في رجم النبي ﷺ اليهوديين على أنَّ ذلك كان قبل أن يؤخذ منهم الجزية والمقارة على شركهم وفي هذا القدر بلاغ للمتأمل.

فأما الكلام في المعرفة بالله تعالى ووجوبها وبيان فساد قول القائلين بالإلهام فإننا نذكر طرفاً منه ونقول: اختلف الناس في ذلك فزعم قوم أنَّ المعرفة لا يجب على العاقل القادر وأنها تحدث بإلهام الله تعالى وكل من لم يلهمه الله المعرفة به فلا حجة عليه ولا يجب عليه وقالوا: إنَّ الذين قتلهم رسول الله ﷺ لم يكونوا كفاراً وإنما قتلوا على سبيل المحنة، كما يقتل الثائب والطفل ولا يجب عليهم عقاب لأنَّ الله تعالى لا يجوز أن يغضب على من لم يرد إغضابه.

وقال الجاحظ: إنَّ المعرفة غير واجبة ولكنها تحدث بالطبع عند النظر، وقال: إنَّ الذين قتلهم رسول الله ﷺ كانوا عارفين بالله معاندين واحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل، الآية: ١٤] وقال لا يأخذ الله الإنسان بما لم يعلم ولا بما أخطأ فيه ألا تراه يقول تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٥] واستدلوا على صحة مذهبهم بأن قالوا إن الاعتقاد لا يعلم أنه حسن أو قبيح حتى يعلم أنه علم أو ليس بعلم فإذا علم أنه علم فقد علم المعلوم لأنَّ العلم بالعلم علماً هو علم بالمعلوم فإذا علم المعلوم فقد استغنى عن اكتساب العلم به وإن كان لا يعلم أنه علم فإذا لا يجب على هذا الإنسان فعل ما لا يأمن أن يكون قبيحاً.

وقال أكثر أهل العلم إن المعرفة واجبة وهي من فعل الإنسان وإنَّ أول المعرفة يقع متولداً عن النظر ولا يجوز أن يقع مباشراً ثم ما بعد ذلك لا يجوز أن يقع مباشراً وأنَّ كلَّ من أكمل الله عقله وعزفه حسن الحسن وقبح القبيح فلا بدَّ من أن يوجب عليه المعرفة به، وأن يكلفه فعل الحسن وترك القبيح وبعضهم يضيف إلى هذه الجملة وقد جعل شهوته فيما قبحه في عقله ونفوره نفسه عما حسنه في عقله.

ويستدل على وجوب معرفة الله فإنه لا يخلو من أن يكون قد كلفنا الله لحسنها وقبح الذهاب عنها أو لم يكلفنا وتركنا مهملين، فإن كان قد كلفنا فهو الذي يزيد، وإن كان تركنا سدى فإنَّ الإهمال لا يجوز عليه. ويقال أيضاً: نحن نرى على أنفسنا آثار نعم، ونعلم وجوب شكر المنعم، فإذاً يجب أن نعرف المنعم لنشكره.

واعلم أنَّ المعجز هو ما لا يقدر عليه في صفته أو في جنسه، فأما لا يقدر عليه في جنسه فهو مثل إحياء الموتى وأما ما لا يقدر عليه في صفته فهو فلق البحر. لأننا نقدر على تفريق

الأجسام المؤتلفة، ولكن على تلك الصفة وتلك الحالة لا تقدر عليه، فأما الخبر عن الغيوب فليس بمعجز ولا وقوع المخبر على ما أخبر به معجز إذ يجوز على الخبر عن الغيب أن يكون صدقاً أو كذباً وإذ قد ثبت أن يخبر الإنسان عن الشيء أنه يكون فيكون وليس يعلم في حال الخبر أن المخبر به يقع على ما أخبر به عنه ولا يعلم أنه معجز وإنما العلم بأن الشيء يكون قبل أن يكون يعجز بلى من سمع النبي ﷺ يذكر أنه سيكون كذا وكذا ويخبر عن الغيب ثم يبقى إلى الحالة يكون فيها ما ذكره فحيث يكون ذلك دلالة وحجة عليه، فأما من لم يبق إلى تلك الحالة فهو ليس تقوم عليه الحجة في وقت الإخبار ولا يصح الاستدلال بذلك بل يجب أن يدلّه الله بدليل آخر.

فإن قال قائل: كيف يصح أن يكون انقضا الكواكب رجماً للشياطين ولا يخلو من أن يكون الذي يرمى به الشيطان ليحرقه كوكب فيجب أن يفارق مكانه وينقص من عدد الكواكب وقد علمنا منذ عهدت الدنيا لم تنقص ولم تزد أو يكون الذي يرمى به شعاعاً يحدث من احتكاك الكواكب واصطكاك بعضها ببعض فيفصل ذلك الشعاع من الكواكب ويتصل بالجنّي حتى يحرقه، إذ لو لم يتصل به لم يحترق وهذا أيضاً لا يجوز لأن الكواكب لا تحتك. قيل له: إن كل ما ذكرت غير ممتنع قد يجوز أن يكون هناك كواكب لا تلحقها العين لصغرهما كما قال قوم في المجرة إنها كلها كواكب ولا تبين، فيجوز أن يحتك بخاران عظيمان فيحدث الشعاع ويحترق الجنّي، وكلّ ذلك ليس بمستنكر وعلى هذا جاء في القرآن.

وأما انشقاق القمر فإن الجاحظ كان ينفيه ويقول: لم يتواتر الخبر به ويقول أيضاً لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن نختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره في كل يوم. وليلة، فلو انشق القمر لكان وقت انشاقه لا يسير، فأما قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [سورة القمر، الآية: ١] فإنما معناه سينشق ونحن نثبت ونقول: يكون ذلك دليلاً خصّ به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأن سائر الناس لم يردده لأن الله حال بينهم وبين رؤيته بغمامة أو غيرها ويجوز أن يكون غير عبد الله رآه، فاقصر في نقله على رواية عبد الله وعلى ما نطق به القرآن من ذكره.

فصل الاستدلال بالشاهد على الغائب

لأنه الأصل في معرفة التوحيد، وحدوث الأجسام وصدق الرّسل. قال الله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾ [سورة البقرة، الآية: ١-٣] قيل معناه يؤمنون بما غاب عنهم من أمر الآخرة وقيل: يؤمنون بما غاب من

البعث والتشور، وأخبرهم به النبي. وقيل: المراد يؤمنون بالله ورسوله وما أنزل إليه، يظهر الغيب لا كالمناققين الذين يقولون للمؤمنين إنا معكم، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، ومثله قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَىٰ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٤٩].

واعلم أن من لا يفعل ذلك لم يجوز له أن يعرف شيئاً إلا من جهة المشاهدة أو ببداهة العقل، أو بخبر ممن شاهده ولو كان كذلك لسقط الاستدلال والنظر، ولما جاز أن يعرف الله ولا حدوث الأجسام، ولا صدق الرسل فيما أتت به من عند الله، لأنه يجوز أن يعرف الله بالمشاهدة ولا ببداهة العقل لأنه لا يشاهد، ولأنه لو عرف ببداهة العقل لاستوى العقلاء في معرفته، فوجب بهذا أن لا يعرف الله إلا بدلالة المشاهدة، وكذلك حدوث الأجسام، ولستأ نريد باستشهاد الشاهد أن يستدل به على ما لم نشاهده إلا بأن نشاهد نظيره، ومثله ألا ترى أننا لو شاهدنا في هذا البلد إنساناً لم نعرف بذلك أن في غير هذا البلد إنساناً آخر من غير أن نشاهده، ولكن هو أنا إذا وجدنا الجسم في الشاهد إنما كان متحركاً لوجود حركته، ثم وجدنا حركته لا توجد إلا فيه، ومتى بطلت حركته لم يكن متحركاً دلنا ذلك على أن كل جسم متحرك فيما لم نشاهده لم يكن متحركاً إلا لوجود حركته، ولا توجد حركته إلا فيه، ومتى بطلت حركته لم يكن متحركاً؛ لأنه لو جاز أن يكون متحركاً في الغائب مع عدم حركته لجاز في الشاهد مثله، وكذلك إذا وجد الجسم في الشاهد إنما كان جسماً لأنه طويل عريض عميق ومتى عدم طوله أو عرضه أو عمقه لم يكن جسماً لزمه أن يعلم بدلالة الشاهد أن الجسم الغائب إنما كان جسماً لمثل ذلك.

وكذلك إذا وجد الجسم في الشاهد لا يكون في مكانين في وقت واحد لأن وجوده في أحد المكانين ينافي وجوده في المكان الآخر كان علينا أن نجري القضية في الغائب على حده. وكذلك القول في امتناع اجتماع الضدين، والحركة والسكون والسواد والبياض، والاجتماع والافتراق بحسب أن يراعى حالها في الشاهد فيحمل الغائب عليها وإذا كان الأمر كذلك وجب أيضاً أن يكون إذا وجدنا الفعل في الشاهد لا يوجد إلا من فاعل، ولا يحصل موجود إلا بفعله له، ثم وجدنا فعلاً لم نشاهد له فاعلاً أن نعلم بدلالة الشاهد أن له فاعلاً وإن كنا لم نشاهده، ولا يجب إذا لم نجد إلا أجناساً من الأشياء أن لا يثبت في الغائب خلافاً لما شاهدنا، لأن الأعمى الذي لم يشاهد الألوان قط لا يجوز له أن يثبت شيئاً إلا من جنس ما شاهده بسائر جوارحه، إذ قد ثبت الألوان التي هي خلاف جميع ما شاهده، وإن كان هو لم يشاهد وكذلك الحياة والقدرة والعلم لا يشاهد ولا شوهد نظائرها ولا يجب مع ذلك أن لا نثبتها مع وضوح الأدلة عليها فلم يجب علينا لمن أراد متناً نفي القديم إذ كنا لم

نشاهد له مثلاً ولا نظيراً أن نفيه من أجل ذلك إذ كان يجوز أن تثبت بالأدلة ما لا نظير له كما مثلناه .

وإنما يجب تكذيب من وصف الغائب لصفة الشاهد ثم أزال عنه المعنى الذي استحق الشاهد به تلك الصفة، فأما متى أثبت في الغائب شيئاً مثبتاً من غير أن يكون بصفة المشاهد الذي وجبت له هذه الصفة لعلّة، وقال مع ذلك: إنه غير مثبت لما شوهد لم يجوز أن ينطل قوله بما شاهدناه، إذ كان يجوز أن يكون ما ادعاه خلافاً لما شاهدناه، كما لم يكن للأعمى إنكار الألوان إذا أخبرناه بها من حيث كانت مخالفة لما شاهده بسائر جوارحه، ولم يكن لأحد أن ينكر الحياة والقدرة لأنهما خلاف ما شاهده، ولكن يجب أن يطالب بالدلالة على صحة الدعوى، فإذا ثبتت ثبت مدلولهما، وإلا سقطت الدعوى، وهذا أصل القول في استشهاد الشاهد على الغائب فاعلمه .

فصل في أسماء الله وصفاته وأحكامه (وبيان الأصوات كيف تكون حروفاً، والحروف كيف تصير كلاماً)

اعلم أن الأصوات جنس من الأعراض تحته أنواع تعلم، فإذا توالى حدوثها منقطعة بمخارج الفم وما يجري مجراها سُميت حروفاً، لذلك قيل: الكلام (مهمّل) و (مستعمل). (فالمستعمل) ما تناولته المواضعة أو ما يجري مجراها من توقيف حكيم، فجعل عبارة عن الأعيان أنفسها وعنها بأحوالها. (والمهمّل) ما خالف ذلك، وإنما قلنا هذا لأنّ جنس الصّوت لا يقتضي كونه حرفاً ولا كلاماً متى لم تطرأ المواضعة عليها، وما جرى مجراها، والمواضعة لا تصح إلا مع القصد إليها لذلك قيل: ما ينقسم إليه الكلام من الخبر والأمر والتّهي والاستخبار لا يكاد يحصل مفيد إلا بإرادة غير القصد إلى المواضعة، لهذا متى ورد الكلام من سفيه لم يفد السّامع شيئاً، كما يفيد إذا ورد من الحكيم على المخاطب العارف بالمواضعات لما تعذرت معرفة قصده وصار الصّدق والكذب يستوي حالتهما وتقام صور أنواع الكلام بعضها مقام الآخر حتى يوجب ذلك التّوقف عن قبول الأخبار وترك القطع على ما يسمع منها إلا مع البينة .

واعلم أن الحاجة إلى المواضعة بالأصوات هي البيان عن المراد لما كان الكلام المستعمل تنبهاً عليه، فلذلك يستغني الحكيم فيما عرف مراده عن الخطاب إلا عند كونه لطفاً في فعل المراد ومتى أمكنه بالإشارة والإيماء بيان غرضه عدل عن الخطاب إلا أن يكون لطفاً كما ذكرناه. ولما كان الأمر على ذلك اختلفت العبارات لاختلاف المراد واحتيج إلى التّبين بعد ذلك، إذ كان الكلام بنفسه لا يدل على ما وضع له ولا بالمواضعة أو التوقيف .

فإن قيل: فما الفرق بين (المُهمل) و (المُسْتعمل)؟ حيثُ قلت: الفرق بينهما أنَّ الحكيم متى تكلم بكلام مستعمل صحَّ أن يعرف السامع لكلامه مراده بما يقارنه من الدليل غير الكلام، ومتى تكلم بكلام مهمل لم يجوز أن يعلم مراده وإن قارنه ما قارنه وكان وجوده وعدمه بمنزلة، ولو كان الكلام دليلاً يجوز الاستطراق منه إلى ما وضع له قبلها، لأن الدلالة لا تحتاج في كونها دلالة يجوز الاستطراق منها إلى مدلولها إلى المواضعة وإنما يحتاج في تسميتها دلالة إلى المواضعة لأنهم يسمونها دلالة إذا أراد فاعلها عند فعلها الاستطراق منها إليه ولذلك لا يجوز أن يُستَمَى فعل اللص دلالة عليه، وكذلك فعل البهيمة، وإن جاز الاستطراق منها إليه، ولهذا جاز أن يعرف الله بدلائله من لا يعرف شيئاً من المواضعات.

واعلم أنَّ الكلام لما وضع للإبانة عن مراد المخاطب للمخاطب، لأنَّ الغرض فيه إعلامه حدوث الشيء إذ إعلامه أنَّه يريد منه إحدائه أو إعلامه أنه يكره منه إحدائه، والحدوث لا يكون إلا للذوات ولم يكن بُدَّ من إعلامه العبارات عن ذوات الأشياء ليجوز منه أن يفرق الحدوث بها على وجه المراد انقسم الكلام أربعة أقسام:

الأول: عبارة عن الأعيان أنفسها وهي الأسماء.

الثاني: عبارة عن حدوث الشيء وهو الخبر عنه.

الثالث: عبارة عن إرادة إحدائه وهي الأمر به.

الرابع: عبارة عن كراهية إحدائه وهي النهي عنه.

والأسماء على ضربين:

الضرب الأول: اسم وضع لتعريف المسمَّى به وليكون علماً له دون غيره فيقوم مقام الإشارة إليه عند غيبته، أو لاشتمالها عليه، ويُسمَّى هذا الضرب لَقَباً ولا يفيد في المسمَّى به شيئاً ولذلك لا يدخله الحقيقة والمجاز إذ كان لا يتعلَّق بفعله ولا بحاله ولا بشيء، مما يحلّه أو يحلّ بعضه، ولا يوجب الاشتراك فيها اشتراكاً في غيرها كما لا يوجب الاشتراك في غيرها اشتراكاً فيها وقال بعضهم هذا القبيل ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وضع تعريفاً لآحاد الأشخاص كزيد وعمرو.

القسم الثاني: وضع تعريفاً لآحاد أجمل الأشخاص وليقوم مقام تعداد ذكر جميعها كقولك: إنسان وأسد وحمار وطيّار، ولذلك لا يتعلَّق بشيء من أوصافها ولا بما يحلّها، ويوجب الاشتراك فيها اشتراكاً في الصورة دون غيرها وتسميّة أهل اللّغة الجسم جسماً من هذا لأنه وجب له هيئته وتركيبه ولذلك لم يجوز إجراءه على الله تعالى.

القسم الثالث: وضع تعريفاً لآحاد جمل الأجناس المختلفة المشتركة في باب التعلق بغيرها على وجه واحد، ليقوم مقام ذكر جميع الأجناس الداخلة تحتها، وهذا كاللون والكون والاعتقاد والسهو وما يجري مجراها، وهذا النوع يُسمى جنس الفعل ويلزم الاشتراك فيها اشتراكاً في نوعيتها.

الضرب الثاني: على وجهين:

الوجه الأول: اسم على المسمى به تعريفاً لجنسه وللتميز بينه وبين ما خالفه وإن شاركه في التسمية غيره من طريق القياس لاشتراكهما في الفائدة، ورسم بأنه اسم جنس لما كانت المسميات به أعداداً كثيرةً مماثلةً وهذا كالسواد والبياض والجمرة والخضرة والحلاوة وما جرى مجراها، يوجب مماثلة الموصوفين بها فلذلك استحال اشتراك المختلفين بالذوات في اشتقاق الوصف بها.

النوع الثاني: اسم جرى على المسمى ليفيد فيه ما يفارق به غيره مما لم يشاركه فيه من غير أن يكون افتراقهم في الوصف موجباً لمخالفتهم كما لم يوجب اشتراكهم في ذلك مما يليهم في اللفظ بل في المعنى أوجب ذلك لكونه جواهر ورسم بأنه صفة، وإذا قصد به الإكرام في التعلق قيل: إنها مدح كما إذا قصد بها الاستخفاف قيل إنها ذم، إذ كانت لا تخلو من الحسن أو القبح وهي على وجوه:

الوجه الأول: صفة تفيد في الموصوف معنى حالاً فيه وذلك كقولك: متحرك وساكن، وأسود وأبيض، وحلو وحامض، ورسمت هذه الصفات بصفات المعاني لأنها علل في إجراء الوصف على محالها من طريق الاشتقاق، فلذلك أخذ الاسم من لفظها، والاشتراك في هذه الصفة يوجب الاشتراك فيما أفادته، ويقتضي مماثلة الموصوفين في المعنى لكونها جوهراً.

الوجه الثاني: صفة تفيد كون الموصوف فاعلاً لمقدوره والاسم يجري عليه مشتقاً من لفظ اسم فعله، وهذا كقولك: ضارب وشاتم ومتكلم، ورسمت هذه الصفات لصفات الفعل ولا يوجب الاشتراك في هذه الصفة تماثل الموصوفين لا بالمعنى ولا باللفظ كما أوجب في الأولى.

الوجه الثالث: صفة تفيد الإضافة والنسبة وذلك كقولك: هاشمي وبصري ودار زيد، وغلام عمرو، فبإتصال الياء المشددة بالاسم صار صفة بعد أن كان علماً أو غير صفة.

الوجه الرابع: صفة تفيد وجود الموصوف بها يجري عليه هذه الصفة ويرجع إلى غيره وهذا كوصف الاعتقاد بأنه علم أو جهل، أو تقليد أو ظن. ووصف العلم بأنه غم أو سرور.

ووصف السَّهْو بأنه نسيان، وكوصف الكون بأنه حركة أو سكون، أو مجاورة أو مفارقة، وكوصف الحروف بأنها كلام والكلام بأنه خبرٌ أو أمرٌ أو نهْيٌ. ووصف الإرادة بأنها عزم أو قصدٌ أو خلق وكذلك جميع ما يجري. والاشتراك في هذه الصفات يوجب اشتراك الموصوفين بها فيما أفادته دون غيرها مما يجري مجرى تماثل ذواتها واختلافها.

الوجه الخامس: صفة تفيد كون الموصوف بها على حال من الأحوال وهذا كوصف الشَّيء بأنه معدوم أو موجود، أو حي، أو قادر أو عاجز أو معتقد، أو عالم أو جاهل، أو ساهٍ أو مريد، أو كاره أو سميع أو بصير. وعلى الأحوال التي إذا كان عليها إدراك المدركات يسمَّى به الشَّيء لتهياً ذكره والإخبار عنه وهو قولهم شيء ونفس وعين وذات. وكذلك الأسماء المضمرة والمبهمة نحو هو وأنت، وذلك وهذا والهاء في ضربته والياء في ضربني. وفرَّقوا في بعضها بين المذكر والمؤنث والواحد والجمع. وهذه الصفات والأسماء التي نوَّعناها وأشرنا إليها مقتسمة بين الحقيقة والمجاز، وسنبيِّن كيفية وضعها واستمرارها أو انقطاعها في البابين إن شاء الله تعالى.

فصل آخر

اعلم أنَّ اللغة لا يجوز أن يكون فيها غلط وذلك أنه إنَّ كان الله تعالى واضعها على ما يذهب إليه أكثر العلماء، وعلى ما أخبر به عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣١] فلا يجوز أن يكون فيها غلط لأنَّ الحكيم الذي يبيِّنها لعباده لا يجوز عليه الغلط وإنَّ كان يجوز أن يكون قد ذهب عنهم بعض ما بيَّنه لآدم عليه السلام وأحدثوا أبدالاً منه، أو زادوا عليه على حسب الدَّواعي والحاجة، ولو كانوا فعلوا ذلك لما جاز أن يعلم أحد تغيرهم لذلك إلا بخبر من الله ينزله على نبي من أنبيائه لأنَّ اللُّغات لا تعرف إلا من جهة السَّمْع ولا تعرف بدلالة العقل، ولو كانوا غيروها بأسرها لما أنزل الله القرآن بها على لسان محمد ﷺ، وإنَّ كان ابتداء اللُّغة من كلام العباد وتواضعهم على ما يقوله بعضهم فلا يجوز أن يقع فيها أيضاً غلط لأنَّهم إنما سمَّوا الأشياء بأسماء جعلوها علامات لها لِتُعَرَفَ بها وليكون التَّباين والتَّمايز منها، وإذا كان أصل كلامهم ولغتهم جروا فيه على ما بيَّنا فلا يجوز أن يكون فيها غلط لأنَّ الحكمة تلحقه ولا تفارقه في الحالتين جميعاً، وإذا ثبت ما بيَّناه من أمر اللغة ووجدنا انقسامها إلى الحقيقة والمجاز والحقيقة ما وضع من الأسماء للمسميات على طريق اللزوم لها، والاطراد فيها لأنَّها يحق لها عند التعبير عنها وأمثلتها ما قدَّمناه، والمجاز ما أُجري على الشَّيء وليس له في أصل الوضع، تجوزاً على طريق الاستعارة، وتفاصيلها منهم واقتنائاً ويكون قاصراً عن الأصل وزائداً عليه ومماثلاً له، وكيف اتَّفَق يكون

مستفاده أبلغ من مستفاد الحقيقة ولذلك عدل إليه نظرنا فوجدنا طريق استحقاق الموصوفين من وجوه أربعة:

الوجه الأول: طريق الاختصاص والاستبداد وهو المرسوم لصفات النفس ليفيد في الموصوف أنه مستبد بها، ومستغن بكونه عليها عن غيره وأنه مختص بها من غير أن يجعل نفسه كالعلة الموجبة للعلل، ولا قائمة مقامها وهذا كوصف المحدث بأنه موجودٌ وحيٌّ وقادرٌ وعالمٌ وسميعٌ وبصيرٌ وما جرى مجراها، ولذلك رسمت بصفات التوحيد لما توخَّد الله بطريق استحقاقها فلم يشاركه فيها غيره مع جواز وصفهم بها لاستحقاقهم لها من غير هذا الوجه.

الوجه الثاني: طريق المعاني الموجبة لها وهو المرسوم بصفات العلل ليفيد في الموصوف بها أنه مستحق لها بالعلة الموجبة له عند تعلُّقها به دون غيره وهذا كوصف المحدث بأنه عالمٌ وقادرٌ وحيٌّ وسميعٌ وبصيرٌ ووصف كل موصوف بأنه مريدٌ وكارٍ، وكقولهم مشتة ونافر النفس وما شاكل ذلك.

الوجه الثالث: من طريق القادرين وهو المرسوم بصفات الفعل ليفيد في الموصوف بها أنه مستحق لها بكون القادر قادراً عند فعله وإيجاده إتياءه دون غيره، وهذا كوصف المحدث بأنه موجودٌ لما كان معدوماً ومقدور القادر عليه وليس في الأحوال ما يتعلق بالقادر غير المعدوم الموجود.

الوجه الرابع: من طريق استحالة ضدها على الموصوف بها ورسمت بالصفات اللازمة ليفيد في الموصوف بها أنه مستحق لها على طريق اللزوم له من غير أن يكون محتاجاً في ذلك إلى غير ما يوجبها له، كالعلة وما يجري مجراها ومن غير أن يكون مختصاً به كصفات النفس وهذا كوصف الشيء بأنه معدوم، ومعنى المعدوم أنه لا يجوز أن يحصل له من أحكامه التي تخصه وصفاته الجائزة عليه شيء، كما أنَّ الموجود هو الذي يكون على حاله يلزمه جميع أحكامه به والموجبة له، فلذلك قلنا إنَّه لا يكون معدوماً بفاعل ولا بمعنى ولا بنفسه لما لم يكن له واسطة بين الوجود والعدم، فلذلك لزمه العدم عند استحالة الوجود عليه، فأما الأوصاف التي تتعلق بالأعيان ممَّا لا يكون عبارة عن أحوالها بل هي إخبار عنها وعن غيرها لاختصاصها بها في باب الحلول أو التعلق أو ما يجري مجراها فليس لها علة ولا ما يجري مجراها ولا يجوز أن يكون شيء من ذلك بالفاعل.

واعلم أنَّ أعمَّ الأشياء قولنا شيء لآته يتعلَّق بالمسمى لكونه معلوماً فقط ومستحيل أن يكون ذات غير معلومة أو ذات علي حال غير معلومة عليها أو غير جائز أن يكونا معلومين، فإن كان العلم لا يحصل بالبحال التي عليها لأن العلم بالذات هو الذي منه يصل إلى العلم

بالحال، ولذلك كان الذات لا يخلو من الوجود والعدم معاً إذ لو لم يكن الذات معلومة في العدم للقديم تعالى لم يصح منه القصد إلى اختراعها وإيجادها وليس قولنا شيء مثل قولنا موجود، بدلالة أنك تقول هذا شيء زيد، فتضيفه ويمتنع أن يقال: هذا موجود زيد، وكان يجوز أن يحدّ القديم بأنه الشيء لم يزل والمحدث بأنه الشيء عن أول كما يقال هو الموجود لم يزل والموجود عن أول، وإذا كان قولنا معلوم غير متعلق بفائدة فيه وإنما تتعلّق فائدته بغيره فالواجب أن لا يكون قولنا شيء مفيداً من هذا الوجه.

ويمكن أن يقال: إنه يفيد الذات فكلّ ذات يسمّى شيئاً وكلّ شيء يسمّى بذات، ويمكن أن يقال أيضاً إنه يفيد المعلوم، فصلاً بينه وبين ما يسمّى محالاً كاجتماع الضدين لأنّ مثل ذلك لا يصحّ علمه، قال وليس يخرج الذات من أن يكون على حال مع كونه عليها يجوز أن يستحقّ غيرها ولا يجوز، فإن كان يجوز عبّر عنها بأنها موجودة، وإن كان لا يجوز عبّر عنها بأنها معدومة، فلذلك يسمّى المعدوم بالشيء كما يسمّى الموجود به لما كانا معلومين في الحالين جميعاً لذلك قلنا: المراد بقولنا موجود إفادة حال من أحواله أيضاً وحالة له أخرى وهي العدم. وفائدة قولنا معلوم أنّ عالماً علمه لذلك جاز أن يقال معلوم زيد للشيء الذي هو مجهول عمرو، والحال واحدة ويستحيل أن يقال للشيء إنه موجود زيد أو معدوم عمرو على الأحوال كلها.

واعلم أنّ الله تعالى لما أوجب في حكمته عند تكليف المكلفين مداواة دائهم بالرحمة لهم والعطف عليهم والحلم عنهم، وطلب صلاحهم من حيث لا يدرون ويؤلفهم من جانب لا يشعرون رسم لهم في تعبدهم الرجوع إليه في مهماتهم وسوغ لهم دعاءه في رفع مآربهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٦] الآية ثم أنزل في محكم كتابه من أسمائه ما بصرنا وهدانا ومن صفاته ما قوى إيماننا وإرشادنا، لولا ذلك والتأسي بالنبى ﷺ في أفعاله وقبول أقواله التي بها إبطال الضلال، وإذا كان كذلك فإنّ ما أثبتته التلاوة يضاف إليه ما دوّنته الرواية عن الصحابة والتابعين وما عدا ذلك مما لهج به ألسنة فصحاء الأمة والصالحين من أهل اللغة.

فقد روي في التفسير أنّ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٠] أنه تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة، وجاء في الحديث أنّ: «اسم الله الأعظم الله» وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «الله مائة اسم غير واحد من أحصاها دخل الجنة» فيجب أن ينتظر فيه فيما سبكه التحصيل، وكما ذكرنا وينقى من درن الغباوة ويتلقى بالقبول فيما يجوز إطلاقه على القديم تعالى، والباقي يتوقف فيه والوصف والصفة

جميعاً لا يكونان إلا كلاماً وقولاً فهو كالوعد والعدة. وسمعت شيخنا أبا علي الفارسي يقول: أسماء الله تعالى كلّها صفات في الأصل إلّا قولنا الله والسّلام لأنّ السّلام مصدر، ولفظ الله بما أحدث من صفة ولزوم الألف واللام له، يُعَدُّ من الصفات فصار متبوعاً لا تابعاً كالألقاب يريد يتبعه الصفات ويقدم به، ومعناه الذي تحقّق له العبادة، فإذا قلنا لم يزل إلهاً الذي حقّق له العبادة من خلقه إذ أوجدهم. وقولنا إله نكرة ويجمع على الآلهة قال تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [سورة القصص، الآية: ٥] واشتقّ منه تأله الرّجل إذا تنسّك، قال:

سَبَحْنَ واسترجعن مَنْ تَأَلَّه لله دَر الغانيات المُبْدَره

وروي عن النبي ﷺ: «أَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا اللَّهُ؟ قَالَ: اللَّهُ إِلَهُ الْآلِهَةِ». وروي عن ابن عباس أنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. وروي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ أَهْلُكَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٢٧] أنّ معناه وعبادتك، فالأصل إله حُذِفَت الهمزة منه وجعل الألف واللام عوضاً منه لازماً وأدغم في اللّام التي هي عين الفعل، فصار الاسم بالتعويض والإدغام مختصاً بالقديم حتى كأنّه ليس من الإله في شيء، قال سيبويه: ومثله أناس والنّاس يريد في حذف الهمزة لا في التعويض بدلالة قوله:

إِنَّ الْمَنَايَا يَطْلُعْنَ عَلَى الْآنَاسِ الْآمِنِيَا

فجمع بين الألف واللام والهمزة، ولو كان عوضاً لما جاز الجمع بينهما، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٥] إنّ الاسم الذي لا سميّ له فيه هو قول القائل: الله بهذه البنية الصفية، وقولهم في صفات الفعل: ياغيث المستغيثين، ويا رجاء المرتجين، ويا دليل المتحيرين، موضوع موضع الاسم وكلّ ذلك مجازٌ وتوسّع، وكذلك قولنا: قديم إنما وجب له هذا لتقدمه لا إلى أول، فهو صفة لذاته وليس ثبت بهذا معنى يسمّى قديماً. وقوله تعالى: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس، الآية: ٢٩] وفي آخر: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ١١] يراد به تقدّم له وإن كان القصد إلى المبالغة.

فإن قيل: فهل يوجب إجراء لفظ القديم على الله تعالى وعلى الواحد ممّا كما ذكرت تشبّهاً به؟ قلت: لا وذلك لأنّ الله تعالى قدم وتقدّم لنفسه والمحدث يقدم بأن الفاعل فعله في الأوقات المتقدمة، وإذا كان كذلك فقد اختلف موجب الصّفتين فلم يجب منهما تشبيه، وعلى هذا قولنا: عالم في القديم والمحدث وقادر وسميع وبصير وحي وقدير وعزيز ومملك ومالك ومليك، على أنّه لو ساعدت العبارة لكان تفرد ما يستحقّ للذات بعبارة تلزمه، ويخالف بها غيره وكانت الحيطة في ذلك، لكنهم استطالوا ذلك وكان يكتفي بعلم الذات من لا يعلم حالها المختصة بها، فاقتصدوا في العبارة كما اقتصدوا في الأخبار في بابي التذكير

والتأنيث، فأجروا ما لا يصح وصفه بالتذكير الحقيقي ولا التأنيث الحقيقي مجرى غيره في العبارة.

وكذلك في الاخبار عن الله تعالى وإضمار أسمائه في الإتصال والإنفصال إذ قلت هو وأنت وإياك ورأيتك ورأيتك ومثل ذلك اقتصادهم في صفات ما غاب عنا من أمور الآخرة وأحوال القيامة وطبي السماوات وتبديل الأرض غير الأرض إلى غير ذلك مما أخفيت حقائقه عنا فاقصروا في بيانها على عبارات لا تستوفيها، وعلى كنهها لا يؤديها، وهي ما نستعمله إذ عبرنا عما نشاهده.

فأما الفصل بين السامع والسميع حتى قيل: لم يزل الله سميعاً وامتنع لم يزل الله سامعاً فهو أن السميع لا يقتضي مسموعاً فيعدي إليه والسماع لا بُدَّ له من مسموع، والمسموع لا يكون مسموعاً حتى يكون موجوداً وذلك يدافع قوله: لم يزل وهذا كما يقول: هو عالم وعليم في كل حال ثم تمنع من أن يقول: لم يزل الله عالماً بأنه خلق زيداً إذ كان ذلك يوجب وجود زيد في الأزل، وعلى ما ذكر من الاقتصاد والاقتران تركوا العبارة عن أشياء وإن أدركها الفهم لقلة البلوى بها وذلك تركهم وضع في الصناعات المستجدة ما أحدث من الأسماء ووضع في الشرع أو نقل ما وضع ونقل.

وأما الأسماء المشتقة من الأعراض التي ليست مهيأت كقولهم: فاعل ومحدث وعادل وجابر وصادق وكاذب ومريد وكاره فإنها لا توجب تشبهاً وذلك أن الإنسان قد يكون فاعلاً لفعل لا يحل به، والفعل لا يختلف به هيئته عند أحد ممن يدركه، (ألا ترى) أنَّ هيئته لا تختلف لما يفعل في غيره من الحركات والتأليف والافتراق والعدل والجور ولا الإرادة والكراهة ولا الأمر والنهي فلم يجب أن تكون تسميتنا بهذه الأسماء للمسمى بها إذ استحقها تشبهاً له، لأن التشبه في الشاهد لا يعقل إلا من وجهين اثنين، أحدهما: اشتباه بالهيئة كالأسود والأسود والطويل، أو يشبهان بأنفسهما وأن يكونا من جنس واحد نحو البياض والبياض، والتقدم والتقدم، والتأخر والتأخر، وما جرى هذا المجرى من الأجناس المتفقة بأنفسها، فلما كانت تسميتنا بالفاعل لا توجب جنسيته ولا هيئته لم يوجب تشبهاً وهذا كقولهم أمرٌ وناءٌ وقاتلٌ ومعلومٌ ومذكورٌ، فأما رحيمٌ ورحمنٌ فهما من الرحمة وبناءان للمبالغة وحقيقة الرحمة النعمة إذا صادفت الحاجة.

وذكر بعضهم أنَّ الرَّحْمَن هو الاسم الذي لاسم القديم سبحانه فيه وليس كذلك لأنهم قالوا لمسيمة رحمن، وقالوا أيضاً فيه رحمن اليمامة، وذكر بعضهم أنه لما سمعوا النبي ﷺ يذكر الرَّحْمَن قالت قريش: أتدرون ما الرَّحْمَن؟ هو الذي كان باليمامة، وإذا كان كذلك فما بقي إلا أن يكون لفظة الله هي التي لا سمي فيها، فإن قيل: فقد نرى الفاعل هيئته يخالف

هيئة من ليس بفاعل والقائل منا له هيئة السّاكت، قيل له: لم تخالف هيئته هيئة السّاكت بالقول وإنما خالفت هيئتهما بالسكون الذي في شفتي السّاكت والحركات التي في لسان المتحرك، لا بالكلام، فإذا كان الله يفعل الكلام والأمر والنهي من غير أن تحل فيه حركة صَحَّ أنه لا تكون تسميتنا إياه أمراً وناهياً أو متكلماً تشبيهاً.

وعلى هذا قولنا: العالم والحي والقادر والسميع والبصير لأن شيئاً من ذلك لا يوجب تجنيساً ولا تركيباً ولا هيئة، فإن قال: أليس العالم في الشاهد يحل العلم فيه أو في بعضه، وكذلك الحي فلم زعمتم أن الحيزين لا يشتبهان لحلول الحياة فيهما؟ قلت: إن الحياة ليست بهيئة لهما فيشتبهان بها عند حلولها فيهما، ولو كانا مشتبهين بسائر هيئتهما، فإن قال: فيلزمكم أن لا يكون من وصف الله تعالى بأنه يحله العلم والحياة مشتبهاً بخلقه، قيل: ليس هو بهذا القول مشبهاً، ولكن بتجويزه حلول الأعراض فيه يكون مشبهاً لأن ذلك يرجع إلى الهيئة.

واعلم أنّ الصفة قد تجري على الموصوف من وجهين في أحدهما: يجب له عن اختصاص واستبداد فيكون للذات ويقترن بما لم يزل وفي الثاني: يقصر غايته فنقف دون موقف الأول، وذلك كقولنا: بصير ومبصر لأنهما للذات، إلا أنّ مبصراً يتعدى إلى مبصر موجود، ولذلك لم يَجْز أن يقال لم يزل مبصراً، كما قيل: لم يزل بصيراً وعلى هذا قولك رأى يتصرف على وجهين.

فإن أُريد أنه عالم قلت لم يزل الله راثياً وإن أُريد أنه مبصر للمبصرات امتنع منه؛ لأنّ المرئي المدرك لا يكون إلا موجوداً، وعلى هذا قولك الصّمد إن جعلته بمعنى السيّد قلت لم يزل الله صمداً، وإن قلت هو من الصّمد إليه من العباد والقصد امتنع أن يقال لم يزل صمداً. ومثله كريم يراد به العز فيقال: لم يزل كريماً وهو أَكْرَمَ عَلَيَّ، ويراد به الإفضال فيكون من صفات الفعل، ومثله حكيم يكون بمعنى عالم فيقال لم يزل حكيماً وإن أُريد به أنه يحكم الفعل لحق بصفات الفعل، والصفات المستحقة من طريق اللغة الحقيقية والمجازية فإنها تجري عليه تعالى متى لم يمنع مانع من جهة العقول والشرع، فإن التبس الحال يختار الأكرم فالأكرم والأبعد من التشبيه فالأبعد، وذلك لمجانبتنا لأنّ نصفه بأنه يعقل أو يحس أو يفقه ويستبصر ويتيقن أو يفطن أو يفهم أو يشعر لما تتضمنه هذه الألفاظ من الأحوال التي حصولها لا يليق بالله تعالى.

فإن قيل: هو شاهد وشاهد كل نجوى وقريب مجيب ومطلع على الضمائر قلت: أجرينا عليه هذه الألفاظ مجازاً وتوسعاً ولأنها بكثرة دورانها في ألسنة السلف الصالح، والإشارة بها إلى ما لا يخيل ولا يُلتبس من القصود السليمة انتفى عنها ما يلبس غيرها من

كل موهم، ولمثل هذا أجرى قوي في صفة مجرى القادر وامتنع في شديد ومتين وما أشبهه مِنْ أن يجري مجراه، فأما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥] و﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٩] وما جرى مجراه فمثله في البلاغة يسمى المجانسة والمطابقة وهو ضرب من المجاز سمي الثاني فيه بالأول ليعلم أنه جزاؤه وقد أجرى إلى مثله، والمعنى يُجازيهم جزاء الاستهزاء والسخرية ونحو قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [سورة الشورى، الآية: ٤٠] والثاني لا يكون سيئة.

فإن قيل: فهل يجري التهاتف والتهكم مجرى السخرية فتجيزه عليه اتساعاً؟ قلت: لا يجوز ذلك؛ لأن المجاز لا يُقاس، ألا ترى أن أرباب اللغة مجمعون على أنه لا يجوز سَلَّ الجبل، وإن جاء سَلَّ القرية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَوَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥] وامتناعنا من بعد من أن تقول الله سراج السموات، أو شمسها أو قمرها إذ كانت المجازاة لها انتهاء تجاوزها إلى ما ورائها محظور، هذا مع توافق الصفات، فكيف إذا اختلفت؟ ويقارب هذا قولهم في الله لطيف ورحيم، والمراد به الإنعام، ثم امتنعوا فيه من رفيق ومشفق لرجوعهما إلى رقة القلب واستيلاء الخوف، فأما الغضب والسخط والإرادة والكراهة والحب والبغض والرضاء والطالب والمدرك والمهلك فمن صفات الفعل، والله يحدثها لا في مكان إذ كان جميعها لا يوجب تصويراً ولا تهيةً ولا تركيباً، وإنما تفيد عقاباً للمكلفين أو إثابة أو إيجاباً لإيقاع الفعل، أو نفياً له وإذا كانت كذلك انتفت عن المحال على أنه لو أحدثها في المحال لعادت المحال الموصوفة بها.

فإن قيل: فهل يجوز أن تقع منّا إرادة لا في محل؟ قلت: لا وذلك أن أفعالنا تقع مباشرة، أو متولدة عن مباشرة، فلا بدّ لها من محل وأفعال الله تعالى بخلافها. فإن قيل: هل يجوز أن يوصف الله بأنه راع، وأنه خفير، وحارس كما وصف بأنه رقيبٌ وحافظٌ؟ قلت: قد جاء رعاك الله وحرصك وحاطك في دعاء المسلمين ومعانيها صحيحة، لكن بناء اسم الفاعل منها في صفاته لم يجيء وهم يستغنون بالشيء عن شبهه في اللغة، فيذهب عن الاستعمال ومع ذلك فوصفه يجب أن يكون كريماً، ولفظه الحارس والرّاعي والحائط ليس مما يستكرم فيقرن بيا للاختصاص، فيقال يا حارس أو يا راعي، أو يا حائط ومما ينفر منه فيترك قول القائل في الله يا معلم وإن كان قد جاء ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ١-٢] لاشتهاره في صفات المحترفين به، على أن الفرق بين ما يجعل إخباراً وبين ما يجعل خطاباً ويصدر بحرف النداء ظاهر. وإذا كان كذلك فلفظ الخطاب بيا كالمترجم عن تواضع وفاقه فيجب أن يختار معه من الصفات ما يؤكد الحال ويحرّر السؤال ويشبه ما نحن فيه أنهم قالوا في صفاته علام الغيوب.

ثم امتنعوا من علامة وإن كانت تاء التأنيث زائدة في المبالغة لما يحصل في اللفظ من علامة التأنيث ولا تنحط رتبته عن رتبة التذكير. ولأنهم جعلوا اللفظ مؤنثاً لاقتران علامة التأنيث فقالوا للبيضتين الاثنيان، ووصف بعضهم المنجنيق وهو مؤنث في اللغة فقال وكل أنثى حملت أحجاراً، فأما الخفير فمعناه لا يصح على الله لأنه من الستر ومنه خفرت المرأة. وقول القائل ثابت في صفة الله قليل الاستعمال ومعناه صحيح فيه وهو الكائن الذي ليس بمتنفذ، وقولهم: وتر، وفرد وفذ جميعه جائز عليه لأن معناه معنى التوحيد، إلا الفذ، لأن معناه القلة. وقولهم إبراهيم خليل الله فمعناه الاختصاص، ولا يقال الله خليل إبراهيم، لأنه يخص الله بشيء ولا يقاس الصديق ولا الوامق ولا العاشق على الخليل، ولا على المحب، ولا يوصف الله بالكامل، ولا الوافر لأن معناه الذي تمت أبعاضه وتوفاً خصاله ولا يوصف الله بالفرح، لأن الفرح إنما يجوز على من يجوز عليه الغم على أنه مع ذلك متناوله مذموم وليس كالسرور. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [سورة هود، الآية: ١٠] ومما يقل استعماله وصفه بالسار والبار، وإن كان معناهما صحيحاً إذا كان تعالى يسر أولياءه ويبرهم سمعه وطوله.

فإن قيل: أفيجوز أن يقال في الله تعالى: إنه يمكنه أن يفعل، ويستطيع أن يفعل ويطيق أن يفعل؟ قلت: كل ذلك جائز إلا قولك: يطيق أن يفعل، لأن الطاقة است فراغ الجهد فيما يقصده الإنسان وقوله تعالى: ﴿ذُو الطَّوْلِ﴾ [سورة غافر، الآية: ٣] حسن جائز لأن معنى ذو الطول وله الطول واحد فاعلمه.

واعلم أنَّ قول القائل: ما زال زيد يفعل كذا من العبارات الداخلة على المبتدأ والخبر يفيد الزمان دون الحدث، وإذا كان كذلك فزيد هو الذي كان مبتدأ وهو المخبر عنه، والخبر ما بعده، ولا يستقل بنفسه كما أنَّ المبتدأ لا يستقل بنفسه وما زال مثل كان وأصبح وأمسى في أنه أفاد الزمان، إلا أنه بدخول حرف النفي عليه عاد إلى الإثبات، لأن نفي النفي إثبات، ومما صُدِّر بحرف النفي من إخوانه ما برح وما فتى، وما انفك، وقال سيويي: تقول زایلته مزائلة وزيلاً والتزايل تباين الشيء، وزيلت بينهم فرقت.

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: ما زال زيد يقطع الكلام به، والمراد ثبت زيد. قلت: إن أخرجه من جملة العبارات الداخلة على المبتدأ والخبر وجعلته فعلاً تاماً يستغني بفاعله، ويفارق ما لا يتم إلا بخبره، لم يمتنع ذلك فيه، وحينئذ يصير مثل كان الذي يفسر يحدث وجاء في القرآن: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٠] وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٨٠] لأن تقديره لن أبرح من الأرض لأن برح لا يتعدى مثل زال، والأرض مخصوص لا يكون ظرفاً، وهذا غير المستعمل في قولهم لم يزل

الله واحداً سمياً بصيراً، ومثله أصبح الذي يمثل باستيقظ، وأمسى الممثل بنام.

وقد فسر سيويه ما برح بما زال، ولم يجعله من البراح إيذاناً بالفرق بين ما جعل عبارة وبين غيره، وقال تعالى: ﴿لَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [سورة طه، الآية: ٩١] وفي موضع آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٠] والمعنى لا أزال أسير حتى أبلغ، ولو جعل من البراح لدافع قوله حتى أبلغ، لأنَّ الثابت في موضعه لا يكون متبلاً، ومما يشرح هذا الذي قلناه امتناعهم من قول القائل: ما زال زيد إلا كذا حتى ردوا على ذي الرِّمة قوله:

حراجيح^(١) ما تنفك إلا مناخة على الخف أو ترمي بها بلدأ قفرا

وقالوا الاستثناء ممتنع هنا وإنما هو حراجيح ما ينفك مناخة أي لا يزال شخصاً مجهودة، وحمل إلا على الكثرة والجنس، ومنهم من قال: ما تنفك من قولهم فككته فانفك كأنه يخرج من أن يكون مما يدخل على المبتدأ والخبر، ويجعله مستقلاً بفاعله مثل كان التامة، ويكون المعنى لا ينخل قواه إلا في هذه الحالة وعلى هذا ما فتيء وفي القرآن: ﴿تَاللَّهِ تَفْتُو تَذْكُرُ يَوْسُفَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٨٥] أي لا تفتؤ ولا تزال.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه ذخِرٌ وسنَدٌ؟ قلت: هذا لا يكون إلا مجازاً وما لا يجب من جهة الحقيقة لا يجوز عندنا وصف القديم به إلا إذا كثر في كلام أهل الدين وأخبار أرباب اللغة فيصير تبعاً فيه لهم، وذلك أنَّ الذخر ما يذخره الإنسان ويحزره لنفسه وليوم حاجته، ويكون في الوقت كالمستغني عنه فيقال: أذخر هذا لطوارق الزمان ونوائب الدهر والأيام وعلى هذه الطريقة لا يجوز ذلك على الله لأنَّ الحاجة إليه دائمة فهذا في الذخر وكذلك السند في الحقيقة هو ما أسند الإنسان إليه ظهره والله متعالٍ عن هذه الصفة. فإن قيل: فهل يجوز أن يوصف الله بأنه نجى وولي؟ قلت: النجى فعيل ويراد به الذي ينجي، ووصف به الجمع في قوله تعالى: ﴿خَلَّصُوا نَجِيًّا﴾ [سورة يوسف، الآية: ٨٠] وإن كان على لفظ الواحد كما جاء فعول في قوله تعالى: ﴿عَدُّوْا لِي﴾ [سورة طه، الآية: ٣٩] وإذا كان كذلك فليس هو كالنكير والتذير لأنهما مصدران، ولكنه بمنزلة العلي والولي ونحوه مما يكون، والوالي والولي بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١١]، وكذلك النجى ومثله الصديق والخليط في أنه بلفظ الواحد ووصف به الجمع، وقوله: إني إذا ما القوم كانوا أنجيه. فأنجيه كقولهم كثيب وأكثبة ورغيف وأرغفة شبه الصفة بالاسم فكسرت تكسيره

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٧] وصف بالمصدر كما وصف بالعدل والرضى، وإذا كان الكلام بياناً عن المعاني فعلى المتكلم أن يبين المعاني التي يخبر عنها بكلامه وإلا كان بمنزلة من يلغز ويعمي كلامه لثلا يفهم، وفاعل هذا مختار عابثٌ فأما قولنا: وكيل علينا أي متولٍ لأمرنا وقائم، بحفظنا ونصرتنا، ولا يجوز أن يقال: وكيل لنا لأن الوكيل لنا هو النائب عنا وخليفتنا فيما يليه لنا فأما قولنا: توكّلنا على الله، فليس من الوكالة في شيء وإنما معنى يتوكل يلتجئ ويعتمد وإذا كان كذلك فإننا نقول: الله وكيل علينا، ولا نقول: متوكل علينا.

فإن قيل: كيف جاز مجيء تفعل وتفاعل في صفاته ومما من أبنية التكلف والتكلف لا تجيزه على الله. قلت: قوله المتكبر والكبير المتعالي في صفاته كالكبير والعالي والمباني كما يتفرد بالمعاني أو يكثر مجيئها لها فإنها قد تتداخل وتتشارك حتى لا تمايز ولا تباين، وإذا كان كذلك فقول القائل تعالى وتعالى وعلا بمعنى واحد قال: (تعالى الذي في متنه وتحذرا) بمعنى علا وحذر وقال شعراً:

ومستعجب مما يرى من إناتنا ولو زينة الحرب لم يترمزم

بمعنى عجب. وقال أوس:

وقد أكلت أظفاره الصخر كلما تعايا عليه طول مرقى توصلا

بمعنى أعبى، وهذا كثير ظاهرٌ فاعلمه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٦٧] بمعنى آذن. واعلم وقد انتهى هذا الباب وكُمّل بما ضمّ إليه من أخبار الرسول ﷺ وغيرها، جامعاً إلى الوفاء بما وعدته ومجيئه على المثال الذي خططته، أني لم آلُ جهداً في اختيار ما كانت الحاجة إلى بيانها أمس، والنفس إلى تبينها أثوق، حتى بلغ حداً يمكن الاستعانة به، مع أدنى تأمل على فتح كثير مما يستغلّق من نظرائه، وكلّ ذلك بعون الله وحسن توفيقه، وأنا الآن مشغولٌ بالباب الثاني والكلام في حقيقة الزمان والمكان، والرد على من تكلم بغير الحق فيهما والله يحوله وقوّته يعين على بلوغ ما نعرب منه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الثاني

في ذكر أسماء ومَعَانٍ لِلزَّمان والمكان، ومتى تسمّى ظروفًا، ومعنى قول التَّحويين الزَّمان ظرف للأفعال، والرَّد على من قال في بيانهما بغير الحق من الأوائل والأواخر. وهذا الباب يشتمل على ما ذكر ماهية الزَّمان والمكان وحكاية أقوال الأوائل فيهما، مُحَقِّقُهُمْ ومُبْطِلُهُمْ وإبطال الفاسد منها وما يتعلق بذلك وفصوله أربعة:

فصل

اعلم أن أسماء الزَّمان والمكان إنما تُسمّى ظروفًا إذا كانت محتوية لما هي ظروف لها فإن لم تكن محتوية فليست بظروف، بل هي أسماء تُبيِّن ما وقعت عليه من غيره كسائر الأسماء، كقولك: مكانكم طيب، وخَلَفَكَ واسعٌ، وأمامك الصحراء، ويوم الجمعة مبارك، وشهر رمضان شهر طاعة وإنابة، فإنما هذا كقولك: عبد الله كريم، وزيد مبارك، وموضع كونها ظروفًا أن تقول: سِرْتُ يوم الجمعة وضربت زيداً يوم السبت، فالיום مفعول فيه. وسنذكر قطعةً واسعةً من الأزمنة تأتي بأسمائها إلى أن نتمكن من شرح جملها وتفصيلها، ونأتي على حقها وحقيقتها ويندس في أثنائها الكثير من مبهمات الأمكنة لأنها هي التي تكون ظروفًا دون محدوداتها، واتسع باب الأزمان، لأنَّ الأحداث انقسمت بانقسامها فهي تتضمنها دون الجثث والأشخاص، ولذلك قال سيويو: المكان أشبه بالأناسي فلها صور تثبت عليها وحدود تنتهي إليها وتباين بها.

فمن أسماء الزَّمان: اليوم والليّلة والبارحة الأولى وأمس وأول من أمس، وأول من أول من أمس، وإذ مضافة إلى جملة كالفعل والفاعل والابتداء والخبر وقط وعصر وزمان ودهر ووقت في الزَّمان والمكان، وأسبوع وشهر وعام وسنة فيما مضى وحقب، وغد وأبد في المستقبل، وإذ مضافة إلى فعل وفاعل، وذات مرة، وذات المرار، ولا يستعملان إلا ظرفًا، وذات العويم وإبان وإفان وقبل وبعد، ولا يرفعان، وبعيدات بين، وكذلك، وليس قبل وبعد ولا بعيد من أسماء الزَّمان، ولا بعيدات بين، ولا من أسماء ساعاته.

وكذلك ذات مرة لأن قبل وبعد يفيدان التقدّم والتأخر، وبعيدات، جمع بعد مصغراً، ولذلك ضعفن، وذو صباح، وذو مساء وحرى دهر وابنا سمير والملوان والجديدان والأجدان، ومِلء من الدَّهر، والمرة، كقولك: ضربه وما كان اسماً في الدهر للظماً والرعي وغير ذلك مما يعتاد كالوجبة والغب والرفة والثُلث والرَّبع والخمس والسُدس ما كان ممراً في اليوم، واللَّيلة نحو سحر وبكر وغدوة وهو عَلم، وبكرة وهو مجهول على عدد، وغداة وضحوة وضحى والضحاء ممدود، ونصف النهار وسواء النهار والهجير والهاجرة والظَّهير والظَّهيرة ودلوك الشمس، وغسق الليل، والعصر وقصر العشي والأصيل، واستعمالهم إيَّاه مصغراً تقريباً للوقت، نحو أصيل وأصيلال وأصيلان، وكذلك المغرب في قولك مغيربان ومغيربانات والعتمة والغداة ومقصر وظلام ووهن وهذا وهدة وهذو وصباح ومساء وصباح مساء مبنيين، وسير عليه ذا صباح وشرط الليل ويومئذ وهذا مما حذف منه وصار التَّوْنين بدلاً من المحذوف فيه وحيثُذ وساعتُذ ويوم وحين مضافة إلى متمكن وإلى غيره، والسدف والسدفة وأي حين، ومذ ومنذ ومتى وأيان، ودخول كم على متى للعدد، ودخول حتَّى وإلى للمنتهى على أسماء الزمن وقولك ربَّما للتقليل، وربما بما في ذلك من اللغات، وقد التي بمعنى ربما، والساعات وألقاب أيام الأسبوع وتسمية العرب لها وذلك قولهم للأحد أول وللثَّنين أهون، وللثلاثاء جبار للأربعاء دبار، وللخميس المونس وللجمعة العروبة، وللسبت شيار وقولهم الوهن والموهن، وتسميتهم سير اللَّيل لا تعريس فيه إلا ساد، وسير النهار لا تعريج فيه التَّأويب.

وقولهم: لا أكلمك السَّمر والقمر، واختلاف الأزمنة كالصَّيف والخريف والشتاء والرَّبيع وما ينسب إليها من نتاج أو عُشب، وتسميتهم بالحر شهري ناجر، والشَّهرين الموصوفين بالبرد شهري قُمَاح وقِمَاح، وما نفع من المصادحين نحو: مقدم الحاج، وحقوق النِّجم، وخلافة فلان، ووقعة فلان، والتواريخ، وتقديمتهم اللَّيلة على اليوم، وقولهم بعد فنك من اللَّيل، وهزيع والأناء وما واحدها، وأيام الأسبوع والفصل بينها والأوان والآن.

وصفات الزَّمان: كقولهم حول كريت وقميط ومعجم وفعله قليلاً وكثيراً وطويلاً وقصيراً، وقولهم النسيء في الأزمنة والنسيئة^(١) في الدَّين واليمين والشَّمال وأعلى وأسفل وخلف وقدَّام وأيام العجوز، وهذه تجري مجرى المقدمات وسيأتي التفسير عليها منوعة.

فصل في ماهية الزمان

ذكر بعض القدماء أن الزمان هو دوران الفلك، وقال أفلاطون: هو صورة العالم متحركة بعد صورة الفلك. وقال آخر: هو مسير الشمس في البروج حكى جميع ذلك التّوحيثي، ووجه هذه الأقوال تتناسب. وحكى أبو القاسم عن أبي الهذيل أن للزمان مدى ما بين الأفعال، وأنّ الليل والنّهار هما الأوقات لا غيره. وزعم قوم أنه شيء غير الليل والنّهار، وغير دوران الفلك، وليس بجسم ولا عرض، ثم قالوا: لا يجوز أن يخلق الله شيئاً إلا في وقت، ولا يفنى الوقت فيقع أفعال لا في أوقات، لأنه لو فني الوقت لم يصح تقدم بعضها على بعض، ولا تأخر بعضها عن بعض، ولم يبين ذلك فيها وهذا محال.

وقال بعض المتكلّمين: الزّمان تقدير الحوادث بعضها ببعض، ويجب أن يكون الوقت والموقت جميعاً حادثين، لأن معتبرهما بالحدوث لا غير، ولذلك لم يصح التّوقيت بالقديم تعالى ثم مثل، فقال: ألا ترى أنك تقول: غرد الديك وقت طلوع الفجر، وتقول: طلع الفجر وقت تغريد الديك، فيصير كلّ واحد من طلوع الفجر وتغريد الديك وقتاً للآخر ومبيناً به للمخاطب حدوثه وهذا على حسب معرفته بأحدهما وجهله بالآخر، لأنّ ذلك في التّوقيت لا بدّ منه. وقال المحصّل من التّحويين الزمان ظرف الأفعال وإنما قيل ذلك لأن شيئاً من أفعالنا لا يقع إلا في مكان وإلا في زمان وهما الميقات.

قال الخليل: الوقت مقدار من الزّمان وكلّ شيء قدرت له حيناً فهو موقت، وكذلك ما قدرت له غاية فهو موقت، قال تعالى: ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [سورة الحجر، الآية: ٣٨] والميقات مصير الوقت قال تعالى: ﴿فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٤٢] والآخره ميقات الخلق ومواضع الإحرام مواقيت الحج وفي التّنزيل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٩] والإهلال ميقات الشّهر وفي القرآن: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [سورة المرسلات، الآية: ١١ - ١٢] وإنما هي وُقُتَتْ ويقال: وقت موقت وموقت. والزّمان قد يعلم باسمه. وقد يبين بصفاته، فالأول كالسّبب والأحد ورمضان وشوّال، والثاني كقولك الخميس الأدنى، والجمعة الآتية، وقد يبين بقرينة تضاف إليه كقولك: عام الفيل، ووقت ولاية فلان. وقد يقصد المتكلم بيان قدر الوقت أو صورته أو اتصاله أو انقطاعه بما يكون نكرة كقولك فعلته ليلاً وثابرت عليه حولاً، وأقامت عنده شهراً.

وفي الاتصال والانقطاع يقولون: فعلته ليلاً ونهاراً أو غدواً وعشياً وزرته ذات مرة وبعبادات بين. فأما قول من قال: هو الفلك بعينه فقد أخطأ، لأنّ الأفلاك كبيرة في الحال وليست الأزمنة كبيرة في الحال، لأنّ الزّمان ماضي ومستقبل وحاضر، والفلك ليس كذلك،

وهذا ظاهر، وذلك قول من قال: حركات الفلك هي الزمان لأن أجزاء الزمان إذا توهّمت كانت زماناً، وأجزاء الحركة المستديرة إذا توهّمت لم تكن حركةً مستديرةً، ولأنّ الحركة في المتحرّك وفي المكان الذي يتحرّك إليه المتحرّك، والزمان ليس هو في المتحرّك ولا في المكان الذي يتحرّك إليه المتحرّك، بل هو في كل مكان ثم قد يكون حركة أسرع من حركة، ألا ترى أنّ حركة الفلك الأعلى أسرع من حركة زحل والبطء والسرعة لا يكونان في الزمان لأنّ الحركة السريعة هي التي تكون في زمان يسير والبطيئة هي التي تكون في زمان كثير.

وحكى حنين بن اسحاق عن الاسكندر أنه قال في حدّ الزمان: إنه مدة بعدها حركة الفلك بالمتقدّم والمتأخّر. قال والعدد على ضربين: عدد يعدّ غيره وهو ما في النفس، وعدد يعدّ غيره، والزمان مما يعدّ بغيره وهو الحركة لأنّه على حسبها وهيئتها وكثرتها وثباتها، وإنما صار عدداً من أجل الأول والآخِر الموجودين في الحركة، والعدد فيه أوّل وآخر فإذا توهّمنا الحركة توهّمنا الزمان، وإذا توهّمنا الزمان توهّمنا الحركة، وإنما صار عدد حركة الفلك دون غيرها لأنه لا حركة أسرع منها، وإنما يُعدّ الشيء ويذرع ويكال بما هو أصغر منه. قال: والزمان عدد وإن كان واحداً لأنه بالتّوهم كثير فيكون أزمنة بالقوة والوهم لا بالوجود والعمل.

وهذا يقارب ما حكاه أبو القاسم عن أبي الهذيل في حدّ الزمان، لأن قوله: مدى ما بين الأفعال، وإنّ الليل والنّهار هما الأوقات إذا حصل يرجع إلى معنى قوله مدة بعدها حركة الفلك بالمتقدّم والمتأخّر، وإن كان لفظ أبي الهذيل أجزل وأغرب، ألا ترى أنّ الاسكندر قال: والبرهان على أن الزمان ليس بذي كون ولا ابتداء ولا انتهاء والفرقة التي زعمت أن الزمان شيء غير الليل والنّهار، وغير دوران الفلك، وليس بجسم ولا عرض إلى آخر الفصل، فإنّا سنتكلّم به على الملاحدة والخارجين من التّوحيد إلى وراء التشبيه إن شاء الله تعالى.

اعلم أن العبارة عن الوقت قد حصلت من القديم تعالى ولا فلك يدور ولا شمس في البروج تسير، وعبر أيضاً عن أوقات القيامة فمرة قال تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [سورة المعارج، الآية: ٤] ومرة قال تعالى: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾ [سورة السجدة، الآية: ٥] وقال تعالى: ﴿خلّق السموات والأرض في ستة أيام﴾ [سورة الحديد، الآية: ٤] وقال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٢] ولا بكرة ثم ولا عشيّة، فجميع ذلك أجري لأوقاتٍ مؤقتة لمعاني قدرها الله تعالى على أحوال ربّتها ومراتب صورها فمنها ما هو أطول، ومنها ما هو أقصر، على حسب أماد الأمور المقدورة فيها، فَمَثَلٌ كَلَّا بما تَقَرَّر به النفوس غايته وأمدّه ومقداره وموقعه ممّا

كنا نعرفه ونألفه ونشاهده ونتصرّف فيه، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وحصل من الحكيم التوقيت على ما بينا ظهر كثير من عاداتهم فيه وأنهم تخيّرنا ما كان في الاستعمال أبين وفي العرف أمتن، وعلى المراد أدل، وفي التمثيل أنبه وأجل.

واعلم أنّ الحادث متى حصل فقد حصل في وقت، والمراد أنه يصحّ أن يقال فيه: إنه سابق لما تأخر عنه، وإنّ وقته قبل وقته، أو متأخر عما تقدّمه وإنّ وقته بعد وقته أو مصاحب لما حدث معه، وإنّ وقته هذا هو المراد فقط، ولسنا نريد أنه حدث معه شيء سميّ زماناً له، أو سبقه أو احتاج في الوجود إليه، فلو تصوّرنا أوّل الحوادث وقد اخترعه الله مقدّماً على المحدثات كلّها لصلّح أن يقال فيه: إنه سابق لها وإنه أول لها، وهذا توقيت، ولو تصوّرنا أنه بقي مفرداً بعد حدوثه لم يتبع بغيره لكان يصحّ تقدير هذا القول فيه وتوهمه، إذ كان الله تعالى قادراً على الإتيان بأمثاله وأغياره معه وقبلة وبعده.

وهذا معنى قول النحوي: الفعل ينقسم بانقسام الزمان ماضي ومستقبل وحاضر، وإذا كان الأمر على هذا فقد سقط مؤنة القول في أنّ الوقت حادث لا في وقت، وأنه لو احتاج الوقت إلى وقت لأدّى إلى إثبات حوادث لا نهاية لها. وأما من قال: إنّ الزمان تقدير الحوادث بعضها ببعض وتمثيله بأن القائل يقول: غرّد الديك وقت طلوع الفجر، وطلع الفجر وقت تغريد الديك فإنّ كل واحد من التغريد صار وقتاً للآخر، فإنّه جاء إلى فعلين وقعا في وقت واحد، فعرف الوقت مرة بالإضافة إلى هذا، وجعل ذلك الآخر موقتاً به، ومرة بالإضافة إلى ذلك، وجعل هذا موقتاً به، ولم يتعرّض للزمان وكشف حده وضبطه وهذا كما يقال: حججت عام حج زيد وحج زيد عام حججت.

ومن الظاهر أن العام غير الحجين وأنهما إنما وقعا فيه، وهذا يبيّن على أن ما أتى به واشتغل بتمثيله هو من قبيل ما يكون زماناً وهو ما يصلح أن يكون واقعاً في جواب متى ولم يستوفه أيضاً، وترك ما يخرج في جواب كم رأساً، وذلك كقولهم: يصوم زيد النهار ويقوم الليل، وما فعلته قط، ولا أفعله أبداً، وأقمت بالبلد شهراً وهجرت زيدا يوماً إلى كثير مما ستره في أبواب هذا الكتاب وفصوله.

واعلم أنّ الزمان وإن كان حقيقة ما ذكرنا، فإنّ الأمم على اختلافها أولعوا في التوقيت بذي الليالي والأيام، والشهور والأعوام، لما يتعلّق به من وجوه المعاملات والآجال المضروبة في التجارات، ومن تقرير العادات، وإدراك الزراعات، وآماد العمارات، ومن فعل أهل الوبر في المحاضر والمزالف والمناجع والمجامع، وإقامة الأسواق، وتوجيه المعاش، ومن اشتغال أرباب النحل بما افترض عليه عندهم من تقوُّب وعبادة، ودعوا إلى الأخذ به في دينهم من فرض وناقلة، وأمروا بالتوجه إليه من سمت وقبلة، ولما أجرى الله

تعالى العادة به فيه من حدوث حر وبرد، وجزر ومد، وتبدّل خصب وجذب، ورخاء عيش وبؤس، ومن ظهور نبات وأوان لقاح، أو ولاد وصوب أقطار وهبوب أرواح لذلك قال النبي ﷺ: «تعلّموا من النجوم ما تعرفون به ساعات الليل والنهار، وهداية الطرق والسبل» فقدر أكثر الناس أنّ الزمان لا يكون غيرها ولا يعدوها إلى ما سواها، ولهذا الذي تبيّنته، أو أشرت إليه ذكر أبو الهذيل بعد تحديد الزمان الليل والنهار هما الأوقات لا غير.

واعلم أنّ الذين زعموا أنّ الزمان شيء غير الليل والنهار، وغير دوران الفلك وليس بجسم ولا عرض، ثم قالوا: لا يجوز أن يخلق الله شيئاً إلّا في وقت ولا يفنى الوقت، فيقع أفعال لا في أوقات لأنه لو فني الوقت لم يصح تقدّم بعضها على بعض، ولا تأخّر بعضها عن بعض، ولم يتبيّن ذلك فيها، وهذا محال قولهم داخل في أقوال الذين يقولون: إنّ الزمان والمكان المطلقين، ويعرب عنهما عند التحقيق بالذهر والخلاء جوهران قائمان بأنفسهما، والكلام عليهم يجيء بعد تنويع فِرَقهم وبيان طرقهم فنقول: بالله الحول والقوة من زعم أنّ الأزلي أكثر من واحد أربع فرق:

الأولى: الذين يقولون هما اثنان الفاعل والمادة فقط ويعني بالمادة الهيولى.

الثانية: الذين يدّعون أنّ الأزلي ثلاثة الفاعل والمادة والخلاء.

الثالثة: الذين يدّعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة.

الرابعة: الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكريا، المتطبب لأنه زاد عليهم النفس الناطقة، فبلغ عدد الأزلي خمسة بهذيانه.

وشرح مذهبهم أنه لم يزل خمسة أشياء، اثنان منها حيّان فاعلان وهما: البارى والنفس، وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى الذي منه كوّنت جميع الأجسام الموجودة، واثنان لا حيّان ولا فاعلان ولا منفعلان وهما الخلاء والمادة، إلى خرافات لا تطيق اليد بيانها بالخط، ولا اللسان تحصيلها باللفظ، ولا القلب تمثيلها بالوهم، فمما يزعمه أن البارى تام الحكمة لا يلحقه سهو ولا غفلة، وتفيض منه الحياة كفيض النور عن قرصة الشمس، وهو العقل التام المحض، والنفس تفيض منه الحياة كفيض النور، وهي مترجحة بين الجهل والعقل كالرجل يسهو تارةً، ويصحو أخرى، وذلك لأنها إذا نظرت نحو البارى الذي هو عقلٌ محضٌ غفلت وأفقت، وإذا نظرت نحو الهيولى التي هي جهل محض غفلت وسهت، وأقول متعجباً لولا الكرى لم يحلم وهذا كما قال غيري، أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة، وما يعتقده من وجود العالم لحدوث العلّة وما يدّعيه من وجود الجوهرين الأزليين أعني الخلاء والمدة لا فعلَ لهما ولا انفعال، فلولا خذلان الله إياه، وإلا

فماذا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل؟! ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة، ولم يحدث العلة من غير نقص ولا آفة ولم يذكر شيئاً ليس فيه جدوى ولا ثمرة وهذا الفصل إذا أُعطي مستحقّه من التأمل ظهر منه ما يسقط به سخيف كلامهم، وإن لم يكن مورده مورد الحجاج عليهم.

ألا ترى أنّ من لم يثبت القديم تعالى فيما لم يزل واحداً لا ثاني له، وعالمًا بالأشياء قبل كونها وبعده، وقادراً على كل ما يصح أن يكون مقدوراً، وحياً لا آفة به، وغنياً لا حاجة به إلى غيره في شيء من إرادته، وحكيماً لا يبدو له في كل ما يأتيه ويفعله، فننقل إلى ما هو أعلى منه، بل لا يفعل إلا ما هو حسنٌ وواجبٌ في الحكمة والصواب، فقد جعله قاصراً ناقصاً، تعالى الله وجلّ عن صفات المخلوقين، وهذا كما أنّ من الواجب أن يعلم أنّ القديم لو لم يبدع العالم أصلاً لاستحال أن يتوقّف على وجوده، أو يتوصل إلى إثباته، لأن ذاته لم تكن ظاهرة للعيان، ولا مستدركاً بالحواس، وأنّ الشيء قد يصح إثباته من طريق أفعاله كما يصح إثباته من جهة ذاته، والأسباب وإن كانت متقدمة لمسبباتها بالوجود فلا يمتنع أن يكون في العقول أسبق إلى الوضوح.

وإذا كان كذلك فالعالم بثبات هذا العالم المحسوس موصولٌ إليه من طريق الإدراك والمشاهدة، والعلم بصانعه من طريق النّظر والمباحثة، وقد تكلم الناس في المعرفة بالله تعالى واختلفوا فزعم قومٌ أن المعرفة لا تجب على القادر العاقل وأنها تحدث بإلهام الله، فكل من لم يلهمه الله المعرفة فلا حجة عليه، ولا يجب عليه عقاب، لأنّ عذر من ترك الشيء لأنه لم يعلم كعذر من ترك الشيء لأنه لا يقدر عليه، والذي يدل على أن المعرفة لا تكون ضرورةً لأننا يمكننا التشكك فيه. ألا ترى أنه كلما اعتقدنا الشيء بدليل فاعترضت شبهة في أصل الدليل يخرج من العلم بذلك الشيء حتى تثبت حجة بمحل تلك الشبهة، ولو كانت بالضرورة لم يكن التشكك، وكان العقلاء كلّهم شرعاً واحداً في العلم، كما صاروا شرعاً واحداً في أخبار البلدان المتواترة عليهم، فبان بذلك أنها ليست بضرورة، وأكثر الناس على أنها واجبة وهي من فعل الإنسان، وإنما يقع أولها متولداً عن النّظر.

قال البغداديون مستدلين: لا يخلو من أن يكون قد كلّفنا الله معرفته أو لا يكون كلّفنا وتركنا مهملين، وتركنا سدى، وإهمالنا لا يجوز عليه ويقال لهم في ذلك: إنّ الإهمال هو تضييع ما يلزم حفظه، وترك مراعاة ما يجب مراعاته، ألا ترون أنّ من لم يحفظ مال غيره لا يقال أهمله، لما كان لا يلزمه حفظه فثبتوا أولاً أن المعرفة بالله واجبة، ثم ادّعوا الإهمال إذا لم يكلفناها. وقالوا أيضاً: نحن نرى على أنفسنا آثار نعيم ونعلم وجوب شكر المنعم، فإذا يجب أن يعرف المنعم لشكره.

فإن قال قائل : فهل يجوز أن نعلم القديم تعالى من طريق الخبر؟ قلت : لا ، لأنَّ الخبر على قسمين : فمَنه ما يضطر السامع إلى العلم بالمخبر به كالخبر عن البلدان والأمصار ، وقد علمنا أنه لا يجوز أن نعلم الله من هذه الجهة ، لأننا وجدنا العقلاء يشكون من أنَّ لهم صناعات مع إخبار المخبرين به ، ولو كان يعلم من طريق الخبر لكان لا فرق بين خبر من زعم أنَّ الصانع واحد وبين من قال اثنان أو ثلاثة ، على أنَّ الخبر إنَّما يضطر إذا كان المخبر يخبر عن مشاهدة ، لأنه لا يجوز أن يكون حال المخبر يعلم ضرورة ومن الخبر ما يعلم من طريق الاستدلال ، كخبر النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يعلم الله من هذه الجهة ، لأنَّ القائل بهذا القول أحد رجلين ، إمَّا أن يقول لا يعلم الله إلا من جهة الخبر ، فيلزمه أن يكون النبي لا يعرف الله إلا بنبي آخر وذلك يوجب التسلسل إلى ما لا نهاية ، وإمَّا أن يقول : إنه يعلم من جهة النبي ومن جهة أخرى أيضاً ، وهذا فاسدٌ لأنه ليس في النبي أكثر من إظهار المعجزات والمعجزات لا تدل على حكمة فاعلها ، فكيف يكون خبر النبي طريقاً إلى العلم بالله وإذ قد ذكرنا وجوب معرفة الله تعالى والطريق إليه ها هنا ، ومما تقدَّم فإنَّنا ننكر الكلام على الملحدة والمتحيرين .

فصل

اعلم أنَّ أنواع الضلال ثلاثة : المعاندة والحيرة والجهالة .

فالمعاندة على الإطلاق ينبغي أن لا يحصل لأحد منَّا علم حقيقي ولا معرفة تفضي إلى يقين ، وإنما هي ظنون وخواطر لا تسكن النفس إليها ، وتسميتها لها ولأمثالها بالعلوم توسع ومجاز . والوجه في مدافعهم أن يقال لهم : أتقولون ما ذكرتم عن خلوص علم ، أو تسلط ظن؟ فإنَّ ادَّعوا العلم فقد ناقضوا ، وإلَّا حصلوا على عناد ، وقد ذكر أبو عثمان الجاحظ في الكفار الذين قتلهم النبي ﷺ أنَّهم كانوا عارفين بالله معاندين .

واعترض عليه فقيل : إنَّ العناد يجوز على العدد اليسير ، فأما الجماعة الكثيرة فلا يصح عليها ذلك ، ونحن نعلم من أنفسنا وقد كنا على مذاهب فتركانها لفسادها أنَّنا لم نكن في حال اعتقادنا معاندين ولا كاذبين لأنفسنا ، وإنَّما تركنا الاستدلال ، فكذلك أولئك الكفار قد علموا فيما أظهره النبي ﷺ أنها معجزات ، لكنهم تركوا الاستدلال بها على ثبوته وصدقه .

والمتحIRON هم الذين يزعمون أنَّ العلم بالمحسوسات قد يصح ، ولكن ما عداها مما يحال فيه على العقل نحن شاكون فيه ومتوقفون ، والكلام عليهم طريقه أن تقلب عليهم نفس ما أوردوه فيقال : تدفعون مقتضيات العقول بالمشاهدات أو بحجج العقول ولا فلاح لهم أي الطريقين سلكوا .

والجاهلون الملاحدة والخارجون من نور التوحيد والاستقامة إلى ظلمة الشرك فِرَق،
والضلالة في عددهم في ازديادٍ ووُفُور، وإفسادهم وجوه وفنون وقد فسرت فقيلاً: ربما
كانت من الحضانة والتربية وقلة الخواطر وغباوة الخليط وجهد المجاورة، وربما كان من
تعظيم الأسلاف، أو من وجه الآلاف، أو من غباوة الداعية ونسل صاحب المقالة، وكونه
صاحب سن وسمت وإخبات وطول صمت، والله تعالى الحجة البالغة عليهم، وعلى طوائف
المبتدعة من أهل الصلوة على اختلاف أهوائهم، وسيعلم الجافي على نفسه كيف ينقلب وقد
فاته الأمر. ذكر بعضهم حاكياً عن قوم من الأوائل، أنَّ الدَّهر والخلاء قائمان في فطر العقول
بلا استدلال، وذلك أنه ليس من عاقل إلا وهو يجد ويتصور في عقله وجود شيء للأجسام
بمنزلة الوعاء والقراب، ووجود شيء يعلم التقدم والتأخر، وأنَّ وقتنا ليس هو وقتنا الذي
مضى، ولا الذي يكون من بعد بل هو شيء بينهما، وأن هذا الشيء هو ذو بُعد وامتداد.
وقال: قد توهم قوم أنَّ الخلاء هو المكان، وأنَّ الدَّهر هو الزَّمان، وليس الأمر كذلك
بإطلاق، بل الخلاء هو البعد الذي خلا منه الجسم، ويمكن أن يكون فيه الجسم، وأما
المكان فالسطح المشترك بين الحاوي والمحوى، وأما الزَّمان فهو ما قدرته الحركة من
الزَّمان الذي هو المدة غير المقدرة، فصرفوا معنى الزَّمان والمكان المضافين إلى المطلقين،
وظنوا أنهما هما والبؤن بينهما بعيدٌ جداً، لأنَّ المكان المضاف هو مكان هذا المتمكن وإن
لم يكن متمكناً لم يكن مكاناً، والزَّمان المقدر بالحركة يبطل أيضاً بِبُطلان المتحرك ويوجد
بوجوده، إذ هو مقدر حركته، فأما المكان بإطلاق فهو المكان الذي يكون فيه الجسم وإن لم
يكن، والزَّمان المطلق هو المدة قُدِّرَتْ أو لم تقدَّر، وليس الحركة فاعلة المدة بل مقدرته،
ولا المتمكن فاعل المكان بل الحال فيه، قال: فقد بان أنهما ليسا عَرَضَيْن بل جوهرين لأنَّ
الخلاء ليس قائماً بالجسم لأنه لو كان قائماً به لبطل ببطلانه، كما يبطل الترييع ببطلان
المرتع.

فإن قال قائل: إنَّ المكان يبطل ببطلان المتمكن قيل له: أما المضاف فإنَّه كذلك لأنَّه
إنما كان مكان هذا المتمكن، فأما المطلق فلا، ألا ترى أنا لو توهمنا الفلك معدوماً لم
يمكننا أن نتوهم المكان الذي هو فيه معدوماً بعده، وكذلك لو أنَّ مقدراً قَدَّر مدة سبت
كان، ولم يقدر مدة يوم آخر، لم يكن في ترك التقدير بطلان مدة ذلك اليوم الذي لم يقدر،
بل التقدير نفسه، فكذلك ليس في بطلان الفلك أو في سكونه ما يبطل الزَّمان الحقيقي الذي
هو المدة والدَّهر، فقد ينبغي أنهما جوهران لا عرضان، إذ كانا ليسا بمحتاجين إلى مكان
ولا إلى حامل فليسا إذًا بجسم ولا عرض، فبقي أن يكونا جوهرين.

وزاد على هذا الوجه الذي حكيناه بعضهم فقال: طبيعة الزَّمان من تأكيد الوجود في

ذاتها وقوة الثبات في جوهرها، بحيث لا يجوز عدمها رأساً ولم تكن قط معدومة أصلاً، فلا بدء لها، ولا انتهاء، بل هي قارة أزلية.

ألا ترى أنّ المتوهم لعدم الزمان لم يخلص له وهمه إلا إذا ثبت مدة لا زمان منها، والمدة هي الزمان نفسه، فكيف يوهم عدم ما تأكد لزوم جوهره؟ ويفني العقل الصحيح تصور عدمه وتلاشيّه؟ أو كيف يسوغ إلحاق عدمه بالممكنات؟! ووجوده من الواجبات الأزليات؟ فهذا ما حكى عن الأوئل. وابن زكريا المتطبّب يحوم في هذيانه عند حجاجه حول ما ذكرناه عنهم ولم يبين بيانهم ولا بلغ غايتهم، فلذلك جعل تابعاً لهم وإذ قد أتينا على مآلهم بأنهم استقصاء، فإننا نشتغل بالكلام عليهم، وإن كان فيما قدّمناه قد صورنا خطأهم تصويراً يغني عن مقايستهم ومحاكتهم.

ذكر بعض المنطقيين أنّ الزمان في الحقيقة معدوم الذات، واحتج بأن الوجود للشيء إما أن يكون بعامة أجزائه كالخط والسطح أو بجزء من أجزائه كالعدد والقول، وليس يخفى علينا أنّ الزمان ليس يوجد بعامة أجزائه إذ الماضي منه قد تلاشى واضمحّل، والغابر منه لم يتمّ حصوله بعد وليس يصح أيضاً أن يكون وجوده بجزء من أجزائه إذ الآن في الحقيقة هو حدّ الزمانين وليس بجزء من الزمان، وكيف يجوز أن يعد جزءاً ولسنا نشك أنّ حقيقة الجزء هو أن يكون مقداراً له نسبة إلى كلّ، كأن يكون جزءاً من مائة جزء، أو أقل أو أكثر، فأما أن يتوهم جزء على الإطلاق غير مناسب لكلّه فممتنع محالّ وليس الآن في ذاته بذبي قدر مناسب لما يفوض من الزمان الآتي والماضي، ولو وجد له قدر ما لصلح أن يجعل قدره عياراً يمسح به الكلّ حسب جواز ذلك على كافة ما يعد جزءاً من الشيء وإذا لم يكن الآن في جوهره ذا مقدار أصلاً، والجزء من الشيء لا يجوز أن يعرّى من المقدار، فليس الآن بجزء من الزمان، وإذا كان الأمر على ذلك فالزمان إذاً ليس يصح وجوده لا بعامة أجزائه ولا ببعض أجزائه، وإن شيئاً يكون طباعه بحيث لا يوجد بأجزائه كلّها ولا ببعض منها فمن المحال أن يلحق بجملة الموجودات، وإذا كان ذات الزمان غير موجود أصلاً فليس بجائز أن نعهده في الكميات، فإنّ ما لا وجود له لا آنية له، والذي لا آنية له لا يوصف بوقوعه تحت شيء من المقولات.

وقولهم في الزمان هو المدة التي تفهم قبل وبعد أجلها، فإن كان المراد أنّ قول القائل: قبل وبعد يفيد أنّ تقدّم المذكور وتأخره من غير أن ثبت بهما جوهران ليسا بجسم، ولا يفنيان ولا يجوز أن يخلق الله شيئاً من دونهما فهو صحيح، ويكون سبيلهما سبيل لفظ مع إفادتهما معنى الصحبة إذا قلت زيد مع عمرو، وكما تقول للأعيان أحوال ثم لا تصفها بأكثر من تميز بعضها عن بعض بها، وإنّ أريد بقبل وبعد غير ذلك فقد تقدّم القول في بطلانه

وبطلان ما قالوه في الخلاء والمكان، على أنا نقول معيدين عليهم إن أردتم أن المكان يكون المتمكن وإن لم يوجد الجسم لم يوجد المكان لأنه قائم بالجسم، وليس بشيء ذي وجود في نفسه فهو صحيح، وإن أردتم للمكان جوهرًا يبقى إذا ارتفع المتمكن، وأن الذي بطل بارتفاعه هو النسبة إليه والإضافة، ويبقى المكان المطلق مكاناً كما كان وهو الخلاء الفارغ وليس فيه جسم فهذا إحالة على شيء لا الإدراك يشبهه ولا الوهم يتصوره. فإن قالوا: المكان حينئذ يكون مكان ما يمكن أن يكون فيه كالزق الخالي من الشراب، فإنه مكان الشراب الذي يمكن أن يكون فيه.

قلنا: صور في وهما من الخلاء مثل ما نتصوره إذا توهمنا الزق والشراب وذلك مما لا يقدران عليه، لأن كلامهم فارغ لا يفضي إلى معنى محصل، وأيضاً فإن الأجسام لا يخلو من أن تكون ثقيلة فترسب، أو خفيفة فتطفو، والخلاء عندهم ليس بثقل ولا خفيف، فيلزمهم أن يكون النقطة هي الخلاء لأنها ليست بثقيلة ولا خفيفة، ويلزمهم على قولهم بأن المتحرك لا يتحرك إلا في الخلاء أن يتحرك أبداً ولا يستقر إذا لم يوجد شيء يضاده أو يسكن دائماً فلا يتحرك إذ لا سبب هناك يوجب تحركه، أو إذا تحرك في الخلاء أن يتحرك إلى جميع الجهات ولا يختص بجهة دون جهة لأن الخلاء كذلك. فإن قالوا: إن الذي تسميه خلاء هو الهواء، أسقط قولهم بأن الهواء يقبل اللون ويؤدي الصوت والخلاء ليس كذلك وهذا بين.

وأعجب من هذا أن الباري مخترع لجميع ما خلقه وأنه لا يعجزه مطلوب ولا ينكاده معلوم، ثم أقاموا معه في الأزل الهيولى وهو المادة، ورتبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والتجارة والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٩] إلى قوله: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [سورة فصلت، الآية: ١٢] ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية البيّنة والحجة الواضحة، ويبنوا أنه ليس في العالم شيء إلا وهو متقصر غير كامل، وذلك هو الدليل على أنه مقهور لا يستغنى به، ولا بُدَّ له من قاهر لا يشبهه ولا يوصف بصفاته على حدّها، لأن ذلك آية الخلق وآية الخلق لا تكون في الخالق.

فصل آخر يزداد الناظر فيه والعارف به استبصاراً فيما وُضع الباب له

اعلم أن الاستدلال بالشاهد على الغائب هو الأصل في المعرفة بالتوحيد وحدوث الأجسام لا يُعرف ببداية العقل ولا بالمشاهدة لأنه لو عرف ذلك لاستوى العقلاء في معرفته كما استوا فيما شاهدوه، وإنما يتها أن يعرف بما علم من تعاقب الأعراض المتضادة عليها، وإنما لا تنفك منها عل حدوثها إلا بمشاهدة الأجسام وإذا ثبت حدوث الأجسام فلا

بدّ لها من محدث لا يشبهها، وإذا ثبت ذلك صح أنّ الفاعل للأجسام لا تحلّه الحوادث وأنه سابق لها غير مشبه لها والحوادث غير مشبهة له.

ثم دلّ خلقه للأجسام أنه قادرٌ حيٌّ كما دلّت أفعال الأجسام في الشاهد أنّها حيّة قادرةٌ عالمةٌ وأنّها لو لم تكن كذلك لم تكن فاعلة فلما لم يدلّنا على أن الأجسام حية قادرةٌ إلا أفعالها، إذ كانت حياتها وقدرتها لا تشاهد، دلّتنا أفعال الله تعالى أيضاً على أنه حيٌّ قادرٌ، ووجب أن يكون عالماً لوجود أفعال محكمة، إذ كانت أفعال الأجسام في الشاهد إذ كانت محكمة دلّت على أنّها عالمة ولا يدلّ على علمها غير أفعالها، إذ كان العلم لا يدرك ولا يشاهد.

ولما دلنا جواز الموت على الأجسام نفى الشاهد والعجز والجهل دلّنا ذلك على أنهم إنما كانوا أحياء قادرين بحياة وقدرة، وعالمين بعلم، وهذه الأشياء هي غيرهم فلهذا جاز زوالها عنهم وحدوث أضدادها بدلاً منها فيهم. ولما كان القديم تعالى لا يجوز شيء من ذلك عليه وجب بدلالة الشاهد أنه حيٌّ بنفسه عالمٌ ولما كان الجسم في الشاهد بالتأليف يصير جسماً، ونعلمه جسماً لم يَجُزْ أن يكون جسماً فصَحَّ بهذا أن التوحيد لا يعرف إلا بدلالة الشاهد، وكذلك طريق صدق الرّسل لأنه لا يعرف بالمشاهدة ولا ببداهة العقل، ولو عرف بذلك لاستوى النّاس جميعاً فيه، وإذا كان كذلك فإنّما يعرف بالآيات المعجزات، ولا يعرف ذلك إلا باعتبار أمر الشاهد وحمل الغائب عليه فاعلمه.

واستدلّ أبو القاسم البلخي على أنّ القديم واحد بأن قال: قد ثبت أنّ المحدثات لا بدّ لها من محدث، فمن هذا الطّريق قد بان أنّها هنا صانعاً لا بدّ منه ولا أقلّ من واحد فلذلك نعلمه يقيناً أنّه واحد، وأمّا ما عداه مشكوكٌ فيه فلا يتخطاه إلاّ بدليل وهذا قريب صحيح. انتهى الباب والله محمود على ما سهّله ووفقنا له من تحقيق ما أردنا تحقيقه من شرح فضائهم وإثارة مقابحهم، والرّد عليهم في أصول دعاويهم وفروعها ومسؤول إيزاعنا شكر نعمته ووصلة سعينا بمرضاته.

الباب الثالث

ويشتمل على بيان اللَّيْلِ والنَّهَارِ على فصولٍ من الأعراب يتعلّق بهما وهي ظروف
الفصل الأوّل

قال الأصمعي أتيتُه ليلاً وقعلته نهاراً. قال تعالى: ﴿وإنكم لَتَمْرُونَهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ [سورة الصافات، الآية: ١٣٧] فقلوه: بالليلّ خلاف الإصباح. واعلم أنّ قوله: ﴿وبالليلّ﴾ موضعه نصب على الحال كأنه قال: تمرّون عليهم مُصْبِحِينَ ومُظْلَمِينَ أي داخلين في الظلام، فأوقع اللَّيْلَ على الجزء الذي فيه الظلام من اللَّيْلِ، وإن كان في الحقيقة للجنس. واليوم بإزاء اللَّيْلَةِ يقال: جئتُك اليوم وأجيتُك اللَّيْلَةَ ويقال: أتيتُه ظلاماً أي ليلاً ومع الظلام. وقال يعقوب: الظلام أول اللَّيْلِ وإن كان مقمرأ. وحكى بعضهم أتيتُه ظلاماً أي عند غيوبة الشّمس إلى صلاة المغرب وهو دخول اللَّيْلِ، وهذا يؤيد ما حكاه يعقوب وكأنه جعله الوقت الذي من شأنه أن يظلم، ويقولون: عم ظلاماً، كما يقولون: عم صباحاً ويقال: نهار أنهر وليل أليل وليّلة ليلاء وقال الفرزدق: واللّيل مختلط الغياطل أليلٌ. وأنشد المفضل:

مروان مروان أخو اليوم اليممي

قال سيبويه: أراد اليوم فقلب وقَدَّمَ الميم وقيل: بل حذف العين تخفيفاً وأطلق الميم إطلاقاً.

وقال شيخنا أبو علي الفارسي: وقت قراءتي عليه هذا الموضع من الكتاب وفي حاشية نسختي: أخي اليوم اليوم، فاستغربه وقال: يريد أنه بطلٌ يبارز أقرانه ويقول لهم: اليوم اليوم أو هو صاحب هذا اللَّفْظ في ذلك الوقت وفي هذا الوجه قلب أيضاً وقولهم: يوم في أبنية الأسماء غريب نادر، لأن فاء ياء وعينه واو ومثله في المباني يوح اسم للشّمس وباب اليون بالشام.

وقد ذكره ابن الرّقيات في قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان أعني ابن ليلى عبد

العزير. يباب اليون تغدو جفانه ردماً. وقال هميان بن قحافة: فصدقت تحسب ليلاً لأيلاً. فقال لأيل وإنما يصفون بما يشق من لفظ الموصوف بياناً للمبالغة وتنبهاً عليها على ذلك قولهم ظلّ ظليل، وداهية دهياء وما أشبهها. ويقال استأجرت مياومةً وملايلةً إذا قدر أجرته يوماً يوماً وليلةً وليلةً.

وحكى أبو عبيدة أنّ العرب لا تقول إلا مشاهرةً، فأما معاويةً ومياومةً وما أشبههما فليست من كلام العرب، وإنما هي قياس على المسموع منهم، ويقال: يوم وأيام، والأصل أيّام لكن الواو والياء إذا اجتمعا فأتيهما سبق الآخر بالسكون يقلب الواو ياء ويدغم الأوّل في الثاني، إلا أن يمنع مانع على ذلك قولهم سيّد وميت لأنهما فيعمل من ساد ومات، والأصل سيود وميوت هذا فيما السّابق فيه ياء ومما السّابق فيه واو قالوا كويته كياً، ولويته ليّاً لأن الأصل كوى ولوى وكذلك قولهم أمانة وأزبية وقولي إلا أن يمنع مانع احتراز من مثل قولهم: ديوان لأن أصله دووان، ففروا من التّضعيف وأبدلوا من إحدى الواوين ياءً. فلو طلبوا الإدغام للواو لعادوا من التّضعيف مثل ما فروا منه، ومثله سوير وبويع ومثله لوى ورويه إذا خفف همزتاها، لأنّ الواو في جميعها لا يلزم، فلم يعتدوا بها واواً.

ألا ترى أنّها سوير، وبويع مُنقلبة عن الألف في سائر وبائع. وفي رويه ونوي مبدلتان من همزة وتلك الهمزة ثابتة في النّية، وإذا كان كذلك فحكم الواو فيها حكم الألف والهمزة، فأما ضيوع وحيوة فشاذتان عن الاستعمال ومتبّهتان على أصل بالباب المرفوض على عادتهم في أمثالها والتّهار واللّيل لا يجمعان إلا أن يذهب إلى بياض كلّ يوم، وسواد كلّ ليلة، فتصورت بينها خلافاً لأنك حيثنّ تجمع للاختلاف الدّاخل في الجنس فيقال: أليال وأليل وأنهر ونهر وعلى هذا قول الشاعر شعراً:

لولا الشريدان هلكنا بالضمّر ثريد^(١) ليل وثريدٌ بالثّهر

والذي يكشف لك أنّ اللّيل والتّهار لا يجمعان أنّ سيويه قال: لا يجوز أن يقول القائل: إذا كان الليل فاتني ولا أن يقول: إذا كان التّهار فاتني لأنهما لا يكونان ظرفين إلا أن يعني بهما كلّ اللّيل والتّهار. وإذا كانا كذلك فسيبيلهما سبيل الدهر فكما لا تقول: إذا كان الدهر فاتني كذلك يمتنع في اللّيل والتّهار ويقال: رجل ليلي ورجل نهاري إذا نسبت، ونهري أيضاً وهذا كما بنوا للنسبة فاعل وفعال مثل تاجر ولابن ويزاز وثمار وأنشده:

لست بليلى ولكنني نهر متى أتى الصّبحُ فإنني متشر

لا أدلج^(١) الليل ولكن أبتكر

ويقال: ليلة وليالي فكانها جمعت على ليالات وإن لم يستعمل ومثله أهال في جمع أهل وإنما هو في تقدير أهلي، وعلى هذا قالوا في التصغير ليلية والقياس في جمع ليلة ليلاء ليال ليل والأصل لول لأنه فعل مثل حمراء وحمرة، لكنهم حاموا على الياء لثلاث يلتبس بنات الياء ببنات الواو، ومثله قولهم بيض وعين في جمع بيضاء وعيناء وما أنشده الكسائي من قول الكميت:

ولدنك والبدر ابنُ عائشة التي أضاء ابنها مُستحلكاتِ اللَّيَالِ
فإنه أراد اللَّيالي، فقلب، وقدم الياء فلما وليت الألف همزت كما قيل: صحايف ومثله فيما قلبوه ترقوة وترائق والأصل تراقي.

واعلم أنهم يتوسعون في ذكرهم اليوم، واللَّيلة ألا تراهم يقولون: فلان اليوم يُعد من الرؤساء وكان في الدهر الأول على كذا، واليوم هو خلافه، وإنما يعنون الزمان وكما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة السجدة، الآية: ٥] يعني القيامة، وليس ما أشار إليه من صورة ما نَعَدَه في شيء وقال الشاعر:

يومان يوم مقاماتٍ وأنديّةً ويوم سَيرٍ إلى الأعداء تأويِبٍ

فقسم دهره يومين، ويقال: الناس أغراض اللَّيالي ويراد الأحداث ومثله من الذي يسلم على اللَّيالي والأيام فأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمُهُمْ يَوْمُهُ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٦] فاليوم يعم أجزاء الليل والنهار، والزجر به حاصل في كل جزء من أجزاء الزمان وعلى هذا قوله:

يا جِلْدَا العَرَصَاتِ يوماً في ليالٍ مُقمّرات

يريد وقتاً وزماناً في ليالٍ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٠] أي نجعل الدُّول في الأزمان فتحول وتنقل بين الناس على حسب استحقاقهم أو سبباً لامتحانهم. وقد سمّت العرب وقعاتها أياماً فيقولون لنا: يوم كذا ويوم كذا، وساغ ذلك لوقوعها فيها.

فصل آخر

يقال: اللَّيلة لليلتك التي أنت فيها، والبارحة لليلة يومك الذي أنت فيه، وقد مضت

(١) أدلج: سارَ اللَّيْل كله أو في آخره.

وهي من برحت أي انقضت، ومنه ما برحتُ أفعل كذا، وأصله البراح، من المكان وقال الفراء: برحت بالفتح مضت ويقال: برح الخفاء أي زال ومنه البارحة وقال قطرب: لا يقال بارحة الأولى لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه، ولا إلى نعتة والجمع البوارح.

وذكر بعض شيوخنا أنَّ قوله: لا أبرح بمعنى لا أنال ولا يجوز أن يكون أصله من البراح من المكان بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٠] ألا ترى أنه محال أن يبلغ مجمع البحرين وهو لم يبرح من مكانه قال: وإذا لم يستعمل أبرح إلا على أحد هذين الوجهين وبطل أحدهما ثبت الآخر، ويمكن أن يقال في جوابه معنى لا أبرح حتى أبلغ أي لا أتجاوز هذا الطريق ولا أعدل عن سلوكه وَسَمِيَتْ حَتَّى أَبْلُغَ هذا المكان، فحذف الطريق وهذا كما يقال: لم أبرح بلد كذا حَتَّى فعلت كذا وَإِنْ كَانَ ينقل في البلد لأنَّ المعنى لم أتغيب ويشهد لهذا أنه لا يستعمل ما برح في الله تعالى لأنه لا يقال: لم يبرح الله قادراً فلو كان لم يبرح بمعنى لم يزل حتى لا فرق بينهما لما امتنع مما دخله، وإذا قد امتنع فلأنه لا يجيء إلا وأصله البراح من المكان دُكِرَ أو لم يُذكر وذلك لا يجوز على القديم تعالى.

واعلم أنَّ هذه الكلمة في اللغة مدارها الأكثر على التَّجَاوُز، من ذلك قال الأعشى: أبرحت رباً وأبرحت جاراً أي جاوزت ما عليه أمثالك في الخلال المرضية، والبارحة الأولى التي قبل البارحة، وجمع البارحة البوارح، ولم يتجاوزوا ذلك. وأمَّا الفائدة فما يستقبل بعد ليلتك التي أنت فيها وكأنها مأخوذة من الاستقبال ويقال: قَبِلْتُ الوادي أقبله إذا استقبلته ويقال: آتيك القابلة والمقبلة كما يقال: عام قابل ومقبل وأنشد:

أَقْبَلْتَهَا الْخَلَّ مِنْ حَوْرَانٍ مَجْتَهِدًا إِنِّي لِأَزْرِي عَلَيْهَا وَهِيَ تَنْطَلِقُ
ويقال فعلته ليلاً ونهاراً أي ضياءً وظلاماً، غير مخصوص بوقتٍ معلوم، وفعلته يوماً وليلةً يريد أنَّ من جملة الزَّمان ما تنحصر بهذا القدر وربما جعل بعض أجزاء الليلة ليلاً وجعل الليل لليلة واحدة قال:

وَوَدَّ اللَّيْلُ زَيْدًا إِلَيْهِ لَيْلٌ وَلَمْ يَخْلُقْ لَهُ أَبَدُ النَّهَارِ

ولم يرد الجنس لأنَّ الجنس يستوعب الأوقات، فلا يزداد للأمثلة وكذلك قوله: إني إذا ما اللَّيْلُ كان ليلتين، أراد كل واحد من الشَّاعرين ليلة واحدة وأنها في طولها كانت أوقاتها وساعاتها لتطاولها وامتدادها ومقاساة ما يعاني منها كليتين. وغرض الشاعر أن يصف طول ليلته أي كأنها في طولها مضاعفة متزايدة، وإذا جعل اللَّيْلُ جنساً فسد المعنى أيضاً؛ لأنَّ اللَّيْلُ المستوعب لأجزاء جنس اللَّيْلِ إذا قيل فيه كان ليلتين وحصر بما يقع فيه التَّنْبِيه من

أجزائه عاد نقصاناً لا تضعيفاً وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٢٦] المراد به أجزاء ليلة طويلة من الليل لأنه لو أريد الجنس لما صحَّ فيه ذكر الطول وللزم التسبيح ليلة طويلة دون ليلة قصيرة، وإذا أريد الجزء من الليل في كل ليلة فهو أمرٌ بالتسبيح جزءاً طويلاً وأجزاء طوالاً.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٥] أي بنعمه، والكوفيون رَوَوْا الليلَ ليلاً، واليوم يومك، ويراد به الوقت وقتك، ويقال: الليل ليلاً واليوم يومك، فيجعلون الأولى ظرفاً للثانية، وجعلوا الثاني جزءاً منه لأنَّ الظرف وعاء مستوعب، فيجب أن يكون أوسع من ذي الظرف ليوعبه ويشتمل عليه كما يحوي الوعاء ما ضمنه، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَسْرَ بَعَادِي لَيْلاً﴾ [سورة الدخان، الآية: ٢٣] وقد علمنا أن السرى لا يكون إلا ليلاً، فالمراد في جوف الليل، ولو قال: فأسر بعبادي، ولم يقل ليلاً لكان مطلقاً في أول الليل وآخره وما بينهما، ألا ترى أنك تقول: جاءني فلان البارحة بليل، فيكون المعنى في استحكام الليل، وقد يجيء ما لا يحتاج فيه إلى تأكيد، تقول: أدلجتُ فيكون المعنى سِرْتُ في أول الليل، ولو قال: أدلجتُ في أول الليل لساغ فيكون تأكيداً كتكرير الاسم أو الفعل قال زهير شعراً:

بَكَّرَ بَكُوراً وَاسْتَحَرَّ بِسُحْرَةٍ فَهَنَ لَوَادِي الرِّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

فقوله بسحرة بكور على وجهين: أحدهما أن يكون الإدلاج لآخر الليل وبكرن للسحر وغيره، فإذا قال بسحرة فقد بين أيَّ الوقت من آخر الليل، ويكون توكيداً محضاً قال تعالى: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [سورة هود، الآية: ٨١] على هذا والعرب يقول: أتيتك بقطعة من الليل، وبعْدَ وَهْنٍ مِنَ اللَّيْلِ إِذَا دَخَلْتَ فِي اسْتِحْكَامِهِ، فأما قول ضمرة شعراً:

بَكَّرْتَ تَلُومَكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدَى سَهْلٌ عَلَيْكَ مَلَامَتِي وَعِتَابِي

فقال: بكرت ثم قال بعد وَهْنٍ، والوهن لا يكون إلا ليلاً فالمعنى أول ذلك الوقت وقولهم: بكر عليه إذا لم يُسَمَّ الوقت فإنما يعني جاء في أوله ليلاً كان أو نهراً، وبها سميت الباكورة من الثمر وإن لم تذكر وقتاً، وقلت أتاناً بكرةً فإنما تأويل ذلك أول النَّهَارِ لا غير، هذا المستعمل بلا شرط، وما تقدم فإن تذكر ما يدل عليه وكذلك اليوم إذا كان مطلقاً إنما تعني به النَّهَارِ دون الليل والألف واللام يدل على يومك، إلا أن تصله بغيره فتقول: رأيتَه اليوم الذي مضى.

فصل آخر

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٢] يريد على ما

اعتادوا في الدُّنيا والبكرة ما اتصل بما قبله من الليل، والعشي ما يتصل به الليل ولا ليل في الجنة ولكن على ما ألقوا في الدنيا وتعودوه من الأوقات ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا حَبَّثَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٩٧] ولا خَبَوَ لنار المعاد ولكنْ عندما علم من خَبَوَ نار الدنيا وانقضاء نَصْرُهَا يجدد لأولئك العذاب، فأما قولهم المبكر فهو ما جاء في أول الوقت وليس هو من يكور الغداة. ومنه قوله عليه السلام: «بَكروا بصلوة المغرب» والتبكير أول أوقات الصلوة. ومنه قوله عليه السلام: «من بَكَّرَ وابتكر» فبكر يكون لأول ساعات النهار ويكون لأول وقت من الزوال وابتكر لا يكون لأول ساعات النهار.

قال أبو العباس ثعلب: يجوز في قوله: ابتكر أسرع إلى الخطبة حتى يكون أول دان وسامع، كما تقول ابتكرت الخطبة والقصيدة أي اقتضبتها وارتجلتها ابتداء لم أرد فيه وقول الفرزدق: إيكارُ كرم تقطفُ فالمراد حملت أول حملها وأنشدني شيخنا أبو علي، قال أنشدني أبو بكر السراج لعنترة العبسي:

إِنْ كُنْتُ أَزْمَعْتُ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا زُمْتُ جَمَالُكُمْ بَلِيلٍ مَظْلَمٍ

قال يقول: إِنَّكَ ابنة ملك فلا يرحل بك إِلَّا لِيلاً فَلِذَلِكَ خَفِيَ. قال: ويجوز أن يكون المعنى إن كنت أظهرت رحلتك الآن فإنما وقع العزم عليه ليلاً، كما قال الحارث بن جلة شعراً:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَضْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

كان المراد أمرهم في الارتحال دبر بليلٍ ولم يكن فلتة. وقول الشاعر عمرو ابن كلثوم شعراً:

وَأَيَّامَ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

أراد الأوقات لأنَّ معصيتهم للملك كانت في اللَّيْلِ والنَّهَارِ، فإن قلت: كيف تكون اللَّيَالِي غُرّاً إِلَّا ما يذكر من لَيَالِي الشَّهْرِ يقال ثلاث غُرر وذلك لبياضها بدوام القمر فيها؟ قيل: لم يرد بالغر بياض الوقت ووضوحه بضياء شمس أو قمر إنما أراد إسفاره وإشراقه واشتهاره في مواطن الشرف والمجد والسَّنا والافتخار، وحسن الآثار ولقاح الغرة وامتاع الجانب على من يأتيهم وكذلك قول القائل شعراً:

وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا لَهَا غُرٌّ مَعْلُومَةٌ وَحَجُولُ

ويجوز أن يريد في الأول بالغر أيضاً بياض المقادير كغرة الفرس، فأما قولهم: أَيَّامُنَا طَابَتْ بِلَدِ كَذَا والمراد لَيَالِيهَا، فهو من هذا ولذلك قيل: لو أن إنساناً قال: عبدي حُرٌّ لوجه الله يوم يقدم علينا فلان أنه يعتق وإن قدم ليلاً، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دينُكُمْ ﴿[سورة المائدة، الآية: ٣] قيل: أراد يوماً بعينه وقيل: أراد زمناً وقتاً قال الدَّريدي: والعرب تقول: كيف أصبحت من نصف الليل الآخر إلى نصف النهار؟ وكيف أمسيت من الزَّوال إلى نصف الليل؟ ويقولون: في يومك كان اللَّيلة كذا إلى الزَّوال، فإذا أزالَت الشمس قالوا كان البارحة. وحدث الجمحي قال: تقول العرب: صَبَحْتَ الأُنعمَةَ بطياتِ الأُطعمَةِ. وحدث أبو العباس المبرِّد قال: أنشدني المازني عن أبي زيد:

كيف أصبحت كيف أمسيت ممّا يُثبَّت الودَّ في ودِّ الكَرِيم
قال: المعنى وكيف أمسيت قال: ويقول العرب في مثله: ضربت زيدا عمراً لا يريدون بدل الغلط ولكن يريدون الواو. قال: ولو طال الكلام لكان أحسن مثل ضربت زيدا وأحسن في ذاك عمر، أو معنى البيت أن كلَّ واحدةٍ من هاتين اللفظتين والتَّحيتين تغرس الود للمحبيَّ بهما في قلب المحيِّ، ومما استعمل من هذا الباب ظرفاً ولم يستعمل اسماً قولهم: إنه لِيُسار عليه صباح مساءً معناه: صباحاً ومساءً وهذا عكس قولهم اللَّيل إذا أرادوا به ليل ليلة، لأنَّ اللَّيل أوقع فيه اسم الجنس على الواحد منه، وهذا أوقع فيه الواحد موقع الجنس والكثرة.

الباب الرابع

في ذكر ابتداء الزّمان وأقسامه والتّنبيه على مبادئ
السّنة في المذاهب كلّها وما يشاكل ذلك من تقسيمها
على البروج

يقال: إن الله تعالى خلق الخلق كلّهُ والشمس برأس الحمل والزّمان معتدل والليل والنّهار مستويان، فأوّل الأزمنة فصل الصيف، وهو الذي يدعوه النّاس الربيع ومنه ابتداء سنة الفرس فكلما حلّت الشمس برأس الحمل فقد مضت للعالم سنة عندهم، قال ابن قتيبة: ولذلك قال أبو نواس شعراً:

أما ترى الشمس حلّت الحملًا وقام وزن الزّمان فاعتدلا
وغنّت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كمّلا

لأن مراده استوفت الخمر حول الشمس كملاً فالهاء في قوله: حولها كناية عن الشمس قد مضى ذكرها، قال ثعلب: حولها تغلبها من حال إلى حال.

وقال المبرد: من ابتداء إبراق الكرم إلى استحكام العنب ستة أشهر، ومن استحكام العنب إلى استحكام الخمر ستة أشهر، وذلك عند حلول الشمس برأس الحمل فلذلك حول. وقال بعضهم: حول الخمر ستة أشهر والضّميم لها فهذا ما في هذا وقد قال أبو نواس في قصيدة أخرى أولها شعراً:

أعطتك ريحانها العفّار وحان من ليك السّفار
ثم قال:

تحيّرت والنجوم وقف لم يتمكّن لها المداير

وفي هذا البيت معنى لطيف مليح وذلك أن أصحاب النجوم والحساب يقولون: إنّ الله تعالى حين خلق النجوم وجعلها واقعة في برج، ثم سيرها من هناك، فيريد أنّ هذه الخمرة

تخيرت في وقت خلق الله تعالى الأفلاك، والروم تجعل ابتداء سنتها من الخريف، وهو زمان الاعتدال والاستواء أيضاً، فكلما حلت الشمس برأس الميزان فقد مضت سنة للعالم عندهم، والعرب تجعل السنة نصفين شتاءً وصيفاً وتبدأ بالشتاء فتقدمه على الصيف كأنها تعتمد على أن مبادئ الأقوات فيه وأوائل النماء في العالم منه، ثم أول الصيف داخل عليه واصل وما بعده مزلقٌ منه وفيه يستقبل الأمور ويفتح لأنواع الخلق التدبير ويزدوج الأسباب وتلقح السحاب ويحيي الأرض بعد موتها وينشر الثبات غب اندفانها وإلى هذا أشار أبو تمام في قوله:

لو لم تكن غرسُ الشتاء بكفِّهِ لاقى المصيفُ هشاماً لا تُثمرُ

ويشهد لذلك تقديم الله تعالى الشتاء على الصيف حين ذكر رحلتي قريش للتجارة وامتنَّ عليهم بما مكن لهم في النفوس من الإجلال والمهابة لكونهم قطان الحرم وأرباب الأشهر الحرم، حتى أمنوا الزمان، وكانت العرب من غلب سلب فقال: ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ إِلَّا فِهِمْ رِحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [سورة قريش، الآية: ١-٢].

فابتداء الشتاء وهو النصف الأول من السنة من حين ابتداء النهار في الزيادة، وذلك لحلول الشمس برأس الجدي وفي برجه إلى انتهائه في الطول وذلك لحلول الشمس في برج السرطان، وابتداء الصيف وهو النصف الثاني من السنة من حين ابتداء النهار في النقصان، وذلك لحلول الشمس في برج السرطان إلى حين انتهائه في القصر، وذلك لحلول الشمس في برج الجدي ويقسمون الشتاء نصفين.

والصيف أيضاً نصفين، ومتنصف كل واحد منهما استواء الليل والنهار والاستواء الذي يكون في نصف الشتاء يسمى الاستواء الربيعي وهو لحلول الشمس في برج الحمل، لأنَّ الشتاء كله ربيع عندهم من أجل الندى، ولذلك تسمية الربيعين الأول ربيع الماء والثاني ربيع الثبات، والاستواء الذي يكون في نصف الصيف يسمى الاستواء الخريفي، وذلك لحلول الشمس في الميزان فهذه أرباع السنة وفصولها الشتاء والربيع والصيف والخريف، ولكل فصل من فصول السنة ثلاثة أبراج من البروج الأثني عشر لأنها ثلاثة أشهر.

فبروج الشتاء الجدي والدلو والحوت، وبروج الربيع الحمل والثور والجوزاء، وبروج الصيف: السرطان والأسد والسنبلة. وبروج الخريف: الميزان، والعقرب والقوس. وأوائل بروج هذه الفصول تسمى منقلبة وهي الجدي والحمل والسرطان والميزان، لأنَّ في أوائل هذه الفصول يتقلب الزمان من طبيعة إلى طبيعة. وأواسطها وهي الدلو والثور - والأسد - والعقرب - تسمى ثابتة لأن في أوساط الفصول تثبت طبائع الزمان على حذها وأواخرها وهي

في ذكر ابتداء الزمان وأقسامه والتنبيه على مبادئ السنة في المذاهب كلها

الحوت - والجوزاء - والسنبلة - والقوس - تسمى ذوات جسدين لامتزاج طبيعة كل فصل بطبيعة الفصل الذي يليه. وذكر بعضهم أنَّ أهل الحجاز يجعل للسنة ستة فصول وسمياً شتاءً وربيعاً فهذه أزمته الشتاء وصيفاً وحميماً وخريفاً فهذه أزمته الصيف.

واعلم أنهم يبدئون من الأوقات بالليل كما يبدئون من الزمان بالشتاء ولذلك صار التاريخ به من دون النهار، وإتما كان عندهم كذلك لأن الظلمة الأول والضياء داخل فيه وكل معتبرهم بمسير القمر فمستهله جنح العشاء وطلوعه تحت البيات. فلولا أنَّ نوره ونور الشمس يجلوان الهواء لكان الظلام راكداً فهو أقدم ميلاداً وأسبق أواناً، ولذا استمتعاً، وأوثر مهاداً وأغزر مطراً، وأروى سحاباً، وأندى ظلاً، وأهول جناناً، وأطيب نسيماً، وأفضل أعمالاً. ولذلك قدمه الله تعالى في رتبة الذكر ورتبة الوصف فقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً﴾ [سورة النبأ، الآية: ١٠ - ١١] فرتبة الذكر ظاهرة من التلاوة كما ترى، ورتبة الوصف أن السكن واللباس مقدمان على السبح والمعاش في متصرفات الأنام.

ثم بعد ذلك هما أخو الهدو والقرار اللذين منهما يتبدى الشتاء والنماء. وقال تعالى عند الأقسام بالزمان: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلَّى﴾ [سورة الليل، الآيتان: ١ - ٢] ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] فلا موضع أجرى ذكرهما إلا والليل مقدّم، ثم فضل تبثيل المجتهد وترتيل القارئ، وابتهاج المستغفر فيه على ما يكون منها في غيره فقال تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٧] وفي موضع آخر: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [سورة الذاريات، الآية: ١٨] ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية: ٦] كل ذلك لأنه الأول المُقدم، والأصل الموصل، والأوان الممهّد للراحة والوقت الموجه للرفاهية، وكذلك قالوا عند المدح: ما أمرُهُ عليه بَعْمَةٌ ولا ليلُهُ عليه بسرمد. وقال النابغة:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وإنَّ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

فقال: كالليل ولم يقل كالصبح وانكان المغرب من كل لا يطاق وقال بعضهم: إنما قال كالليل لأنه كان عليه غضبان. وقد قيل الليل أخفى للويل وأخذ الفرزدق قول النابغة هذا شعراً:

ولو حَمَلْتَنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَشْيءٍ أَدْرَكْتُهُ مَقَادِرُهُ

جعل الرِّيح يَازاء اللَّيْلِ واللَّيْل أعم، والمُستحسن قول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمَحِي، وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل» يعني الإسلام،

وكما ندب المتعبد إلى التقرب فيه إليه . وقال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٩] أنبأ عن نفسه تعالى بمثله فيما يبرمه، ويقضيه، فقال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان، الآية: ٤٤] يعني في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ثم قال الناس: هذا أمر دُبِّرَ لبليلى، وثبت الرأي، وهذا رأي مبيت وليس القصد تفضيل الليل على النهار، وإنما المراد التنبيه على سبقه وعلى إصابة العرب في تقديمه، وقد تكلمنا في تصحيح طريقة العرب فيما قدّمناه من الآي التي شرحناها عند قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُمْ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٧] وما يقتضيه لفظة النسخ بكلام بين، وذكر أبو حنيفة الدينوري عن غير واحد من علماء الرواية أن العرب تبدأ تقسم السنة نصفين شتاءً وصيفاً، وتقدم الشتاء على الصيف وتجعله أول القسمين وهذا ضد صنيع الجمهور من أهل القرار وعلماء الحساب، لأنهم يقدمون الصيف على الشتاء.

وقد كان بين أهل العلم اختلاف قديماً في أنه أي أرباع السنة أولى بالتقديم حتى رأوا أنّ ربيع الربيع الذي أوله حلول الشمس برأس برج الحمل أولى بالتقديم فاطبقوا على تقديمه باتفاق، ولذلك أجمعوا في عد البروج على الابتداء ببرج الحمل. وفي عد المنازل على الابتداء بالشرطين، حتى لا تجد في ذلك مخالفاً. هذا صنيعهم في الأزمنة، فأما إذا صرت إلى سني الأمم وجدتهم فيها مختلفين. فمنهم من يفتح السنة في ربيع الشتاء، ومنهم من يفتحها في ربيع الخريف، ومنهم من يفتحها في ربيع الربيع كلّ ذلك قد فعلوا.

وممن افتتحها في الخريف أهل الشام من السريانيين، ألا ترى أول مستهم تشرين الأول وأنه صدر الخريف وابتداء الوسمي، ولعل العرب أيضاً كانت قد ابتدأت السنة في بدء الأمر على مثل ذلك، فجعلوا مفتتحها في أول الوسمي كما أنه يقدمه في قسمة الأزمان والأنواء. فثبتوا على أمرهم الأول في تقديم الوسمي، وانتقل مدخل السنة عن موضعه الأول ثمانين عدد أيام سنة القمر وسنة الشمس من التفاوت والفصول إنما تفضل بمسير الشمس لا بمسير القمر.

وإنما توهمت هذا من صنيع العرب من أجل أنّ كثيراً من علماء الرواة يزعمون أنّ شهري ربيع إنما سميا للربيع، وأن جماديين إنما سميتا للشتاء ووجود الماء. وأن شعبان إنما سمي شعبان لاشتعباب الظعن إياهم عن المرباع للمحاضر وأنّ شهر رمضان إنما سمي رمضان لشدة الحر والرمض وأنّ صفر أنسب إلى الزمان الذي يسمى الصفري، وهذا الذي ذكروا أمر قريب لا يبعد في الوهم، لأنّا على هذا الترتيب نجد أزمان السنة عندهم، ومما يقوي هذا القول ما حكى عن الغنوي الأعرابي وعن غيره فإنه قال: جمادى عند العرب

الشتاء كله قال: ويقال للحر كله شهر ناجر، كما يقال للشتاء كله جمادى، وكان ينشد بيت لبيد في الجزء شعراً:

حتى إذا سلخا جمادى ستة جزءاً فطال صيأه وصيأها

بخفض ستة على إضافة جمادى إليها وقال أراد ستة أشهر الشتاء، وهي أشهر الندى والجزء، وكذلك كان ينشده أبو عمر والسياني خفضاً ويقول: أراد جمادى ستة أشهر فعرف بجمادى. قال أبو حنيفة، ويشهد للغنوي كثرة ذكر العرب جمادى إما ببرد الزمان وإما بكثرة الأنداء والأمطار، وهذا كله من أوصاف الشتاء ولو كان قصدهم إلى ذكر الشهر لما تطاول لسرعة انتقال الشهر.

ألا ترى أنه يكون مرة في صبارة الشتاء ومرة في حمارة القيظ وإنما حاله في ذلك كحال سائر الشهور، وأنت لا تجد جمادى موصوفة بالحر كما تجدها موصوفة بالبرد. قال الشاعر شعراً:

في ليلة من جمادى ذات أنديّة لا يُبصرُ الكلبُ من ظلماتها الطُّنبا

قال أبو حنيفة: وزعم بعضهم أنهم إنما قدموا الشتاء على الصيف لأنه ذُكر. وأنَّ الصيف أنثى، ولم يذكروا علّة تذكير الشتاء، وتأنث الصيف، ولا أظنه إلا لقسوة الشتاء وشدته ولين الصيف وهونه، ألا ترى أنَّ من عادتهم أن يذكروا كلَّ صعبٍ من الأمور قاسٍ شديدٍ، حتى قالوا: داهية مذكّار، وإنَّ كانت أنثى فصعبوها بأن تكون تنتج ذكوراً وحتى قالوا أرض مذكّار إذا كانت ذات مخاوف وأفزاع، وقالوا: يوم باسل ذكر في شره وشدته حتى قال الشاعر شعراً:

فإنّك قد بعثت عليك نحساً شقيت به كواكبُه ذكوراً

فجعلها مع نحوستها ذكوراً ليكون شرّها أفظع وأصعب و (الصيف) وإن تلظى قيظه وحمى صلاه فهو هيّن عندهم إلى جنب الشتاء، والشتاء يبرح بالقوم ولذلك قالت بنت الحسن وقد سئلت عنهما: أيهما أشدّ فقالت: وما جعل البئس من الأديّة تقول من يقيس البؤس والضر إلى أذى فقط أي الشتاء أشد: (والبئس والبؤس) واحد قال الفرزدق في نعت امرأة بيضاء من أهل المدينة (لم تذق بئساً ولم تتبع حمولة مجحد) ولذلك لا تجدهم يشكون الضرّ وسوء الحال والهزال في الصيف ولا يعدون أن يصفوا أواره وصخده وعطشه وإذا صاروا إلى الشتاء عجزوا من وطئه ونوّها باسم من آسى فيه، واحتمل الكلّ وأطعم المصرور.

قال الشيخ الذي قاله أبو حنيفة في تعليل تذكير الشتاء حسن وأقرب منه أن يقال لما

كان إدراك الثمار في الربيعين ووضع الأحمال من الملاقيح ونتائج الخير في أصناف المعاش من الزرع والضرع في الصيف، وإن كانت مبادئها في أوائل الشتاء ثم تمت حالاً بعد حال فكانت تنتظر في آجالها وقتاً بعد وقتٍ انتظار ما في بطون الحملات، فجعلوا الشتاء ذكراً والصيف أنثى. وهذا شرح ما رماه الشاعر في قوله:

لولا الذي غرس الشتاء بكفه لاقى المصيفُ هشاً يماً لا تُثمرُ
وذكر أنَّ منهم من يجعل الشتاء نصفين الشتاء أوله والربيع آخره، وكذلك يجعل الصيف نصفين الصيف أوله والقيظ آخره.

وذكر ابن كناسة أبو يحيى أن العرب تسمي الشتاء الربيع الأول والصيف الربيع الآخر وأن أحداً منهم لم يذكر الخريف في الأزمنة لأنَّ الخريف عند العرب اسم لأمطار آخر القيظ، وهذا إذا توَمل أسفَرَ عن أنهم يجعلون الربيع اسماً للندى والجزء، لكنهم فصلوه بالشتاء لشدة برده ثم اشتهر الربيع اسماً لما لأن من طرفي الوقت.

حكى ابن الأعرابي عن الغنوي أنه قال: يلقي الرّاعي صاحبه فيقول: أين تريعت العام إذا سقطت الصرفة^(١)؟ وسقوطه عند انصرام نصف السنة الشتوية. وقال الفراء ربعية القوم ميرتهم في أول الشتاء، وأبين من جميع ما ذكرنا أنهم يسمّون الفرع المؤخر فرع الربيع وهو من الشتاء. وقال التّابغة وقد جعل الحرب كالميرة:

وكانتْ لهم ربعية يحذرونها إذا خَضَخَضَتْ ماء السّماء القنائلُ

(١) الصرفة في القاموس منزلة للقمر نجم واحد نير يتلو الدبرة سمي لانصراف البرد وبطلوعها، محمد شريف الدين عفا عنه.

الباب الخامس

في قسمة الأزمنة ودورانها واختلاف الأمم فيها

اعلم أنَّ الشَّمْسَ تدورُ في الفلكِ دوراً طبيعياً، وهي لازمة له وعليها طريقها والقمر - والكواكب الخمسة، وهي: عطارد - والزَّهرة، والمريخ، والمُشتري، وزُحل. ربما كانت على هذا الفلك، وربما مالت إلى الشَّمال، والجنوب، ويسمَّى هذا الميل عرض الكواكب، ويُسمَّى هذا الفلك فلك البروج، وهي اثنا عشر: (الحَمَل)، و (الثور)، و (الجوزاء)، و (السَّرطان) و (الأسد)، و (السُّنبلة)، و (الميزان)، و (العقرب)، و (القوس)، و (الجدي)، و (الدلو)، و (الحوت)، وإنما انقسمَ هذا الانقسام لأنَّ الشَّمْسَ متى انتقلت في دورانها من نقطة بعينها عادت إلى تلك النِّقطة بعد ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم. وفي دورها تستوفي فصول السَّنة التي هي الرَّبيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ولهذه العلة سُمِّيت هذه الأيام سنة الشَّمْس، والقمر يجتمع مع الشَّمْس في مدة هذه الأيام اثنتي عشرة مرةً فجعلت الشَّمْس اثنتي عشر شهراً وسُمِّيت الشُّهور القمرية، كما جعل الفلك اثني عشر برجاً ليكون لكل شهر برج.

وأسماء شهور العرب: المُحرم، وصَفَر، والرَّبيع الأول، والرَّبيع الآخر، وجُمادى الأولى، وجُمادى الأخرى، ورَجَب، وشعبان، ورَمَضان، وشَوَّال، وذو القعدة، وذو الحِجَّة.

قال الشَّيخ: اختلفَ الناس في أعداد أيام سنينهم، وهم متفقون في عدَّة الشُّهور واعتماد العرب فيها خاصة على الأهلَّة، فكل اثني عشر هِلالاً عندهم سنة، فتكون عدد أيامها ثلاث مائة وأربعة وخمسين يوماً.

قال أبو الحسن المعروف بالصَّوفي: بين أصحاب الحساب من الرُّوم، والهند خلاف يسير في مقدار هذا الكسر، فكان الأوائل من أهل الروم متفقين في القديم على ربع يوم فقط، ثم استدركوا فيه شيئاً حقيراً.

وقال أبو حنيفة: ليس في الأمم أحفظ للفصول، وأوقات الأنواء والطلوع من الروم، ولذلك من حلّ من العرب في شق الشّام أعلم بهذا من غيرهم، ثم أنشد لعدي بن الرقاع:

فَلَا هُنَّ بِالْبُهِمَى وَإِيَّاهُ مَذْ نَشَا جَنُوبٌ لِرَاشِرٍ فَاللَّهَآ لَهْ، فَالْعُجْبُ
شَبَاطاً وَكَانُونِينَ حَتَّى تَعْدَّرَتْ عَلَيْهِنَ فِي نَيْسَانَ بَاقِيَةُ الشَّرْبِ
وَإِنَّمَا نَصَفُ عَيْراً وَأَتْنَأ رَعَيْنَ الْبَقْلَ فِي إِبَانِهِ

وإنما نصف عيراً وأتنا رعينَ البقل في إبانه إلى أن هاج، ونضبت المياه. وهم يدؤون فيجعلون أوّل السّنة تشرين الأول، ويجعلونه أحداً وثلاثين يوماً. ثم تشرين الثاني ثلاثين يوماً، ثم كانون الأول واحداً وثلاثين يوماً، ثم كانون الثاني واحداً وثلاثين يوماً وربيع، ثم شباطاً ثمانية وعشرين يوماً، غير أنهم يجعلونه ثلاث سنين كلّ سنة منها ثمانية وعشرين يوماً وفي السنة الرابعة تسعة وعشرين يوماً، وتلك السّنة تكون في عددهم ثلاث مائة وستة وستين يوماً، ويسمونّها الكبيسة.

وقال الخليل: يكون في شباط فيما تزعمه الرّوم تمام اليوم الذي كسوره في السّنين، فإذا تمّ ذلك اليوم في ذلك الشهر، سمّى أهل الشّام تلك السنة عام الكبيس، قال: وهو يَكْتُمُنْ به إذا وُلِدَ في تلك السنة، أو قدم فيه إنسان. ثم آذار واحداً وثلاثين يوماً، ثم نيسان ثلاثين يوماً، ثم أيار واحداً وثلاثين يوماً، ثم حزيران ثلاثين يوماً، ثم تموز واحداً وثلاثين يوماً، ثم آب واحداً وثلاثين يوماً، ثم أيلول ثلاثين يوماً، فتكون الزّيادات من الأيام خمسة أيام على ثلاث مائة وستين يوماً.

ثم أحبّوا أن لا تغير أحوال فصول سنتهم على السّنين الكثيرة والدّهور المتابعة، فزادوا في آخر شباط ربع يوم لتصير أيام سنتهم موافقة لأيام سنة الشّمس، وهي ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، ويكون ثلاث سنين متوالية كذلك فإذا تمّت الأربع في أربع سنين تصير سنتهم في السنة الرابعة التي تليه ثلاث مائة وستة وستين يوماً، ويصير شباط في تلك السّنة تسعة وعشرين يوماً، وتسمى تلك السّنة الزّابعة سنة الكبيسة، فكرهت الفرس أن يزيد في سنتهم ربع اليوم لأنهم لو فعلوا ذلك لاضطروا إلى الكبيسة في كل أربع سنين ولم يمكنهم ذلك لأنهم سمّوا أيام الشّهر بأسام.

زعموا أنها أسامي الملائكة الذين يديرون أيام الشّهر وأسامي الأيام، هرمز، بهمن، اردی بهشت، شهرير، اسفندار، مذخر داد، مرداد، يبا، ذر، آذر، أبان، حوزماه، تير، جوش، ديمهر، مهر، سروش، رشن، فروردين، لوهرام، رام باذ، دنيدين، دين ارد، اشتاذ، اسمان، زامياذ، ماراسفند، انيران.

وأسماء الشهور اعتقدوا فيها مثل ذلك وهي: فروردين ماه، ارد بهشت ماه^(١)، خردادماه، تيرماه، مردادماه، شهريرماه، مهرماه، ابان ماه، آذرماه، دي ماه، بهمن ماه، اسفنديار مذماه.

وزعموا أنّ هرمز هو اسم الملك الذي يدبر أول يوم من الشهر، وبهمن اسم الملك الذي يدبر اليوم الثاني.

وكذلك الأسامي كلّها وسمّوا أيضاً الأيام اللّواحق بأسماء الملائكة الذين زعموا أنهم يدبرونها وهي: خونو ذكاه، واستوذ كاه، واسفيد كاه، ومشتحز كاه، وشتكاه. وقالوا إنّ كبسنا في كلّ أربع سنين يوماً فجعلنا اللّواحق ستة أيام في هذا اليوم بلا مدبر، وسقط أول يوم من آذرماه واستوحش هرمزد وقدر أنهم يقصدونه ثم كانوا يكبسون في كلّ مائة وعشرين سنة شهراً واحداً ليسوّوا بين الملائكة، ولا يستوحش أحد منهم وتصير سنتهم في تلك السنة ثلاث مائة وخمسة وتسعين يوماً وكانوا على ذلك إلى أن انقضت دولة الفرس ولم يكن فيهم من يمكنه فعل ذلك إلى أن كبس المعتضد مقدار ما كان قد مضى من سنة الكبيسة لكل أربع سنين يوماً واحداً وجعل النيروز اليوم الحادي عشر من حزيران وفيه يقول الشاعر مادحاً له شعراً:

يَوْمُ نِيروزكَ يَوْم واحد لا يتأخّر
مِنْ حُزيران يُوافي أبداً في أحد عشر

ووضع الكبيسة على رسم الزّوم ولا يعمل ذلك إلا ببغداد، فإنّهم يجعلون أول سنتهم في التقويم يوم النيروز المعتضدي، ويستعمل في سائر البلدان النيروز القديم.

وذكر هذا الإنسان وهو أبو الحسين الصّوفي أنّ العرب كانت تكبس أيضاً. ثم ذكر النسيء من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٧] وقد تقدّم القول على ما قاله فيما مضى وبينّا من تفسير الآية والأخبار المروية ما أغنى.

واعلم أنّ العرب لا تذهب في تحديد أوقات الأزمنة إلى ما يذهب إليه سائر الأمم، وتجعل أول عدد الأزمنة في تحديد أوقاتها، إلى ما يعرف في أوطانها من إقبال الحرّ والبرد، وإدبارهما، وطلوع الثّبات واكماله وهيج الكلاء وبيسه، ويذهب في عدد الأزمنة إلى الابتداء بفصل الخريف وتسميّة الربيع لأنّ أول الربيع وهو المطر يكون فيه - ثم يكون بعده فصل الشّتاء - ثم يكون بعده فصل الصّيف - وهو الذي يسميه الناس الربيع ويأتي فيه الأنوار. وإنّما

(١) في صبح الأعشى: أردبهشتماه.

سمّوه صيفاً لأنّ المياه عندهم تغل فيه والكلاً يهيج، وقد يسمّيه بعضهم الربيع الثاني، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ، وهو الذي يسمّيه الناس الصيف فأول وقت الربيع الأول عندهم وهو الخريف ثلاثة أيام تخلو من أيلول. وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأوّل، وأول الصيف عندهم وهو الربيع الثاني خمسة أيام من آذار، وأول القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران. والخريف المطر الذي يأتي في آخر القيظ ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان.

وقال عدي بن زيد فجعله اسماً للزمان في خريف:

سقاء نوءٍ من الدلو تدلّى ولم يولّني العراقي

وسماه خريقاً، لاختلاف الثمار فيه والحطيئة ممن يجعله المطر وذكر امرأة فقال: وتبدو مصاب الخريف الجيالا. يريد أنّها تنقل إلى البدو لمُصاب هذه المطرة، فهذه حدود الأزمنة عندهم، ثم يجعلون لكل زمان صميماً يخلص فيه طبعه فيذكرون منه شهرين ويدعون شهراً لأنّ نصف شهر من أوله مقارب لطبع الزمان الذي قبله، ونصف شهر من آخره مقارب لطبع الزمان الذي بعده، فالخالص منه شهران فيسمّون شهريّ الشتاء بالخالص شهري قماح قال الهذلي:

فتى ما ابن الأغر إذا شتونا وحب الزاد في شهري قماح

وسميا بذلك لأن الإبل فيهما ترفع رؤوسها عن الماء لشدة برده والإبل القماح هي التي ترفع رؤوسها. وقال بشر يصف سفينة:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

والإبل إذا رفعت رؤوسها عن الماء غضت أبصارها، ويدعون هذين الشهرين ملحان وشيان لبياض الأرض بالصقيع والجليد. وقال الكمي:

إذا أمست الآفاق حمراً جلودها لملحان أو شيان واليوم أشهب

فهذان شهر الشتاء فشيان من الشيب وملحان من الملح وهي البياض وقيل كبش أملح منه.

وقال قطرب: يقال لجُمادى الأولى والآخرة شيان وملحان من أجل بياض الثلج، قال: وقولهم مات الجندب وقرب الأشيب أي الثلج، ويسمّون شهري القيظ اللذين يخلص فيهما حره شهري ناجر وسمّيا بذلك لأنّ الإبل تشرب فلا تكاد تروى لشدة الحر، والنجر والبغر متقاربان وهو أن يشرب فلا يروى من الماء يقال نجر من الماء إذا امتلأ منه فكظمه، الأزمنة والأمكنة / ٩٣

وهو على ذلك يشتهيه قال ذو الرمة يصف ماء شعراً:

صَرَى أَجَنَ يَروِي لَهُ المَرَّ وَجْهَهُ وَلَوْ ذَاقَهُ ظَمآنٌ فِي شَهْرِ نَاجِرِ
وَقَالَ الشَّمَاخُ شِعْراً:

طَوَى ظَمَاهَا فِي بِيضَةِ القَيْظِ بَعْدَمَا جَرَتْ فِي عَنَانِ الشَّعْرِ بَيْنَ الْأَمَاغِرِ
فَهَذَانِ شَهْرَا القَيْظِ وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَمَوْا شَهْرِي ربيعِ الثَّانِي بِاسْمٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ:
حَلَلْنَا بِلَدٍ كَذَا فِي حَدِّ الرِّبْعِ يَرِيدُونَ شَهْرِيهِ وَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ شِعْراً:

بِهَا أَبْلَتِ شَهْرِي ربيعِ كِلَيْهِمَا فَقَدْ مَارَ فِيهَا نَسْؤُهَا وَافْتِرَاؤُهَا
النَّسْوُ بَدُو السَّمَنِ وَالْاِقْتِرَارُ أَنْ تَحْتَرَّ بَوْلُهَا وَهُوَ مِنْ عِلَامَاتِ السَّمَنِ، قَالَ رُؤْبَةُ:

شَهْرَانِ مَرَعَاهَا بِقِيَعَانِ الصَّلَاقِ مَرَعَى أُنِيقَ النَّبْتِ مَجَاجَ الغَدَقِ
وَقَالَ ابْنُ مَقْبَلٍ شِعْراً:

أَقَامَتْ بِهِ حَدَّ الرِّبْعِ وَحَازَهَا أَخُو سَلْوَةٍ مَسَى بِهِ اللَّيْلُ أَمْلَحُ

يُرِيدُ بِأَخِي السَّلْوَةِ النَّدَى لِأَنَّهُمْ فِي رِخَاءٍ وَسُكُونٍ مَا دَامَ النَّدَى عِنْدَهُمْ وَقَوْلُهُمْ: مَسَى
بِهِ اللَّيْلُ: أَيُّ جَاءَ عِنْدَ مَجِيئِ اللَّيْلِ، وَالْأَمْلَحُ الْأَبْيَضُ، رُبَّمَا ذَكَرُوا اسْتِيفَاءَهَا شُهُورَ الرِّبْعِ
الثَّانِي كُلَّهَا. قَالَ حَمِيدٌ شِعْراً:

رَعَيْنَ المَرَارَ الجَوْنَ مِنْ كُلِّ مَذْنَبٍ شُهُورَا جَمَادَى كُلَّهَا وَالمَحْرَمَا

قَالَ: شُهُورَا جَمَادَى كُلَّهَا وَهُمَا شَهْرَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأُمُّهُ
السُّدُسُ﴾ [سورة النساء، الآية: ١١] يُرِيدُ أَخَوَيْنِ فِصَاعِدًا وَلَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْخَرِيفِ
فِيذَكُرُوا مِنْهُ شَهْرَيْنِ فِيمَا عَلِمْتَ. وَلَا أَحْسَبُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إِلَى ذِكْرِهِ شَيْءٌ كَمَا دَعَا
إِلَيْهِ شِدَّةُ البَرْدِ فِي الشِّتَاءِ، وَشِدَّةُ الحَرِّ فِي الصَّيْفِ وَالْقَيْظِ، وَوَقْتُ الْجَزْءِ فِي الرِّبْعِ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: النَّاسُ مَجْمَعُونَ مِنْ تَقْدِيمِ البُرُوجِ عَلَى بَرَجِ الحَمَلِ. وَمِنْ تَقْدِيمِ
الْمَنَازِلِ عَلَى الشَّرْطَيْنِ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى تَقْدِيمِ فَصْلِ الرِّبْعِ، وَذَكَرَهُ قَبْلَ سَائِرِ الْفُصُولِ
وَهُوَ لِحُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الحَمَلِ، قَالَ: وَالْفَصْلُ اسْمُ جَرَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَجَاءَتْ بِهِ
أَشْعَارُهُمْ، قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ حَمِيرَ وَحْشٍ شِعْراً:

نَظَائِرُ جَوْنَ يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضَةٍ لِفَصْلِ الرِّبْعِ إِذْ تَوَلَّكَ صَبَائِنُهُ

وَسُمِّيَ فَصلاً لِانْفِصَالِ الحَرِّ مِنَ البَرْدِ، وَانْقِلَابِ الزَّمَنِ الَّذِي قَبْلَهُ، وَيُقَالُ لِلْفُصُولِ

أيضاً: الفصيان والواحدة فصية، وهي الخروج من حر إلى برد، ومن برد إلى حر. والفصية تصلح في كل أوقات السنة متى خرجت من أذى إلى رخاء فتلك فصية، ولا يستعمل الفصل إلا في حينه، فأما الأصمعي فإنه قال: الفصية: أن يخرج من برد إلى حر، ويقال: أفضى القوم وهم مفصون، ويقال: لو أفضيتنا لخرجت معك. والشمس تحل برأس الحمل لعشرين ليلة تخلو من آذار وعند ذلك يعتدل الليل والنهار، ويسمى الاستواء الربيعي.

ثم لا يزال النهار زائداً، والليل ناقصاً إلى أن يمضي من حزيران اثنتان وعشرون ليلةً، وذلك أربع وتسعون ليلةً، فعند ذلك ينتهي طول النهار وقصر الليل، وينصرم ربيع الربيع، ويدخل الربيع الذي يليه، وهو الصيف، وذلك لحلول الشمس برأس السرطان، ويبتدىء الليل بالزيادة، والنهار بالنقصان، إلى ثلاث وعشرين ليلةً تخلو من أيلول، وذلك ثلاث وتسعون ليلةً، وعند ذلك يعتدل الليل والنهار ثانيةً، ويسمى الاستواء الخريفي، وينصرم ربيع الصيف ويدخل ربيع الخريف، وذلك لحلول الشمس برأس الميزان، ويأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، إلى أن يمضي من كانون الأول إحدى وعشرون ليلةً، وذلك تسع وثمانون ليلةً، وعند ذلك ينتهي طول الليل وقصر النهار، وينصرم فصل الخريف، ويدخل فصل الشتاء، ويبتدىء النهار في الزيادة، وذلك لحلول الشمس برأس الجدي إلى مصيرها إلى رأس الحمل، وذلك تسع وثمانون ليلةً وربيع فعندها ينصرم ربيع الشتاء، ويدخل فصل الربيع، فعلى هذا دور الزمان فاعلمه.

الباب السادس

في ذكر الأنواء، واختلاف العرب فيها، ومنازل القمر، مقسمة الفصول على السنة،

وأعداد كواكبها وتصوير مأخذها ضارةً ونافعةً

اعلم أنا نذكر من أمر الأنواء ومذهب جهال العرب فيها، ومن صفة المنازل والبروج ما يحتاج إليه هذا الكتاب، والداعي إليه أنهم كانوا ينسبون الأوقات إليها كثيراً، وكذلك ما نذكره من أحوال الشمس والقمر، وكان في العرب من يسرف في الإيمان بها ونسبة الحوادث إليها، حتى أوهم كلامهم وإفراطهم أن السقيا وجميع ما يُحمد منها، أو يُذم إلى جميع ما ينقل فيه الأيام من خيرٍ وشرٍ، ونفعٍ وضِرٍّ، وكلّ ذلك من الأنواء وبها. وهذا كإضافتهم إلى الكواكب أفعال صانعها، وتطابقهم في التَّيَمُّن والتشاؤم بها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «من آمَنَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيَّ».

وقد مرَّ فيما تقدَّم من الكتاب فصل كثير بيِّن فيه فسادَ طريقتهم، وأنَّ مَنْ عدل عنها وجعلها آياتٍ يُقيمها الله تعالى، تنبيهاً على حكمته فيها، ليعتبر المعترفون بها ويشكروا نِعْمَهُ فيها، فقد برئت من الذمِّ ساحته، وتباعدَ عن الإثم منهجَه، على مثل ذلك يحمد قول عمر بن الخطاب حين خرج إلى الاستسقاء، فصعد المنبر ولم يزد على الاستغفار، ثم نزل فقل: إِنَّكَ لَمْ تَسْتَسْقِ، فقال: لقد استسقيت بمجاديع السَّماء. قال أبو عمر والمجاديع واحداً مجدح، وهو نجم من النجوم كانت العرب تقول: إِنَّهُ يَمُطِرُ بِهِ لِقَوْلِهِمْ فِي الْأَنْوَاءِ. قال أبو عبيد فسألت عنه الأصمعي، فلم يقل فيه شيئاً وكره أن يتأوَّل على عمر مذهب الأنواء، وقال الأموي: يقال فيه أيضاً: المُجْدَح بِالضَّمِّ وأنشد فيه قوله شعراً:

وَاطْعُنْ بِالْقَوْمِ شَطْرَ الْمَلُو كِ حَتَّى إِذَا خَفَقَ الْمِجْدَحُ

قال أبو عبيد: والذي يُراد من هذا الحديث أنه جعل الاستغفار استسقاءً يتأوَّل قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ [سورة نوح، الآية

١٠- ١١] وإنما نرى أنّ عمر تكلم بهذا على أنها كلمة جارية على السنة العرب ليس على تحقيق الأنواء، ولا الصديق بها، وهذا شبيه بقول ابن عباس في رجل جعل أمر امرأته بيدها، فطلّقتُه ثلاثاً، فقال خطأ الله نوءها ألا طلّقت نفسها ثلاثاً. ليس هذا منه دعاء عليها أن لا تمطر، إنّما هو على الكلام المنقول. ومما بين لك أنّ عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بها بقوله: لقد استسقيت بمجاديع السماء التي يستنزل بها الغيث. فجعل الاستغفار هو المجاديع لا الأنواء، وهذا القدر إذا ضمّ إليه ما تقدم في فصل يشتمل على تأويل الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ وبيان معتقدات العرب في الأنواء والبوارح، أغنى وكفى في عذر من يعذر، وذمّ من يذم منهم والسلام.

قال أبو حنيفة يقال: ناء الكوكب ينوء نوا ونوء، أول سقوط يدركه في الأفق بالغداة قبل انمحاق الكواكب بضوء الصبح.

والكوكب إذا وافاه الصبح وهو مرتفع عن أفق المغرب لا يزال الصبح يوافيه كلّ غداة، وهو إلى الأفق أقرب، حتى يوافق موافاته الأفق انمحاق الكوكب لضوء الصبح، ثم يكون سقوطه بعد ذلك، والكواكب ظاهرة فلا يزال سقوطه يتأخر كلّ ليلة إلى أن يكون في أول الليل، فتراه على الأفق غارباً مع ظهوره للأبصار، ثم يستمر فلا يرى مقداراً من الليالي ثم يكون أول رؤيته غامضاً في ضياء الصبح حين يبدو للأبصار. فالواجب أن يغرق ما بين الغروب الذي هو أول وبين الغروب الذي له النوء لأنّ الذي له النوء سقوط النجم بالغداة في المغرب بعد الفجر وقبل طلوع الشمس وطلوع رقيقه في المشرق في ذلك الوقت، ولا يكون هذا إلا في غداة واحدة من السنة للكوكب الواحد.

وأما السقوط الذي هو أقول واستسرار، فإنّه يكون من أول الليل وذلك أنّ هذا النجم الساقط بالغداة في أفق السماء يرى بعد اليوم الذي يسقط فيه متأخر السقوط عن ذلك الوقت، فيسقط قبله ولا يزال يتأخر في كل يوم حتى يكون سقوطه في الليل، ثم يتأخر في الليل إلى أن يسقط في أول الليل في المغرب، ثم يستمر بعد ذلك فلا يرى ليالي كثيرة ثم يرى بالغداة طالعاً في المشرق خفياً، فهذا سقوط الأقول، وقد أحسن الشاعر في تحديد ذلك حين قال شعراً:

وَأَبْصَرَ النَّازِرُ الشَّعْرَى مَبِينَةً لَمَّا دَنَا مِنْ صَلَوةِ الصَّبْحِ يَنْصَرِفُ
فِي حَمْرَةٍ لَا بَيَاضَ الصَّبْحِ أَغْرَقَهَا وَقَدْ عَلَا اللَّيْلُ عَنْهَا فَهُوَ مَنْكَشِفُ
تَهْلَهْلَ اللَّيْلُ لَمْ يَلْحَقْ بِظِلْمَتِهِ فَسَوَتْ النَّهَارَ قَلِيلاً فَهِيَ تَزْدَلِفُ
لَا يَبَاسُ اللَّيْلُ مِنْهَا حِينَ تَبْعُهُ وَلَا التَّهَارُ بِهَا لِلَّيْلِ يَعْتَرِفُ

فهذا وقت الطلوع والسقوط ومعنى قوله: تَهْلَهَلَ اللَّيْلُ أي تصيرُ في مشرقه حيث امتزج سوادهُ بياضِ الصُّبْحِ فهي فَوْثُ النَّهَارِ، لأنَّه لم يطمسها بضوئه، وأمَّ يلحقُ بظلمة اللَّيْلِ الخالصة، فهي بينهما، واللَّيْلُ لا يَبَاسُ منها، لأنَّها في بقية منه، ولا النَّهَارُ يسلمها لِلَّيْلِ لأنَّها في ابتداء منه، ومراد الشاعر بهذا الوصف أنَّ الأمر الذي وقته كان في حِمَاةِ القَيْطِ، لأنَّ الشَّعْرَى تطلع بالغداة في معمعان الحر.

قال الشيخ: أَظُنُّ هذا الشاعر سلك في تحديده للاستسرار طريقة زُهَيْرٍ حين قال يَصِفُ شاهيناً وحمامةً شعراً:

دُونَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ الْأَرْضِ قَدَرُهُمَا فِيمَا تَرَاهُ فَلَا فَوْثٌ وَلَا دَرَكٌ
فقوله: لَا فَوْثٌ وَلَا دَرَكٌ، كقول ذاك لَا يَبَاسُ اللَّيْلُ منها، وَلَا النَّهَارُ يعترف اللَّيْلُ بها، قال: وَقَالَ الْكُمَيْتُ فِي تَحْدِيدِ وَقْتِ الطَّلُوعِ شعراً:

حَتَّى إِذَا لَهَبَانُ الصَّيْفِ هَبَ لَهُ وَأَفْغَرَ الْكَائِلَيْنِ النَّجْمُ أَوْ كَرَبُوا
وَسَاقَتِ الشَّعْرِيَانِ الْفَجَرَ بَعْضُهُمَا فِيهِ وَبَعْضُهُمَا بِاللَّيْلِ مُحْتَجِبٌ

فجعل طلوعها بين اللَّيْلِ والنَّهَارِ كما جعله الأوَّل. ومعنى أَفْغَرَ النَّجْمِ: يريد إذا صارت الثُّرَيَّا فِي وَسْطِ السَّمَاءِ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا فَغَرَّ فَاهُ، أي فتحه، ومعنى كَرَبُوا: قَرَّبُوا وَطَعْنَ قَوْمَ عَلَى الْكُمَيْتِ فِي هَذَا الْبَيْتِ، وَحَسَبُوا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ إِحْدَاهُمَا طَلَعَتْ قَبْلَ الْفَجْرِ، فَهِيَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَّ الْأُخْرَى طَلَعَتْ مَعَ الْفَجْرِ، فَهِيَ فِيهِ، فَقَالُوا: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ فِصَاعِدَاءُ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: وَالَّذِي قَالُوا كَمَا قَالُوا، غَيْرَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى غَيْرِ مَذْهَبِ الْكُمَيْتِ، وَلَوْ أَرَادَ الْكُمَيْتُ مَا تَوَهَّمُوا لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ فِي الْمَعْنَى أَيْضاً مِثْلَ مَا أَخْطَأَ فِي اللَّفْظِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: وَسَاقَتِ الشَّعْرِيَانِ الْفَجَرَ.

فاعلم أَنَّ الْفَجَرَ طَلَعَ قَبْلَهُمَا، فَكَيْفَ يَعُودُ فَيَجْعَلُ إِحْدَاهُمَا طَالِعَةً قَبْلَهُ، هَذَا بِتَعْجِيلٍ، وَبَعْدَ فَإِنَّ الشَّعْرَيْنِ تَطْلَعَانِ مَعاً. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ بَعْضَهُمَا كِلْتَاهُمَا فِي اللَّيْلِ وَبَعْضُهُمَا كِلْتَاهُمَا فِي النَّهَارِ، إِذَا كَانَتَا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، قَالَ الشَّيْخُ الْأَكْشَفُ فِي بَصَرَةِ الْكُمَيْتِ أَنْ يَقَالَ أَرَادَ أَنَّ بَعْضِيهِمَا فِي اللَّيْلِ وَبَعْضِيهِمَا فِي النَّهَارِ، فَيُخْرِجُ الْبَعْضَ بِالثَّنِيَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَحَدٍ، وَيَسْتَفَادُ مِنْهَا أَنَّ الشَّعْرَيْنِ تَطْلَعَانِ مَعاً، وَأَنَّ الْقَصْدَ فِي ذِكْرِهِمَا لِلتَّحْدِيدِ، إِلَى أَنْ تَكُونَا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ تَضْيِيقاً شَدِيداً، فَأَفْرَطَ فِي التَّحْدِيدِ إِفْرَاطاً بَعِيداً، فَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَنْسُبُونَ إِلَى الطَّلُوعِ وَالسَّقُوطِ مَرْسَلاً غَيْرَ مِضَافٍ إِلَى وَقْتٍ، فاعلم أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُونَ الطَّلُوعَ وَالسَّقُوطَ لِلَّذِينَ يَكُونَانِ بِالْغَدَاةِ، وَذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ إِذَا طَلَعَتِ الْعُقْرَبُ:

حمس المذنب، ومثل قولهم إذا طلعت الشعري: جعل صاحب التخل يرى، ومثل قول الشاعر شعراً:

فَلَمَّا مَضَى نَوُّ الثَّرِيَا وَأَخْلَفَتْ هَوَادٍ مِّنَ الْجَوَزَاءِ وَانْغَمَسَ الْغَضْرُ
ومثل قوله:

هنا ناهم حتى أعانَ عليهم عزالى السحاب في اغتماميه كَوَكَب

فهذه السقوط وما أشبهه هو بالغداة، وإذا ذكر ذلك من نجوم الأخذ خاصة فهو النوء، ألا ترى أنهم لما أرادوا الطلوع بالغداة قالوا: إذا طلع النجم فالحرُّ في خدم، فجاء مُرسلاً غير مضاف. ولما أرادوا طلوعه لغير الغداة قالوا: إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء، فجاء مضافاً إلى الوقت. وأما قول القائل: حين البارحة حين غاب النجم وذهبن ليلة كذا، حين طلع السماك فإنما المراد بذلك، وقت المجيء والذهاب من تلك الليلة بعينها، وليس من الأوّل في شيء، ومنه قول الشاعر شعراً:

حتى إذا خفقَ السَّمَاكُ وَأَسْحَرَا وَتَبَا لَهَا فِي الشَّدِّ أَيَّ نَبَالٍ
ومثل قول الآخر:

فَعَرَسْنَ وَالشَّعْرَى تَغُورُ كَأَنَّهَا شِهَابٌ غَضًا يُرْمَى بِهِ الرَّجَوَانُ
وإذا جاء ذكر المغيب مُرسلاً، فالمراد حيثئذ الغيبوبة التي هي ابتداء الاستسار وذلك قولهم: غرب الثريا أعوه من شرفها، وكقولهم: مطر الثريا صيف كلّ وهذا الغرب غير السقوط الذي هو النوء، ومطر نوء الثريا وسمي ومن هذا الجنس قول الشاعر:

فَيَمَّمْتُ سَيْراً سَرِيعَ الرَّجَا ءِ مَائِلٍ مِّن رَّاجِلٍ يَرْكَبُ
مَغِيبٌ سَهِيلٌ صَدُورَ الرُّكَا بٍ سَيْراً يَشُقُّ عَلَى الْمَعْتَبِ

فهذا كلّ غيبوبة الاستسار، ولا يكون إلا بالعشيات على أثر مغيب الشمس ثم لا تراه بعد ذلك حتى يتم استساراه، ثم يكون أوّل ظهوره بالغدوات وقد اختلف الناس في معنى النوء: فبعضهم يجعله التهوض، قال: لأنه سمى نوى الطلوع الرقيب لا لسقوط الساقط، وهذا ليس بمنكر في اللغة، لأنّ هذه اللفظة تُعَدُّ في الأضداد، قال أبو حنيفة: هو التهوض، ولكنّه نهوض الذي كأنه يميله شيء فيجد به إلى أسفل، وزعم الفراء أنّ النوء السقوط والميلان، وأنّ أبا ثروان أنشده في صفة راعٍ نزع في قوس:

حتى إذا ما التأمّت مفاصلُهُ وناءً في شقّ الشمال كاهِلُهُ

قال: يريد أنه لما نزع مال إليها، وقوله: التأمّت مفاصله فإنّه يعني أنّه لَزِمَ بعضُهُ بعضاً

لشدة النزاع. قال: ونرى أنَّ قولَ العربِ ما ساءك وناءك من هذا، ومعناه أنائك فألقى الألف للاتباع كقولهم: هَتَّانِي الطَّعَامَ وَمَرَّانِي، وكان ينبغي أن يكون أمراني.

قال أبو حنيفة: فأما مَنْ ذهب إلى أنَّ الكوكب ينوء ثم يسقط، وإذا سَقَطَ فقد تقضى نوؤه، ودخل نوؤ الكوكب الذي بعده، فتأويله أنَّ الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه أطلَّ هو على السقوط، وكان أشبه شيء حالاً بحالِ النَّاهِضِ ولا نهوضَ به، حتى يسقط، لأنَّ الفلك يجزّره الغور، فكأنَّه مُتَحَامِلٌ عليه، يعني قد غَلَبَه. ويجمع النوء أنواء ونوانا. قال حسَّانُ بْنُ ثابتٍ رضي الله عنه شعراً:

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَتَابَهَا إِذَا فَحَطَ الْقَطَرُ نَوَاتَهَا

وقال بعضهم: الحق في ذلك مذهب الخليل الذي حكاه عنه مخرج، وهو أنَّ النوء اسم المطر الذي يكون مع سقوط النجم، لأنَّ المطر نهض مع سقوط الكوكب، واسم الكوكب الساقط النوء أيضاً، فالشيء إذا مال في السُّقُوط يُقال: ناء، وإذا نهض في تناقل يقال ناء به، قال ذو الرمة في وصف الرياك:

يَنُوءَ وَلَمْ يَكْسِينْ إِلَّا قَنَازِعاً مِنْ الرِّيشِ تَنُوءُ الْفِصَالِ الْهَزَائِلِ

وينوء الحمل الثقيل إذا مال بالبعير، ويقال: المرأة تنوء بها عجيزتها، قال الشاعر:

لَهَا حُضُورٌ وَأَعْجَازٌ تَنُوءُ بِهَا إِذَا تَقَوُّمٌ يَكَادُ الْخُصْرُ يَنْخَزِلُ

وفي القرآن: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [سورة القصص، الآية: ٧٦].

فصل

في ذكر أسماء المنازل وصفاتها، وهي نجومُ الأُخذ، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٩].

وهي ثمانية وعشرون منزلاً لا اختلاف في ذلك، وتسمى نجومًا، وإن كان منها ما هو كوكبٌ واحدٌ، وكان منها ما هو أكثر، وقد قيل للثريا: النجم، وهو كالعلم لها وهي ستة كواكب. والنجم إن كان كالعلم، وقد شهرت به، فقد يقولون في النسبة هذا النجم الثريا إذا جعلوه اسماً لجماعة كواكبها، ويقولون: هذه نجوم الثريا إذا جعلوا كل كوكب منها نجماً، ثم جمعوها. قال ذو الرمة:

لَعَالِيَةِ فِي الْأَدْحَىٰ بَيْضًا بِقَفْرَةٍ كَنَجْمِ الثَّرِيَا لَاحَ بَيْنَ السَّحَابِ

وقال الأعشى فجعله جمعاً:

يُراقِبْنَ مِنْ جَوْعٍ خِلَاءَ مَخَافَةٍ نَجُومَ الثَّرَيَا الطَّالِعَاتِ الشَّوَاحِصَا^(١)

وقال أبو عبيدة: يقال النجم، فيفرد اللفظ والمعنى للجمع، وأنشد قول الراعي:

فَبَاتَتْ تَعْدُو النَّجْمَ فِي مُسْتَجِيرَةٍ سَرِيعٌ بِأَيْدِي الْأَكْلِينَ جُمُودُهَا

يعني ضيفة قراها جفنة، قد استجار فيها الدّهم، فهي ترى نجوم الليل فيها. وأما الكوكب فلا نعلمه يقع إلا على واحد فقط، وقال الآخر في منازل القمر فسمّاها نجومًا:

وَأَخَوَاتِ نَجُومِ الْأَخْذِ إِلَّا أَنْضَةً أَنْضَةً مَحَلَّ لَيْسَ قَاطِرُهَا يَثْرِي

قال أبو عبيدة: نجوم الأخذ: منازل القمر، سُمِّيَتْ نجوم الأخذ، لأخذه كل ليلة في منزل. وقال أبو عمرو الشيباني: الأخذ: نزول القمر منزله، يقال: أخذ القمر نجمًا كذا إذا نزل به. وأنشد أبو عمرو شعراً:

وَأَمَسَتْ نَجُومُ الْأَخْذِ غُبْرًا كَأَنَّهَا مُقَطَّرَةٌ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ كُسُفٌ

وقال: مُقَطَّرَةٌ من القطار، أراد تناسقها، ومُراد الشاعر كسوفها، لأنّها متناسقة في الخصب والجذب. وكان على كل حال، وكسوفها ذهاب نورها لِشِدَّةِ الزَّمانِ وذلك لما يعرض في الهواء من الكدر ولا يجلوّه، قال أبو الطمّحان القتيبي: تذكر حميراً وَرَدَتْ عِيوناً.

وتراها نجوم الأخذ في حُجُرَاتِهَا وَتَنْهَقُ فِي أَعْنَاقِهَا بِالْجِدَاوِلِ

وقال أبو حنيفة: أول ما تبدئون به من المنازل الشّرطان، ولما كانت العرب تقدّم الشتاء كان أول أنوائها مؤخّر الدلو، وهو الفرع المؤخر، ونوؤه محمود الوقت، عزيز الفقد، وهو أول الوسمي، ثم بطن الحوت وهو الذي يسمّيه الرّشاء ولا يذكر نوؤه لِغَلَبَةِ ما قبله عليه.

واعلم أنّ المنازل تبدو للعين منها في السّماء أبداً نصفها، وهو أربعة عشر، وكذا البروج يبدو نصفها، وهو ستة لأنه كلّما غاب واحد منها طلع من المشرق رقيه وسقوط كلّ منزل فيه ثلاثة عشر يوماً سوى الجبهة، فإنّ لها أربعة عشر يوماً لأنّها خُصِّتْ بِاللَّيْلَةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ أَيَّامِ السَّنَةِ الثَّلَاثِ مِائَةِ وَالْخَمْسَةِ وَالسَّتِينَ، وفضلت بذلك على سائرهما، لغزارة نوّئها، وكثرة الانتفاع بها، ويكون انقضاء الثمانية والعشرين، وانقضاء الاثني عشر مع انقضاء السنة.

(١) شخص النجم: طلع.

ولما كانت الستة أربعة أجزاء صار لكل ربع منها سبعة منازل، وهي الأنواء وأسمائها: الشرطان - البطين - الثريا - الدبران - الهقعة - الهنعة - الذراع - الثنزة - الطرف^(١) - الجبهة - الزهرة - الصرقة - العواء - السماك الأعزل - الغفر^(٢) - الزباني - الإكليل - القلب - الشولة - التعايم - اليلدة - سعد الذابح - سعد بلع - سعد السعود - سعد الأخبية - القرع الأول - القرع الثاني - الرشا^(٣) - فهذه ثمانية وعشرون نجماً هنّ أمهات المنازل.

قال أبو حنيفة: وقد يعدّون معها نجومًا آخر إذا قصر القمر أحياناً عن هذه المنازل نزل ببعض تلك، وذلك لأنّ القمر لا يستوي سيره فيها، لأنك تراه بالمنزل ثم تراه وقد حلّ به في الشهر الآخر، فتجد مكانه مختلفين فيه، إذا أنعمت حفظه وضبطه، ولهذه العلة يخلطونها بالمنازل، حتّى ربيّما جعل لبعضها في الأنواء حظاً.

(١) أمّا الشرطان فهما كوكبان على أثر الحوت مفترقان شمالي وجنوبي بينهما في رأي العين قدر ذراع، وإلى جانب الشمالي منهما كوكب صغير ذكر أنّهما به سميت الأشراف، والواحد منهما شريط متحرك، وقد ذكّر عن العرب شرطاً بالإسكان قال كثير في جمعهما شعراً:

عوادٍ من الأشراف وطف نقلها روائح أنواء الثريا الهواطل
وقال الكّميّ في الأفراد:

من شريطي مُرتعن تجلّلت عزال بها منه بتجاجة سحل

وليس يمنع تحريكه في النسبة من أن يكون الواحد شرطاً بإسكان وإذا نسبت إليها لم ينسب إلا بالجمع أو الأفراد، فأما مثني فلم نجدهم قالوا شرطي. قال العجاج في الجمع: من باكر الأشراف أشرطي. وهذا قليل.

قال الشيخ: الجمع قد نسب إليه إذا جعل علماً أو أجري مجرى العلم، فالعلم كقولهم: كلابي وأنماري ومداني وما أجري مجرى العلم أشرطي، قال ويقولون: الشرطان قرنا الحمل، ويسمونها الطح أو الناطح، وبين يدي الشرطين كوكبان شبيهان بالشرطين، يُقال لهما الأنثيان. قال أبو حنيفة: ذكر الرواة أنّ العرب تجعلهما مما يقصر القمر، فينزل به ويجعلون لهما في الأنواء حظاً.

(١) بعضهم يسميها الطرفة.

(٢) الغفرة.

(٣) منهم من يسميه: بطن الحوت.

(٢) وأما البطين فتلقبه كواكب خفية كأنها نقط الشاء، وهو على أثر الشرطين بين يدي الثريا، وقد يتكلمون به مكبراً، فيقولون: البطن، ويزعمون أنه بطن الحمل.

(٣) وأما الثريا فهي النجم لا يتكلمون بها مكبرة، وهي تصغير ثروي، مشتقاً من الثروة، وكأنه تأنيث ثروان، والنجم كالعلم له يقال له: طلع النجم، وغاب النجم وأنشد للمرار شعراً:

ويومٌ من النّجم مُستوقدٌ يسوقُ إلى الموتِ نور الطُّبا
وقال شعراً:

إن النّجم أمسى مغربُ الشّمس طالماً ولم يكُ في الآفاقِ يوقُ يثيرها
قال الشيخ: هذا كما اشتهر عبد الله بابن عباس وصار كالعلم له، وكان له إخوة، قثم وغيره، فلم يشتهروا به، ويقولون: الثريا إليه الحمل.

(٤) وأما الذبران فالكوكب الأحمر الذي على أثر الثريا بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة من أدناها إليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان، يقول الأعراب: هما كلباء، والبواقي غنمه، ويقولون: قلاصه، قال ذو الرمة شعراً:

وردتُ اغتشافاً والثريا كأنها على قعّة الرأس أين ماءً مُحملقُ
يدفُ على آثارها دبرانها فلا هو مسبوق ولا هو يلحقُ
لعشرين من صغرى النجوم كأنها وإياه في الخضراء لو كان ينطقُ
قلاص^(١) حذاها راكبٌ متعمّمٌ إلى الماء من قرن التنوفة مطلقُ

قرن التنوفة أعلاها - والمطلق الذي يطلب ليلة الماء ويعتله القرب للورد، ويسمى دبراناً لدبوره الثريا، كما قيل: إبيان وصميان، وسمي تالي النجم، وتابع النجم. وقد يطلق فيقال: التابع، ويقال أيضاً حادي النجم، ومن أسمائه المُجدح بالضم والكسر فالضمّ حكاة الشيباني، والكسر حكاة الأموي، والمتجمون يسمونه قلب الثور وقولهم: الذبران مما اختصّ وجرى مجرى العلم.

(٥) وأما الهقعة فهي رأس الجوزاء ثلاثة كواكب صغار مثقلة، وتسمى الأثافي تشبهاً بها.

حكى عن ابن عباس أنه قال لرجل: طلق عدد نجوم السماء يجزئك منها هقعة

الجوزاء، وقد يقال للدَّابرة يكون الشَّقُّ الفرس الهقعة، وهي تكره، يقال فرس مهقوع.

(٦) وأما الهنعة: فكوكبان. بينهما قيد سوط، وهما على أثر الهقعة ولتقاصرها عنها سُمِّيت الهنعة. والذراع المبسوطة بينهما منحنى عنهما ويقال: أكمة هنعاً إذا كانت قصيرة، وتهانَع الطائر إذا كان طويل العنق فقصرها.

وقال ابن كناسة: يقال للهنة الزرق الميسان، فإنما ينزل القمر بالتخاي وهي كواكب ثلاثة بإزاء الهنعة والواحدة منها تخية.

(٧) وأما الذراع فهي ذراع الأسد المقبوضة، وللأسد ذراعان مقبوضة ومبسوطة، (فالمقبوضة) منهما هي اليسرى، وهي الجنوبية، وبها ينزل القمر وسُمِّيت (مقبوضة) لتقدّم الأخرى عليها، والمبسوطة منهما هي اليمنى وهي الشمالية، وكلّ صورة من نظم الكواكب فميامنُها مما يلي الشمال ومياسرُها مما يلي الجنوب، لأنّها تطلع بصدورها ناظرة إلى المغرب فالشمال على أيمنها، والجنوب على أيسارها. وقد فهم ذلك القائل والنجوم التي تتابع بالليل وفيها ذات اليمين، أزورارها على أيمنها إطفاء منها بالقطب.

وقال أبو حنيفة: أنت ترى الكوكب يدرأ من مطلعته من الأفق الشرقي فلا يستقيم مضيئه إلى مقابل مطلعته من الأفق الغربي في المنظر، ولكن تراه يتجانب إلى القطب، ولذلك قال الشاعر شعراً:

وعاندتُ الثريا بعد هدءٍ معاندةً لها العيوقُ جارٍ

لأنّها تركت القصد في المنظر، فذلك معاندتها، وعلة ذلك ما بيّنه الكميّ في قوله:

مالَتْ إليه طِلاناً^(١) واستُطيفَ بِهِ كما تطيف نجومُ اللَّيْلِ بالقطب

وأحد كوكبي الذراع المقبوضة هي الشعري الغميصاء، وهي تقابل الشعري العبور، والمجرّة بينهما وقد تُكبر يقال الغمضاء، قال أبو عمر وهي الغميصاء والغموص ويقال لكوكبها الأحمر الشمالي المرزم، مرزم الذراع وهما مرزمان هذا أحدهما، والآخر في الجوزاء قال:

ونائحَةٌ صَوَّتْهَا رابِعٌ بعثن إذ أخفَقَ المرزمُ

ويروى إذا ارتفع المرزم فهذا المرزم هو الذي في الذراع، لأنّ مرزم الجوزاء لا نوء له، وليست من المنازل، وقد ذكرنا جميعاً بالنوء على ذكر الشعريين والسماكين. قال جدار:

(١) الطَّلَا: بالفتح ولد الظبي ساعة يولد، والصغير من كل شيء.

أَحْتَبَكَ جَدَ الْمَرْزُومِينَ مَتَى يَنْجُودَا بَنُو الْإِثْغُورَا
وقال ابن كناسة: الذراع المقبوضة بأسرها هي المرزم.

وحكي مثل ذلك عن الغنوي، ومن أحاديثهم: كان سهيل والشعريان مجتمعين فانحدر سهيلٌ فصار يمانياً، ونعته العبور عبرت إليه المجرة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل، حتى غمصت، والغمص في العين ضعف ونقص، وقالوا: ربّما عدل القمر فزلّ بالذراع المبسوطة.

(٨) وأما النثرة فتلاثة كواكب متقاربة، أحدها كأنه لطحة، يقولون: هي نثرة الأسد، أي أنفه، قال ذو الرّمة شعراً:

مَجْلَجِلُ الرَّعْدِ عَرَاصاً إِذَا ارْتَجَسَتْ نَوءُ الثَّرِيَا بِهِ أَوْ نَثْرَةُ الْأَسَدِ
أنث: فعل النوء وهو ذكر، لأنه أضافه إلى الثريا، وليس بمنفصل منها، ويسمى اللطحة اللّهاء. وقال الآخر:

فَهَدَمَ مَا قَدْ بَنَيْتُهُ الْيَدَانِ حَوْلِينَ وَالْأَنْفَ وَالْكَاهِلَ
وذكر الهدم والبناء ها هنا كقول الآخر:

عَلَى كُلِّ مَوَازٍ الْمَلَاطُ تَهْدَمْتُ عَرِيكْتُهُ الْعِلْيَاءُ وَانْضَمَّ حَالِبُهُ^(١)
رَعَاها وَمَاءُ الرُّوْضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ رَعَاها وَمَاءُ الرُّوْضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ
فَأَضْحَى الْغَلَا قَدْ جَدَّ فِي بَرِّ قَصْبِهِ وَكَانَ زَمَاناً قَبْلَ ذَاكَ يُلَاعِبُهُ

(٩) وأما الطرف: فكوكان يتدثان الجبهة بين يديها يقولون: هما عين الأسد.

(١٠) وأما الجبهة: فجبهة الأسد، قال: إذا رأيت انجماً من الأسد جبهة أو الخراة والكند، وهي أربعة كواكب خلف الطرف معترضة من الجنوب إلى الشمال، سطرراً معوجاً، وبين كل كوكبين منها قيس الذراع، والجنوبي منها هو الذي يسمّيه المنجمون: قلب الأسد.

(١١) وأما زبرة الأسد: فهي كوكبان على أثر الجبهة، بينهما قيد سوط والزبرة كاهله، وفروع كتفيه، ويسمّيان الخراتين الواحدة خراة.

(١٢) وأما الصّرفة فكوكب واحد تيّر على أثر الزبرة، يقولون: هو قنب الأسد، والقنب وعاء القضيب، وسمّيت صرفة لانصراف الحر عند طلوعه غدوةً، وانصراف البرد عند سقوطه غدوةً.

(١) لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

(١٣) وأما العواء فإن ابن كناسة جعلها أربعة أنجم، وهي خمسة لمن شاء ومن شاء ترك واحداً إلا أن خلقها خلقه كتاب الكاف غير مشقوقة، وليست نيرة وهي على أثر الصرفة، وزعم أبو يحيى أنها سُميت العواء بالكوكب الرابع الشمالي منها، وإذا عزلت عنها هذا الكوكب الرابع كانت الباقية مثناة الخلقه وهم يجعلون العواء وركي الأسد، وأحسب هؤلاء تأولوا اسمها، والمحاش حشوة البطن والعواء تمد وتقصّر، قال الراعي:

ولم يسكنوها الجزء حتى أظّلها سحابٌ من العوا وثابت غيومها
ويقال لها عواء البرد، يزعمون أنها إذا طلعت أو سقطت آتت ببرد.

(١٤) وأما السماء فهما سماكا الأعزل، والقمر ينزل به ولا ينزل بالآخر وهو الزامح وسُمي رامحاً لكوكب صغير بين يديه يقال له: راية السماء وبه سُمي رامحاً، ويسمى الآخر الأعزل، لأنه لا شيء بين يديه كأنه لا سلاح معه وقال كعب بن زهير شعراً:

فلما استدار الفرقدان زجرتها وهب سماك ذو سلاح وأعزل
وقال الطرمّاح:

مهاهن صيب نوء الربيع من الأنجم العزل والزامحة

وهم يجعلون السماكين ساقّي الأسد، وأحد السماكين جنوبي، وهو الأعزل والآخر وهو الزامح شمالي، وقال ابن كناسة: ربما عدل القمر فتزل بعجز الأسد، وهي أربعة كواكب، بين يدي السماء الأعزل، منحدرّة عنه في الجنوب، وهي مربعة على صورة النعش، ويقال لها: عرش السماء، وتسمى أيضاً الأحمال، وتسمى الجناء، وهم يجعلون لها حظاً في الأنواء، قال ابن أحمر يصف ثوراً:

باتت عليه ليلة عرشيّة شربت ويات إلى نعي متهددا

شربت لجت، والمتهدد المتهدّم، لا تماشك لمحضره وكان المنجمون يسمون السماء الأعزل السنبلة لسموكة، سُمي سماكاً وإن كان كلّ كوكب قد سمك فهو كقولهم الدبران.

(١٥) وأما الغفر: فثلاثة كواكب بين زباني العقرب، وبين السماء الأعزل خفية على خلفه العواء. قال ذو الرمة:

فلما مضى نوء الثريا وأخلفت هوائ من الجوزاء وانغمس الغفر

والعرب تقول خير منزلة في الأيد بين الزباني والأسد، يعنون الغفر، لأن السماء

عندهم من أعضاء الأسد، فقالوا: يليه من الأسد ما لا يضر الذنب يدفع عنه الأظفار والأنياب، ويليه من العقرب ما لا يضر الذنابي يدفع عنه الحمة.

(١٦) وأما الزباني وهما زبانيا العقرب: أي قرناه، وهما كوكبان مفترقان بينهما في المنظر أكثر من قامة الرجل، ويقال لهما: زباني الصيف لأنَّ سقوطهما في زمان الحر، قال ذو الرمة:

يا قد زفت للزباني من بوارحها هيف أنست بها الأضناغ والخُبُرُ
الأضناغ محابس الماء والواحد صنع، والخبر جمع خبرة وهي أرض يكون بها الصدر، ويدوم فيها الماء يريد أن رياح الزباني أنضبت المياه، وقيل: يُسمي أهل الشام زباني العقرب يديها.

(١٧) وأما إكليل العقرب رأسها، وهي ثلاثة كواكب معترضة بين كل كوكبين قيد ذراع، قال جرّان:

العودُ بمطرقين على مثنى أيامنهم راموا التّزولَ وقد غار الأكاليلُ
جعل كل كوكبٍ منها إكليلاً.

(١٨) وأما القلب، قلب العقرب والكوكب الثّير الأحمر الذي وراء الإكليل سيرة كوكبان، وهم يستحسنونه. قال شعراً:

فسيروا بقلبِ العقرب اليوم إنّه سَوَاءٌ عليكم بالثّحوسِ وبالسّعدِ

(١٩) وأما الشّولة فإبرة العقرب، كذلك يسمّوها أهل الشّام، وهي كوكبان مضيئان صغيران متقاربان في طرف ذنب العقرب، وقالوا: ربما قصر القمر فتزل بالغفار فيما بين القلب والشّولة. والغفار أحد كواكب ذنب العقرب، يجعلون كلّ كوكبٍ منها فقرة، وهي ستّ فقر، والسّابعة الإبرة. قال ابن كناسة: الشّولة التي ينزل بها القمر: حذاء القلب في حاشية المجرة، وليس هناك شولة، ولكنّ القمر إنّما ينزل بالشّولة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنّها منحدرّة عن طريقته وها هنا يقطع القمر المجرة إذا هو فارق العقرب، ومضى نحو السّعود لأنّ المجرة تسلك بين قلب العقرب وبين النّعائم، منقطع نظام المنازل في هذا الموضع.

وفي موضع آخر وهما بين الهقعة والهنة، لأنها تسلك أيضاً بينهما فيعرض نظام المنازل اعتراضاً، وها هنا أيضاً يقطع القمر وسائر الكواكب المحاذية للمجرة، وذلك حين ينحدر عن غاية تعاليها إلى ذروة القبة في الهبوط، فأما قطعها إياها عن السّعود فذلك حين

يبتدىء الصُّعود بعد غاية الهبوط، ويسمى الشُّولة شولة الصُّورة، وهي منغمسة في المجرة.

(٢٠) وأما النّعايم فثمانية كواكب، أربعة في المجرة وهي النّعايم الواردة، وأربعة خارجة عن المجرة وهي النّعايم الصّادرة، وهي منحدرّة، وكلّ أربعة منها على شبه بالتّربيع، وفوقها كوكب إذا تأملتّه مع كوكبين من النّعايم الوارد شبهتها به قبة، وإنّما قيل: وارداً لشرعهِ في المجرة، وقيل: الصّادر لمجيئهِ عنها.

(٢١) وأما البلدة فرقة من السّماء لا كوكب بها بين النّعايم وبين سعد الذّابح، ينزلها القمر، ويقولون: ربّما عدل القمر أحياناً فنزل بالقلادة وهي ستّة كواكب صغار، خفية فوق البلدة، مستديرة تشبه بالقوس، ويسمّيها العامة القوس ويُسَمّى موضع النّعايم الوصل.

(٢٢) وأما سعد الذّابح: فكوكبان غير تيّرين، وكذلك السّعود كلّهما وبينهما في رأي العين قيس الذّراع و (ذبحه) كوكب صغير قد كاد يلزق بالأعلى منها، تقول الأعراب: هو شاته التي تذبح. قال الطّرماح شعراً:

ظعائن شمنَ قريحَ الخريفِ من الفرغِ والأنجمِ الذّابحةُ
قريحه: أوّله.

(٢٣) وأما سعد بلع: فنجمان نحو من سعد الذّابح أحدهما خفي جداً، وهو الذي بلعه أي جعله بلعاً كأنه مسّطر^(١)، وذكر أنه سُمّي بلعاً لأنه طلع حين قيل: ﴿يا أرضُ ابلعي ماءك﴾ [سورة هود، الآية: ٤٤] وهذا لست أدري ما هو.

(٢٤) وأما سعد السّعود: فكوكبان أيضاً نحو من سعد الذّابح، وسُمّي سعد السّعود بالتّفضيل عليهما، ولأن الزّمان في السّعدَيْن اللّذين قبله قسا، وطلوع سعد السّعود يوافق منه ليناً في برده، قالوا: وربما قصر القمر، فينزل بسعد باثره، وهو أيضاً كوكبان أسفل من سعد السّعود. قال الكُميت شعراً:

ولكنْ بنجمكْ سعد السّعود طبقتْ أرضي غيثاً درودا

(٢٥) وأما سعد الأخبية: فثلاثة كواكب متحاذية، فوق الأوسط منها كوكبٌ رابع، كأنها به في التمثيل رجلٌ بطة.

وقيل: إنّ السّعد منها واحد، وهو أنورها وإنّ الثلاثة أخبية، وقيل: سُمّي بالأخبية لأنه

(١) في القاموس سطر كنصر وفرح سطرأ وشرطاناً محركتين ابتلعه كاسترطه وتسطرطه. ١٢ - القاضي محمد شريف الدين عفا عنه.

إذا طلع انتشرت فخرج منها ما كان مختبئاً في البرد، لأنّ طلوعه في وقت الدّفاء، والسّعود متناسقةٌ بعضها على إثر بعض.

(٢٦) وأمّا الفرغ الأول: فهو فرغ الدّلّو، والدّلّو أربعة كواكب مريضة واسعة، بين كل كوكبين قدر قامة الرّجل، أو أكثر في رأي العين، فهم يجعلون هذه الكواكب الأربعة عراقي الدّلّو. قال عدي بن زيد في خريف شعراً:

سَقَاهُ نَوْءٌ مِنَ الدَّلّو تَدَ لَى وَلَمْ يُوَارِ الْعِرَاقِي

وفرغ الدّلّو: مصبّ الماء من بين العراقي وقد يقولون لهما العرقوة العليا والعرقوة السفلى. قال: (قد طال ما حرمت نوء الفرغين).

(٢٧) وأمّا الفرغ الثاني: وهو العرقوة السفلى فكمثل الفرغ الأول، وقد يُقال للفرغ الأول: ناهزا الدّلّو المقدمان وللفرغ الأسفل: ناهزا الدّلّو المؤخّران. والناهاز الذي يحرك الدّلّو ليمتلئ، وقالوا: يقصر القمر أحياناً فينزل بالكرب، والكرب الذي وسط العراقي الأربع، والكرب من الدّلّو ما شدّ به الحبل من العراقي. وقالوا: ربما نزل ببلدة الثّعلب، وهو بين الدّلّو والسّمكة من عن يمين المرفق.

(٢٨) وأمّا الرّشاء وهو السمكة: فكواكب في مثل حلقة السّمكة، وفي موضع البطن منها من الشّق الشرقي نجم منير ينزل به القمر يسمّونه بطن السّمكة. والمنجمون يسمّونه: قلب الحوت. ويقال لما بين المنازل: الفرّج. فإذا قصر القمر عن منزلة واقتحم التي قبلها فنزل بالفرجة، بينما استحبّوا ذلك إلّا الفرجة التي بين الثّريا والدبران، فإنّهم يكرهونها ويستخشونها، ويقال لها الضّيقة^(١). قال:

فَهَلَّا زَجَرَتِ الطَّيْرَ لَيْلَةً جِثَّتْهُ تَضَيِّقُهُ بَيْنَ النَّجْمِ وَالدَّبْرَانِ

وسمّيت ضيقة لضيقها عندهم، فإنّهم يتواضعون قصر ما بين طلوع النّجم وطلوع الدبران. ذكر عن يزيد بن قحيف الكلابي، أنّه قال: ما بينهما إلا سبعة أيام وإنّما هذا نحو نصف ما قدر لما بين المنزلين.

قال أبو حنيفة: فهذا ما حُكي لنا، وأمّا نحن فلم نجد لها أقصر المنازل كلّها مدة في الطّلوع، ولا فرجة في المنظر، وأنّ الذي نير الطّرف والجهة لأقلّ من ذلك ولكن قد وجدناهما في الغروب عندهم متقاربين جداً، حتّى لا نكاد نثبت بينهما شيئاً ما هو الآن إلا أنّ يسقط النّجم، فما يستقيم السّقوط حتّى يسقط الدبران وأحسب الذي اشتهر أمرهما في

(١) الضيقة منزل للقمر - قاموس.

هذا الباب حتى يوصفا من بين المنازل كلها شهرتهما وكثرة استعمالهم إياهما، ولا سيما النجم، فإن تفقدهم له شديد، وذكرهم إياه كثير، وإذا لم يعدل القمر عن المنزل قيل: كالح مكالحة والمكالحة: مثل المكافحة كأنه إذا لاقاه دافعه من غير حاجز بينهما.

فصل

في بيان الاختلاف الواقع بين العرب في أوقات الأنواء والكلام في الضيقة

قال أبو الحسين الصوفي هذا الذي يذكرونه في الضيقة وأن القمر ربما قصر فتزل بها غلط، لأن كواكب الثريا في خمس عشرة درجة من الثور، وهذان الكوكبان في أربع وعشرين درجة ونصف منه، وبين الثريا وبينهما نحو تسع درجات، وأبطأ ما يكون سير القمر في يوم وليلة، وأبعده نحو إحدى عشرة درجة، وإنما سُميت الفرجة التي بين الثريا والدبران الضيقة، لأنهم يستعملون طلوعها وسقوطها في المغرب بالغدوات عند طلوع رقبائها، وظهورها من تحت الشعاع، وريب كل واحد منهما هو الخامس منه، ولا يستعملون طلوعهما. ووسط الثريا في خمس عشرة درجة من الثور والدبران في خمس وعشرين درجة منه وبينهما بدرجات البروج عشر درجات، لكن عرض الثريا في الشمال عن درجتها أربع درجات ودقائق. وعرض الدبران في الجنوب خمس درجات.

ومن شأن الكواكب الشمالية أن تطلع قبل طلوع درجتها وتغيب بعد مغيب درجتها، والجنوبية تطلع بعد طلوع درجتها، وتغيب قبل مغيب درجتها، فتطلع الثريا كذلك مع ثلاث عشرة درجة من الثور بالتقريب ويطلع الدبران مع سبع وعشرين درجة منه، فيكون بين طلوع الثريا وطلوع الدبران أربع عشرة درجة بالتقريب، وتغيب الثريا مع سبع عشرة درجة من الثور لا تغيب بعد درجتها. ويغيب الدبران مع ثلاث وعشرين درجة منه، لأنه يغيب قبل درجة، فيكون بين مغيب الثريا ومغيب الدبران ست درجات بدرجات البروج.

فلما وجدوا بين غروب الثريا وغروب الدبران هذا القدر، سموا الفرجة بينهما بضيقة، واستخشوها واستخشوا الدبران أيضاً مفرداً وتشاءوا به حتى قالوا: إن فلاناً أشأم من حادي النجوم، ويتشاءمون أيضاً بالمطر الذي يكون بنوئه يزعمون أنهم لا يمتطرون بنوء الدبران إلا تكون ستهم جذبة.

قال أبو زيد وقطرب جميعاً: وهذه حكاية عن القشريين، قالوا: أول المطر الوسمي، وأنواؤه العرقوتان، المؤخرتان من الدلو ثم الشرط بتسكين الراء ثم الثريا وبين كل نجمين نحو من خمس عشرة ليلة ثم الشتوي بعد الوسمي وأنواؤه الجوزاء ثم الذراعان ونثرتهما ثم الجبهة وهو آخر الشتوي وأول الدفيء، ثم الدفيء وأنواؤه آخر الجبهة، ثم الصرفة وهي

فصل بين الدَّفْيء والصَّيف وأنواؤه السَّمَاكَانِ الأوَّلُ الأعزل والآخِرُ الرَّقِيبُ، وما بين السَّمَاكَيْنِ صَيْفٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. ثم الحَمِيم وهو نحو من خمس عشرة لَيْلَةً إلى عشرين عند طُلُوع الدَّبْرَانِ وهو بين الصَّيف والخريف وليس له نَوء. ثم الخريف وأنواؤه النَّسْرَانِ، ثم الأخضر ثم عرقوتا الذَّلُو الأوليان ولكل مطر من الوسمي إلى الدَّفْيء ربيع.

وإنما هذه الأنواء في غيوبة هذه النجوم. قالوا: فأوَّلُ القِيظِ طُلُوع الثَّرِيَا وآخره طُلُوع سهيل. وأوَّلُ الصَّفْرِ طُلُوع؟ وآخره طُلُوع السَّمَاك. وفي أوَّلِ الصَّفْرِ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً يختلف حرُّها وبردها، وتسمَّى المعتدلات. ثم أوَّلُ الشَّتَاءِ طُلُوع السَّمَاك وآخره وقوع الجبهة، وأوَّلُ الدَّفْيء وقوع الجبهة وآخر الصَّرفَة، وأوَّلُ الصَّيْفِ السَّمَاك الأعزل وهو الأوَّلُ وآخر الصَّيْفِ السَّمَاك الآخر، الذي يقال له الرَّقِيبُ، وبينهما أَرْبَعُونَ لَيْلَةً أو نحوها انتهت الحكاية.

قال ابن كناسة: أعلم العرب بالنجوم بنو مارية من كلب، وبنو مرة بن همام من بني شيبان، وذكر عنهم أنَّ أوَّلَ الأنواء الذَّلُو، ونوؤه محمود، وهو أوَّلُ الوسمي ثم بطن الحوت ولا يذكر نوؤه لغلبة ما قبله عليه، ثم الشَّرط محرك الرء ويثنى ويُجمع عرفها يونس وغيره وقال:

ولا روضةً غنَّاء غَضَّ نباتها يجود بشتياها لها الشَّرطان

وقال العجاج في الجمع:

من باكر الأشرط أشرطي من الرَّبيع انقضَّ أودلوي

وقال ذو الرمة:

قرحاء حواءٍ أشرطيَّةٌ وكَفَتْ فيها الرُّباب وحَفَّتْها البَراعيِمُ

قوله: حواء يريد هي من الخضرة سوداء، وجعلها قرحاء لأنوارها، جعلها كقرحة الفرس، ونوؤه محمود. ثم البطن وبعضهم يقول: البطن ونوؤه غير محمود، ولا مذكور، ثم الثَّرِيَا ونوؤه مقدَّم في الحمد، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا طلعتِ الثَّرِيَا ارتفعت العاهة». ولذلك لا يقبل بالحجاز قول من ادَّعى عاهة في ثمرة اشتراها بعد طُلُوع الثَّرِيَا. ثم الدَّبْرَان وهو مكروه النَّوء؛ ثم الهقعة ولا يذكر نوؤه منفرداً، فهذه منازل كلِّ الوسمي وهي خمسة فليس قبل الفراغ المؤخر وسمي، ولا بعد الثَّرِيَا وسمي، وهي أوَّلُ أنواء الخريف. وسموا التَّوَيْنِ الباقيين وليا، وهما الدَّبْرَان والهقعة.

ثم أوَّلُ الرَّبِيعِ وأنواؤه سبعة: الأربعة الأولى شتية وهي الهنعة ونوؤه لا يذكر، والذَّرَاع ونوؤه مقدم مذكور، والثرثرة ونوؤه محمود، والطَّرَف ونوؤه لا يفرد بالذكر، والثلاثة الباقية

دفينة، ويقال الدثية وهما بمعنى كما يقال اللغام والثام، وسُميت بذلك لأنها في دبر الشتاء. وابتداء الدفء وهي الجبهة ونوؤها من أذكر الأنواء وأشهرها وأحبها إليهم وأعزها فقدأ. والزبرة وقلماً يفرد نوؤه، والصرفة وغلبت أنواء الأسد عليها وإنما سُميت صرفة لانصراف الشتاء فهذه منازل كل الربيع.

ثم الصيف وأنوائه سبعة: فالخمس الأولى منه صيف، والنوءان الآخران الباقيان حميم وسُمي حميماً لأن أمطارها تجيء وقد تحرك الحر، فأولها العواء وبعض العرب يمدّه فيقول العواء، ونوؤها ليلة. ثم السماك ونوؤه من الأنواء المذكورة المحمود، ولذلك قال الشاعر: أجش سماكي كان ربابه، ثم الغفر ولا يُذكر نوؤه وقيل لا يعدم نوؤه. ثم الزباني، ثم الإكليل، ثم القلب، ثم الشولة وأربعتها لا تذكر أنوائها، وربما ذكرت العرب مجملة، فهذا كله الصيف.

ثم الخريف: وهو فصل القيظ وأنوائه سبعة والأربعة المتقدمة رمضية وشمسية لشدة الحر، والثلاثة الباقية خريفية، وأول أمطاره في كلام أهل الحجاز وتميم الحميم، فأوله النعائم - ثم البلدة - ثم سعد الذابح - ثم سعد بلع - ثم سعد السعود - ثم سعد الأخبية. وهذه الستة لا دُكر لأنوائها ولا مبالاة لأخواتها. وسُميت خريفية لأنها تجيء والثمار تخترف في أيامها. ثم مقدم الدلو ونوؤه من الأنواء المشهورة ويقال: الفرغ المقدم أيضاً لأنها مقدمة ما بين الوسمي وموطيء له وفرط، فهذه منازل كل الحميم.

وبعد هذه الأربعة ستة سعود متناسقة في جهة الدلو، وليست هي من المنازل. أولها سعد ناشره وهو أسفل من سعد الأخبية ويطلع مع الشرطين. ثم سعد الملك، ثم سعد الهمام، ثم سعد البار، ثم سعد مطر، وكلُّ سعدٍ منها كوكبان في رأي العين قدر ذراع كنحو ما بين سعود المنازل.

فصل

واعلم أنَّ ما ذكرته من الطلوع والغروب يختلف فيهما أحوال البلدان فربما طلع النجم ببلد في وقت وطلع في غير ذلك البلد، في وقتٍ آخر، إمّا قبله وإمّا بعده بأيام، فهذان التّسيران وهما التّسر الواقع، وقلب العقرب يطلعان معاً بنجد، ويطلع التّسر الواقع على أهل الكوفة، قبل قلب العقرب بسبع. ويطلع قلب العقرب على أهل الدّبرة قبل التّسر بثلاث، وربما طلع النّجم ببلد ولم يطلع ببلد آخر كسهيل، فإنّه يظهر بأرض العرب وباليمن ولا يرى بأرمينية، وبين رؤيته بالحجاز ورؤيته بالعراق بضع عشرة ليلةً، وبنات نعش تغرب بعدن ولا تغرب بأرمينية.

قال أبو محمد القتيبي: بلغني أنَّ كلَّ بلد جنوبي فالكواكب اليمانية فيه تطلع قبل طلوعها في البلد الشمالي. وكلَّ بلد شمالي فالكواكب الشامية فيه تطلع قبل طلوعها في البلد الجنوبي، وفي الكواكب الشامية ما يكون في الليلة الواحدة غروب من أولها في المغرب، وطلوعٌ من آخرها في المشرق كالعيوق والسماك الرامح والكفّة والعوايد والتسر الواقع والغوارس والرّدف والكف الخضيب، ومددها في ذلك تختلف، فمنها ما يرى كذلك أياً ما ومنها ما يرى شهراً ومنها ما يرى أكثر من شهر.

وإذا نزل القمر في استوائه ليلة أربع عشرة، وثلاث عشرة بمنزل من المنازل فهو سقوط ذلك المنزل، لأنَّ القمر يطلع من أوّل المشرق ليلة أربع عشرة مع غروب الشمس، ويغيب صباحاً مع طلوع الشمس، فيسقط ذلك النّجم الذي كان نازلاً به. وقال ابن الأعرابي بين طلوع الثريا مع الفجر وبين عوده إلى مثله ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، فالقمر ينزل بها ثمّ يسائر المنازل يأخذ كلَّ ليلة في منزل، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ينزل بها القمر إذا كان كريتاً، ويعود للنّجم الذي استهلّ به لتسع وعشرين، وإذا كان حثيثاً تخطر منزلة الكريت: التام، والحديث: الناقص، وينزل لثمان وعشرين ليلةً بمستله، فمن ثم صار ما بين حول الأهلة وبين حول طلوع الثريا مع الفجر إلى مثله فصل أحد عشر يوماً وربع يوم. قال والخطر فيه أن يجعل الخطوتين خطوة، والمنزلتين منزلةً، فربما استسر ليلةً، وربما استسر ليلتين أو نحوهما.

البابُ السَّابعُ

في تحديدِ سِنِّي العربِ والفُرسِ والرُّومِ وأوقاتِ فصولِ السَّنةِ

قد عرفتكَ فيما تقدم أنَّ العربَ تبدأ بالشتاءِ بعد أن تجعل السَّنةَ نصفين شتاءً وصيفاً ثم يقسم الشتاءَ نصفين فتجعل الصَّيفَ أوَّلَه والقيظَ آخره وأنها تفارق سائر الأمم في تحديد الأوقات، فأوَّلُ وقت الرِّبيع الأوَّل عندهم وهو الخريف ثلاثة أيام تخلو من أيلول، وأوَّل الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأوَّل، وأوَّل الصَّيف عندهم وهو الرِّبيع الثاني خمسة أيام، تخلو من حزيران، والخريف عندهم اسم للمطر الذي يأتي في آخر القيظ من دون الزَّمان. وذكر المراد الفقعسي أنَّه يكون حلول الشَّمس بأعلى منازلها في شدة الحر، وذلك إذا حلَّت بأوَّل السرطان فقال شعراً:

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا تَحُلُّ بِأَعْلَى مَنْزِلٍ وَتَقُومُ
يريد أنَّ الشَّمس في منتهى صعودها في القيظ، فإذا طلعت حلَّت بأوَّل منها، وإذا انتصفت قامت على قمة الرأس. وهذا يدل على معرفتهم بحلول الشَّمس رؤوس الأرباع، وإن كان حسابُ فصولهم على غير ذلك.

وأما أصحاب الحساب فيحدِّون فصول السَّنة بحلول الشَّمس بنجم من هذه النُّجوم الثمانية والعشرين، ويجعلون لكلِّ زمانٍ من الأزمنة الأربعة سبعة أنجم منها. ويبدوون من الأزمنة بالفصل الذي تسمِّيه العامة: الرِّبيع وهو عند العرب الصَّيف، وتجوم هذا الفصل السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنة والذَّراع، والشَّمس تحل بالشرطين بالغداة لعشرين ليلةً تخلو من آذار فتسترهما وتستر المنزل قبلهما، فلا يزال السرطان مستورين بها إلى أن يطلعا بالغداة، لسبَّ عشرة ليلةً تخلو من نيسان فيكون بين حلول الشَّمس بها وطلوعها سبع وعشرون ليلةً.

وإذا حلَّت الشَّمس برأس الحمل اعتدلَ اللَّيْل والنَّهار، فصار كلُّ واحدٍ منهما اثنتي

عشرة ساعة يوماً واحداً وليلةً واحدةً، ثم يزيد النهار وينقص الليل إلى أن يمضي من حزيران اثنتان وعشرون ليلةً، وذلك بعد أربع وتسعين ليلةً من وقت اعتدالهما فينتهي طول النهار، وينتهي قصرُ الليل، وينقضي فصل الربيع، ويدخل الفصل الذي يليه وهو الصيف، ودخول الصيف بحلول الشمس برأس السرطان ونجومه النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك.

ثم يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان إلى ثلاث وعشرين تخلو من أيلول، وذلك ثلاث وتسعون ليلةً، وعند ذلك يعتدل الليل والنهار ثانيةً ويكون كلُّ واحدٍ منهما اثنتي عشرة ساعةً، يوماً واحداً وليلةً واحدةً، وينقضي فصل القيظ ويدخل فصل الخريف، ودخول فصل الخريف بحلول الشمس رأس الميزان ونجومه الغفر - والزباني - والإكليل - والقلب - والشولة - والتعائم - والبلدة.

ثم يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، إلى أن يمضي من كانون الأول واحد وعشرون يوماً، وذلك تسع وثمانون ليلةً، وعند ذلك ينتهي طولُ الليل وينتهي قصر النهار، وينقضي فصل الخريف، ودخول فصل الشتاء بحلول الشمس رأس الجدي ونجومه: سعد الذابح - وسعد بلع - وسعد السعدود - وسعد الأخبية - والفرع المقدم والفرع المؤخر - وبطن الحوت -. ويأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان إلى أن تعود الشمس إلى رأس الحمل ويعتدل الليل والنهار، وينقضي فصل الشتاء وذلك تسع وثمانون ليلةً وربيع، فجميع أيام السنة على هذا العدد ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربيع، لا يتغير ولا يزول على مرّ الدهر.

وقد بينا فيما مضى أنَّ السيارات سبعة وأخبرنا أنها هي التي تقطع البروج والمنازل فهي تنتقل فيها مقبلةً ومدبرةً، لازمةً لطريق الشمس أحياناً وناكبةً عنها أحياناً، إمّا في الجنوب وإمّا في الشمال، ولكلّ نجم منها في عدوله عن طريقة الشمس مقدار إذا هو بلغه عاود في مسيره الرجوع إلى طريقة الشمس، وذلك المقدار من كلّ نجم منها مخالف لمقدار النجم الآخر.

فإذا عزلت هذه النجوم السبعة عن نجوم السماء سُمّيت الباقية كلّها ثابتة، تسمية على الأغلب من الأمر لأنها وإن كانت لها حركة مسير فإنَّ ذلك خفي يفوت الحس، إلّا في المدة الطويلة، وذلك لأنه في كلّ مائة عام درجة واحدة فلذلك سُمّيت ثابتةً.

واعلم أنَّ الطلوع والغروب، وتفصيل الليل والنهار، والمشارك والمغرب قد قال الله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ١٧] و﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ

والمغرب ﴿ [سورة المعارج، الآية: ٤٠] والمشرقان مشرقا الشتاء والصيف، وكذلك المغربان مغرباهما، والمشارك مشارق الأيام، وهي جميعاً بين المشرقين، وكذلك المغرب هي مغارب الأيام وهي بين المغربين، فمشرق الصيف مطلع الشمس في أطول يوم من السنة.

قال أبو حنيفة: وذلك قريب من مطلع السماء الزامح، بل مطلع السماء الزامح أشد ارتفاعاً في الشمال منه قليلاً. وكذلك مغرب الصيف هو على نحو ذلك من مغرب السماء الزامح، ومشرق الشتاء مطلع الشمس في أقصر يوم من السنة، وهو قريب من مطلع قلب العقرب، بل هو أشد انحداراً في الجنوب من مطلع قلب العقرب قليلاً، وكذلك مغرب الشتاء على نحو ذلك من مغرب قلب العقرب. فمشارك الأيام ومغاربها في جميع السنة بين هذين المشرقين والمغربين.

فإذا طلعت الشمس من أخفض مطالعها في أقصر يوم من السنة لم تزل بعد ذلك ترتفع في المطالع، فتطلع كل يوم من مطلع فوق مطالعها بالأمس، طالبةً مشرق الصيف فلا تزال على ذلك حتى تتوسط المشرقين، وذلك عند استواء الليل والنهار في الربيع، فذلك مشرق الاستواء، وهو قريب من مطلع السماء الأعزل، بل هو أميل منه قليلاً إلى مشرق الصيف من مطلع السماء الأعزل.

ثم تستمر على حالها من الارتفاع في المطالع إلى أن تبلغ مشرق الصيف الذي هو منتهاه، فإذا بلغت كثرت راجعةً في المطالع منحازةً نحو مشرق الاستواء، حتى إذا بلغت استوى الليل والنهار في الخريف، ثم استمرت منحدرَةً حتى تبلغ منتهى مشارق الشتاء الذي هو منتهاه. فهذا دأبها، وكذلك شأنها في المغرب على قياس ما بيناه في المطالع.

فأما القمر فإنه يتجاوز في مشرقه ومغربه مشرق الشمس ومغربيها، فيخرج عنهما في الجنوب والشمال قليلاً، فمشرقه ومغربه أوسع من مشرق الشمس ومغربيها، وإذا أهلك الهلال في منزلة من المنازل أهلك في الشهر الثاني في المنزلة الثالثة، ثم لا يزال بعد مهله ينقل كل ليلة إلى منزلة، حتى يستوفي منازلها في ثمان وعشرين ليلة ثم يستمر، فلا يرى حتى يهلك.

فربما كان حلوله المنازل بالمقارنة لها إما بالمجامعة، وإما بالمحاذاة من فوقها أو أسفل منها، وذلك المكالحة، يقال: كالح القمر وربما قصر واقتحم فنزل بالفرج والفرجة ما بين المنزلتين، ويقال له الوصل أيضاً، وهو يغيب في ليلة مهله في أدنى مفارقه الشمس لسنة أسبوع تمضي من الليل.

ثم يتأخر غروبه كل ليلة مقدار ستة أسبوع حتى يكون غروبه في الليلة السابعة نصف

الليل، وفي ليلة أربع عشرة مع طلوع الشمس، ويكون طلوعه فيها مع غروب الشمس، وقد يتقدم ذلك أحياناً ويتأخر على قدر تمام الشهر ونقصانه ثم يتأخر طلوعه كل ليلة مقدار سبعة أسابيع ساعة، حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، ويكون طلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة.

قال أبو حنيفة: وكلُّ هذا تقدير على مقارنة، ولا يكون أن يرى الهلال بالغداة في المشرق بين يدي الشمس وبالعشي في المغرب خلف الشمس في يوم واحد ولا يمكن ذلك، ولكن يمكن ذلك في يومين، فأما في ثلاثة فلا شك فيه، فإذا كان ذلك في يومين فهو حين يستسر ليلة واحدة وإذا كان في ثلاثة فهو حين يستسر ليلتين.

البَابُ الثَّامِنُ

في تقدير أوقات التَّهَجُّد التي ذكرها الله تعالى في كتابه عَنْ نَبِيِّهِ وَالصَّحَابَةِ
وَيَبِين ما يتصلُّ بها من ذكر حلول الشَّمْس البروج الاثني عشر

قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقِرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [سورة الإسراء،
الآية: ٧٨] وقال ثعلب: يذهب العرب بالدُّلُوك إلى غياب الشَّمْس وقول الشاعر شعراً:
هذا مقام قَدَمي رباح غدوة حَتَّى ذَهَبَتْ بُرَاح

يدل على هذا وأصله أَنَّ السَّاقِي يكتري على أن يستقي إلى غيبوبة الشَّمْس وهو في آخر
النهار يتبَصَّر هل غابت الشَّمْس، وقوله رباح أي تجعل راحتك فوق عينيه ويتبَصَّر، قال: وما
رُوي عن ابن عَبَّاس من أنه زوالها للشَّمْس يسلم للحديث، وغسق اللَّيْل ظلمته، فإذا زادت
فهي السَّدْفَة، وقال تعالى لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ
مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٩] قال أبو العباس ثعلب: قوله نافلة لك: يريد ليس
لأحد نافلة إلا للنَّبِيِّ ﷺ لأنه ليس من أحد إلا يخاف على نفسه، والنَّبِيُّ ﷺ قد غفر له ما
تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فعمله نافلة. فأما التَّهَجُّد فإنه يجعل من الأضداد، يقال: هجد
وهجد وتَهَجَّد إذا صَلَّى بالنَّهار، وهجد وهجد وتَهَجَّد إذا صَلَّى بالليل قائماً وقاعداً وأنشد في
النَّوم قال:

هَجَدْنَا فَقَدْ طَالَ الشُّرَى وَقَدَرْنَا أَنَّ خُضَّ الدَّهْرِ غَفْلُ

أي نومنا، وأنشد ابنُ الأعرابي في النَّوم:

ومنهلٍ من القطا مَورودٍ وَرَدَتْ بَيْنَ الْهَبِّ وَالْهَجُودِ

قال: الهجود: النَّوم كأنه أتاه في السَّحَر وهو بين النَّوم والانتباه. وقال تعالى: ﴿يَا
أَيُّهَا الْمَزْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نَضْفُءُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [سورة المزمل،
الآية: ١-٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ [سورة المزمل،
الآية: ٢٠] إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [سورة المزمل، الآية: ٢٠].

اعلم أنّه قد مرّ القولُ في شرحِ جوانِبِ هذه الآيِ بما تقدّم في البابِ الأوّل من هذا الكتاب وبقي تحديد الأوقات .

١ - الحمل : تحديد الأوقات وذكر البروج : فيقول : إذا حلّت الشمس برأس الحمل فغربت ، طلع السّمَاك الرّامحُ وزاغت الشّعرى العبور عن وسط السماء ، وقارب أن يتوسّط الشّعرى الغميصاء فصار خطّ نصف النّهار بينهما ، وخط نصف النّهار هو الآخذ من نقطة الجنوب إلى نقطة الشّمال ، فعليه يكونُ زوال الشمس وزوال جميع الكواكب مما صار بينه وبين الأفق الجنوبي ، وبين سمتِ الرّأس ، وعادتهم أن يُسمّوه خط نصف النّهار .

وما كان منه في الحاشية بين سمتِ الرّأس وبين نقطة الشّمال التي من عادتهم أن يسمّوه خط نصف اللّيل ، وعليه يكون زوال الكواكب الشماليّة . فإذا كان ثلث اللّيل طلع النّسر الواقع وقلب العقرب ، وغرب النّاجذ وهو رجل الجوزاء وإذا كان نصف اللّيل طلع الرّدف وهو الكوكب الذي يُسمّيه المنجمون ذنب الدجاجة ، وطلع النّسر الطائر على أثره بقليل ، وجنحت الشّعرى ، وجنوحها أن تميل للغروب ، وسقط العيوق ، وسقوطه غيبته ، فإذا كان ثلث اللّيل قاربت الفكة أن تتوسّط السّماء وزاغ السّمَاك الرّامح عن وسطِ السّماء فأدبر ، والإدبار أكثر من الزّيغان ، وضجع الكوكب الفرد ، فيصير على خط نصف اللّيل .

وإذا حلّت الشمسُ بوسط الحمل فغابت طلعة الفكة ، وزاغت الشّعرى الغميصاء فأدبر ، فإذا كان ثلث اللّيل استقلّ قلبُ العقرب والنّسر الواقع . واستقلالُ الكوكب أن تراه قد ارتفع قدر القامة في رأي العين ، وأكثر شيئاً وغابت الشّعرى العبور قبل ذلك ، وغاب المرزم ، وهو يد الجوزاء ، وجنح العيوق ، فإذا كان نصف اللّيل استقلّ النّسر الطائر وسقطت الغميصاء ، وسقط العيوق قبل ذلك ، وتوسّط السّمَاك الرّامح أو همّ بالتوسّط ، فإذا كان ثلث اللّيل قلبُ العقرب بالتوسّط ومنكب الفرس بالطلوع ، وزاغت الفكة وجنح قلبُ الأسد .

٢ - الثور : فإذا حلّت الشمسُ برأس الثور فغابت ، وتوسّط قلبُ الأسد وجنح رأس الغول والنّاجذ والدبران ، وزاغ الفرد ، فإذا كان ثلث اللّيل غاب العيوق وقارب السّمَاك الرّامح أن يتوسط وقرب طلوع النّسر الطائر ، وطلع الرّدف ، وإذا كان نصف اللّيل قاربت الفكة أن تتوسّط ، وزاغ السّمَاك الرّامح وجنح الفرد . فإذا كان ثلث اللّيل طلعت الكفّ الخضيب ، وهي الكوكب الشمالي من كوكب الفرع الثاني ، وغاب قلبُ الأسد ، وزاغ قلب العقرب فأدبر .

وإذا حلّت الشمسُ بوسط الثور فغربت طلوع النّسر الواقع وقد غاب الدبران قبيل ذلك ، وطلع العيوق وقلب العقرب ، وزاغ قلبُ الأسد فأدبر . فإذا كان ثلث اللّيل توسّط السّمَاك

واستقلَّ النَّسْرُ الطَّائِرَ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ طلع منكب الفرس وتوسَّط قلبُ العقرب، وجنح قلبُ الأسد، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ استقلَّت الكفُّ الخضيبُ، وزاغ قلبُ العقربِ فأذْبَرَ مُنْصَبًا وانصَبابه: إِمعانه في الرِّيْغان.

٣ - الجوزاء: فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بأوَّلِ الجوزاء فغربت استقلَّ قلبُ العقرب والنَّسْر الواقع، وجنح العيوق وغاب المرزم، فإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ توسَّطت الفَكَّةُ وهمت وهي إذا توسَّطت السَّماء، فصارت على خطِّ نصفِ اللَّيْلِ ببلدِ الدَّيْنُور، كانت على قمة الرَّأس، سواء أعني أنَّها تكون فوق رأس القلم، وقارب قلبُ العقرب التَّوسُّطَ وغاب الفرد، وإذا كان نصف اللَّيْلِ طلع الكفُّ الخضيبُ وسقط قلبُ الأسد، وزاغ قلبُ العقربِ فأذْبَرَ، وإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ طلع رأسُ الغول وتوسَّط النَّسْر الواقع.

فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسطِ الجوزاء فغرب، طلع الرَّدْفُ وجنحتِ الغُمُصاء وقارب طلوع النَّسْر الطَّائِرَ، فإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ زاغ قلبُ العقرب سقط قلبُ الأسد، وطلع منكب الفرس، فإذا كان نصف اللَّيْلِ قارب النَّسْر الطَّائِرَ التَّوسُّطَ وقارب قلبُ العقرب خطَّ القبلة، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ زاغ النَّسْر الطَّائِرَ وأذْبَرَ النَّسْر الواقع، وإدباره أن يبعدَ عن خطِّ نصف اللَّيْلِ، وطلع العيوق وتبعته الثُّريا وطلعت.

٤ - السرطان: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بأوَّلِ السرطان فغربت توسَّط السَّمَاءُ الرَّامِحَ واستقلَّ النَّسْر الطَّائِرَ، فإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ استقلَّت الكفُّ الخضيبُ وزاغ قلبُ العقربِ فأذْبَرَ، فإذا كان نصفُ اللَّيْلِ زاغ النَّسْر الواقع وَهَمَّ النَّسْر الطَّائِرَ بالتَّوسُّطَ وطلع رأسُ الغول، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع العيوق وتبعته الثُّريا وَهَمَّ الرَّدْفُ بالتَّوسُّطَ، وَغَوَّرَ قلبُ العقربِ وتغيَّره: أن يقع في الغور فلا يلبث أن يغيب. وضجع السَّمَاءُ الرَّامِحَ، وضجوعه أن يميل للمغيب وهو قبل التَّغْوِيرِ، والجنوح قبل الضَّجُوع والانصباب قبل الجنوح.

فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسطِ السرطان فغربت هَمَّتِ الفَكَّةُ وقلبُ العقربِ بالتَّوسُّطَ، وَغَوَّرَ الفرد، وإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ توسَّط النَّسْر الطَّائِرَ وطلع رأسُ الغول، وإذا كان نصفُ اللَّيْلِ طلع العيوق وطلعت الثُّريا على أثره، وزاغ النَّسْر الطَّائِرَ، وجنح قلبُ العقرب، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع الدَّبران، وغاب السَّمَاءُ الرَّامِحَ.

٥ - الأسد: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بأوَّلِ الأسد فغربت، طلع منكب الأسد وتوسَّط قلبُ العقربِ، وضجع قلبُ الأسد فإذا كان ثلثُ اللَّيْلِ استقلَّ رأسُ الغول، وتوسَّط النَّسْر الطَّائِرَ، وزاغ النَّسْر الواقع فأذْبَرَ، وإذا كان نصفُ اللَّيْلِ توسَّط الرَّدْفَ وضجع السَّمَاءُ الرَّامِحَ، وغاب قلبُ العقربِ، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ توسَّط منكبُ الفرسِ وَغَوَّرَتِ الفَكَّةُ.

وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط الأسد فغربت، طلعت الكَفُّ الخَضِيبُ وزاغ قلب العقرب فأذْبَرَ، وغاب قلب الأسد، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلع العَيُوقُ والثُّرَيَّا، وضجع قلب العقرب، وقَارَبَ الرَّدْفُ التَّوَسُّطَ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ استَقَلَّ الدِّبْرَانُ، وقارب منكَبُ الفرس أن يتوسَّطَ. وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع النَّاجِذُ، وتوسَّطَ الكَفُّ الخَضِيبُ واستَقَلَّ المرزَمُ.

٦ - السَّنْبِلَةُ: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بأوَّلِ السَّنْبِلَةِ فغربت، استَقَلَّ الكَفُّ الخَضِيبُ فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلع الدِّبْرَانُ وزاغ الرَّدْفُ، وغاب السَّمَاءُ الرَّامِحُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ زاغ منكَبُ الفرس، وغربت الفَكَّةُ وطلع المرزَمُ، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلعت الشَّعْرَى الغَمِصَاءُ، وهَمَّتِ الشَّعْرَى العبور بالطلوع.

وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط السَّنْبِلَةِ فغربت، قارب أن يطلع رأس الغول وَقَرَّبَ توسَّطَ نسر الواقع، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ استَقَلَّ الدِّبْرَانُ وقارب منكَبُ الفرس التَّوَسُّطَ، وجنحتِ الفَكَّةُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ استَقَلَّ النَّاجِذُ وزاغت الكَفُّ الخَضِيبُ، واستَقَلَّ المرزَمُ، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ غاب النَّسْرُ الطَّائِرُ واستَقَلَّتِ الشَّعْرَى، وجنح النَّسْرُ الواقع.

٧ - المِيزَانُ: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ برأس المِيزَانِ فغربت، طلع رأس الغول وزاغ النَّسْرُ الواقع، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ قارب المرزَمُ الطَّلُوعُ، وزاغ منكَبُ الفرس، وغابت الفَكَّةُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ طلعتِ الشَّعْرَى وانصبَّ النَّسْرَانُ، وانصبَّ بهما: تدليهما للغروب، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع قلب الأسد والكوكب الفرد بأثره ورأس الغول وغاب النَّسْرُ الواقع.

وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط المِيزَانِ، وغربت هَمَّ العَيُوقُ بالطلوع وتوسَّطَ النَّسْرُ الطَّائِرُ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلع النَّاجِذُ واستَقَلَّ المرزَمُ، وزاغت الكَفُّ الخَضِيبُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ استَقَلَّتِ الشَّعْرَى، وغاب النَّسْرُ الطَّائِرُ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ استَقَلَّ قلب الأسد والكوكب الفرد، وتوسَّطَ الدِّبْرَانُ.

٨ - العَقْرَبُ: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بأوَّلِ العَقْرَبِ فغربت، طلع العَيُوقُ وتبعته الثُّرَيَّا وزاغ النَّسْرُ الطَّائِرُ، وانصبَّ السَّمَاءُ الرَّامِحُ، وإذا كان ثلث اللَّيْلِ استَقَلَّ النَّاجِذُ، وقرب طلوع الشَّعْرَيْنِ، وانصبَّ النَّسْرُ الطَّائِرُ، وإذا انتصف اللَّيْلِ طلع قلب الأسد، وزاغ رأسُ الغول، وغاب النَّسْرُ الواقع، وإذا كان ثلثا اللَّيْلِ توسَّطَ النَّاجِذُ وزاغ العَيُوقُ، وضجع منكَبُ الفرس وغاب الرَّدْفُ.

وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط العَقْرَبِ، توسَّطَ الرَّدْفُ وضجع السَّمَاءُ الرَّامِحُ فإذا كان ثلث اللَّيْلِ اقتربت الشَّعْرَى، واقتربا بهما دون الاستقلال، وضجع النَّسْرُ الطَّائِرُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ استَقَلَّ قلب الأسد والكوكب الفرد، وهَمَّ الدِّبْرَانُ بالتَّوَسُّطَ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ هَمَّتِ

الشَّعْرَى العبور بالتَّوسُّطِ، وغاب الرَّدْف قبل ذلك، وزاغ المرزم، وانصَبَّت الكَفُّ الخَضِيبُ.

٩ - القوس: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بِأَوَّلِ القوسِ فغربت، طلع الدَّبران وغاب السَّمَاك الرَّامِح اتفاقاً، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ تَوَسَّطَ رَأْسُ الغول، وَهَمَّ قَلْبُ العقرب بالظُّلُوع، فإذا كان نصف اللَّيْلِ هَمَّ النَّاجِذُ بالتَّوَسُّطِ، وزاغ العَيُوقُ قليلاً، وَعَوَّرَ الرَّدْفُ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ أَشْخَصَ السَّمَاكُ، وإشْخَصَهُ: إقرانه، وهو نهوضه في المطلع قليلاً، وتوسَّطَ الشَّعْرَى الغميصاء، وزاغت العَيُوقُ.

فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط القوسِ فغربت، تَوَسَّطَ منكب الفرس وغَوَّرَتِ الفَكَّةُ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ استَقَلَّ قَلْبُ الأسدِ، وقاربَ الدَّبران التَّوَسُّطُ، وطلع الفرد، فإذا كان نصفُ اللَّيْلِ زاغ المرزم، وغرب قبل ذلك منكب الفرس، وقاربت الشَّعْرَى العبور التَّوسُّطِ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلعت الفَكَّةُ.

١٠ - الجدي: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بِأَوَّلِ الجدي فغربت، طلع النَّاجِذُ واستَقَلَّ المرزم، وتوسَّطَتِ الكَفُّ الخَضِيبُ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ زاغ الدَّبران، وَهَمَّ النَّاجِذُ بالتَّوَسُّطِ، وُضِجَ الرَّدْفُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ طلع السَّمَاك الرَّامِحُ، وغابت الكَفُّ الخَضِيبُ، وَهَمَّتِ الشَّعْرَى الغميصاء بالتَّوَسُّطِ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ هَمَّ قَلْبُ الأسدِ بالتَّوَسُّطِ، وجنح رأس الغول وتوسَّطَ الفردُ.

فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط الجدي، فغربت، طلعت الشَّعْرَى، وجنح النَّسْر الطَّائِرُ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ زاغ المرزم، وغاب منكب الفرس، وغاب قبل ذلك الرَّدْفُ، فإذا كان نصف اللَّيْلِ طلعت الفَكَّةُ، وزاغت الشَّعْرَى الغميصاء، فَأَدْبَرَتْ فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ هَمَّ الهَرَارَانُ بالظُّلُوعِ وغابَ النَّاجِذُ والدَّبران ورأس الغول.

١١ - الدَّلُو: فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بِأَوَّلِ الدَّلُو فغربت، قارب رأس الغول التَّوَسُّطِ، واستَقَلَّتِ الشَّعْرَى فارتفعتا فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلع السَّمَاك الرَّامِحُ وغابت الكَفُّ الخَضِيبُ وزاغت الشَّعْرَى العبور، فإذا كان نصف اللَّيْلِ قارب قلب الأسدِ التَّوَسُّطِ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع الهَرَارَانُ، وهما قلب العقرب والنَّسْر الواقع، وُضِجَتِ الشَّعْرَى العبور والمرزم.

وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط الدَّلُو فغربت أَشْخَصَ قَلْبُ الأسدِ، وطلع الفرد، وقارب الدَّبران التَّوَسُّطِ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلعت الفَكَّةُ وزاغت الشَّعْرَى الغميصاء، فَأَدْبَرَتْ بعيداً، فإذا كان نصف اللَّيْلِ غاب رأس الغول، وَرَجُلُ الجوزاءِ، وزاغ قَلْبُ الأسدِ، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ طلع الرَّدْفُ وَعَوَّرَ العَيُوقُ.

١٢ - الحوت: وإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بِأَوَّلِ الحوتِ فغربت، زاغ الدِّبران وتوسَّطَ العَيوق، وغَوَّرَ الرِّدف، وَهَمَّ النَّاجِذُ بِالتَّوَسُّطِ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ قَارَبَ الأسدُ التَّوَسُّطَ، واستقلَّتْ الفكَّةُ فارتفعت، فإذا كان نصف اللَّيْلِ طلع الهرازان وجنحتِ الشَّعْرَى اليمانية، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ طلع النسر الطَّائِرُ وغَوَّرَتِ الشَّعْرَى الغميصاء، وغاب العَيوق.

فإذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بوسط الحوت فغربت، زاغ المرزم، وغاب منكب الفرس قبل ذلك، وَهَمَّتِ الشَّعْرَى العبور بالتَّوَسُّطِ، فإذا كان ثلث اللَّيْلِ زاغ قلب الأسد، وغَوَّرَ رأس الغول، ورجُلُ الجوزاء، فإذا كان نصف اللَّيْلِ غاب المرزم والشَّعْرَى العبور قبيل ذلك، واستقلَّ النسر الواقع، وقارب طلوع الرِّدف، فإذا كان ثلثا اللَّيْلِ توسَّطَ السَّمَاءُ الرَّامِحَ واستقلَّ النسر الطَّائِرُ.

الباب التاسع

في ذكرِ البَوارِحِ والأمطارِ، مقسِّمةً على الفُصولِ والبُروجِ،
وفي ذِكرِ المُراقِبةِ

اعلم أنَّ جميعَ أمطارِ السَّنةِ ثمانية أصنافٍ، وهي الوَسْمِي - والوَلِي - والشَّتِيء - والدَّفِيء - والصَّيْف - والحَمِيم - والرَّمْضِي - والخَرِيفِي - ولكلِّ صنفٍ منها وقتٌ عرفته العربُ بمساقِطِ منازلِ النَّهارِ الثَّمَانِيَةِ والعَشْرِينَ التي ذكرها الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس، الآية: ٣٩] وبالبروجِ الاثني عشر لأنَّ كلَّ برجٍ منزلانِ وثلاث من هذه الثَّمَانِيَةِ والعَشْرِينَ، وذلك حكمٌ منهم على مناجعهم ومزالفهم بالتجارات، وهو إلى الآن على ذلك، وإنَّ كان كثيرٌ من أطرافِ الأرضِ وأوساطها يختلف، فقد قيل: إنَّ أهلَ اليمنِ يمطرون في الشَّتاءِ ويخصبون في الصَّيْفِ.

قال أبو حنيفة: إذا أَحَبَبْتَ أَنْ تَسْتَيْقِنَ ذلك فانظر إلى زمانِ مَدِّ النَّيْلِ، فإنَّه في صَمِيمِ القَيْظِ، وإنَّما يمدُّ من أمطارِ البلادِ التي منها يقبل، وقال بعضُ أصحابِ الخليل، وقد صَنَّفَ أبوابَ الانتفاعِ بالمطر: إنَّ من المغربِ من مطره الذي يغيثه وينفعه الخريف، ويكون أكثرَ مطرهم وأغزره وأنفعه لهم.

وقال أكثرهم: إنَّ مطرَ الرِّبيعِ ضارٌّ، وهم أهلُ اليمنِ ومَن يليهم من تهامة. ومنهم مَن يحسبه الوَسْمِي، وهو مطرُ الشَّتاءِ، ومجيئه الرِّبيع، ويكون الخريفُ ضاراً يفسدُ كَلأهم ويلبده، وهم أهلُ العراقِ ومَن قاربهم من نجد، ومنهم مَن يصيبه مطرُ السَّنةِ كُلِّها وهم أهلُ نجدٍ الذين تآخموا نجداً، أي حاذوهم، وأهلُ العراقِ، ومَن قاربهم مِنَ الشَّامِ ونجدٍ، وما بينهما وبين خراسانِ مطرهم الشَّتوي والرِّيعي، ومطرُ اليمنِ وما قاربها من تهامة الصَّيفي، والخريفِي. قال: ومن تهامة ونجد ما تَعْمَهُ هذه الأمطارُ كُلِّها، وكذلك طبرستان - والذِّيلم - وأرمينية - وجبلان - وجبل القيق. والعربُ تقول: إنَّه ما اجتمع مطرُ الثَّريا في الوَسْمِي ومطرُ الجبهة في الرِّبيعِ إلَّا كان تامًّا الخصبُ ذلك العام، كثيرُ الكَلأ.

وهذا كما حكوا عن الحرم أنه إذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب في تلك السنة بالعراق، وإذا أصاب شق الشام كان الخصب والمطر في تلك السنة بالشام، وإذا عمّ جوانب البيت كان المطر والخصب عاماً في البلدان.

واعلم أنه كما أن لكل نجم نوء فله بارح أيضاً وهي البوارح وهي الرياح. والعرب تقول: فعلنا كذا أيام البوارح، وهي رياح النجم - والدبران - والجوزاء - والشعري - والعقرب - وأنشد الأصمعي:

أيا بارح الجوزاء مالك لا ترى عيالك قد أمسوا مراميك جوعاً
وقال آخر شعراً:

أيذهب بارح الجوزاء عني ولم أذعر هوامك بالسّنار
وقال آخر شعراً:

أيا بارح الجوزاء مالك لا تجي وقد فني مال الشيخ غير قعود

وأحبوا أن تهب رياح الجوزاء حتى إذا طردوا إبلاً وسرقوها عفت الرياح آثارها وآثارهم، فأمنوا أن يقتفى أثرهم، واسم ما يحدث من ريح أو حر بارح على التشبيه بالبارح من الوحش، لأنه قد يطلع مما يلي شمال الناظر، ويأخذ على يمينه كالوحش.

وقال أبو حنيفة: زعم قوم لا معرفة لهم باللغة، أن البارح ضدّ النوء، وأنه طلوع الرقيب فيقولون: برح الكوكب: إذا طلع، قالوا وذلك لأنه يُيامن البيت الحرام إذا طلع ويُيسره إذا غرب، وإن قال: خذ من يمينك إلى يسارك فهو بارح. والذي قالوه ليس بمدفوع، لكننا لم نجد العلماء يعرفون ما قالوه في الكوكب، ولا رويوا ذلك عن العرب، قال أبو زيد: البارح: الشمال الحارة يكون في الصيف. وقال الفراء: البوارح: الرياح الصيفية، وسُميت بذلك لأنها هي السموم التي تأتي من الشمال، وأنشد لذي الرمة شعراً:

تلوث على معارفنا ونرمي محاجرنا شاميةً سُموماً

وقال أبو عمرو: وهي ريح السموم، وقال يزيد بن القحيف: البارح: شدة الريح في الحرّ، وقال مرار في صحة ما قالوا شعراً:

تراها تدور لغيرانها ويهمجها بارح ذو عما

يهمجها: يرمي بها في كنسها، وهي غيرانها، وجعلها ذا عما لعرائه والعماء أصله في السحاب، وقال الأخطل شعراً:

شَرَفْنَ إِذْ عَصَرَ الْعِيدَانَ بَارَحَهَا وَأَيَسَّتْ عَنْ مَجْرَى السَّنَةِ الْخَضِرِ
يقول: جَفَّ كُلُّ شَيْءٍ أَخْضَرَ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مِنْ دَرَعٍ يَسْقَى. والسَّنة سنة الحراث،
ومجرى السَّنة الحرث، وقال بعضهم: قيل له بارح: لأنه يبرح بالتراب أي يذهب به، وقيل
أيضاً: البارح البين، كما يقال برح الخفاء إذا بان بما كان يخفى. ويجوز أن يكون من
البرح، وهو الشَّدة لما كان ينسب البرد والأمطار والسَّموم والحرور إلى نوته معه. ومنه
البرح ويرحين وبنات برح وبنات برح. وقال أبو زيد: إذا هَبَّتْ الجنوب بعد دوام الشَّمال في
ذلك فرسخ أي راحة وفرجة. والرياح أربع بإجماع من الأمم. وإنَّما اختلفت باختلاف
مَهابَّها في أقطار الأرض الأربعة، وهي: مطلع الاستواء - ومغربه - وَجْهة القطب الجنوبي -
وجهة القطب الشمالي، فالتّي تهبُّ من مغرب الاستواء هي الغربية وتسمّى الدَّبور، وهي
التي سمّاها الله عقيماً.

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «نَصَرْتُ بِالضَّبِّ وَأَهْلَيْتُ الْعَادَّ بِالذَّبُورِ» والتي تهبُّ من جهة القطب
الجنوبي هي الجنوب وتسمّى الأزيب. والنَّعامي وهي تهبُّ من جهة القطب الشمالي وتسمى
الشَّمال، وهي الجرياء، ومحوة لأنَّها تبدّد السَّحاب وتمحوه، ونسعاً ومسعاً وهي الشَّامية.

وقال ابن الأعرابي: مهبُّ الجنوب من مطلع سهيل إلى مطلع الثُّريا، ومهبُّ الضَّبِّ من
مطلع الثُّريا إلى بنات نعش، ومهبُّ الشَّمال من بنات نعش إلى مسقط النُّسر الطائر، ومهبُّ
الدَّبور من مسقط النُّسر الطائر إلى مطلع سهيل، والجنوب والدَّبور لهما هيف وهو الرِّيح
الحارة الصَّيفية، والضَّبِّ والشَّمال لا هيف لهما. والعرب تجعلُ أبواب بيوتها حذاء الضَّبِّ
ومطلع الشَّمْس.

وقال الأصمعي: ما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر وما بإزائها ممّا يستقبلها شمال
وما جاء من وراء بيت الله الحرام، دبور، وما كان قُبالة ذلك فهو ضَبّاً وقال غير الأصمعي
وابن الأعرابي: الجنوب التي تهبُّ عن يمين القبلة شتاءً والضَّبِّ بإزائها، وقالوا كلّهم كلّ رِيحٍ
تهبُّ بين مَهيي ريحين فهي نكباء، لِتَنَكُّبُها عن المهاب المعروفة، والجمع نكب، وتميل في
طبعها إلى الرِّيح التي في مهبها أقرب إليها.

وقال أبو زيد: النُّكباء التي لا يختلف فيها: هي التي بين الضَّبِّ والشَّمال والنُّكباء ذات
ثمان، لأنَّ بين كلّ رِيحٍ وأختها ريحين، وكلّ واحدة إلى جنب صاحبتها وهبوبها في أيام
الشَّتاء أكثر، ومن رياح الشَّتاء الحُرْجَفِ والبليل، ومن رياح الصَّيف الهيف والسَّموم
والحرور، فإنَّ هَبَّتْ ليلاً في ابتداء الرِّبيع فهي الخاسة. وسَيَجِيءُ القول في أجناس الرِّياح
مستقصى في موضعه، واللّوآقح تهبُّ في الرِّبيع لا غير، وهي الجنوب، والضَّبِّ والشَّمال
وتسمّى المستنابات، ومعناه المستنقعات من الثَّواب، ويجوز أن يكون المسؤولات النُّوب

في ذكر البوارح والأمطار، مقسمة على الفصول والبروج، وفي ذكر المراقبة ————— ١٦٣

أي الرجوع. وروى ابن الأعرابي أنه قُلَّ ما تهبُّ الشَّمال إلا وإذا جاء اللَّيْل ضعفت أو سقطت ولذلك قالوا في أحاديثهم: إِنَّ الجنوب قالت للشَّمال إِنَّ لي عليك فضلاً أنا أُسْري وأنتِ لا تسرين، فقالت الشَّمال: إِنَّ الحرَّة لا تسري باللَّيْل وهذا كما ترى.

وقال أبو زيد: إِنَّ أكثر هبوب الشَّمال باللَّيْل، وأنه قَلَّمَا ينتفج من الرِّيح باللَّيْل إلا الشَّمال، وربما انتفجت على النَّاس بعد نومهم، فتكاد تهلكهم بالقر من آخر ليْلهم وقد كان أوَّل ليْلهم دفيئاً، وهذا الخلاف فيما أتينا لاختلاف البقاع، وتفاوت الأزمان والله أعلم. وأنشد الأصمعي يصف النِّساء:

تَصَيِّفْنَ حَتَّى أَوْجَفَ الْبَارِحَ السَّفَا وَنَشَّتْ جَرَامِيدُ اللَّوَا وَالْمَصَانِعِ

فالمصانع وإيجاف البارح السَّفا: مرَّ به على وجه الأرض، وهو من الوجيف وهو السَّرعَة، والسَّفا ما تساقط من يبيس البقل، وقال أيضاً:

أَلْفَنَ اللَّوَى حَتَّى إِذَا الْبُرُوقُ ارْتَمَى بِهِ بَارِحٌ رَاحَ مِنَ الصَّيْفِ شَامِسُ

والبروق من دفيء اللَّبْت، وفي المثل: أشكر من البروق، لأنَّه ينبت بالغيم والرَّاح الشديد من الرِّيح، ويشبه هذا قوله:

أَقْمَنَ عَلَى بَوَارِحِ كُلِّ نَجْمٍ وَطَيَّرَتِ الْعَوَاصِفُ بِالْتَّمَامِ
وَالْبَارِحَ مُذَكَّرٌ، وَإِنْ كَانَتِ الرِّيحُ مُؤَنَّثَةً.

قال أبو حنيفة: قد حكى بعضهم أَنَّ العرب كانت تقول لا بدَّ لنوء كل كوكب من أن يكون فيه مطر أو ريح أو غيم أو حر - أو برد - ثم كانوا ينسبون ما كان فيه إليه، والأعمَّ الأشهر أَنَّ الأمطار مقصور ذكرها على الأنواء خاصَّةً. فما يكاد يسمع بشيء منها منسوباً إلى طلوع ولا يحفظ، وأما البوارح فأكثر الأمر فيها أن ينسب إلى طلوع نجوم الحرِّ خاصة لأنها رياح الصَّيف، وربما نسب شيء منها إلى النَّوَة وذلك قليل.

وقال ذو الرمة:

حَدَا بَارِحُ الْجُوزَاءِ أَعْرَافُ مَوْرِهِ بِهَا وَعَجَاجُ الْعَقْرِبِ الْمُتَنَاحِ

الأعراف: الأوائل، المور: الغبار وأراد بعجاج العقرب: عجاج بارح العقرب كقوله: شَقَّهَا هبوب الثُّريا والتزام التناثف، أراد هبوب بارح الثُّريا فهذا ذكر البوارح.

فصل

في المراقبة والمطالعة

واعلم أنَّ لكلَّ برج ومنزل رقيباً من المنازل والبروج، فرقيب كلِّ برج البرج السَّابع، ورقيب كلِّ منزل المنزل الخامس عشر، ومعنى الرِّقَب الذي في غروبه طلوع الآخر، وهو مأخوذ من المراقبة، لأنه يراقب بالطلوع غروب صاحبه. قال شعراً:

أَحَقُّ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ لَاقِيًا بُثِينَةً أَوْ تَلَقَى الثَّرِيًّا رَقِيبَهَا!
والمعنى لست لاقِيها أبداً، لأنَّ هذا لا يكون أبداً، وكيف يلقيان أحدهما إذا كان في المغرب كان الآخر في المشرق؟ وقال:

قُدُورُهُمْ تَغْلِي أَمَامَ قَبَابِهِمْ إِذَا مَا الثَّرِيَا غَابَ قَصِراً رَقِيبَهَا

فمراقبة الأبراج للأبراج والمنازل للمنازل، على ما ذكرناه، ومن هذه البروج ما يشاكل اسمه صورته كالعقرب والحوت، ومنها ما لا يشاكل اسمه صورته، والبروج الاثنا عشر سُمِّيَ بعضها بأسماء. فالحمل يسمَّى: الكبش، والجوزاء: الثَّوَمِين، والسَّنبلة: العذراء، والعقرب: الصَّوْرَة، والقوس: الرَّامِي، والحوت: السَّمَكَة. ويُسمَّى أيضاً الرِّشَاء، ولكلَّ برج منزلان وثلاثة من منازل القمر، حتَّى يستوفيها. فالحمل رقيه الميزان، والثور رقيه العقرب، والجوزاء رقيه القوس، والسرطان رقيه الجدي، والأسد رقيه الدَّلو، والسَّنبلة رقيه الحوت.

والمطالعة هو أن يطلع نجمان معاً، أو متقاربين، ولا يكون ذلك في نجوم الآخذ ولا يطلع نجمان منها معاً، ولكن يكون في غيرها، وفيها مع غيرها وذلك كمطالعة الثريا بالعيوق ولذلك يقول شاعرهم:

فإنَّ صديا والمدامة ما مشى لكَا النَّجْمِ والعيوق ما طَلَعَا معاً

ومطالعة الشَّعْرَى الغميصاء الشَّعْرَى العبور، ومطالعة الأعزل للزَّامح، ومطالعة النَّسر الطَّائر للعناء، ومطالعة الجبهة سهيلاً، فإنَّ كلَّ نجم إذا طلع معه الآخر أو قريباً.

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى:

وصاحب المقدار والرَّدِيف أفنى الوفا بعد ألفوف

الرَّدِيف النَّجْم الذي إذا نأى من المشرق انغمس رقيه في المغرب، وإنما يعني أن تعاقب النَّجوم على مَرِّ الدَّهْور ولا يبقى أحد.

البابُ العاشرُ

في ذِكْرِ الأعياد، والأشهرِ الحُرُم، والأيامِ المعلوماتِ، والأيامِ
المعدودات، والصلاة الوسطى

حكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: سألت أعرابياً فصيحاً فقلت: ما الأشهر الحُرُم؟ فقال: ثلاثة سرد، واحد فرد. قال ثعلب: فالسرد المتتابعة وهو ذو القعدة - وذو الحجة - والمحرم - والفرد: رجب. وهذا قول ابن عباس ويكون من سنتين، وقال غير ابن عباس: هي من سنة واحدة فعددها المحرم وهو أولها - والثاني: رجب - والثالث: ذو القعدة - والرابع: ذو الحجة. واحتج هذا بأنه قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٦] يعني من الاثني عشر، فجعلها من سنة واحدة.

قال ثعلب: والاختيار عندي قول ابن عباس وهو كلام العرب، وإن كان لفظها من سنتين فهي تعود إلى الاثني عشر إلى سنة واحدة، ورؤي عن النبي ﷺ: «دخلت العمرة في الحج» أي في أشهر الحج ولم تكن العرب تعرف العمرة في أشهر الحج، بل كانت العمرة فيها عندهم من أفجر الفجور، وكانوا يقولون: إذا انسلخ صفر، ونبت الوبر، وغفا الأثر، وبرأ الدبر، حلت العمرة لمن اعتمر. فلما اعتمر رسول الله ﷺ في أشهر الحج دخلت العمرة في الحج، أي في أشهرها، وروى سفيان بن عيينة أن رسول الله ﷺ كتب لآل حزم: «إن العمرة الحج الأصغر»، فدل كلامه على أن ثم أكبر.

ورؤي عن عطاء أنه قال: من اعتمر ثم مات ولم يحج أجزأت عنه حجة الإسلام، يذهب إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٩٧] ورؤي عن عليّ كرم الله وجهه: الحج الأكبر يوم النحر، محتجاً بقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٢] وهي عشرون من ذي الحجة - والمحرم - وصفر - وشهر ربيع الأول - وعشر من ربيع الآخر - قال: فلو كان يوم عرفة لكان أربعة أشهر ويوماً، وكان ابن عباس يقول: الحج الأكبر يوم عرفة، وكان رسول الله ﷺ، خرج مهلاً بالحج ويقول

١٦٦ — في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى

بعضهم: خرج لغمرة، وقال بعضهم؛ خرج قارناً وإنما خرج ينتظر أمر الله، وعلم الله أنها حجة لا يحج بعدها فجمع ذلك كله له في شهر واحد، ليكون جميع ذلك سنة لأُمَّته، فلما طاف بالبيت ثم رأى أن يجعلها عمرة، وحبس من كان معه على هذي، أقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلْبُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٦] فجمعت له العمرة والحج.

وقد قال قوم: إِنَّ الأربعة الحرم هي التي أجَّلها رسولُ الله ﷺ للمُشركين فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٢] وهي شَوَّال - وذو القعدة - وذو الحجة - والمحرَّم. ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٥] وقال: إِنَّ الأربعة التي جعلت حلاً من عشر ذي الحجة إلى عشر من ربيع الآخر، وجعلها حُرماً، كما قال: مَكَّة حَرَمُ إِبْرَاهِيمَ، والمدينة حَرَمِي. وَرُوِيَ أيضاً أنه حرم ما بين لابتي المدينة يعني حَرَّتَيْهَا، وفي آخر حَرَم ما بين عير إلى ور وهما جبلان. فأما قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٧] فإنه يريد أوقات الحج أشهر، أو أشهر الحج أشهر. وهذا خطاب يدلُّ على معرفة العرب بشهور معلومة كانوا فيها يحجُّون، فأقرَّ الله أمرها في الإسلام على ما كانت عليه ودعا إلى إقامة الحج فيها.

واعلم أنها أوقات الحج دون غيرها، وأنَّ مَنْ فرضَ على نفسه فيها الحجَّ فَمِنَ السنة أن يترك الرِّفث والفسوق والجِدال، ومعنى فرض الرِّجْل على نفسه الحج إهلاله به، والإهلال التَّلبية، وأصله رفع الصوت. وَرُوِيَ عن الشعبي وابن عمر أنَّها شَوَّال - وذو القعدة - وذو الحجة - وقال بعضهم: له من ذي الحجة عشر ليالٍ، فكأنَّه جعل الشهرين وبعض الثالث أشهراً، وهذا في القياس قريب لأنَّه كما جاز أن يُسمى الشهر ذا الحجة، وإن كانت الحجة في بعض أيامه، كذلك يجوز أن يُسمى شهرُ الحجِّ، وإنَّ لم يكن جميع أيامه مصروفاً إليه.

وحُكي عن ابن عباس أنه قال: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات الأيام العشرة من أوَّل ذي الحجة. وقال عطاء: الأيام المعدودات أيام منى ويوم التَّروية، سُمِّيَ بذلك لأنَّهم كانوا يترَوون من الماء، ويتزوَّدونه معهم، ويوم عرفة لا يدخله الألف واللام، وإنَّما سُمِّيَ عرفة وعرفات، لأنَّ مَنْ حضرها كانوا يتعارفون بها. وقال بعضهم: بل لأنَّ جبرائيل عليه السَّلام طاف بإبراهيم صلوات الله عليه يديره على المشاهد، ويوقفه عليها، ويقول له: حالاً بعد حال عرفت عرفت، والعروف الحدود، والواحد عرفة. وقيل: سُمِّيَتْ عرفة بذلك كأنَّه عَرَفَ حدَّه لتمييزه عن غيره مِنَ الأرضين، ولكونه معرفة امتنع من دخول الألف واللام عليه. وحُكي؛ طار القطا عرفاً عرفاً، بعضها خلف بعض.

وأما الأعراف: فكل موضع مرتفع عند العرب ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ

في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى — ١٦٧

رِجَالٌ ﴿سورة الأعراف، الآية: ٤٦﴾، ولا يمتنع أن يكون عرفة وعَرَفات مشتقاً من جميع ذلك والتعريف: الوقوف بعرفات، وتعظيم يوم عرفة إنْ نصبَ الضالة فتنادي عليه وإنْ سَمَّيت رجلاً بعرفات صرفته، ولم يكن التاء فيه كالتاء من عرفة لو سَمَّيت بها، وذلك أنَّ التاء من عرفات بإزاء التَّون في المسلمين، إذ كان هذا الجمع من المؤنث بإزاء جمع المذكر الصحيح، ولذلك لما كان ذاك في موضع النَّصب والجَر بالياء، جعل هذا في موضع النَّصب والجَر بالكسرة، لأنَّ الكسرة أخت الياء، فلما كان الأمر على ذلك لم يكن كالتاء التي يبدل منها في الوقف هاء كالتي في طلحة وعزة، وكان يمتنع الصَّرف في المعرفة. وفي القرآن: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٨] فصرفه وإنْ كان معرفة.

ومشاعر الحجِّ واحدها مَشْعَر وهو في موضع المنسك، وكذلك الشَّعيرة من شعائر الحجِّ، وهي علاماته وأفعاله المختصة به، كالسَّعي والطَّواف والحلق والدَّبْح، وكلّ ذلك يجوز أن يكون من شعرت، وليت شعري، فيرجع إلى العلم كما أنَّ عرفة وعرفات في تصاريفه يرجع إلى المعرفة، وفي القرآن: ﴿وَالْبُذُنْ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٣٦] وقال الخليل: يُقال: أشعرتُ هذه البدنة لله نسكاً أي: جعلتها شعيرة تهدي، قال: وقال بعضهم: إشعارها أن يوجأ سنامها بسكين فيسيل الدَّم على جنبها فيعلم أنَّها هَدْي. أو يُعلم بعلامة تُشدُّ في سنامها. وكرة قوم من الفقهاء تدميتها، وقالوا: إذا قُلِّدَتْ فقد أُشِعِرَتْ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣] قيل: هو يوم النَّحر، وقيل: هو يوم عرفة وكانوا يسمون العمرة: الحج الأصغر.

ويوم النَّحر: سُمِّيَ به لأنَّهم كانوا ينحرون البُذُن.

ويوم القر: بعده، وهو الذي يسميه العامة يوم الرِّؤوس، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الناس يستقرون فيه بمنى لا يبرحونها.

ويوم النفر: سُمِّيَ به لأنَّ النَّاس ينفرون فيه متعجلين.

ويقال: عيد الفطر، وعيد الإفطار، وعيد الضَّحى والعيد أصله من عاد يعود لِعَوْدِهِ كُلِّ سنو، لكن واوه انقلبت ياء لانكسار ما قبلها، ثم جعل البدل لازماً حتى كأنه اسمٌ وُضع لليوم، لا مناسبة بينه وبين المشتق منه، وهم يفعلون مثل هذا إذا أرادوا التَّخصيص، لذلك قيل في تصغيره: عَيْدٌ، وفي جَمْعِهِ: أعياد ولم يَجْرِ مجرى قوله: ربح ورويحة وأرواح،

١٦٨ — في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى

ومما يشبه هذا قوله: يا دارمئة بالعلياء فالسند هو من العلو، فقلّب الواو ياء، وقوله: فما أمّ خشفٌ بالعلاية مُشدّن. مثله وليس قبل واحد منهما ما يوجب القلب، لكنهم يفعلون ذلك كثيراً في الأعلام وما يجري مجراها، وقد قالوا: الشكاية وحبيت الخراج حباوة ونحو منها، ما حكاه سيبويه من القواية قال عمرو بن بركة:

ومبال بأصحاب الكرى عالياتها فإني على أمر القواية حازم

وهو فعالة من القوة، وأصلها قواوة وكأنه كره اكتناف الواوين للألف.

والأضحى، إذا دُكّر: يُراد به اليوم، وإذا أُنت أريد به الساعة، والتأنيث أجود. ويُقال: دنت الأضحى، وقيل: سُميت الأضحى لأنها تذبح ضحوة.

والفطر: من فطرت الناقة إذا حلبتها فانفتحت رؤوس أخلافها لأن الأفواه تفتح بالأكل والشرب، ويقال: أضحاة وأضحى وضحية وضحايا والأضحى يُدكّر ويؤنث، فمن دكّر ذهب إلى اليوم، وأنشد الأصمعي:

رأيتكم بني الحَدواء لما دنا الأضحى وصلّت اللحام

وأنشد الثوري في تأنيثه:

قد جاءت الأضحى ومالي فلس وقد خشيت أن تسيل النفس

وقال هشام بن معاوية: حكى الأصمعي: أضحاة وسُمي الأضحى بجمع أضحاة فأنت لهذا المعنى وجاء في الحديث: «على كل مسلم عتيرة وأضحاة». وقال هشام: التأنيث في الأضحى أكثر من التذكير، وجمع الأضحى أضاحي، وجمع الضحية ضحايا.

وأيام التشريق سُميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تُشرق للشمس، وقيل: بل سُميت بذلك لقولهم: أشرق بُير كيما نغير، وقال ابن الأعرابي: سُميت بذلك لأن الهدي لا يُنحر حتى تشرق الشمس.

وقال أحمد بن يحيى: أنا أذهب إلى أن الأيام المعلومات في الأيام المعدودات لأنه جاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٨] فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا أَيَّامُ نَحْرِ.

ويوم عاشوراء في المحرم، ويقول الفقهاء: يوم عاشوراء التاسع من المحرم، وحكى بعضهم أنه سُئل النَّضر بن شميل عن التشريق، فقال: هو من قولهم أشرق بُير: أي لتطلع الشمس، وقيل: أيام التشريق: لأنهم يشرقون اللحم، قال: فقلت له: إن وكيعاً حدّثنا عن

في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى — ١٦٩

شعبة عن سيار عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ذبيح إلا بعد التشريق» فقال وكيع: التشريق الصلوة، قال: هذا حسن. قال النضر: وقد جاء في الحديث: «لا الجمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع»، والتفسير موافق للحديث، فأما قول أبي ذؤيب بصفاء المشرق كل يوم يقرع. فقد حكى عن أبي عمرو الشيباني أنه أنشد بصفاء المشرق فأنكره، وقال: المشرق حصن بالبحرين، والصفاء موضع، فما لأبي ذؤيب والبحرين، إنما هو المشرق، وكان ابن الأعرابي يرويه المشرق، وحكى عن الأصمعي أنه أنشد كل يوم، فقال الله أكرم من ذاك هو: كل حين. ذهب الأصمعي إلى أن الحج يقال: كل سنة لا كل يوم، والحين يقع في كلامهم على المدة الطويلة والسنين الكثيرة. وقال الأصمعي: المشرق المصلى، ومسجد الخيف هو المشرق. وقال شعبة بن الحجاج: خرجت أقود سماك بن حرب في يوم عيد، فقال: امض بنا إلى المشرق يعني المصلى. وقيل: يعني مسجد العيدين، وقال أبو عبيدة: المشرق سوق الطائف، وقال الباهلي: جبل البرام.

بيان الصلاة الوسطى:

فأما الصلوة الوسطى: فقد اختلفوا فيها: فروي عن علي كرم الله وجهه أنه الفجر، وقال غيره: هي العصر، وقد جاء القرآن في تأكيد أمر الفجر بما يصحح قول علي فيه، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] وَكُنَّا الصَّلَوتَيْنِ متوسطة لِسَائِرِ الصَّلَوَاتِ، فإذا جعلت صلوة الفجر الوسطى فهي بين صلوات الليل والنهار والظهر والعصر، والليل والعشاء أن الأولى والآخرة. وإذا جعلت العصر هي الوسطى: فهي متوسطة بين الفجر والظهر من صلوة النهار. والعشائين الأولى والآخرة من صلوات الليل، وقوله تعالى: ﴿الصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٣٨] مؤكد للدلالة على أن الصلوات المفروضات خمس، لا زيادة فيها، ويزيل التأويل فيما ذهب إليه بعض المتفقهة من فرض الوتر، بالخبر المروي عن رسول الله ﷺ: «إن الله زادكم صلوة وهي الوتر» وقد يزيد الله الناس مما يدعوهم إليه من أعمال البر مما هو فضيلة لفاعله، ونافلة للمتقرب به ولا يكون في قوله: «زادكم صلاة» ما يوجب الفرض، ولو كان الوتر فريضة لكانت عدة الصلاة المفروضات ستاً، والست لا أوسط لها، ولا وسطى، وإنما الوسط للإفراد، لأنها تكون منها واسطة وحاشيتان متساويتان، كالخمس فإنها اثنان في أحد الطرفين، واثنان في الآخر، وواحد في الوسط، ويجوز أن يكون معنى الوسطى: العظمى والكبرى، يراد بذلك فضل محلها، وزيادة ثوابها والله أعلم أي الوجهين هو المراد. وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٤] يقول: حرمة الشهر تجب على الفريقين في الكف عن

١٧٠ — في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى

القتال لكرّ الكافر إذا اعتدى، فليس على المؤمن أن يقبض يده، ويُلقى بها إلى التهلكة، بل إذا قوتلوا في الأشهر الحُرُم كان مطلقاً لهم، ومفروضاً عليهم قتالهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٤] معنى القِصاص: أن تفعلَ بصاحبك مثل الذي هو فعل بك، فإذا قاتَلَتِ الكافر في الشهر الحرام كما قاتَلَك فقد قاصَعَتُهُ وفعلتَ مثل فعله، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٤] معناه: جازوه جزاء الاعتداء، فسَمَى الجزاء باسم الاعتداء، طلباً للمطابقة في اللفظ، وإيداناً بأنَّ الثاني كالفرض المؤدّي، فالمواصلة فيه مرعيةٌ.

فصل

حكى الأصمعيُّ أنَّ العرب ربما تذكر اسماً تُعلّقُ الأحداثُ بها فيخرجونها مخرجَ الصفات والأفعال منسوبةً، ولشهرتها وظهور الفرض منها استُجِيزَ معها ما لم يستجز في غيرها، ولا يتقاس، فمن ذلك: لا آتيك مغرى الغرر، أي حتى يجتمع وذلك لا يكون أبداً ولا آتيك أبي هبيرة، قال: وأبو هبيرة هو سعد بن زيد مناة بن تميم، ولا آتيك هبيرة بن سعد، ولا آتيك القارظة الغزى، وقولهم: زمن الفطحل: أي حين كانت الحجارة رطبةً قال:

لو أنني عمّرت عمرَ الحسل أو عمرَ نوحَ زمنَ الفطحل
كنت رهين هرم أو قتل

جعل الموتَ حتف الأنف والقتل سواء، أو عام الفتق قال رؤية: لم تزج رُسلًا بعد أعوام الفتق، يشيرون بذلك إلى زمن الخصب والخير كأنَّ جلودَ الأكلة والرّاعية لِسِمْنِها فتقت فتقاً، وكأنَّ ظواهر الأرض وبطنانها فتقت بالنبات، ويقال: آتیه قِظَ عام أوّل، وما تركتُ من أبيه مغداً ولا مراحاً ولا مغداةً ولا مراحَةً، يعني من الشبّه به، وبعضهم يقول: ولا رواحاً ولا رواحَةً ولا أكلّمك آخر المنون، وأخرى المنون، ولا أكلّمه آخر ما خلقي، يريد آخر عُمرَي أي ما بقيتُ.

وقال يعقوب: يقال: آخري ما خلقي، ومنهّن أزمان الجنان، وهذا يشيرون به إلى الشر والآفات وأنشد:

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي مِنْ الْفَتِيَانِ أَعْوَامِ الْخَنَانِ

يُقال: خنَّ الرجل وهو مخنون: إذا ضاقت خياشيمه حتى يجيء كلامه غليظاً لا يكاد يفهم، وقال جرير: وأكوي الناظرين من الخنان، والخنان داء يعتري العين، وقال الخليل: الخنان في الإبل كالزكام في الناس، وقال الدّريدي: زمن الخنان معروفٌ، ولم أسمع من

في ذكر الأعياد، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطى — ١٧١

علمائنا تفسير أو ذكر بعضهم أنه يضرب بالخنان المثل في البلاء والشدة، لأنَّ البعير إذا خَنَّ كُويَ ناظره، وهما عِرْقَان. قال:

قليلة لحم الناظرين يزينها شبابٌ ومخفوضٌ من العيش باردٌ

يصف امرأةً وعلى هذا تفسير بيت جرير: وأكوي الناظرين من الخنان: أي من داء الكِبَر، ويكون كقوله: يُداوي به الصّاد الذي في النّواظر.

وذكر بعضهم: خَنَّ في الأكل: أسرف، ونحن في خنانٍ من العيش، وسنة مخنةٌ أي مخصبةٌ، وقد أختت، وعشبٌ أخَنَّ أي مُلْتَف. قال الشيخ: وهذا الذي فسّرناه أخيراً يصلح أن يصرف زمن الخنان إلى الخير والسّعة أيضاً، إلا أنَّ ما أنشده الأصمعيُّ ورواه يدل على خلافه، وذكر بعضهم أنَّ الخنان أصله أنَّ رجلاً من العرب غزا قوماً في الجاهلية، فلما فرّق الغارة فيهم قال: خنّوهم بالسّيوف، فشهر يومه بزمن الخنان، وفسّر خنّوهم، على ندودهم.

واعلم أنَّ القبائل مختلفةٌ ولم أذكرها لقلّة فوائدها، وإن كان قطرب وغيره دَوّنوها في كتبهم في الأزمنة وأسماء آلهتهم كيغوث ومناة ويعوق ونسر وهُبُل وما أشبهها، وذكر مطافهم ودورهم وما يتعلق بأيّامهم وأعيادهم وأسواقهم تجاوَزَتْها لأنَّ ما نعيد منها لا تحلّ به في موضعه من الكتاب وتطويل الكلام بما ليس من الموضوع في الأصل مرفوضٌ في مصتفاتنا.

الباب الحادي عشر

في ذُكِرَ - سَحَرَ - وَغُدُوَّةَ - وَبُكَرَةً - وما أشبهها، والحين والقرن
والآن وإيان وأوان والحِقة والكلام في إذ وإذا وهما للزمان وما أشبهها

قال أبو العباس محمد بن يزيد: اعلم أنَّ المعرفة إذا أُخبر عنها بِنكرة فإنها توجب فيها مثل ما يكون لها لو كانت معرفة بنفسها، وكذلك النكرة إذا أُسند إليها معرفة، والذي جعلها على هذا كونها خبراً عن معرفة، ولو انفردت عنها لم يكن كذلك، يقول: زيدٌ منطلقٌ فالعلم أنَّ المنطلق هو زيدٌ جعله مختصاً كزيد، ولو انفرد لكان شائعاً، وعلى هذا ما يقرب من النكرات بالصفات وما يجري مجراها كقولك كان عند رجل من آل فلان، وويلٌ لزيد، لذلك يستفاد منه ما يستفاد من المعارف، أو تقاربه، فعلى هذا ما سَمِعنا بقول: سيرَ عليه عشيّةٌ أو غدوةٌ أو ضحوةٌ وكلّ ذلك نكرة لا يكون واحداً من أمته أولى به من الآخر، ولا يومٌ من الأيام أحقّ بتعلّقه به.

فإذا قلت: سيرَ عليه يوم الجمعة عشيّةً، أو ليلة الجمعة عتمةً، وأنت تريد ذلك من يومك وليلتك، لم يكن عشيّةً ولا عتمةً وما كان مثلهما إلا نكرات في الأصل ولَوْضِفَكَ إِيَّاهُنَّ موضعُ المعرفة ضعفن وامتنعن الصّرف، فلم تكن إلا ظروفاً منصوبةً بوقوع الفعل عليها، ولم يقمن مقام الفاعل، كما كان يجوز فيهنَّ إذا قلت: سيرَ عليه عشيّةٌ من العشيّات، وضحوةٌ من الضّحوات، لأن الظّروف إذا قوين في أبوابهنَّ فعلن مفعولات على السّعة، وأقمن مقام الفاعل، ووضعن موضع الخبر مرفوعات، كقوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [سورة طه، الآية: ٥٩] وكقولهم: أقمنا ثلاثاً لا أذوقهنَّ طعاماً ولا شراباً، وسيرَ به يوم الجمعة، وكقول لبيد شعراً:

فعدت كِلا الفرجين تحسب أنَّه مولى المخافة خلفها وأمامها

فعلى هذا يدورُ أمرهنَّ، وإذا هنَّ نكراتٌ، أو كُنَّ معارف بأنفسهنَّ فأما إذا وضعن وهُنَّ نكراتٌ في موضع المعارف، فقد أزلن عن بابهن وعرفهنَّ غيرهنَّ فلم يَجْز أن يخرجن من

الظروف إلى غيرها إذ كُنَّ قد أزلن عن أصولها فإذا قلت: آتيك ضحوة يومك وعشاءه، لم يكن سبيله سبيل ما هو عام فيما وضع له، فلا يحصل به اختصاص، بل هو موضوع موضع الضحوة بالعرف، فصار يجري مجرى المعهود للمخاطب، أو المضاف نحو قولك: ضحوة يومي وإذا كان كذلك بان الفرق بين الموضوعين، لأنَّ حكم اسم الجنس أن يكون شائعاً في الأصل.

ثم يحصل التعريف فيه بوجه من الوجوه المعروفة وقولهم: عتمة مصدر مثل الغلبة ومعناه الإبطاء والتأخر قال:

يذكرني ابني السماكان مؤهناً إذا طلعا خلف النجوم العوائم
إلا أنه يستعمل ظرفاً كما استعمل غيره من المصادر ظرفاً، كخفوق النجم، وخلافة فلان، وغير ظرف أيضاً يقول: سير عليه عتمة فيتصب انتصاب اليوم واللييلة ويجوز أن يسند إليه الفعل، فيقال: سير عليه عتمة من العتيمات، فيدخل الألف واللام وقد يلزم الظرفية فلا يتنقل وذلك إذا أردت به عتمة ليلة، هذا مذهب سيويه وكان الأخفش يقول: ضحوة وعتمة إذا كان في يومك لرفعهما أيضاً، حتى أخذ العرب تمنع منه.

فأما غدوة فإنه اسم مشتق من قولك: غداة، فلقب به الوقت، فصار علماً له كما وضع زيد علماً للرجل، فلذلك منع الصرف، إذا قلت سيرته غدوة، لأنه معرفة، وجاز فيه ما جاز في يوم الجمعة وأشباهه، لأنه معرف من جهة التعريف، يقول: سير بزيد غدوة وإن شئت نصبت على أصل الظرف، ويكره فيها مثل ذلك إذا حملتها على غدوة، لأنَّ المعنى واحد، وإن أردت أن تجعلها كعشية وضحوة، فجيد، وإنما جعلوها معرفة تشبيهاً بما كان في معناها وهي غدوة، لأنها غيرت بالتعريف كما غيرت غدوة وامتنعت من الألف واللام، ونظير جعلهم نكرة بمنزلة غدوة، إذ كانت في معناها رفع الاسم ونصبهم بها الخبر وإجراءها مجرى ليس، إذ كانت في معنى ليس وإن ثبت تركها غير مشبهة فرفعت ما بعدها، وكذلك قولك: ودع يدع إنمّا كان الكسر نحو يَعِدُ وَيَزِنُ، ولكن تَعَيَّنَ فَتَحَهَا وأجريت يَدَّر مجراها لأنها في معناها ولأنَّ الفتحة أخف ولهذه نظائر.

فإن قلت: قد قرأ أبو رجاء المطاردي بالغدوة والعشي، فجعلها شائعة كما تقول: جاءني زيد وزيد، تريد جماعة اسم كل واحد منهم، فيقول المجيب: ومن الزيد الأول والزيد الآخر. وهذا الزيد أشرف من ذاك الزيد، وعلى ذلك كانت تثنية المعرفة وجمعها إذا كانت غير مضافة يخرجها إلى النكرة، لأنَّ كل واحد يصير مرآه لكل واحد منها مثل اسمه، وتضيف زيداً وما أشبهه كما تضيف النكرة لأنه يصير معرفة بما أضيف إليه، كما قال الشاعر:

عَلَا زَيْدُنَا يَوْمَ التَّقَا رَأْسَ زَيْدِكُمْ بأيضٍ من ظامي الحد يديمان
فَإِنْ تَقْتُلُوا زَيْدًا بِزَيْدٍ فَإِنَّمَا أقادُكُمْ السُّلْطَانُ بَعْدَ زَمَانٍ

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٢] فَإِنَّ ذَلِكَ نَكْرَةٌ لَيْسَ يَرِيدُ كُلُّ بَكْرَةٍ وَكُلَّ عَشِيَّةٍ، وَإِنَّمَا تَأْوِيلُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْجَنَّةَ لَا لَيْلَ فِيهَا يُفْضِي إِلَى نَهَارٍ، وَلَا نَهَارَ يَتَّصِلُ بِلَيْلٍ، وَلَا شَمْسٍ، وَلَا قَمَرٍ إِنَّمَا هُوَ فِي مِثْلِ مَقَادِيرِ الْعَادَةِ فِي الدُّنْيَا.

وعلى هذا جاء الحديث: «نهار الجنة سَجَسَجٌ»: إِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّهُ أَبَدًا كَالنَّهَارِ وَقَوْلُهُ: سَجَسَجٌ أَيُّ مُعْتَدِلٍ لَا بَرْدَ فِيهِ وَلَا حَرَّ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يَصِيرَ مَا حَكَمَهُ أَنْ يَكُونَ شَائِعًا فِيمَا يَصْلَحُ لَهُ مُخْتَصِمًا بَعْضُهُ، حَتَّى زَعَمْتَ فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَا زَعَمْتَ. قُلْتَ: ذَلِكَ لَا يَمْتَنِعُ فِي عَادَتِهِمْ وَطَرَقِهِمْ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ: ابْنُ عَبَّاسٍ يَخْتَصِمُ بَعْدَ اللَّهِ حَتَّى لَا يَعْلَمَ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَإِنْ لِلْعَبَّاسِ أَوْلَادًا دُونَ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلَهُمْ: ابْنُ الزُّبَيْرِ اخْتَصَمَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ فِيمَا اسْتَمَرَّ مِنَ الْعَادَةِ.

فأما سحر: فَإِنَّكَ تَقُولُ: سِيرَ عَلَيْهِ سَحَرٌ، فَلَا يَنْصَرِفُ وَلَا يَتَصَرَّفُ إِذَا أَرَدْتَ سَحَرَ يَوْمَكَ، وَمَعْنَى لَا يَتَصَرَّفُ لَا يَتِمَكَّنُ تَمَكُّنَ أَسْمَاءِ الْأَزْمَانِ فِي أَبْوَابِهَا. وَمَعْنَى لَا يَنْصَرِفُ: لَا يَدْخُلُهُ الْجَرُّ وَالتَّنْوِينُ. فَإِنْ أَرَدْتَ سَحَرًا مِنَ الْأَسْحَارِ وَهُوَ فِي مَوْضِعِهِ نَكْرَةً، فَلَا مَانِعَ لَهُ مِنَ الصَّرْفِ وَالتَّمَكُّنِ، وَنَقُولُ: إِنَّ سَحَرًا جُزْءٌ مِنَ آخِرِ اللَّيْلِ، وَفِي سَحَرٍ وَقَعُ الْأَمْرُ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: ٣٤] وَعَلَى هَذَا إِنْ أَدْخَلْتَ الْأَلْفَ وَاللَّامَ تَقُولُ: سِيرَ بِهِ السَّحَرُ الْمَعْرُوفُ، وَإِنَّمَا مَنَعَ الصَّرْفَ حِينَ قُلْتَ: آتِيكَ سَحَرًا، وَأَنْتَظِرُ سَحَرًا لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَمَّا فِيهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ.

وكان شيخنا أبو علي الفارسي يختار أن يُقال: إِنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ أَحْوَالِ نَظَائِرِهِ أَلَا تَرَى أَنَّ أَخَوَاتِهِ إِذَا عُرِفَتْ جَاءَتْ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ فَهُوَ جَارٍ مَجْرَى أُخْرٍ، وَجَمَعَ فِي الْعَدْلِ وَإِنْ كَانَ أُخْرَ نَكْرَةٍ وَسَحَرٍ وَجَمَعَ مَعْرِفَتَانِ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْكَلَامَ فِيهِ فِيمَا يَجْرِي وَلَا يَجْرِي، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْصَرَفْ لِأَنَّهُ بِلَفْظِ النُّكْرَةِ مَوْضُوعٌ مَوْضِعُ الْمَعَارِفِ مِنْ غَيْرِ أَنْ جَعَلَ عِلْمًا، فَهُوَ مُنَاسِبٌ لَضَحْوَةٍ وَعَتَمَةٍ إِذَا جُعِلَا مِنْ يَوْمِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ.

قال أبو علي الفارسي: دَخُولُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ فِي عَتَمَةٍ إِذَا أَرَدْتَ عَتَمَةَ لَيْلَةٍ لَا أَعْلَمُهُ اسْتَعْمَلْتُ الْكَلِمَةَ بِهِمَا. وَسَيُؤَيِّدُهُ لَمْ يَذْكُرْهُ وَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى ضَحْوَةٍ وَغَدْوَةٍ وَبَكْرَةٍ قِيَاسًا كَمَا يَقُولُهُ الْأَخْفَشُ، فَيَرْفَعُ وَيَنْصِبُ. قَالَ: وَيَقْوِي مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ سَيُؤَيِّدُهُ مِنْ أَنَّ عَتَمَةَ لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا ظَرْفًا إِذَا أَرَدْتَ بِهِ عَتَمَةَ لَيْلَتِكَ، أَنَّ مَا أَشْبَهَهَا مِنَ الظَّرُوفِ لَمْ يَسْتَعْمَلْ إِلَّا ظَرْفًا. فَمِنْ ذَلِكَ: سِيرَ عَلَيْهِ ضَحَىً وَصَبَاحًا وَمَسَاءً وَعَشِيَّةً وَعِشَاءً، إِذَا أَرَدْتَ بِجَمِيعِهَا مَا لِيَوْمِكَ وَلَيْلَتِكَ، وَكَذَلِكَ سِيرَ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، أَشْبَهَ بِالْمَصَادِرِ وَقَدْ جُعِلَتْ ظَرْفًا.

فإن قيل: إنَّ ضحى إذا أريد به ضحى يومه مثل عتمة، وقد دخله لام التعريف في قوله: أبصرته في الضحى يرمي الصَّعيد به.

وفي قوله: نَوُومُ الضُّحَى قلت: إنَّ هذا قد خرج من أن يكون ظرفاً لمكان الإضافة إليه، ودخول حرف الجر عليه فاعلمه، فإن قيل: لم خُصَّ بعض أسماء أوائل النهار بأن جُعِلَ عَلَماً وبعضها بأن جُعِلَ مَعْدولاً من دون أسماء أجزائه الباقية؟ قلت: لَمَّا كانت المواعيد والحاجات استمرت العادة في أنها أكثر ما تعلق تعلقاً بأوائل النهار دون أوساطه وأواخره. وكثر الاستعمال فيها لذلك استيجز فيها ما لم يستجز في غيرها من التغيرات، يشهد لهذا أنهم أقاموا مقامَ الأزمنة ما ليس منها، وذلك كالمصادر نحو خفوق النجم، وخلافة فلان، وكصفات الزمان نحو: قليل وكثير وقديم وحديث. وهذا ما حضر في قولهم سَحَرٌ وغُدوةٌ وبكرة ونظائرها وفيه كفاية.

فصل

في المحدود من الزمان وغير المحدود

قال أبو عمرو وغيره: الزمان ستة أشهر، والحين ستة أشهر، قال الله تعالى: ﴿يَبْتَئِنِّي أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِأُذُنِ رَبِّهَا﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢٥] وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي: الزمان عندهم أربعة أشهر ويقال: شيءٌ مُزْمِنٌ أي أتى عليه زمانٌ، وكان الزمانية فيه لامتدادها. وقال ابن الأعرابي: يقال من الزمان زمنة، وزمن ومن الزمانه أيضاً يقال: به زمنة وزمن، ويقال: لقيته في الزمن بين الزمنين، ألا تراه قد حَدَّ لِلْقَاءِ وَقْتًا، وللفرق وقتين، وكل قريب، ويقال: لقيته زامت الزمنين أي ساعة في مدة من الدهر يسيرة. وقال غيرهم: الحين الوقت في كل عدد، والملا غير مهموز مثله، ويقال: الحين سبع سنين، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٣٥] وقيل هو أربعون سنة لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ [سورة الإنسان، الآية: ١] وذلك أنه روي في الخبر أن آدم عليه السلام أتى عليه بعد خلق الله إياه وهو طين أربعون سنة ثم نفخ فيه ولم يدر ما هو.

وقيل: الحين ثلاثة أيام لقوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٤٣] فكان فيما روى ذلك القدر. وقال آخرون: ثلاث مرّات في اليوم لأنه تعالى قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٧] إلى و ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٨] قالوا: وهذا يقتضي أن يكون في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٦] غدوة وعشية قال الشيخ: المحصل الصحيح أنَّ قولهم: الحين لما يتناول من الزمان ويتقاصر ويكون محدوداً أو غير محدود.

وقد حُكي عن أبي زيد وأبي عبيدة ويونس أن (الدَّهر) و (الزَّمان) و (الزَّمن) و (الحين) يقع على محدود، وعلى عمر الدُّنيا من أولها إلى آخرها. قال الأعشى شعراً:

لَعَمْرُكَ مَا طَوَّلَ هَذَا الزَّمَنُ عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا عَنَاءً مَعْنُ

يريد به الوقت الممتد وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدِ حِينٍ﴾ [سورة ص، الآية: ٨٨] أراد يوم بدر وقيل: أريد به القيامة. وجميع ما حكيناه عند الفحص يدل على أنَّ المراد به تبع لمقصود المتكلمين. فإذا قال: لم أَلَقْ منذ حين وهو يريد تباعد الوقت، علم ذلك بالحال أو القرينة، وكذلك لو قال: أعطيك حقَّك بعد حين، وأراد: تقريب الوقت. وإذا حلف الحالف على حين، فإنَّ كان من أهل المعرفة بالحين أخذ بقوله، وإن لم يكن من أهلها حمله الإمام على أعرف الأوقات فيه عند العامة، واستظهرنا بعد الحالين في الوجود.

وقال شرقي الزَّمن عندهم شهران - والزَّمين شهر واحد. وقيل: الزَّمان ستة أشهر - والزَّمن أربعة أشهر - والزَّمين شهران - والحرس كمال السَّنة ما بين أولها إلى آخرها. وقال غيره: الحرس ما بين الحين إلى السنة. وقال الخليل: الحرس وقت من الدَّهر دون الحقب. قال شعراً:

وعمرت حرساً دون مجرى داحسٍ لو كان للنَّفس اللَّجوجُ خُلُودٌ
ويقال: شيءٌ محروس، أي عليه حرس، ويقال: أحرس بالمكان، أقام حرساً. قال:
وعلم أحرس فوق عتز - والعنز أكمة صغيرة.

والبرهة عشر سنين. وقال الخليل للبرهة: حين من الدَّهر طويل - والعصر عشرون سنة. وقيل: العصر لا يكون إلا لما سلف. وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر، الآية: ١، ٢] قال ابن الكلبي: هو الدَّهر كلُّه الماضي والمؤتلف، وقد قيل: عصر وأعصر وعصور. قال: كرَّ اللَّيالي واختلاف الأحصر. وقال آخر: أبعصور من بعد تلك عصور، والعَصْران الغداة والعشي.

والأشدُّ ثلاثون سنة، وقيل: هو لما بين ثلاث وثلاثين إلى تسع وثلاثين. قال الشيخ: تحقيقه بلوغ نهاية القوَّة والشَّباب. واختلف في بنائه، فمنهم من يقول: هو جمع وواحدة شد ومثله ضب واضب. ومنهم من يقول هو واحد ومثله من الأبنية قولهم آتاك وهو الأسرب وقولهم آجر. وقال سيويو: افعل ليس من أبنية الواحد. وهذان أعجبان عند أصحاب العربية.

والسبت من الدَّهر ثلاث مائة سنة، وقال بعضهم: السبت أربعون سنة وأنشده:

وَقَدْ نَرْتَعِي سَبْتاً وَلَسْنَا بِحِيرَةٍ مَحَلّ الملوك تفدة فالمغاسلا

والحقبة من السّتين إلى الثمانين. وقال بعضهم: من السّبع إلى العشر. وقال الخليل: الحقبة زمان من الدهر لا وقت له والجمع الأحقاب. وقيل الحقب: السّنون واحداً حقب، والحقب: الدهر والجمع الأحقاب. وقيل: في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعُ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ [سورة النّبا، الآية: ٢٣] واحداً الحقب ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم منها مقداره ألف سنة من سني الدّنيا. وذكر قطرب أنّ الحقب بلغة قيس مائة سنة.

والقرن من الثّمانين إلى المائة، وقالت طائفة منهم القرن ثلاثون سنة وقيل القرن أربعون سنة. وقال أبو عمرو غلام ثعلب: الصّحيح عندي أنّ القرن مائة سنة، وذلك أنّ النّبي ﷺ مسح يده على رأس صبي وقال له: «عش قرناً» فعاش مائة سنة. وقد احتجوا أيضاً بقوله عليه السلام: «خيرُ النَّاسِ قُرْبِي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». وهذا يدل على أنّ القرن ثلاثون إلى الأربعين.

وقال ابن الأعرابي: الهنيد مائة سنة، والهند مائتا سنة والدهر ألف سنة. وقول الله تعالى: ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٤٣] قيل: إنها سبعة. وقال أكثر أهل اللغة: إنّ البضع لما بين الثلاثة إلى العشر. وحكي البضع بفتح الياء وقال المبرد: هو ما بين العقدین إلى الواحد، وإنما جاز في الاثنين أيضاً عنده لأنه جمع، ويضع اسم الجماعة المحظورة بالعقود. وقال أحمد بن يحيى: البضع من ثلاثة إلى سبعة وأكثره تسعة، ويقال: بضع عشر وبضعة عشر شهراً، وبضع وعشرون إلّا أنه مع العشرة أكثر وأصله من القطع، يقال: بضعة بضعاً والمقطوع بضع، فهو مثل الطّحن والطّحن.

وذكر أبو عبيد الوقص ما زاد من السّنين على العشر، وإحدى عشرة وقص وكذلك المياه التي لا تورّد بين المائتين المورودين وقص قال والشّتي في الدّية خاصّة، وقيل: الوقص والبضع اسمان للعدد فهما يستعملان في كلّ معدود وهذا هو الصّحيح.

والنّيف يجيء بعد العقود يقال: نيفٌ وعشرون، ونيفٌ وتسعون، ولا يقال: نيف عشرة، ويجوز عشرة ونيف لأنه اسم لما يزيد على العقد ووزنه فيعمل وأصله من ناف ينوف إذا ارتفع وأشرف وانبسط، ويقال: ناف النّفس ينوف نَوْفاً إذا تحرّك ونسم بعد خفوضه وهموده. ويقال في الدّنف الحرض قد نافت له نفس ترجوه معه، وإذا حمحم القُرس للقبضيم، قيل: ناف نَوْفاً، ويقال: أناف على الشيء أي أشرف، نافه يناف. والنّوف السّنام لإشرافه والبطر لزيادته في ذلك الموضع والعلم قال شعراً:

يخبُّ به العَطاف رافع نَوْفه له زفراث بالخميس العَرْمَرَم

فأما الآن: فقد قال أبو العباس: يُشار به إلى حاضر الوقت، وتلخيص هذا أنه الزمان الذي يقع فيه كلام المتكلم فهو آخر ما مضى وأول ما يأتي من الأزمنة، وهذا مراد قولهم: الآن حد الزمانين، والذي أوجب بناءه أنها وقعت في أول أحوالها بالالف واللام. وحكم الأسماء أن تكون منكورة شائعة في الجنس. ثم يدخل عليها ما يعرفها من إضافة، وألف ولام فخالفت الآن سائر أخواتها من الأسماء، بأن وقعت معرفة في أول أحوالها، ولزمت موضعاً واحداً كما تلزم الحروف مواضعها التي وقعت فيها في أوليتها غير زائلة عنها، ولا نازحة منها واختيرت الفتحة لآخرها لخفتها ولمشاركتها للالف التي قبله. وقال الفراء فيه قولان:

الأول: أن أصله أن الشيء يثين إذا أتى وقته، كقولك: أن لك أن تفعل كذا وإني لك، ثم أدخلوا الألف واللام عليه، وإن كان فعلاً كما يروى أنه نهى النبي ﷺ عن قيل وقال فعلان ماضيان وأدخل عن الجارة عليهما وتركاهما على ما كانا.

الثاني: إن الأصل فيهما أوان، ثم حذف الواو فبقي أن، كما قالوا: رواح وراح، والكلام عليه قد مضى في غير هذا الموضع من كتبنا.

وقولهم أيان فإنه يقوم مقام متى، فهو يتضمن معنى الألف وكان حكمه أن يكون ساكن الآخر، لكنته حرك لالتقاء الساكنين، واختيرت الفتحة لخفتها ولأن قبلها ياء مشددة، وهما بين الباء والتون، ليس بحاجة حصين وهو الألف.

وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ: ﴿إَيَّان يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٢١] بكسر الألف.

وإيان وأفان فهما معربان متمكنان وتضيفها فتقول: جئت على إيان فلان وإفاته أي في وقته، وتفردهما بنزع الجار منهما، فتقول: جئت إيان ذلك وإفاته، وانتصابهما على الظرف.

وأما قولهم أوان فمعناه الوقت ويجمع على آونة قال ابن أحرر شعراً:

يؤزقنا أبو حنشرٍ وطلق وعمَّارٌ وآونة أنالا

وقد جاء مبيناً منوناً في قول الشاعر:

طلبوا صلحنا ولأت أوانٍ فأجبننا أن ليس حين بقاء

وإن كان متمكناً في جميع الكلام تقول: هذا أوان طيب، وأدركت أوان فلان، قال أبو العباس: إنما بني من قبل أن الأوان من أسماء الزمان، وأسماء الزمان قد تكون مضافات إلى الجمل، كقولك: هذا يوم يقوم زيد، وأتيتك زمن عمرو أمير. فإذا حذفت الجملة من

قولك أوان، وقد يضم معناها وهو في حكم المعرفة بها استحق البناء، ثم عوّضت منها التّوئين كما فعلت ذلك بقولك: حيثنذ وساعتنذ وفارق قولك: أوان الغايات، لأن الغايات مضافة إلى المفردات في التقدير، وأوان مضافة إلى جملة فهو كاسم حذف بعضه وبقي بعضه وقد عوّض مما حذف فيه والغايات لم يؤت فيها بما يكون عوضاً، وتيّة الإضافة فيه أقوى إذا كانت إلى المفرد لا إلى الجملة، واختيرت الكسرة في أوانٍ لما بني لالتقاء الساكنين.

وذكر بعض الكوفيين أنّ لات جارت لأوانٍ بمنزلة حرف من حروف الخفض، ولو كان كذلك لفعل به مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [سورة ص، الآية: ٣].

وأما إذ وإذا فهما اسمان مبهمان. فإذا لما مضى وإذا للمستقبل، فهما كالأسماء الناقصة المحتاجة إلى الصّلات، لأنّ الأسماء موضوعها أن تدلّ على مسمياتها في الأصل، فإذا صار بعضها لا يدلّ بنفسه على ما هو المطلوب منه واحتاج إلى ما يكشفه، ويوضح معناه حلّ بما بعده من تمامه محلّ الاسم الواحد، وصار هو بنفسه كبعض الاسم، وبعض الاسم مبنيّ. فإذا يوضح بالابتداء والخبر، والفعل والفاعل تقول: جئتكَ إذ قام زيد، وإذا زيدٌ قام، وإذا يقوم زيدٌ وإذا زيدٌ يقوم، فإذا كان الفعل مستقبلاً حسن تقديمه وتأخيرهِ. وإذا كان ماضياً قبح التأخير، لا يقولون: جئتكَ إذ زيدٌ قام، إلا مستكراً من قبل، أنّ إذ للماضي، فإذا كان في الكلام فعل ماضٍ اختير إيلاؤه إيّاه لمطابقتها ومشاكلته معناهما. وإذا عند أصحابنا اسم مضاف إلى موضع الجملة التي بعدها، ولا يجازي بها، لأنها مقصورة على وقت بعينه ماضٍ.

وإذا من أسماء الزّمان أيضاً ويقع بعدها الأفعال المستقبلية، وهي موضحة بما بعدها كما كانت إذ غير أنها لا يليها إلا الأفعال مظهرّة كانت، أو مضمرة كقولك: أجيئك إذا قام زيد، يعني الوقت الذي يقوم فيه، وفيها معنى المجازاة فلذلك لا يقع بعدها إلا الأفعال.

فإذا رأيت الاسم بعدها مرفوعاً فعلى تقدير فعل قبله، لأنّه لا يكون بعده الابتداء والخبر وإنّما لم يجازيها لأنّها تقع محدودة، والمجازاة معتودة على أنّها يجوز أن يكون والّا يكون تقول أجيئك إذا احمرّ البسر، ولا يجوز أن تقول: إن احمرّ البسر، فلمّا كان إذا لوقتٍ معلوم لم يجاز بها، وإن كان فيها معنى المجازاة، إلا أنّ يضطرّ شاعرٌ قال الفرزدق:

ترفع لي خندق واللّه يرفعنا نارٌ إذا ما خَبَتْ نارٌ لهم تَقْدُ

ومعنى المجازاة: أنّ جوابها يقع عند الوقت الواقع كما يقع المجازاة عند وقوع الشرط. ولإذا موضع آخر يكون فيه اسماً لمكان وذاك من ظروفه وسيجيء الكلام فيه في الباب الذي يليه.

البابُ الثاني عشر

في لفظ أمس - وغد - والحوّل - والسنة - والعام - وما يتلو تلوّه، ولفظ حيث - وما يتّصل به - والغايات - كقبل - وبعد - وذكر أول - وحيثن - وقط - ومنذ - ومذ وإذ المكانية .

ومن عل يقال: اليوم ليومك الذي أنت فيه، وأمس لليوم الذي يليه يومك الذي أنت فيه وقد مضى . وقال قطرب وغيره: يقول: رأيتُه أمس فتكسر، كما قالوا: قال الغراب: غاق يا هذا في حكاية صوته، وتميم يرفعون أمس في موضع الرفع فيقولون: ذهب أمس بما فيه فلا يصرفونه لما دخله من التغيير وقال الرّاجز:

لقد رأيتُ عجباً مُذاماً عجائزاً مثلَ السّعالى خَمساً
فكأنّه ترك صرفه في لغة من جرّ بمذ . وقال عدي بن زيد:

أتعرف أمس من لميس طلل مثل الكتاب الدّارس المحّول
قال الشيخ: اعلم أنّ أمس اسم معرفة لما مضى وشوهد . وغد بخلافه لأنّه وإن كان اسماً لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه، ولم يجيء فهو نكرة . ومثلهما قطّ وأبدأ لأن قط معرفة وأبدأ نكرة، وفي بناء أمس طريقتان:

الأول: ما ذكره أبو العباس المبرّد وهو أنّ شرط الاسم أن يلزم مسماه، ولا سيّما ما كان معرفةً ليكون علماً باقياً له . وأمس ليس يلزم مسماه لأنّه اسم لليوم الذي يليه يومك الذي أنت فيه وقد مضى، فكلمّا مضى يومك انتقل لفظ أمس عمّا كانت له إلى ما كانت بعده، فلمّا كان كذلك أشبهه بالحروف في أنّه لا لزوم لها وإنما ينقل إلى ما ينقل إليه كمن وفي وإلى، فيفيد معناها فيه فبني لذلك .

الثاني: إنه كان حق تعريفه أن يكون بالآلف واللام ليؤدّي العهد فيه فلم يدخله عليه، بل ضمن معناهما، والاسم إذا تضمّن معنى حرف، يجب أن يُبنى، فهذا وجه بنائه فأما من

منعه الصّرف فإنه يجعله معدولاً عما فيه الألف واللّام كأنّه لا يأتي بهما، وهو يريد معناهما في الاسم كما أنّ قولك: سحر كذلك وقد مضى القول فيه، فإنّ نكرته وجعلته شائعاً صرّفته به وصرّفته، فقلت: مضى أمس وكذلك إنّ أضفته أو أدخلت عليه ألفاً ولاماً، لأنّه يصير موقفاً محدوداً تقول: مضى أمسك، وكان أمساً أطيب من يومنا، ومضى أمس.

فإنّ قال: ما بال غدٍ لا يكون مبنياً قلت: أمس معرفة مشاهد معلوم، وغد ليس بمعلوم ولا مشاهد، لأنّه لم يأت قبيلهما سبيل قط المشدّدة وأبدأ، لأنّ قطّ للقاتل من لدن قوله أي ابتداء كونه فهو معلوم، يقول: ما رأيته قطّ، تحركت الطاء الأخيرة لأنه لا يلتقي ساكنان ويضمهما كما يضم آخر الغايات، وسنبين القول فيها كلّها، وإذا قلت: لا أكلمه أبداً، فالأبد مذ لدن تكلّمت إلى آخر عمرك، فهو غير معلوم، وجار على أصله الذي له وصار مصروفاً منصرفاً لم يعرض فيه ما يوجب تنيراً.

قال قطرب: وأظنه حكى عن الخليل أنهم أرادوا بأمس حين حفظوا رأيته بالأمس، فحذفوا الباء والألف واللّام كما قالوا خير عافاك الله في جواب: كيف أصبحت؟ يريدون بخير، وكما قالوا: لاه أبوك الله أبوك. وقال ذو الأصبع شعراً:

لاه ابن عمّك لا أفضّلت في حسبٍ دوني ولا أنتَ ديّاني فتجزوني
فحذف لام الإضافة ولام التعريف وهذا تقوية لقول الخليل، ومثله قول الآخر:

طال التّواء وليس حين تقاطع لاه ابن عمّك والتّوى لعدوّ
انتهى كلامه. قال الشيخ: هذا الذي حكاه لا يكون بناءً بل يكون الحركة في أمس إعراباً كما أنّها في حين وفي لاه أبوك شاذ، فلا يجعل أصلاً لغيره. قال قطرب: فإذا دخلت الألف واللّام في أمس، فبعض العرب ينصبه، ويقول: رأيته أمس وبعضهم يخفضه كحاله قبل الألف واللّام، ويقول: رأيته بالأمس وقال نصيب شعراً:

وإنّي حبستُ اليومَ والأمس قبله بيابك حتّى كادتِ الشّمسُ تغربُ
انتهى كلامه.

قال الشيخ: الوجه في إدخال الألف واللّام أن ينكّر أولاً ثم يُعرّف بهما، فأما من نصب بعد إدخال الألف واللّام فهو القياس، لأنّ الألف واللّام والتّكثير يرددان اللفظ إلى ما كان يجب عليه في الأصل.

وأما ما حكاه عن يونس أنّه سمع الكسر مع دخول الألف واللّام، فالمتكلّم بذلك يجب أن لا يكون قد اعتدّ بالألف واللّام، ولم ينكّر قبل دخولهما، وبقي الكسر إيذاناً بفعله ذلك، ويكون هذا كقوله شعراً:

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمَوْاً وَعَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ

فأدخل الألف واللام على الأوبر وهو معرفة، لأنه لم يعتد بهما، أو يكون أجراه مجرى الخازياز وخمسة عشر وأخواته في العدد، لأن الألف واللام لا يزيلان بناءهما ولا يردانهما إلى أصلهما، والأول أجود وأكثر نظيراً في الوجود. قال قطرب: وإذا جمعت أمس في القياس قلت: ثلاثة أماس، لأنه مثل فرخ وأفراخ، وفلس وأفلاس، وقال الزجاج شعراً:

مَرَّتْ بِنَا أَوَّلَ مِنْ أَمُوسٍ تَمِيسُ فِيهِ مِشْنَةُ الْعَرُوسِ
فجمعه على فعول مثل فروخ وفلوس، وقال بعض الأعراب:

مَرَّتْ بِنَا أَوَّلَ مِنْ أَمْسِيهِ تَجَرُّ فِي مَحْفَلِهَا الرَّجْلِيهِ

فبنى أمس انتهت الحكاية. قال الشيخ: الباء في أمسية لبيان الحركة، وكذلك في الرجليه، وكأنه أراد أول من أول من أمس فتى أمس بدلاً من تكرير أول، وهذا كما قال أبو العباس فيما حكى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى اضربا عنقه. والمراد: اضرب اضرب فاتى بدل التكرير بلفظ التثنية، فأما أول من قولك أول من أمس فهو صفة كان المراد به يوماً أول من أمس، وقالوا: بعد غدٍ، ولم يقولوا: قبل أمس، فكان أول بدل قبل، وبعد غدٍ في موضع الصفة أيضاً.

قال قطرب: فإن أضفته فإن بعضهم يجزّه كحاله قبل أن تضيف، كما كان ذلك في الألف واللام. قال الشيخ: الوجه في أمس إذا أضيف أن يعرب ويصرف كما قلناه في الألف واللام، فأما من بناء مع الإضافة فإنه شبهه بخازياز وخمسة عشر وأخواته، لأنها بنيت، وإن أضيفت، ورجوع أمس في التنكير إلى أصله هو الذي يدل على مخالفته لباب خازياز وخمسة عشر وأخواته. وقد قال قطرب في أمس: إذا جعلته نكرة فإنه يجري فيه الإعراب وكل ما يرده التنكير إلى أصله ترده الإضافة والألف واللام إلى أصله، وخمسة عشر وأخواته بنيت نكرات، وإن كان كذلك كان الضعف والبعد في بناء أمس عند الإضافة ومع الألف واللام ظاهرين فاعلمه، وتقول: آتاك غداً أو شيعه، وآتاك الجمعة أو شيعه والمراد اليوم الذي يليه. قال عمر بن أبي ربيعة شعراً:

قَالَ الْحَبِيبُ غَدًا يُفَرِّقُنَا أَوْ شِيعَهُ أَفْلا تُودَعُنَا؟!

فكان هذا من الاتباع، وفي الحديث: شاعه أبو بكر أي اتبعه، فيقال على هذا النبي ﷺ وشيعه، أي مصدقه وصاحبه ومن هذا الشيعة.

وقال ابن الإعرابي: يقع الشيعة على كل من أحبّ وصدّق وحضّ على الاتباع أو حرض تأخر عن المتبوع أو تقدم عليه. ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبَرَاهِيمَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٨٣] يعني من شيعة محمد ﷺ فأما قوله:

كَأَنَّ أُمْسِيَا بِهِ مِنْ أَمْسٍ يَصْفَرُّ لَيْسَ أَصْفَرَارِ الْوُزْسِ
فإنَّه يعنِي عَرَقَ الْإِبِلِ، وَهُوَ يَصْفَرُّ إِذَا يَسَّ وَمَعْنَى أُمْسِيَا بِهِ: يَرِيدُ عَرَقًا ظَهَرَ مِنْذُ ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ، وَمَعْنَى مِنْ أَمْسٍ: مِنْذُ، كَمَا قَالَ: أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ وَعَرَقَ الْخَيْلَ إِذَا بَيَسَ
أَبْيَضَ. قَالَ بَشَرُ:

تَرَاهَا مِنْ يَيْسِ الْمَاءِ شُهْبًا مَخَالِطَ دَرِّهِ فِيهَا أَفْوَارِ
وَالْحَوْلُ: السَّنَةُ بِأَسْرَاهَا، وَجَمْعُهُ أَحْوَالٌ، وَقَدْ حَالَ الْحَوْلُ يَحُولُ حَوْلًا وَحَوْلًا وَاحْتَالَ
الشَّيْءُ وَأَخُولُ: أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ أَوْ أَحْوَالٌ، وَأَحَالَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ فِيهِ حَوْلًا، وَقَالَ الْخَلِيلُ:
أَرْضٌ مُسْتَحَالَةٌ تَرَكَّتْ أَعوَامًا مِنَ الزَّرَاعَةِ.

وَالسَّنَةُ اسْمٌ لِاثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، وَهُوَ اسْمٌ مَنْقُوصٌ وَالذَّاهِبُ مِنْهُ فِي لُغَةٍ كَثِيرٌ مِنْهُمْ
الِهَاءُ، كَانَ الْأَصْلُ سَنَةً، فَحُذِفَ الْهَاءُ لِمُنَاسَبَتِهَا لِحُرُوفِ الْمَدِّ وَاللَّيْنِ وَعَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ تَصْغُرُ
سَنِيَّةٌ، وَيُقَالُ مِنْهُ: هُوَ يَعْمَلُ مُسَانِيَةً، كَمَا يُقَالُ: مُعَاوِمَةٌ وَنَخْلَةٌ سَنَهَاءٌ: تَحْمِلُ عَامًا وَتَحُولُ
عَامًا قَالَ:

لَيْسَتْ بِسَنَهَاءٍ وَلَا رَجِيَّةٍ وَلَكِنْ عَرَايَا فِي السَّنِينَ الْجَوَائِحِ

وَفِي لُغَةٍ غَيْرِ هَؤُلَاءِ الذَّاهِبُ مِنَ الْوَاوِ، كَانَ الْأَصْلُ سَنُوءَةً، فَحُذِفَ الْوَاوُ تَخْفِيفًا ثُمَّ
جُمِعَتْ عَلَى سَنِينَ جَبْرَانًا بِالنَّقِيصَةِ لِأَنَّ جَمْعَ السَّلَامَةِ إِذَا حَصَلَ فِي غَيْرِ النَّاطِقِينَ وَمَنْ جَرَى
مَجْرَاهُمْ يَكُونُ لِلتَّخْفِيمِ وَالْعَظِيمِ، أَوْ جَبْرًا لِنَقْصِ دَاخِلِ عَلَى الْاسْمِ، وَالْأَسْمَاءُ الْمَنْقُوصَةُ
تَجِدُ الذَّاهِبَ مِنْهَا فِي الْأَعْمِ الْأَكْثَرَ الْوَاوِ وَالْيَاءُ لِمُنَاسَبَتِهِمَا إِيَّاهُمَا، وَكَمَا يَحْذِفُونَهُمَا حَذْفًا
يَعْلَمُونَهُمَا بِالْقَلْبِ وَالْإِبْدَالِ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى التَّخْفِيفِ، وَعَلَى ذَلِكَ هَذِهِ اللَّغَةُ يُصَغَّرُ
سَنِيَّةٌ وَتَجْمَعُ سَنَوَاتٌ وَيُقَالُ: هُوَ يَعْمَلُ مُسَانَاةً، وَيُقَالُ: أَسْنَى الْقَوْمُ وَهُمْ مُسْنُونَ: إِذَا أَتَتْ
عَلَيْهِمْ سَنَةٌ، وَقَدْ جَعَلَ السَّنَةَ اسْمًا لِلْجَدْبِ، فَيُقَالُ: أَصَابَتْهُمْ السَّنَةُ، وَجَعَلَ الْفِعْلَ مِنْهُ
أَسَنَتْ، فَرَقًا بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَغَيْرِهِ، يُقَالُ: أَسَنَتْ الْقَوْمُ وَهُمْ مُسْتَنُونَ، وَعَلَى هَذَا لُغَةٍ مِنْ
جَعَلَ لَامَهُ وَوَاوًا دُونَ اللَّغَةِ الْأُخْرَى، وَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِمَا فِيهِ لَغَتَانِ وَيُقَالُ أَيْضًا: رَجُلٌ
سَنَتْ: أَيُّ قَلِيلِ الْخَيْرِ، وَقَوْمٌ سَنَتُونَ، وَالتَّاءُ مِنْ أَسَنَتْ هُوَ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ، وَهَذَا كَمَا فَعَلُوا
فِي بَنَاتٍ وَأَخْتٍ، ثُمَّ جَعَلَ الْبَدَلَ فِي أَسَنَتْ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَخْتَصَّ بِالْجَدْبِ، حَتَّى كَانَتْ
وَضَعُ لَهُ، فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا لِلْوَقْتِ وَهَذَا كَمَا جَعَلَ الْبَدَلَ فِي قَوْلِهِمْ: عِيدٌ، لِأَنَّهُ
فَقِيلَ: عُنِيدَ وَأَعْيَادٌ فِي تَصْغِيرِهِ وَجَمْعُهُ وَلَمْ يَرْدَوْهُ إِلَى أَصْلِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَ يَعُودُ لِقَصْدِهِمْ
إِلَى أَنْ يَخْتَصَّ بِمَا يَفِيدُهُ بَعْدَ الْإِبْدَالِ الْعَارِضِ فِيهِ كَأَنَّهُ بَنَاءٌ آخِرُ لَهُ وَلَيْسَ بِمَشْتَقٍ.

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: الْعَامُ، فَيُقَالُ مِنْهُ: عَاوَمَتِ النَّخْلَةَ إِذَا حَمَلَتْ سَنَةً وَحَالَتْ أُخْرَى، وَعَنْبٌ
مَعُومٌ: كَثُرَ حَمْلُهُ سَنَةً وَقَلَّ أُخْرَى. وَفِي الْحَدِيثِ نَهَى عَنِ الْمَعَاوِمَةِ، وَهُوَ: أَنْ تَبِيعَ الزَّرْعَ

عامك بما يخرج من قابل، وهو أن يزيد على الدَّيْن، ويؤخَّر في الأجل، ويقال: أتيته ذات عويم: أي العام، ويقال: أعوام عوم وعام عايم على التَّوكِيد، كما يقال: شعر شاعر، وهو عامي إذا أتى عليه عام. قال العجاج: من أن شجاك طَلَّلَ عامي.

فصل

قال قطرب: العام لما أنت فيه، وقابل للثاني لأنَّه يستقبلك، وجمعه قوابل وقباقيب للعام الثالث، ومقبب للعام الرابع. قال: وكان أبو عمرو بن العلاء يعرف مقبباً في العام الرابع، وجمعه القباقيب بفتح أوَّله، وهذا كما قيل: عذافر وعذافر وجوالق وجوالق، وأنشدنا أبو علي في قابل وهو من أبيات الكتاب:

فقال: امكشي حتى يسار لعلنا نحجُّ معاً قالت أعاماً وقابلُ؟

ومما يُسأل عنه أن يقال: من أين جاز أن يقال عاماً أوَّل، ولا يوماً أوَّل، ولا سنةً أولى. والجواب: أنَّ قولهم عاماً أوَّل مما عمدوا فيه إلى تخصيصه بشيء لا يكون في غيره، اعتماداً على التَّعارف، لأنَّ المعنى: عاماً أوَّل من عامي، فلما كانت الكلمة متداولة وكانت الحاجة إلى كثرة استعمالها ماسَّة حذفوا وأجزوا معتمدين على عِلْم المخاطب، والنِّية الإتمام، ومثل هذا الاختصاص قولهم: اليوم فعلت كذا، جعلوه ليومك الذي أنت فيه، ولا يقولون: لقيته الشهر، ولا السنة، وقد قالوا أيضاً: لقيته العام وإن كان العام بمعنى السنة قال:

يا أيُّها العام الذي قد رابني أنت الغداء لذكر عام أوَّلاً

فإن قيل: ولم احتجَّ إلى من حتى قدرت في قولك: عاماً أوَّل أن أصله عاماً أوَّل من عامي. قلت: إنَّما افتقر الكلام إلى من لأنَّهم أرادوا أن يبينوا في أفعل ابتداء الزيادة من أي شيء كان ليعرف حدَّه ومبتدؤه. ألا ترى أنَّ معنى قولك: زيد أفضل من عمرو أنَّ ابتداء زيادة فضله من فضل عمرو، فهو حدَّه. وأوَّله، فكَذلك قولهم: عاماً أوَّل فاعلمه.

واعلم أنَّ حيثُ في الأمكنة بمنزلة حين في الأزمنة، بدلالة أنَّه يقع على كل مكان، لا جهة من الجهات السَّت إلَّا ولإيهامه يقع عليها، واحتاج في الاستعمال إلى جملتين: جملة يضاف إليها، وجملة تفيد حدثاً يقع فيه، كما أنَّ حين يقع على كلِّ زمان. ولذلك أضيف إلى الجمل الخبرية من الابتداء، والخبر والفعل والفاعل والشرط والجزاء، كما فعل ذلك بإذ وأخواته - وإن كان ذلك خارجاً من شروط الأمكنة، لأنَّ المكان إذا جاء بهما حكمه أن يضاف إلى مفرد يخصَّصه، فلما تناهى حيث في الإيهام لانتظامه جميع الجهات، ولم يضاف إلى مستحقِّه من مفرد يخصَّصه بل أضيف إلى جملة، صار هو مضافاً إليها في حكم المفرد

فأشبهه الغايات من نحو: قبل وبعد وما أشبههما، لأنها هي مفردة تَصَمَّنَت معنى المضاف إليه وهو معرفة فبنيت جميعاً لذلك، إلا أنَّ الغايات وجب أن تبنى على حركة لأنها ممَّا قد يتمكَّن في غير هذا الموضع، فصارت لها مزيَّة على ما لا يتمكَّن البتَّة، فبناؤها لما لها في أوَّل أمرها وحيث وجَب أن تُبنى على سكون لعدمها تلك المزيَّة، لكنَّه حرَّك آخره لالتقاء الساكنين.

وفي حيث لغات أربع: حيث وحيث وحوث وحوث، فالضَّم لدخوله في شبه الغايات مما ذكرناه والفتح لخفَّته. وحكى الكسائي عن بعضهم أنَّهم يكسرون حيث فيقولون: من حيث لا يعلمون كسرة إعراب، ويمكن في هذا أن يقال فيه: إنَّه شبَّه باسم الزمان إذا أضيف إلى غير متمكَّن، نحو من خزي يومئذ ويومئذ وعلى حين عاتبت وحين عاتبت.

والغايات أصلها الظُّروف وإعرابها في الأصل: للنَّصب والجَر، وكان تمامها بما كانت تضاف إليه، فأفردت عنه اعتماداً على علم المخاطب به وجعلت في نفسها غاية الكلام ونهايته، حتَّى كأنَّه لا افتقار فيه إلى غير هذا، وقد ضَمَّن معنى ما كان مضافاً إليه ويصير به معرفة، والاسم إذا تَصَمَّن معنى حرف فَحَقَّه أن يبنى، وإنَّما قلنا: ويصير به معرفة أنك لو نكَّرتَه لأعرب وأجرِي على أصله، تقول: جئت قبلاً وبعداً كما تقول: أولاً وآخرأ كما أنَّك لو أضفَّته، فقلت: مِن قبل كذا، ومن بعد كذا لأعرب ولم يُبَيَّن.

وقال أبو العباس: يقول في الجملة: إنَّ كلَّ ما كان حقَّه الإضافة فحذفت منه استغناءً بعلم المخاطب فإنَّه معرفة مِن غير جهة التعريف وَحَقَّه البناء، فمن ذلك: قبل - وبعد - وأوَّل - ومنذ - وليس - وغير - يدلُّك على حذف المضمَر ما يحذفه بعد حرف الاستثناء إذا قلت: عنده درهم ليس إلا، حَذَفْتَ ما بعد إلا استغناءً ومنها: مِن عل ويا زيد، ومنها: قَطَّ وهو لما مضى من الدَّهر وحسب وهي للاكتفاء ومعنى قَطَّ فيما مضى فانقطع، والقَطَّ القطع عرضاً، والقَدَّ القطع طولاً، فهو معرفة لا يدخله الألف واللام ولا الإضافة.

وقال شيخنا أبو علي: قَطَّ اسم ينتظم أوَّل وقت، ذِي الوقت إلى آخر ما بلغه منه، فهو عبارة عن أمِدِّه ومدَّته، فوجب لذلك أن يكون مضافاً إلى ذِي الوقت كما أضيفَ إليه قبل وبعد، فلمَّا اقتطع عن الإضافة بُني على الضَّم كما بَيَّنَّا، ومثل قَطَّ في انتظامه أوَّل الوقت إلى آخره، منذ: إذا أريد به تعريف أمد الشيء وذلك نحو أن تقول: لم أر زيداً، فيقال: ما أمد ذلك، وما مدَّته، يعني انقطاع الرُّؤية فتقول: منذ عشرون يوماً فابتداء الوقت وانتهاءه هذا في انتظام الاسم الذي هو مدَّة لهما، وَمِن ثم بُني منذ أيضاً على الضَّم حيث كان غايةً مثل قَطَّ، ويجوز في جوابه المعرفة والنكرة وأبدأ يدخله الألف واللام لأنَّه نكرة ومعنى أبدأ فيما اتَّصل وامتدَّ من الوقت، ومنه الآبدة والأوابد. ومعنى قَطَّ مخفَّفة مسكَّنة إذا قلت: قَطَّك ليَكْفِكَ

وَإِكْتَفٍ وَمِثْلَهُ قَدْكَ وَحَسْبُكَ وَلِتَضْمُنْهُمَا مَعْنَى الْأَمْرِ فِي أَوَّلِ أَحْوَالِهِمَا، اسْتَحَقَّ الْبِنَاءَ، وَمِثْلَ قَطٍّ وَقَطْلِكَ فِي أَنَّهُ يَسْتَعْمَلُ مَثْقَلًا وَمَخْفَفًا قَوْلُهُمْ: بَخٌّ وَبَخٌّ.

قال محمد بن زيد: يقال: بَخٌّ بَخٌّ، ويثقل أيضاً كما قال في حسب بَخٍّ وعزاقس وأنشد غيره شعراً:

بَيْنَ الْأَشْجِ وَبَيْنَ قَيْسٍ بِأَذْخٍ بَخٌّ بَخٍّ الْوَالِدَةُ وَالْمَوْلُودُ

وقال أبو إسحاق الزبائدي: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مَهْلًا لَيْسَ مِنْ قَوْلِكَ مَهْلًا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا اسْمُ انْصَرَفٍ وَهُوَ تَامٌ، وَامْتَنَعَ مِنَ الصَّرْفِ وَهُوَ نَاقِصٌ. فَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَازِنِيُّ: بَلَى قَطٌّ الْمَخْفَفَةُ، زَعَمَ سَبِيوِيهٌ أَنَّهَا مَخْفَفَةٌ مِنْ قَوْلِكَ قَطَطَتْهُ قَطًّا، قَالَ: وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى قَطٍّ مَعْنَى حَسَبٍ، فَهُوَ لِقَطْعِ الشَّيْءِ يُقَوِّي مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو عَثْمَانَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ فِي حَسَبٍ: بَخٌّ فَأَعْرَبُوهُ مَثْقَلًا وَبَنُوهُ مَخْفَفًا وَتَقُولُ: جِئْتُ مِنْ فَوْقٍ، وَمِنْ تَحْتٍ، وَمِنْ أَمَامٍ وَمِنْ دُونٍ، فَالضَّمُّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مُسْتَعْمَلٌ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنْتُهُ.

فَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ عَلَّ فَمَعْنَاهُ مِنْ فَوْقٍ، وَفِيهِ عِدَّةُ لُغَاتٍ ذَكَرَهَا أَهْلُ اللَّغَةِ وَسَبَّلَهَا سَبِيلًا مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ جَمِيعَهَا فِي تَقْدِيرِ الْإِضَافَةِ، فَإِذَا حُذِفَتِ الْمِضَافُ إِلَيْهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعْرِفَةً أَوْ نَكْرَةً، فَإِنْ كَانَ الْمَحْذُوفُ نَكْرَةً تَنَكَّرَتْ وَأَعْرَبَتْ وَإِنْ كَانَ مَعْرِفَةً بَنِيَتْ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ قَدْ اكْتَفَى بِبَعْضِهِ عَنْ جَمِيعِهِ، وَبَعْضُ الْأَسْمِ يُبْنَى وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ لَ: إِذْ مَوْضِعًا آخَرَ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا، وَهُوَ قَوْلُكَ: بَيْنَا زَيْدٌ قَائِمٌ إِذْ رَأَى عَمْرَوًا. وَبَيْنَمَا زَيْدٌ قَائِمٌ جَاءَ عَمْرُو، فَبَيْنَمَا عِبَارَةٌ عَنْ حِينٍ، وَالْمَعْنَى وَقْتُ أَنَا قَائِمٌ جَاءَ عَمْرُو، إِلَّا أَنَّ بَيْنَمَا مَتَمَكَّنَتْ فَلَهَا صَدْرُ الْكَلَامِ بِمَنْزِلَةِ مَذٍ الَّذِي يَرْفَعُ الْخَبَرَ. وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَجُرُّ بِهَا الْمَصْدَرُ خَاصَّةً وَيَنْشُدُهُ: بَيْنَا نَعْتَقُهُ الْكِمَاءُ وَرَوْغُهُ، يَرِيدُ حِينَ يَعْتَقُهُ وَالتَّحْوِيُونَ يَخَالِفُونَهُ لِأَنَّهَا بِمَهْمَةٍ لَا تَصَافُ إِلَّا إِلَى الْجُمْلِ الَّذِي بَيَّنْتَهَا. وَقَالَ سَبِيوِيهٌ: إِذْ يَكُونُ لِلْمَفَاجَأَةِ إِذَا قُلْتُ: بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ حَضَرَ عَمْرُو، وَبَيْنَا أَنَا أَكَلَمْتُ عَمْرُو إِذْ طَلَعَ زَيْدٌ.

وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ التَّحْوِيْنَ يَأْبُونَ وَقَوْعَ إِذْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لِأَنَّ مَعْنَى بَيْنَا الْحِينِ، فَإِذَا قُلْتُ: حِينَ زَيْدٌ قَائِمٌ إِذْ طَلَعَ عَمْرُو، فَلَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا مَا الْكَلَامِ حِينَ زَيْدٌ قَائِمٌ طَلَعَ عَمْرُو، وَإِذْ فَضْلَةٌ. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: أَشْعَارُ الْعَرَبِ عَلَى ذَلِكَ قَالَ:

بَيْنَا نَحْنُ نَرْقُبُهُ أَتَانَا مَعْلَقٌ وَفُضَّةٌ وَزَنَا دِرَاعُ

وقال امرؤ القيس:

فَبَيْنَا نَعَا جُ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً كَمْشِي الْعَذَارَى فِي الْمَلَأِ الْمَهْدَبِ
فَكَانَ يَنَادِينَا وَعَقْدَ عَذَارَةٍ وَقَالَ صَحَابِي قَدْ شَأُونُكَ فَاطْلُبِ

فأما ما قاله سيبويه فغير بعيد، وقد أجازاه قوم. وأنشد سيبويه شعراً:

بينما هُنَّ بالكثيب ضحىً إذ أتى راكبٌ على جمَلِه

وقولك: خرجت فإذا زيدٌ قائم، يجوز أن يقال: فإذا زيدٌ قائمٌ خرجت كما تقول: خرجت فإذا زيدٌ، لأنَّ إذا ظرف مكان وسُمِّي الاسم به والمعنى: فحضرتي زيدٌ وإذا إذا جعل للمفاجأة كان في مثل معناه وأما مذ ومنذ فقد قال أبو العباس: أوَّل ما يذكر من أمرهما أنه يجوز أن يكون كل واحد منهما اسماً وحرفاً جازاً ولذلك قال سيبويه: إنَّ مذ فيمن جرَّ بها بمنزلة من في الأتيام ومذ ومنذ شيء واحدٌ إلا أنَّ الأغلب على مذ أن يكون اسماً وعلى منذ أن يكون حرفاً لأنَّ التقصان إنما يكون في الأسماء والأفعال دون الحروف، وذلك في نحو: دَم ويد وخذ وكل.

والدليل على أنَّ مذ منقوصة من منذ أنَّك لو سمَّيت إنساناً أو غيره بمذ ثم صغرتَه لقلت منيد، فرددت ما ذهب فإنما هو بمنزلة لد ولدن ومن عل ومن علا وآتيك غداً وغدواً، فإن أردت في منذ أن يكون حرفاً قلت: لم أرك منذ يومين، ومذ يوم الجمعة ومعناه: من هذه الغاية، وكذلك سرت من مكان كذا، وإذا أردت أن يكون اسماً قلت: لم أر ذاك مذ يومان أي أمد ذاك يومان وهذا ابتداء وخبر والرفع في مذ أكثر. وإذا قلت: أنت عندنا مذ الليلة أو مذ اليوم صارت بمنزلة منذ التي غلب عليها الحرفية، وذاك لأنَّ العلة التي يوجب منها الاسم قد زالت لأنك إذا قلت: لم أرك منذ يومان، فالمعنى بيني وبينك يومان وإذا قلت: أنت عندنا مذ الليلة، فليس معناه بيني وبينك الليلة، إنما هو في الليلة فإنما المعنى فإذا قال: رأيت زيدا مذ يومان، فيجوز أن تكون الرؤية متصلة، ويجوز أن يكون رآه في ذلك الوقت، ثم لم يره بعده، وإنما هذا على قدر ما تقدم، يقول القائل: إنَّ زيدا يأتيك مذ مدة، فأقول: أنا رأيته مذ يومان أو شهران، وتأويل هذا إنما حدثت هذه الرؤية في هذا الوقت، أو يقول القائل: زيد يأتيك في كل يوم؟ فأقول: ما رأيته مذ يومان، أي قد انقطع عني بعدهما، ولو قال القائل مبتدئاً: رأيت زيدا مذ يومان، ثم لم يصله بكلام، ولم يعطفه على كلام، لم يحكم فيما بعد الوقت بشيء ويتصل بهذا أن تقول: رأيت زيدا مذ يومان، يختلف إلى عمرو، ورأيت زيدا مذ يومان يضرب عمراً، فإنما خبرت بوقت الضرب ولم تعرض لما بعده وتقول: رأيت زيدا يوم الجمعة أي أوَّل ما فقدته أوَّل يوم الجمعة، فيقع اللَّقي على جميع اليوم كما كانت الرؤية في جميعه. ويجوز أن يكون اللَّقي واقعاً على بعض اليوم فيكون حدَّ الرؤية منه مجاوز الأول الفقدان، وقول القائل: لا كالمشية زائر ومزورا معناه: لم أر زائراً كزائر رأيته اليوم، قال: ولا يقولون في سائر الصفات، يعني الظروف لا يقولون لا كنصف النهار ولا لا كهذه السنة قال الشاعر شعراً:

روحوا العشيّة رَوْحَةً مذكورة
 إن مثنَ مثنَ وإن حُيِّنَ حُيِّنَا
 لا كالعشيّة إن بقينَ بقينَا

واعلم أنّ قول القائل: ما برحت أفعل كذا براحاً. أي أقمتُ على فعله مثل ما زلت أفعله، وهذا في الزمان ولا بُدُّ له من خير. فإن قلت: ما برحت من مكان كذا، فالمعنى مَا زِلْتُ براحاً وبروحاً، وهذا في المكان كالأول في الزمان وقد مضى القول فيه، ويمضي في غير موضع من هذا الكتاب.

وقد قيل: إنّ براح اسمٌ للشمس معدولٌ عن البارحة الزائلة مثل قطام وقولهم جبل براح يوصف به الأسد والشجاع، لأنّ زواله متعذّر كأنه شدّ بالجبال، وهذا غريب فيما يشق، ومثله قول القائل: البارح من الظبا والطير هو المنحرف عن الزامي إلى جهة لا تمكنه من الزمي، والسّانح المقبل المتعرض في جهة تمكن. قال: ولذلك يُشَاءم بالبارح، ويُتِمَّن بالسّانح، قال: فأما مَنْ تِمَّنَ بالبارح، فلأنه نجا، ومَنْ تشاءم بالسّانح لأنه هلك. وقول ابن الأحمر:

غدوا وأعدوا الحيّ الزيّالا وشوقاً لم ييالوا العين بالا

الغدو يحتمل أمرين: يجوز أن يكون مصدرأ، ويجوز أن يكون اسم اليوم الذي يلي يومك، فإن جعلته مصدرأ يكون مثل غداً غدواً، ويكون مفعولاً واعدوا الزّيال المفعول الثاني، وينعطف عليه شوقاً كأنهم لما وعدوا بالزيال المهيج للشوق فقد وعدوا بالشوق.

ومثله الغدوّ في القرآن: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٢] فالغدوّ: مصدر بدلالة أنّه قابله بالزّواح، والتقدير مسيرة غدوّها مسيرة شهر، وإن جعلته اسم اليوم فمثله قوله: بها يوم حلّوها وغدوا بلاقع. والمعنى في غدو: أعدوا الحيّ الزّيال وشوقاً، ويكون المفعول الثاني محذوفاً، وأما قوله تعالى: ﴿وِظْلَاهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١٥] فيجوز أن يكون الغدوّ: جمع غد مثل نحو ونحو، ويقوي ذلك أنّه قبل به الجمع الذي هو الآصال، ويجوز أن يكون المصدر، ويقويه قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٤١] وقال:

أفدّ الرّحيل وليّته لم يَأْفِدْ فاليوم عاجله ونعذّل في غدٍ

أي اليوم عاجل البين، ونعذّل في غدٍ أي في أخبار غد يضيف المصدر إلى المفعول به لأنّه خرج بانجراره من أن يكون ظرفاً، فهو مثل: من دُعَاء الخير، ويسؤال نعتك، وقال: وليس عطاء اليوم مانعةً غداً. أي مانعة عطاء غدٍ فحذف المضاف.

البابُ الثالثُ عشر

فيما جاء مثني من أسماء الزّمان والليل والنّهار، ومن أسماء الكواكب وترتيب الأوقات وتنزيلها

يُقال: اختلف عليه العصران أي الليل والنّهار وقد يراد بهما الغداة والعشيّ، لأنّ العصر من أسماء العشيّ، ولذلك قيل: صلوة العصر، ثم يسمّى الغداة أيضاً عصرأ، ويشنّى كما يقال: القمران في الشّمس والقمر، وقد تصرفوا هذه اللفظة فقالوا: ألم يجيء فلان لعصر بضم العين أي لم يجيء حين مجيء.

وفي العصر لغتان: الضّم والفتح واستعمل في هذا أحدهما، وكذلك قالوا: أما نام لعصر أي لم ينم حين نومه، وما نام عصرأ، وكلّ ذلك بالضّم ويقال: أعصرت الجارية أي بلغت حين إدراكها. قال: قد أعصرت أو قد دنا إعصارها. وهذا كما يقال: أحصد الزّرع وأجدّ النخل، كأنّها بلغت عصر شبابها وعصور شبابها، فأما فعل كذا عصرة أي مرّة، فيجوز أن يكون من ذلك أيضاً.

وحكى بعضهم أنّ العصر لما قد سلف، ولم يجيء في شعر الفحولة إلا كذلك وقد جاء في شعر من دونهم، وقال ابن الكلبي: هو الدّهر كلّ الماضي والمؤتلف، ويقال: لا أكلمك العصرين، وما اختلف العصران، وهما القرنان والطفلان. قال لبيد:

وعلى الأرض غيابات الطّفّل. وقال: يسعى عليها القرنين غلام، وهما العصران والبردان والأبردان والبردتان، ويجمع فيقال: الأبارد. ويُراد بها أطراف النّهار.

وقال أبو سعيد الضّبرير: العيوق ما دام متقدّماً على الثّريا، ففي الزّمان بقيّة من الأبارد، وإذا استوى العيوق مع الثّريا فقد بقي منها شيء قليل، وقال ذو الرّمة:

وماج السّفا موج الحباب وقصّت مع النّجم عن أنف المصيف الأبارد

ويقال: اختلف عليه الملوّان: أي الليل والنّهار. قال ابن مقبل:

ألا يا ديارَ الحيِّ بالسَّبعانِ أملٌ عليها بالبلى الملوانِ

وهذا تشنية ملا، وقُسرَ أملٌ عليها: طال عليها. قال الشيخ: ويجوز عندي أن يكون أمل من إملال الكتاب، يقال: أمل الذُّروس والخلوقة عليها الملوان، ويكون الباء في قوله: بالبلى: إن شئتَ زائدة للتأكيد، وإن شئتَ قلت: أراد بسبب البلى ويكون مفعول أملَى محذوفاً.

وذكر بعضُ النظار أنَّ قولهم: ملوان لا يكون اللَّيل والنَّهار بدلالة قول ابن مقبل نهار، وليل دائم ملواهما. والشيء لا يضاف إلى نفسه ولكنه المتسع من الدَّهر، ولو قيل: غدَّوهما وعشيَّهما كان أشبه. وقال ابن أحمر شعراً:

ليهنْكم أنا نزلنا بِلْدَة كلا ملوة بها ميس غير منعَم

وقد تصرَّفوا في هذه اللَّفظة على أبينة مختلفة فقالوا: لقيتُ عنده ملوةً من الدَّهر وملوةً وملياً. قال الله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سورة مريم، الآية: ٤٦] ومضت ملاوة من الدَّهر وملاؤه وملاوة. قال أبو ذؤيب شعراً:

حتَّى إذا جزرت مياهُ رزويَة وبأيِّ حَزٍّ ملاؤه يَنْقَطِعُ

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٤] أي أُخَرَّت النِّقمة منهم يقال: أملَى الله لفلان العمر: أي أُخَر عنه أجله، وقوله: بأيِّ حَزٍّ ملاؤه، لفظة استفهام والمعنى معنى الخبر أي: تنقطع تلك المياه في حين، وأي حين، والمراد في أشدَّ ما كان حاجة إليها عند انتهاء الحر وذهاب الرِّطب، وانتشاف الغدران، وهذا كما تقول: في أيِّ حين ووقت زيدا حين تمكَّن العدو منه، وضاعت المسالك به، ويقال: على أيِّ حزة أنا فلان؟ أي أي ساعة وحين، وجئتنا على حَزَّة منكرة، وكأنه يعني ما حَزَّ من الدَّهر أي قُطِع، وإنما أضاف الحَزَّة إلى الملاوة، وهما اسمان للوقت، لأنَّ المراد بأيِّ ساعة من الدَّهر، فالحز اسم للجزء اليسير. والملاوة: للممتد المتَّصل، وهذا كإضافة البعض إلى الكل، ويقال: تملَّيت حبيباً: أي عايشته طويلاً ملاوةً وحيناً، وملاك الله نعمةً أي أدامها وأطال وقتها، وقال الأسود بن يعفر:

آليتُ لا أشريه حتَّى يملَّنِي وآليتُ لا أملاه حتَّى تعارقا

قال قطرب: قوله: أملاه أتى به على مليه: بلاه وقالوا: أملاك الجديدان والأجدان والفتنان: أي اللَّيل والنَّهار، وابنا سمير، وكل ذلك اشتقاقه وطريقته ظاهر، قال:

لم يلبث الفتان أن عَصَفا بِهِمْ ليلٌ يَكُرُّ عليهم ونهارٌ

وقال آخر:

غدا فينا دهرٌ وراحا عليهما نهارٌ وليلٌ يكثران الثَّوَاليا

ومن هذا الباب قولهم: لا أفعله ما اختلف الصَّرعان أي الغداة والعشي، ويقال: الصَّرعان: أي الغداة، وبالفتح أيضاً ويقال: أتيت صرعي النهار أي طرفه من طلوع الشمس إلى الضحى، وبالعشي بعد العصر إلى الليل، ثم قالوا: هما صرعان: أي مثلان، فعلى هذا يُراد باختلافهما تصرفهما، ويقال أيضاً: هو ذو صرعين: أي لونين ويجمع على الصروع، وما أدري على أي صرعى أمره وقع، أي حاله وتركهم صريعين: أي ينتقلون من حالٍ إلى حالٍ، وهو يفعله على كل صرعة، أي على كل حالة.

وحكى ابن الأعرابي: لا أكلّمك ما اختلف الصَّرعان: الحينان غدوةً وعشيةً، ومن كلامهم: عندك ديكٌ يلتقط الحصى صرعيه، يقال: هذا مثلاً للتمام، قال: وعلى هذا: يراد الاختلاف الذي هو ضد الوفاق. فأما قولهم: المِصرَاعان في الأبواب وأبيات الشعر فيجوز أن يكون من التماثل، ويجوز أن يكون من قولهم: هو صرع كذا أي حذاءه. الزَيادي اختلف عليه الفتنان، أي الغدوة والعشية من الفتون وهو الضروب.

وقال أبو سعيد في قول الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [سورة طه، الآية: ٤٠] أي فُتُوناً في اليمِّ وفي مَدِينٍ وحيث قيل: ﴿اخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [سورة طه، الآية: ١٢] وذكر يعقوب زرته: البردَيْنِ والقرنين أي طرفي النهار. وزرته الغربيين أيضاً: أي غدوةً وعشيةً. الأصمعي اختلف إليه الرَدفين أي الغداة والعشي - والغداة ردف الليل والعشي ردف النهار.

ويقال: لقيته بأعلى سحرينِ وبأعلى السَّحرين أي وقت السَّحر الأعلى وهو قبيل الصُّبح. قال: غَدَتُ بأعلى سحرينِ تَذأُلُ. وبأعلى سَحَر. قال العجاج: غدا بأعلى سحر وأجرسا. رد بعضهم بيت العجاج وقال: كان ينبغي أن يقول: بأعلى سحرينِ لأنّه أوّل تنفّس الصُّبح، ثم الصُّبح تقول: أسحرنا كما تقول: أصبحنا - وتسَحَرنا أكلنا سحوراً - وجئتكَ بِسَحَر - وبسَحرة - وبالسَّحر - وسحيراً.

وقال أحمد بن يحيى: الأسحار: الأطراف وبه سُمي سحر، وأنا أراك منذ سَحَر. وقال قطرب: أتيتك سحريةً وسحرياً وسحر، ويقول: سحرى هذه الليلة أيضاً. قال في ليلةٍ لا نحسن في سحرِها وعشائها.

ويقال: صبح ولا جمع له، وصباح وصبيحة وأصبوحة وإصباح، لأنّ العرب تجعل الإصباح لنفس الليل، فيقول: أصبح قال فبات يقول: أصبح ليلٌ حتى تجلّى عن صريمة الظلام. والصُّبح صبحان، كما أنّ السَّحر سحران. ويقال: ابنا جمير اليومان اللذان يستسر القمر

فيهما في المحاق قبل البحيرة، وابن حمير أيضاً.

وحكى أبو العباس المبرّد أنه يقال للشتاء والصف: العصران وكذلك لكل مختلفين معناهما واحد. قال الرّبيع بن صبيح:

أصبح منّا الشباب قد بَكَرا إن بان منّا فقد ثوى عصرا
يعني سنين كثيرة، والقارنان اللَّيل والنَّهار وأنشد للكُميت شعراً:

يا من عذ يرى من ذواله كم ذا يزيدُ على إباله
يغدو عليّ مقارناً كالقَلوْنَيْنِ مع الغزاة
فلا جبانك مشقصاً أوساً أويس من الهباله

قوله: على إباله، مثل يقال للرجل إذا جاء بمكروه ثم أعقب بعده بمثله ضغث يزيد على إباله، والإباله الحزمة الكبيرة. قوله فلا جبانك يريد لأرميتك بسهم حبالك. والأوس العطية، وأويس تصغير أوس وهو الذئب. والهباله من الاهتيال وهو الاغتنام، وقال بعضهم: الهباله اسم ناقة. يقول من يعذرني منه مقارناً غدوةً وعشيةً وقيل في القارين هما اللَّيل والنَّهار. ويقال للشمس والقمر القمران. قال: لنا قمرها والنجوم الطّوالع. ويقال لهما السّراجان من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجاً﴾ [سورة نوح، الآية: ١٦] والنّيران ومما جاء مثنى من أسماء الكواكب السّماكان الزّامح - والأعزل - والنّسران: الطّائر - والواقع - والفرقدان والشّعريان - العبور - والغميصاء - والمرزمان وهما مرزما الشّعريين والهراران - قلب العقرب والنّسر الواقع والخراتان^(١) في الأسد والغميصاوان والوزنان حضار - والوزن والمحلّفان وهما حضار والوزن أيضاً.

وقال ثعلب الهراران النّسران لأنّهما إذا طلعا في المشرق فهو نهاية البرد وهذا كما قيل: سهيل لأنّ الحرّ سهل عند طلوعه، وقيل للدبران الحادي والدّابر والتّابع ويقال: ما رأيته منذ أجردان وجريدان وأجدان وجديدان أي يومان أو شهران. وإبنا سمير اللَّيل والنّهار والسّمّر الدّهر وإبنا سبات اللَّيل والنّهار، وقيل إبنا سبات رجّلان وأنشده شعراً:

وكُنّا وهُم كابني سباتٍ تعزفا سوى ثم كانا منجداً وتهاميا

وعرقوتا الدّلو والفرغان للمقدّم والمؤخّر، وحكى أبو العباس ثعلب: الأثرمان: الدّهر والموت وأنشد شعراً:

(١) والخراتان نجمان وهما زبرة الأسد والزّيرة بالضم الكاهل وكوكب من المنازل وهما كوكبان نيران بكاهلي الأسد يتزلهما القمر - قاموس.

ولَمَّا رَأَيْتَكَ تَنْسِي الذَّمَامَ وَلَا قَدَرَ عِنْدَكَ لِلْمَعْدَمِ
وَتَجْنُو الشَّرِيفَ إِذَا مَا أَخْلَ وَتَنْسِي الدُّنْيَا عَلَى الدَّرْهِمِ
وَهَبْتَ أَخَاكَ لِسُلَاحِمَيْنِ وَلِلْأَثَرَمَيْنِ وَلَمْ أَظْلَمِ

أَخْلَ: احتاج من الخلعة والأعجمان: السيّل والحريق، وحكى أبو عمر وغلّام ثعلب
مرزم السّمّاك ومرزم الجوزاء.

فصل

في ترتيب الأوقات وتنزيلها

قال أبو نصر: تكوير اللَّيْلِ على النهار والنّهار على اللَّيْلِ أن يلحق أحدهما بالآخر.
وإيلاج النّهار في اللَّيْلِ، واللَّيْلِ في النّهار، دخول أحدهما في الآخر. وقال الخليل: التكوير
تغشية اللَّيْلِ النّهار والنّهار اللَّيْلِ. ومنه كارة القصار. وقال الدّريدي: الكور كور العمامة
والقطعة العظيمة من الإبل، وفي المثل: نعوذ بالله من الحور بعد الكور، أي النّقصان بعد
الزيادة، وكرت العمامة كوراً، وكذلك الكارة وكار الرجل، واستكار: أسرع في مشيته يكور
كوراً، وزلف اللَّيْلِ من النّهار والنّهار من اللَّيْلِ ساعات كل واحد منهما يأخذه من صاحبه،
والواحدة زلفة. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النّهارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [سورة هود،
الآية: ١١٤] ومنه المزالف والزّلفى ومزدلفة.

وقال الخليل: مزدلفة: سميت بهذا الاسم لاقتراب النّاس إلى منى بعد الإفاضة من
عرفات، قال الأصمعي: إذا طلع الفجر فأنّت مفجر حتى تطلع الشّمس فإذا طلعتْ فأنّت
مُشرق إلى ارتفاع النّهار، ثم أنت مضح. وفي القرآن: ﴿فَأَتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [سورة الشعراء،
الآية: ٦٠] في وقت طلوع الشّمس، والإشراق والشّريق انبساطها، والشّروق طلوعها. ثم
أت مُضح حتى تزول الشّمس، فإذا زالت فأنّت مُهجر ومظهر إلى أن تصليّ العصر، ثم أنت
مغصّر ومقصر ومؤصل إلى أن تخمّر الشّمس، ثم أنت مطفل إلى أن تغيب، فإذا غابت فأنّت
مغيب ومغرب وموجب ومشفق ومسدف، فإذا غاب الشّفق فأنّت مظلم ومفحم.

قال أبو العباس ثعلب: يقال: رجل نهر وسابح إذا كان يتصرّف في النّهار دون اللَّيْلِ،
فإذا كان باللَّيْلِ دون النّهار قيل: هو ليلي لابس، وهذا أخذه من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاساً وَجَعَلْنَا النّهارَ مَعَاشاً﴾ [سورة النّبا، الآية: ١٠-١١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النّهارِ
سَبْحاً طَوِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية: ٧] وقد قيل: سبّحاً أي: عملاً وتقليباً ومنه سُمّي السّابح
لتقلبه يديه ورجليه ولباساً: أي استمتاعاً من قوله:

لَبِسْتُ أَبِي حَتَّى تَمَلَيْتُ عَيْشَهُ وَمَلَيْتُ أَعْمَامِي وَمَلَيْتُ خَالِيَا

وذكر بعض أصحاب المعاني أنَّ العيشة والعيش ليسا بالحياة، ولكن ما يستعان به على الحياة واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [سورة النبا، الآية: ١١] قال: وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة القصص، الآية: ٧٣] وقال في موضع آخر: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٧] أي ما ألبسهم مِنْ ظلمته فلبسوه لباساً، والنوم سباتاً أي سكوناً وأنشد لأمية:

ما أرى مَنْ يَعِشْنِي فِي حَيَاتِي غَيْرَ نَفْسِي إِلَّا بَنِي إِسْرَائِيلِ

وقال: المراد بقوله: يعيشني يعنيني على أمر الحياة، والسكون إنما هو في الليل والابتغاء من فضله بالنهار، ولكن لما عطف أحدهما على الآخر أخرجاً مخرج الواحد الجامع للشئيين، ونظير هذا من الكلام: لئن لقيت زيدا وعمراً لتلقينَّ منهما شجاعةً وفصاحةً، على أنَّ الفصاحة لأحدهما والشجاعة للآخر، وهذا بمنزلة ما يقع في الجمع إذا قلت: في بني فلان خير وشر، لأنَّ الدَّعوة قد ضمَّتْهم جميعاً فانطوت على الخير والشر، وإنَّ كان الخير في جماعة والشر في آخرين، وكذا كلُّ تشية وجمع تعلَّق الخبرُ به على الإجمال، لأنَّه يصير كالواحد.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٧] أي: يُنشرون فيه عن نومهم بالليل، والانتشار النَّصرف. وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ [سورة القصص، الآية: ٧٢] أي دائماً، يقال: هو يسهر سهراً سمرداً إذا لم يكتحل فيه بغمض ولا يكون السَّرمَد ما يقع فيه فصل، وقوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لِنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ﴾ [سورة النمل، الآية: ٤٩] أي تحالفوا، وكلَّ عمل بالليل تبَّيت. ويقال: هو أمرٌ دُبِّرَ ليليل. ويقال للصَّقيع: البيوت، لوقوعه بالليل، وفي القرآن: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْصُقُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٠٨] وأنشد أبو عبيدة شعراً:

أتوني فلم أَرْضَ ما بَيَّتُوا وكانوا أتوني بأمرٍ نُكِّرِ

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٢] الخلفة ما خلف بعضه بعضاً أي كل واحد يخلف صاحبه، قال زهير:

بها العينُ والأرَامُ يُمَشِينَ خِلْفَةً وأطلاؤها ينهضنَّ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِ

ومعنى لمن أراد أن يذكر، يريد لمن أراد أن يتذكر ويستدلَّ على نعم الله على خلقه وعلى أنواع لطفه فيما تعبدُّهم به وتظاهر حججه وتبيناته فيما نذبهم إليه، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [سورة القمر، الآية: ٣٢] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الألباب ﴿سورة الرعد، الآية: ١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٢] يريد أو يتأمل ما ينقل فيه حالاً بعد حال من صنوف آلائه، ووجوه إحسانه، فيضم الشكر فيه. قوله: خلفه فيما يؤديه من المعنى كما حكاه أبو زيد من قولهم: وُلِدُ فلانٍ شطراً، والمراد ذكورهم بعدد إناثهم، فهذا من الشطر، كما أنَّ ذاك من الخلافة. والنشئة والناشئة أول ساعات الليل.

وقال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل نومةً ثم قمت، فتلك الناشئة والنشئة حجر يكون على الحوض. قال ومنه قوله: هرقناه في بادي النشئة دائر والنشئة الجارية. ومنه قول الشاعر شعراً:

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نَصِيبُ لَقَلْتُ بِنَفْسِي النَّشَا الصَّغَارُ

قال أبو العباس المبرد: إذا قال القائل: ما رأيته مُدَّ مدَّةً من يومي علم أنَّ ذلك ساعة أو ساعات. وإذا قال: مذ مدَّة من عمري علم أنَّ ذلك سنة أو سنون أو ما يدانيه.

ومن ظروف المكان مني فرسخين: وكان شيخنا أبو علي يقول: هذا كان يقوله الدليل لمن يستهديه، أي: إني أرشدك في فرسخين، ومعنى من شأني وأمري كما قال: فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي ويجوز أن يقول: أَنْتَ مِنِّي فرسخان، كأنه جعله نفس الفرسخين. والمعنى: يَبِينَا هذه المسافة، فأما قولهم: هو مِنِّي معقد الإزار ومقعد له لقابلة، ومناطق الثريا فإنما ساغت أن تكون ظرفاً وإن كان المحدود من الأماكن لا يجعل ظرفاً لأنها أزيلت عن مواضعها، فوضعت موضعَ القرب والبعد، فدخلها بذلك الإبهام، وتقول: اليوم الجمعة واليوم السبت، وجعلت الثاني هو الأول، فرفضت لكونه مبتدأ أو خبراً، وإن نصبت فقلت: اليوم السبت واليوم الجمعة جاز. وتجعل الثاني كالحديث لتضمينه معنى الفعل، فيصير كقولك: اليوم الخروج، وغداً الارتحال، ولو قلت: زيد اليوم لم يَجُزْ، لأنَّ ظروف الأزمنة لا تتضمن الأشخاص والجثث، لأنها لا تخلو منها على كلِّ حالٍ، فلا يحصل في الكلام فائدة، وكذلك إذا قلت: حضرت يوم الجمعة، كان يوم الجمعة ظرفاً لا غير، لأنك إن جعلته مفعولاً لم يكن فيه فائدة، لأنه لا يغيب عنه أحد وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٥] ويقول: الصيام عشرة أيام إلّا يوماً، فلا يجوز إلا الرفع لأنه يريد الوقت كله فهو كقوله تعالى: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٢] وتقول: اليوم عشر من الشهر والاختيار النصب، وكذلك إذا قلت لك: اليوم شهران أو سنتان نصبت اليوم، وإن سقط من الشهر شيء لأنَّ الاسم يستحق منه على نقصانه، وتقول: لا أكلمك أخرى الليالي ذكر أخرى ليصلها بما قد مضى، وكذلك غابر الدهر: أي باقيه وقوله: رآها مكان السوق أو هو أقربا، مثل قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَصْفَلُ

منكم ﴿ [سورة الأنفال، الآية: ٤٢] أي في مكان أقرب أو أسفل ويقول: هو مني قدر أن تناوله يدي، وفوق أن يناوله يدي، وبعضهم يرفعه والوجه النصب وعلى هذا قوله شعراً:

وقد جعلتني من خريمة إصبعا ويقول: لقيته من قبل قبل

على التكرير، غاية ولقيته من قبل قبل تضيف الأول ولا تضيف الثاني، والتية في الإضافة أن تكون إلى نكرة، وإن كانت النكرة في مثل هذا المكان تفيد فائدة المعارف، بدلالة قوله آتيك عدداً، لأنه نكرة كالمعرفة، وقبل الذي لم تضيفه معرفة لكونه غاية بما ضمن، وهو في حكم البدل من قبل الأول، لأن إبدال المعرفة من النكرة هو الأصل، وإن شئت قلت لقيته من قبل قبل، تنوي الإضافة فيهما على ما بينته. ومثله قولهم: من وراء وراء في الوجه كلها. وقد ذكر سيبويه في قولهم: من عل أنه مضارع لقولهم: من عل لأنهما لما وقعا لمعنى واحد على تقديرين مختلفين سماء مضارعه، فأما قوله: وقد علاك مشيب حين لا حين، فالمراد حين غير حين أي جاء المشيب في غير أوانه، فأدخل النقي على حد ما كان موجباً.

فصل

في قوله تعالى: ﴿ماذا قال أنفا﴾ [سورة محمد، الآية: ١٦] وفي أحرف سواه يكثر البلوى به.

قال أبو زيد: يقال: أيتفت الكلام إيتافاً وابتدأته ابتداءً أو هما واحد، وأنشد:

وجدنا آل مرة حين خفنا جريرتنا هم الأنف الكراما
ويسرح جارهم من حيث أمسى كأ أن عليه مؤتفأ حراما

قال السكري: الأنف: الذين يأنفون من احتمال الضيم. قال شيخنا أبو علي: فإذا كان كذا فقد جمع فعلاً على فعل، لأن واحد أنف أنف بدلالة قوله:

وحَمَّال المئين إذا أَلَمَّتْ بنا الحدثان والأنف النصور

وجه هذا أنه شبه الصفة بالاسم، فكسرها تكسيره، فقالوا في جمع نمر: نمر وأنشد سيبويه: فيها عياسل أسود ونمر. وليس الأنف والأنف في البيتين مما في الآية في شيء، لأن ما في الشعر من الأنف، وما في الآية في معنى الابتداء ولم يسمع أنف في معنى ابتداء وإن كان القياس يوجبه.

وقد يجيء اسم الفاعل على ما لم يستعمل من الفعل نحو: فقير جاء عن فقر والمستعمل افتقر. وكذلك شديد، والمستعمل اشتد، فكذلك قولك أنفاً والمستعمل أيتف،

فأما قوله: كان عليه مؤتناً حراماً، فالمعنى كان عليه حرمة شهر مؤتلف حرام، فحذف المضاف وأقام الصفة مقام الموصوف، والتقدير: أن جارهم لعزهم ومنعتهم لا يهاج ولا يضام، فكأنه في حرمة شهر حرام وقوله: ويأكل جارهم أنف القصاص، فإنه يريد أنهم يؤثرون ضيقهم بأفضل الطعام وخيره فيطعمونه أوله لا البقاياء، وما أتى على نقاوته، فهذا جمع على أنف مثل: بازل وبزل قابل وقبل. وإذا كان كذلك قرىء قراءة من قرأ: ﴿ماذا قال أنفاً﴾ [سورة محمد، الآية: ١٦] وأما ما روي عن ابن كثير من قوله: أنفاً فمعجوز أن يكون توهمه مثل حاذر وحذر، وفاكه وفكه والوجه الرواية الأخرى أنفاً بالمد كما قرأ عامتهم.

وقال بعض أصحاب المعاني: لا يمتنع أن يكون الباب الذي قسمه كله من أصله واحداً وهو التقدم، وتكون الأنفة من الأنف الذي هو الجارحة، وسميت به لتقدمه في الوجه. ثم جعل ما يؤنف منه من الدل، كإضافة الأنف وجذعه يبين هذا ويشهد له قولهم: يعير أنف ومأنوف: إذا عقره في الخشاش فانقاد لما يُراد منه، وفي الحديث: «المسلم هينٌ لئن إن قيدَ انقاد» وقد نسب الدل إلى الأنف في كلامهم حتى قيل: هو يحمي أنفه من كذا وهو حمي الأنف، والشاعر قال:

ولا نال أنفاً منه بالذل نائلٌ

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿ماذا قال أنفاً﴾ [سورة محمد، الآية: ١٦] أراد في أول وقت يقرب منّا، وقال الخليل: أنفت فلاناً أنفاً، كما تقول: الذي قبل أي قبل كأنه أراد أنفته فأنف أنفاً، والمعنى حركته من أقرب وقته فابتداء هذا بيان ما رمى به الخليل. ويجوز فيه وجه آخر: وهو أن يريد ماذا قال فيما أنفه وأنفاً ويكون أنفته وأنفاً من باب قُم قائماً وأشباهه. ويكون اسم الفاعل نائباً عن المصدر، قال: وأبتفت ايتناً أول ما يبتدأ فيه، والمستأنف من الكلام والأمر كذلك.

قال أحمد: وعلى ما حررناه من كلام المعترض وحكاية الخليل، صَحَّ قراءة ابن كثير وتوجّه اختياره أنفاً غير ممدود قياساً وسماعاً، ولم يكن متوهماً فاعلمه.

ومن الأحرف التي نداولها قوله تعالى: ﴿وأذبار السجود﴾ [سورة ق، الآية: ٤٠] هو مصدر والمصادر تجعل ظروفاً على إرادة إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها كقولك: جئتك مقدم الحاج، وخفوق النجم، وخلافة فلان، يريد في ذلك كله وقت كذا فحذفه فكأنه قال: وقت أذبار السجود، إلا أن المضاف المحذوف في هذا الباب لا يكاد يظهر وهذا أدخل في باب الظروف من قولك: أذبار السجود إذا فتحت وكأنه أمر بالتسبيح بعد الفراغ من الصلوة.

وقد قيل: أريد به البركعتان بعد المغرب، وأذبار جمع دبر ودبر وقد يستعمل ظرفاً نحو: جئتك في دبر الصلوة، أي في أذبار الصلوة، وقال شعراً:

على دبر الشهر الحرام لأرضنا وما حَوْلها جدت سنون تَلَقُّعُ

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢٢] أي منتهى شبابه وقوته واحدها شد مثل فلس أو شد مثل فلان ودي، والقوم أودى، أو شد مثل نعمه وأنعم، ومعناه قال مجاهد: ثلاثاً وثلاثين سنة واستوى معناه أربعين سنة، قالوا: وأشدُّ اليتيم ثمانى عشرة سنة. قال أبو زيد: يقال: هو الأشد وهي الأشد، وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ١٥].

قال الفراء: الأشد هنا هو الأربعون أقرب إليه في التسق، وأنت تقول: أخذت عامة المال، إذ كلّه لا يكون أحسن من أن يقول: أخذت أقلّ المال، أو كلّه وأنشد المفضل في شد:

عهدي به شدّ النهار كأنما خضب اللّبان ورأسه بالعندم

وعند أكثر أصحابنا البصريين أنّ الأشدّ واحدٌ، وأنه شاذ لأنه لم يجيء أفعَل في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٤] من القائلة وهو الاستكنان في وقت انتصاف النهار، وجاء في التفسير لا ينتصف النهار يوم الجمعة حتّى يستقرّ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فتحن القائلة، وقد فرغ من الأمر فيقول كلٌّ من الفريقين في مقره.

السنون التي دعا النبي ﷺ فيها على مُضر وقال: «اللهم اشدّد وطأتك على مُضر، واجعلها سنين كسني يوسف» يقال: كان الناظر منهم يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع، ويقال: بل قيل للجذب دخان، حتّى قيل في قوله تعالى: ﴿بَدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الدخان، الآية: ١٠] أي جذب، ليس الأرض، وارتفاع الغبار، فسبّه ذلك بالدخان، ومن مجازهم واتساعهم: ارتفع له دخانٌ إلى السماء هذا لبشر وذلك إذا علا.

البابُ الرابعُ عشر

في أسماء الأيّام على اختلاف اللُّغات ومناسبات اشتقاقها وتثنيها وجَمْعها

قال قطرب: أسماء الأيام: السَّبْتُ - والأحد - والاثنان - والثلاثاء - والأربعاء - والخميس - والجمعة. فالأحد ها هنا اسم وأصله: وحد وقد يكون صفة مثل قوله: بذي الجليل على مُستأنسٍ وحد. ومعنى الواحد الذي لا ثاني له وإنما لم يثنَّ وهو اسم لأنه متى ثُنِّي خرج من أن يكون واحداً، فلذلك لم يقل: وحدان وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة جاء في أحرف معدودة. والاثنان من ثنيت الشيء إذا ضَعَفْتَهُ ثنياً ثم يسمَّى المثنى ثنياً، ولا يقال في أحد اثن، لأنه إذا أفرد عما يُثنى به لم يستحقَّ هذا الاسم. فأما الثلاثاء والأربعاء والخميس فإنها وإن أُريد بها ما يراد من أسماء العدد إذا قلت ثلاثة وأربعة وخمسة، فإنَّ في تغيّر الأبنية لها قصد. وسيبويه قال: أحبوا في الأوقات أن يحصوها بأبنية تلزمها من بين سائر المعدودات، وشبَّهها بقولهم: عدل وعديل ووزين ووزان في الفصل بين الأجناس. وحكى سيبويه: هذا يوم اثنين مباركاً فيه. واستدلَّ على تعريفه بانتصاب الحال بعده، وفيه على هذا تعريفان.

الأوّل: باللام تعريف الحارث والعباس.

الثاني: تعريف العَلَمِيَّة والوضع، كما أنَّ عروبة، والعروبة للجمعة كذلك، والسَّبْتُ سُمِّيَ به قيل: للراحة، ومنه السَّبات التَّوم، ويقال: انسَبَّت الرَّجُل إذا اعترته سَكَنَةٌ. وقيل: أصل السَّبْتُ القطع. ومنه السَّبات لأنَّه يحول بين التمييز وصاحبه، ويقطعه عن عادته وتصرفه، ويقال: سبتوا عنقه إذا قتلوه. والمُنْسَبَت من النَّخل: ما يجري الإرباط في جميعه، فكأنَّه انقطع من حدِّ البسر، ويقال لضرب من النَّعال: السَّبْتُ، وإنما هي التي قد نثر شعرها. ويقال: إنَّ السَّبْتُ إنما سُمِّيَ لما أخذ على اليهود في السَّبْتُ ونُهِوا عنه في هذا اليوم مما هو مباح في غيره، وانقطاع حكمه من حكم غيره، ومن جعل السَّبْتُ إنما يُسمَّى به

للراحة، يقول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [سورة ق، الآية: ٣٨] هو رَدُّ على اليهود في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ آخرها يوم الجمعة واستراح في يوم السبت فَرَدَّ الله ذلك عليهم وأبطل قولهم. وسُمِّي السَّبْتُ: شيارا واشتقاقه من شيرت الشيء إذا أظهرته وبيّنته، ويقال: شيراي حسن الشيارة وهي ظاهر منظره، ومن هذا قيل: القوم يتشاورون أي يظهرون آراءهم كأن كل جماعة منهم يظهرون ما عندهم ويعرضونه. ويجوز أن يكون قولهم لخيار الإبل الشيار من هذا الذي ذكرناه. وقيل للأحد: أول لأنهم جعلوه أول عدد الأيام. وقالوا للإثنين: أهون وأوهد فأهون من الهون وهو السكون من قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٣] وأوهد يدل على هذا المعنى لأنَّ الوهدة الانخفاض كأنهم جعلوا الأول أعلى ثم انخفضوا في العد. وقالوا للثلاثاء الجبار أي جبر به العدد، وأعظم به العدد وقوي، لأنَّه حصل به فرد وزوج.

وقال الخليل: سُمِّي به في الجاهلية الجهلاء، وفي الخبر العجماء جبار والمعدن جبار. أي يهدر الأرض فيه، فهو يخالف المعنى الأول. وقولهم للأربعاء: دبار لأنَّه عندهم آخر العدد وقد تمَّ بإجرائه العقد الأوَّل. ودبر كل شيء مؤخره، وإنما كان كذلك لأنَّ الخميس - والجمعة - والسَّبْتُ - سمَّوها بأشياء تصنع فيها فاستغنوا بها عن عددها. وقيل للخميس: مؤنس لأنه يؤنس به لقربه من الجمعة وفي الجمعة التأهب للاجتماع. وقيل للجمعة: العروبة لبيانها عن سائر الأيام، والإعراب في اللغة الإبانة والإفصاح، والعرب شوك البهمي والواحدة عربة، سُمِّي بذلك لأنَّ الورق يسقط منه فيظهر الشوك. فالتأويل أنَّه قد بان من الورق والعرابة عسل الخزم، سُمِّي به لأنَّه يقال لثمرة العراب، والواحدة عرابة، وقد أعربت الخزم، ويقال للمرأة الغزلة هي عربة وعروبة أيضاً. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٣٥-٣٦] وقيل: العروبة المتجنِّبة إلى زوجها، ويقال للمتهلَّل الوجه: عرابه. ويبر عربة: كثيرة الماء. وقد قيل: العروبة بالآلف واللام وبغير الالف واللام كأنَّه جعل علماً، وأنشد فيه شعراً:

وَإِذَا تَرَى الرَّوَادَ ظِلًّا بِأَسْقَفٍ يَوْمًا كِيَوْمِ عَسْرِيَةِ الْمُتَطَاوِلِ

يروي يوماً كيوم، ويوماً كيوم، قال: ولم يزل أهل كل دين يعظّمونه وجعله متطاولاً للعبادة فيه، والمعنى وإذا ترى هذا الحمار الوارد ظلَّ له يوم طويل وطوله طول مكته يميل بين الورد وتركه. وإذا نصبت اليوم: فالمعنى ظلَّ الحمار يوماً طويلاً في هذا الموضع، وإذا رفع فالمعنى ظلَّ بأسقف يوم له، وروي الأرواد فكأنَّه جمع ورد والمعنى: أهل الأوراد أو يجعل الورد للواردين. وقال القطامي: فأتى بالآلف واللام شعراً:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِأَقْوَامٍ هُمْ خَلَطُوا يَوْمَ الْعُرُوبَةِ أَوْرَادًا بِأَوْرَادٍ

(وُسِّمِيَ الجمعة) حربة أيضاً، سُمِّيت بذلك لبياضها ونورها فهي في الأيام كالحرية.
(وذكر أصحاب) السَّيْرِ أَنَّ أولاد نوح عليه السَّلام عزموا على المسير في الأرض ليروها، ويختاروا منها لمطافهم وأوطانهم فبدؤوا بمسيرهم في يوم الأحد فُسِّمِيَ الأوَّل. (ثم لما كان اليوم الثاني) كان السَّيْر الذي شق عليهم في الأوَّل أخفَّ فُسِّمِيَ الاثنين أهون. و (في الثالث) جبروا ما تَشَعَّتْ من أحوالهم بعد ما نزلوا سُمِّيَ لذلك الثلاثاء جباراً، ولأنهم جبروا ما كانوا خَفَّفوه من سيرهم فيما قبله فسَمَّوه جباراً. و (في الرابع) انتهوا إلى عقاب وجبال فحجزتهم وَمَنَعْتَهُمْ فَأَدْبَرُوا وَغَيَّرُوا الطَّرِيقَ فُسِّمِيَ الأربعاء دباراً. و (في الخامس) تسهَّلَ الطَّرِيقَ وَرَأَوْا ما أَنَسَهُمْ فُسِّمِيَ الخميس مؤنساً. و (سميت الجمعة) العروبة لأنَّ كلمتهم اجتمعت وبن لهم من الرَّأْيِ ما كان خافياً فتعربوا وأتَّفَقُوا. فإذا جمعت السَّبَبُ فيما دون العشرة أَسُبَّتْ والكثير سبوت. وإذا جمعت الأحد قلت في القليل: آحاد وفي الكثير أحواد مثل جمل وأجمال وجمال وأسد وأسود وآساد. والإثنان لا يثنى فَإِنَّهُ مثنى، فَإِنْ أَرَدْتَ تثنيتة جثت بالمعنى فقلت: هذان يوما الاثنين ولا يحسن مضى الاثنان، فيحصل الإعراب مرتين. قال قطرب: ومع ذلك قد حكى. وفي الجمع أيضاً تقول: مضت أيام الاثنين، إلا أنهم قد قالوا: اليوم الثَّني فلا بأس على هذا أن يجمع فيقول: مضت أثناء كثيرة.

وَحُكِيَ عن بعض بني أسد: مضت آتان كثيرة، كأنه جمع أثناء مثل: قول وأقوال وأقاويل، وأسماء وأسامي، فلا بأس بذلك. قال: وحكى لنا مضت آثانين، ولا وجه لهذا لأنَّه من ثنيت الشيء، فالثَّنون الأخيرة لا مدخل لها، فأما جمع الثلاثاء والأربعاء فثلاثاوات، وأربعاء بالالف والثاء، لأنَّ فيها علم التانيث وهو الهمزة بعد الألف كالف حمراء وصفراء.

وزعم يونس أنه يقال: مضت ثلاث ثلاثاوات، وأربع أربعاءات، على تانيث اللَّفْظ ويقال: ربت الجيش إذا أخذت ربع القسمة منهم ولم يَأْتِ على وزن المربع في تجزئة الشيء غير المعشار والمربع المكان الباكر بالنبات. ومنه قوله: رزقت مرايع التجوم، وفي الأربعاء لغات أربعاء بفتح الباء وأربعاء بكسر الباء والهمزة، ويجمع على أربعاءات وأربعاء، وتقول أيضاً: ثلاث ثلاثاوات وأربعة أربعاءات على معنى التذكير، لأنَّ اليوم مذكَرٌ وقال الشاعر شعراً:

قالوا: ثلاثاؤه خصبٌ ومأدبةٌ وكلَّ أيامه يوم الثلاثاء

وحكى المفضل في الثلاثاء الأثالث في الكثير. وحكى في جمع الأربعاء الأربعاء أيضاً، وأما الخميس فإذا جمعته على أقل العدد كان على أفعلٍ تقول: ثلاثة أخمسة، كما

قالوا: جريب وأجربة وكثيب وأكثة، ويجوز في القياس جمعه على فعلان نحو خمسان، كما قيل: كثيب وكثبان ورغيف ورغقان.

وقال يونس: أخمسة في الأيام، وأخمساء في الخمس، تقول: إذا أخذ الخمس قد أخذ أخمساء في ماله. فأما الجمعة فإنها إذا جمعتها لأدنى العدد كانت بالتاء: ثلاث جمعات، أتبعَت الضمة مثل ظلمات، وإن أسكنتَ فقلت جمعات وظلمات كما أسكن عضد وعضد وعنق وعنق جاز وإن شئت فتحتَ فقلت ثلاث جمعات وظلمات. وقال النابغة:

ومقعد أيسار على ركبانيهم ومربط أفراسٍ ونايٍ وملعب

وإن شئت قلتَ ثلاث جمع كما تقول: ثلاث ظلم وثلاث برم. وإن شئت كان ذلك لكثير. وأيام العجوز سبعة كما قال:

كَسَعَ الشَّتَاءُ سَبْعَةً غَيْرَ	أَيَّامَ شَهْلَتِهَا مِنَ الشَّهْرِ
فَبَأَمِرٍ وَأَخِيهِ مُؤْتَمِرٍ	وَمَعْلَلٍ وَمُطْفِي الْجَمْرِ
فَإِذَا مَضَتْ أَيَّامُ شَهْلَتِهَا	بِالصَّنِّ وَالصَّنْبِرِ وَالْوَبْرِ
ذَهَبَ الشَّتَاءُ مَوْلِيًا هَرِيًّا	وَأَتَتْكَ وَقْدَةٌ مِنَ النَّجْرِ

قال أبو سعيد: سميت هذه الأيام غَيْراً للغبرة والظلمة. والشهلة العجوز. وأمر سميت بذلك لأنه يأمر الناس بالحدز منه، وسمي مؤتمراً لأنه ياتمر بالناس أي يرى لهم الشر ويؤذيهم. ومنه قول امرئ القيس:

أجاز ابنُ عمرٍ وكأني خمر ويعدو على المرء ما ياتمر

وسمي (صناً) لشدة البرد. والصن البرد. وسمي (صنبراً) لأنه يترك الأشياء من البرد كالصرة في الجمود، وكل ما غلظ فقد استصبر. وسمي (وبراً) لأنه وبر آثار الأشياء أي عفا. (والثوبير) المحو والإخفاء، كتوبير الأرنب، وهو أن يمشي في حزنه لا يوقف على أثره، وسمي (مطفي الجمر) بذلك لأن شدة البرد تطفيء الجمر. (ومعلل) سمي بذلك لأنه يعلل الناس بتخفيف البرد. (والنجر) وقدة الحر، ومنه قيل شهر ناجر. فهذا ما قاله أبو سعيد الضربير، ومن الناس من يقول في أيام العجوز هي: المسترقة في أول الشتاء. ومنهم من يجعلها في آخر الشتاء ويسمّيها أيام الشهلة. ومنهم من يعدّها خمسة، ومنهم من يعدّها سبعة على ما تقدم. وحكي أنّ الكسائي سأله الرّشيد عن سببها، فقال: كانت امرأة من العرب قد اهتمت، وكان لها سبعة أولاد فقالت لهم: زوّجوني زوّجوني وهم يضربون عنها ولا يكثرثون لها فأنشأت تقول شعراً:

أيا بنيّ إنني لنا كحّة فإن أبنيّكم إنني لجامحّة

هان عليكم ما لقيتُ البارحة من الهياج وحكالي الوامحة

ويروى الفاضحة. وقيل: أرادت بالوامحة الواحة أي المشتية من قولهم: وَحَمَتِ المرأةُ توحم وحماءً وهي امرأةٌ وحمى، فقالوا لها: بيتي لنا سبع ليالٍ على ثنية هذا الجبل لكل ابن ليلة لنزولك بعد ذلك، فجاءوها بعد السابعة وقد انقضت.

(فمن عدّها) سبعة فقال: هي: صن^(١) وصنبر - ووبر - وآمر - ومؤتمر - ومعلل - ومطفي الجمر - (ومن عدّها) خمسة قال هي: صن - وصنبر واختهما وبر - ومطفي الجمر - ومكفي الظعن.

وقال أبو سعيد الضّرير: سمّيت أيام العجوز لأنّ العرب جرّت الأصواف والأوبار مؤذنة بالصيف، وقالت عجوزٌ منهم لا أجرٌ حتى تنقضي هذه الأيام فإنّي لا أمنها، فاشتدّ البرد لها، وأضرّ بمن قد جرّ وسلمت العجوز بما لها.

وقال أحمد بن يحيى: الصحيح أنّ العجوز عجلت بجرّ صوفها لحاجتها إليه وثقتها بالحر، فجاء البرد وموتت غنمها، وكانت سبعة فماتت كلّ يوم واحدة فمن جعلها سبعة فلهذه العلة، وإلا فبرّد العجوز ربّما بقي عشرة أيام أو أكثر.

وقال أحمد بن يحيى: (معتدلات سهيل) بإزاء (برد العجوز) (والكسع) ضرب الضّرع بالماء البارد حتى لا يدر، وكسع الشّواء ضرب آخره بهذه الأيام. و (الشّهلة) العجوز، وتشهل الغلام إذا تغيّر بخروج لحيته أو لغير ذلك. قوله (بآمر) أي بيوم استعدّ فيه للبرد كأنّه أمر بذلك. و (مؤتمر) أي ايتمر للذي أمره بذلك قبله وقوي برده. و (معلل) من العلل وهو شرب بعد شرب كأنّه جاء ببرد بعد برد (ومطفي الجمر) أي لشدة البرد لا يكون للجمر ثبات. (والصّن) المتكّم برد شديد، (والصنبر) مثل ذلك. (والوبر) يكون من الوبر الذي احتيج إليه من البرد. (والوقدة) شدة الحرّ من الوقود وهو النّار. (والنّجر) شدة العطش. (وشهرا ناجر) تموز وحزيران.

وقال الضّرير في قول أبي عبيدة في الكسعة إنّها الحمير إنّّه خطأ، لأنّ الكسعة تقع على الإبل والبقر العوامل والحمير والرقيق لأنّها تكسع بالعصا، أي تساق أو بالخب، فكيف جعلها حميراً وحدها؟ ومما يصدّق ما قلنا قول الشاعر في أيام العجوز كسع الشّواء، يريد كسعت أيام العجوز الشّواء كما تكسع السيّفة إلى حيث يُراد بها، ويقال: إنّ يومنا لصنبر،

(١) قال في القاموس: (الصّن) بالكسر أول أيام العجوز. و (الصنبر) الثّاني من أيام العجوز، و (الوبر) من أيام العجوز، و (آمر) (ومؤتمر) آخر أيام العجوز. (ومعلل) كمحدث يوم من أيام العجوز، و (مطفي الجمر) خامس أيام العجوز أو رابعها. ١٢ القاضي محمد شريف الدين المصحيح عفى عنه.

وهو القر. وقال غيره في شدة البرد: الخرص والصنبر والزمهرير. وقال بعضهم: أيام العجوز: الصن - والصنبر وابن عمهما الوبر - والمضوضى في القبر - والمسند اللامة الجمر والمندخل الفتاة في الخذر والمسلخ العجوز في الوكر.

وقد سمّت العرب الأيام الخمسة بأسماء كما خصّت أيام العجوز بأسماء وهي الهنبر - والهنزير وقال القمر - وحالق الظفر - ومدحرج البعر. قال أبو حنيفة: أمّا أيام العجوز فهي عند علماء الحضر في نوء الصرفة بعد انقضاء الجمرات وهي خمسة.

وقال الكلبي: هي بالبادية عند ثلاثة بعد سقوط الجمرة الآخرة من الجبهة بنحو من سبع ليال، قال: وهذه الأيام تسمى صفوان. والثاني الصافي وهو أشدها قرأ، والثالث صفى وهو آخرها، وأوّل نهاره يشبه الأوّلين، وآخر نهاره يتباشر الناس بليته. وروى غيره عن العرب أول يوم صفى. والثاني صفوان. قال وذلك إذا اشتد البرد. والثالث همام لأنّه يهم بالبرد ولا برد له. وقال أبو زياد: فيها يقولون: أيام العجوز ثلاثة، وقد كان أيام العجوز لنا شهراً. قال: وأيام العجوز عند الجمهور سبعة، وسقوط الجمرة الأولى عند العوام لسبع من شباط. وسقوط الجمرة الوسطى لأربع عشرة من شباط، وسقوط الأخيرة لإحدى وعشرين من شباط. وأول أيام العجوز عندهم لخمس وعشرين من شباط، وآخرها لثلاث من آذار.

البابُ الخامس عشر

في أسماءِ الشُّهور على اختلافِ اللُّغاتِ، وذُكِرَ اشتقاقاتها،
وما يتَّصلُ بذلك من تشنيها وجمعها وهو فصلان :

فصل

معنى الشَّهر أنَّ النَّاسَ ينظرون إلى الهلال فيشهرونه يقال: محرَّم ومحرَّمان ومحاريم
ومحرَّمات وإنما سُمِّيَ محرَّماً لأنَّهم كانوا يحزِّمون القتال فيه وصفر وصفران وأصفار وسُمِّيَ
صفرًا لأنَّهم كانوا يغزون الصَّفرية وهي مواضع كانوا يمتارون الطَّعام منها، وقيل: لأنَّهم
كانت أوطانهم تخلو من الألبان ومن كلامهم: نعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء. ويقال:
صفرت عيبة الود من فلان أي خلت قال شعراً:

وَإِذَا صَفَرْتُ عِيَابُ الْوَدِّ مِنْكُمْ وَلَمْ يَكُ بَيْنَنَا فِيهَا ذِمَامُ

ويقال شهر (ربيع الأول) والأوَّلُ فمن خفض ردهً على ربيع ومن رفع رده على الشَّهر.
وكذلك شهراً ربيع الأولان والأوَّلُ وشهور ربيع الأوائل والأوَّلُ - وحكي ربيعاً الأول وأربعة
الأول - وقالوا: أربعة الأوليات والأوَّلُ وربيعة (الآخر) وأربعة الأواخر والآخِر. وسُمِّيَا
ربيعين لارتباع القوم - أي إقامتهم. و (جمادى الأولى) وجماديان وجماديات وجماديا
الأولى - وقالوا: الأوليين - وجماديات الأولى والأوَّلُ والأوائل - و (جمادى الأخرى)
والأخريين وجماديات الأخرى والآخِر والأواخر. قال الشاعر:

إِذَا جَمَادَى مَنَعَتْ دَرَّهَا زَانَ جَنَابِي عَطَنُ مَغْضَفُ

ويروى قطرها، وإنما يصف نخلاً فيقول إذا قَلَّتْ الأمطار ولم يكن عشبٌ فزَيْن الإبل
أعطِنَت النَّاسَ، فإنَّ جنابي يزينه النَّخل، فجعل أعطانها منابتها (والمغضف) يقال نخلة مغضفة
إذا كثر سعتها. ورواه بعضهم: معصف بالعين والصَّاد، يقال: مكان معصف أي كثيرة
العصف وهو التَّبن، والأجود الأوَّل والأصح.

(وقال البصريون والكوفيتون) جميعاً الشهور كلّها ذُكران إلّا جمادى: لجمود الماء فيها. ويقال: (رجب) ورجبان وأرجاب وأرجيب وأرجبة وسُمّي رجباً لترجيبيهم آلهتهم فيه، والترجيب: أن يعظّموها ويذبحوا عنها، وكانوا يعظّمون الشّهر أيضاً وقال الشاعر: لا يلب من أجل وأزجِب. ويقال له: شهر الله الأصم، ومنصل الال بعدما مضى غير أداء، وقد كاد يذهب، وذلك لقعودهم فيه عن الغزو والكف عن الغارة فلا يسمع فيه قعقة سلاح، ولا تداعي أبطال، ولا استصراخ لغارة، ويقال: رجت الأمر إذا هبتة وعظّمته، ومنه قيل في المثل: أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب.

وقال أبو داود: صادف منصل آله في فلتة فَجَرَيْنَ سرجاً. ويقال لليلة التي لا يدري أهي من الشّهر الحرام أو الحلال فلتة. و (شعبان) وشعبانات وشعابين وسُمّي شعبان لتشعب القبائل فيها واعتزال بعضهم بعضاً.

ورمضان ورمضانات ورماضين وسُمّي رمضان لشدة وقع الشّمس وتناهي الحرّ فيه ويقال: هذا شهر رمضان وهذا رمضان وقال شعراً:

جارية في رمضان الماضي تقطع الحديث بالإيماض

أي إذا ابتسمت: قطع الناس حديثهم ناظرين إليها وإلى ثغرها ومستملحين كلامها ومثل هذا قول الآخر:

ديارُ التي كادت ونحن على منى تحلُّ بنا لولا نجاء الرّكائب

والمعنى: كادت تصرفنا عن مقصدنا اشتغلاً، لولا استعجال النّاس، قال الفراء: وكان أبو جعفر الفارسي يروي عن المشيخة أنّهم كرهوا جمع رمضان يذهبون إلى أنّه اسم من أسماء الله تعالى، والله أعلم بهذا.

وشوّال وشوّالان وشوّالات وشواويل وسُمّي بذلك لشولان الإبل بأذنابها عند اللّقاح، ويقال سُمّي بذلك لأنّ الألبان تشول فيه وتقل. ويقال: شال اللّبن وشال الميزان إذا خفّ.

وذو القعدة وذوات القعدة وذوات القعدة، سُمّي بذلك لقعودهم في رحالهم لا يطلبون كلاً ولا ميرة.

وذو الحجّة وذوات الحجّة لحجّهم وقالوا: ذواتا القعدتين، وذوات القعدات وكذلك قيل في ذي الحجّة، ويقال: شهر ناجر لشدة الحر، ومنه نجر من الماء إذا جعل يشرب فلا يُروى وأنشد شعراً:

ويوم كأنّ الشّمس فيه مقيمةً على البيد لم تعرف سوى البيد مذهباً

ويوم على قوسين في شهر ناجر سَعَيْتُ لأصحابي وراءه منشبا
شبه وشي ردائه بأفواق النَّشَاب وهي السَّهَام. وقال الأصمعي: شيان وملحان اسمان
لشهر قماح وهما الشَّهران اللَّذان يشتدَّ فيهما البرد، سُمِّي شيان لابيضاض الأرض بالثلج
كذلك ملحان مأخوذ من الملح وهو البياض.

وقال قطرب: يقال لجمادى الأولى وجمادى الآخرة شيان وملحان من أجل بياض
الثلج وقال قولهم: مات الجندب وقرب الأشيب أي قرب الثلج. وقال الكُميت:
إذا أُمستِ الآفاقُ حُمراً جنوبُها لِمَلحان أو شيان واليوم أشهبُ
وذكر المفضل: أنَّ من العرب من يُسمِّي المحَرَّم (المؤتمر) والجمع مأمير ومأمَر. قال
الشاعر:

لولا ايتماري بكم في المؤتمر عَزَمْتُ أمري للفراق فانتظرُ
وقال آخر:

نحن أجزنا كلَّ ذبال فتر في الحج من قبل وادي المؤتمر
واشتقاقه يجوز أن يكون من شيئين. (أحدهما) أنه يؤتمر فيه الحرب قال: ويعدو على
المرء ما يأتُر. والآخر: أن يكون من أمر القوم إذا كثروا فكأنهم لمَّا حرموا القتال فيه زادوا
وأكثرُوا. ويُسمَّى صَفَر ناجراً والجمع نواجر. قال:
صبحناهم كأساً مِنْ الموتِ مرةً بناجر حين اشتدَّ حرُّ الودائقي
وقال الكُميت:

قطع التَّنائف عائداً بك في وديقة شهر ناجر

وتكون تسميتهم إياه بذلك من شيئين: (أحدهما) أن يكون من النَّجر والتَّجار وهو
الأصل، فكأنَّه الشَّهر الذي يبتدأ به الحرب، ومنه قيل لجادة الطَّرِيق: المنجر. قال: ركبَت
من قصد الطَّرِيق منجره. (والآخر) أن يكون من النَّجر وهو شدة الحرِّ فيكون وقوع حرارة
الحرب والحديد فيه. ومنه قوله: كلَّ نجار إبل نجارها وكلَّ نار المسلمين نارها، ويسمَّى
ربيع الأوَّل (خوان) مخفف. وقال الفراء: بعضهم يقول خوان والجمع أخوَّة وخوانات.
قال لقيط الإيادي:

وخائننا خواناً في ارتباعنا فأنفد للسَّارح من سوامنا
وقال الآخر:

وفي النَّصَف من خِوان وَدَّ عَدُونَا بَأْتَه في أمعاء حوتٍ لدى الْبَحْرِ
واشتقاقه من الخون وهو النَّقص، لأن الحرب يكثر ويشد فيه فيتخونهم أي ينتقصهم
ويسمى ربيع الآخر (وبصان) مضموم خفيف وقال الفراء: بعضهم يقول: بصان، وبعضهم
يجعل الواو أصلاً فيقول: وبصان فيجزم الباء والجميع بصانات وأبصة. قال:

وَسَيَّانَ بِصَانٍ إِذَا مَا عَدَدْتَهُ ويرك لعمرى في الحساب سَوَاءُ
واشتقاقه من الوبيص وهو البريق، أو من البصيص. وأنشد شعراً:

ويوم كأنَّ النَّارَ يوقِدُهَا له هواجر وبصان عسفت به الحرقا
على ما يرى الضَّبعين يشبه دالِجاً أحال بدلونه على حوضه دققا
ويسمى جمادى الأولى: الحنين وبعضهم يقول الحنين، والجمع أحنة. قال
المهلهل:

أَتَيْتَكَ فِي الْحَنِينِ فَقُلْتَ رَنَى وماذا بين رنى والحنين؟!
وقال:

وذو النَّخْب يُؤْوِيهِ فيوفي بنذره إلى البيض من ذاك الحنين المعجَّل
واشتقاقه من الحنين لأنَّ النَّاسَ يحنُّون فيه إلى أوطانهم.

ويسمى جمادى الآخرة: رنى ووزنة بجزم الرّاء. قال الفراء: هكذا السَّماع لبعضهم
وغيره يقول: رنة مثل ورنه، والجمع ورنات. قال:

وأعددتُ مصقولاً لأيام ورنَةٍ إذا لم يَكُنْ للَرَمِي والطَّعن مسلكُ
ومن قال: رنة قال في جمعه رنات مثل زنة ورنات، فأما رنى فسمي به لأنه يعلم فيه
ما تَنَجَّتْ حروبهم. (والرني) الشاة الحديدية التتاج، وأما رنة وورنة فمشتق من أرِن يَأرِن، إذا
نشط وتحرك فأبدل الواو من الهمزة، وكأنَّه أريد الوقت الذي يتحركون فيه للغزو، فَوَرنة مثل
وجهة، وَرَنَة^(١) مثل جهة. وقال:

مُدَرَّجُ الرِّيحِ تَرَبِّعَنَ وَرَنَةً إذا عاقل وصغن بِرُومانِ
فالماير فلَمَّا دنا لَهَبانِ الشَّتاءِ يَمُنُّنَ أحرَجَةَ الحاجِرِ.

ويسمى رجب الأصم والجمع صم. قال:

(١) ورنه في القاموس اسم ذي القعدة - محمد شريف الدين عفا عنه.

يَا رُبَّ ذِي خَالٍ وَذِي عَمَمٍ قد ذاق كأس الحنْفِ في الشَّهْرِ الْأَصَمِّ
وإنَّمَا سُمِّيَ به لتركهم الحرب حتى لا يسمع فيه صلصلة حديد.

ويستَمَى شعبان (وعلاً) بكسر العين والجمع أوعال. قال الفراء: و بعضهم يقول
وعلان. ويقال وعل أيضاً، وهو الملقب، يقال: مالي عنه وعل: أي ملجأ، ولم أجد إليه
وَعْلًا، أي سبيلاً، وكأنَّه سُمِّيَ الشهر به لأنَّ الغارة كانت تكثر فيه فَيَلْتَجِئُ كُلُّ قومٍ إلى ما
يتحصَّن به. والتَّوَعَّلَ التَّوَقَّلَ ومنه اشتقَّ الوَعْلُ والمستوعِل من الحمير المحترز.

قال و (يسمى رمضان) (ناتق) والجمع نواتق. قال:

وفي ناتق أجلتُ لدى حومةِ الوغا وولَّت على الأدبارِ فُرسانُ خثعما
وإنَّمَا سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان مكثراً لهم الأموال، يقال: نتقت المرأة: إذا كثرت الولد،
والتَّتَقَ الجذب أيضاً، كأنَّه كان يجذب النَّاسَ إلى غير ما هم عليه. قال الرَّاعِي:

وفي ناتقٍ كان اضطِلامُ سراتهم ليالي أفنى القرُحُ جُلَّ إِيادِ
نفوا إخوةً ما مثلهم كان إخوة لِحْيٍ وَلَمْ يَسْتَوْحِشُوا لِفَسَادِ

ويسمى شَوَّال عاذلاً، والجمع عواذل. قال تأبط شراً:

شعبَ الوصل عاذلي بعدَ حجري حَبَّذا عاذلٌ أتى خَيْرَ شَهْرِ
يا ابنةَ العامريِّ جودي فقد عيلَ على القربِ والنَّوى منك صَبْري

وقال:

أبوتا الذي أنسى الشَّهورَ لِعِزِّه فعاذلُ فينا عبدٌ وغلان فاغلم

وهذا البيت شاهد لشعبان وشَوَّال جميعاً. وقال زيد الخيل في وعل:

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ بَرِّيَّاتِ الْكَلِيلِ قد كان أدنى متوعد منك وَعَلٍ
قد مرَّ شهران ولم يأتِ الرُّسُلُ

وكأنَّه سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان يغذلهُم على الإقامة، وقد حلَّت الحرب والغارات.

ويسمى ذو القعدة: هواعاً، والجمع أهوعة، وإن شئتَ هواعاث. قال شعراً:

وقومي لدى الهيجاء أكرُم موقِعاً إذا كان يوماً من هواعٍ عصيبُ

وقيل له ذلك: لأنَّه كان يهوع النَّاسُ أي يخرجهم من أماكنهم إلى الحج. ويقال: هاع
فلان يهوع هُوعاً إذا قاء، وتهوَّع وما يخرج من حلقه هواعة.

ويسمى ذو الحجة (برك) وجمعه بركات، ولك أن تفتح الرّاء. قال:

أعن لي على الهندي مهلاً وكرة لدى بركٍ حتى تدور الدّوائر
يعني بالهندي سيفه (والمهمل) دردى الزّيت، (والكرت) البعر، أي احفظ سيفي من
الصدأ واصقله بذلك، وكان الشّهر سُمّي بذلك، لأنّه معدول عن بارك وكأنّه الوقت الذي
يبرك فيه الإبل للموسم، وجائز أن يكون مشتقاً من البركة لأنّه وقت الحج، فالبركات تكثر
فيه، وأصل البركة من الثّبات ومنه برك البعير.

أسماء الشهور العربية غير الأسماء المشهورة:

وقال الدّريدي: والمشهور أسماء غيرها بلغة العرب العاربة، وهم كانوا يسمّون
(المحرم) موجباً، و(صفرأ) موجزأ، و(ربيع الأوّل) مورداً، و(ربيع الآخر) ملزجأ
و(جمادى الأولى) مصدرأ، و(جمادى الآخرة) هوبرأ، و(رجبأ) مويلاً، و(شعبان)
موهباً، و(رمضان) ذيمراً، و(شوالأ) جيفلاً، و(ذا القعدة) محلسأ، و(ذا الحجة) مسبلاً،
وكانوا يبدؤون من السّنة برمضان وقد نظم بعضهم المحدثين أسماء الشهور فقال شعراً:

أردت شهورَ العرب في جاهليّة فخذها على سردِ المحرّم يُشترك
فهو تمر يأتي ومن بعد ناجر وخوّان مع وبصان يجمع في شرك
حين رنني والأصم وعاذل وناتق مع وعلي وورنة مع برك

وقال أحمد بن يحيى: إنّما خضت العرب شهر ربيع وشهر رمضان بذكر شهر معهما
من دون غيرهما من الشّهور ليدلّ على موضع الاسم، كما قالت العرب: ذويه،
وذو كلاع، فزادت ذو ليدل على الاسم، والمعنى صاحب هذا الاسم. قال ويصغّر جمادى
على جُميدى وجميدى وجمادية وجمادية، كما قالوا: حبارى وحبيرة، وكان
الحكم أن يقال في هذا: شهر الرّبيع الأوّل، وشهر الرّبيع الآخر، إلا أنّه مما أضيف فيه
المنعوت إلى التّعت مثل دار الآخرة، وحقّ اليقين وصلوة الأولى، ومسجد الجامع، حكى
ذلك الكسائي واللّحائي.

وحكى أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي أنّ جمع ربيع المطر: أربعة، وربيع النّهر
أربعاء. وجمادى الأولى والآخرة على ما يجب لأنّه أتبع فيه التّعت المنعوت ولم يضيف
إليه، ومنهم من يجيز جاء رمضان، ولا يذكر الشّهر ولفظ القرآن (شهر رمضان) وحكى
الخازننجي أنّه يقال في جمع ربيع الأول وربيع الآخر: هذه الأربعة الأوائل، والأربعة
الأواخر، والرّبعة أقصى غاية العدد، وأنشد فيه:

أم الفوارس بالذيداء والرّبعة

فصل

اعلم أنّ سرار الشّهر: آخره، وفيه لغات: يقال سرار الشّهر، وسراره وسرّه وسرره.

ويزيد التّوء عندهم غرارةً وحمداً إذا كان في سرار الشّهر. لذلك قال الرّاعي:

تلقى نَوْوُهُنَّ سرار شهرٍ وخيرُ التّوء ما بقي السّراؤ
وقال الكُميت:

هاجَتْ له مِنْ جنوح اللَّيل رائحةٌ لا الضّب ممتنعٌ منها ولا الورلُ
في ليلةٍ مطلع الجوزاء أوّلها دهماء لا قرحٌ فيها ولا رَجُلُ

(قوله): لا الضّب البيت يعني السّيل يدخل عليهما فيستخرجهما لبلوغه النّجوات، وذلك أنّ الضّب والورل يرفعان مكانهما عن مجرى السيول. (وقوله): لا قرح يريد أنّها من السّرار فلا ضوء في أوّلها ولا في آخرها. وقال الحطيئة شعراً:

بانت له بكثيبٍ حرية ليلةً وطغايين جماديين درورا
وهي اللّيلة التي لا يُدرى من أيّ الشّهرين يكون مشكوكاً فيها، وقد يحمد أن يكون في أوّل الشهر أيضاً. قال الكُميت:

والغيثُ بالمتألّقات من الأهلة في التّواحر

التّواحر: جمع ناحرة وهي اللّيلة التي تنحر الشّهر، ويقال لها أيضاً: النّخيرة. قال أبو حنيفة: واختلف فيها فزعم بعض أهل العلم أنّها أول ليلة من الشّهر يذهب إلى أنّها في نحرة، وزعم غيره: أنّها آخر ليلة من الشّهر لأنّها تنحر الشّهر الدّاخل، قال: ولا أظنه قال هذا إلّا لأنّ يجعل الاختيار في السّرار، لأنّه أشهر لكنه قد جاء بالمتألّقات من الأهلة، وجاء أيضاً وافق غر شهر نحيراً، ولا يقال غرة إلّا وهي ليلة الهلال، وقد قال الفرزدق: في ناحرات سرار بعد إهلال. فجعلها من السّرار وجعلها ناحرة وجعلها بعد الإهلال. قال: فإنّ كانت هذه الزّواية صحيحة فلا أعلم لها وجهاً، إلّا أنّ اللّيلة دخلت وهي من السّرار، لأنّ ما بين استسرار القمر إلى أن يرى الهلال سرار، كلّهُ، فدخلت وهي من السّرار، ثم روي فيه الهلال فصارت نحيرة، وصار ما فيها من غيثٍ بعد الإهلال، هذا أقرب ما أعرف منها. وإنّ كانت الزّواية كما يزعم آخرون أنّها قبل الإهلال، فهذا ما لا كلام فيه. ويكون حيثنّ مثل قول الرّاعي شعراً:

ومردة وطغيا وأفق نوؤها قبل الهلال بديمّة ديجور
ويكون حيثذ في السّرار المحض . فأما قول ابن أحمر :

ثم استهلّ عليها وإكفّ همع في ليلة نحرث شعبان أو رجبا
فإنّه يحتمل المعنيين جميعاً، هذا إن كانت التحيرة معروفة عند العرب أنّها أوّل ليلة
من الشهر . وقيل في قول الشاعر :

كان ابنُ مُزنتها جانحاً قسيط لدى الأفق من خنصر
مثل قول الكُميت ، لأنّ ابن المزنة هو الهلال وقول أبي وجزة :

جيران دان من الجوزاء منحور . فليس هو من التحيرة بل هو مثل قول الراعي :

فمرّ على منازلها فالقئ بها الأثقال وانتحر انتهارا

أي يشقّ بالماء وتعشق فعلى هذا مذهب العرب في اختيار السّرار والغرة ، قال أبو
حنيفة : وقد قال أبو وجرة في ليلة لتمام النصف من رجب : خوّارة المزن في أقتاها طول .
فلا أعرف أحداً وافقه على هذا الاختيار ولا أعلمهم حمدوا المحاق بليّة ، فكان محاقاً كلّ
ذلك الشهر . وقال الأخطل شعراً :

فإن يك كوكب الصّمعاء نحساً به واقث وبالقمر المحاق

وتزعم الهند فيما يحكى عنها أنّ التحوسة أبلغ في الأمطار ، وإنّما التحوسة عندهم ما
دام القمر مستسراً محترقاً ، فإذا فارق الشّمس ذهبت عنه التحوسة لأنّه قد خرج عندهم من
الاحتراق ، والعرب تقول : إذا نأت النجوم بغير مطر : خوت تخوي خياً وخوياً وأخوت
تخوي إخواء . فإذا أمحلت فلم يكن فيها مطر فذلك الخي والأخلاف ، فإذا لم يخلف قبل
صدقت وقد صدق التّوء إذا كان فيه مطر وما كان فيها من أمطار أو بوارح : فهي الهيج
والواحد هيج . قال الأصمعي : يقال : هذا في الهيج المتقدّم . وقال ذو الرمة :

فلما رأين القنّع أسغى وأخلفث من القصر يّات الهيج الأواخر
(القنّع) المكان الذي انخفض وسطه وارتفع جوانبه ، وإنّما وصف نساء دفعن إلى
بوارح . وقال آخر :

ونارٍ وديقّة في يوم هيج من الشعري نصبت لها الجينا

قال ابن الأعرابي : العرب تسمي نجوم الأسد كواكب التحوس لشدة بردها . وقال
عمر بن اللّجاء شعراً :

لَمَّا خَشِيتُ كِبَةَ النَّكِيَسِ وَقَحِمَ السَّيْرَ بِمَرْمَرِيسِ
خَنَسْتُ فِي الْبَاقِلِ وَالْخَلِيسِ وَاقْتَحَمْتُ كَوَاكِبَ النَّحُوسِ
وَالْكَيْسِ أَحْيَانًا مَعَ الْخَنُوسِ حَتَّى وَضَعْتُ غَدُوَّةَ دَرِيسِ

أخبر أنه اقتحمت كواكب النحوس فسقطت فوضع ثوبه غدوة، ولم يخف البرد،
وقوله: (خنست) في الباقل أي لم أنتجع، و(الباقل) البقل والخليس من نبات البقل فيه
رطب ويابس ومنه قولهم: أخلص الإنسان: إذا خالطه شيب، وأنشد:

قَوْمٌ أَبَا الْجَهْمِ صَدُورُ الْعَيْسِ أَمَا تَرَى الْبَرْقَ عَلَى خَلِيسِ

رأى أن يقع الندى والعرب تقول إذا سبق الندى للقر، فلذلك عام خصب يستحبه
العرب، ويقولون: أجدحت^(١) السماء ويزعمون أنه من علامات الحياء. قال سهيل
المدلجي: وأسد الشتاء عنها محدج. وإذا سبق القر الربيع خشوا أن يكون ذلك العام
جدب.

(١) في القاموس مجاديع السماء أنواؤها - المصحح.

البابُ السادسَ عَشَرَ

في أسماءِ الدَّهرِ وأقطاعه، وما يتَّصلُ بذلك
وهو فصلان :

فصل

قالوا: الأَزمُ الجذع والأَزنمُ الجذع حكي باللام والنون، وأنشد قطرب:

إنني أرى لك أكلاً لا يقوم له من الأَكولة إلا الأَزمُ الجذعُ

قال: وبعضهم يرويه الأَزنمُ بالنون، فَمَنْ قال الأَزنمُ أراد أن الأوقات التي يعرض فيها كالزَّنمات له، تشبيهاً بزَنمات الشاة، وهي الزَّوائد المعلقة مِنْ حلقها ومن تحت حنكها. ومَنْ قال: الأَزمُ أراد أنه سريع المر والتقلب، يُقال: أزلَمَ به إذا أخذه وعدا به مُسرِعاً. ومنه قوله: أم قيدَ فأزلم به شاء والعنن. أراد أنه لا يسمع أن قد فات به الموت وسبق وطار. ومنه قيل للقدح: الزَّلم لِخِفَّتِهِ في جولانه، وهذا كما قيل في صفاته قدح زلول ودروج، ومعنى الجذع أنه لا يهرم.

وزعم الفراء أن الأصل هو الأَزنم من الزنمة، وأن اللام مبدلة من النون، وحكى الخليل: أن الزَّلم: تكون زائدة في حلق المعز فإن كانت في الأذن فهي زَنمة، والتعت إزلم وإزنم، فعلى هذا يكون المعنى فيهما على طريقة واحدة وهو ما ذكرناه من تشبيه الحوادث بالزَّنمات. ويجوز أن يكون سَمى الدَّهرُ إزلم تشبيهاً بالزَّلم يكون من القداح لأنَّها على غرار واحد. وكذلك اللَّيالي والأَيام تجيء على مثال واحد، ولذلك جاء في المثل: ما أشبه اللَّيلة بالبارحة، فكأنَّ الزَّلم هي القطع والقَد. ولذلك قيل: هو العبد زلمة أي: قدَّه قَدَّ العبيد، ويقال: رجل مُزلم أي يشبه القدح في الخفة والنفاقة.

ومن أسمائه المسند ويقال: لا أفعله آخر المسند وإلى المسند ويد المسند والمعنى إلى أن يسند الدنيا إلى الآخرة، كان المراد آخر الوقت المسند، وإلى الوقت المسند، ويجوز

أن يكون لما أسندت الحوادث إليه لاعتقادهم به الجالب لها والسابق سُمِّي مسنداً، وكان يجب أن يُقال: المسند إليه فحذف إليه تخفيفاً. ومن أسمائه: عوض، يقال: لا أفعله عوض العايضين ودهر الدهرين، قال الأعشى:

رضيعي لبأنْ ثدي أم تقاسما بأسَحَمَ داجِ عوض لا يتفرَّقُ

و (عوض لا يتفرق) يفتح ويضم، وقد جاء عوض كلمة يقسم بها يقال: عوض لا يكون ذلك أبداً. ورؤي بيت الأعشى: (بأسَحَمَ داجي العوض) وفسر على أنَّ عوضَ كلِّ شيء جوفه. ويستعمل في الزَّمان، فيقال: عوض الليل أي مثناه.

وحكى بعضهم أنَّ عوض اسم للضمِّ ^{للضم} وأنشد: (حلفت بمايراتِ حول عوض) وقال بعضهم: يجوز أنَّ استعمالهم إياه في القسم من حيث كان في الأصل اسماً للضم، فأما استحقاقه للبناء فمن حيث كان متضمناً معنى لام التعريف، فمن فتحه فلاَّ الفتح أَخَفَّ الحركات، وَمَنْ ضَمَّهُ فلاَّه شَبَّهَ بقبل ويعد.

قال الشيخ: ويجوز أن يكون عوض في الأصل مصدر عاضه يعوضه عوضاً وعياضاً. وجعل اسماً للزَّمان، والمعنى ما عوض الدهر النَّاس من أيامه لأنَّ الدهر ليلٌ ونهار يتعاقبان ويتعوضان، والعوض والعياض والعوض البدل، ويقال: هو عوض لك وعياض لك أي عوض.

والمصادر تُقام مقام أسماء الفاعلين والمفعولين. ومعنى العايضين النَّاس المقيمون في العوض فأما قوله: وهل عائضٌ متي وإنَّ جَلَّ عائض. فالمراد به هل معطٍ للعوض متي بمعط وإنَّ جَلَّ أمره وعظم شأنه. والمعنى لا يفي عوضٌ من الأعواض بي وإنَّ جَلَّ، لأنني أكون

أفضل من كلِّ عوض. ويقال: عَضِيته كذا فاعتاضه، كما يقال: وهبت له كذا فاتهبه، وقَضِيته الدَّين فاقترضه، وعلى هذا قيل في الشيء: هذا لا يعتاض منه، وأنشد صاحب العين شعراً:

يا ليلُ أسقَاكَ البريضُ الوامضُ والدَّيْمُ الغاديةُ الفضايفُ
هلْ لك والعارضُ منك عائضُ في هجمةٍ يعذُرُ منها القابضُ
سدسٌ وربيعٌ تحتها فرائضُ

أي هل لك في العارض منك على الفضل، قال: كان من قصته أنَّ رجلاً خطب ليلى، فقال: أعطيك مائة من الإبل يدع السَّائق منها إذا ساقها بعضاً لكثرتها فلا يطيق شلَّها وأنا معارضك، أي معطيك الإبل مهرأ، وأنا آخذ نفسك، فأنا عائضٌ قد عَضْتُ أي صار العوض كله لي، فالفضل في يدي. ومنه قولهم: لا أفعله يد الدهر، وجدى الدهر، فمعنى يد الدهر

أي ما كان للدهر يد أي حكم، كما تقول: لفلان في هذا يد أي مُلك وأمر، ومعنى جدى: أي ما كان للدهر جدى أي عطية.

ومن أسمائه الأَبَض وقال: في سلوة عشنا بذاك أَبَضاً. أي دهرأ. وقال بعضهم: الأَبَض في الأصل جمع أَباض، ويخفّف ويثقل: وهو الحبل يعقل به البعير فإذا قلت لا أفعله أَبَضاً. فالمعنى ما كان للدهر سبب. قال الشيخ: أقرب من هذا أن يكون من الأَبَض وهو العقل والشّد كان المراد في زمان عقد علينا لا انفكاك منه. ويكون الأَبَض في أنه مصدر، والأَبَض في أنه المأبوض كالسدّ والسدة والعقد والعقدة. ويجوز أن يكون سُمّي بذلك لأنّه يضعف ويقيد بالهرم، ويقال للذّابة والطّير إذا أصابه عقل فلم يسلس: إنه لموتبض النّسا وأبوض النّسا. قال:

وَظَلَّ غَرَابُ الْبَيْنِ مُوتَبِضُ النّسَا لَهُ فِي دِيَارِ الْجَارَتَيْنِ نَعِيقُ
وقال أبوض النّسا بالمسمين خسوف، ولا أقبله ما اختلف الجرّة والدّرة أي أبداً، لأنّ الدّرة إلى أسفل، والجرّة إلى فوق.

ومنه: الأبد والأبيد. ويقال: لا أقبله أبداً لأبيد، وأبد الآباد، وأبد الآبدين وأبد الأبد، وأبد الأبدية، والمعنى إقامة الدّهر ومكثه، والإضافة فيه على طريق التأكيد. والأبد المقيم الذي لا يبرح، وأوابد الشّعْر، سُمّيَت أوابد لبقائها على مرّ الأيام وأنشد شعراً:

صار لطولِ الدّهرِ مِن آبَادِهِ كمهرقٍ لم يبقَ مِن مِداده
غير بقايا نونه وصاده

قولك: أباد الآباد كقولك: دهر الدّهور، وأبد الآبدين، كدهر الدّاهرين أي دهر النّاس المقيمين في الدّهر، وأبد الآبد كدهر الدّاهر، ومن أمثالهم أتى أباد على لبد للشّيء، وقد مضى وانقطع، ولبد اسم لنسر لقمان.

ومن أسمائه: الطّيل والطّول قال: وإن بليت وإن طالت بك الطّيل.

ويروى الطّول، وإنما أخذ من الطّول، ويقال: لا أكلمك طول الدهر، وإنما أنث الشّاعر الطّيل رداً على المعنى، كما يؤنث الألف إذا أريد به المعدودة.

ومن أسمائه: المنون، وهو من مننت أي قطعت ويقال: حبل منين: أي مقطوع، قال أبو ذؤيب:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَبِيَّةٌ تَكْوَجُّعُ والدّهر ليس بمعتبٍ من يَجْزَعُ

فإن قيل: ما باله ذكّر المنون وهو والمنية سواء، وأنت إذا رويتها وريبها قلت: أنثه

لأنّه أريد المنية. قلت: المنون ويراد به الدهر يشبه أسماء الأجناس ولذلك لا يجمع، وكما لم يجمع لم يؤنث أيضاً، وإذا أريد به المنية أشبه اسم الفاعل فأجري مجراه في التأنيث به لمعناه، ويقال: ما فعلته قط.

قال ابن السكيت: فيه ثلاث (لغات: قُطَّ بالفتح والتشديد وضم القاف والتشديد وفتح القاف وتخفيف الطاء إذا كان بمعنى الدهر. وإذا كان بمعنى حسب فهي مفتوحة ساكنة وأصله من قططت أي: قطعت والمعنى ما فعلته قطع دهري كله، وأبدأ في المستقبل: بمعنى قط في الماضي. ويقال: لا أفعل كذا ما سُمِّيَ ابناً سمير، يعني اللّيل والنّهار، ولا أفعله ما سَمَر السّمر، وهم النّاس يسمرون بالليل وما اختلف ابناً سمير، ولا أفعله السّمر والقمر أي أبدأ. وحكي: جاء بالسّمر والقمر أبو سعيد وقال: معناه بالنور والظلمة، كما يقال: جاء بالضّيح والريّح، ويقال: السّمر الدهر، وأبناء اللّيل والنهار. وقيل: الغدوة والعشي. وقيل في السّمر: إنّ ظلّ القمر فضم النّهار إلى اللّيل. وقيل: السّمر الظلمة والمقيم فيه سامر. ومنه السّامرة والسمر: حديث القوم بالليل.

وقالوا: لا أفعله حرى وحرارى دهر وحيرى دهر، بتسكين الياء. والمعنى ما حار الدهر: أي رجع، ويجوز أن يكون من حار الدهر يحير: أي أقام، ويقال: حيروا بهذا الموضوع، أي أقيموا. قال بعضهم: ومنه سُميت الحياة. وحكي حير الدهر جمع حيرى، كما قيل: زنجي وزنج، وعربي وعرب.

ويقال: لا آتيك سجيس عجيس، أي الدهر، قد يصرف فيقال: عجيس أي الدهر، فقلوه: عجيس يجوز أن يكون من عَجَسه أي قبضه وحَبَسه، ومنه معجس القوس أي مقبضه، وعجاساء اللّيل: ظلّمته، لأنّها تحبس النّاس ويكون المعنى ما بقي الدهر وحبس على أهله. ويجوز أن يكون من عَجَس اللّيل وعجيسه أي آخره، ومنه تعجس عن القتال وعجس: أي تأخّر فيكون المعنى: آخر الدهر. وسجيس فعيل ويفيد الامتداد على حاله، وسج وسجسج وسجس في طريق. وفي الحديث: «نهار أهل الجنة سجسج» أي معتدل متّصل لا آفة فيه. وقال الأعشى:

قِيسَ سَجَسَجٍ سَابَ إِذَا هَبَطْتُ بِهِ السَّهْلُ وَفِي الْحَزَنِ مُرَجَلًا عَجَلَا

قال أبو عبيدة: السّجسج: اللّين المرّوض، والسّاب من الأرض مسایل صغار، وكذلك السّيب، وروى أبو عمرو الشّيباني سجساً مسجاً: إذا هبطت، وقال: السّجس السلس المنقاد لا يتغيّر، والمعنى: أنّ هذا البعير إذا سار في السّهل امتدّ في السّير على حاله وهو في الحزن مرّجل، أي رجيل قوي المشي. ويروى مرّجماً ومرجلاً، فعلى هذا جعل

سجيس الدهر لامتداده وسلاسته في الاتصال والاستمرار. وَمَنْ قال: سجيس عجيس: جعل الأول مع الثاني كالشيء الواحد وبناءهما لِتَضْمُنْ معنى حرف الجر، كان الأصل سجيساً لعجيس، فحذف حرف الجر وضمن الأول والثاني معناه، وَمَنْ أضاف الأول إلى الثاني كان أمره ظاهراً وقالوا: لا أكلمك آخر الأوجس، وسجيس الأوجس، أي آخر الدهر، وسجيس الليالي. قال تأبط شراً:

هنالك لا أرجو حياة تُسَرِّنِي سجيس الليالي مسبلاً بالجرير

أي ما اتصل الليالي وانقادت على حالة. والأوجس: جمع وجس وهو ما يحصل في النفس مِنْ دُخْرِ وَفَرَجٍ لِصَوْتٍ أو حركة، ومنه ترجس الوحش، وفي القرآن: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [سورة طه، الآية: ٦٧] فكأنه سُمِّي الزَّمان بالحوادث المفزعة فيه أو جعل إقطاع الزَّمن يجس ويحدث بمنكرات الأمور حالاً بعد حال.

وذكر بعضهم الحوب في أسماء الدهر، قال: يجمع على أحوب وأحواب وحوبة كما قالوا: عصر وعصرة، ودهر ودهرة، وغصن وغصنة، وقرد وقردة وكأنه من الشدة والعظم لأنَّ الحوبَ الاثم الكبير، ويقال: يحوب الصَّائح إذا اشتدَّ صياحه. قال الخليل: الحوبا روح القلب، لأنَّه ملاك الحي.

ومن أسماء الدهر: المخبل، والتَّخيل الزَّمانة، والخبل الفساد ويقال: خبل خابل. قال: فأبلغ سليط اللوم خبلاً خابلاً. فالخابل المفسد، وإنَّما سُمِّي الدهر مخبلاً، لأنَّه إمَّا يهرم، وإمَّا يقتل. قال الحارث بن حلزة:

فَضَّعِي قَناعَكَ إِنَّ رَبَّ مَخْبِلٍ أَفْنَى مَعْدَا

ويقال: لا أفعله سنَّ الخبل: أي دوامه ويقاؤه، لأنَّ سنَّه من لحيه وليس بمركب فيه، فلا يسقط، ولا أفعله مالات العفراء بأذنانها، ويقال: الفور وهي الظباء وما مصع الظبي بذنبه، وقال الأصمعي: الفور لا واحد له من لفظه، ولا أفعله ما جنح ابن أنان، ويقال: لقيته أول ذات يدين أي أول شيء، وأما أوَّل ذات يدين: فَإِنِّي أحمد الله، وآثر ذي يدين، وذوات يدين أي أول ما يأذن.

والفطحل: يقال للزَّمن القديم قال أبو عمر نوح زمن الفطحل، ويقولون: حين كانت الحجارة رطبة وقد مضى ذكره.

ولا آتيك هبيرة بن سعد وأبوه ابن هبيرة: أي أبداً، وقال الأصمعي: يقال في مقابلة أغبيت الزَّيارة، اغتَمَّت الزَّيارة بالغين المعجمة، أي: أكثرت، قال: وقالوا كان العجاج يغتم

أي يطيل الشعر، ويكثر ويقال: أشوى الدهر كذا أي تركه وهو من قولهم: فلان أكثر الناس شواية أي بقية من قومه، وما أشوى لنا الدهر له.

وحكى الدريدي: لا آتيك حد الدهر وعجيس الدهر، وسجيس الأوجس وسجيس الحرس، وسجيس الأبخس.

وحكى غير واحد جبر مبتية على الكسر، يراد به الدهر وربما أجروها مجرى القسم، يقال جبر لأفعلن كذا أي حقاً لأفعلن وأنشد شعراً:

ابني جبر وإن عَزَّ رهطي بالشويداء الغداة غريب

ومن أسماء الدهر الخز والملاوة وقد تقدّم القول فيه، وذكر ابن الأعرابي قال أنشدني المفضل شعراً:

وفي بني أم زبير كيسُ على الطعّام ما غبا غيبسُ

قال: الغيبس الدهر وغبا: بقي.

الأصمعي: لا أفعل ذلك بأسوس الدهر، أي: أبداً، وهذا كأنه من قولهم في ترك اللقاء: لا آتيك ما أيس عبدٌ بناقة، وهو أن يقول: بس بس يسكن منها للحلب، ويقال: ما زال على أست الدهر محنوناً، وعلى أسن الدهر. ويقال: تركته بأست الدهر، أي ولا شيء معه، وتركته بأسمر المتن: وهو متن الأرض: أي الصّحراء الواسعة. ولقيت منه أست الكلبة أي: ما كرهته، وهو أمتع من أست النمر: للذي لا يطلق الدنو منه لمناعته.

قال أبو حاتم: الدهر سبات: أي أحوال مختلفة: سبة حرّ، وسبة برد، وسبة روح، وسبة دفيء. ويقال: أصابتنا سبة من برد أي لأشد ما يكون من القر فإن أصابك برد في آخر الربيع قلت: أصابتنا سبة من الربيع وأصابتنا سبة من حرّ وهي مثل الوقدة في نحو من عشرة أيام أو أكثر.

وحكى بعضهم: الأعرم: الدهر، لأنّ فيه نوائب وصروفاً متلوثة، ويقال: عزم الصّبي: يعزم إذا أتى بألوان من الغيث، ويقال للأفاعي: العرم، لأنّ فيها نقطاً تخالف لونها وأنشد: رؤوس الأفاعي في مساربها العرم.

فأما قوله: حياكه وسط القطيع الأعرم، فإنما يعني أنّ بعضه ماعز وبعضه ضأن، ويقال: لا أفعل ذاك حتى تحنّ الضب في إثر الإبل الصادرة، ولا أفعله حتى يبيض القار، ولا أفعله ما أبس عبدٌ بناقة، وإيساسه: تحريك شفتيه. ولا أفعله ما هدّهد الحمام. ولا أفعله ما صلى على النبي مُصلّ، وما دعا الله داع. ولا أفعله ما حلب حالب أضرع الدهر.

فصل

فيما يجري من التأكيدات في أوقات الدهر. يقال: دهرٌ داهر، وأبدٌ آبدٌ وآبِدٌ وحين حَين، ومحِين، ومدة مادة ومديدة، وليل لايل.

قال هميان بن قحافة: فصدرت تحسب ليلاً لائلاً. وقيظ قائظٌ وصيفٌ صائفٌ، وشتاء شات، وربيع رابع: أي مخصب، ويومٌ قائظٌ، ويقال عام أعوم ومعيم وأعوام عوم، قال: من مُرَّ أعوام السنين العوم، وحول محيل، وسنة سنهاء وشهر أشهر، ويوم كريت وقميط قال شعراً:

أقامت غَزَالَةً سَوَّاقَ الضَّرَابِ لأهلِ العَرَاقِينِ حَوَلاً قَمِيطاً

وشهر أجرد. وأفرع وأضلع، وسنة جرداء وقرعاء وصلعاء. وقال قطرب: نهار أنهر وليل أليل، وليلة ليلاء: لتأكيد شدتها. وقال غيره: نهار ونهر، ويوم يوم ويم لآخر يوم من الشهر، وقيل: الأيَّوم في الشَّدِيد. قال مروان: مروان أخو اليوم اليمى، وقيل: اليمى أريد الشَّدِيد في حرب أو قتال. وإذا ذكر أمر عظيم حدث في يوم قيل: أيوم يوم، وإن كان ليلاً قيل: ليل أليل، وإن كانت ليلة مشهورة قيل: ليلي وليلاء، قال في ليلة ليلي، ويوم أيوم. وقال:

كَمَ لَيْلَةٍ لَيْلَاءٍ مُذْلِمَةً كَابَذْتُهَا لِحَاجَةٍ مُهَمَّةٍ

وآخر ليلة في الشهر لظلمتها ليلي مقصورة، وليلاء ممدودة، وليل ليلي. قال: لما أرجحن ليلة الليلي. ويقال: أنا فلان حين هراق الليل أوله إذا مضى بعضه وقال ابن أحرمر:

ثَغَمَرْتُ مِنْهَا بَعْدَ مَا نَفَدَ الصَّبِي وَلَمْ يَرَوْا مِنْ ذِي حَاجَةٍ مِنْ تَغَمَّرَا
فَبُكْتُ أَعَاطِيهَا الْحَدِيثَ بِمُسْنَنِ مِنَ اللَّيْلِ أَبْقَتْهُ الْأَحَادِيثُ أَخْضَرَا

(ثغمرت) أي أصبت شيئاً يسيراً، (ومن ذي حاجة) أي من حاجة، وذو زائدة. (والمسنف) المتقدم، (وأبقته الأحاديث) أي انقطع الأحاديث قبل أن يتغد الليل، وقوله: (أخضر) يحتمل ضربين: يكون صفة مسنف لأنه نكرة مثله ويجوز أن يكون حالاً من الهاء في أبقته، ومثله من الحال قوله: ومال لقنواين من البسر أخمرا.

والحرس: الزمان والدهر، قال الكاتب: واختاره من سائر الأمثال في حرسه أي في زمانه، وفي كتاب الخليل: الحرس وقت من الدهر دون الحقب. قال بعض أصحاب المعاني من هذا قولهم: بناء أحرس. للأصم من البنيان.

البَابُ السَّابِعُ عَشَرَ

فِي أَقْطَاعِ الدَّهْرِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ - وَطَوَائِفِهِمَا
وَمَا يُضَارِعُهُمَا مِنْ أَسْمَاءِ الْأَمَكَةِ أَوْ يَدَاخِلُهَا مِنْ
ذِكْرِ الْحَوَادِثِ فِيهَا. وَهُوَ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ

فصل

قال الأصمعي وغيره: يقال: غبر برهةً من دهره وبرهةً وزمنةً وطرفةً وطرفةً وحقبةً
وهبةً وسبةً أي زمان. قال أبو ذؤيب:

بِقَرَارِ قِيَانٍ سَقَاهَا صَيْفٌ وَاهِ فَانْجَمَ بَرَهَةً لَا يَقْلَعُ
وَأَقَامَ دَرَجاً مِنْ دَهْرِهِ، وَحَرَساً مِنْ دَهْرَةٍ لَا يَفْعَلُ كَذَا أَيِ زَمَاناً، وَمَضَتْ سَنَةٌ مِنَ الدَّهْرِ
وَسَنِيَّةٌ أَيِ قِطْعَةٍ، وَذَكَرَ سَيُوبِيهِ فِي زِيَادَةِ التَّاءِ هَذِهِ اللَّفْظَةُ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ فَعْلِيَّةٌ لِسَنَةِ،
وَأَنشَدَ الْأَصْمَعِيُّ:

رُبَّ غِلَامٍ قَدْ صَرَى فِي فَقْرِهِ مَاءُ الشَّبَابِ عُثْفَوَانِ سَنَةٍ
وَيُرْوَى شَرْتَهُ.

وغير مهوان من الدهر وهو مفعال من الهون، ويقال أيضاً: بيني وبينه مهوانٌ من
الأرض: أي بعد ومهون أيضاً. ويقال: بقي سبتاً يفعل كذا قال شعراً:

لَقَدْ نَرْتَعِي سَبْتاً وَلَسْنَا بِجِيرَةٍ مَحَلِّ الْمُلُوكِ نَقْدَةً فَاَلْمَغَاسِلَا
وَالسَّبْتُ الْقِطْعُ، كَانَ الْمُرَادُ بِهِ قِطْعَةٌ، كَمَا يَقَالُ: الْخَلْقُ فِي الْمَخْلُوقِ.

ويقال: إِنِّي لَأَتِيهِ الْغِنَى بَعْدَ الْغِنَى، وَفِينَا بَعْدَ فِينَا. قَالَ:

لَكَ الْيَتِ إِلَّا فِينَا تُحْسِنُهَا إِذَا حَانَ مِنْ ضَيْفٍ عَلَيَّ نَزُولُ
وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو غِلَامٌ ثَعْلَبُ: (فَإِنْ يَفِينُ فِينَا): إِذَا زَارَ وَقْتاً بَعْدَ وَقْتٍ، وَيَقَالُ لِقِيَتَهُ.

فينة يا هذا، فجعلوه كالعلم، ولم يفعلوا ذلك برهة، وهذا كما قالوا للغراب: ابن داية ولم يفعلوا ذلك في الظهر. ويقال: آتيت آينة بعد آينة، بوزن عاينة أي تارة بعد تارة وكأته اسم مبني على فاعلة من الألوان كاللآيمة من اللوم والتآطرة من الأنظار. وقرئ (فناظرة إلى ميسره) والتائل من التوال، ولا يجعل آينة جمعاً لأوانٍ مثل الآونة وأنشد:

تري قورها يغرقن في آل مرة وآينة يخرجن من غامر نخل
أي وتارة يخرجن، وأوان كزمان وأزمنة. قال ابن أحرمر:

أبو عمرو يؤنسنا وطلق وعمار وآونة أثالا

قال أبو عبيدة: لقيته أدنى ظلم ومعناه القرب. وقال الأحرمر: فإن كنت تلقاه في اليومين والثلاثة فصاعداً قلت: لقيته أفرط في الفرط، ولا يكون الفرط في أكثر من خمس عشرة ليلة. ويقال: فلان تفارطته الهموم: أي لا تصيبه الهموم إلا في الفرط.

قال أبو زيد: فإن لقيته بعد شهر أو نحوه قلت: لقيته عن عفر. قال: فإن لقيته بعد الحول أو نحوه قلت: لقيته عن هجر. قال: وإذا كان الرجل يمك عن إتيان صاحبه الزمان ثم يمك عنه نحو ذلك أيضاً ثم يأتيه قال: لقيته بعيادات بين.

قال الأصمعي: فإن لقيته بين الأعوام قلت: لقيته ذات العويم، قال أبو عبيدة: فأما الغب في الزيارة فمعناه الإبطاء والتقليل على غير وقت معلوم، وأحسب الأصل كان فيه من غب وهو أن ترد الإبل الماء يوماً وتدع يوماً. ومثله غب الحمى ثم انتقل المعنى من هذا في الزيارة خاصة إلى ما فوق وقت الورد ووقت الحمى. قال: ومن هذا المعنى قوله ﷺ في الحديث: «رُزُ غِبًّا تَزِدُّ حَبًّا» فقد علم في هذا أنه أراد الإبطاء في الزيارة. قال: وكذلك الإلمام نحو الغب، إنما معناه الأحيان على غير مواظبة ولا وقت محدود، فهذا ما قاله، والإلمام للزيارة لا للوقت، كما أنَّ الاعتماد اسم لها متى كانت لا للوقت. ويقال: رأيته عين عنة أي: الساعة من غير أن طلبته وقيل: أول عاينة أيضاً. ويقال: آتيت على حباله ذاك أي على حين ذاك.

وحكى الخليل: أقمتُ عنده في ضَغِيخٍ دهره، أي قدر تمامه. (ابن الأعرابي) فعلنا كذا وكذا والدَّهرُ إذ ذاك مُسَجَّلٌ. والمعنى لا يخاف أحدٌ أحداً. ويقال: لهذا دهر حول قلب إذا كان كثير التبدُّيل، كما يقال: رَجُلٌ حول قلب. (ابن الأعرابي) يقال: حول كميل ودكيك وقميط وكريت أي تام وأنشد في الكميل شعراً:

على أنني بعدما قد مضى ثلاثون للعجر حولاً كميلاً

أي فصل بين الثلاثين وبين الحول ضرورة، ويقال: في ضد الكميل حول خت^(١) أي ناقص. ويقال: فعلته أياماً حسوماً أي متتابعة، وقيل: تامة وهو من قولك: حسمت الشيء أي فصلته من غيره، وفي القرآن: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [سورة الحاقة، الآية: ٧] أي نحوساً والأوّل أصح. ويقال: أرمى فلان على الخميس وذرف وأربى وأوفى.

وحكى الفراء فيه ودى وهذا وإن كان أصله في الزيادة في السنين فقد استعمل في الزيادة في غيرها وأنشد:

وَأَسْمَرَ خَطِيئًا كَأَنَّ كُعُوبَهُ نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ
وقد ظلف على الخمسين وقد أكل عليها وشرب، وقد طلع على الخمسين وقد ولّأها ذنباً. قال: وسمعت الطوسي يقول: قيل لبعض الأعراب: كم سنة أت لك؟ فقال: ولّتني الأربعون ذنبها. وقيل لآخر مثل ذلك فقال: أنا في قرح الثلاثين، أي في أولها وفي أول شهر منها، والأقراح أوائل الأشياء، واقترح فلان على كذا. وقال ابن الأعرابي في قول أوس:

على حين أن حد الذكاء وأدركت قريحة كحسي من شريح مغمم
جعل شباب شريح حين بدا كحسي الماء لا ينقطع ماؤه، ومغمم أي ملأ كل شيء، وغمه غرقه. ويقال: سند في الخمسين، وارتقى فيها هذا عن بعضهم. وقال أبو صاعد: ارتقى فيها فحسب.

وقال ابن الأعرابي: قلت لأبي الجماهر: ابن كم أنت؟ فقال: قد ولّتني الخمسون ذنبها. وقلت لآخر مثله فقال: حبوت إلى الستين. وقال بعضهم: أخذت بعنق الستين. وقال آخر: راهمت الثمانين. وهذا مأخوذ من الزهامة وهو العدد الكثير. ويقال: ساعة طبقة أي طويلة. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: منحت الأعقد الخمسة بالخاء المعجمة وبالحاء أيضاً يعني خمسين سنة ومعنى منح قطع. (أبو يوسف) يقال للجارية التي قد استقمت عصر شبابها: معصر وهي كاعب أولاً إذا كعب ثديها ثم يخرج فيكون ناهداً، ثم استوى نهودها فتكون معصراً. قال الزجاج:

أوانساً كالرَّبْرِبِ الرَّبَّابِ من ناهدٍ ومعصرٍ وكاعب
ويقال: لقيت فلاناً بادية بدء وبادي بدأ قال:

(١) في القاموس في فصل الخاء المعجمة مع التاء المثناة في (الخت) والخيت الخسيس والناقص والله أعلم - الحسن النعماني المصحح كان الله له.

وقد علّنتني ذرة بادِي بَدِي ورِيشه ينهَضُ في تَشَدُّدي

ويقال: كشفت النَّاقَة وأكشفت إذا نتجت في كلِّ عام وإذا أَلْقَت النَّاقَة أو الشَّاة ولدها لغير تمام قيل خدجت. وإن كان تام الخلق وأُخِذَت إذا أَلْقَتْه ناقصَ الخلق وإن كانت أَيْامه تامة. ويقال شجرة مبكار وبكور إذا أدركت حملها في أوَّل السَّنة، وشجرة منجار إذا أدركت حَمَلُها في آخر السَّنة. وشجرة معوام إذا حملت سنةً وحالت سنةً. ويقال: عاده الوجع عداداً إذا عاوده في الشهر أو في السَّنة لوقتٍ معلوم وأنشد:

أصبح باقي الودِّ مِن سعادا علاقة وسقماً عدادا
إذا أقول قد برأت عادا

وقال آخر:

تلاقى من تَذَكَّر آل سلمى كما يلقي السَّليمُ من العداد

ويحلُّ الهَدْيُ يوم النَّحر بمنى ويبلغ محلَّه. والمحلُّ الموضع الذي يحل فيه نحره، وهو يوم النَّحر إذا رميت جمرَة العقبة. معنى يحل يجب وقرئ قوله تعالى: ﴿يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ [سورة طه، الآية: ٨١] والمعنى يجب وإذا قرئ يحلل فمعناه ينزل، ويقال: بيننا وبينهم ليال آيات: أي هيئات السَّير. والأوان الدَّعة. ويقال: تعاملنا من أمانة ومعامة - ومساناة - ومسانهة - ومشاهرة - ومسابعة - ومعاشرة - ومياومة - ومواضحة من وضع النَّهار ومناصغة - ومباكرة - ومغداة - ومظاهرة - ومراوحة - ومعاصرة - وملايلة - ويقال: أسقينا مغارطةً أي للسَّابق - ومناوبةً - ومعاقبةً - ومدولةً - ومراقبةً - يرقب حتى يفرغ الغارطة - ومقالدةً - ومواضحةً - ومساجلةً - ومكابلةً أي دلوأ فدلوا - ومساوقة - أي مرَّة أسوق عليه السَّانية - مرَّة يسوق عليَّ - وموالبة أي يألِب الدَّلو إليَّ. قال:

يَبْشُرني بماتحِ الوِبِ مطرَحِ شَبه غَضوبِ

ومعارضة - ومرافضة - ومباينة يبين له الدَّلو عن الحجاف - ومعالةً - أي يعلي وهو أن يجذب الحبل عن حجر ماء في جانب البير. قال:

لو أنَّ سلمى شَهِدَتْ مَظَلَّتي أمتَحُ أو أدلِجُ أو أعلِّي
إذن أراحت غير ذات دَلِّ

ومطاردةً - ومطاوحةً - ومناوشةً - أي يأخذ عليَّ الدَّلو وأخذ عليه ومدالجةً أي أدلج بالدَّلو إلى الحوض ويدلج وهو المناقلة - ومعاطفةً يريد عطف السَّانية - وملاطفةً وهو أن يحتمل أحدهما لصاحبه فوق الشرط عليه إيجاباً له ولطفاً به. ومراواةً - أي يرتوي لبلي ثم يستقي - ومراوحةً وملاطمةً ينزل فيخرج الطين ومداومةً - ومثابرةً - ومجاحفةً - إذا نقص

الماء نزل وغرف في الدَّلْو. ويقال سقينا إبلنا رفهاً ومُرافهةً - وظاهرةً - وزعزعةً أنصاف النَّهار - وعريحاً مَرَّةً بالغداة ومرةً بالعشي - وغباً ومغابةً - وربعاً ومربعةً وعشراً ومعاشرةً - ومطاردةً. ابن الأعرابي يقول:

سأل واديك من غير مطرك وأطرد عيشك في جداول دهرك
لمن عاش في غيره وأنش بحدّ سواه. ويقال للسَّيل إذا سال واديه من مطر - وإذا خَرَّ
سال دراو وإذا سال من مطرك - قيل سال ظهراً. يقال: مضى لذلك دهر داهر - ودهر
دهاهير - والمراد الطَّاول. قال الشاعر:

والدَّهر أينما حال دهاهير

وقال آخر:

أنا الدَّهر يفنى الموت والدَّهر خالدٌ فجئني بمثل الدَّهر شيئاً يطاوله
وقيل: الدَّهر تكرار اللَّيل والنَّهار، والزَّمان: اللَّيل والنَّهار، وصرف الدَّهر ما يتصرف
بالشيء من أحوال تختلف، ولهذا قال الشاعر:

والدَّهر بالإنسان دوازي. والحين يصلح كلُّ وقتٍ طال أو قَصُر، لأنَّه اسم كلِّ زمان،
ومنهم من يجعل الجزء والجزئين من الزَّمان حيناً ويستدل بقوله. تطلقه حيناً وحيناً تراجع.
ويقال: مضى هذا الأمر لحين أوان: أي لوقته. قال شعراً:

لأَرْكَبُ صَغَبَ الأَمْرِ إِنَّ ذَلُولَهُ بنجران لا يَقْضِي لِحِينَ أَوَانُ

وقد جان يحين - حيوناً - وحينونة - وحينت الشيء - جعلت له حيناً - والتَّحِينَ في
الحلب من هذا، وهو أن يجعل له وقتاً معلوماً يحلب المحلوبة فيه لا يستنقص ولا
يستقصي، وهو خلاف الأفن وهو الاستقصاء - والامتحاق والانقصاح وهو ذهاب اللَّبن
أجمع. ومنه قيل للقمر: امتحق وانتصح. وذلك في ليالي المحاق إذا لم يبق ضوء. وشيءٌ
مُتَأَبِّد أتى عليه أبد. ولا أفعله حتى يفنى الأبد. قال حسان شعراً:

واللَّوم فيك وفي سمراء ما بقيت وفي سُمَيَّة حَتَّى ينفد الأبدُ

ولا أفعله آخر كلِّ ليلة وأبد الله - وطوال الدَّهر - وطوال الله - وطوال الليالي -
وسجيس الأوجس - وسجيس الأعجس - وأوجس أعجس - وأحنى أقوس، وأحنى أشوس -
وسجيس المسند - ولا أفعله ما أن في السَّماء نجماً - وما أن في السَّماء نجمٌ يريد: ما عَن أي
عرض. ويقال: مضى له أمة، وهي مدَّة من الزَّمان طويلة ولا تجمع. وقال أبو العباس

ثعلب: الأمة مائة سنة فما زاد. ويقال: إنَّ الملوين اللَّيل والنَّهار. ومنهم من يقول هما اختلافهما وأنشد شعراً:

نهار وليل دائم ملوَاهما على كلِّ حال المرء يَخْتَلِفَانِ

قال أحمد: لو كان الملوان اللَّيل والنَّهار لم يضافا إلى ضميرهما من حيث لا يضاف الشيء إلى نفسه، ولكن يريد تكثُر الدهر واتِّصاله بهما. ومضت ملوة من الدهر - وملوة وزمنة - ومدة طبقة - وساعة طبق - ومدة طبق - والمراد من كلِّه الطول وجمع مليء إملاءً وجمع طبق أطباق. ويقال: انتظرتُه مليّاً من الدهر أي مُتَّسِعاً منه فهذا صفة استعمال الأسماء. ويقال تملّيت حيناً أي عشت معه ملاوة وقال التوزي: يقال: ملاوة وملاوة وملاوة والملا المتَّسع من الأرض. قال: الأغنياني: وارفعا الصوت بالملاء. وفي القرآن: ﴿وَأْمِلْ لِهَمِّكَ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٣].

وقال ثعلب: الحقب واحد وهو بلغة قيس سنة. وقال غيره: الحقب ثمانون سنةً والحقبَةُ السَّنة. وقال يونس في قوله:

إني أرى لك أكلا لا يقومُ لَهُ من الحليفة إلا الأزلَمُ الجذعُ

وبعض يقول الأزنم - ويقال: الأزلَمُ المتجاذع. ويقال: خروف متجاذع إذا كرب يجذع. وقال:

ما زال ذاك الداب حتّى رأيتهم يعزّون سنّاً الأزلَمُ المتجاذع

وإنما سُمِّيَ جذعاً لأنّه أبداً جديد. ولذلك قال بعضهم: سن الدهر سن الحسل أي: لا يزال جذعاً لا يطري عليه سنّ أخرى فينتقل إليها ويقولون: لا أفعله سنّ الدهر - وسنّ الضَّب - وسن الحمل - والمعنى واحد. وقوله: الأزلَمُ والأزنم يراد به ما يتعلق به من الحوادث بممرّه ومتصرّفاتِه، ويقال: أفعل ذلك غداً أو سلعة إذا كان بعد الغد أو قريباً منه.

فصل

ذكر ابن الكلبي أنّ عاداً سَمَّتِ الشُّهور بأسماء، وجاء عن أبي عمرو الشَّيباني والفرّاء وقطرب والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم من العلماء وفاق في بعضها واختلاف في بعضها، وربما كان الاختلاف في الترتيب، وربما اختلفوا في بناء الكلمة ووضعها وصرفها وترك صرفها، كتركهم الصَّرف للشمس والشَّمال فقالوا: هذه شمسٌ بازغةٌ، وهذه شمالٌ باردةٌ. وقال الشاعر حالفاً:

أما وشمس لتحصنهم دماً وقال:

إذا هَبَّتْ شمالٌ غدرتَ فيها بلفظٍ بين مفرحةٍ وآنٍ

فمن ذلك قالوا للمحرّم: مؤتمر إجماع منهم. ولصفر: ناجر ومنهم من لا يصرف فيقول ناجر. ولربيع الأول قال قطرب: خوان وخوان مخفّف - وقال غيره: خوان بالضمّ والتشديد، ولربيع الآخر: قال قطرب: وبسان وبسان - وقال غيره بسان بالتخفيف والضمّ وبوبسان ووابسه - وجمادى الأولى: قال قطرب: حنين - وقال ابن الكلبي: ربي بالباء - وقال ابن الأعرابي: رني بالنون - وقال ابن دريد حنين - وجمادى الآخرة قال قطرب: ربي وربّه - قال ابن الكلبي: حنين - وقال الشّيباني والفراء: حنين وأنشدا شعراً:

وذو النّحب ينويه فيوفي بنذره إلى البيض من ذاك الحنين المُعجّل
رجب قال قطرب: الأصم وهو إجماع منهم - شعبان عاذل - ابن الكلبي وابن الأعرابي
وعل - الفراء: عل مثل فخذ شهر رمضان - قطرب: ناتق وغيره نتق - شؤال: عل - ابن
دريد وعل - ابن الكلبي وابن الأعرابي عاذل - غيرهم معتدل. ذو القعدة: قطرب: ورنه -
غيره ورنه - أخررنه - غيره رنة - الشّيباني يقال له: هواع قال:

وقومي لدى الهيجاء أكرمُ موقعاً إذا كان يومٌ من هواع عصيبُ
ذو الحجة: برك بإجماع منهم - وروى الصّولي عن أحمد بن يحيى في أماليه زعم ابن
الكلبي أنّ العرب كانت تسمي المحرم مؤتمراً - وصفرأ ناجراً - وشهر ربيع الأول خوان -
وشهر ربيع الآخر وبسان - وجمادى الأولى ربي - وجمادى الآخرة حنين - ورجب الأصم -
وشعبان عاذلاً - ورمضان عاذلاً - وشؤال وعلاً - وذو القعدة ورنه - وذو الحجة برك.

فصل

استخرجناه من كتاب سيبويه يستغرب أكثر ما فيه ونختم به الكلام في الأماكن
والأوقات ويتصل به ذكر شيء من الخلاف بيننا وبين الكوفيين إذا تأمل انشرح به كثير من
هذا الباب.

قال سيبويه: يقول هو ناحية من الدّار وداره ذات اليمين وأنشد لجبرير:

هَبَّتْ حنوناً فذكرى ما ذكرتكم عند الصّفاة التي شرقي حوراننا
قال: وسمعت بعض العرب ينشد:

سرى بعدما غار الثّريا وبعدما كأنّ الثّريا حلّة الغورِ مُنخلٍ
فانتصاب هذه الأحرف كانتصاب قولك هو قصدك قال: وسمعنا ممن يوثق به من
العرب هما خطان جنابتي أنفها يعني الخطين اللّذين اكتنفا جنبي أنف الظّبية. قال الأعشى:

نحنُ الفوارسُ يومَ الحنو ضاحيةً جنبى فطيمة لا مَيْلٌ ولا عَزَلٌ
ويقال: زيد جنب الدار، وجانب الدار، وقالوا: هم حوله وأحواله وحياله وحواليه
وهم جنبه وجنابه وقطريه وأقطاره. وأنشد لأبي حية التميمي:

إذا ما تغشاه على الرّحل جنبتي مساليه عنه من وراء ومقدم
يعني بمساليه عطفيه فهو بمنزلة جنبى فطيمة. وكقولهم: هو وزن الجبل أي ناحية
منه، وهو زنة الجبل، وقولك أقطار البلاد فإن جعلت الآخر هو الأوّل رفعت وأردت به الثقل
أعني الوزن والزّنة. ومن ذلك قول العرب: هو موضعه أي في موضعه كما قالوا: هو صدك
وسبقك أي قربك. وتقول كيف أنت إذا أقبل قبلك ويجيء نحوك قال: كيف أنت؟ إذا
أريدت ناحيتك، وكيف أنت إذا أقبل التعب الرّكاب جعلهما اسمين. والنقب الطّريق في
الجبل والمراد بقوله جعلهما اسمين، أي لم يجريا على المصدر فهو بمنزلة قولهم هو قريب
منك، فإن شئت قلت: هو قريباً وهل قريباً منك أحد. قال: ومما لا يحسن أن يكون ظرفاً
قولك: جوف المسجد، وداخل الدّار، وخارج الدار وذلك لمفارقتها خلف وقدام وما
أشبههما مبهمة.. والمختصّ من أسماء الأماكن لا يكون ظرفاً. قال ومما شبّه من الأماكن
المختصة بالمكان قولهم: هو منّي منزلة الشّغاف وهو منّي مزجر الكلب وأنت مقعد القابلة.
قال فوردنّ والعتيق مقعد رأي الضّربا.

وقال آخر:

ولئن بني حربٍ كما قد علمتم مناط الثّريّا قد تعلّت نجومُها

وقال: هو منّي معقد الإزار، وهم درج السّيل قال ابن هرمة:

انصب للمنيّة لقربهم رجالسي أم هم درج السيول

وكل هذا وأشباهه وضعت مواضع القرب والبعد فلذلك استجيز فيها على اختصاصها
وقوعها ظرفاً قال: فاستعمل هذا ما استعمله العرب وأجيز منه ما أجازوه قال: وزعم يونس
أنّ بعضهم قال: هو منّي مزجر الكلب، فرفع جعله بمنزلة مرأى ومسمع. ويجعل الآخر هو
كالأوّل. فأما قولهم: داري خلف فرسخاً فكأنّه لما قال داري خلف دارك، وهو مبهم فلم
يدر ما قدر ذلك فقال: فرسخاً وذراعاً.

وزعم يونس أنّ أبا عمرو كان يقول: داري من خلف دارك فرسخان، كما تقول: أنت
منّي فرسخان وفرسخين. قال فأما قولهم: اليوم الأحد واليوم الاثنان وكذلك إلى الخميس
فلأنّها ليست يعمل فيها أراد أن يفرّق بينها وبين السّبت والجمعة فتقول اليوم خمسة عشر من

الشهر، إذا أردت أن اليوم تمام خمسة عشر - ومن العرب من يقول: اليوم يومك، فيجعل اليوم الأول بمنزلة الآن، لأنَّ الرجل قد يقول: أنا اليوم أفعل كذا ولا يريد يوماً بعينه.

وأنفق الكوفيون والبصريون على أن قول القائل: خلقتك وقدامك وما أشبههما من الأماكن العامة ظروف في الإضافة، واختلفوا فيها إذا أفردت، فقال البصريون: هي ظروف على ما كانت في حال الإضافة.

وقال الكوفيون: إذا أفردت صارت اسماً فقولك زيد خلفاً وقداماً عند البصريين ظرف. وعند الكوفيين زيد خلفٌ على معنى متأخر، وقدام بمعنى متقدم، وكذلك إذا قلت: قام زيد خلفاً نصبته على الظرف عند البصريين. والكوفيون يقولون: تقديره تقدير الاسم الذي هو حال كأنه قال: قام متأخراً وكذلك إذا قلت: قام مكاناً طيباً يكون ظرفاً.

والكوفيون يقولون: ناب عن قولك مترفاً ومعتبطاً، وإنما يحتاج إلى الإضافة عندهم لأنه يكون خبراً عن الاسم، كما يكون الفعل خبراً في الوقت، زيد يذهب فلماً كان الفعل يحتاج إلى فاعل ويتصل به أشياء يقتضيها من المصدر والمكان والزمان والمفعول ألزموا المحل للإضافة ليسد المضاف إليه مسد ما يطلبه الفعل ويدل عليه.

وقال البصريون: إنما الإضافة لتعيين الجهة والتعريف. والأصل هو التثنية وإنما التعريف داخل عليه. وأجمع الفرقان على أن الوقت يرفع وينصب إذا كان خبر المرفوع مبتدأ في حال تعريف الوقت وتثنيته. فالتعريف قولك: القتال يوم الجمعة واليوم. وإن شئت قلت: اليوم ويوم الجمعة. والتثنية كقوله: (زعم البوارخ أن رحلتنا غداً) وغداً. فالتقدير في الرفع وقت القتال اليوم فحذف المضاف والنصب بإضمار فعل كأنك قلت: القتال وقع اليوم، وإذا كان الفعل مستغرقاً للوقت كله - فالبصريون يجيزون فيه النصب على الظرف، كما يجيزونه في غير المستغرق ويدخلون عليه (في).

والكوفيون لا يجيزون فيه النصب وهذا غلط، ويجعلونه خبراً هو الأول، ولا يدخلون في تقول صياحك يوم الخميس، والصوم يستوعب اليوم ويجوز في قولهم: صمت في يوم الخميس. والكوفيون لا يجوزون النصب ويمنعون من إدخال (في) لأنها عندهم: توجب التبعيض، والصوم يستوعب اليوم. وقولهم فاسد لأن (في) لا يمنع دخولها على زمان الفعل وإن قل، ويقول: كلمت في القوم أجمعين، فدخل (في) وقد استوعبتهم الكلام، وامتنع الكوفيون من زيد خلفك أشد منع حتى قال بعضهم في قوله: ألا جبرائيل أمامها إن ذلك إنما جاز لأن جبرائيل لعظم خلقه يملأ الأمام كله، وهذا في الحصول خطأ لأن الأمام لا نهاية له، وكذلك سائر الجهات. وأجازوا ذلك في أخبار الأماكن فقالوا: داري خلفك ومنزلي أمامك، وعلى هذا حمل ثعلب قول لبيد: خلفها وأمامها وإذا تأملت فلا فصل.

البابُ الثامن عشر

في اشتقاق أسماء المنازل والبروج وصورها،
وما يأخذ مأخذها والكواكب السبعة وهو فصلان:

فصل

العواء^(١) يمد ويقصر، والقصر أجود وأكثر، وهي خمسة كواكب كأنها ألف معطوفة
الذنب وأنشد:

فلم يسكنوها الجزء حتى أظلمها سحاب من العوا وتابث غيومها
وسميت العواء: للانعطاف والالتواء الذي فيها، والعرب تقول: عويت الشيء إذا
عطفته، وعويت رأس الناقة إذا لويته، وفي المثل: ما ينهي ولا يعوي وكذلك عويث القوس
والشعر والعمامة إذا عطفته. ويجوز أن يكون من عوى إذا صاح كأنه يعوي في أثر البرد،
ولهذا سميت طاردة البرد، ويقولون: لا أفعله ما عوى العواء ولوى اللواء. وقال بعضهم:
إنما سميت العواء لأنها خمسة كواكب كأنها خمسة كلاب تعوي خلف الأسد ونوؤها ليلة.

السماك وسمي السمك الأعزل لأن السمك الآخر يسمى رامحاً لكونه يقدمه،
يقولون: هو رمحه وقيل: سمي أعزل لأن القمر لا ينزل به، وقال صاحب كتاب الأنواء،
ينزل القمر بهذا دون الزامح وأنشد:

فلما استدار الفرقدان زجرتها وهب سلاح ذو سماك وأعزل
والعرب يجعل السماكين ساقى الأسد ونوؤه غزير، لكنه مذموم وهو أربع ليالٍ وسمي
سماكاً لأنه سمك أي ارتفع، وقال سيويه: السمك أحد أعمدة البيت. قال ذو الرمة:

(١) قال صاحب جواهر الحقائق: العوا هو منزل ثالث عشر للقمر، والسمك الأعزل هو منزل رابع عشر من
القمر، والغفر منزل خامس عشر له ١٢ ش.

كَأَنَّ رَجْلِيهِ سَمَاكَانَ مِنْ عَشْرِ ثَقْبَانِ لَمْ يَتَفَشْ عَنْهُمَا النَّجَبُ
وَيَبِينُ يَدِي السَّمَكَ الْأَعْزَلَ أَرْبَعَةَ كَوَاكِبَ عَلَى صُورَةِ النَّعْشِ يُقَالُ لَهَا: عَرْشُ السَّمَكَ
وَيُسَمَّى الْخَبَاءُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَرْشُ الثَّرِيَا يُقَالُ: بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةُ عَرْشِيَّةٍ قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ
شِعْرًا:

بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةُ عَرْشِيَّةٌ شَرِيتَ وَبَاتَ إِلَى نَفَا مَتَهَدِّدٍ
شَرِيتَ أَيِ لَجَّتْ فِي الْمَطَرِ وَمَتَهَدِّدٌ أَيِ مَتَهَدِّمٌ لَا يَتِمَّاسُكَ.

الْغَفْرَةُ وَهِيَ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبَ بَيْنَ زَبَانِي الْعَقْرَبِ وَبَيْنَ السَّمَكَ الْأَعْزَلَ خَفِيَّةٌ عَلَى خَلْقَةِ
الْعَوَاءِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: خَيْرٌ مَتَزَلَةٌ فِي الْأَبَدِ بَيْنَ الزَّبَانِي وَالْأَسَدِ تَعْنِي الْغَفْرَةَ، لِأَنَّ السَّمَكَ
عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْضَاءِ الْأَسَدِ، فَقَالُوا: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَسَدِ مَا لَا يَضُرُّهُ الذَّنْبُ يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَظْفَارَ
وَالْأَنْيَابَ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْعَقْرَبِ مَا لَا يَضُرُّ الزَّبَانِي لِدَفْعِ عَنْهُ الْحِمَّةِ، وَهُوَ مِنَ الْغَفْرَةِ وَهُوَ الشَّعْرُ
الَّذِي فِي طَرَفِ ذَنْبِ الْأَسَدِ. وَقِيلَ سُمِّيَتِ الْغَفْرَةُ لِأَنَّهَا كَأَنَّهَا يَنْقُصُ ضَوْؤُهَا، وَيُقَالُ غَفَرْتُ
الشَّيْءَ إِذَا غَطَّيْتَهُ فَيَكُونُ عَلَى هَذَا فِي مَعْنَى مَفْعُولٍ، وَيَقُولُ: شَرُّ التَّنَاجِ مَا كَانَ بَعْدَ سَقُوطِ
الْغَفْرَةِ، وَيَعْدُونَ لَيْلَةَ نَزُولِ الْقَمَرِ بِهِ سَعْدًا، وَنَوَّهَ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَقِيلَ بَلْ نَوَّهَ لَيْلَةَ وَأَنْشَدَ:

فَلَمَّا مَضَى نَوُّ الثَّرِيَا وَأَخْلَفَتْ هَوَادٍ مِنَ الْجُوزَاءِ وَانْغَمَسَ الْغُفْرُ
الزَّبَانِي ^(١) وَسُمِّيَ زَبَانِي الْعَرَبِ وَهِيَ قَرْنَاهَا، كَوَكْبَانِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّيْنِ وَهُوَ الدَّفْعُ،
وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ غَيْرَ مُقَارِنٍ لَهَا وَنَوَّهَهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ وَتَهَبَ مَعَهُ الْبُورَاحُ وَأَنْشَدَ:
وَرَفَرَفَتِ الزَّبَانِي مِنْ بُوَارِحِهَا هَيْفًا أَنْشَتْ بِهِ الْأَصْنَاعُ وَالْخَبِيرُ
الْأَصْنَاعُ مُحَابِسُ الْمَاءِ وَالْخَبِيرُ جَمْعُ خَبْرَةٍ وَهِيَ أَرْضٌ بِهَا السَّدَرُ وَيَدْفَعُ فِيهِ الْمَاءُ.

الْإِكْلِيلُ وَهِيَ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبَ مُصْطَفَاةٌ عَلَى رَأْسِ الْعَقْرَبِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْإِكْلِيلُ وَكَأَنَّهَا مِنْ
التَّكْلِيلِ وَهُوَ الْإِحَاطَةُ، وَمِنْهُ الْكَلَالَةُ فِي النَّسَبِ وَنَوَّهَ أَرْبَعَ لَيَالٍ، وَهُوَ مِنَ الْعَقْرَبِ وَأَنْشَدَ
نَجْرَانَ الْعُودَ يَصِفُ رَفَقَاءَهُ:

مَطْرِفِينَ عَلَى مَشْنَى أَيْامِهِمْ رَامُوا التَّزُولَ وَقَدْ غَابَ الْأَكَالِيلُ
جَمْعُ الْإِكْلِيلِ كَأَنَّهَا جَعَلَ كُلَّ كَوْكَبٍ إِكْلِيلًا ثُمَّ جَمَعَهُ.

الْقَلْبُ: وَهُوَ كَوْكَبٌ أَحْمَرٌ يُسَمَّى الْقَلْبَ لِأَنَّهُ فِي قَلْبِ الْعَقْرَبِ، وَأَوَّلُ التَّنَاجِ بِالْبَادِيَةِ

عند طلوع العقرب، وطلوع النسر الواقع ويسمّيان الهرايين لهرير الشتاء عند طلوعهما ونوؤها ليلة، ثم يستحسنونها قال:

فسيروا بقلب العقرب اليوم إنّه سواءً عليكم بالتحوس وبالسعد
(والقلوب) أربعة (قلب العقرب) و (قلب الأسد) و (قلب الثور) وهو الدبران و (قلب الحوت).

الشّولة^(١) وسُمّيت بذلك لأنّها ذنب العقرب. وذنب العقرب شاييل أبداً، وأهل الحجاز يسمّون الشّولة الإبرة، وبعدها إبرة العقرب وهي سُمّيت فقر يجعلون كلّ كوكب فقرة، والسّابعة الإبرة. والمجرّة تسلك بين قلب العقرب وبين النّعائم فتقطع نظام المنازل في هذا الموضع. وفي موضع آخر وهو ما بين الهقعة والهنة فإنّها تسلك بينهما، فتعترض نظام المنازل اعتراضاً، وها هنا تقطع القمر وسائر الكواكب الجارية في المجرّة، وذلك حين تنحدر عن غاية تواليها إلى ذروة القبة فتأخذ في الهبوط، فأما قطعها إيّاها عند السقوط فذلك حين يتبدّى الصّعود بعد غاية الهبوط، ويسمّى الشّولة شولة الصّورة وهي منغمسة في المجرّة فإذا لم يعدل القمر عن منزله قيل: كالح القمر مكالحةً. ومعنى شال ارتفع، ويقال: ناقة شائلة إذا ارتفع لبنها. وجمعها شؤل وناقة شاييل: إذا شالت بذنبها وجمعها شؤل وأنشد:

كأنّ في أذنا بهنّ الشّؤل من عبس الصّيف قرون الأيل
ونوؤها ثلاث ليالٍ وهي كوكبان مضيّتان.

النّعائم^(٢) وهي ثمانية كواكب (أربعة) منها في المجرّة تسمى الواردة لأنّها شرعت في المجرة كأنّها تشرب (وأربعة) خارجة منها تسمى الصّادرة وإنّما سُمّيت نعائم تشبهاً بالخشب التي تكون على البئر، أو تحت مظلة الرّثية فكأنّها أربع كذا وأربع كذا كما قال:

لأظّل في يدها إلا نعامتها منها حزيماً ومنها قائم باقٍ
ونوؤها ليلة.

البلدة وهي فرجة بين النّعائم - وبين سعد الدّابح - وهو موضع خالٍ ليس فيه كوكب، وإنّما سُمّيت بلدة تشبهاً بالفرجة التي تكون بين الحاجبين اللّذين هما غير مقرونين ويقال:

(١) في الجواهر منزل تاسع عشر للقمر، ١٢ القاضي محمد شريف الدين الحنفي.

(٢) في الجواهر منزل العشرين للقمر، ١٢ محمد شريف الدين عفا عنه.

رجل أبلد إذا افترق حاجباه، ونوؤها ثلاث ليال وقيل ليلة.

سعد الذابح وسُمِّي بذلك لكوكب بين يديه يقال هو شاته التي تذبح ونوؤه ليلة. وأنشد:

ظعائن شمس قريح الخريف من الفرغ والأنجم السذابحة

سعد بلع سُمِّي بذلك لأن الذابح معه كوكب بمنزلة شاته وهذا لا كوكب معه فكأنه قد بلع شاته. وقال بعضهم: سُمِّي بلع لأن صورته صورة فم فتح ليلع. وقال غيره: بل لأنه طلع حين قال الله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ [سورة هود، الآية: ٤٤] كأنَّ انكشاف ذلك الطوفان في يومه ونوؤه ليلة.

سعد السعد^(١) وسُمِّي بذلك لأنَّ في وقت طلوعه ابتداء ما به يعيشون، وتعيش مواشيهم ونوؤها ليلة وقيل: إنَّ السعد منها في واحد وهو نهارها وأنشد:

ولكن بنجمك سعد السعدو طبقت أرضي غيثاً درورا

سعد الأخبية^(٢) وسُمِّي بذلك لكوكب في كواكبها على صورة الخباء وقيل: بل لأنه يطلع في قبل الدفء فيخرج من الهوام ما كان مختبئاً، ونوؤه ليلة وليس بمحمود.

فرغ الدلو المقدم^(٣) ويقال: الأعلى، وبعضهم يقول: عرقوة الدلو العليا وعرقوة الدلو السفلى. وذكر بعضهم: إنما سُمِّي فرغ الدلو لأنَّ في وقت الأمطار تأتي كثيراً فكأنه فرغ دلو وهو مصب مائها. وقال بعضهم: إنما سُمِّي بالعرقوة والفرغ تشبهاً بعراقي الدلو، لأنها على هيئة الصليب ونوؤه ثلاث ليال، وأنشد في خريف:

سقاء نوء من الدلو تد لى ولم يوار العراقي

وأنشد:

يا أرضنا هذا أوان تحيين قد طال ما حُرمت بين الفرغين
ويقال للفرغ الناهز وهو الذي يحرك الدلو لتمتليء.

(١) في جواهر الحائق هو منزل الرابع والعشرين للقمر، ويسمى متن الفرس.

(٢) وفيه هو منزل الخامس والعشرين للقمر ويسمى جناح الفرس ١٢.

(٣) منزل السادس والعشرين للقمر ويسمى جناح الفرس - شريف الدين.

فرغ الدلو المؤخر^(١): ونوؤه أربع ليالٍ وهو محمود.

الرّشا: وهو السّمكة ويقال: بطن السّمكة وقلب الحوت ويقال لما بين المنازل الفرج. فإذا قصر القمر عن منزلة واقتحم التي قبلها نزل بالفرجة ويستحسنون ذلك إلا الفرجة التي بين الثريا والدبران، فإنّهم يكرهونها ويستحسنونها ويقال لها الضيقة. قال:

فهلّا زجرت الطّير ليلة جتّه لضيقه بين النّجم والدبران

الشرطان^(٢): وسُمّي بذلك لأنهما كالعلامتين أي سقوطهما علامة ابتداء المطر، والشرط العلامة ولهذا قيل لأصحاب السّلطان: الشرط لأنهم يلبسون السّواد كأنّهم جعلوا لأنفسهم علامات يُعرفون بها ويقال: شرطي في كذا ويقال: إنّهما قرنا الحمل، وهما أوّل نجوم فصل الربيع، ونوؤه ثلاثة أيام وهو محمود غزير.

البطين^(٣) وسُمّي بذلك لأنّه بطن الحمل ونوؤه ثلاث ليالٍ وهو شرّ الأنواء وأنزرها وقلّما أصابهم إلا أخطأهم نوء الثريا.

الثريا^(٤) ويسمى النّجم والنّظم وهو تصغير ثروى من الكثرة وقيل: سميت بذلك لأنّ مطرها يثري ويقال: ثرى ونوؤها خمس ليالٍ غير محمود.

الدبران^(٥) ويسمى التابع والثاني والتّبع والفتيق وحارك النّجم وسُمّي الدبران لأنّه دبر الثريا أي صار خلفها، ويسمى المجدح والمجدح حكاهما الشّيباني وقال الأموي هو المجدح ونوؤه ثلاث ليالٍ وقيل: بل هو ليلة وهو غير محمود.

وقد فسّر بعضهم ورد القطاة إذا استمال التبع على أنّه الدبران ومما يحكى عنهم من كلامهم: كان كذا حين خفق المجدح يعنونه. وقال بعضهم: إنّما قال: مجدح إذا اتّصل نوؤه بنوء الثريا فغزر ويقولون: سقيت بمجاديح السّماء وأرسلت السّماء مجاديح الغيث. فإنّ قيل: أتقول لكلّ ما دبر كوكب الدبران؟ قلت: لا أقول ذلك لأنّه قد يختص الشيء من بين جنسه بالاسم حتّى يصير علماً له، وإن كان المعنى يعمّ الجمع على ذلك قولهم النّابغة في الجعدي والذّياني وابن عباس في عبد الله وأنشد:

(١) قال في جواهر الحقائق منزل السابع والعشرين للقمر، ويسمى بطن الحوت.

(٢) الشرطين منزل أوّل للقمر ١٢.

(٣) وفيه أيضاً البطين منزل الثاني للقمر.

(٤) المنزل الثالث.

(٥) المنزل الرابع للقمر ١٢ القاضي محمد شريف الدين.

وَرَدَنَّ اغْتِسَافاً وَالثَّرِيّاً كَأَنَّهَا عَلَى قَعَةِ الرَّأْسِ ابْنُ مَاءٍ مَحْلَقٌ
يَدْفَعُ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانَهَا فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ

الهقعة^(١) وُسُمِّيتْ بِذَلِكَ تَشْبِيهاً بِهَقْعَةِ الدَّابَّةِ: وهي دائرة تكون على رِجْلِ الفارس في جنب، ويقال فرس مهقوع وكانوا يتشاءمون بها وهي ثلاثة كواكب تسمى رأس الجوزاء، ونوؤه ست ليال، ولا يذكرون نوؤها إلا بنوء الجوزاء وهي غزيرة مذكورة وتسمى الأثافي لأنها ثلاثة صغار متعينة. وقال ابن عباس لرجل طلق امرأته عدد نجوم السماء يكفيك منها هقعة الجوزاء. وهي ثلاث.

الهنعة^(٢) وهي منكب الجوزاء الأيسر وُسُمِّيتْ بِذَلِكَ الأيسر من قولهم: هنتع الشيء إذا عطفته وثبتت بعضه على بعض فكأنَّ كُلَّ واحد منهم منعطف على صاحبه. ومنه الهنع في العنق، وهو النواء وقصر ونوؤها لا يذكر وهو ثلاث ليالٍ إنما يكون في أنواء الجوزاء، ويقال: سُمِّيتْ الهنعة لتقاصرهما من الهقعة والذراع المبسوطة وهي بينهما منحنطة عنهما، ويقال: أكمة هنعاء إذا كانت قصيرة وتهاج الطائر الطويل العنق مقاصرة عن عنقه.

الذراع: ذراع الأسد وله ذراعان مقبوضة ومبسوطة ونوؤها خمس ليالٍ وقيل ثلاث ليالٍ، وهو أقل أنواء الأسد محمود غزير. والمقبوضة هي اليسرى سُمِّيتْ مقبوضةً لتقدّم الأخرى عليها، وهي الجنوبية وبها ينزل القمر وكلّ صورة من نظم الكواكب، فميامئها مما يلي الشمال، ومياسرها مما يلي الجنوب لأنّها تطلع بصدورها ناطرةً إلى المغارب فالشمال على أيمنها، والجنوب على أيسارها وقد فهم ذلك القائل، والتجوم التي تتابع بالليل وقتها ذات اليمين ازورار وإنّما أزورارها على أيمنها إطفاءً منها بالقطب لذلك قال:

وعانَدَتِ الثَّرِيّاً بَعْدَ هَـذِهِ مَعانِدَةً لَهَا الْعَيَوقُ جَارِ

وأحد: كوكبي الذراع الغميصاء وهي التي تقابل العبور والمجرة بينهما. قال أبو عمر: وهي الغميصاء والغموص وقد يكبر فيقال: الغمصاء ويقال لكوكبها الآخر الشمالي المرزم، مرزم الذراع والآخر في الجوزاء قال:

ونائِحةٌ صَوِيَّتْها رابِعٌ بَعَثَتْ إِذَا خَنَقَ المَرزَمُ

ويروى إذا ارتفع المرزم. ومرزم الجوزاء لا نوء له، وقد ذكر بالنوء على سبيل الشعريين قال:

(١) الهقعة: المنزل الخامس للقمر.

(٢) الهنعة: المنزل السادس للقمر - شريف.

جرى راحتك جَزِي المرزمين متى تنجدا بنو لي ثغور
ومن أحاديثهم: كان سهيل والشعريان مجتمعاً، فأنحدر سهيل فصار يمانياً وتبعته
العبور عبرت إليه المجرة، وأقامت الغميصاء، فبكت لفقد سهيل حتى غمضت. والغمص في
العين نقص وضعف.

النثرة: وهي ثلاثة كواكب وسُميت النثرة لأنها مخطئة بمخطها الأسد كأنها قطعة
سحاب، ويقولون: بسط الأسد ذراعيه ثم نثر ويجوز أن تكون سُميت بذلك لأنها كأنها من
سحاب قد نثر والنثرة الأنف ونوؤها سبع ليالٍ.

الطرف: سُميت بذلك لأنهما عينا الأسد ويقال: طرف فلان أي رفع طرفه فنظر.
قال: إذا ما بدا من آخر الليل يطرفُ ونوؤه ثلاث ليالٍ.

الجهة: جهة الأسد ونوؤه محمودٌ سبع ليالٍ، ويقولون: لولا نوء الجهة ما كانت
للعراب إبلٌ.

الزبرة: زبرة الأسد أي كاهله، وقيل: زبرته شعره الذي يزبر عند الغضب في قفاه أي
ينتفش، وهذا ليس بصحيح، لأنَّ أرباعاً من الزبارة والثلاثي وسُميت الخراتان من
الخرت، وهو الثقب كأنهما تنخرتان إلى جوف الأسد وهذا غلط لأنَّ رأي العين يدركهما في
موضع زبرة الأسد. ونوؤها أربع ليالٍ.

الصفرة: وسُميت بذلك لأنَّ البرد ينصرف بسقوطها، وقيل: أرادوا صرف الأسد رأسه
من قبل ظهره، ويقال: الصفرة ناب الدهر؛ لأنها تفتُر عن فصل الزمان، وأيام العجوز في
نوئها، وهو ثلاث ليالٍ، وحكي عن بعض الأعراب أنه قال: الخراتان مع الأسد تجريان معه
وليستا منه. قال: ومعنى قول الشاعر:

إذا رأيت أنجماً من الأسد جهةً أو الخراًة والكند

وإن رأيت الخراًة من غير أن يكون جعلها شيئاً من خلقه، ثم قال والكند فرجع إلى
ذكر ما هو من خلقه فهذه المنازل.

فصل

في بيان الكواكب السبعة

وأما النجوم الخمس الجواري الخمس: فمعنى الخمس أنها تخنس أي ترجع ومعنى
الخنس أنها في بروجها كالوحش تأوي إلى كَنسها، وهي سبعة مع الشمس والقمر سيطرة غير
أن بعضها أبطأ سيراً من البعض، فكل ما كان فوق الشمس فهو أبطأ من الشمس، وما كان

دون الشمس فهو أسرع من الشمس بينما ترى أحدها آخر البروج كَرَّ راجعاً إلى أوله، ولذلك لا ترى الزهرة في وسط السماء أبداً وإنما تراها بين يدي الشمس أو خلفها، وذلك أنها أسرع من الشمس، فتستقيم في سيرها حتى تجاوز الشمس، وتصير من ورائها، فإذا تباعدت عنها ظهرت بالعشاء في المغرب فتري كذلك حيناً ثم تكرر راجعة نحو الشمس حتى تجاوزها فتصير بين يديها، فتظهر حيثئذ في الشرق بالغدوات. وهكذا هي أبداً، فمتى ما ظهرت في المغرب فهي مستقيمة، ومتى ما ظهرت في المشرق فهي راجعة وكل شيء استمر ثم انقبض: فقد خنس، كما أن كل شيء استتر فقد كُتس.

زحل^(١): واشتقاقه من زحل مزحلاً إذا بُعد، ويقال: زحلت الناقة إذا تباطأت في سيرها وتأخرت وهو معدول عن زاحل وزاحل معرفة.

المُشتري^(٢) وهو من شرى البرق إذا استطار لمعاناً، ويقال: شرى وشرى ومنه استشرى غيظاً ويقال: شرى يشرى إذا لَجَّ وتشدد ومنه سميت الشُّرة لتشددهم في الدين. وقال بعضهم: إنما تسموا بالشُّرة ذهاباً إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١١].

المريخ^(٣): ف قيل من المرخ كأنه يوري ناراَ لأنَّ المرخ شجر سريع الوري ومن أمثالهم: في كلِّ شجر نار. واستمجد المرخ والعفار، ويجوز أن يكون سُمِّي به لبعده مذهبه، ومنه المريخ السَّهم الخفيف الرَّبع قذذ يجعل للغلاء وهو بعد الرمي ويقال: هو من غلوة السَّهم.

الشمس^(٤): قال الخليل: الشمس عين الضح. وبه سُمِّيت معاليق القلادة وقيل هو من المشامسة لأنها نحس في المقارنة وإن كانت سعداً في النظر ومنه شمس لي فلان إذا ظهرت عداوته.

(١) قال صاحب الجواهر: مدة دوره حول الشمس مرة في عشرة آلاف وسبع مائة وتسع وخمسين يوماً وساعتين.

(٢) وفيه أيضاً مدة دور المشتري حول الشمس مرة في أربعة آلاف وثلاث مائة واثنين وثلاثين يوماً وأربع عشرة ساعة.

(٣) في الجواهر دور المريخ حول الشمس مرة في ست وثمانين يوماً وثلاث وعشرين ساعة. ١٢ القاضي محمد شريف الدين عفا عنه.

(٤) في جواهر الحقائق قطر الشمس (٨٨٣٢٤٦) ميلاً. ١٢.

الزَّهْرَةُ^(١): بفتح الهاء من الشَّيْءِ الزَّاهِر، ويكون من الحسن والبياض جميعاً. والزَّهْوَر تَلَأُو الشَّمْس. ومنه قولهم: زهرت بك زنادي.

عطارد^(٢): من الاضطراب: لأنَّه في مرأى العين كأنه يرقص وهو من قولهم: شاء عطرد أي بعيد وكذلك سفر عطرد، ويجوز أن يكون سُمِّيَ به لأنَّه لا يفارق الشَّمْس فكأنَّه عدَّه لها، والعطردة العدة يقال: عطرد هذا عندك، أي عدة.

القمر: من القمره وهي البياض، ويقال: تقمرت الشيء إذا طلبته في القمراء. وقال أحمد بن يحيى: إنّما سُمِّيَ القمر (سahوراً) لأنه يخسف بالسَّاهرة، والسَّاهرة الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [سورة النازعات، الآية: ١٤] أي أرض القيامة، وذلك أنَّ القمر خسوفه بظل الأرض وحجزها بينه وبين الشَّمْس. وقال قطرب: بهور القمر علوه في الظهور وأنشد:

إذ فارس الميمون يتبعهم كالطَّلَق يتبع ليلة البهر

(والكوكب الدَّرِّي) منسوب إلى الدَّر لضيائه، وإن كانت الكواكب أكثر ضوءاً من الدَّر كأنه يراد: يفضل الكواكب لضيائه كما تفضل الدَّر سائر الحب ودري بلا همزة وبكسر أوله حملاً على وسطه وآخره لأنَّه تثقل عليهم ضمة بعدها كسرة. وما آن كما قيل كرسي في الكرسي ودَّرِّي فقليل من النَّجوم الدَّراري التي تدرأ: أي ينحط ويسير متدافعاً. يقال: درأ الكوكب إذا تدافع منقُضاً فيضاعف ضوؤه ولا يجوز أن يُضم الدَّال ويهمز، لأنَّه ليس في الكلام فعيل.

ومثال: دَرِّي فعلي منسوباً إلى الدَّر ويقال: درأ بضوئه يدرأ درأً ودرواً ودرأت له بساطاً: أي بسطته، ويجوز دري إذا جعلته منسوباً إلى إندر، فيلحقه تغيُّر النسبة، لأنَّ النسبة تغيّر لها الكلمة كثيراً، ويقال: كسفت الشَّمْس وكسفها الله وخسف القمر وخسفه الله، وطلعت الشَّمْس، ونجم النَّجم وغربت الشَّمْس وصغا القمر وخفق النَّجم وصغا أيضاً، ويقال: تعرّضت الثَّريا في السَّماء: إذا زالت عن كبد السَّماء إلى ناحية المغرب، وجنحت الثَّريا قال:

وأيدي الثَّريا جنح في المغارب. وقال آخر:

وكأنَّ غالية تباشرها بين الثَّياب إذا صَغَا النَّجْمُ

(١) في الجواهر دور الزَّهْرَة حول الشَّمْس في مائتين وأربع وعشرين يوماً وسبع عشرة ساعة.

(٢) دور عطارد حول الشَّمْس سبع وثمانين يوماً وثلاث وعشرين ساعة.

البَابُ التَّاسِعُ عَشَرَ

فِي أَقْطَاعِ اللَّيْلِ - وَطَوَائِفِهِ - وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ

قال يعقوب: يقال: فعلته أَوَّلَ اللَّيْلِ وهو من عند غيوبة الشَّمْسِ إلى العتمة والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة، ويقال: أتيتَه ظلاماً وعشاءً وبعد عشوة من اللَّيْلِ، والعتمة: وقت صلاة العشاء الآخرة.

قال الخليل: العتمة ويقال الغتمة بسكون التاء: الثَّلَاثُ الْأَوَّلُ من اللَّيْلِ بعد غيوبة الشَّفَقِ، وله قبل صلاة العتمة، والعتوام التي تحلب في تلك السَّاعَةِ، وإنَّمَا سَمَّوْهَا الغتمة من استعتام نعمها، ويقال: حلبناها عتمةً وعتمةً والعتمة بقية اللَّبَنِ يغبق به تلك السَّاعَةُ يقال: أفاقت النَّاقَةُ إذا جاء وقتُ حلبها، وقد حلبت قبل ذلك.

وقال الأصمعيّ: عتم يعتم إذا احتبس عن فعل الشيء يريدُه وقد عتم قراه وأعتمه وإنَّ قراه لعاتم أي بطن محتبس، وصف عاتم، وعتم أوردَ إبله في تلك السَّاعَةِ وأعتم صار فيها. قال أوس: أخو شركي الورد غير معتم.

وحكى ابن الأعرابي: قالت الينمة: أنا الينمة أعقب الصَّبي قبل العتمة، وأكبَّ النَّمال فوق الأكمة. والينمة: بقلة تشبه الباذروج، قال: وكلَّما كَثُرَتْ رَغْوَةُ اللَّبَنِ كان أطيب لبناً من المضارع، يقول دُرِّي يتعجل للصَّبي وذلك أَنَّ الصَّبي لا يصبر والمراعي أطيب، وأما فورة العشاء فعند العتمة، يقال: أتيتَه فورة العشاء وعند فورة العشاء، وإنَّمَا هو من فار الظَّلام إذا علا وارتفع. أبو عبيدة: أتيتَه ملس الظَّلام أي حين يختلط الظَّلام بالأرض، وذلك عند صلاة العشاء وبعدها شيئاً، وفعلته عند مَلَسِ الظَّلام، وهو مثل الملت، وعند غلس الظَّلام أيضاً، ودمسه وجنحه وغسقه. وأتيتَه في غسق اللَّيْلِ، وحين غسق اللَّيْلِ أي في اختلاط وحين اختلط. ثم الشَّمِيط وهو مشبه بالشَّيب لبياضِ الفجر في سواد اللَّيْلِ كالشَّيب في الشَّعر الأسود، ويقال: غسق يغسق غسوقاً وغسقاً. قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [سورة الفلق، الآية: ٣].

وقال كعب: حتى إذا ذهب الظلام والغسق. ويقال: تَحَنَّدَسَ اللَّيْلُ مِنَ الحَنْدُسِ وهو شِدَّةُ سَوَادِ اللَّيْلِ وظلمته، والجمع حَنَادِسَ وحَنَادِيسَ. قال: وأدركتُ منه بهيماً حندساً، وليلة مدلهمة وملطخمة وخدارية. وقالوا: الفترة: الظلمة مع الغبار، وفي القرآن: ﴿تَرَهَقْهَا فِتْرَةٌ﴾ [سورة عَبَسَ، الآية: ٤١] ويقال: مضى جرسٌ من اللَّيْلِ بالسين غير معجمة، والجمع أجراسٌ وجُروسٌ قال:

حتى إذا ما بركت بجرس أخذتُ عشي ونفعتُ نفسي

ومضى عنك من اللَّيْلِ، وعنك والجميع أعناك قال:

فقاموا كسالى يلمسون وخلفهم من اللَّيْلِ عنك كالثَّغَامَةِ أَفْعَسُ

أي طال، وانحنى: أفْعَسَ.

قال يعقوب: وسمعتُ أبا عمرو يقول: العنك ثلث اللَّيْلِ الباقي، وأعطيه عنكاً من مال أي قطعة، ويقال: سجا اللَّيْلُ وأسجى، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ [سورة الضُّحَى، الآية: ١-٢]. ويُقال: يوم أسجى، وليلة سَجَواء، وهي اللَّيْنَةُ السَّاكِنَةُ، وَيَعِيرُ أسجى، وناقَة سَجَواء أدمة، ويقال: مضى ملي من اللَّيْلِ والجميع أملاء، ومضى هذه والجمع هدوء، ومضى بضغ من اللَّيْلِ، وهنيء من اللَّيْلِ: قطعة، ومضى هزيغ من اللَّيْلِ أي ساعة والجميع هزاع. وقال بعضهم: الهزيغ من اللَّيْلِ النُّصْفُ، ويقال: اهتزعوا أي خرجوا بهزيغ من اللَّيْلِ. وجَرَشَ من اللَّيْلِ بالسين المعجمة.

قال يعقوب: وحكى الفراء: جتته بعد جَوْشٍ مِنَ اللَّيْلِ، وجَوْشٍ مِنَ اللَّيْلِ. قال إذ الديك في جَوْشٍ مِنَ اللَّيْلِ أطر. وقال بعضهم: الجوشن: وسط اللَّيْلِ. قال ذو الرمة:

تَلُومُ نَهْيَاهُ بِيَاهُ وَقَدْ مَضَى مِنْ اللَّيْلِ جَوْشٌ وَاسْبَطَرْتُ كَوَاكِبُهُ
وقال ابن أحرر شعراً:

يضيء صيرها في دي حيٍّ جواشٍ ليلها بيناً فيينا

أي قطعة من الأرض بعد قطعة، وقال: جواشن هذا اللَّيْلِ كي يتمولا. وبقيتُ جهمةً من اللَّيْلِ، وجمهةً أيضاً، والجهمة: بقية من سواد اللَّيْلِ في آخره. قال الأسود شعراً:

وقهوة صهباء باكرتُها بجهمة والديك لم يتعب

وحكى: جهنةً من اللَّيْلِ بالنون، وقال بعض أهل اللغة: جهينة اسم الخمرة منها يشق. وقال بعضهم: الجهممة السحر. وحكى أبو حاتم، والهجمة لغة فيها الهاء قبل الجيم والفعل عنها اجْتَهَمَ واهْتَجَمَ واجْتَهَنَ، ومضى وسعٌ مِنَ اللَّيْلِ يكون مِنْ أَوَّلِهِ إلى ثلثه أو

ربعه. وجَوُزٌ مِنَ اللَّيْلِ أي نصفٌ من اللَّيْلِ، والجميع: أجواز، وقال: النَّضْرُ جُوزُ اللَّيْلِ: وسطه. ويقال: انطلقنا فحمةَ العشاء، والجميع فحمت أي في أوَّل الظُّلْمَةِ. وقال بعضهم: فحمةُ العشاء شدةُ الظُّلْمَةِ، ويقال: فحموا من اللَّيْلِ أي لا تسيروا في أوَّل اللَّيْلِ حتى تذهب فحمته، وأفحموا أيضاً وكأنَّه مأخوذ من الفَحْمِ.

وقال ابن الأعرابي: الفحمة ما بين غروب الشَّمْسِ إلى نوم النَّاسِ، سُمِّيَتْ فحمة لِحَرِّهَا وأوَّل اللَّيْلِ أَحَرُّ من الآخر. قال: ولا تكون الفحمة في الشَّتَاءِ وذلك لأنَّه لا حَرٌّ فيفحمهم، وإنما يفحمون ليكن الحر عنهم فيسيرون ليلتهم وقيل: فحمة العشاء من لدن المغرب إلى العشاء الآخرة.

وقال أبو صالح الفزارى: فحمة العشاء: من لدن العشاء إلى نصف اللَّيْلِ، يقال: أفحم القوم إذا أناخوا فحمة اللَّيْلِ. وجاءنا بعد هَجْعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ أي نومة، ومضت جزعةٌ مِنَ اللَّيْلِ أي ساعةٌ مِنَ أوَّلِهِ، وصبة من اللَّيْلِ نحو جزعة وكما استعملا في أوَّل اللَّيْلِ استعملا في آخره أيضاً فقل: بقيتُ جزعةً من اللَّيْلِ وبقيت صبةً من اللَّيْلِ.

وحكى النَّضْرُ: أتيتُه بسُدُفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ. ومضى طبقٌ من اللَّيْلِ: أي هوى منه وجاء بسحرةٍ بدهمة. وجاء سحيراً: أي في آخر الليل وجاء بأعلى سَحَرَيْنِ أي: بالسَّحَرِ الأعلى. قال الدَّريدي: العرب تقول: جئتكَ بالسَّحَرِ بالآلف واللام، وجئتكَ بسحر وبسحرة، وبأعلى السحرين، وجئتكَ سَحَرًا، ولم ينونوا فيقولون: سحراً أصلاً، والكلام في هذا وأشباهه قد مضى مُستقصى.

وحكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: ليس في كلام العرب: أانا سحراً إنما يقولون: أانا سَحَرًا. ويقول: جئتكَ تنفَسَ الصُّبْحِ أي عند أوَّلِهِ. وفي القرآن: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكويد، الآية: ١٨] وقد جَسَرَ الصُّبْحُ يَجْسُرُ جُسُوراً أي: بدأ لك. ومنه سُمِّيَتْ الجاشرية للشَّربة عند الصُّبْحِ، ويقال: جئتكَ في غَبَشِ اللَّيْلِ والغَبَشِ حين تصبح.

قال: منظور الأسدي:

موقع كَفِّي رَاهِبٍ يُصَلِّي في غَبَشِ اللَّيْلِ أو الثَّلَاثِي

وقيل الغبش: بقية لم يفضحها نهار، قبيل الفجر، ويقال: أتيتُه بغبش من اللَّيْلِ، ويقال: غبش اللَّيْلِ وأغبش. وغطش وأغطش، فأما العسْعَسُ والعسْعسة فهما تنفَسُ الصُّبْحِ، وقالوا: عسَسَ اللَّيْلُ عسْعسةً إذا أظلم.

وقال بعضهم: عسَسَ وَلَّى فهذا من الأضداد، وهو قولُ ابن عباس قال: عَسَسَ:

أَدَبَر . وقال علقمة بن قرط :

حَتَّى إِذَا لِلصُّبْحِ لَنَا تَنَفُّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَعَسَا
وقال آخر :

وَرَزَدْتُ بِأَفْرَاسٍ عَتَاقٍ وَقَتْبَةٍ قَوَارِطَ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ مُعَسَّسِ
كَأَنَّهُ أَرَادَ هَهُنَا الظُّلْمَةَ ، وَمِثْلَهُ فِي الْمَعْنَى :

قَوَارِباً مِنْ غَيْرِ دَجَنٍ نَسَا مُدَرَّعَاتِ اللَّيْلِ لَمَّا عَسَسَا
والبليغة : فِي آخِرِ اللَّيْلِ عِنْدَ الصُّبْحِ ، وَالتَّقْوِيرُ : عِنْدَ الصَّلَاةِ قَالَ :

طَالَ لَيْلِي أَرَأَيْتُ التَّنْوِيرَا أَرَقُبُ الصُّبْحَ بِالصَّبَاحِ بَصِيرَا

قَالَ النَّضَرُ : جِئْتُهُ بَعْدَمَا مَضَى وَهْنٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيِ سَاعَةٍ ، وَبَعْدَ هَدَأٍ مِنَ اللَّيْلِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَوْهَنُ حِينَ يَدْبُرُ اللَّيْلَ . وَأَوْهَنَ الرَّجُلُ : صَارَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ . وَبَعْدَ هَدَأَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَبَعْدَمَا هَدَأَتِ الرَّجُلَ . وَبَعْدَمَا هَدَأَتِ الْعَيُونُ ، وَقَالُوا : تَعَجَّسَ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ الْفَرِيعُ وَالسَّعَوَاءُ بَعْدَ الْوَهْنِ ، قَالَ : وَقَدْ مَالَ سَعَوَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ أَعْوَجُ . وَيُقَالُ : مَضَى هَيْتَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ ، وَقَطَعَ . قَالَ : سَرْتُ تَحْتَ إِقْطَاعٍ مِنَ اللَّيْلِ ظِلْتِي . وَالسَّاعَةُ الطَّوِيلَةُ مَلَأَ ، وَيُقَالُ : أَتَيْتُهُ غَطْشًا وَيَغْطِشُ . وَمَضَى سَبَجٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيِ : قَرِيبٌ مِنْ وَسْطِهِ وَنِصْفِهِ . أَبُو زَيْدٍ : مَضَى اللَّيْلُ عَشْوَةً وَهُوَ مَا بَيْنَ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى رُبْعِهِ . الْكَسَائِيُّ : مَضَى سَعَوٌْ مِنَ اللَّيْلِ وَسَعَوَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيِ : سَاعَةً . وَمَضَى هَتَاً مِنَ اللَّيْلِ ، وَحَكَى الْأَحْمَرُ : هَتَى وَهَتَاً مِنَ اللَّيْلِ .

وَحَكَى قَطْرَبَ وَغَيْرَهُ : ذَهَبَ هَيْتَاءً مِنَ اللَّيْلِ ، وَيُقَالُ : مَا بَقِيَ إِلَّا هَتَاً عَنْ غَنَمِهِمْ أَوْ إِبِلِهِمْ ، وَهُوَ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَقْلَ مِنَ الْبَاقِي أَوْ الذَّاهِبِ . وَيُقَالُ : مَضَى دَهْلٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيِ صَدْرٌ ، وَأَنْشَدَ لِأَبِي هَجِيمَةَ شِعْرًا :

مَضَى مِنَ اللَّيْلِ دَهْلٌ وَهِيَ وَاحِدَةٌ كَأَنَّهَا طَائِرٌ بِالذُّودِ مَذْعُورٌ

وَيُقَالُ : مَضَى مِهْوَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيِ طَائِفَةٌ مِنْهُ . وَمَضَى مِهْوَانٌ مِنَ اللَّيْلِ : أَيِ هَوَى مِنْهُ . وَيُقَالُ فِي وَاحِدِ الْإِنَاءِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ آتَاءَ اللَّيْلِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١١٣] مَضَى أَنَّى وَأَنَّى وَإِنِّي وَإِنِّي . قَالَ الْهَذَلِيُّ شِعْرًا :

حُلُوٌّ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقَدَحِ مَرَّتَهُ فِي كُلِّ آتَى قَضَاءِ اللَّيْلِ يَنْقَلُ
وَيُقَالُ : تَصْبِصَبُ اللَّيْلُ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَّا قَلِيلًا . وَفَعَلْتُهُ عِنْدَ تَصْبِصَبِ اللَّيْلِ . وَكَذَلِكَ أَبْهَارُ اللَّيْلِ إِذَا ذَهَبَ عَائَتُهُ . وَبَقِيَ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِهِ . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَبْهَارُ اللَّيْلِ انْتَصَفَ .

والبهرة: الوسط من كل شيء. وبهرة الصدر ما ضمَّ الصدر من الزور وجمعها بهر. وقيل: ابهيراره طلوع نجمه، وذهاب فحمته، حتى بهرت نجومه سواده. والشفق بقية ضوء الشمس وحُمرتها من أول إلى قريب من العتمة، ويقال: فعلته عند غيوبة الشفق، وهما شفقان من أول الليل كما أنَّ الفجر فجران من آخر الليل. والهبة الساعة يبقى من السحر ويقال: ثرنا بهبة من الليل. قال أبو نصر حكاية عن الأصمعي: الفجر أول ضوء تراه من الشمس في آخر الليل كما أنَّ الشفق آخر ضوء منها في أول الليل. ويقال: فَجَرَ الصَّبحُ يَفْجُرُ أو فعلْتُ هذا حين انْفَجَرَ الصَّبحُ وانْفَلَقَ. وسَطَعَ سطوعاً والسَّاطِعُ أسنى من الطَّالع. يقال: أدلجنا عند الفَلَقِ والفرق، وعند الانفلاق، وفي القرآن: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [سورة الفلق، الآية: ١].

وقال قطرب: تميم تقول: فرق الصَّبح، وغيرهم فلق الصَّبح، والفلق أيضاً الطريق بين الجبلين، وناشئة الليل: ما ينشأ منه، ومن ذلك قولهم: غلام ناشئ ونشأت سحابة، وفي القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ [سورة المزمل، الآية: ٦] أي أشد مكابرة، ومن قرأها وطأ أي مواطأة من قولك توطأ القوم: إذا اجتمعوا على أمر كان أحدهم يطأ حيث يطأ صاحبه. والنَّشِئَةُ مثل النَّاشِئَةِ، ويقال في الجارية: نشِئَةُ أيضاً أحوالها في النِّشاء والنَّشِية أيضاً حجر يكون على الحوض من قوله: هرقناه في بادي النَّشِية داثر. وعمود الصَّبح نفسه. والصَّديع الصَّبيح. قال: كأنَّ بياضَ لَبَتِه صديقٌ. وإيضاح الفجر وإيضاحه إضاءته واستنارته. وأصله: الانشقاق ومنه: انضاحت العصا أي انشقت، وأدلجنا ببلجة أي سرنا بسدفٍ قبل طلوع الفجر، وتبلَّج الصَّبح وانبلج، وفي المثل تبلَّج الصَّبح لذي عينين، وجئتكَ عند البهر، أي حين بهر الصَّبح ضوء القمر، ويقال: قمر باهر وأنشد:

وقد بهرتُ فما تخفى على أحدٍ إلا على أحدٍ لا يعرفُ القمرُ

والأسفار أن يرى موقع التبل، ويقال: أتيته في سفر الصَّبح والفجر، وأتيته سحرةً. ويقال: وردت الماء بالغطاط أي: قبل طلوع الفجر. وفعلت كذا عجيس الليل وعجاساء الليل، وعجس الليل أي آخر الليل. ومنه قيل: تعجس عن كذا أي تحبس وتأخر. ويقال: جئتكَ غلساً وجئتكَ جنح الليل، وقد جنح جنوحاً. وجئتكَ عند تهوّر الليل وتوهّره. وذلك إذا مضى إلّا قليلاً. والتهوّر في الليل: كالمثل والتَّشبيه. قال يعقوب: مضت قويهه من الليل، أي قطعة وهذا من قولهم: قوّه الصَّيد إذا جاشه إلى مكان. ومضى سهواء من الليل: أي بعدما مضى صدره، وأصله الانبساط والاتساع، ومنه السهوة الصَّفة. والسَّاهية ما اتسع واستطال من غير حمر برد العين. والزوية الطائفة من الليل. وقالوا: الصَّريم أول الليل وآخره جميعاً لأنَّه من الأضداد. وقال بعضهم: إنَّما وقع عليهما لأنَّه اسم لما يتصرَّم من كل واحد منهما عن صاحبه قال:

فلَمَّا انجلى عنها الصَّريم وأبصرت هجانا تسمى اللَّيل أبيض معلماً وقال آخر:

علامَ تقولُ عاذلتني بلوم يُورِّقني إذا انجابَ الصَّريمُ

والدَّيسق: النور والبياض ويقال: انشقَّ الصَّبح عن ريحانة الفجر أي نسيمه. ويقال: صبح مكذب وهو عجز اللَّيل أي آخره، وذلك إذا نهض بياض في عجز اللَّيل ثم ينمحي ويندجي عجز اللَّيل، ثم يمهل ساعة، ثم يظهر شमित الصَّبح وهو بياض في سواد آخر اللَّيل، وذلك الصَّبح المسدف وقال أبو ذؤيب:

شغفُ الكلابِ الضَّاريات فؤاده فإذا ترى الصَّبح المصدقُ يفزعُ

والخيطُ الأسود هو عجز اللَّيل ثم يشق خيطُ اللَّيل عن خيط النهار، فيقال: هذا خيط الصَّبح وفي القرآن: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧] ومن ذلك قول الرَّاجز: (مَرَّتْ بأعلى سحرين تذال) وأعلى سحرين هو قبل الصَّبح. أبو حاتم يقال: قد شقَّ الصَّبح - وصدع - وسطع - وانفلق - وتنفس - وجشا وجش - وذلك إذا طلع ووضع، ويقال: شقَّ حاجب الصَّبح، وإذا طلع حاجبه وهو أوَّلُه فذلك تبشير الصَّبح، ويقال: أذن الصَّبح ومناذي الصَّبح وهما الصَّبح بعينه. وبعضهم يقول: بل هو الطائر إذا نطق لا بان الصَّبح والصَّبح - والفجر - والصَّريم واحد ويقال كشط اللَّيل عنا غطاءه - ورفع اللَّيل عنا اكتناهه. والاهتجام من آخر اللَّيل. وقال بعضهم: هي الهجمة. وقال بعضهم: الهجمة الجيم قبل الهاء، وذلك الاجتهام والهجمة والعسجة سواء وهما من السَّحر. ويقال: أتيت بأغباش السَّواد - والواحد غبش قبيل الصَّبح - قال ذو الرِّمة:

أغباش ليلٍ تمام كأنَّ طارِقَه تطخطخُ الغيم حتى ماله جوبُ

وقال ابن الأعرابي: علباء مضر تقول ولدته لتمام، فتفتح التاء وتميم تكسر، ويقال: في كل لغة ليل التَّمام بالكسر، وذكر الأصمعيُّ أنَّه لا يكسر التَّاء إلا في الحمل واللَّيل، وعقب اللَّيل بقايا آخره ويقال: أتيت وقد بقيت علينا عقبٌ من اللَّيل - وأفراط اللَّيل أوَّل تبشيريه، والواحد فرط، ومنه الفارط الذي سبق القوم إلى الماء فأما قول الهمداني:

إذا اللَّيل دجى واستقلَّت نجومُه وصاحَ من الإفراط هامٌ جوائمُ

فقد اختلفوا فيه فقال بعضهم: إفراط الصَّبح: لأن الهام إذا أحس بالصَّباح صرخ.

وقال غيره: الفرط العلم المستقدم من أعلى الأرض، الذي يكون شرعاً بين أحياء فمن سبق إليه كان له. وذكر قطرب: يقال لما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سجسج. ومن الزوال إلى العصر يقال له: الهاجرة. ومن العصر إلى الأصيل: غروب الشمس، ويقال العشي. ثم هو القصر والعصر إلى تطفيل الشمس وهو الطفل. والجنوح: إذا جنحت الشمس للمغرب. ثم الليل من وقت غروبها إلى انتصاف الليل. الجنح ثم السدف والملس والمثلث وأتيته بمسى الليلة أي عند المساء، وأتيته ممسياً ومساءً. وحكى الفراء: أتيته ممسى خامسة ومسى خامسة ومساء خامسه، وحين ألقى الليل علينا رواقه وكَنَفَيْهِ، وحين ألقى علينا سُدُولَهُ وسُدُورَهُ وسِقَطِيهِ وجلبابَهُ، ودخلنا في جنان الليل وهو ما وراءك. وقال:

جَنَانُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ دَمِيسَا وَإِنْ جَاوَزْتَ أَسْلَمَ أَوْ غِفَارَا

وأسطمة الليل وسطه، وكذلك أصطمة القوم والبحر للوسط، والأكثر، ويقال: اصطم بغيرها، وسوق الليل ما دخل فيه وصم من شيء. وفي القرآن: ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾ [سورة الانشقاق، الآية: ١٧] ويقال: أتنا حين هدأت القدم، وحين هدا السامر، وجثثك بغطاش من الليل. قال أبو حاتم: هو من قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [سورة النازعات، الآية: ٢٩] وثبج الليل وحومته ولجه معظمه.

وحكى الدريدي: خرجنا بدلجة - ودلجه - وبلجة - وبلجة - وسدف - وسدف - ويقال: دبر - وأدبر - وقبل النهار - وأقبل - وحكى أبو عمرو عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: يقال هو الليل - والأيهم - والسد - والأبهم - والجمير - والأعمى - والأدهم - قال: ومن نعوته ونعوت ظلمته: الغاضي - والمغضي - والأسود - والأدلم - والأخضر - والأصبغ - والأقتم - والأكلف - والبهم - والذيجور - والذجوجي - والغيب - والمخم - وأطلس - وأطحل - والأسجع - والساجي - والغيهبان - والحداري - والخندس - والأغصف - والأغلف - والأغطش - والغاسق - والكافر - والعافي - والزويزي - والسم - والأغم - والأسهم - والساهم - والأحلس - والأغدف - والمغدف.

ومن أسمائه: الغشي - والأروق - والأخطب - والألمى - والأحوى - والمدلهم - والأحم - والغاطي - والجان - والمخب - والأقوس - والجول - والعمس - والعكاس - والعكس - والعكابس - والحلبوب - والحلكوك - والداس - والداماء - وهو من أسماء البحر يشبه الليل به - وذو السدود - والأغيس - والأسحم - والأعشى - والأغشى - والغطاط - والأغطي - ويقال: الغطاط عند السحر الأعلى - ويقال أيضاً: أتيته بغطاط أي بشيء من سواد

الليل والمعلنكس - والمعرنكس - والعسكرة الظلمة - والمطخطح - وقسورة الليل شدته وغسوه - والطرمساء - والظلمساء - للظلمة في السحاب وهي من الضباب أيضاً. وقالوا: غباشير الليل والنهار لما بينهما من الضوء. والتباشير العمود نفسه ويقال: أدمس الليل أي أظلم، ويقال للظلمة: الغيطة. قال الفرزدق: والليل مختلط الغياطل أليل.

ابن الأعرابي: قيل في مثل يا هادي الليل جرت فالبحر أو الفجر يرفعان وينصبان، والمعنى إنما هو الهلاك أو يرى الفجر كنى عن الهلاك بالبحر. ويقال: اغتبد ليلتك أي سرّ واجعلها غمداً لك. وهذا كما يقال: اتخذ الليل جملاً وامتناه. ويقال: اغتمد أيضاً. والطارق أيضاً الليل - وتطارقه تراكمه. ويقال: آتيتك طوى من الليل أي بعدما مضت ساعة وكذلك آتيتك قويمه من الليل.

البابُ العشرون

في أقطاع النهار وطوائفه - وما يتصل به ويجري مجراه

قال النضر: النهار من طلوع الشمس ولا يُعدّ ما قبل طلوعها من النهار وجمعه أنهرة ونهر. وقال الخليل: هو ضياء ما بين طلوع الشمس يحديه حتى تحلّ صلاة الضحى. وغزالة الضحى أولها يقال: أتانا في غزالة الضحى وهو أول الضحى أي مدّ النهار الأكبر. فأمّا رَأْدُ الضحى فحين يعلوك النهار حتى يمضي منه نحو الخمس، ويقال: أتيت ضحياً وراداً وقد ترادت الضحى وترادها وتزيلها وارتفاعها وجئتكَ في فوعة النهار وهي أوله.

وحكى بعضهم فوعة كلّ شيء أوله وفوعه، وكذلك فيعته وفيعه. ومنه كان ذلك عند أول فوعة أول شيء، وأتيت مدّ النهار، وهو بعد الرّاد وأتيت مدّ النهار الأكبر. وجئت حين ذَرَّ قرْنُ الشمس، وحين بزغت وشرقت وأشرقت، فالشروق الطلوع، والإشراق الانبساط والإضاءة وفعلته حين ترجّلت الضحى، والنّهار وهو علوه واختلاطه.

وأتيت غدوة وبكرة، وهما لا يصرفان لأنّ غدوة علم، وبكرة نحوها: وإني لأتيت في البكرة - وأتيت بكرةً وأتيت غدوةً بكرةً، وأتاني غدوةً باكرةً - والمبكر ما جاء في أول وقت وكذلك الباكر. قال:

ألا بَكَرْتُ عُرسِي بليلٍ تلوّني

وفي الحديث: «بَكُّرُوا بصلوة المغرب» ويكون الغداة أصله ذاك أيضاً. ومنه باكورة الرّبيع والتبكير أول الصلوة. وفي الحديث: «من بَكَرَ وإبتَكَرَ» فَبَكَرَ يكون لأول ساعات النهار. وقال ثعلب: ويجوز في قوله إبتَكَرَ أي أسرع إلى الخطبة حتى يكون أول داني وسامع، كما يقال: إبتكرت الخطبة والقصيدة أي اقتضيتها وازتجلتها ابتداء لم أرو فيها. وقول الفرزدق شعراً:

إذا هُنَّ بَاكَرْنَ الحديثَ كَأَنَّهُ جَنَى التَّخْلِ أو أبكار كَزَمَ تعَطَّفَ

أراد أنها حملت أول حملها. ويقال: أتنا بعدما متع النهار الأكبر، يريد بعدما علا النهار واستجمع النهار. وذكر بعضهم: متع النهار متوعاً إذا ارتفع، وذلك قبل الزوال. وانتفع النهار وذلك قبل نصف النهار، وفي قبل النهار أي في أوله وفي الضحاء الأكبر. وأتيته شدَّ النهار، وذلك حين ارتفع النهار. قال عنترة:

عهدي به شدَّ النهار كأنما خضبُ اللّيان ورأسه بالعظلم
بالعندم. ويروى مدَّ النهار. وأتيته كهر النهار. وقال الشاعر:

وإذا العانة في كهر الضحى دونها أحقب ذو لحم زيم
وقال ابن أحمر في نحر النهار:

ثم استهلّ علينا واكفّ همع في ليلة نحرث شعبان أو رَجَبَا

وحكى قطرب: (الجون) النهار. قال والجون في لغة قُضاعة الأسود وفيما يليها الأبيض. وفعلته في شباب النهار - وفي نحر النهار - وفي وجه النهار - وفي هادي النهار، وهادي كل شيء مقدمه - وفي القيط الهاجرة - وهو قبل الظهر بقليل، وسُميت هاجرة، لأنَّ السير يهجر فيها، وجعل الهجران للوقت على المجاز، ويقال: هجر القوم وتهجّروا أي ارتحلوا بالهاجرة. وأهجروا دخلوا في الهاجرة. والظّهيرة نصف النهار في القيط حتى تكون الشمس بحيال رأسك فتركد. وركودها أن تدوم حيال رأسك كأنها لا تريد أن تبرح.

وأتيته في فرع النهار: أي في أوله، وحكى: بش ما أفرعت أي ابتدأت. والفرعة أول نتاج الناقة. ويقال: أفل هذا في تلح الضحى أي في ارتفاعها. ويقال: تلح النهار: أي ارتفع. وتلح الظبي أخرج رأسه من الكناس وأتلح رأسه فنظر. كما يقال: طلع وأطلع. وأتيته حدَّ الظّهيرة وفي نحر الظّهيرة قال:

حدَّ الظّهيرة حتى ترحلوا أصلاً إنَّ السقاء له رمٌ وببليـل

وجنته في الظّهيرة وعند الظّهيرة وبعضهم يجعله على تصرفه من الظهور وبعضهم من الإظهار وهو شدة الحر، وحكى أبو سعيد السكري يقال: صلينا عقب الظّهيرة، وأعقاب الظّهيرة أي تطوعاً بعد الفريضة. وجنت في عقب النهار إذا جثت وقد مضى وكذلك عقبانه، وجنت في عقبه ومعقباً إذا جثت وقد بقيت منه بقية.

وأتيته عند اضمقار الظّهيرة: أي حين اضمقّرت الشمس وصعدت. وزرته بالهجير، وعند آخر الهجير قال العجاج شعراً:

كأنه من آخر الهجير قرم هجاناً هم بالغدور

والهجيرُ فَعِيل بمعنى المفعول وكما قالوا: هاجرة على المجاز قيل هجير على التحقيق أيضاً. فأما تأنيث الهاجرة فكان المراد بها، وبأمثالها الساعة. وأما التذكير حيث جاء فلان: المراد به الوقت - وقولهم: الهجير لو أُريد به الساعة لألحقوا به الهاء بعد أن قُطِعَ عن الموصوف، وسلك به طريق الأسماء كما لحق بقوله البيّنة وهي الكعبة واللقطة وما أشبههما.

وأُتيته بالهجير الأعلى، وفي الهاجرة العليا: يريد في آخر الهاجرة. وأُتيته بالهويجرة وذلك قبل العصر بقليل، وأُتيته هجراً. قال الفرزدق:

كَأَنَّ الْعَيْنَ حِينَ أَنْخَنَ هَجْرًا مَغْقَاءَ نَوَاطِرِهَا سَوَامًا

ويقال: أُتيته حين قام قائم ظهر، أي في الظهيرة، وأُتيته حمى الظهيرة وحين صخدت الشمس وأزمنت بالركود، وأظهر فلان وخرج مظهراً أي داخلاً في الظهيرة وظهر فلان: نزل في الظهيرة وبه سُمِّي الرجل مظهراً.

وأُتيته صكة عمى وأعمى: أي نصف النهار إذا كادت الشمس تعمي البصر وقد يصرف فيقال: عمى. ورواه أبو عمرو عمي على فعيل، وهذا على أنه تصغير أعمى مُرَحَّم مثل زهير وسويد، من أزهَرَ وأسود. ومعنى صكه أي كأن الشمس تصك وجه ملاقيها، ولو قيل: صكة أعيم لكان على الأصل. الأصمعي القائلة النزول والخط عن الدواب والاستظلال، ويقال: أُنانا عند القائلة وعند مقلنا، وعند قيلولتنا، وَرَجُلٌ قَائِلٌ وَقَوْمٌ قَيْلٌ. قال العجاج:

إِنْ قَالَ قَيْلٌ لَمْ أَكُنْ فِي الْقَيْلِ

والغائرة: الهاجرة عند نصف النهار وغور القوم: نزلوا في الغائرة، ويقال: أُتيته عند الغائرة: يريد عند آخر القائلة. وحكى الأصمعي: غُوروا بنا فقد رُمِضْتُمونا، ويقال: ارتحلوا فقد غُورتم أي أقمتهم ونمتهم، والأصل الحط عن الدواب والنزول. ونزلنا دلوك الشمس، وذلك حين نزول عن كبد السماء وذلك أيضاً غابت، وقال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] فهذا حجة في الزوال، وأنشد الدردي حجة في الغيوبة:

هَذَا مَقَامُ قَدَمِي رِيَّاحٍ غَدَوَةٌ حَتَّى دَلَكْتَ بِرَاحٍ

أي غابت الشمس فصارت في المغرب فستر عنه براحته، قال أبو بكر: هذا قول الأصمعي، واحتج بقوله: ادفعها بالرياح كي ترحلها. يقال: نزلنا سرة النهار أي: ارتفاعه، ونزلنا عند مدحض الشمس وقد دحضت الشمس تدحض دحوضاً ودحوضاً وذلك إذا كان بين الظهر الأولى والعشي ما سفل من صلوة الأولى وبعد العصر الأصيل.

وأُتيْتُك عشيّة أمس آتية العشي ليومك الذي أنت فيه وسآتية عشي غدٍ بغير هاء، وكنت

آتيه بالعشي والغداة وغدواً وعشيّاً أي كلّ غداةٍ وعشيّةٍ وآتيه عشاءً طفلاً وذلك عند مغيب الشمس، حين تصفر وينقص ضوءها^(١).

قال لبيد: وعلى الأرض غيابات الطفل، وقد طفلت الشمس إذا دنت للمغيب.

ويقال: آتيته مرهقاً العشاء أي حين أتنا، وقد أرهق الليل وأرهقنا القوم لحقونا، وأرهقنا الصلوة: أي استأخرنا عنها. وقال أبو زيد: أرهقنا الصلوة أي: أخرناها حتى يدنو وقت الأخرى.

وزرته قصراً ومقصراً: أي عشيّاً، وقد أقصرنا: أي أمسينا. قال:

فأدركهم شرقُ الممرورات مُقَصِّراً بقيةَ نسلٍ من بناتِ القراقِرِ
وقد أصلنا وأتيناً أهلها موصلين.

وقال الأصمعي: آتيته أصلاً وأصيلاً وأصيلَةً والجمع أصائل وأصال.

قال أبو ذؤيب:

لعمري لأنت البيتُ أكرم أهلِه وأقعد في أفيائه بالأصائلِ

وقال الأسدي: من غدوة حتى دنا في الأصل. قال تعالى: ﴿بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥] [سورة الرعد، الآية: ١٥] [سورة النور، الآية: ٣٦]. وقال يعقوب: آتيته أصيلاناً وأصيلاناً وهو تصغير أصل على غير القياس كما صغروا عشيّةً عشيّةً وعشيّةً وعشيّاناً وعشيّاناً كلّ هذا بمعنى العشيّة قال:

عشيّة والليلُ قد كادَ يَسْتَوِي على وَضَحِ الصَّحراءِ والشمسُ مطرفُ

وقد قالوا: آتيته مغيربان الشمس ومغيربانات. وقال بعضهم: كأنهم جمعوا أصيلاً على أصلان كما تقول: بغير وبُعران ثم صغروا أصلان فقالوا: أصيلان ثم أبدلوا من النون لاماً فقالوا: أصيلال، والتّصغير في الأزمان على طريق التقريب على ذلك قولهم: قبيل الزوال والعصر وبعيدهما. وكذلك يجيء فيما يكون من الأماكن ظرفاً نحو: دَوْنِ وفَوْقِ وتَحْتِ. فأما الجمع فمردود على أجزائه كأنه يجعل كلّ جزء من أجزاء العشيّة عشيّة، ولا

(١) قال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله في كنز المدفون والفلك المشحون: إنّ من ساعات النهار الدور - ثم البروغ - ثم الضحى - ثم الغزاة - ثم الهاجرة - ثم الزوال - ثم الدلوك - ثم العصر - ثم الأصيل - ثم الصبوب - ثم الحدور - ثم الغروب - ويقال فيها أيضاً البكور - ثم الشروق - ثم الإشراف ثم الراد - ثم الضحى - ثم المتوع - ثم الهاجرة - ثم العصر ثم الأصيل - ثم الطفل - ثم الغروب. ١٢ القاضي محمد شريف الدين عفا عنه.

يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُهُ عَلَى مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَوْقَاتِ كَمَا قَالُوا: ضَخَمَ الْعِشَاءَيْنِ، وَكَمَا أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَهُ بِمَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَوْقَاتِ فَيَجْمَعُونَهُ كَذَلِكَ يَقْصِدُونَهُ مُجَرِّدًا مِنْ غَيْرِهِ فَيَقُولُونَ: جِئْتَهُ ذَاتَ الْعِشَاءِ، يَرِيدُونَ السَّاعَةَ الَّتِي فِيهَا الْعِشَاءُ لَا غَيْرَ، وَهَذَا حَسَنٌ، وَيُقَالُ مَسَى خَامِسَةً وَمَمَسَى خَامِسَةً، وَمَسَاءً خَامِسَةً، وَمَسِيَانٍ أَمَسَ، وَمَسَى أَمَسَ وَجِئْتَهُ صَبَحَ خَامِسَةً. وَمَصْبَحَ خَامِسَةً، وَأَتَيْكَ مَمَسَى اللَّيْلَةَ أَيْ عِنْدَ الْمَسَاءِ قَالَ:

يَا رَاكِبًا إِنَّ الْأَثِيلَ مَظْنَةٌ مِنْ صَبَحَ خَامِسَةً وَأَنْتَ مَوْقُتٌ

وَحَكَى يَعْقُوبُ: لَقِيْتَهُ بِالضَّمِيرِ وَهُوَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ قَوْلِهِ:

تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتِكَ الْبِلَادَ يَخْفَى وَيَقْطَعُ مِنَّا الرَّحْمُ

وَمِنْ قَوْلِ الْآخَرِ: أَعَيْنَ لَابِنَ مِيَّةٍ أَوْ ضِمَارٌ.

وَيُقَالُ: جِئْتَهُ مَرْمَضَ الْبَحِيرِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَمَضَتِ الْغَنَمُ رَمَضًا: إِذَا رَعَتْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَتَحِينُ رِثَاتِهَا وَأَكْبَادَهَا فَتَقْرَحُ، وَرَمَضَ الرَّجُلُ أَحْرَقَتْهُ الرَّمْضَاءُ، وَهُمْ يَرْمِضُونَ الطَّبَاءَ أَيْ يَأْتُونَهَا فِي كُنْسِهَا فِي الظَّهِيرَةِ فَيَسْوَقُونَهَا حَتَّى تَفْسَحَ قَوَائِمُهَا فَتَصَادَ. وَفِي الْحَدِيثِ: «صَلِّهَا إِذَا رَمَضَتِ الْفَصَالُ» وَهُوَ وَقْتُ تَقَوْمِ مِنْ مَوَاضِعِهَا لِتُؤْذِيَهَا بِالْحَرِّ. وَيُقَالُ: فَعَلْتَهُ عِنْدَ مُتَضَيِّفِ الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «يُؤَخَّرُونَ الصَّلَاةَ إِلَى شَرْقِ الْمَوْتَى» وَفَسَّرَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْحَيْطَانِ وَصَارَتْ بَيْنَ الْقُبُورِ كَأَنَّهَا لَجَّةٌ وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَمِصَّ الْإِنْسَانُ بَرِيْقَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ كَأَنَّهُ يَرِيدُ لَا يَبْقَى مِنَ النَّهَارِ إِلَّا مَقْدَارٌ مَا بَقِيَ مِنْ نَفْسٍ ذَلِكَ. وَيُقَالُ: أَتَيْتَهُ بِشِفَا أَيْ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ. قَالَ الرَّاجِزُ:

أَشْرَقَتْهُ بِلَا شِفَاءٍ أَوْ بِشِفَا وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنْفَا

وَحَكَى ثَعْلَبُ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: الْقَصْرُ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَالْقَصْرُ أَيْضًا إِذَا كَانَ بَعْدَ سَاعَةِ فَهُوَ الظَّهِيرَةُ، إِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ الْأَصِيلُ، إِذَا كَانَ بَعْدَ سَاعَةِ وَهُوَ الطَّفْلُ إِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ الْعَرَجُ^(١) (حَتَّى إِذَا مَا الشَّمْسُ هَمَّتْ بِعَرْجٍ) وَ (التَّضْمِيرُ) الدَّخُولُ فِي الضَّمِيرِ، يُقَالُ: ضَمَرْنَا وَأَضْمَرْنَا وَضَمَرْنَا وَقَصَرْنَا وَأَقْصَرْنَا وَقَصَّرْنَا، وَعَرَجْنَا وَأَعْرَجْنَا وَعَرَجْنَا إِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّضْيِيفُ. إِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ الشَّفَقُ وَهُوَ الْأَحْمَرُ، إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ وَظَهَرَ الْبَيَاضُ فِي تِلْكَ الْحَمْرَةِ فَهُوَ الْمِلْثُ، إِذَا اسْوَدَّتِ الدُّنْيَا قَلِيلًا فَهُوَ الْمَقْسُورَةُ. إِذَا اسْوَدَّ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ فَهِيَ الْفَحْمَةُ، إِذَا جَاءَتِ الْعَتَمَةُ فَهِيَ الْعَتَمُ.

(١) فِي الْقَامُوسِ الْعَرَجُ مُحَرَكَةٌ غَيْبُوبَةُ الشَّمْسِ - الْقَاضِي مُحَمَّدٌ شَرِيفُ الدِّينِ.

وذكر الدريدي الرّيم من آخر النهار واختلاط الظلمة، وهذا يجوز أن يكون من ريم الجوزور، لأنّه آخر ما يبقى منه ويأخذه الجارز. قال:

وكنْتُ كعظم الرّيم لم يدرِ جازراً

وحكى ابن الأعرابي: انصرفوا بريح من العشي، وأرواح من العشي إذا انصرفوا وعليهم بقية من النهار وأنشد لرفيع الوالبي الأسدي:

ولقد رأيتك بالقوادم نظيرةً وَعَلَيَّ مِنْ سَدَفِ الْعَشِيِّ رِيحُ

وبيان هذا الذي قاله أنه يقال: هَبَّتْ لفلان ريح الدّولة، والسّلتان فكان المراد: وانصرفوا للعشي سلطان. فأما الشّاعر فإنّه جعل السّدف كناية عن الشّباب والسّواد بدلالة أنّه قال بعد هذا البيت:

خلق الحوادث لمتي فتركنَ لي رأساً يصلّ كأله جماح

وقال بعض أصحاب المعاني: يقال: إني على بقية من ريح: أي أريحية ونشاط وهذا يقرب ما قلنا.

و (فواق) من الزّمان مقدار ما بين الحلبتين وفي القرآن: ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [سورة ص، الآية: ١٥].

والصّريم: يقع على اللّيل والنّهار لأنّ كلّ واحدٍ يتصرّم عن صاحبه وقوله تعالى: ﴿فَاصْبَحْتَ كَالصَّارِمِ﴾ [سورة القلم، الآية: ٢٠] قيل: كاللّيل المظلم وقيل: كالنّهار أي لا شيء فيها كما يقال سواد الأرض وبياضها، فالسّواد الغامر، والبياض الغامر، وقيل: كالصّريم: أي المصروم المقطوع ما فيه ويقال: ما رأيته في أديم نهار ولا سواد ليل.

ويقال: ابتلجا ببلجة وبلجة وذلك قبل الفجر، وقد تبلج الصّبح. وفي المثل: تبلج الصّبح لذي عينين. وابتلج أيضاً. أبو زيد يقال: انتصف النّهار ولم يعرفوا الأنصاف، وقد أباه الأصمعي، وقال: لا يقال الأنصف، وأنشد للمسيّب بن علبس شعراً:

يمدُّ إليها جيده رمية الصّحى كهزّك بالكفّ البري المسدوما

يعني بالبري القدح إذا سوى ولم يرش وتدويمه ثباته في الأرض.

وحكى الفراء عن المفضل قال: آخر يوم من الشّهر يسمّى ابن جُمَيْر بِضَمِّ الجيم، وقال ابن الأعرابي: هو ابن جُمَيْر بالفتح، قال الفراء وأنشدنا المفضل:

وإنّ أغاروا فلم يحلوا بطائيلةً في ظلمة من جُمَيْر ساوروا العظما

يعني الذئب والعظما جمع عظيم وأنشد الأصمعي:

نهارهم ليلٌ بهيمٌ وليلهم وإن كان بدرأ فحمةً بن جَمير

ويقال: هو الليلة التي لا يطلع فيها القمر، وروى بعضهم بيت الأعشى:

وما بالذي أبصرته العيون من قطع بأسٍ ولا من فننٍ

وقال: معناه ولا من قرب يقال: سعى فتنأ وفناً أي ساعة.

ومما حكى لا يبيتن أحدكم جيفة ليلٍ قطرب نهار. القطرب: دوية تقطع نهارها بالمجيء والذهاب.

ومن أمثالهم: دلهمس الليل برودا المتجع، يقال لمن يغيب عن فراشه في غارة أو ريبة وما يجري مجراها، برودا المضجع: أي لو كان أويًا الفراش لكان سخناً، وكذلك قوله: دلهمس أي ليلة أبدأ مظلم لأنه لص.

ويقال: أقصر الرجل كما يقال: أمسى وأقصر إذا أحر أمره إلى العشي، أو جاء في ذلك الوقت. قال: حتى إذا أبصرته للمقتصر، وقصر الشيء غايته هو الأصل. قال: كل من بان قصره أن يسيرا.

ويقال: بات فلان بليلة القَدِّ بالذال والذال جميعاً، وهو القنفذ، ويقال: إنه لا ينام لذلك قال شعراً:

قومٌ إذا دمسَ الظلامُ عليهم حَدَجُوا قنَافِذَ بالنميمةِ تمزَعُ

ويقال: ما بقي من النهار إلا نوة حتى كان كذا أي ساعة. ومنه ذهب تَوَّ أي: منفرداً. ومما يجري مجرى المثل قوله: أسائر اليوم وقد زال الظهر. أي: أباقي اليوم من سير يسير وسار يسير أي بقي فكأنه قال: انتظر حاجتك غابر يومك وقد مضى أكثره ولم يقض لك. ويقال: لقيته غارضاً باكراً من الغريض الطري.

ويقال: لقيته غدوةً غدوةً وبكرةً بكرةً، وإنه ليخرج غديّةً وبكرةً غير مصروف وأتيته في سفر الصبح، وفلقه وفرقه، ولقيته عند التنوير والإنارة، وأتيته حين الصبح وحين صدد.

ويقال: أتيته أمسية كل يوم، وأصبوحة كل يوم، وصيحة كل يوم وصباحة كل يوم، وأتيته في فناء النهار وذكائه، وروق النهار، وفي ريقه وأنشد ابن الأعرابي:

والله لا ويض دمج أهون من ليلٍ قلاصٍ تمعج
مخارمُ الليلَ لهنَّ بهرج حتى ينام الورعُ المنزلج

وقد يقال: محارم الليل بالحاء غير معجمة، وهي مخاوف الليل يحرم على الجبان أن يسلكها. (والدمج): والمدجة الخلق. وتمعج: تغدو، يهرج أي يقطمه ويطله والمزنج النسل: الذي ليس بتام الحزم.

وقال ويقال: أتيته بالغدايا والعشايا، وجاز الغدايا لاقتراحه بالعشايا، وجمع غداة: أغدية وأغديات، وعشاء وأعشية وأعشيات. ويقال: غدية وغديات، وعشية وعشيات، وضحية وضحيات. قال:

ألا ليت شعري من زيارة أمسيه غديات صيفٍ أو عشياتٍ أشتيه
كذا رواه ابن الأعرابي، وغيره يرويه غديات، ويقال: أتانا عشوة وعشاوة وذلك عند غروب الشمس.

تم الجزء الأول

ويتلوه الجزء الثاني، وأوله: «الباب الحادي والعشرون»
في أسماء السماء والكواكب والفلك والبروج

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني

الباب الحادي والعشرون

في أسماء السَّماء والكواكب، والفَلَك، والبروج وهي ثلاثة فُصول

فصل

قال قطرب: السَّماء مؤنثة وتصغيره سُمَيَّة. وزعم يونسُ أنَّ سماء البيت يُدْكَر ويؤنث، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: السَّماء سقف البيت يذكر وينشد لذي الرِّمة:

وبيت بمهواة خرقتُ سماءه إلى كوكبٍ يروي له الماء شاربه

فإن قيل: لم ألحق بمصغره الهاء وهو على أربعة أحرف، فقيل: سُمَيَّة ومن شرط ما كان على أربعة أحرف من المؤنث أن لا يلحق بمصغره الهاء قلت: كان مصغره يجتمع في آخره ياءات استثقل وخفف بما حذف منه فعاد يُصَغَّر من حيث اللَّفْظ به تصغير الثلاثي. وقال بعضهم: يجوز أن يكون الواحد سماء وهي السَّمَاء أعلى كل شيء، وقال رجل من بني سعد:

زَهْرٌ تَتَابَعَ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّمَا جَلَدَ السَّمَاءِ لَوْلُؤٌ مَنشُورٌ

وعلى هذا يُدْكَر ويؤنث لأنَّ ما ليس بينه وبين واحدِه إلَّا طرح الهاء كالنَّخل والنَّخلة يُدْكَر ويؤنث. قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [سورة المزمل، الآية: ١٨] فذكر، ويُقال في جمعه: إسمية وهذا إنما يجيء على جمعه مذكراً لأنَّ أفعله من جمع المذكر كالغطاء والأغطية والرداء والأردية، والمؤنث يكون على أفعال مثل ذراع وأذرع. قال العجاج: بلغه الزَّيَّاح والسَّمي، وهذا جاء التأنيث كعناق، وعنوق. قال سماء وسمي ليس كعناق وعنوق، لأنَّ عناقاً مؤنث، وسمي الذي هو المطر مذكّر على أنَّ المطر سُمِّي سماءً لنزوله من السَّمَاء، فأما قوله لنهدر كان من أعقاب السمي فإنما خففه وإن كان فعولاً للقافية مثل من سر ضرّ، وقوله:

كَأَنَّمَا قَدْ رَفَعَتْ سَمَاؤُهَا فَصَارَ لَوْنُ تَرْبِهَا هَوَاؤُهَا

معنى رفعت سماؤها: لم يُصْنِها مطر، ومثل لون تربها قول الآخر: كأنَّ لون أرضه سماء، أي لون سمائه للقتام الذي يَغْشَى الجو، قالوا: هذا بطن السماء، وهذا ظهر السماء لظهرها الذي تراه. قال تعالى: ﴿وَرَاكَدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٣] وقالوا: الظَّهر الوجه، وكذلك ظهر التَّجُوم والسماء، وقال تعالى: ﴿بَطَانُهَا مِنْ اسْتَبْرَقٍ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٥٤] البطان: ها هنا الطَّوَاهِر، وجاء على هذا الضدِّ فهو كقولهم: أمرٌ جَلَلٌ للشديد والهِينَ. وقال جندل الطهوي: يا ربَّ رب النَّاس في سمائه، فقصرها وأدخل الهاء.

وقال أبو حنيفة: يُقال سماء البيت، وسماوته وأنشد لامرئ القيس:

فَقَفْنَا إِلَى بَيْتِ بَعْلِيَاءَ مَرْدَجٍ سماوته من الحمى معصبُ

وقال أبو حنيفة: يجمع السَّماوة سماوات، وسماوي: قال: ورُوي بيت ذي الرِّمة مسموعاً من العرب:

وأفصم سيار مع الحيِّ لم يَدْعُ يروغُ حافاتِ السماء له صُدرًا

يعني بالأفصم الحلال الذي تحل به الأعراب مواضع الفتوق في أنيتهم، وجعله أفصم لانكسار فمه من طول اعتماله، ثم يجعل الواو في سماء همزة لما وقعت بعد ألف زائدة فقليل سماء، فأما قول أمية: سماء الإله فوق سبع سمائن فإنه أتى بثلاثة أوجه من الضرورة.

منها أنَّ سماء ونحوها يجمع على سمايا كما يجمع مطية على مطايا، فحمله على الصَّحيح لا على المعتل، وجمعه على سماي كما يُقال: سحابة وسحاب.

والثاني: أنه حرك التاء في حال الخبر وكان يجب أن يقول: سبع سماء كما يقال جَرار.

والثالث: أنه جمع سماءة على سماي، وكان يجب أن يقول: سماءة، وسماء كما يُقال: سمامة وسمام قوله:

فصَبَحَتْ جَايِيْتَهُ صَهَارِجَا كَأَنَّهُ جَلْدُ السَّمَاءِ خَارِجَا

فإنه أراد بجلد السماء الخضرة التي تظهر، فشَبَّه صفاء الماء بصفائه فهو مثل قوله: رزقاً جمامةً والتقدير: كأنَّ لون مائه لون جلد السماء.

ومن أسماء السماء الدُّنيا برقع بكسر القاف، وقد جاء في شعر أمية:

وَكأنَّ بَرَقَعَ وَالْمَلَائِكُ حَوْلَهَا سِدْرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرُدُ

ومن أسمائها: الجرباء، والخلقاء وكأَنَّها سُمِّيت خلقاء لملاستها كالخلقاء من الحجارة قال:

وخوت جربة السَّماء فما لِشُرْب أرويه بمري الجنوب
وخوت: أَخْلَقْتُ، وقال الهذلي:

أرثُهُ مِنَ الجرباءِ فِي كُلِّ مَنْظِرٍ طَبَاباً فَمَشَوَاهِ النَّهَارَ المَرَاكِدِ
ويُقال فِي الجربة ما زرع مِنَ الأرض، وكأَنَّها إِنما سُمِّيت جرباء لما فِيها من آثار
المجرة كأَنَّها الجرب.

ومن أسمائها: الكحل والمشهور فِي الكحل أَنَّها السَّنة المجدبة. قال:

قَوْمٌ إِذَا صرَّحْتَ كَحَلَّ يَبُوتُهُمْ عَزَّ الدَّلِيلُ وَمَأْوَى كُلِّ قَرْصُوبٍ
وقال يونس: يشهد للكحل أَنَّها السَّنة قوله:

بات عرارٌ يَكْحَلُ فِيمَا بَيْنَنَا وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُؤُوبُ الْأَبَابِ

وهذا مثل وقيل: أصله أَنَّ عرار يراد به ما يعزّ من الشَّرِّ، وكحل: سنة شديدة،
والمعنى استويننا فيما أَصاب به بعضنا بعضاً من الشَّدة والمكروه، ويقال: اركب عرعركَ أَي
صعب أَمرك.

وَحُكِّيَ عَنِ الْأَعْرَابِ أَنَّ عَرَاراً وَكَحَلًا بَقَرَتَانِ كَانَتَا فِي مَرَجٍ، فَقَتَلَتْ كَحَلٌّ عَرَاراً فَجَاءَ
صَاحِبُهَا فَقَتَلَ كَحَلًا وَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَ صَاحِبَيْهِمَا وَنَادَا إِلَى الْقِتَالِ، فَقَالَ النَّاسُ: بات عرار
بكحل فما القتال؟ أَي فِي كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَبُوءُ بِدَمِ الْآخَرِ.

وعنان السَّماء: نواحيها والواحد عنو. وقال الدَّريدي: لا أَعْرِفُ أَعْنَاناً، وعنان السَّماء
ما عَنَّ لَكَ أَي عَرَضَ، ويقال: بلغ فلان عنان السَّماء للعالي المحل، ومنه قولهم: جمعتهم
فِي عَنَنِ أَي فِي سَنَنِ. وقول الشَّماخ بعدما جرت فِي عَنانِ الشَّعْرَيْنِ الْأَمَاعِزُ، هو معانيتها
لهما يَصِفُ شَدَّةَ الْحَرِّ. وأما قول الْآخَرِ: عنان الشَّمال لا يكونن أَضْراً، فالمراد معانة
الشَّوْم وهو التَّعَرُّضُ.

ومن أسماء السَّماء: (الرَّقِيع) يُقال: ما تحت الرَّقِيع أَرْقَع مِن فلان وهو علم كزبد
وعَمَرُو. وذكر بعضهم أَنه إِنما سُمِّيَ السَّماء الرَّقِيع لِأَنَّها الشَّيْء الَّذِي رَقَعَتْ بِهِ الْأَرْضُ: أَي
جعلت مشتملةً عَلَى الْأَرْضِ. وجاء فِي الْحَدِيثِ: «مِن فَوْقَ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ».

قال: وَسُمِّيتْ خُلُقَاءَ: لِأَنَّها مِلْسَاء. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَكُونُ جَرْبَاءَ وَتَكُونُ مِلْسَاءَ. قِيلَ:

إنما سُمِّيت بالصفات على حسب أحوالها، فإذا اشتبكت نجومها فهي الجرباء، وإذا غابت النجوم فهي الملساء، وهذا كما سُمِّي البحر المهرقان فعِلان من المهرق، وهو فارسية مهره، وإنما أريد به مَلَاسْتِه واستواؤه إذا انقطع عنه الموج على أَنَّ قولهم الخلقاء لا ينافي الجرباء إنَّ كان المراد بالجرباء: النجوم التي فيها.

وذكر بعضهم أَنَّ قولهم للبحر: مهرقان وهو من هرقت الماء وزِنْتُهُ مفعِلان كأنَّه يهرق الماء إلى السَّاحِل ثم يعود. والصَّحِيح ما قَدَّمْتِه وأنشَدْتَ لابن مقبل:

يمشي به شول الظباء كأنَّها جَنِي مهرقانٍ سال بالليل ساحلُهُ

ويريد بجني مهرقان الودع، وشَبَّهَ الظَّباءَ به.

والمجرَّة قيل: هي باب السماء وافتخر أعرابيان فقال أحدهما: بيتي بين المجرَّة والمعرَّة وقيل: المعرَّة وما وراء المجرَّة من ناحية القطب الشَّمالِي سُمِّيت معرَّة لكثرة النجوم فيه، وأصل المعرَّة موضع العر، وهذا كما يسمُّون السماء الجرباء.

ويقال: أتيتك حين ازْمَهَرَتِ الكواكب في السماء أي أضاءت.

ويقال: أجهرك لك الفجر إذا استبانَ ووضح.

وحكى الخليل الصَّافورة: وقال: هو اسم السماء الثانية في شعر أمية بن أبي الصَّلْت:

وَبَنَى إِلَهَ عَلَيْهِم صَاقُورَةَ صَمَاءً ثَالِثَةً تَمَاعُ وَتَجْمَدُ

وذكر الحافورة في شعر أمية وقيل هو اسم السماء الرَّابِعة وقد ذكره الخارزنجي أيضاً.

وذكر الدَّريدي أَنَّ البرجس والبرجيس نجمٌ من نجوم السماء قال هو بهرام: والجبار: اسم للجوزاء والشَّعْرَى العبور تلو الجوزاء ويسمَّى: كلب الجبار أيضاً وفي المثل: أتلي من الشَّعْرَى (ومن أسماء السماء اللَّاهة) وَسُمِّيت اللَّاهة تعظيماً لها، وهو مشتق من لفظ الإله لآله المعبود المعظَّم.

ويقال: شنع النجم إذا ارتفع وهو من تشنَّعت الفرس إذا ركبتَه وتشنَّعت الغارة إذا تُشِبَّتْهَا.

فصل

الفلك أصله الدَّوران والفلك السَّفِينَةُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ قال تعالى: ﴿وَاضْعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [سورة هود، الآية: ٣٧] ثم قال تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٢٧] فَأَثَّ. وقال في موضع آخر: ﴿فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١١٩] فَذَكَّرَ،

والفلك جماعة الشُّفن، وقد فلكت الجارية إذا تفلّكت ثدياها وذلك عند استدارة أصلها قبل التهود. قال: لم يعد ثدياها أن تفلّكا. ويقال: فلكت الجددي، وهو قضيب يدار على لسانه لئلا يرضع، والفلكة أكمة من حجر مستديرة كأنها فلكة مغزل، والجميع الفلك والفلكات. قال الخليل: وهو على تقدير التّبكة في الحلقة إلا أن التّبكة في ذلك أشدّ تحديداً من رأس الفلكة، وقال النّحويون: الفلك اسم للسّفينه ويجمع على أفلاك، وعلى فلك فيصير الفلك اسماً للجميع، وذلك لأنّ فعلا وفعلا يكثر اعتوارهما الشّيء الواحد نحو: العجم والعجم والعرب والعرب، فمن قال: جمل وأجمال، قال فلك وأفلاك. ومن قال في مثل: خشب وخشب قال: في فلك إذا جمع فلك. وقال الكُميت:

والدّهر ذو فلك والنّاس دَوّار

قال أبو حنيفة: وليس قول من قال هو القطب بشيء لأنّ القطب لا يزول من قطب الرّحى والفلك دَوّار يدور بدورة كل ما فيه فدور الكواكب كلّها حول القطبين وهما نقطتان من الفلك متقابلان أحدهما في الشّمال والآخر في الجنوب، وليس يظهر القطب الجنوبي في شيء، من جزيرة العرب، وقال أبو عمرو الشيباني: هو القطب والقطب بالكسر والضّم وللسماء آفاق وللأرض آفاق.

فأما آفاق السّما فما انتهى إليه البصر منها مع وجه الأرض من جميع نواحيها وهو الحدّ بين ما بطن من الفلك وبين ما ظهر قال الرّاجز: قبل دُنُو الأفق من جوائه. يريد قبل طلوع الجوزاء لأنّ الطلوع والغروب هما على الأفق قال:

فهو على الأفق كَعَيْنِ الأخولِ صفواء قد كادَت ولمّا تفعل

شَبَّهَها بعين الأخول في أحد الشّقين، والصّفواء المائلة للمغيب وقال آخر:

حَتَّى إِذَا الْمَنْظَرُ الْغَرْبِيَّ حَارَ دَمًا مِنْ حَمْرَةِ الشَّمْسِ لَمَّا اغْتَالَه الْأَفَقُ
واغتياله إيتاها تغّيه لها:

وأما آفاق الأرض: فأطرافها من حيث أحاطت بك. قال الرّاجز:

يكفّيك من بعض ازديارِ الآفاق سمراء ممّا درس ابنُ محراق

يعني بالسمراء الحنطة، ودرس وداس بمعنى ويقال للرجل إذا كان من أفق من الآفاق أفقى وأفقي، وكذلك السماء وسطها آفاق عينها فإنّ الفراء قال: تقول العرب: مُطِرْنَا بالعين، ومن العَيْن: إذا كان السحاب ينشأ من ناحية القبلة.

قال ابن كناسة: عين السماء ما بين الدُّبور والجنوب عن يمينك إذا استقبلت القبلة قليلاً، قال أبو نصر: العين من عن قبلة العراق وهذه الأقاويل قريبٌ بعضها من بعض، وفي تثبيت عين السماء قول العجاج:

سارِ سَرَى من قبل العين فجرٌ عَبطَ السَّحابَ والرَّابِعَ الكِبَرُ
وقال أيضاً: فثارت العين بماء بجس. وقال أبو عبيدة في العين مثل ذلك، وقال الأصمعي: العين المطر يقيم خمساً أو ستاً لا يقلع، قال: ويقال: أصابتنا عس غزيرة واحتجَّ بقول المثلّمس:

فاجتأب أرطات فلاذ بدفئها والعينُ بالجَوْنِ المثالي تَرَجِسُ
ويؤكد قول الأصمعي:
وأنا حيٌّ يحب عينَ مطيرة عظام اليوت ينزلون الرّوايا
وقول ذي الرّمة:

وأردفتُ الذّراع أرى بعينِ سجومَ الماء ينسجلُ انسجالاً
وقوله أيضاً:

سقى دارها مستمطرٌ ذو غفارة أجشَ تحرى منشأ العين رائحُ
يريد أنّ هذا السَّحاب تحرى أن يكون منشؤه من حيثُ نشأ للعين غير أنّه ثبت أنّ هناك منشأ هو أحمد المناشئ وبَيَّنّه الكُميت بقوله:

راحت له بين صيفي وأوليةٍ من الرّبيع سحابُ المغرب الهضب
وإذا كان السَّحاب مغرباً فمنشؤه من حيث وصف وليس يمتنع أن يقال: عين وإن كان الأصل في العين عين السماء، كما يقال للمطر: سماء ألا ترى أنهم يقولون: أصابتنا سماءُ غزيرة، وكلا المذهبين صحيح.

فصل

في بيان أمر المعجزة وشرح بعض أحوالها. وفي السماء مجرّتها.

وجاء في الأثر أنّها شرج السماء، كأنّها مجمع السَّماء كشرح القبة وسُمِّيَتْ مجرّة على التشبيه لأنّها كأثر المستجب والمجر وتسميها العرب: أم النجوم لأنّه ليس من السَّماء بقعة أكثر عدد كواكب منها كما قيل: أم الطريق لمعظمها. قال:

ترى الواحد الأنس الأنيس ويهتدي بحيث احدث أم النجوم الشوابك
وقال أبو حنيفة: المجرة دائرة متصلة اتصال الطوق وهي وإن كانت مواضع منها أرق،
ومواضع أكتف، ومواضع أدق، ومواضع أعرض فهي راجعة في خاصتها إلى الاستدارة
وأكشف قناعها وأوسعها هو ما بين شولة العقرب فإلى النسرين، فإلى الردف، والشولة،
والردف كلاهما في نطاقها الأوسط أو قريب.

فإذا كانت الشولة مشرفة على الثور رأيت حيث من فوق الثريا مستقداً في المشرق،
ورأيت المجرة قد أخذت من عند شولة العقرب فمضت حتى سلكت بين النسرين. ثم مضت
حتى غشيت كواكب الكف الخضيب رقت واستدقت إلى أن تبلغ العيوق فتكشف هناك. فإذا
بلغت العيوق سلكت بين الكوكبين الجنوبيين من كواكب الأعلام الثلاثة المعروفة بتوابع
العيوق. ثم مضى قدماً حتى تسلك بين الهقعة والهنعة وحاك بحاشيتها الشرقية كوكبي
الهنعة. ثم مضت حتى تسلك بين الشعرين، ثم تمضي وتغشى الغدرة بجاشيتها الغربية
فتكشف هناك، ثم تمضي عند العذرة حتى تسلك أسفل من كواكب الحمل، ثم تمضي من
هناك حتى تشمل على الشولة، ومنها كنا بدأنا بالوصف، فتجدها دائرة متصلة.

ألا ترى أنا بدأنا بوصفها من عند الشولة ثم لم نزل تستقر بها حتى عدنا إلى الشولة
فهذا الإيضاح عن استدارتها واتصال بعضها ببعض اتصال الطوق، وفي تحويلها من جهة إلى
جهة. يقول ذو الرمة وهو يذكر رفقاءه:

بشعب يشجون الغلاء في روسه إذا حولت أم النجوم الشوابك

إما أن يريد زماناً من الأزمنة لأن المجرة تتغير مواضعها في الأزمنة فتراها في الشتاء
أول الليل في خلاف موضعها من السماء، وفي الصيف أول الليل وكذلك من آخر الليل في
الشتاء والصيف ولذلك قيل: سطي هجر نرطب هجره وذلك أن أول ظهور المجرة عشاء من
المشرق، هو في ابتداء القيظ وأيام طلوع الثريا فيبدو منها عشاء قوس في المشرق أخذه من
شرقي الشمال إلى شرقي الجنوب مضجعه في الأفق، ثم يزداد كل عشاء ارتفاعاً وتوسطاً إلى
أن يسترق القيظ ويطلع السهيل عشاء قد كبدت السماء، فتوسطتها فصار أحد طرفيها في قبلة
العراق، وطرفها الآخر في فقاء المصلّى، ووسطها على قمة الرأس، وذلك زمان يكثر فيه
الرطب. والمجرة بهذه الصفة سواء آخر الليل أيام طلوع الثريا فإما أن يكون ذو الرمة أراد
هذا المعنى، أو يكون أراد وقتاً من الليل، لأن المجرة تراها في آخر الليل في غير موضعها
من أوله وذلك في جميع ليالي الدهر على ذا وليس ما ترى من هذا المفاز منها الذي وضعت
له من الفلك، ولكنها وضعت فيه على انحراف، فأنت ترى ذلك منها لدور الفلك بها.

وقولهم في المجرة أم النجوم كقولهم في السماء جربة النجوم. قال الشاعر:

وخوث جربة النجوم فما تشرب أروية لمري الجنوب

قوله خوث يريد لم يكن معها مطر وأصل الجربة القراح من الأرض. قال الأشعر بن

حمران:

أماذا يعدو فتعلب جربة أو ذيب عادية يُعْجَرَم عجرمة

(العجربة) سرعة في خفة.

ويقال: للسماء الخضراء للونها كما قيل للأرض الغبراء، والهواء ممدود وهو الفتق

الذي بين السماء والأرض في كل وجه وهو السكاك والسكاكة واللوح والسحاح، وأعنان

السماء نواحيها. ويقال: لا أفعل كذا ولو نزلت في اللوح والسكاك. وقال بعض أصحاب

المعاني أصله من الضيق على هذا قولهم بيرسك وقوله: استككت المسامع من كذا أي ضاقت

فلم يفتح للأصغاء إليها والصبر عليها كأنَّ الهواء وهو ما بين السماء والأرض يمتلئ منها

كل شيء فلا مجوَّف إلا ويتخاله حتى يضيق عنه وهذا حسن.

البابُ الثاني والعشرون

في برد الأزمنة ووصف الأيام والليالي به

قال أبو نصر: كبة الشتاء شدته ودفعته كالكمة في القتال، ويقال: شتاء الشتاء، إذا اشتدَّ برده، وهذا شتاء شاتٍ، وكلاب الشتاء نجوم أوّله وهي الذراع والنثرة - والطرف - والجبهة.

قال أبو حاتم: البرد - والقر - ولا يقال: القر إلا في شدة البرد - ويقال: يوم قر، وليلة قرّة وقد قرّ يومنا، وكان روية تقر، ولقد قررت يا يومنا قرّة وقروراً. ومن أمثالهم: حرّة تحت قرّة إذا عطش الإنسان في اليوم البارد فأكثر شرب الماء ويوم قر. قال: تحرّقت الأرض واليوم قر. وقرّ الرجل وهو مقرر وهريء فهو مهروء وأصابته قرّة وأصابته المحموم قرّة فانتفض ويقال لذلك العرواء وقد عري فهو معروء:

وصردَ الرجل وأصردنا إذا صردَ ماؤنا. والصرد الواحد وصرادة غيوم تهيج ببرد شديد ولا يكاد يكون معها مطر.

وقال أبو زيد: النافجة: شدة البرد والريح، قال: والحر جف والشهباء والبليل نحوها - والبليل يكون معه بلل وندى. والقرقف البرد في قبل الليل. وقال الأصمعي: قيل للحمى قرقف لأنّ صاحبها يقرقف عنها أي يرعد.

والهريئة: مهموزة شدة البرد، وقيل للأعرابي: إنّ الجنوب إذا هبت دفنت الأرض، فقال: رُبَّ هريئة إذا هبت تذري الشجر، يقول: إنها وإن كانت كذلك فربما كان تحتها البرد. قال أبو حاتم: إذا رأوها تُذهِده وتطيره. ويقال للأحمق: وما هو إلا هراء على فعالة والهراء والخطل وأنشد:

ومنطق رخيّم الحواشي لا هراء ولا بزر

قال الأصمعي: يقال: قر حمطير بالحاء مثل الزمهير وقال التميمي: بالقاف قمطير

وقال التميميون: من أسمائه (الصّر) والصنبر و (الزمهرير) و (التوافج) و (الكلب) و (البيس والققعق).

فأما (الصنبر) فالقر الشديد في ريح أو غير ريح. ويقال: إنَّ يومنا لصنبر القر. قال طرفة شعراً:

يجفانٍ تعترى مجلسنا وسديفٍ حينَ هاجَ الصنبرُ
كسر الباء للحاجة.

ويقال: يوم ذو صر ويومنا يوم صر ومن أمثالهم: صر وصنبر، والمرقى في القر، والزّقاء الصّياح.

ويقال: يوم زمهرير على النّعت وأيام زمهريرة.

والثّافجة: الرّيح تهبّ في برد وقد نفجت نفجاً ويقال: ازْمَهَرَ يومُنا وهذا قر زمهرير، وقمطرير. وأنشد:

ويوم قتامٍ مزمهَر شفيقُهُ جلوت تربع تزين المثاليّا
والكلب: الزّمانُ الشّدِيدُ القَرّ القليل المراعي ويقال: زمان كلب وعام كلب إذا قلَّ خيرُه وكثر ضيَرُه. قال: وعَضَّ السّلطانُ وشرّه وغلاء السّعر، وقلة المرعى هذا كله كلب. والبيس: شدّة الحال في القر وغيره يقال: زماننا يابس.

والققعق مثل البيس وتقعقع زماننا: وهو أن يكون شديداً مع قَرٍّ ومن دون السّعر فتعذر التّجارات ويجور السّلطان.

والخشيف: شدّة البرد يقال: أصابنا خشيف وقد خشفت ليلتنا، والماء الجامس خشيف.

والصّقيع: أن يُرى وجه الأرض بالغداة كالماء اليابس، وترى الشّجر والبقل كأنما نثر عليه دقيق. وقد صقعت السّماء بصقيع كثير وضربتنا السّماء اللّيلة بصقيع وليلتنا ذات صقيع. والجلید شدّة البرد جمس الماء أو لم يجمس، ويقال: جلدتنا السّماء اللّيلة بجلید شديد، وضربتنا بجلید منكر وهو أشدّ القَرِّ وأيّسُه.

ويقال: جمس الماء وجمد والجموس: أكثر على السنة العرب من الجمود.

والأرين: القَرّ الشديد يحصر منه الإنسان والمال وهو شبيه بالصّقيع وليلة ذات أرين ولا يقال يوم ذو أرين.

قال أبو زيد يقال: أرزت ليلتنا تارزاً أريزاً، وهي أرزة إذا اشتدَّ بردها وأكثر ما يكون ليلاً.

ويقال: ليلة جاسية: إذا كان بردها شديداً، ويوم جاسيء وقد جسا جسواً ويقال: برد البرد على ثيابي أي تركها باردة. وقيل: نحن مبردون في شدة البرد. وأنشد ابن الأعرابي:

ها إنَّ ذا ظالمٍ الديان متكثراً على أسرته يشفي الكوانينا

الديان بن قطن كان شريفاً فشبّه ظالماً به وترك التثوين كما قال: (وحاتم الطائي وهاب المسمى) قوله: يشفي الكوانينا أي: يشفي في البرد الشديد، أراد أنه صاحب نعمة فانتصب الكوانين على الظرف، أي في هذا الوقت الشديد البرد والعرب تشبه الثقليل من الرجال بالكانون. قال الحطيئة يهجو أمّه:

أغريالاً إذا استودِغت سِرّاً وكانونا على المتحدثينا

قال أبو حاتم: لا أعرف هذا ولكن يقال في القيظ: أبرد القوم فهم مبردون والإبراد أن يصيبهم الروح آخر النهار في القيظ وفي غير هذا البرد النوم وفي القرآن: ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ [سورة النبأ، الآية: ٢٤] أي نوماً، ومن كلامهم منعنا البرد من البرد أي القر من النوم. وأنشد:

بردت مرأشفيها علي فصَدَّني عنها وعن قبلاتها البَرْدُ

أي النوم ويقال: أصابتنا سبةٌ من بردٍ، وهو أن يصيبك من القر أشد مما كنت فيه أياماً وإن أصابك بردٌ في آخر الزَّبيع قلت: أصابتنا سبةٌ والدَّهر سبات أي أحوال حال هكذا وحال هكذا، أصابتنا سبةٌ حرٍ، وسبة بردٍ، وسبة روحٍ، وسبة دفٍ، وقالوا: الصَّحو في الشتاء ذهاب القر ويقال: ليلة مصحية إذا ذهب قرّها وإن كانت متغيمة وإن طلعت الشمس نهراً واشتدَّ القر فليس بصحو.

قال أبو حاتم: العامة تظن أن الصَّحو لا يكون إلا ذهاب الغيم وليس كذلك لأنَّ الصَّحو ذهاب البرد وتفرَّق الغيم، ويقال: تقشَّعت السماء إذا ذهب غيمها، ويقال: يوم صحو على النَّعت وليلة صحوه وأيام صحوات الهاء ساكنة، ويوم مصح، وليلة مصحية، وقد أصبحنا من القر. وقال أبو أسلم: يوم فصية وليلة فصية.

أما الطَّلقة فمثل الصَّحوه ويقال: كانت اليوم فصية وطلقة ويوم طلقة وفصية ويوم طلق وليلة طلقة ويقال: أفصينا من ذلك القر أي خَرَجْنَا منه وأصابتنا فصيات، أي أيام دفيات طيبة، ويقال: انفسخ القر وانفسخ الشتاء إذا انكسر وضعف، والحضر شدة البرد في

في برد الأزمنة ووصف الأيام والليالي به

الأطراف والسبرة يكون غدوة وعشية في البرد قبل طلوع الشمس وبعدها قليلاً، وحين تجنح الشمس للغروب والجميع السبرات، وفي الحديث: «إسباغ الوضوء في السبرات».

وقال بشر بن برد: الماء في السبرات أي بارد الماء، وقال قطرب: السبرة برد الغداة خاصة، والعرواء: البرد عند اصفرار الشمس، وقال: يَوْمٌ شَيْمٌ وماء شَيْمٌ.

وحدث الأصمعي أن أعرابياً قال: موسى خدمة. في جزور سمنة. في غداة شبمة، وقد شَبِمَ الماء. قال أبو حاتم: ولو وجدت في شدة القيظ ماءً بارداً لقلت: هو شَيْمٌ. وأنشد جريراً:

تُعَلِّلُ وهي سَاعِبَةٌ بِنِهَا بأنفاسٍ مِنَ الشَّيْمِ القُرَاحِ

ويقال: هَرَأَ القَرُّ أموالنا أي: قتلها وأهلكها هراً. قال ابن مقبل يرثي عثمان رضي الله عنه:

وَمَلَجاً مَهْرَوِينِ يَلْقَى به الحيا إذا حَلَقَتْ كَحَلِّ هو الأُمُّ والأبُ

وقالوا: تصيب التافجة الناس، والقر الشديد، وهم مرقون مبصرون فيقتل أموالهم، يقال: هو مرق في الرقيق المال والحال، وقد أهرأ بنو فلان إذا أصابهم القر في الجزر، وهي الأرض التي ليس بها شجر ولا دفء فماتت مواشيهم.

وقال أبو أسلم: أهرأوا في هذه القرّة، وهراً فيها، سواء إذا ماتت أموالهم. وقال أبو حاتم أهرؤوا إذا أصاب أموالهم لهرو هرواً لا أدري في هذا المعنى هو أم لا.

ويقال: مرّت بنا صناديد من البرد أي بابات منه ضخام، وصناديد الغيث كذلك، ويقال: غيث صنديد. وأنشد لابن مقبل:

عفته صناديدُ السّماكين وانتَحَتْ عليه رياحُ الصّيفِ غبراً محاوله
يعني أمطاراً تقشر وجه الأرض وقد جاءت بنو السماكين.

وحكى ابن الأعرابي يوم صفوان: لا غيم فيه، ولا كدر، شديد البرد صافٍ، ويوم شيان: بارد فيه غيم صراد.

ويقال: شهري الشتاء شيان وملحان، لياض الأرض فيهما والأبيض الأملح، وقيل: هما الكانونان وأنشد الأصمعي شعراً:

تَحُولُ لوناً بعد لَوْنٍ كَأَنَّهُ بشفان يوم مقلع الوَيْلِ يَصْرُدُ

يقال: أضردنا وصرَدنا وشفان الرّيح بردها، وكذلك شفيفها: يريد أن السحاب قد

أقلع وانقشع فهو أشد لبرده.

حكى الأصمعي قال: قلت لأعرابي: ما أعددت للشدة؟ فقال: قرموصاً دفناً وشملةً مكوذة، وصيصية سلوكاً (المكوذة) التي يبلغ الكاذنين - (والصيصية) التي يقلع بها التمر من الجلال (والقرموص) شبه بير يحفره فيأوي من البرد إليه. وأنشد:

جاء الشتاء ولمّا اتّخذ ريضاً يا ويح كَفّني من حفرِ القراميصِ

(والريّض) قيل: هو المرأة لأنّها تربض البعل أي تخدمه. وقيل: الرّيض القَيِّم. ومنه قيل: منك ريضك وإن كان سماراً: أي منك: قَيِّمُك وإن كان قَيِّمُ سوء، وهذا كما قيل: منك عيطك وإن كان أشياء. وقال ابن الأعرابي: الرّيض في هذا المثل: ما يقيم الإنسان من القوت ويربضه أي يكفيه. وقد قيل: منك محضك، ومنك ريضك وإن كان سماراً. (والسمار) الذي قد أكثر ماؤه، وهو نحو الضّياح وهذا يدلّك على معنى الرّيض في المثل وما سواه من التّفسير، فهو محمول على المعنى لا على اللفظ، كما قيل: منك أنفك وإن كان أجدع، فيحمل تفسير الأنف على العشرة والأنف في الحقيقة هو المشم الذي قد عرف.

وربض البطن أمعاؤه والرّبيض جماعة الغنم. قال الذّريدي: الرّيض القطعة العظيمة من الثريد، فإذا قالوا: جاءنا بشريد كربيضة أرنب كسروا الرّاء.

قال الزّهرى: حجرت المطار العام، حجرت: امتنعت والمطار: جمع مطر مثل جمل وجمال. وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: يقال: هو الحس - والبرد - والقر - والقرس - والصّر - والعرقف - والهلبة - والكلبة - والعنبرة - والصّرة. هذا كله حدة الشتاء وكلبه - والزّمهرير - والأريز.

وقال الكلّابي: العثية: الهلباء الباردة - (القرّة) ترميهم بالقطقط وهو القطر الصّغار من المطر - والتّلعج - واليوم الأهلبي: الشديد البرد - وغداة هلباء وقالوا: الشّهر الآخر من الشّتاء يُسمّى الأهلبي، ولا يُسمّى غيره من شهوره أهلبي، وذلك: لشدة صفق رياحه، مع قرّ وعواصف.

وحكى اللّحياني: هلبة الشّتاء وكلبه مثقلان وحكى أيضاً يوم هلبة ويوم كلبة. وحكى قطرب مثل ذلك، ويقال: أرزت ليلتنا أريزاً، وليلة أرزة، وأنت الليلة تأرزهم أشدّ الأرز. وأنشد عن المفضل في شدة البرد بعد أن حكى المثل السائر (أبرد من غب المطر) أي من غب يوم المطر شعراً:

طوينا يجمع والتّجوم كأنّها من القَرّ في جَوّ السّماء كواسفُ

وقال آخر: العابط الكرم للأضياف إن نزلوا في يوم صرّ من الصّراد. هرار الصّراد الجهم: وهو السحاب الذي لا ماء فيه مع الشّمال - والجليد - والضّريب - والسقيط - والجليب - والصقيع - والسقيع - والسّميح - ما ينزل من السّماء ومن الثّلج وأنشد شعراً:

نعاء ابن ليلى للسمّاخ وللنّدى وأيدي شمال باردات الأنامل
نعاء مثل دراك أي أنع وأنشد ثعلب شعراً:

ويومٌ بليل الحمار الصّديد محمّرةٌ شمسُه بارد
سقيتٌ رغيلاً وأطعمتُه فليس بحارٌّ ولا جامد

قال ابن الأعرابي: الفضيّة: ما بين الحر والبرد، وهو من فصيئت الشيء إذا أنبتّه من غيره. وزعم أنّ قولهم أفصى برد عمى اشتقاقه من هذا.

و (ضبارة) الشّتاء صميمه، الرّاء مشدّدة، وقد يخفّف فيقال: ضبارة ذكر ذلك عن غير واحد من العلماء.

ويقال: من الكلبة: كلب البرد إذا اشتدّ كلباً وأنشد الفراء:

أنجمت قرّة الشّتاء وكانت قد أقامت بكلبه وقطار

وقال العكلي: جثتك في صنبر الشّتاء وفي بركته، وقد استعمله بعضهم في الحرّ وحكى غداةً صنبرة. وقال جرّان العود:

وَالْفَيْنَ فَوْقِي شَرَّ ثَوْبٍ عَلِمْتُهُ مِنْ الْبَرْدِ فِي شَهْرِ الشّتاء الصّنابير

وقال طرفة: (وسديف حين هاج الصّنبر)^(١) وقال أبو حنيفة: بلغني عن بعضهم أنّه حكى عن العرب في الصّبارة مثل ذلك يجعلونه في شدّة الحر أيضاً.

والصّرصر: الرّيح الشّديدة الباردة وفي القرآن: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ [سورة القمر، الآية: ١٩] وقيل: مذاكوء الصّر ازدحامها. وأنشدني حمزة بن الحسن قال: أنشدني علي بن سليمان عن المبرد:

فذاك نكسٌ لأبيض حجره مخيرقٌ العرض لثيم مطرّه

(١) أورد صاحب القاموس صنابير الشّتاء شدة برده، وأمّا قول الشاعر نطعم الشّحم والسّديف ونسقي المخض في الصّنبر والصّراد بتشديد التّون والرّاء وكسر الباء فللصّرواة ١٢ القاضي محمد شريف الدين الحنفي عفا عنه.

في ليلِ كانونٍ شديدٍ حضره
عضّ بأطراف الزَّباني قمره
يقول: هو أقلف ليس بمختون إلا ما قلص منه القمر وشبه قلفته بالزَّباني. وقال آخر:
(إنَّك أقلف إلا ما جنى القمر) ويقال: مَنْ وُلِد والقمر في العقب فهو نحسٌّ. وقال
الأصمعي: إذا عضّ أطراف الزَّباني القمر: فهو أشد ما يكون من البرد.

فصل

فيما وُضع على السنة البهائم

(الأصمعي) قال: قيل للضَّانية: كيف أنت في اللَّيلة القَرّة الباردة؟ قال: أوّله رخالاً
وآخره جفالاً - وأحلب كئيباً ثقالاً - ولم تر مثلي مالا - الرِّخال الإناث من أولاد الضَّان الواحد
رخل، والكثبة البقية من اللَّبن، قال ابن الأعرابي: لا أعلم جمعاً على فعال إلا خمسة
أحرف: رِخال وفرار وتوام وظّار ورباب.

قال الأصمعي: إنما قيل ذلك لأنَّ الإناث أعجب إلى أصحاب التَّناج من الذَّكور لأنَّ
الإناث تحبس للغنية، والذَّكور تذيب وتباع، وحُكي أنهم يقولون: إذا نتجت أحلبت أي:
أذكرت أم أنثى، ويقال: للمبعوث في الهم أحلبت.

وقال الأصمعي: العرب تقول المحق الخفي إذكار الإبل، وقال ابن الأعرابي:
ويقولون: الضَّان تمشي عجلاً - وتحتلب عللاً - وتجز جفالاً - وتنتج رخالاً. وحكي أيضاً
الضَّان تكسوك وهي رابضة أي لها سَمَنٌ - ولبن - وصوف - وهي مقيمة، قال: ويقال:
الماعز لبنها رغو - وشعرها عرو - وقيل: النَّعجة مساء أي لا تقدر على احتباس بَوْلها.

قال الأصمعي: تقول العرب: الغنم إذا أقبلت أقبلت - وإذا أدبرت أدبرت - وتقول في
الإبل: إذا أقبلت أدبرت - وإذا أدبرت ذنبت رأساً.

وقيل للمعز: لك الويل: جاء البرد، فقال: أست حجواء - ودَنَب ألوى - والذَّنب
جفاء - أست حجواء وجحواء: أي بارزة لا يسترها شيء. ورؤي قيل: للمعز: جاء البرد،
قالت: أستى جحوى، والذَّنب يعوي، فأين المأوى، والبيت الأجهي الذي لا ستر عليه.
وقيل للمعز: كيف أنت في اللَّيلة الباردة؟ قالت: الإهاب رقاق - والشَّعر دقاق - والذَّنب
جفاء. ولا بُدُّ لي من الكن. وقيل للتَّاقة: كيف أنت في اللَّيلة الباردة؟ قالت: أبرك بالعري -
وأولها الذرى - ويروى: أبرك بالتحى - وأولها الذرى - ويحمى وزيمة عن أخرى - وقيل:
أطابق شحمه فوق أخرى - والوزيمة البضعة. وقيل للكلب: أنت فيها قال: أحوي نفسي:
أجعل أنفي عند أستى، ويقال: إنَّه قال: أحويه أي أجمعه - وأكويه وأجعل طرفه عند فيه -

في برد الأزمنة ووصف الأيام والليالي به

ويقال: إنه حُكي هذا عن الضَّب، لأنّه يلوي جحره حتى يرد آخره إلى ابتدائه، ويجعل أقصاه عند أدناه. اللهمّ اجعلني أحويه وألويه حتى أجعل قعره عند فيه.

ويقال: إنّ الضّانية والمعز خُيِّرَتَا ففيل للضّانية أيما أَحَبُّ إليك الستارة - أم الغزارة - فاختارت الستارة، فسترَتْ وَقَلَّ لبنها وصارت الغزارة للمعز وهتك سترها وكشف فرجها، ومما حُكي عن البهائم وإن لم يكن من هذا الباب، قالت الأرنب: اللهم اجعلني حذمة لذمة أسبقُ الأكف بالأكمة الحذمة واللّذمة التي تلزم الأشياء، وقولها أسبقُ الأكف بالأكمة: فإنها قصيرة اليدين، فإذا صَعَدَتْ فانتَ وإذا هَبَطَتْ أدركت. ومما يحكى أنّ الأرنب قال للشّاة: لا عَفْطُ ولا نَغْطُ، فقال العنز: لا مررتُ إلّا على حاذق قاذق.

البابُ الثالث والعشرون

في حرِّ الأزمنة ووصفِ اللَّيالي والأيام به

قال أبو حاتم: الحر والحرارة - وحر يؤمنا يحر بكسر الحاء حرّاً وحرارة. قال أبو نصر: قد قيل: يحر ولم أسمعه من الأصمعي. وفي القيظ: قاط يؤمنا يقيظ قيظاً وقد قطنا أي صرنا في القيظ.

وقالوا: أصفنا نصيف صيفاً، ويوم صائف ويومٌ قائف، والحرّة العطش وفي الأمثال: حرّة تحت قرّة.

ويقال: صمخة الشمس الخاء معجمة، وصمخة الحر أشد الصمخ ودمغته الشمس يحرّها أي أصابت دماغه فهي دامغة، والدّامغة أيضاً: الجلدة التي فيها الدّماغ، وتدعى أم الدّماغ، والجميع الدّوامع، وأنشد للعجاج شعراً:

لهمهم أرضه وأفتخ أم الصّدى عن الصّدى وأضمخ
وفتخنه الشمس فتخاً مثل دمغته.
ووغيرة الغيظ أشد الغيظ حرّاً.

والوقدة: سكون الرّيح واشتداد الحر، ويقال: يوم ومّدّ وليلة ومدة وأنشد أبو زيد:

قد طال ما حلأتمونا لا نزد فخلّياها والسّجال تبرد
من حرّ أيام ومن ليل ومّد

قالوا: والوغة عند طلوع الشّعرى، وقد وغرنا وغة شديدة، وغرنا أيضاً وغراً، وأوغرنا أصابنا الحرّ الشّديد وأصابتنا وغرات.

وأصابتنا آكة من حرّ والأكة الحر المحتدم الذي لا ريح فيه، ويقال هذا يوم آكة بالإضافة، ويوم ذو آكة، وذو أك، وقد أكت يؤمنا وأنشد:

إذا الشَّريب أخذته آكة فَحَلَّه حَتَّى يِيكَ بَكَّة

وقالوا في الأكة: شيء قليل من سدى.

والعكة: الرِّيح الشَّديدة مع السدى واللَّثق الكثير، وهذا يوم عكة بالإضافة ويوم ذو عكيك، وأنشد أبو زيد:

يَنُومُ عَكِيكَ يَعْصِرُ الْجَلْمُودَ يَتْرُكُ حَمْرَانَ الرُّجَالِ سَوْدَا

وقد عَكَ يومنا يَعْكَ عَكَاً ويوم عَكَ على الإضافة. وليلة عك، ويوم عك على التعت، وليلة عكة كل هذا يقال.

والأجة: مثل الوغرة ومنها الأجيح والتَّاجج من النَّارِ وَأَوَّارُ الحَرِّ صلاؤه، وشدته، وكذلك أوار النَّار، ويوم ذو أوار وإنَّ الحرَّ الشَّدِيد الأوار.

وإذا دنوت من النَّار فوجدت حرَّها في وجهك فذاك أوارها وأوار الهاجرة والسَّموم، وهو ما يصيب وجهك من الحرَّ الشَّدِيد، وأنشد القحيف العامري:

وَلَا اسْتَقْبَلْتُ يَيِّنَ جِبَالِ بَمٍّ وَإِسِيذُ لَهَا جَرَّةٌ أَوَّارُ

فأما قول لييد:

أَسَبَّ الْكَانِسُ لَمْ يُؤْرِ بِهَا شَعْبَةُ السَّاقِ إِذَا الظَّلُّ عَقَلَ

قوله: يؤر من الإرة وهو مستوقد النَّار تحت القدر وغيرها، ويجمع على الأرات والأرين، وروي لم ياور، بها، مثل يعوت ويكون من الأوار إلَّا غيره.

وحَمَّارة القيظ أشدُّ ما يكون منه يقال: أتيت في حمارة القيظ، وفي حمر القيظ وفي حمرة القيظ، وحمر كل شيء أشده. قال أبو حاتم: وسألت الأصمعي، هل يقال: حمرة الشتاء فقال: حمرة القيظ يعرف، وهاب أن يقال: حمرة الشتاء والوديقة: شَرَّ الحر.

يقال: أصابتنا وديقةُ حرٍّ، ويوم ذو وديقة بالإضافة، وكذلك إذا دنت الشَّمس من الأرض فيقال: ودَّقت الشَّمس، وفلان يأتينا في الودائق أي في أنصاف النَّهار في القيظ وأنشد:

أَلَمْ يَكُنْ حَقّاً أَنْ يَتَوَلَّ عَاشِقٌ تَكَلَّفَ إِدْلَاجَ السَّرَى وَالْوَدَائِقِ

وصخدان الشَّمس: محرك الخاء ومسكنه: شدة الحر، ويوم صخدان وليلة صخدانة،

وقد صخذ يومنا بفتح الخاء، ويوم صاخذ، وليلة صاخدة، والصَّخذ مثل الوَسد، ويقال: السَّخذ بالسين.

واللهبة: لهبة القيظ، ويوم ذو لهبان، ويقال: يومٌ وهجان، وليلة وهجانة وأتيتك في وهجان الحر، وإنَّ يومنا لو هج، وقد هج يومنا وهجاً وتوهَّج وهج الحر وتوهَّج الحر وأنشد:

لقد رأيت الظعن الشواخصا على جبالٍ تَهصُ المَراهِصا
في وهجان بلح له الوصاوصا يوماً ترى حرياءه محاوِصا
يطلبُ في الجنفل ظلاً قالِصا

الجنفل: ما يحفل من السحاب والظل أي أسرع ويروى الجنفل وهو ما تنهى من كل شيء، والوصاوص: خرق البرقع الصغير وإنما يفعل ذلك نساء بني قيس، فأما نساء بني تميم فتحل المرأة برقعها، ومنه قول الشاعر شعراً:

لهو لا بمنحول البراقع حقبةً فما بال دهر لَرْنَا بالوصاوص
ويقال: قابت المرأة برقعها قوباً إذا جعلت لها عيناً.

والوقدة أن يصيبك حرٌّ شديد في آخر الحر بعد ما يقال: قد أبردنا، ويستنكر الحر فيصيبك الحر بغير ريح ولا سدى فتلك الوقدة والوقدان وقيل الوقدة نصف شهر وعشرة أيام، وأقلها سبعة أيام، فأما اليوم واليومان فلا يعدونه وقدةً.

ويقال: أصابتنا سبة من حرٍّ والسبة نحو من شهر، ونصف شهر، وعشرة أيام.

ويقال: احتدم علينا الحرّ والاحتدام شدة الحرّ مع همود الزّيح، ولا يقال مع الزّيح احتدم، ويقال: اسم يومنا وأحر إذا كان ذا سموم وحرور.
واللّفحة: إذ تحرق جلده، وقد سفعت لونه السموم.

وألّفحته: وكافحته أي قابلت وجهه ليس بينهما سترة. ومنه قيل: كافحت الزّجل وكلمته كفاحاً وأنشد: ولا كافحوا مثل الذين يكافح.

ويقال: أتيته في معمعان الصّيف وممعان الصّيف، وفي معمعان الحر، ويوم معمعان، وليلة معمعانة وممعاني وممعانية. قال ذو الرمة:

حتى إذا معمعان الصّيف هبَّ له ياجة نش عنها الماء والرّطب

والرّمض: شدة الحر على الأرض، وقد رمض التراب ورمض الإنسان إذا أصاب جلده الرّمض، وقد رمضت الفصال إذا احترقت أخفافها بحر الأرض، وزعموا أنّ رمضان سُمّي بذلك: لأنهم حين سَموا الشهور اشتقوا أسماءها مما يكون فيها، فسَموا جمادى

لجمود الماء فيها، ورمضان لأنَّ الفصال كانت ترمض فيه. وأنشد:

المستغيثُ بعمرٍو عند كَرِيته كالمستغيثِ من الرَّمضاءِ بالنَّارِ

وقيل: الرَّمضاء: التراب الحامي، ويقال: يوم ذو سموم ويوم سموم بالإضافة، ويوم سموم على النَّعت. وقد اختلفوا في السَّموم والحرور، فمنهم من يجعل السَّموم بالنهار والحرور بالليل، ومنهم من يجعلهما على العكس من ذلك.

والدَّفاعة: مهموزة مثل الومدة وقد دَفِئَ يُومنا دفاء، والمعتدلات بالذَّال غير معجمة أيام شديدة الحر. وكان الأصمعي يقول بالذَّال المعجمة، وكان ينشد بيت ابن أحرر:

حَلَّوا الرِّبيعَ فلمَّا أنْ تجلَّلهم يومٌ من القيظِ حامي الودقِ معتدلاً
بالذَّال (والمعتدلات) نحو من خمسة عشر يوماً، وهي أيام الفصل في دبر الصَّيف عند طلوع سهيل.

وقال أبو زيد: (السَّكنة) مثل الوقدة، وكذلك السَّخنة، وقال أبو حاتم: هي فارسية. قال رؤبة: (وأرض جسر تحت حر سخت) قال أبو زيد: يقال: باض علينا الصَّيف، فإن قيل: القيظ والصَّيف واحد، قيل: النِّجم والكوكب واحد ولا يجوز أن يقال: في عين فلان نجم إنَّما يقال: في عين فلان كوكب. وكلام العرب لا يختلف، والحرَّة شدَّة العطش في الشَّتاء والصَّيف، ومثَّلُ العرب: حرَّة تحت قرَّة فهذا في الشَّتاء وأنشد شعراً:

ما كان من سوقه أنقى ظمأً خمراً بماءٍ إذا ما جودها برّدا
من ابن مامة كعبٍ ثم عى به زؤ المنيّة إلا حرّة وقْدَى

زؤ المنيّة: قدرها. (وقدى): نعت للحرّة على فعلى وهو من التَّوقد، ومن أمثالهم: برد غداه حر غد من ظماء وأصله رجل أراد سفراً فأصبح فرأها باردة فقال: لا احتاج إلى الماء، فصَبَّ ما كان معه فلمَّا توقَّدت الحران عطش، فقال: هذا لقيتُ منه ما يصر الجندب، أي حرّاً شديداً، وفي المثل: علقت معالقها وصَرََّ الجندبُ للشَّدة، ومن أمثالهم: قيل للجندب: ما يصرُّك؟ فقال: أضُرُّ من حرِّ غدٍ يضرب لمن يخاف ما لم يقع فيه.

ويقال: يوم ذي شربة أي يشرب فيه الماء الكثير من شدَّة الحر، ويقال: يوم ومد ومصمقر وأنشد للمرار العدوي:

خبطَ الأرواث حتَّى هاجَه من يد الجوزاء يومٌ مُصمَقِر

ويقال: يوم أبت وأمت وحثت وهو مثل الومد وقد أبتَ يومنا وأمت وحثت وأتيته في حمراء الظَّهيرة والظَّهيرة الخوصاء أشد الظَّهائر حرّاً وأصله في التَّجوم، يقال: تخاوَصتِ

التَّجُومُ إِذَا صَغَتْ لِلْغُرُوبِ، وَيُقَالُ: ظَهِيرَةُ شَهَاءٍ لِبَيَاضِ غَمْسِهَا وَشَرَابِهَا. قَالَ عَدِي بْنُ الرَّقَاعِ شِعْرًا:

وَدَنَا التَّجْمُ يَسْتَقِلُّ وَحَارَتْ كُلَّ يَوْمٍ ظَهِيرَةُ شَهَاءٍ
وَرَدَدُنْ بِالسَّمَاءِ حَتَّى كَذِبَتْهُنَّ غَدَرُهَا وَالنَّهَاءُ

وَقَالَ أَيْضًا: ظَهِيرَةُ غَرَاءٍ، وَيُقَالُ: هَذَا يَوْمٌ يَرْمَحُ فِيهِ الْجَنْدُبُ: أَيُّ يَضْرِبُ الْحَصَى بِرِجْلِهِ، لَارْتِمَاضِهِ. قَالَ: وَيَشْبَهُونَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ اللَّبَثِ بِسَحَابَةِ الصَّيْفِ. قَالَ ابْنُ شَبْرَمَةَ الضَّبِّي:

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَحِبُّ كَأَنَّهَا سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

قَالَ الدَّرِيدِي: أَفَرَةُ الصَّيْفِ: شِدَّةُ حَرٍّ، وَأَنْشَدَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ:

لَدُنْ غَدَوَةٍ حَتَّى أَلَاذَ بِخَفِّهَا بَقِيَّةُ مَنْقُوصٍ مِنَ اللَّيْلِ صَائِفٍ
يَصِفُ نَاقَةَ رَكِبَتْ فِي الْهَاجِرَةِ، وَالظَّلُّ تَحْتَ أَخْفَافِهَا إِلَى أَنْ صَارَ الظَّلُّ كَمَا وَصَفَ
وَيُقَالُ: لَاذٌ وَالْأَذُ بِمَعْنَى.

وَذَكَرَ صَاحِبُ الْعَيْنِ يَوْمَ خَدَرَ شَدِيدِ الْحَرِّ، وَأَنْشَدَ لَطْرَفَةَ:

وَمَكَانٍ رَعْلٍ ظَلَمَانِهِ كَالْمَخَاصِ الْجَرَبِ فِي الْيَوْمِ الْخَدِيرِ

وَيُقَالُ: خَدَرَ النَّهَارُ إِذَا لَمْ يَتَحَرَّكَ فِيهِ رِيحٌ، وَلَا يَوْجِدُ فِيهِ رُوحٌ. وَقَوْلُهُ: وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْهُبًا. قَالَ: كَانَ الْيَوْمُ ذَا كَوَاكِبٍ مِنَ السَّلَاحِ وَأَشْهُبٍ أَيُّ يَوْمٍ شَمْسٌ لَا ظِلَّ فِيهِ. قَالَ آخَرُ: وَيَوْمٌ كَظَلِّ الرَّمَحِ وَالشَّمْسِ شَامِسٍ، أَيُّ طَوِيلٌ لَا ظِلَّ فِيهِ لَشِدَّتِهِ، وَظِلُّ الرَّمَحِ يَطُولُ جَدًّا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ. وَأَنْشَدَ:

وَيَوْمَ ضَرَبْنَا الْكَبِشَ حَتَّى تَسَاقَطَتْ كَوَاكِبُهُ مِنْ كُلِّ عَضْبٍ مُهَيَّئِدٍ

قَوْلُهُ: تَسَاقَطَتْ كَوَاكِبُهُ: يَعْنِي بِهِ مَعْظَمُ الْحَرِّ. وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

قَدْ شَرَبْنَا بِالثَّرِيَا حَقْبَةً وَرَقِينَا فِي مَرَاقِي السَّحَقِ

قَالَ: يَطْلُعُ الثَّرِيَا فِي أَوَّلِ حَذِّ الْقَيْظِ وَفِي آخِرِ مَطَرِ الصَّيْفِ، فَرِيْمَا رُوِيَتْ فِي الْفَدَيْنِ مِنَ الْمَاءِ، فَشَرَبْنَا بِالثَّرِيَا وَاسْتَقْصَيْنَا الْجُزْءَ إِلَى آخِرِهِ، وَطُلُوعُ الثَّرِيَا أَوَّلُ الْجُزْءِ، وَطُلُوعُ الْجُزْءِ آخِرُ انْقِطَاعِ الْبَقْلِ، وَقَالَ: فِي مَرَاقِي السَّحَقِ يُرِيدُ بِهِ: الضَّيَاعُ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَتَقُولُ الْعَرَبُ: اسْتَقْبَالُ الشَّمْسِ دَاءً وَاسْتِدْبَارُهَا دَوَاءً وَأَنْشَدَ:

إِذَا اسْتَدْبَرْتَنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مَتُونُنَا كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَخْنَ عِنْدَمَا

البابُ الرَّابِعُ والعشرون

في شِدَّةِ الأَيَّامِ ورخائِها وخصبِها وجذبِها وما يتَّصلُ بها

الأصمعي: جداع: اسم للسَّنةِ المجدبةِ على مثالِ خدام. وقال أبو حنبل الطائي:

لقد آليتُ أغدر في جداع وإن منيت أمات الرِّثَّاع
لأنَّ الغدر في الأقوام عارٌ وإنَّ الحرَّ يجزُعُ بالكراع
وأنشد غيره في صفة الجذب:

إلى الله أشكو هجمةً عربيَّةً أضرَّ بها مرُّ السَّنين النِّوائِر
فأضحَّت رذايا تحمل الطَّين بعدما تكون غياثُ المقتربين المفاقر
يصف نخلًا أيسها الجذب، فسقف بها البيوت بعد أن كان غياثًا للفقراء والمحاويج.
ومفاقر جمع فقير على غير قياس، مثل مطائب الجزور. وأنشد:

يا ونحها من ليلها ما ضَمَّا ضَمَّ إليها هقماً هقماً
أجهدُ من كلب إذا ما طَمَّا

يصف امرأة نزل بها ضيفٌ في ليلةٍ مجدبةٍ. والهقم: الجائع وانهم جاع وخمَصَ
والهقم: الكثير الأكل الواسع الجوف. ويقال: بحر هقم أي بعيد القعر، وهو يتهمم الطعام
أي يتلقمه لقماً عظاماً وأجهدُ من كلب: أي أجوع، ورجل جاهد: أي جائع شهوان وطم
الكلب الشيء أي اختلسه ومرَّ به. وأنشد ابن الأعرابي:

في روضةٍ بَذَلَ الرِّبيع لها وسُمِّي غيثٌ صادق النِّجم

وقال في صادق النجم: أراد أن نوّه لم يخلف بل وفي بوعده، وقيل: أراد به ما نجم
من النَّبات يعني موضعاً معشباً حسن الثَّبت. وقال أبو عمرو: الهتأة على وزن الهتعة ستة
أهلكَتْ كلُّ شيءٍ ويقال: هتأت الثَّوب إذا خرَّفته.

ويقال: أرمتهم السّنة والأرم القطع، ويقال: اقتحمتهم السّنة أي حطّهم الجذب إلى الأمصار، وقال آخر:

يا دهرُ ويحكْ فأولى ممّا ترى قد صرّت كالقّب الملح المعقر

ويقال: دفت دافّة وهفت هافّة، وهفت هافية، وقذت قاذية إذا أتاها قومٌ قد أقحمتهم السّنة من البدو، قوله في البيت: فأولى ممّا ترى: أي ارحمني، يقال: أويت له ماوية وأية أي: رفقت، قوله: ممّا ترى أي ممّا يوجهه ويذهب إليه. وأنشد:

ظلم البطاح له انهلالٌ حريصة وصفا النّطاف له بعيد المناح

هذا رواية المفضل وغيره، وفي رواية ابن الأعرابي: ظلم البطاح له هلال حريصة. قال: وهو مقلوب، أراد حريصة هلال أي سحابة نشأت في أول ليلة من الشّهر. والحريصة: سحابة تحرص وجه الأرض: أي تقشر، ومعنى انهلال حريصة انصبابها، وظلمة البطاح أن تحرف إليها الطّين من غيرها وأنشد:

وله مكارمُ أرضها معلومة ذات الطّوى وله نجومٌ سمائها

ذات الطّوى: سنة جذبة والطّوى الجوع، ورجل طيان وانتصب ذات الطّوى على الظّرف. وقوله: وله نجوم سمائها. إذا أخلفت النّجوم فلم تمطر جار هذا الرّجل فكأنّه الأنواء، وكأنّ الأنواء له، وأنشد الطّوسي:

سقى المتدلّيات من الثّريا نوءُ الجوزاء أخت بني عديّ

المتدلّيات سحابات دنت من الأرض، ومطرها أكثر، وصوّبها أغزر.

قال الآخر: يكاد يدفعه من قام بالراح، والجوزاء قيل: امرأة، ونوؤها موضعها الذي سارت إليه يريد سقى هذا المطر الآتي بنوء الثّريا نوء الجوزاء أخت بني عدي ونوؤها: وجهتها التي تنوء بها، وانجر أخت على البدل من الجوزاء والصفة.

ويقال: اغتفت السّنة بني فلان، والغفة البلغة من العيش وأنشد الأصمعيّ إذ بعضهم يغتف جاره.

والجلبة: السّنة المجدبة وهي الجوع أيضاً قال الهذلي:

من جلبة الجوع جيّار وأرزيز، أبو عبيد خطر به الضّيق في المعاش والرفاغة والرّفاغة والرّفاهية والرّفهنية مثل البلهنية.

ويقال: هو في عيش أغضف - وأغزل - وأرغل - وأوظف - وأهدب - وأزب -

وهلوف - يعني واسعاً وزمانه زمان سلوة وخفض .

ويقال: هو في رخاخ من العيش، وعيش دغفل - ودغفق - ومدغفق - ورفيغ أي واسع. قال الدريدي: المدغفق اشتقاقه من دغفق الماء إذا صبَّه صبّاً واسعاً.

قال العجاج: وإذا زمان الناس دغفل، فأضافه. قال أبو عبيدة: هو في عيش أوطف - وأغصف - وغاضف - ورافع وعفاهم إذا كان واسعاً.

يقال: نحس في ربيلة من العيش أي في عيش متربل ند. وفي المثل، ليس المتعلق كالمتأنق، يقول ليس من عيشه ضيق يتعلق به، كمن عيشه لئن واسع يختار منه ما شاء. والعلاقة ما يبلغ به.

وفي الحديث: إنَّ عبد الله بن مسعود كان يقول: إذا قرأت (آل حامي) صرْتُ في روضاتٍ أتأَنَّقُ فيهنَّ أي يعجبني.

ويقال: عيش طان ذو رزغة أي كثير الندى، وقولهم: طان كقولك: رجل مال.

ويقال: إنَّهم لفي غصراء من العيش، وغصارة وقد غصروهم الله، وإنَّه لذو طرة وكلَّ ذلك من السعة.

أبو عمرو: نشأ فلان في عيش رقيق الحواشي وفي زمان مخضم لا مقضم.

ويقال: نبت في زماننا نابتة، أي نشأت فيه نشوء صغار. وما أحسن نابتة بني فلان لأولادهم، وأولاد أولادهم، إذ تناسقوا في الحسن والرضا. ومما يشبه هذا قولهم: بُتُّ بليلة التابغة يراد قوله:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِّنَ الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ^(١)
وقوله في موضع آخر:

فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَ لِي هِرَاساً بِهِ يُغْلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ^(٢)
وهذا كما ضرب المثل بصحيفة المتلمس لقوله: وكذلك افتوا كلَّ قط مضلل.

ويقال لليلة التي لا نوم فيها: مات بليلة انقذ^(٣) يراد به القنفذ، لأنه لا ينام ليلة بدلالة قول الآخر:

(١) نافع: قاتل.

(٢) يقشِب: يُجَدِّد.

(٣) في القاموس وانقذ كاحمد وقد تدخل عليه ال القنفذ - الحسن النعماني.

قومٌ إذا دمس الظلام عليهم جدحوا قناقذ بالنميمة تمرُّ
ويقال: زمان غزير، وعيش غزير أي لا يفزع أهله.

ويقال: عيش رغد مغد. ويقال: عام غيداق، أي كثير الخير، وسيل غيداق وماء غدق.

الفِراء: عام أرب: أي مُخَصَّب. أبو عبيدة: عيش خرم: أي ناعم وهي عربية ومعيشة رفلة.

ويقال: أنت في عام رخي اللبن، عريض البطن، أي واسع الخصب وهذا كما يقال: أصاب فلان قرن الكلا، أي أنفه الذي لم يؤكل منه شيء، ووقع في الأهيقين أي الطعام والشراب، وزمانه زمان الأهيقين.

والمعصب الذي عَصَبَتِ السُّنُون ماله.

ويقال: في عيشة شظف: أي ييس وشدة، وقد شظفت يده إذا خشت.

الأصمعيُّ يقال: موتٌ لا يجبر إلى عار خيرٍ من عيشٍ في رماقٍ، أي قدر ما يمسك الرَّمق.

ويقال: أصابتهم من العيش والزمان ضعف - وحفف - وقشف - وويد - كلٌ هذا من شدة العيش.

وقال يعقوب: بنو فلان في ويد أي في ضيق، وكثرة عيال، وقلة مال، وهو في رتب من العيش: أي غلظ.

الأصمعي: عيش مزلج أي مدنق.

ويقال: أصابتهم الضُّبع أي السَّنة، وقد كحلتهم السُّنُون: أي اشتدت عليهم وأنشد:

لسنا كأقوامٍ إذا كَحَلَتْ إِحْدَى السَّنِينَ فجارُهم تمرُّ
أي يأكلون جارهم. وقال سلامة بن جندل:

قومٌ إذا صَرَحَتْ كُحْلٌ بيوَنهم عَزَّ الدَّلِيلُ وماوئى كُلُّ قَرْضوبٍ
وأصابتهم أزمة وأزبة ولزمة. وحكى الأصمعي: أزمت أزام وأنشد:

أهان لها الطعام فلم تصفه غداة الرِّوع إذا زَمَّت أزام

ودعاء النبي ﷺ: «أشدُّ وطأتك على مضر واجعل سنين كسني يوسف» فاستجاب الله دعوته حتى أكلوا العلهز.

والسنة: الشَّهَاءُ البيضاء من الجذب. وقال ابن الأعرابي: التي ليس فيها مطر، وقال هي الشَّهَاءُ ثم البيضاء ثم الحمراء، فالشَّهَاءُ أمثل من البيضاء والحمراء شراً من الجميع. وسنة غبراء: وقماء وكهباء والكهبة كدرة في اللون.

وعام مجوعةٌ ومجاعة، وسنة جداء، وحجرة ورملاء.

وعام الرَّمَادَة: سنة وسنة وعام سنيت ومسنت وسنة جالفة بالمال.

والرَّمَادَة: سنة المحل، وقد أزمداوا.

وسنة محاردة: من حراد النَّاقَة إذا قَلَّ لبنُها.

ويقال: عام أرمَد في قلة الخير، وأبقع أي بقع فيه المطر في مواضع ولا يعم. وأخرج وأسهب، وكلّ هذا في قلة الخير.

قال أبو يوسف: سمعتهم يقولون: حراميس واجدُها حرمس. ويقال: هذه السنة ذات فحم عظام، ويقال: أزمتهم السنة أي دَقَّتْهم، والأزم العض.

وسنة حصاء: لا نبت فيها، وامرأة حصاء لا شعرَ عليها.

الفراء: عام أرشم: قليل الثَّبات. والبوازم الشَّدائد الواحدة بازمة، وأنشد:

ونحن الأكرمون إذا غُشِينَا عياداً في البوازم واغترَازَا
وقال:

وما أخذ الدَّيوان حتَّى تصعلكا زماناً وَحَتَّ الأشهبان غناهما
في ستين لا خير فيهما. وقال آخر:

رأت مرَّ السنين أخذن مني كما أخذ السُّرار من الهلال

ويقال: ثلثة ثلم المحاق جانب الهلال، ويقال: مطر مريع، وأنشد متمم بن نويرة:

تقى الله أرضاً حَلَّها قبرُ مالِك ذهاب الغواصي المدجنات فأمرعا
وقال آخر:

ويُقيمُ في دار الحفاظِ بيوتُنَا زمناً ونظعن غيرنا للأمرع

وحكى ابن الأعرابي: ألا صَبَّحت صباحاً حازراً؟ والأصل في الحازر: اللَّبن الحامض.

يقال: أمدُ الخصب قريبٌ على التَّعال. قال: و سأل الحجاج بن يوسف الحسن عن أشياء، فأجابه ثم قال له: كم أمدك؟ قال: ستان من خلافة عمر، يعني عمر بن الخطاب، فقال: والله عينك أكبر من أمدك. الأمد العمر أي ما بدا منك أكثر مما غاب. وأنشد:

لنا في الشتاء جنةٌ يثريَّةٌ مسطَّعة الأعناق بُلق القوادم

قوله: مسطَّعة من السَّطاع سمة على عنق البعير، يقول: إذا كثرت الرياح ظهر السواد وإذا كثرت الأمطار ظهر البياض، يعني اللُّبن والتمر. وأنشد:

أَغِثْ مُضْراً إِنَّ السَّيْنَ تَابَعَتْ علينا بدهرٍ يكسرُ العظم جابرُهُ
يقول: نحرننا إبلنا بعد أن كنَّا نثمرها ونرعاهها، وأنشد يعقوب:

إِنَّ لها في العام ذي الفتوق وزلل النِّية والتَّصفيق
رعيَّة رب ناصح شفيق

الزَّلل التَّباعد والتَّخعة^(١) ويقال: أفتقنا إذا لم يمطر بلادنا ومطر غيرها.

ابن الأعرابي: يقال للزَّمان السَّليم من الآفات ركوض في غير عروض وأصله ناقة لا عرضة في مَرها، قال: ويقال هذا في الطَّاعة الحسنة التي لا يُثَبُّها ما يفسدها.
ويقال: وقره الدَّهر وقره: استكان منها وأنشد:

حياءٌ لنفسي أن أرى متخشَّعاً لو قره دهرٍ يستكين وقيُرُها
وقال آخر:

وخيَّفْتُ بقايا العَفْي إلا قَصِيَّةً قصيد السَّلامي أو لموساً سنامها
يصف زمن جذب والقصِيَّة من الإبل: التي تقصى عمَّا يفعل بالإبل والقعية أيضاً:
الخيار الكريمة والقصد السَّمينية، ويقال: كذا وكذا حين لعق اللُّبن بالصَّوف، وهذا كناية عن الجذب، لأنَّه إنما يلعق اللُّبن بالصَّوف فلا يمكن شربه. قال:

فلا تحسَبَنَّ الغَزَو لعقاً بصوفٍ وشريُّك ألبان الجِداد الغوابِر
والجِداد: جمع جدود وهي من الغنم والحمير التي بها بقية من اللُّبن غير كثير، ومثل الجِداد الجدايد، قال أبو ذؤيب:

والدَّهر لا يبقى على حَدَثانهِ جون السراة له جدايد أَرْبَعُ

(١) في القاموس في (نخع) والرجل عن أرضه بعد ١٢ المصحح.

في شدة الأيام ورخانها وخصبها وجديها وما يتصل بها

ويقال: كان في الأرض تقاطير غيث إذا كانت بها أمطار قليلة في كل ناحية قال أبو علي: قال الضبي والغنوي: يقال: أقاطير وتقاطير من الربيع، وقال طفيل:

أرى إبلي تأتي الحياضَ وآلفت تقاطير وسمي وإخناء مكرع

ويقال للرجل إذا ظهر بوجهه بثور، ظهر به تقاطير الشباب، وحكي أنه سئل أبو العباس ثعلب عن قول بشار:

إذا ما غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

فيقال: معناه حاربنا حتى لم يكن حرب، فلم يكن للشمس حجاب، وحجابها الغبار قال السائل: فرددته على أبي العباس المبرد فقال: ما يدري الخرنوبي ما هذا إنما يُقال: اشتدت الحرب أولاً، ثم سَعِينَا بينهم فأصلحنا ما فسد فسقط الغبار فكأنهم هَتَكُوا حِجَابَ الشَّمْسِ، قال فعدتُ إلى ثعلب فأوردتُ عليه، فقال: ما للخلدي ولهذا، خُذْ ما أقول، قال أبو عبد الله الطوال والأموي هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ معناه خَلَيْنَا عن أنفسنا وتركناها لها ذكراً واضحاً كوضوح الشمس بفعلنا، وقوله: أَوْ قَطَرَتْ دَمًا، كما يقال: كان ذلك فيما مطرت السماء دماً أي لم يكن يلتفت إليه، قال: وما سمعته في الأبيات إلا من ابن الأعرابي ما سمعت كان ذلك، فمطرت السماء دماً إنما يقال في النعي، فرجعت إلى المبرد، فقال: هؤلاء أعلم منه وحقق وحقل حين عدت إليه وتركني، ودخل داره، ويقال: بات بليلة سوء من الليالي الشوامت.

قال النابغة:

فارتاع مِنْ صوتِ كلابٍ فباتَ له طوعِ الشَّوامتِ مِنْ خوفٍ وَمِنْ صَرَدَ
أي ما أطاع الأعداء وسرّها وفسر بعضهم على أن الشَّوامتِ في البيت هي القوائم والمعنى بات له ما أطاع الشَّوامتِ لأنها عبت طول الليل.

وقال أبو زيد: يوم أرونان وقسقاس وقسي وعصيب وعصيب وقماطر ومقمطر وعماس. وقال الأصمعي: من العماس قولهم: أانا بمعمسات أي أمور علويات خفيات، وقال الخليل: العماس كل ما لا يقام له، ويوم عماس وعموس وقد عمس عماسة وعموساً.

ويقال: يوم باسل: ومفلق وفلق وذكر ومذكر وأشتع وأشهب ومظلم وذو كواكب، ويوم معماني وأروناني بعيد ما بين الطرفين، وقال بعضهم: يوم أرونان شديد صعب ولا فعل له وليلة أرونانة. قال الجعدي:

وظلّ لنسوة النعمان مَنّا على سفوان يومٍ أرونان

ويقال: يوم أروناي وليلة أروناية، وقال أبو عبيدة وأبو زيد: كل هذا بوصف الشديد من القتال والبرد والبلاء والخوف.

ويقال لهم؛ يوم عربسيس، وأخذ القوم طريقاً عربسياً لما فيه من الخوف والعطش والمشقة، وإذا عظموا الأمر على إيهام في الوصف، قالوا: كان ما لا يحد يوم أيوم، وإذا كان ذلك ليلاً قالوا: ليلٌ أليل، ويقال: أطول الليالي يدعى ليل التمام.

ويقال: جاء من الطيخة أي الفتنة والحرب المطيخ الفاسد.

ويقال: هذا دهر حول قلب أي كثير التحول والثقلب.

ويقال: ليل ذو كؤود قال: يدر عن الليل ذا الكؤود.

قال أبو زيد: سمعت أعرابياً فصيحاً يقول: إذا أجذب الناس أتى الهاوي والعاوي. الهاوي: الجراد، والعاوي: الذئب. قال الدريدي: الخجل سوء احتمال الغني، والدقع سوء احتمال الفقر. وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «إنكن إذا جمعتن دقعتن وإذا شبعتن خجلتن» وأنشد:

ولم يدقعوأ عندما نابهم لصرف الزمان ولم يخلجوا

ويقال: جاحه الدهر واجتاحه وعسره الزمان أي اشتد عليه ومثله: استحصف ويقال: أشار بهم لمع الأصم، وحكى بات فلان ليلة ابن أفلس أي ليلة شديدة، قال ومثله وليلة د عشقة.

ويقال: ما رأينا العام قابلاً من المطر، والإرعفاء أي مطراً، وهذا مأخوذ من الرعاف، قال أبو العباس ثعلب: لم يأت برعف، غير ابن الأعرابي ويقال في شهرة اليوم: يوم أغر محجل.

قال أوس:

وأنت الذي أوفيت فالיום بعده أغر ممس باليدين محجل

ويقال: سنة قاشورة أي تقشر كل شيء ويقال: أصاب الناس شراسيف أي أصابهم أول الشدة، فأما قولهم: بات فلان بليلة انقد فالمراد الشدة قال الطرماح:

وبات يقاسي ليل انقد دائباً ويحذر بالحقف اختلاف العجائن

وانقد الشيم وفي المثل: أسرى من انقد ويقال: ابن انقد أيضاً، والعجائن قال: ابن السكيت: هو الطباخ، وقال الأعشى:

لعمري لئن جَدَّتْ عداوةٌ بيننا لترتَحَلَنُ مِنِّي على ظَهْرِ شَيْهَمٍ
وقال عمرو بن قميئة:

إنِّي من القوم الذين إذا لزم^(١) الشتاء ودوخلتُ حُجْرَهُ
ودنا ودونيت البيوت له وثنى فثنى ربيعهُ قدِره
وضع المنيحَ وكان حظهم في المنقيات يقيمها يُسرهِ
وأشدُّ أبو العبَّاس ثعلب عن الأصمعي وغيره:

سقى سكرًا كَأَسَ الدَّعَافِ عَشِيَّةً فلا عاد مخضر العشب جوانبه
قال والسكر اسم جملة، وإنَّما يدعو على واد، رعاه جملة فأصاب من النثر فمات
وقال الهذلي:

وحبسَنَ في هزم الضَّرِيعِ فكَلَّها حذباء دامية اليدين حَرُودِ
يصف إبلاً بسوء حالٍ، والهزم ما يهزم من النَّبات ويحطم، والضَّرِيع نبات غير طایل.
قال أبو عبيدة: الضَّرِيع عند العرب: يابس العسرق، وهو يؤكل ولكنه كما قال الله تعالى:
﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٧] وهو من نبات الحجاز، والشَّبْرُق ما
دام غَضًّا نوره حمراء. قال الهذلي يصف قومًا قتلوا:

ترى القوم صرعى حثوة أضجعوا معاً كأنَّ بأيديهم حواشي شبرقٍ
وقيل: الخيف الحناتم ماء النثر. قال ندى السَّمَاك في قصب الوسمي. وذلك أنَّ
السَّمَاك يسقط وقد انفسخ القَر، وهاجت الأرض في بلاد العرب، وفي عروق الشَّجَر بقية من
ثرى الوسمي، فيسقط السَّمَاك لتسع خلون من نيسان، فيصبيه مطر السَّمَاك فيخير نبتة، ونبت
فيه الرُّطْب، فذلك النثر تراه خضرة على بياض، وهو السَّم الرِّغَاف. قال أبو محلم:
سمعت أبا زيد العكلي يقول: هو السَّم السَّاكِت.

البابُ الخامس والعشرون

في أسماء الشمس^(١) وصفاتها وما يتعلق بها

قال أبو حاتم: يقال للشمس الجونة - والجارية - والعين - والماوية - وهي من التأويب وهو سير النهار كله يقال: آب وتأوب بمعنى. قال النابغة:

تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وليس الذي يتلو النجوم بآيب
فسره ابن الأعرابي على ذلك، لأنها تسير آية أبداً ما بينها ما بين المشرق إلى المغرب تدأب يومها فتزوب المغرب مساءً.

ويقال لها السراج - والضّح - وذكاء - وقد أشمسَ يومنا: إذا اشتدَّ حرّ شمسهِ، ويوم مشمس - وشامس - وشمسَ لي فلان إذا بدت عداوته. وقال الخليل: الشمس - عين الضّح - وبه سُميت معاليق القلادة، وقيل هو من المشامسة لأنها نحس في المقارنة وإن كانت سعداً في النظر.

وقال التميميون: الجونة - الشمس حين تسودّ وتدنو من الغيوب لا يقال لها الجونة إلا على هذه الحال وأنشد أبو حاتم:

تبادر الآثار أن تدأبا وحاجب الجونة أن تغيبا

وأما الجارية - فمن قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّهَا﴾ [سورة يس، الآية: ٣٨] وهي تجري من المشرق إلى المغرب - والسراج من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦١] وقال: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح، الآية: ١٦].

ويقال: دلكت الشمس دلوکاً - ودلوکها: اصفرارها عند غيوبها.

(١) قال في كنز المدفون أسماء الشمس الغزالة - البيضاء - يوح - الجارية - العين - الجونة - السراج - يوح الالهة - الضّحي - الضّح - الشرق - حناذ. الزبرقان ١٢ القاضي محمد شريف الدين عفا عنه.

وقال ابن عباس: لدلوك الشمس - أي لزوالها الظهر والعصر. قال:

شادخة الغرة غراء الضحك تلبج الزهراء في جنح الدلك

فجعل الدلك غيبوبة الشمس. وروي عن أبي عمرو أنَّ دلوكها زوالها والله أعلم.

ويقال: رهقتنا الشمس إذا دنت. ومنه غلام مراهق: إذا دنا الاحتلام.

ويقال للسيد وهو مرهق التيران: أي يغشاه الأضياف. وغلام فيه رهق أي غرامة وفي القرآن: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن، الآية: ٦] أي مكروهاً.

وقال أبو زيد: برّاح بفتح الأول وكسر الآخر اسم للشمس مثل: قطّام وأنشد:

هذا مقامٌ قدمي رباح غدوةً حتّى دلكت برّاح

وقال الأصمعي: ليس الرواية كذلك إنّما الرواية دلكت برّاح بكسر الباء، وهو جمع راحة وهو أن ينظر إليها عند غيوبها يستشفها، يضع يده على جبينه يستكشف بها حتى ينظر تحتها. وقال العجاج:

أدفعها بالراح كي تزلحفا رحاه عان تحتها تصدّفا

وزعم أنّه يطلب أسيراً له وقال: وسُمّيت بذلك لأنها تسود حين تغيب - والجون الأسود، هذا قول الأصمعي، وقال غيره: الجون يكون الأبيض أيضاً قال: وعرض أنيس الحرمي على الحجاج بن يوسف درع حديد وكانت صافية، فجعل الحجاج لا يرى صفاها، فقال له أنيس: إنّ الشمس جونة أي شديدة الضوء قد غلب ضوءها بياض الدرع - والجونة اسم للدرع ذكره الأحمر وغيره. قالوا: ويقال لا أفعله حتّى تغيب الجونة.

وقال بعضهم: معنى برّاح أي أستريح منها فذهبت، وقيل أيضاً: راح ها هنا موضع. وحكى قطرب: دلكت برّاح بالضم و (لعاب الشمس) أن يرى في شدة الحر مثل نسج العنكبوت أو السراب ينحدر من السماء وإنّما يرى ذلك عند نقاء الجو، وسكون الأرواح واشتداد الحر. وأنشد شعراً:

هممن بتغويرٍ وقد وقّد الحصى وذاب لُعاب الشمس فوق الجماجم

وأنشد ابن الأعرابي:

وذاب للشمس لعابٌ فزَلَّ واستوقدت في غرفات كالشعل

قال الذريدي: لعاب الشمس بلغة اليمن الوهر. ويقال: وهر يومنا يوهر وهرأ فأقرن

الشمس فحد ذروها حين تذر قرونها وقرونها: نواحيها، ويقال: طلع قرن من قرونها أي: ناحية من نواحيها.

وعين الشمس شعاعها الذي بهرك إليه. وقال ابن السكيت: عين الشمس رأسها ووجهها وقرونها نواحيها. قال:

فما أن دُر قرنُ الشمسِ حتّى طرحن سخالهنَّ وصِرن آلا

والضح: الشمس يقال: لا تجلسوا في الضح أي في الشمس، وقد ضحى فلان في الضح أي برز للشمس يضحى ضحوأً، ويقال: شد ما ضحوت للشمس أي طال بروزك لها ويقال: ضحى الريح وضحى لي إذا خرج من بيته فبرز لك. قال أبو حاتم: لا ثبت عندي ضحيت للشمس وليس في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [سورة طه، الآية: ١١٩] بيان ضحيت من ضحوت لأنّ قوله: تضحى يجوز أن يكون مستقبل ضحا. وقد قال قائل:

ضحيت له كي استظلّ بظله إذا الظل أضحى في القيامة قالصا
فقال أبو حاتم: الذي يقول هذا لا يجوز قوله قمة رأسه، ومن كلامهم جاء بالضح والريح، أي جاء بالشيء الكثير أي ما طلعت عليه الشمس وبزغت. والذّرور: أول طلوعها وبزوغها وطلعت تطلع طلوعاً ومطلع الشمس بالكسر المكان الذي تطلع منه.

وقال الأصمعي: شرقت الشمس تشرق شروقاً إذا طلعت، فإذا أضاءت جداً قلت: أشرفت، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٩] ويقال: أشرق وجهه: إذا أضاء واستنار.

ويقال: آتيك كلّ يوم طلعت فيه الشمس، وشرقت، وآتيك كلّ شارقٍ والشرق زعموا أنه الشمس، يقال: آتيك كلّ يوم طلع شرقه، وقد طلع الشرق ولا يقال غاب الشرق.

والمشرق: المطلع. قال أبو يوسف: شرقة الشمس موقعها في الشتاء، فأما القيظ فلا شرقة له. والشعاع: ضوء الشمس والمطلع بفتح اللام الطلوع، لذلك قرأ القراء: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [سورة القدر، الآية: ٥] ومغربها حتى تغرب فيه غروباً، ويقال: غابت الشمس غيبوبة وغيوباً، وقد وجبت الشمس وجوباً إذا غابت، وكسفت الشمس كسوفاً وذلك ذهاب ضوءها وشرقة الشمس: موقعها في الشتاء ودفوؤها ولا يقال لموقعها في القيظ: شرقة، ويقال: أقعد في الشرق وفي الشّركة وفي المشرقة سواء.

وحكى أبو عمرو: الشرق الشمس، والشرق بالكسر: الضوء الذي يدخل من شق الباب. ومنه خبر ابن عباس أنّه قال: في السماء باب للتوبة يقال له الشّريق وقد ردّ حتى ما

بقي منه إلا شرفة . وحكى بعضهم: الشَّرقُ الشَّمْسُ التي تكون في المقابر بعد العصر، وجاء في المسند: أنه ذكر الدُّنيا فقال ﷺ: «إنَّه بقي منها كشرق الموتى».

قال ابن الأعرابي: يحتمل وجهين: أحدهما: أنَّ الشَّمْسَ في ذلك الوقت إنما تلبث ساعةً ثم تغيب، فشبه ما بقي من الدُّنيا بذلك. والوجه الآخر: يشرق الميت بريقه عند خروج نفسه، فشبه قلة ما بقي من الدُّنيا بما بقي من حياة الشَّرق بريقه.

ويقال: ما بقي من النَّهار إلا شفا، والشَّفاء بقية الشيء، وأتيته بشفا أي بشيء من ضوء الشَّمْس، ويقال: شَقَّتْ الشَّمْسُ بالتَّشديد أي غابت إلا يسيراً منها.

وقد طفلت الشَّمْس: إذا دَنَّت للغروب، وأتيتك طفل الشَّمْس، وفي طفل الشَّمْس، وقال أبو حاتم وأنشدنا أبو زيد شعراً:

قد ثكلتُ إحدى بني عديٍّ أحبها في طفلي العشيِّ

إن لم يثبت وصل قبل الرُّوي وطفلت الشَّمْس أي جنحت ومالت للغروب وقد صغت الشَّمْس إذا أصفرت كان لها صلابة .

وأدْنَقْتُ: وازدندفت ودنفت وهذه وحدها عن أبي عبيدة إذا همَّت بالمغيب، وغارت وآبت وألقت يدًا في كافر ورجفت. ويقال: مغرب الشَّمْس ومغربان الشَّمْس ومغيران الشَّمْس. ويقال: على الأرض غيابات الطُّفل وقد أرهقت أي دنت للمغيب. وأنشد في قوله:

دنفت والشَّمْس قد كا دت تـكـوـن دَنَقـا

وحكي الغزالة في أسماء الشَّمْس لدوران قرصها في مرأى العين. ومنه المغزل ومغازلة النِّساء لأنَّهن عند المراودة كأنَّهنَّ يدرن في أفانين الحديث. وقال أبو حاتم: ليست الغزالة من أسماء الشَّمْس، إنَّما الغزالة الضُّحوة وأنشد لذي الرِّمة شعراً:

فأشرقت الغزالة رأسَ حوضي أراقبهم وما أغنى قبالا

أراد أشرقت في الغزالة أي في ذلك الوقت وأنشد أيضاً:

أسوق بالقوم غزالات الضُّحى

ويقال: أتيتك بوجه النَّهار وبشباب النَّهار وهي الغزالة الكبرى. قال ذو الرمة:

توضَّحن في قرن الغزالة بعدما ترشَّقن ذرات الرِّهَام الرِّكايك

وهذا حجة في تثنية الغزالة اسماً للشَّمْس. وكذلك رَأَد الضُّحى - ورونق الضُّحى -

وفي تَلَعِ الضَّحَى . وأتيتك حين تَلَعَتِ الضَّحَى - وأتيتك مَدَّ النَّهَارِ .

وكذلك ضحوة وضحي والضحاء الأكبر ممدود مفتوح مَدَّ النَّهَارِ الأكبر، وذكاء: اسم للشمس معرفة غير منونة، وطلعت ذكاء، ومن أمثالهم؛ أضاءت الذكاء وانتشر الرعاء.

قال الشيخ: وحكي عن المبرد أنه قال: ابن ذكاء هو القمر، لأنَّ له بصيصاً كبصيص الشمس، وروي عن ثعلب أنه قال: بعض العرب يجعل ابن ذكاء النهار ونبت ذكاء الشَّرْقَة، وهو ضوء الشمس، ويقال للصَّبح ابن ذكاء وأنشد فيه:

وابن ذكاء كامنٌ في كفر . أي في ليل يستره

وأنشد:

في ليلة كفر النجوم غمامها . أي غطاؤها

ويقال لحسنها: عب الشمس، عب مخفف مثل دم، وقال الذيربي:

وليس بموتيك الذي أنت مغرمٌ يتسألُ ما أبرق ابن ذكاء

وإياء الشمس: بياضها والإياء أيضاً أيا التَّبت حسنة وزهرته، وقال الشاعر، فَمَدَّ الإياء وكسر الألف شعراً:

تنازعها لوانان وَرَدُّ وَحَوَّةٌ ترى لإياء الشمس فيه تَحَدُّرا

وقالوا: إياء الشمس: شعاعها. قال طرفة: سقه إياء الشمس إلا لثائه. قال الشيخ: بعضهم يثقل عب الشمس فيقول: هذه عب الشمس، والعب أيضاً البرد، وفي المثل أبرد من العب، فمن شدد الباء يجعله من العباب، وهو معظم الشيء أي أعظمه. ومن خفف الباء جعله منقوصاً كَدَدٍ من ددن.

ويقال للصَّبح: ابن جلا، كما قال: أنا ابنُ جلا وطلَّاع الثَّنايا. أي أنا منكشف الأمر، وجلا فعل في الأصل وحكي لقباً كما قيل: تابطُ شراً وقد جعل لقباً فحكي.

وقال قطرب: العب مثل الدم بتخفيف الباء وهو ضوء الشمس وحسنها يقولون عب شمس ومن ثقل قال هذه عب الشمس ورأيت عب الشمس يريد عبد الشمس فأدغم الدال في الشين كما قيل ثلث الدرهم، فيدغم التاء في الدال، وقال بعضهم: يقول هو عب الشمس فيفتح في كل وجه وقال:

إذا ما رأث شمساً عب الشمس شمَّرت إلى رملها والجلهمي عَمِيْدُها
وشعاع الشمس وشعاعتها وشعها ضوؤها وأشعت الشمس انتشر شعاعها، فإذا طال النهار وقيل: تمطى النهار وامتدَّ وامتدَّ وامتدَّ متوعاً.

ويقال: بقي علينا ريم من النهار للساعة الطويلة ونهار ريم أيضاً فإذا انتصف النهار فهي ظهيرة، وظهر وهجير وهجر، ووديقة حين هجم المقيّل وانحنى للتغوير. والشمس في كبيدات السماء إذا توسّطت وعوّمت ودوّمت وحلّقت.

ويقال: زالت الشمس زوالاً وزالوا في التفرقة زيالاً قال:

نعى حجشائها نجمٌ دفوءٌ خليطٌ لا ينأى على الزيال
والظلّ: يكون ليلاً ونهاراً، ولا يكون الفياء إلا بالنهار، وهو ما نسخته الشمس ففاء أو كان من النهار فلم تنسخه الشمس، والفياء هو التبع أيضاً. قالت الجهينة:

ترد المياه خصيرةً وبقيضةً وزد القطاة إذا استمال التبع
وإذا لم يكن فيء ولا ظلّ قيل: (الظلّ طباق الخف) وإذا ارتفع إلى موضع العقال من ساق الشجرة فنسخ الفياء إلى ذلك الموضع قيل: (قد عقل الظلّ) فإذا صفا، أي زاد على طول الشخص قيل: قد فاء الفياء والظلّ الضافي الطويل، ويقال للظلّ الكثيف ظلّ المي.

ويقال للمكان الذي لا تقع فيه الشمس: (مقناة) ومقان جمع، والذي تصيبه الشمس مضحاة والجمع مضاح. ويقال للشمس المهابة. قال أمية بن أبي الصلت شعراً:

تم يجلو الظلام ربّ رحيمٍ بمهابة شعائها مستنيرُ
وأصل المهابة البلوة.

ويقال للشمس الإلهة. قال التميمي:

تروّحنا من اللّباء قصراً وأعجلنا الإلهة أن تروّبا
ويقال: الآهة فيصير كالعلم، وذكر قطرب أنّ الإلهة من أسماء السماء والفتح في همزتها لغة واشتقاقه من لفظ إله لأنّ كل ما رغب فيه إلى الله تعالى يطلب من جهة السماء. ويقال للشمس البيضاء وطلعت البيضاء ولقيته في الصّفراء أي حين اصفرت الشمس.

وقال الأصمعي: روي عن ابن الزبير أنّه قال في كلام له: البوح يعني الشمس قال: ولم أسمع البوح إلا في كلامه. قال ابن الأعرابي: العرب تقول استدبار الشمس مصحة. وأنشد:

إذا استدبرتنا الشمسُ دَرَّتْ متونُنا كأنّ عروقَ الجوفِ ينضخنَ عندَما
دَرَّتْ يعني لانت، وروي عن النبي ﷺ قال: «استدبروا الشمس ولا تستقبلوها فإنّ استدبارها دواء، واستقبالها داء».

ويقال: ضَرَعَت الشمس إذا غابت، (وزبت وأزبت) إذا دنت للمغيب. قال الذريدي: صرعت غير معجمة. ويقال: سقط القرص. ويقال: ما بين المشرقين مثل فلان أي بين المشرق والمغرب.

وحكى بعضهم: التغوير بالتهار من آخره بإزاء التعريس وهو النزول بالليل من آخره. (والقسطلانية) نداء الشفق أو نداء قوس قزح. ويقال للذي يسمى قوس قزح القُسطلاني بالضم.

وقال الذريدي: أهل المدينة يسمون الهباء الذي يدخل من ضوء الشمس إلى البيت: خيط باطل. قال الشيخ: أخبرني أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري قال: أخبرني أبو عمرو غلام ثعلب عن ابن الأعرابي وعن عمر بن أبي عمرو عن أبيه وابن نجدة عن أبي زيد قال: يوح اسم للشمس ومن رواه بالباء فقد صحف - وذكاء - والعروج - والجهاء - والعبورية - والبتياء - والجونة - والفين - والمأوية - لأنها آتية أبداً وتأويها: سيرها من المشرق إلى المغرب - والسراج - والضح - والأهة بالضم - والآهة بالفتح - وروى قطرب الإهة بالكسر والأهة بالضم. قال ثعلب: الضم أفصح والعمل عليه.

ومن أسماء الشمس: الغورة لأنها تغور - وأم شعلة - وأم التجوم - والغراه - والهالة - وأنشد:

متجبٌ كأنَّ هالة أمِّه ضعيفُ الفؤادِ ما يعسِّ بمعقولٍ

متجب ها هنا مفتخر أي يتخبر ويتجب ما يفتخر به علينا وهو جبان في نفسه. وحكى المفضل: (الحومانة) الشمس.

ويقال: سمرت الشمس طلعت، وأسمرت أضاءت مثل وأشرقت وقيل هما لغتان. وأنشد ابن الأعرابي:

يضاء شطت مزارها بلسنا إن سمرت أسفارها
فأتى باللغتين جميعاً وأنشد أيضاً:

كانها الشمس إذا ما تسفرُ والشمس منها يوم دجن أسفر
أي تضيء منها الشمس يوم الدجن. وأنشدنا أبو أحمد العسكري قال: أنشدني أبو عمر الزاهد عن ثعلب عن ابن الأعرابي:

وجارية رفعتها لأنالها يكفي عن خرجاء يهفو رواقها

قال: الجارية ها هنا الشمس، والخرجاء: عين الشاعر لأنها ذات لونين. وأنشد عن

ثعلب عن ابن الأعرابي:

ومعمولة إن زدت فيها نقصتها وإن نقصت زادت على ذاك حالها

قال: يريد الكوة التي تكون في السقف مدخلها ضوء الشمس كأنه حبل ممدود ولذلك سُمِّي ذلك الضوء خيط باطل، لأنَّ ما تراه فيه إذا قبضت عليه لم يحصل في يدك منه شيء، وقوله: إن زدت فيها نقصتها أي إن زدت في جسمها نقصت من ضوئها فهكذا حالها. وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي:

والشمس معرضة تمور كأنها ترس تغلبه كمِّي رامحُ

قال الشيخ: أظن أن ابن المعتز أخذ قوله من هذا:

ومصباحنا قمرٌ مشرقٌ كترس اللجين يشقُّ الدجى

مخاط الشمس، ومخاط الشيطان جميعاً.

ويقال: ركدت الشمس وهو غاية زيادتها، وقسبت الشمس تقسب وصفت تصفو صفواً، وكلّ هذا في معنى الرسوب. وقال أبو التّجّم: صفواً قد همّت ولمّا تفعل.

ويقال: قنب يقنب قنوباً وذلك إذا لم يبق منها شيء وأنشده شعراً:

مصايحُ ليست باللواتي تقودها نجومٌ ولا بالآفلاتِ الدّوالك

يقال: أفلت الشمس: إذا غابت، والأفول يستعمل فيها وفي غيرها، وكذلك البزوغ وهو الطلوع قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٧٨] في الشمس فلما أفل في القمر.

وحكى قطرب: جئتُك غبة الشمس أي عند مغيبها كأنه قلب، فقدم الباء قال: وقالوا: شمسنا وشمسنا أي أودينا بحرّها وأشمسنا صرنا في حرّ الشمس وشمس يومنا وشمس وأشمس.

يقال: أزبت الشمس وزيت وزيت إذا دنت للمغيب.

ويقال: انصلعت انصلاً وهو تكبدها وسط السماء، وصلاح الشمس حرّها، وقال: حرّ الظهيرة تحت يوم أصلع، وحكى أبو عمرو: العباء أنوار الشمس.

ويقال: قسبت الشمس وذلك إذا بدا قصبها في عين الناظر إليها. وذكر في أسماء الشمس قطيفة المساكين وما أظنه إلا من وضع العامة.

وحكى أبو حنيفة: الشرق الشمس، ويقال: أتيتك كلّ يوم شرقه أي شمسهِ وطلع

الشرق، ولا يقال: غاب الشرق. وذكر قوله: وهمت الجونة أن تصوما، ومعنى صوم النهار أن الشمس إذا توسّطت السماء نصف النهار كأنها تقف ألا تسمع قوله:

والشمسُ حَيَّرَ لها في الجوّ تدويمٌ.

وحكى أبو حنيفة أن الإلهة تأنيث إله، وأحسب أن الشمس سُميت بها لأنه كانت

تُعبد.

قال: والنداء قوس المزن وأكثر ما يكون في الوسمي والصيف وقيل: بل هي الحمرة العارضة في مطلع الشمس ومغربها إذا عَرَضَتْ.

ويقال: سبأته الشمس والنار والحمى إذا غَيَّرَتْه، وكذلك السفر يسبأ الإنسان. وحكى ابن الأعرابي أنك لتريد سبأة أي سَفَرًا، وقال سزبد مثلها: والسبأة البُعد فكان السريد السفر القريب.

ويقال: جاءني فلان قِمة أي حين غابت، وقال أبو عمرو وما قِمَسْتَهُ وقَامَسْتَهُ بمعنى والمقامسة المقاطة قال الهذلي:

قلو رجلاً خادعته لخدعته ولكنما حونا برحنا أقسامسُ

سَبَّته الشمس وسَبَّأَتْه إذا أَحْرَقَتْه.

البابُ السادس والعشرون

في أسماء القمر وصفاته، وما يتَّصل بها من أحواله

فصل

قال أبو حاتم: قال أبو زيد: يقال الهلال: ما دام ابن ليلة أو ابن ليلتين، فإذا استدار وعظم قبل أن يستدير فهو: القمر المستقبل، فإن غطاه سحب أو قوة فلم ير إلا بعد ثلاثة من أول الشهر فهو قمر، وإلا يدعى هلالاً.

وأما القمر: فهو ضوء القمر، ويقال: طلع القمر، ولا يقال طلعت القمراء ولكن يقال: أضاءت القمراء، كما يقال أضاء القمر.

ويقال: قمر الليل، ولا يقال: قمر القمر، ويقال: قمرنا ونحن مقمرون، ويقال: تقمّرت فلاناً إذا قصدته في القمراء.

وروى الشعبي أنّ شيخاً تقمّر جارية ولم يبلغ منها ما أراد فرفعا إلى عمر فعزّره وأراد تعزيرها أيضاً فشهدوا لها أنها أنكرت قربه وصاحت فخلّى سبيلها.

ويقال: وضح القمر وضوحاً.

ويقال: استهلّ الهلال وأتيتك عند مستهلّ الشهر.

ويقال: أهللنا الهلال، وأهلّ الهلال، قال أبو حاتم: بالبصرة يقولون هلّ الهلال، ولا يجوز ذلك، قال أبو حنيفة: حكى عن الثقة أنّه يقال: هلّ الهلال نفسه أي طلع وأهللناه نحن رأيناه، وإذا كان الهلال منبسطاً قيل: هلال أوفق.

ويقال: أتيته عند إهلاله واستهلاله وهلة وهله وهلوله، وأتيته تيفاق الهلال وتوفاقه وميفاقه.

قال الفراء: يقال إذا عاينت الهلال رأيته قبلاً، وإن استقبلك قبل: رأيته قبلاً، قال: وكلّ ما قابلك فهو قبل منك، وقال غيره: رأيت الهلال وهو أوّل ما يرى ولم ير قبل ذلك،

وتكَلَّم فلان قبلاً، إذا تكَلَّم بكلام لم يكن قد استعد له .

ويقال : سلخت الشَّهر سلخاً وسلوخاً وسلخ هو وانسلخ .

ويقال : نَصَفَ الشَّهر وأنصف ونصف وكذلك كلَّ شيء يؤول إلى النصف . قال
الفراء : طرح الألف أجوده، وحكى الجرمي عن الأصمعي : أنصفَ النَّهار ولا يقال : نصف،
ولكن يُقال : نصف الماء القدح، هذا وما أشبهه ممَّا يبلغ نصف غيره . قال :

تَرى سَيفه لا ينصفُ السَّاق نعلهُ أَجل لا وإنْ كَانَتْ طَوَالاً مُحَامِلُهُ
وقال الفرزدق :

وإنْ يقنهبِن الولَيد بعدمَا تعالى نهارُ الصَّيف أو كَادَ ينصفُ
وقال ابن علس :

نصفَ النَّهار الماءَ غامرة وشريكهُ بالغَيبِ ما يَذْري
فكلتا اللَّغتين صحيحة، وقال العجاج في نصف :

حتى إذا اللَّيلُ التَّمامَ نَصَفَا

وقال أبو زيد : يقال : انتصف النَّهار انتصافاً، وأنشد :

فانتصف النَّهار والنَّعام والمهر مُزْدَمٌ له قِتامُ

يعني أنَّه عقر نصف النَّعام على الفرس إلى نصف النَّهار .

ويقال : وسط النَّهار حكاه أبو زيد يقال : قمراء أضحيان، وهو ضَوْء القمر من أوَّل
اللَّيل إلى الصَّباح .

ويقال : أضحيان لكل ليلةٍ من العشر الوسط، ويسمَّون القمر في أوَّل اللَّيل وآخره
قميراً يصغَّرونه لِصِغَره . قال ابن أبي ربيعة :

وقمير يد الخمس وعشرين له قالت الفتاتان قوما

يريد قومَن وأنشد في القمرَاء :

يا حَبْذا القمرَاء واللَّيل السَّاج وطرق مثل ملاء النَّساج

والقمر الباهر في اللَّيالي البيض ومعنى الباهر الذي يملأ كلَّ شيء بضوء بهرٍّ بهوراً،
قال أبو حاتم : والبحر : الذي يصيب الإنسان من ذلك لأنَّ المتنفس يمتلئ ويتردَّد فيه النَّفْس
فيستبهر . وقال :

عَمَّ النُّجُومُ ضَوْؤُهُ حِينَ بَهَرَ قَعَمَضَ النَّجْمُ الَّذِي كَانَ أَزْهَرَ
وقال:

والقمر الباهر السماء لقد زرنا كلانا بحجفل لجب

ليلة عفراء: ليلة ثلاث عشرة. ويقال لها أيضاً: ليلة السواء، وقال بعضهم: تسمى بذلك لأنَّ القمر يستوي فيها، وهو قول الأصمعي، وقال آخرون: لأنَّه يستوي ليلها ونهارها. وقال: هي السواء والعفراء.

ويقال: أسفر القمر في أوّل ما يرى ضَوْؤُهُ، ولم يظهر بعد، وأضاء القمر، وقالوا: ليلٌ أسفر، وقالوا: امتحق القمر، ولم يعرفوا فيه فعل يعني مَحَق، والاسم المحاق والمحاقة غداة يخفى عليك، لأنَّ الشَّمْسَ تغيبه عنك من أوّل نهارك قبل طلوعها ثم الاستمرار إلى أن يهلّ الهلال.

قال الأصمعي: المحاق أن يطلع القمر قبيل الشَّمْسِ في ضوئها، فلا يزال ينمحق حتى يذهب. والسرّار: أن يطلع خلفها. وقال أبو عبيدة: العرب تقول: لَيْلَةُ ميلاد القمر: ابن ليلته وأنشد:

كَأَنَّ ابْنَ لَيْلَةٍ طَلَعَ جِئَانِحَا قَسِطٌ لَدَى الْأَفْقِ مِنْ خُنْصَرِ

وقال أبو عبيدة: إنما قيل: ليلة البدر لأنَّ القمر يبادر الشَّمْسَ أن يطلع، قال الله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، الآية: ٤٠] أي يجرين في قطب المدار. وقال زهير:

لَوْ كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتُ الْمُنُورَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

قال أبو حاتم: قد روي عن ابن عباس هذا القول: إِنَّ القمر إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَدْرَ لِأَنَّهُ يَبَادِرُ أَنْ يَطْلُعَ، وَلَا أَظْنَهُ إِلَّا غُلَطًا عَلَيْهِ، إِنَّمَا الْبَدْرُ الْمَمْتَلِئُ. ويقال: ليلة البدر، وقمر بدر وأبدر القمر صار بدرًا. قال الشاعر:

ثُمَّ كَشَعَةَ الْقَمَرِ الْبَسْدَرُ حَقِيقُ الْأَحْشَاءِ وَالْكَبِيدِ

ويقال: غلام بدر إذا امتلأ شباباً قبل الاحتلام، وجاء ببدره أي سقاء ممتلئ لبنًا.

قال أبو عبيدة: ثم سَمُوا ليلة البدر، وَلَيْلَةَ النَّصْفِ، وَلَيْلَةَ السَّوَاءِ وهي ليلة ثلاث عشرة البيض قال: ولم أسمع عربيًا سَمَى شيئاً مِنْهُنَّ وَلَكِنْ عَدَوْهِنَّ فَلَمَّا بَلَغُوا آخِرَ الشَّهْرِ سَمَوْا ثَلَاثًا مِنْهُنَّ الدَّادِي صِفَاةً لِسُدَّةِ ظِلْمَتِهِنَّ.

وقال أبو نصر: الدأءاء: هي الغلبة إذا كنت تشك في الليلة هي مما أنت فيه أو من المقبل، يدل على هذا قوله:

هاجت عليه من الأشرط نافحة بغلته بين أظلام وأحفار
وقال:

تداركه في منضل الآل بعدما مضى غير ما دادا وقد كاد يذهب
ثم قالوا: سرار الشهر. قال جرير:

رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
ويكون سرار الثلاثين من آخر الشهر إذا تم الشهر، فإذا نقص فهو سرار ليلة.
ويقال: أتيت عند سرار الشهر وعند سرار القمر. قال:

تلقى نوؤهن سرار شهر وخير التوء ما لقي السرا
وقال الكسائي: آخر ليلة من الشهر. قال كثير:

هلال عشية لشفا غروب تسر وليلة بعد المحاق
وقال الراجز:

نحن صبحنا عامراً في دارها عشية الهلال أو سرارها
والسرار: يفتح ويكسر، والفتح أعرف، وقال بعضهم: المحاق ثم السرار لأن ضوءه
يمتحق ثم يستتر. وقال غيره: امتحاق القمر: احتراقه واحتج بيت ساعدة:

في ماحق من نهار الصيف محتدم

ويقال: محاق القمر، ومحاق الشهر. قال:

بني بها قبل المحاق بليلة فكان محاقاً كله ذلك الشهر
وقال آخر:

فلن تك كوكب الصمعاء نحساً به ولدت وبالقمر المحاق
ويقال: حجر القمر، وقمر القمر: إذا استدار بخط دقيق.

ويقال: لحف القمر فهو ملحوف: إذا جاوز النصف وأخذ في النقصان. والبراء: آخر
ليلة في الشهر لتبرأ القمر من الشمس.

ويقال: طفاوة القمر: إذا حجه وأنشد: كآته البدر في طفاوته. وبعضهم يفتح الطاء فيقول طفاوة.

ويقال: أفتق القمر: إذا خرج من السحاب لفُرجة يجدها، والفرجة الخصاصة. قال ذو الرمة شعراً:

تريك يياضَ لَبَّتها وَوَجْهاً كقرز الشَّمسِ أفتَقَ ثمَّ زالا
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً كلاً وانفلَّ سائرُه انفِلالاً

وقال بعضهم: يسمّى القمر: الزَّبْرَقان وهو من قولهم: زبرق عمامته: إذا صَفَرها. قال أبو حاتم: وزعم من لا أسكن إلى قوله أَنَّ القمر يسمّى في الدادي السّاهور. قال أمية بن أبي الصلت:

والشَّهْر بين محاقه وهلاله أجل لعلم الناس كيف يعدد
ولا نقصّ فيه غير أنّ خبيّته قَمَرٌ وساهورٌ يُسَلُّ وَيُعْمَدُ

وزعم أَنَّ السّاهور بالتبّطية أو السّريانية، وقال بعضهم: هو غلاف القمر يخرج منه أول حتى يبرز كله، فإذا انتصف الشّهر ارتدّ فيه.

وحكى بعضهم: ليالي السّاهور التسع البواقي كلّها. وحكى الحارزنجي: السّاهور الشّهر، قال: ويقولون: لقوا الشّر في ساهوره، أي في كثرته. قال: والسّاهور من أسماء القمر وهو السّحاب أيضاً، والسّاهرة الأرض العريضة البسيطة.

وقال شيخنا أبو علي: السّاهرة وجه الأرض من الشّهر، ومعناه أنه إذا سهر قلق جنبه، فَقَلَّ حظّه من الأرض، إمّا بالقيام، وإمّا بالقعود، وإمّا بالقلق والحركة فتأويله أنّه سلب ملابسته الأرض، وكذلك قولهم: سهروا والمعنى واحد والأخذ منزله كلّ ليلة والرّكس منزله الذي ينكسف فيه.

ويقال للسّواد الذي في القمر: المحو والشّامة. والهالة دائرة القمر.

ويقال: طمس القمر والنّجم إذا ذهب ضوءهما.

ويقال: القمر اللّيلة في الهالة قال: في هالة هلالها كالإكليل يعني دارته أنشد في الهالة:

فَمَنْ يَسعِ مِنْ حَيِّ الأراقِمِ جاهداً ليدرك مسعاة ابن هالة يسبقُ

ويقال: سُمِّيت هالة لحسنها وجمالها كأثمّ شَبَّوها. وقال قطرب: الفخت ضوء القمر والشّمس، وهي أيضاً: ثقب مستديرة في السّقف، وقد انفخت وقال ثعلب: الذي

يدل على أَنَّ الفخت الضَّوء لا الظَّل أن الفاختة سُمِّيَتْ لفخت القمر ومنه الصَّبغ الفاختي .

وكذلك ذكره أبو عبيدة والكسائي، ويقال: جاء تيفاق الهلال، وتوفاق الهلال، وتوفق الهلال، وميفاقه أي لوقته، وحين وجاء على ففته وتافَّته، وعلى أفاته أي لوقته .

وأخبر أبو عمر بن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: هو القمر - والطَّوس - والجلم - والجيلم والأرسل - والباهر - والزَّبرقان - والزَّبراض - والبدر - والسَّمار - والمَشَق - والبادر - والغاسق .

قال ابن الأعرابي: ويقال للهلال: الأزيم - وابن ملاط - وابن مزنة - قال شعراً:

كَأَنَّ ابْنَ مَزْنَةٍ طَلَعَ جَانِحاً فسيط لدى الأفق من خُنْصَر

قال: ويقال له الأزيم إذا دفع. قال: كأنما شخصها في الآل أزميم. وزعموا أَنَّ أعرابية قالت لزوجها: لقد رأيت الأزيم بوجهك فما رأيت خيراً .

ويقال: قمر سنمار إذا كان مضيئاً، وقمر سنمان بالتَّوْن أيضاً .

قال أبو عمرو: أخبرني السياري عن قوله في الغاشق أنه القمر . وَقَلْبُ الغسق عند العرب السَّوَاد، قال: إنما قال: تَعَوَّذِي بالله من شَرِّ هذا الغاسق أي من شَرِّه إذا انكشف فهو آية ويسود، فمعناه يا عائشة افزعي إلى الصلوة واستعيذي بالله من شَرِّ هذه الآية إذا رأيتها، قال ابن الأعرابي وأنشد نصر والأسديون شعراً:

ومستنبت لا بالهلالِ نباته وما أن تلاقث باسمه الشَّفتانِ

له شامة سوداء في حَرِّ وجهه مجلجلة لا ينقضِّي لأوانِ

ويدرك في تسع وست شبابه ويهرم في سبع معاً وثمانِ

قال: هو الهلال لأنَّه ثبت بلا سقي ذكر الشفتان لأنَّه ليس في اسم الهلال من الحروف التي ينضم عليها الشفتان شيء وحَرَ الوجه ما بدا منه ومنه قوله:

كريمة حر الوجه غير المحسر

وحكى ثعلب عن أبي مسجل عن الكسائي أهْلَ الهلال واستهْلَ، ولا يقال: هَلَّ ولا أهْللنا الهلال . والحرمة التي يغيب فيها القمر يقال لها: النداء . قال الفزاري والجمع ندى ثلاثة، أخط أحمر بين أخضرين، فإذا رأيتها فتق بالمطر من غرب أو شرق يُلْذَن الله عز وجل . قال ثعلب: الأخط جمع خط كما يقال: صل وأصل وشد وأشد . وغرة الشهر أول ليلة، لأنَّ الهلال في أوله كالغرة في وجه الفرس . وتقول العرب للحجر البراق: هو بصاقة القمر، وقيل بصاق وبصق . والبلماء ليلة البدر .

ويقال: وجه مسلم إذا امتلأ نوراً واستكمل حسناً، وقال بعضهم: يقال كذلك طفاوة القمر.

فصل في أسماء ليالٍ من أوّل الشهر

الغرر ويقال الغر أيضاً لأنها كالغرة في الوجه البهيم من الخيل.

ويقال أيضاً: القرح لأنها كالقرحة فيها. ولثلاث يليها السبع، وقيل لها: الزهر بفتح الهاء وقد سكنت أيضاً، وقد أزهق القمر والزهرة البيضاء والنجم المعروف الزهرة، أبو عبيدة يبطل التسع والعشر ورواه غيرهما. ومن قال الغر جعلها جمع غرة. ومن قال غر جعلها جمع غراء. وقيل بعد الغر ثلاث شهب، لأن ضوء القمر فيها غير باهر، وقيل: ثلاث بهر لأن ضوء القمر بهر كل ظلمة أي غلب، وقيل في التسع: إنها سميت بها لأن فيها الليلة التاسعة، كما سميت الغر لأن فيها الغرة، وهي ليلة واحدة ليلة الهلال.

وكذلك العشر: لأن فيها الليلة العاشرة، ولثلاث يليها التسع، وقيل لها: الذرع بفتح الزاء، ويجعل درعة مثل ظلمة وظلم وقيل الذرع بسكون الزاء جعل جمع درعاء. وقيل: صبح أدرع: لاختلاط الضوء بالظلمة. وشاة درعاء إذا اسودت مقدمها وانبضت سائرهما. ويقال: أدرع الشهر إذا جاوزت النصف منه والذرع والظلم والزهر وقد حركت الثاني منها كلها وجاءت على غير قياس. قال ابن أبي ربيعة:

قالت له شققاً لا تأت في قمرٍ إن كنت تأتي بليسٍ واخذر الذرعا
ففتح الزاء والقياس إسكانها. قال أبو حاتم: لم أسمع في الظلم أنها جاءت على القياس. وقال بعضهم: أتيت وثوب السماء مجزع، لأن أولها أبيض وآخرها أسود.

وقال الأصمعي: عن العرب: الليالي البيض: ثلاث ليال: ليلة السواء، وليلة البدر، وليلة خمس عشرة. قال: ولا يقال أيام البيض إنما يقال: ليالي البيض، وتسمى هذه الليالي المحمقات، وذلك أنه إذا كان في السماء غيم رقيق وطلع القمر من أوله إلى آخره خفي على الإنسان ضوء الصبح، فيظن أنه قد أصبح وعليه ليل فيسمين محمقات لذلك. ويقال: غر فلان غرور المحمقات.

وقد قيل لما يلي التسع إلى اثنتي عشرة: الجزع، ثم ثلاث عشرة السواء والعفراء، وأربع عشرة البدر، وخمس عشرة ميسان، وإلى العشرين الذرع، وقد تقدّم القول في جميعه، والتسع البواقي الدادي، وآخر ليلة في الشهر ليلى مقصوراً لظلمتها. وحكي المد فيها. وقيل للثلاث الأواخر محاق، لأنه يمتحق القمر فيها كأنه يحترق عند طلوع الشمس فلا يرى.

ويقال: ليلة المحق ويقال: أتيته في المحاق أي في امتحاق القمر.

ويقال: من البدر قد أبدرنا، ومن السواء قد أسوينا، ومن نصف الشهر قد أنصفنا.

ويقال: ليلة ضحيان وضحيانة، وليلة قمراء، وليلة بيضاء، وليلة ضحياء، وليال ضحيانأت، وليلة طلقة، وليال طلقات، وطوالق إذا كنّ مقمرات.

ويقال: ثلاث دادي، وثلاث ظلم، وثلاث حنادس. قال شعراً:

تداركه في متصل الآل بعدما مضى غير أداء وقد كاد يُسحبُ
وقيل: الليالي التحس والذهم. وقيل أيضاً: ثلاث قحم: لأنّ القمر قحم في دُنُوّه إلى
الشمس.

ويقال لليلة ثمان وعشرين: الدّعاء، وليلة تسع وعشرين الدّهماء، ولليلة ثلاثين
الليلاء، ويجوز أن يكون القحم أخذ من افتتاح في السير، وقال الأصمعيّ في الحنادس:
كلّ ظلماء من الليالي حندس، وقال أبو عمرو: قول الناس العشر والنفل لا تعرفه العرب.
قال الجعدي في الظلم: كالليلة المباركة القمراء تهدي أوائل الظلم. وقال المسيّب بن
علس: كالطلق يتبع ليلة البهر.

البَابُ السَّابِعُ والعَشرون

في ذكر أسماء الهلال من أوّل الشهر إلى آخره
وما ورد عنهم فيها من الأسجاع وغيرها

قال أبو زيد: الأعراب يقولون للقمر لأوّل ليلة، رضاع سخيلة حلّ أهلها برميله. ولابن ليلتين: حديث أمتين يكذب ومين، ولابن ثلاث: حديث فتيات غير جد مؤتلفات، ويروى ما أنت ابن ثلاث، فقال: قليل اللَّبَات، ولابن أربعة: عتمة ربع غير حبلى ولا مريض. ويروى غير جابع ولا مريض. وقال بعضهم: عتمة أم ربع غير حبلى ولا مريض. ولابن خمس: عشاء خلفات قعس وزعم غير أبي زيد أنّه يقال لابن خمس: حديث وأنس.

قال أبو زيد: ويقال لابن ست: سر وبت. وقال غيره: أسر وبت. قال أبو حاتم: لأنّه يقال: سرى وأسرى بمعنى. وقال أبو زيد: لابن سبع دلجة الضّبع، وقال غيره: حد والأنس ذو الجمع. وقال أبو زيد لابن ثمان: قمراء أضحيان. قال أبو حاتم: أضحيان.

قال أبو زيد: ولابن تسع: انقطع الشّبع. وقال غيره: ملتقط ماء الجزع وقيل مثقّب الجزع.

وقال أبو زيد لابن عشر: ثلث الشّهر. وقال غيره: محنق الفجر. وقال غير أبي زيد قيل للقمر: ما أنت لأحدى عشرة قال: لدى عشاء وأرى بكرة. قيل: فما أنت لاثنتي عشرة؟ قال: موثق للشمس بالبدو والحضر. الذي حكاه أبو حاتم موثق للشمس. وقيل: ينبغي أن يكون موثق للخلق. قيل: فما أنت لثلاث عشرة؟ قال: قمر باهر يعشى له الناظر. قيل: فما أنت لأربع عشرة؟ قال: مقتبل الشّباب أضيء مدجنات السّحاب. قيل: فما أنت لخمس عشرة؟ قال: تمّ التمام ونفدت الأيام. قيل: فما أنت لست عشرة؟ قال: نقص الخلق في الغرب والشرق. قيل: فما أنت لسبع عشرة؟ قال: أمكنتُ المغتفر الغفرة. قيل: فما أنت لثمانية عشرة؟ قال: قليل البقاء سريع الفناء. قيل: فما أنت لتسع عشرة؟ قال: بطيء الطلوع بين الخشوع. قيل: فما أنت لعشرين؟ قال: أطلع بسحره وأرى بالبهرة، قيل: فما

أنت لإحدى وعشرين؟ قال: كالقَبَسِ أطلع في غلس. قيل: فما أنت لاثنتين وعشرين؟ قال: أطيل السرى ألا رأيت ما أرى. قيل: فما أنت لثلاث وعشرين؟ قال: أطلع في قِئمة ولا أجلي الظلّمة. قيل: فما أنت لأربع وعشرين؟ قال: أرى في تلك الليالي لا قمر ولا هلال. قيل: فما أنت لخمس وعشرين؟ قال: دنا الأجل وانقطع الأمل. قيل: فما أنت لست وعشرين؟ قال: دنا ما دنا فليس يرى لي سناء. قيل: فما أنت لسبع وعشرين؟ قال: أطلع بكراً وأرى ظهراً. قيل: فما أنت لثمان وعشرين؟ قال: أسبق شعاع الشمس، وقيل: فما أنت لتسع وعشرين؟ قال: ضئيل صغير لا يراني إلا البصير. قيل: فما أنت لثلاثين؟ قال: هلال مستقبل.

ويقال: جئت لعقب الشهر وعقباله أي بعدما يمضي، وفي عقبه وعقبه إذا بقيت منه بقيّة.

ويقال: لا يفعل كذا إلاّ عقبة القمر. وذلك إذا قارن الثريا ويقارنها في السّنة مرة وهو من المعاقبة، وذلك إذا استوى الليل والنّهار، وقيل: هو عودته إذا غاب وقال بعضهم في العقبة:

لا يطعمُ العسَلَ والخطميّ لمتّه ولا الزّريرة إلاّ عقبة القمر

وأشَدُّ ثعلب عن ابن الأعرابي عن المسروحي قال:

لما رأيت الشعراء أبدوا وكلّ شيء جمعه عَدَدُوا
حاجتهم ما ذو عصا مسندٌ حيّ كميّت عينه توقدُ
سيدّ جمع حوْلَه لم يولد

(سيدّ جمع): يعني القمر والنّجوم حوله و (ذو عصا) قال جعل عصاه المجرّة و (مسند): أي في السّماء، وقيل أيضاً: يسند إليه الشّهور والأيام و (حيّ كميّت) أي يسير ولا روح له ومعنى (أبدوا) أتوا بالأوابد والدّواهي. وأشَدُّ أبو زيد عن المفضل لرجل من بني سعد شعراً:

مهما يكن ريبُ المنون فإنّني أرى قمر اللّيل المعذب كالفتى
يهلّ صغيراً ثم يعظمُ قدره وصورته حتّى إذا هو ما استوى
يقاربُ يخبو ضوؤه وشعاعه ويمصّحُ حتّى يستسرّ فلا يُرى
كذلك زيدُ المرء ثم انتقاصه وتكراره في إثره بعد ما مضى

(زيد المرء) زيادته. وقال آخر:

يُبدان بنا وابن الليالي كآته حُسامٌ جلت عنه العيونُ صقيلُ
فما زال يغلو كلَّ يومٍ شبابه إلى أن أتتك العيسُ وهو ضئيلُ

والمعنى سرنا من أول الشهر إلى آخره حتى انتهينا إليك . وأنشد ابن الأعرابي :

فلو كنت ليلاً كنت ليلةً صيفٍ من المشرقات في موسطة الشهر
ولو كنت ظلاً كنت ظلّ غمامة ولو كنت عرشاً كنت تعريشة الفجر
ولو كنت يوماً كنت يومَ سعادة يرى شمسهُ والمزَنُ يهضُبُ بالقطر

وأنشدت عن نقطويه، قال: أنشدني ثعلبٌ عن ابن الأعرابي شعراً:

لو كنت ليلاً من ليالي الشهرِ كنت من البيض تمام البدرِ
بيضاء لا يشقى به من يسري أو كنت ماءً كنت غير كدرِ
ماء سماء في صفاء من صخر أظلك الله يعيض السدرِ
فهو شفاء من غليل الصدر

وأنشدني حمزة بن الحسن قال: أنشدني علي بن سليمان عن المبرد:

وليلٍ في جوانبه فضولُ على الآفاق أبهم غيهانِ
كأنَّ نجومه دمعُ جيسُ تفرّق بين أجفانِ الغواني

قال أبو عمر الزاهد: عرضت هذين البيتين على ثعلب، فقال: البيت الثاني مضاف إلى شعر الشاعر وليس له . وقال جرير في قصّة الأيام:

ويوم كإيهام القطاة مزينِ إلى صباه غالب لي باطله
وأنشد في مثله:

ظلّلنا عند دار أبي نعيم يوم مثل سالفه الذبابِ
وأنشد أبو العباس ثعلب:

وسيارة لم تسر في الأرض تبتغي محلاً ولم يقطع بها اليدُ قاطعُ
سرت حيث لا تسري الزكّابُ ولم ينخ لئورد ولم يقصر لها القيد مانعُ
تفتح أبواب السّماء ودونها إذا ما ارتجت عنها المسامعُ سامعُ

يعني دعوة مظلوم دعا الله تبارك وتعالى وأنشد في مثله شعراً:

خدننا لم يريا معاً في منزلٍ وكلاهما يجري به المقدارُ
لونان شتى يغشيان ملاءةً تسفي عليه الرّيح والأمطارُ

(الخدنان): اللَّيْل والنَّهَار و (الملاءة) يعني بها الأرض. وقال آخر في المحاجة:

ما جملي قهقرني وإيلي يعذرني وقريتي روية وكلبتي حمية
جَمَلَه القمر، والقهقر الشديد وإيلي يعذرني: يعني النجوم، وقريته السماء تمطر
وكلبته حمية يعني الشمس. وأنشدني العسكري أبو أحمد، قال: أنشدني المفجع الكاتب:

وما واضحٌ بعد الغياثِ مصوِّرٌ له خَلَع شَتَّى وما هو لابسٌ

يعني: قوس قزح، و (الغياث) المطر. قال وأنشدني الآخر:

أكلتُ النَّهَارَ فأفنيته فهل في لياليك من طمع

النَّهَار: الدَّكْر من الجباري واللَّيْل: فرخ الكُرَّوان، قال: وأنشدني عن ثعلب:

ألا ليتني أصبحتُ يوماً بمنزلٍ بعيد من اسم اللّه والبركاتِ

هذا رجلٌ طال سفره، فكان إذا ارتحل أصحابه قالوا: اسم الله. وإذا نزلوا قالوا: على
بركة الله، قيل: طول السفر، وقال ذلك. وقال آخر في ضده:

ليتني في المسافرين حياتي لا لحُبِّ الحلول والترحالِ

بل لخمسٍ تحطّ منهنّ ستٌ وثلاثين لا تكون بيالي

يعني خمس صلوات، يحطّ منها ست ركعات وهي: صلوات المسافر. وأنشدني أبو
أحمد العسكري:

رَمَتْنِي بنجلاوَيْنِ مَنْ ترميانه بسهمها شدّت عليه التمام

وشقّت سحاباً فيه سبعون أنجماً وشمس تولّتهنّ عشر نواعم

التجلاوان: العيتان يقول من أصابته بطرفها جن، والسحاب: أراد به أنّها حلّت
أزرارها جعل الغطاء كالسحاب والأنجم اللآلئ، والشمس منه كالقلادة من فضة أو ذهب
وأراد بالعشر النواعم الأصابع وأنشد:

سته إخوة وأختٌ شريفةٌ هي في دارنا ودار الخليفة

يعني أيام الأسبوع.

البابُ الثامن والعشرون

في ذكر أسماء الأوقات لأفعالٍ واقعة في الليل والنهار
وأسماء لأفعال مختصة بأوقات في الفصول والأزمان

يوم العداد: يوم العطاء والقرض. لذلك قيل: عداد فلان في بني فلان أي ديوانه.
قال ابن الأعرابي: العداد: الوقت الذي تتهيج فيه أوجاع البطن. والعداد الرُّبع من الحمى
وأنشد:

يلاقني من تذكر آل ليلي كما يلقي السليم من العداد
وفي الحديث: «وما زالت أكلة خبير تعادني فهذا أوان قطعتُ أبهري» أي يأتيني الأذى
منها لوقتٍ معلوم. (والعداد): الليلة التي يناح فيها على الميت من كل أسبوع.
وعدة المرأة: أيام قُرْئها.

والصُّبوح: ما يشرب صباحاً. والغبوق: ما يشرب عشاءً. ومن أمثالهم: جاء فلان
وقد أحيل صبوحة على غبوقه، إذا صرف عن رأيه وأمره. ومثله: جاء فلان وقد قتلت ذوائبه
وفت في عضده. وفي الحديث: «ما زال يفتل في الذروة والغارب» وأنشد:
ما لي لا أسقى على علّاتي صَبائحي غبائقي قيلاتي
والتحويون يحتجون بهذا في حذف حروف العطف من الكلام.

والقيل: شرب نصف النهار، وفي قصة تأبط شرّاً: شروب للقيل - يضرب بالذليل
كمغرب الخيل - وأنشد:

يا ربّ مهر مزعوق مقل أو مغبوق من لبنِ الدُّهم الرّوق.
مزعوق: أي نشيط.

والجاشريّة: شرب السّحر. يقال: أسحرنا فتجشّرنا فنحن مسحرون متجشّرون من
جشّر الصُّبح. وأنشد:

إذا ما شربنا الجاشِريَّة لم نبِلْ أميراً وإن كان الأميرُ مِنَ الأزدِ
وما يؤكل فيه اسمه السَّحور والطَّائر المستخر: إذا غَرَّدَ سحراً. والسَّحَر والسَّحرة
واحد. ويقال: صَبَحْنَاهُمْ وَغَبَقْنَاهُمْ وَغَشِينَاهُمْ وَغَدِينَاهُمْ قال عدي:

بينك فلم يلقهم حقباء

والضُّحَاء للإبل: كالغداء للنَّاس، وأوَّل وقت الغداء قبل الفجر الثَّاني، قال رسولُ الله
ﷺ للعرباض حين دعاه إلى السَّحور: «هَلِّمْ إِلَى الغداء المبارك». فالغداء والعشاء مأخوذان
من الغداة والعشي. ويقال لمن خرج في هذا الوقت: قد غدا منه، فإنَّ يقدم في هذا الوقت
لم يقل غداً، ولكن يقال: دلج إذا خرج في نصف اللَّيل، أو في أوَّلِهِ وأدلج إذا خرج في
آخِرِهِ، فإذا انبسطتِ الشَّمْسُ فإن شَتَّ سَمِيَتْ الغداء ضحَاء. ويقال: ضح إيلك، أي غدها
وسمى ضحَاء لأنَّهم يضْحون للشَّمْس وفي القرآن: ﴿لَا تَنْظَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [سورة طه،
الآية: ١١٩] أي لا تعطش ولا تصيِّتُكَ الشَّمْس. وبناء الفعل من هذه الأفعال قياسه مطَّرد وفي
أظماً الفعل والظماء ما بين الوردتين، يقال: وردت الإبل الرِّبع والخمس إلى العشر ومن هذا
قول الكُميت:

وذلك ضَرَبُ أخماسٍ أريدَتْ لإسداسٍ عسى ألا تكونا

هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلرَّجُلِ يَتَعَلَّلُ بغيرِ علَّةٍ يُظْهِرُ لكَ شيئاً ويريد غيره، والذي يريد شيئاً
يتوصَّلُ إليه بغير وجهه، ويخيَّلُ عنه صاحبه. ووردت الماء ظاهره أي وردتْ كُلُّ يوم نصف
النَّهار.

والغِب: أن يَرِدَ يوماً وَيَدَعُ يوماً، وكذلك الغِب في الزَّيَارَةِ. وفي الحديث: «رُؤِ غِبًّا
تَزِدُّ حَبًّا» ومنه قيل: أَغْبَ اللَّحْمُ أَغْبَاباً، وَغَبَ غُبُوباً إذا أروح ولحم غاب ومغب. وحكى
أبو زيد: لأضربنَّك غِبَ الحمار وظاهره الفرس. وَغَبَ أَنَّهُ يَرعى يوماً ويشرب يوماً.
والظَّاهِر أَنَّهُ يشرب الفرس كُلَّ يوم.

ويقال: أَفْضِينَا اليَوْمَ: إذا شربت الإبل قليلاً قليلاً، وأشربنا إذا رُوِيَتْ إبلنا. والغِب في
الورود: معروف، ولا يقال: بَدَلَهُ الثَّلَث، كما قيل الرِّبع. والورد يوم الحمى، ويقال: هو
مورود. والقلد: يوم يَأْتِي فيه المثلثة. والقَد أيضاً أن يُمَطَّر النَّاسُ مِنَ الأسبوع في يوم معلوم
ثلاثاً أو أربعاً أو أحد الأيام.

ويقال: هو مربع ومربوع في حمى الرِّبع. قال الهذلي:

مِنَ المَرَبِيعِينَ وَمِنَ آزِلٍ إذا جَنَّهُ اللَّيْلُ كَالنَّاحِظِ

والقلع: وحوادها أن يعاود وينقطع مرةً بعد أخرى، وهذا كما قال النابغة في صفة السليم: تطلقه طوراً وطوراً تراجع. والشرح: المال يسأم في المرعى.

يقال: سرح القوم إبلهم سرحاً وسرحت الإبل، والمسرح مرعى السرح ولا يُسمى سرحاً من المال إلا ما يُغذى به ويراح، والجميع السروح ويكون السارح اسماً للقوم الذين لهم السرح، نحو الحاضر والسامر وهما للجميع. وأنشد في ذلك:

سواءً فلا جَذَبَ فيُعَرِّفُ جَدْبُهَا ولا سارحٌ فيها على الرِّغْيِ يَشْبَعُ
وقال: أم حصان لم تكن أمة في الحي ترعى سارح الغنم. قال أبو بكر الدريدي، وفي دعاء الاستسقاء: قَلَدْتَنَا السَّمَاءُ قَلْدًا قَلْدًا أَي: ورداً ورداً، ويقال: صارت الحمى تحاوذنا بالزيادة، أي يتعهدنا بين الأيام.

والغداء والعشاء معروفان. وقيل لبعضهم: ما المروءة؟ قال: إصلاح المال والرِّزَاق في المجلس. والغداء والعشاء بالأفنية. وما يتعلل به قبل الغداء السلفة والعجلة واللَّهْنة. قال: عجيز عارضها، منفل، طعامها اللَّهْنة أو أقل. ويقال: لَهِنُوا ضيفكم أي قَدِّمُوا إليه ما يتعلل به قَبْلَ إدراك الغداء. والقليلولة: نوم نصف النهار، ويقال: فلان يعيشو إلى نار فلان: إذا جاءها ليلاً وذلك لما يغطي بصره من الظلمة. وقال:

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشَوْ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ
ومنه: أوطانه العشوة إذا حربه بالباطل، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَغْشَيْتُ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [سورة يونس، الآية: ٢٧] ويقال للأكلة في اليوم والليلة: الوجبة والوزمة، وقد وجب والوزمة: وقد وجب نفسه وعياله وتوجَّب بنو فلان، وما يجلب بنو فلان إبلهم وغنمهم الأوجبة والأوزمة وأنشد:

عَلِقْتُ عَجُوزَهُمْ إِذَا هِيَ أَظْلَمَتْ بالجاشرية مثل وزمة درهم
والجاشرية: شربة في السحر على غير طعام ومنه قوله:

وندمان يزيد الكأس طيباً سقيت الجاشرية أو سقى لي

ومن كلامهم: مَنْ أَكَلَ الوجبة أو الوزمة لم يمعد، والممعد: الذي يشتكي معدته ويقال: أتيت آينة بعد آينة، على وزن عاينة أي تارة، وأتيت بعد أين ويهمزون الأين ولا يهمزون وأنشد:

تَرَى قَوْرَهَا يَغْرِقْنَ فِي الْآلِ مَرَّةً وآينة يخرجن من عام ضحل
وحكى الأصمعي قال: قيل للرجل أسرع في مشيه: كيف كنت في سيرك؟ قال: كنتُ

في ذكر أسماء الأوقات لأفعال واقعة في الليل والنهار

أكل الوجبة - وأنجو الوقعة - وأعرس إذا أفجرت - وأرتحل إذا أسفرت - وأسير الوضع - وأجنب الملح - فجتكم لمسي سبع - قوله: أنجو الوقعة: أي أقضي الحاجة في اليوم مرة يعني إتيان الخلاء. ويقال: أنجا ونجا جميعاً. والملح ضرب من السَّير وهو أشدُّ من الوضع، واختار الوضع على الملح لثلاً ينقطع سيره.

وقد قيل: شرَّ السَّير الحقيقية - ويقال: جزم حزم إذا أكل أكلة في اليوم واللييلة.

ويقال: ما زال يتمهق إذا شرب يومه أجمع.

ويقال: تهقَّعوا أوردًا: أي وروداً كلهم.

والتحيين: حلب الناقة مرة في اليوم واللييلة. وأنشد:

إذا أفنت أرمي عيالك أفنها وإنَّ حينث أربي على الوطب حينها
قال: الأصل الحينة، وهو أن يأكل في اليوم مرة.

ويقال للمروس إذا غشيها زوجها: هذه ليلة فضتها أي ليلة اقتراعها. الكسائي يقال: أمرجت الدابة في لغة بني تميم وغيرهم، يقول: مرَّجتها قال العجاج:
رعى بها رعي ربيع ممرجاً، وعيَّلتها وأسمتها، كلَّ ذلك إذا أهملها في المرعى نهاراً،
فإذا كان بالليل قيل أنفَّسها. قال:

أجرش لهاباً بن أبي كباشٍ فما لها الليلة من أنفاسٍ
غير السرى وماتق نجاش

والفعل لها نفشت، ولا يستعمل إلا بالليل، وفي القرآن: ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾
[سورة الأنبياء، الآية: ٧٨].

وكذلك النَّشر أن ينشر الغنم بالليل فترعى، وإذا أرسلت فرعت قيل: صبت الإبل
نصبوا. قال شعراً:

إذا ترؤحن من الإعياء بالليل لا يصبون في عشاء

ويقال: فلان قنفذ ليل: أي يدور في الليل ولا ينام، والقنفذ لا ينام. وهذا كما أنَّ
القطرب دوية تقطع نهارها بالمجيء والذهاب. وفي الحديث: «لا يبيتن أحدكم جيفة ليل
وقطرب نهاراً» قال:

قومٌ إذا دَمِسَ الظَّلامُ عليهم حدجوا قنَافِذَ بالنَّيمَةِ تمزَع

والدَّلجة: السرى من أوَّل اللَّيْلِ إلى آخره. وفيل: دلج اللَّيْلِ: سار من أوَّل اللَّيْلِ، وأدليج: سار من آخره. قال أبو حاتم: أو بعدَ نومٍ ينامها.

والتعريس: التزول في آخر اللَّيْلِ، كما أنَّ التغوير في آخر النَّهار. وهذا كما أنَّ الاقتحام من أوَّل اللَّيْلِ، والاهتجام في آخره.

ويقال: بلغ الأمر نياه: أي وقته. ثم قيل: طال به الأناء مقصوراً، فإنَّ فتحت مددت الألف، وأنشد الحطيئة:

وأتيتُ العشاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشعرى فطالَ بي الأناءُ

وحكى أبو نصر عن الأصمعي: أنَّ أنه: أي حان حينه، وأنى له أن يفعل كذا يأتي أنياً. وأن يثن أنياً. وأنشد التريدي: قال أنشدني أبو حاتم عن الأصمعي: أونوا فقد آن عليها الطلح. وقال: وهذا من الأون الرَّفَق - يقال: إنَّ يُؤَنَّ أوناً، وكان الواجب أن يقول: أونوا على الطلح فقد آن، أي ارفقوا بها فقد أعينَ.

والتأويب: السير من غدوة إلى اللَّيْلِ. قال الزَّاجز:

كَأَنَّ غَرَّ مَتْنِهِ إِذْ نَجْتَبِهِ سير صنایحٍ في حزيرٍ نكلبه
من بعد يومٍ كاملٍ نؤوبه

غَرَّ المتن: طريقته. يقال: إنها تبرق كأنها سير في حزر.

ويقال: فلان على جول فلان إذا كان على سته، وهو سوغه أي طريده، وُلِدَ بعده ليس بينهما وَلَد، وهم أسواغه.

يقال: هو سته وتته: أي مثله وقرنه.

والملى والمعك والمدالك والمطل: تأخير قضاء الدين عن وقته ومطله.

ويقال: لقيته أوَّل وهلة وواهلة ووهلة - وأوَّل ذي أوَّل - وأوَّل صوك وبوك - أي قبل كل شيء وقبل كل أحد.

وقال يونس: أقامت امرأة فلانٍ عنده: يعني امرأة العنين رَضَّتْها إذا أقامت عنده حولاً ثم فَرَّقَ بينهما. ويوم الطلُق ويوم القرب. قال الأصمعي: سألتُ أعرابياً عن القرب، فقال: سَيَّرَ اللَّيْلَ لِرُؤُودِ الْغَدِّ، ويقال: ناقة طالق: مِنَ الطَّلُق، وقارب من القرب.

قال: أسد وكلب: يسمون صلوة المغرب صلوة الشَّاهد، وغيرهم من العرب يُسمي الفجر: صلوة الشَّاهد وأنشد:

فصَبَخْتُ قَبْلَ الْأَذَانِ الْأَوَّلِ تيماءً والصُّبْحُ كَسَيْفِ الصَّنِيقْلِ
قبل صلاة الشَّاهِدِ المُسْتَعِجِلِ

وأنشد غيره: بين الظَّلامِ وصلوة الشَّاهد. وأنشد ابن الأعرابي:

يَا حَبَّذَا قَوْلَهُمْ أَبِيلُوا وَعَرَّسُوا فَقَدْ دَنَا الْمُقْبِلُ

يقول: إذا أَبَالُوا الإِبِلَ اجتمعت فأمكن السَّلام والمصافحة، واستراح العسيف.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: المُسْتَمِي: الطَّالِبُ لِلصَّيْدِ نِصْفَ النَّهَارِ، وَالسَّامِي مثله. وقال
الأصمعي: هو الطَّالِبُ الصَّيْدِ وَغَيْرِهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ، وَأَنْشَدَ:

إِذَا بَكَرَ الْعَوَازِلُ أَسْتَمِيتَ وَهَلْ أَنَا خَالِدٌ أَمَّا ضَحُوتُ
قال: أَسْتَمِيتَ أَيِ طَلَبْتَ بِكَرًا. وَأَنْشَدَ أَبُو عِيْدَةَ شِعْرًا:

وَلَيْسَ بِهَا رِيحٌ وَلَكِنْ وَدِيقُهُ يَظَلُّ بِهَا السَّامِي يَهْلُ وَيَنْقَعُ
يَهْلُ: يَسْتَحْلِبُ رِيْقَهُ يَنْفَعُهُ تَحْتَ لِسَانِهِ مِنَ الْعَطَشِ. وَقَالَ جَرِيرٌ:

بَقَرٌ أَوَانَسُ لَمْ يَصُبْ غَرَاتِهَا نَبْلُ الرَّمَاةِ وَلَا رِمَاحُ الْمُسَمِّي
(أَبُو عَمْرٍو): لَيْلَةُ شِيَاءٍ: هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يَقْتَرِعُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فِيهَا وَأَنْشَدَ:

كَلِيلَةُ شِيَاءٍ الَّتِي لَسْتُ نَاسِيًا وَلَيْلَتُنَا إِذْ مَرَّ فِي اللَّهِوَ قَرْمَلُ
قال: الشَّيَاءُ الضَّعِيفَةُ، وَالْأَشْيَبُ: الضَّعِيفُ، وَقَالَ قَطْرِبُ: لَيْلَةُ الشَّيَاءِ الَّتِي يَفْتَضُّ
الرَّجُلُ فِيهَا أَهْلَهُ ثُمَّ أَنْشَدَ شِعْرًا:

وَكُنْتُ كَلِيلَةَ الشَّيَاءِ هَمَّتْ بِمَنْعِ الشُّكْرِ آتَمَهَا الْقَبِيلُ

آتَمَهَا: صَيَّرَهَا أَتَمًّا، وَهِيَ الْمَفْضَاةُ الَّتِي صَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا. وَالْقَبِيلُ: الَّذِي يَقَابِلُهَا
فِي الْجَمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: الشَّيَاءُ يَمْدُ وَيَقْصُرُ، وَقَالَ الْأَسَدِيُّ: بَاتَتْ بَلِيلَةُ شِيَاءٍ عَلَى الْإِضَافَةِ
وَبَلِيلَةُ شِيَاءٍ بِالتَّنْوِينِ، وَضَدَّهَا لَيْلَةُ حَرَّةٍ.

وَحَكَى ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: قَالَ سَأَلْتُ أَبَا الْمَكَارِمِ عَنِ الصَّوْصِ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ
وَحْدَهُ، وَيَأْكُلُ وَحْدَهُ بِالنَّهَارِ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَكَلَ فِي الْقَمَرَاءِ ثَلَاثًا يَرَاهُ الضَّيْفُ. وَأَنْشَدَنِي:
صَوْصُ الْغَنِيِّ مَدَّ غَنَاهُ فَقَرَّه. مَدَّ غَنَاهُ فَقَرَّه: يَعْنِي فَقَرَّ النَّفْسَ يَمْتَنِعُهُ مِنَ الْكَرَمِ. وَأَنْشَدَ أَيْضًا
شِعْرًا:

يَا رَبَّ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قِلَاصٍ يَأْكُلُ تَحْتَ الْقَمَرِ الْوَبَاصِ

باهرةً باتت على أدراسٍ

الأدراس: ولد الفأر، ويقال: فصيل صيفي، وفصيل ربيعي، وما تنتج بعد سقوط الغفر إلى أن يمضي، يقال له هبع وسُمِّي هبعاً لأنَّ الصَّالَ الرَّبِيعَةَ أكبر منه وقد قويت، فهو لا يلحقها إذا مشت لأنها أدرع منه فيهب في مشيه، والهبع والهبعان شبيهة بالإرقال.

وقال ابن قينة: الشرب في نصف النهار: القيل، ولم يبلغني عنهم اسمٌ للطعام في هذا الوقت، فإذا زالت الشمس وصار الظل فيثاً فهو إرواح. ولهذا قيل في يوم الجمعة: راحوا إلى المسجد، ويرى أهل النظر أنَّ الزَّواح مأخوذٌ من الزَّوح لأنَّ الزَّيح تهب مع زوال الشمس. قال لبيد: راح القطبين بهجر ما ابتكروا، فجعل الزَّواح في الهاجرة.

ثم يكون الأكل بعد الهجير عشاءً، لأنَّه يكون بالعشي. والعشي إلى سقوط القرص.

ثم يكون المساء بعده إلى عتمة الليل. وليس يزيل المساء العناء.

قال شعراً:

وَأُنِيَّتِ الْعِشَاءُ إِلَى سَهِيلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَطَالَ بِي الْأَنْاءُ

وقال أحمد بن يحيى: (التعريس): بالليل والنهار. و (التَّهْوِيم): بالفجر (وَقَعُوا وَفَعَةً): ناموا نومةً.

وحكى ابن الأعرابي أنَّ أحدنا يجزم الجزمة أي يأكل في النهار مرّةً.

وحكى أيضاً: أنَّ أحدنا لِيُدْغَلِجْ دَعْلَجَةَ الْجَرْدِ، والدَّعْلَجَةُ الذَّهَابُ والمجيء في الأكل. قال: يأكل دَعْلَجَةَ وَيَشْبَعُ مِنْ عَفَاءٍ.

ويقال: ناقة مسحقة: إذا أسحقت أيام سستها منذ يوم ولدت، وناقة مسحقة إذا استحقت سمناء، واستبان ذلك فيها، ومستحقة لإرسال الفحل عليها.

ويقال: أرخ إبلك عليك: أي بيتها عندك وأغريها بيتها في الكلاء. ويقال: في معنى أرح روح أيضاً، قال كعب بن سعد شعراً:

وَقَوْرٌ فَاهٍ حِلْمُهُ فَمَرْوَحٌ عَلَيْنَا وَأَمَّا جَهْلُهُ فَقَرِيبُ

وهذا من كلامه مثل، يريد أنَّ حلمه يعطف عليهم، وجهله يغرب عنهم، والمعنى لا

جهل.

ثم قال الأصمعي: التَّجْمِير: طول الإقامة في الثَّغُور، قال ولا لغازٍ إنَّ غزا لجمير.

قال أبو عمر: والتَّغْمِير: أن يدب الأعرابي في اللَّيْلَةِ المقمرة إلى النساء. والتَّاطِير: أن

تبقى المرأة في دار أبويها زماناً لا تتزوّج . وأنشد المفضل :

تأطّرَنَ حتّى قيل لسنّ بوارِحاً وذبنَ كما ذابَ السّديفُ المسرهُدُ

ويقال : باتت المرأة : إذا تحوّلت من دار أبويها إلى دار زوجها . وأنشد لكثير عزة :

وإنّي لأستأنّي ولولا طماعةٌ لعزّةٌ قد جمّعت بين الضّرائر

وهمّت بناتني أن يبتنّ وحمت وجود رجالٍ من بني الأصاغرِ

فإذا تحوّلت يقال لها عانق وقد عنت . وأنشد ابن الأعرابي :

ضح قليلاً يلحق الدّاريون . ويقول : ارع إيلك ضحى ، وهذا مثل أي كُفٍّ عن الطرد

حتى يلحقك أصحاب الدّور ، وهذا تفسير ابن الأعرابي .

البابُ التاسع والعشرون

في ذكر الرِّياح الأربع ، وتحديد مهاجتها ، وما عدل عنها

وهو فصلان

الفصل الأول

قال أبو سعيد: أخبرنا أبو الحسن الطوسي: حَدَّثَنَا ابن الأعرابي عن الأصمعي وغيره . (قالوا): الرِّياح أربع: الجنوب - والشَّمال - والصَّبا - والدَّبور - قال ابن الأعرابي وكلَّ رِيح بين ريحين فهي نكباء والجمع نكب .

فأَمَّا مَهْجُءٌ: فابن الأعرابي قال: (مَهْجُءُ الجنوب) من مطلع سُهَيْل إلى مطلع الثَّريا .

والصَّبا: من مطلع الثَّريا إلى بنات نعش .

والشَّمال: من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر .

والدَّبور: من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل .

والنكب: كلُّها داخلة في هذا القول في الأربع .

قال: والجنوب والدَّبور لهما هيف . (الهيف): الرِّيح الحارة . قال: والصَّبا والشَّمال

لا هيف لهما، والعرب تجعل أبواب بيوتها حذاء الصَّباء ومطلع الشمس .

وقال الأصمعي: ما بين سهيل إلى حرف بياض الفجر جنوب، وما بإزائها مما

يستقبلها من الغرب شمال .

وما جاء من وراء البيت الحرام: فهو دبور، وما جاء قبالة ذلك فهو صباء والصَّباء

القبول . قال: وإنما سُمِّيَتْ قبولاً لأنَّها استقبلت الدَّبور . وقال المبرد: سُمِّيَتْ قبولاً لأنَّها

لطيفها تقبلها التقوس .

وذكر أبو يحيى بن كناسة أنَّ خالد بن صفوان قال: الرِّياح أربع: (الصَّبا) ومهَّجها ما

بين مطلع الشرطين إلى القطب. (ومهب الشمال) ما بين القطب إلى مسقط الشرطين. (ومهب الدبور) ما بين مسقط الشرطين إلى القطب الأسفل. و (مهب الجنوب) ما بين القطب الأسفل إلى مطلع الشرطين.

وحكي عن جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب أنه قال: الرياح ست: القبول؛ وهي: الصبا - والدبور - والشمال - والجنوب - والنكباء - وريح سادسة يقال لها محوة.

ثم فسر ذلك فجعل ما بين المشرقين مخرج القبول وهي الصبا. وجعل ما بين المغربين مخرج الدبور. وجعل ما بين مشرق الصيف إلى القطب مخرج النكباء. وجعل ما بين القطب إلى مشرق الصيف مخرج الشمال، وجعل ما بين مغرب الشتاء إلى القطب الأسفل مخرج الجنوب. وجعل ما بين القطب الأسفل إلى مخرج الشتاء مخرج محوة.

قال أبو يحيى: الناس على قول خالد: فالقبول هي المشرقية لأنها من قبل المشرق تجيء. قال:

إذا قلت هذا حين أسلو يشوقني نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر
والدبور: تناوحها وهي الغربية. قال أبو حنيفة؛ وهاتان الريحان على ما ذكرنا في جميع الأرض.

فمهب الصبا بكل بلد من قبل مشرقه. ومهب الدبور من قبل مغربه. وكذلك الريحان الآخران مهبطهما بكل بلد من جهة القطبين. فأما قولهم للجنوب اليمانية وللشمال الشامية فلأن مهبطهما كذلك هو بالحجاز ونجد فالشمال تأتيهم من قبل الشمال. والجنوب من قبل اليمن.

وليس ذلك بل لازم لكل بلد لا يكون الشمال ببلاد الروم شامية ولا الجنوب ببلاد الزنج يمانية، فاعلموا ويقال: هبت الريح تهب هبوباً.

وحكي عن بعض العرب: أن الريح لشدة الهبوب. ويقال: جنبت الريح تجنب جنوباً. ومن الشمال شملت الريح تشمل شمولاً. وصبت تصبو صبواً وصباً. وقبلت تقبل قبولاً وقبلاً. ودبرت تدبر دبوراً.

ويقال في الشمال: شمال وشامل وشمل وشميل وشمول، ويقال: هبت الشمال وهبت شمالاً، وهبت ريح الشمال، وهبت ريح شمال. قال جرير شعراً:

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم إلى الصفا إلى شرقي حوراننا

وجعل قوله شمالاً صفةً، ونصبه على الحال.

وقال:

وهَبَّتِ الشَّمَالُ البَلِيلُ وَإِذْ بَاتَ كَمِيعِ الْفَتَاةِ مُلْتَفِعَا

وَيُسَمَّى الْجَنُوبُ: الْأَزِيبُ، وَيُسَمَّى النَّعَامَى، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ:

مَرَّتْهُ النَّعَامَى فَلَمْ يَعْتَرَفْ خِلَافَ النَّعَامَى مِنَ الشَّامِ رِيحَا

وَتُسَمَّى الشَّمَالُ مَحْوَةً، وَيُقَالُ: هَاجَتِ مَحْوَةٌ غَيْرَ مَجْرَاهُ، وَتُسَمَّى الْجَرِيَاءُ. قَالَ ابْنُ

أَحْمَرَ:

بَوَادٍ مِنْ قَسَا ذَفَرِ الْخُزَامِيِّ تَدَاعِي الْجَرِيَاءُ بِهِ الْحَنِينَا

وَأِنَّمَا سُمِّيَتْ مَحْوَةٌ لِأَنَّهَا تَمْحُو السَّحَابَ: تَكْشِفُهُ وَتَذْهَبُ بِهِ، وَيُقَالُ: أَصْبَحَتِ السَّمَاءُ

صَحْوَةً مَحْوَةً إِذَا انْمَحَى مَا عَلَيْهَا مِنَ السَّحَابِ.

قَالَ أَبُو زَيْدٍ: مِنْ أَسْمَاءِ الدَّبُورِ: مَحْوَةٌ وَالْقَفْوَاءُ. وَعِنْدَ الْأَصْمَعِيِّ: مَحْوَةٌ اسْمٌ لِلشَّمَالِ

وَيُسَمَّى أَيْضاً مَسْعَاً وَنَسْعَاً. قَالَ شُعْرَاءُ:

قَدْ حَالَ دُونَ دَرِيسِيهِ مَاؤُوبُهُ تَسْعُ لَهَا بَعْضَاةُ الْأَرْضِ تَهْزِيزُ

وَيُقَالُ: أَجْنَبْنَا وَأَشْمَلْنَا وَأَدْبَرْنَا وَأَصْنَبْنَا أَيْ دَخَلْنَا فِيهَا، وَكَذَلِكَ أَرَحْنَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنَّهَا

أَصَابَتْنَا قُلْتَ: قَبَلْنَا وَصَبِينَا، فَتَحْنُ مَصْبُؤُونَ وَمَصْبِيُونَ وَجَنَبْنَا وَدَبَرْنَا وَرَحْنَا فَتَحْنُ مَرِيحُونَ.

قَالَ:

غَيْرَ دَرَسْتَ غَيْرَ رِمَادٍ مَكْفُورٍ مُكْتَتَبِ اللَّوْنِ مَرِيحٍ مَنُظُورٍ

وَقَالَ آخَرُ: مَجْنُوبَةُ الدَّلِّ مَشْمُولٌ خِلَافُهَا.

وَخَالَفَ الطَّرْمَاحُ أَكْثَرَ الْعَرَبِ فَجَعَلَ الْهَيْفَ فِي الْبَرْدِ فَقَالَ:

وطفأ سارية وهيف مبرد

وقال أبو زياد يقول: إِذَا كَانَ يَوْمَ رِيحٍ هَذَا يَوْمٌ هَائِفٌ طَيِّبٌ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: ذَهَبَتْ

هَيْفٌ لِأَدْيَانِهَا. وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

أَهَاضِيبُ أَنْوَاءٍ وَهَيْفَانُ جَزَتَا عَلَى الدَّارِ أَعْرَافَ الْجِبَالِ الْأَعَاظِرِ

وَالثَّالِثَةُ تَهْوِي مِنَ الشَّامِ حَرَجَفٌ لَهَا سَنَنٌ فَوْقَ الْحَصَى بِالْأَعَاصِرِ

وَرَابِعَةٌ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ أَجْلَقَتْ عَلَيْهَا بِدَقْعَاءِ الْمَعَا فُقَرَاظِرِ

فَذَكَرَ الرِّيَّاحَ الْأَرْبَعَ كُلَّهَا فَجَعَلَ الْجَنُوبَ وَالْذَّبُورَ مِنْهَا يَحْيِي الْخَيْرَ، وَهُمَا الْهَيْفَانُ -

وقال الزاعي: وذكر ريح الشتاء فغلب عليها الشمال لأنها أشد رحي الشتاء برداً:

وهبت بأرواح الشتاء عليهم شمالاً يؤدي الرّائحات نسيماً
وقال أوس في مثله:

وعزّت الشمال الرّياح وإذ بات كميع الفتاة مُلتفعا
وقال أيضاً:

وغداة ريح قد وزعت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
ومن صفاتها عند هبوبها وقد اشتدّ خزيق قال جميد:

بمئوى حرام والمطي كأنها قنا مسند هبّت لهنّ خزيق
والنافجة: أول كل ريح إذا اشتدت، قال ذو الرمة:

يسنّ في ظلّ عراض ويطرد حفيف نافجة عثونها خضب
وريح نوج: شديدة، قال العجاج: وأخذته النافجات مناجاً.

وريح سيهواء وسيهوج: سريعة المر، شديدة القشر للأرض. وقال رجل من بني سعد شعراً:

يا دار سلمى بين دارات العوج جرّت عليها كل ريح سيهوج
وقال ذو الرمة:

وصوح البقل ناح يجيء به هيف يمانية في مرّها نكب
وريح زفzf: لها صوت كزفزة الظليم. وريح هدوج تسمع لها هدجة، وريح هفافة والهفافة سرعة المرّ. وريح ريدة رادة وريدانة من راد يرود. قال ابن ميادة:

أماجك المنزل والمحضر رادت به ريحانة صرصر
وقال آخر: جرّت عليها كل ريح ريدة. وقال ابن أحرر:

ولّهت عليها كل معصفو هوجاء ليس للبا زبر

قوله ليس للبا زبر: مثل يقال للرجل إذا كان ذا رأي وحجى إنّه لذو زبر وذو جول والزبر طي البير بالحجارة.

والسموم: الرّيح الحارة بالليل والنّهار. والحرور مثلها. والسّمام: الرّيح الحارة وهي

السَّموم. ويقال: يوم ذو سمائم، ولا يقال: يوم ذو حرائر وليلة سموم وليلة ذات سموم.

وحكى ابن الأعرابي: يوم سام ومسم. ويقال: حرَّ يومنا، وحرَّث ليلتنا وهو يحرق ويحرق حكاها جميعاً ابن الأعرابي واللَّحياني، وقد حرَّرت يا يوم وحرَّرت يا رجل. وأنت تحر حرارةً وحرّةً. ورجل حرَّان، وامرأة حرّى من العطش. وقوم حراري وحرارى وحرار. ونسوة حريات وحرارى. وقد قرَّ يومنا، وهو يقر مرفوعة القاف ولغة قليلة يقرُّ.

واللَّجوج: الدَّائمة الهبوب لا تكاد تسكن.

والرياح: اللّواحق تثير السحاب بإذن الله وتلقح الشجر. والذَّاريات التي تذر التراب. والعقيم: التي لا تلقح السحاب. والرَّهَاء والرَّهْو: جميعاً اللَّيْنة، وقد رعت ريحها أي سكنت بعد شدة. والشَّفان: الرِّيح الباردة، وإنَّ ريحها لذات شفان، وأمست ريحها تشف شفيفاً إذا اشتدَّ بردها، ويقال: ليلة شفان. وقال:

وليلة شفان بأرض كريمة أقمتُ بها صَحبي ولمَّا أعْرُس
أي أقمتهم على السير

والحرجف: الباردة. ويقال: ليلة حرجف وريح حرجف للشديدة الهبوب. والجيلان: التي تجيل الحصى. ويقال: ريح ذات جيلان وريح جائلة. والعجاج: الغبار وعجَّ يومنا بعجاج، وريح عجاجة وذات عجاج. والإعصار: التي ترفع التراب لشدة هبوبها بين هبوبها بين السماء والأرض، وإنمّا هي في مكان واحد. وقد عصرت الرِّيح بأعاصير وريح معصر.

والهباء: التراب الذي تطيره الرِّيح، تراه على وجوه النَّاس وثيابهم والهبوة: الغبرة تراها في السماء. ويقال: إنَّ يومنا لذو هبوة ولا يقال: أرى في السماء هباءً، ولا يومنا ذو هباء، ولكنَّ ذو هبوة إذا كانت الرِّيح تجيء بتراب مثل الزَّريرة. والغبرة: الغبار وقد اغْبَرَّ يومنا، ورجل مَغبر في حاجته إذا قصد لها وَجَدَ فيها. وقد أَقْتَمَ يومُنا، ويوم ذو قتام، وفي السَّماء قُتمة وغبرة ويقال: قُتمة أيضاً.

قال الأصمعي: والحرجوج: الدائمة الهبوب المتמادية، والصَّر: القر بلا ريح. ويقال: يوم صر، وليلة صر وليلة صر. والهوجاء: الشديدة كأنَّ فيها هوجاء. والتَّسيم: الزَّويد وقد نسَمَتْ وتنسمها وريح ذات نسيم. والرَّامسات: التي تعفي الآثار، وترمس الحجرة، أي تدفنها. والسَّافية: التي تسفي التراب ويوم ذو سافياء، وريح قاصف تكسر ما تمر به. والمجافيل: الشَّداد يجفلن الشجر وريح جافلة: والمور العجاج والحاسة الباردة تحرق النَّبات.

والبارح: الشديدة تجيء في القيظ. ويقال: إِنَّ يومنا لبارح. وريح حاصبة وضربتنا بحاصب.

والنَّافجة: ينتفج برد.

والخجوج: الشديدة الهبوب ولا تكون إلا في القيظ، وقد خَجَّتِ الرِّيحُ خجيجاً. والهارية: الشديدة البرد. قال الكُميت:

نُبَارِي الرِّيحَ مَا هَرَأْتُ وَفِتْنَا لَأَمْوَالِ الْغَرَائِبِ ضَامِنِينَ
نصب ضاميننا بفتنا، ومعنى: فِتْنَا: رجعنا ويروى وقننا كأنه قال: وقننا لأموال الغرائب ويتنصب ضامين على الحال كما يقول: وقينا السَّماحة والهارية.

والبليل: والحاسة في الشتاء ويقال: أصابتنا ريحٌ لبيل، ويوم لبيل، وليلة لبيل أي باردة، وإن لم يكن فيها ريح.

والتَّعور: التي تفجأك ببردٍ وأنت في حرٍّ، أو بحرٍّ وأنت في بردٍ. والهدوج: التي تزعزع كلَّ شيء.

ويقال: راح يومنا يراح: إذا اشتدَّت رِيحه، ويوم راح وريح. ويقال: سكنت الرِّيح وفترت وسجت. فأما قول ذي الرِّمة وهو يصف قفراً شعراً:

إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الصَّبَا دَرَجَتْ بِهِ غَرَائِبُ مِنْ بِيضِ هَجَائِنِ دَرْدُقٍ
فلَئِمَّا اكْتَفَى بِذِكْرِ هُبُوبِ الصَّبَا لِأَنَّهُ عِلْمُ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ دَرَجَتْ بِهَذَا الْبَلَدِ خِفَانِ النَّعَامِ، وَالنَّعَامُ لَا تَوْطِنُ إِلَّا الْقَفَرَ الْبَعِيدَ مِنَ الْإِنْسِ. وَكُلُّ مَوَاطِنِ النَّعَامِ. فَالْخِفَانُ فِيهِ فِي الشِّتَاءِ مَوْجُودٌ لِأَنَّهَا تَبْتَدِئُ الْبَيْضَ فِي الْوَشْمِيِّ. وَقِيلَ: الشِّتَاءُ أَكْثَرُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

حتى. إذا الهيقُ أمسى شامُ أفرخه	وهنَّ لا مؤيس نابا ولا كتبُ
يرقد في ظلِّ عراصي ويطردهُ	حفيفُ نافجةٍ عثنونها خُضبُ
تبرى له صلعةٌ خرجاء خاضعةٌ	فالخرقُ دون بياضِ البيتِ منتهبُ
ويل أمُّها روحةٌ والريحُ معصفهٌ	والويل مرتجزُ واللَّيلُ مُغترِبُ
لا يأمنان سباعَ اللَّيلِ أو بردا	إنَّ أظلمًا دون أطفال لها لُجُبُ

ويقال: عصفتِ الرِّيحُ وأعصفت، وفي القرآن: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ١٨] فهذا شأنُ الرِّياحِ والبلادِ والمواطنِ من بعدِ يختلف، فربَّ بلدٍ يكون تأذي أهله

يلحدي الرياح أشد من تأذيها بسائرها، ويكون بعضها أوفق لهم وإن كانت أكرهاها إلى غيرهم، كالذي يذكر من أنَّ الجنوب أحب الرياح إلى أرض الحجاز في الشتاء والصيف، ذكر ذلك أبو الحسن الأثرم.

وعكاك: الجنوب يتعوذ غيرهم منها قال ذو الرمة شعراً:

إلى بلد لم يتجفَّه بعكَّة جنوب ولم يغرس بها النخل غارسُ

. وكالذي ذكره ابن الأعرابي عن الروحي من تأذي أهل سابة والشارة ونواحيها بالصبا، وكرهتهم لها، وأنها إذا اشتدَّ هبوبها عندهم طوى الناس وطابهم، لأنَّ الألبان تقل، والوطاب تجف لأنها ترضع في ضروع الغنم أي ينشفه، ومنزلهم بين مكة والمدينة، هذا وإن كان الآخر قال:

فإنَّ الرياح طيبة قول. وقال طرفة:

وأنت على الأقصى صبا غير قرّة تذاب منها مزرع ومسيلُ

وقال آخر:

فإنَّ الصبا ريح إذا ما تسَمَّت على كبد حرى تجلَّتْ غموؤها

وزعم ابن الأعرابي أنَّ الجنوب إنما يشتدَّ حرُّها بالعراق، فأما بالحجاز فلا. وأنشد قول كثير:

جنوبٌ تسامى أوجه الركب مسَّها لذيذٌ ومسراها من الأرض طيبُ

وهذا من حال الرياح في دارنا وأوطاننا متعالم أيضاً، وكما اختلف في هذا الباب اختلف في الأمطار أيضاً، ولا زعم من ذلك ما ذكر عن أبي عبيدة أنه قال: الشمال: عند العرب للروح، والجنوب: للأمطار، والأنداء واللثق والغمق والدبور للبلاء، وأهونه أن يكون غباراً عاصفاً تقذي الأعين وهي أقلهن هبوباً، والصبا لإلحاق الأشجار.

ويقال: إذا كان النشأ من العين ثم ألحقته الجنوب - وأبست به الصبا واستدرته الشمال - فذلك أجود ما يكون من المطر، وأنشد في ذلك:

لتلقيحها هيج الجنوب ويقبل الشمال تاجاً

والصبا جالب بمرى. وقال آخر:

مرته الصبا وزهته الجنوب وانتجفته الشمال انتجافاً

والانتجاف: استخراج أقصى ما فيه.

فصل

في تبين ما ذكر من كلام الأوائل في ذلك

قالوا: إِنَّ الشَّمْسَ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَرْضِ رَفَعَتْ مِنْهَا بخَارَيْنِ: بخاراً رطباً وبخاراً يابساً، وكلّ واحد من البخارين قد يخالط البخار الآخر، إلا أَنَّهُ يسمّى بالأغلب عليه منهما. فأما البخار الرّطب: فهو مادة الأمطار والأنداء كلّها.

وأما البخار اليابس فهو مادة الرّيح كلّها، وإنّما يختلف هذان البخاران لاختلاف مواضعهما التي ثارا منها. وأقلّ ما يكون هيج الرّيح بعد المطر وذلك أَنَّ الأرض تبتل بالمطر، فلا يثور منها البخار اليابس الذي هو مادة الرّيح وكذلك يكون سكون الرّيح عند المطر وعند انقضاءه.

فأما حرارة ريح الجنوب: فمن قيل أنها تأتي من ناحية ممر الشَّمْس من بلاد حارة فتسخن قبل أن تبلغ إلينا.

وأما برودة ريح الشّمال فلأنّها تأتي من بلاد الشَّمْس عنها غائبة فهي تبرّد من قبل أن تبلغ إلينا، وتمر أيضاً بثلوج كثيرة.

وأما كثرة ريح الجنوب فلتحلّل البخارات من ناحية الجنوب. والبخار مادة الرّيح.

وأما كثرة ريح الشّمال في الصّيف، وقلة ريح الجنوب، فلأنّ الشَّمْس يكون مرورها في الصّيف بناحية الشّمال، فتذيب الثّلوج الكثيرة، وتهيج البخارات من ناحية الشّمال.

وأما احتباس الرّيح وقتلها فلعلّتين. إحداها: كثرة البرودة فإنّ البرودة تجفف الأرض وتصلبها فلا يخرج منها بخار. والثّانية: كثرة الحر، فإنّ الحر يجفف الأرض ويبيسها ويحرقها فينقطع لذلك الرّيح، وربما تتابع ذلك سنين فيكون القحط منه فإذا كثر ذلك وصلب وجه الأرض اجتمعت البخارات في جوف الأرض، فلم تقدر على الخروج وأحدثت الزّلازل. فإذا كثر تلك البخارات وقويّت وظهرت ذهب القحط وعاد الخصيب.

وأما كثرة ريح الشّمال في الرّبيع: فلأنّ النّهار يمتد بعد القصر وتدنو الشَّمْس من النّاحية الشماليّة فتذيب الثّلوج هناك، فتحدث هذه البخارات التي منها يكون الغيوم والرّيح الشماليّة.

وأما كثرة هبوبها آخر الصّيف فلأنّ النّهار يقصر ويبرد الهواء فيحتقن البخارات في جوف الأرض.

فإذا كثر قويّت فظهرت رياح الشّمال، وإنّما تقوى البخارات على الظّهور لأنّ البرد

ضعيف في تلك الأيام ، فلا يقوى على منع البخارات من الخروج .

وأما كثرة ريح الشمال والجنوب وقلة ريح الصبا والدبور : فلأن الشمس لبثها في هاتين الجهتين أكثر من لبثها في خط الاستواء .

وإذا كثر لبثها في مكان عملت عملاً قوياً فأثارت بخارات كثيرة . وإذا قل لبثها في مكان عملت عملاً ضعيفاً ، ومع ذلك أيضاً فإن الشمس تصادف في هاتين الجهتين مياهاً وثلوجاً لبعدها ما بين الجهتين عن طريقة خط الاستواء ، ولست أعني بالشمال والجنوب اللذين بالإضافة فإن كل قوم يُسمون ما يلي أيماهم إذا كانوا متوجهين إلى المشرق جنوباً ، وما يلي شمائلهم شمالاً ، ولكني أعني بالشمال والجنوب اللذين عن جانبي خط الاستواء الذي هو مدار رأس الحمل والميزان .

البابُ الثلاثون

في أسماء المطر^(١) وصفاته وأجناسه وهو فصلان

فصل

قال أبو زيد سعيد بن أوس: قال القسِّيون: أوَّل المطر الوسمي - وأنواؤه العرقوتان - المؤخرتان - ثم الدلو - ثم الشرط - ثم الثريا - وبين كل نجمين نحو من خمس عشرة ليلة.

ثم الشتوي بعد الوسمي، وأنواؤه - الجوزاء ثم الذراعان ونثرتهما - ثم الجبهة وهي آخر الشتوي وأول الدفني - ثم الدفني وأنواؤه آخر الجبهة - والعواء.

ثم الصرفة وهي فصل بين الدفني والصَّيف وأنواؤه: السَّماكان الأول الأعزل - والآخر الرقيب. وما بين السَّماكين صَيْفٌ، وهو نحو من أربعين ليلة - ثم الحميم وهو نحو من عشرين ليلة، وسُمِّي حميماً لكون مائه حاراً ويختار أن يكون رعداً غير قاصفٍ، وبرقها غير خاطف، لذلك قال الشاعر:

إذا حَرَكَتْهُ الرِّيحَ أَرَامَ جَانِبٍ بلا هزقٍ منه وأومض جانبُ
كما أومضت بالعين ثم تبسَّمت خريع بدا منها جيئٌ وحاجبُ

وحكي عن أبي الوجيه أنه قال: أحب السحاب إليَّ الخرساء، والحميم نحو من عشرين ليلةً إلى خمس عشرة ليلةً عند طلوع الدبران، وهو بين الصَّيف والخريف ليس له نوء. ثم الخريف وأنواؤه التَّسران - ثم الأخضر - ثم عرقوتا الدلو الأوليان - وكل مطر من الوسمي إلى الدفيء ربيع، وإنما هذه الأنواء في غيوبه. وغيوب هذه التَّجوم أوَّل القِيظ عند طلوع الثريا وآخره طلوع سهيل.

(١) قال في كنز المدفون أسماء المطر أولها الوبل - الغيث - الدَّيْمة - الوكف - الهطل - الصَّيب - الرِّباب - المزن - الصَّوب - القطر - الرِّزق - الماء - الثَّلة - الدوق - الحياء - العهد - والله أعلم - القاضي محمد شريف الدِّين المصحح عفا عنه.

وأول الصّفرية طلوع سهيل، وآخره طلوع السماك. وفيء الصّفرية أربعون ليلةً يختلف حرّها وبردها وتسمّى المعتدلات.

ثم أول الشتاء طلوع السماك وآخره وقوع الجبهة فهو أول الدفيء وآخره الصّرفة. وأول الصّيف السماك الأعزل وهو الأول - وآخر الصّيف السماك الآخر الذي يقال له: الرّقيب - وبينهما نحو من أربعين ليلةً.

وأول أسماء المطر القطقط وهو أصغر المطر والرّذاذ: فوق القطقط. ويقال: قططت السماء وأردّت. ومنه الطّش وهو فوق القطقط والرّذاذ والفعل طشت.

ومنه البغش وهو فوق الطّش، والفعل: بغشت والغبية فوق البغشة. وكذلك الحلبة والشّجدة. ويقال: أغبت السماء فهي مغبية وحلبت حلباً وشجذت شجذاً وهو فوق البغشة. ومنه: الحفشة وهو مثل الغبية ويقال: خفشت خفشاً. والحشكة مثلها. ويقال: حشكت.

ومن المطر: الدّيمة وهي الدائم لا رعد فيه ولا برق، أقلّها ثلث النهار وثلث الليل، وأكثرها ما بلغت من العدة.

والثّهتان: نحو الدّيمة قال:

يا حبّذا تضحك بالمشافرِ كأنّه تهتانُ يومٍ ما طرِ
ومن الدّيمة الهضب والهطل، هضبت هضباً، وهطلت هطلاً وهطلاناً قال الشاعر:

ندى الرّضم من ذات المزاهر إذ جنّت
عليها هضابُ الصّيف تهضبها هضبا

ويقال: سحابة داجنة ومدجنة وقد دجنت دجناً والدّجنة من السحاب المطبق الرّيان الذي ليس به مطر. ويقال: يوم دجن ويوم دجنة. وكذلك اللّيلة توصف بهذا أو تضاف كالיום، والدّاجنة الماطرة المطبقة نحو الدّيمة. والدّجن: المطر الكثير.

ومن الدّيمة: الرّهمة وهي أشدّ وقعاً من الدّيمة وأسرع ذهباً، يقال: أرهمت السماء إرهماً وجماعتها الرّهم والرّهام.

ومنها: الهفاء واحدها هفأة وهي نحو الرّهمة، وقال الخبيري: أفا وإفاعة.

ومنها: الدثة وهي المطرة الخفيفة. والهدمة مثلها، وجماعتها الهدم والهدام والدثّ والدثاث. ويقال: أرض مدثوثة ومهدومة.

والوظفا: الدائمة السَّح، الحثيثة طالَ مطرها أو قَصُرَ.

ومنها القطر: وهو في كلِّ مطر ضعيفُهُ وقوئُهُ.

ومنها: الذَّهاب وهو اسم للمطر كلَّه ضعيفه وشديده، والرَّش المطر القليل الخفيف. والمبلد تلييداً نحو الرَّش، وارثت السماء وجمع الرش الرِّشاش وأرض مجوبة ومقوبة إذا أصاب المطر بعضها ولم يصب بعضها، وكحلت السنة اشتدَّت تكحل كحلاً، وسنة كحل، وأرض ميتة وميتة وسنة خداعة وقشر.

ومنها الوابل: وهو أغزرُ المطر وأعظمه قطراً، ويقال: وبَلَّت الأرض وبلاً وبِلَت توبل وبلاً.

والجود من المطر الكثير العام وهو في كلِّ زمان. قال شعراً:

أنا الجواد بنُ الجواد بن سَبَلٍ إن ديمَّوا جادوا وإن جادوا وِبِلٌ^(١)

والمدرار والدَّرة التي يتبع بعضها بعضاً وجمع الدَّرة الدَّرر.

والرَّك من المطر الضَّعيف الذي لا ينفع إلا أن يكون له تبعه - والتَّبعة - المطر بعد المطر. ويقال: أرض مرككة وجمع الرَّك الرِّكَّك.

ويقال: وابل ساجية وهو المطر الذي يسجى ما يقع عليه فيسيل به.

ويقال: أرض مشجورة، وهي التي يأخذها المطر الجود فلا يزال بها حتى تقلب نباتها وتقلعه من أصوله، ويقلب ظهر الأرض لبطنها، وقد شجرت الأرض شجراً. ويقال للمطر الذي لا يدع شيئاً إلا أساله: جار الضَّبغ، وذلك أنه يكثر سيله حتى يخرج الضَّبغ من جحره.

والمحتفل: الذي يتدارك حثيثاً، والسَّح: مثله غير أن السَّح ربَّما لم يتبين قطره. والمنهمر: مثل السَّح والوبل والقطر والضَّرب: المطر الضعيف..

والدَّهان مثل ذلك، والواحد دهن، ويقال: دهنها أولى فهي المدهونة.

والمروية التي تروي الأرض. والمبلد: الذي يندي وجه الأرض ويسكن التراب.

والجلباب المطر الكثير والسَّاجية السَّاكنة والأهاصيب: جمع أهضوبة وهي مثل الهضاب، واحدها هضب، وهي جلباب القطر. والهلل: أول المطر. والمتفخر والمسحضر: السيل الكثير. والولي: المطر بعد المطر في كلِّ حين. والعهد: المطر الأوَّل

(١) الوابل: المطر الشديد الضخم القَطَر. (القاموس).

وجمعه عهاد وأرضٌ معهودة، وقيل العهدي الذي يجيء وعهد ما قبله جديد لم يدرس، ويقال: أرض معهودة للتي يصبها التَّفْضَة.

والتَّفْضَة المطر يصبب القطعة من الأرض ويخطيء القطعة، ويقال: أرض منفضة.

والخطيطة: الأرض لم يصبها مطر، وكذلك الفوائد والخوبة.

ويقال للخطيطة: أرض خط، وأرض مجروزة، وأرض جرز وجرز وأجرزت الأرض. ويقال أيضاً: أجززت الثَّاقَة إذا هزلت.

والشُّبوب: المطر يصبب المكان ويخطيء الآخر وجمعه شأبيب.

ومثله النَّجو والجمع النَّجاء والأرض المنضوحة وهي المجودة نضحت نضحاً.

والغيث: اسم للمطر كله وأرض مغيثة ومغيوثة.

ويقال: استهلَّت السَّماء وذلك في أوَّل المطر والاسم الهلال.

وأسبلت: والاسم السَّبل وهو المطر بين السَّحاب والأرض حين يدل يخرج من السَّحاب ولم يصل إلى الأرض.

ويقال للمطر القليل: العرض وهو مثل الشُّبوب ومثل السَّبل. العضانين: وهو المطر بين السَّحاب والأرض ويقال: هو الضَّريب والصَّقيع والجليد ولا يكون إلاً بالليل، والثلج بالليل والنَّهار في الغيم وهو لا يكون إلا في الصُّحو. ويقال: أرض ضربة إذا أصابها الجليد فأحرق نباتها، وقد ضربت الأرض ضرباً وأضر بها الضَّريب إضراباً. وصقعت صقعاً إذا أحرقت الصَّقيع نباتها. وثلجت ثلجاً وهي مثلوجة.

والطلُّ أثر الندى في الأرض من كلِّ ذلك. ويقال للندى الذي يخرج عروق الشَّجر إلى غصونها: طل.

وقيل: الضَّريب والصَّقيع والجليد والسَّقيط يخرج من جردة السَّماء جرداً إذا لم يكن فيها غيم. وقد جردت السَّماء والاسم الجردة.

ويقال: تصلَّعت السَّماء إذا انقطع غيمها حتى تتجرد وحكى الأصمعي قال: قلت لأعرابي: ما أوقع الأمطار؟ قال: صوب غادية - عن مرى حادية - لا بل بادية - مرى حادية، أي استخراج سحابة تحدد ما يتأخَّر دونها. والبادية: السَّكَّنة للبدو.

ويقال: أصحت السَّماء والاسم الصُّحو. ويقال: أقصر المطر وأقلع وأقشع إذا انقطع. ويقال: طلَّ القوم وهم مطلولون.

ويقال: من المطر الرّثاث وهي القطار المتتابعة يفصل بينهما أقل ما بينهما ساعة، وأكثر ما بينهما يوم وليلة. ويقال: أرض مرثة ترثيثاً.

ويقال: أرهجت الأرض إرهاجاً وأضبت إضباباً ومن الرّهج السيّق من الغمام الذي يسوقه الرّيح.

والإغصان المطر الدائم الذي ليس فيه فرج، والفرج اليوم واللّيلة أو أكثر من ذلك قليلاً. ومثله الإلثاث.

الفصل الثاني

في علّة ما ذكرنا من كلام الأوائل:

قالوا: إنّ العلة في المطر - والثّلج - والجليد - والرّيح - واحدة وهي أنّ الشّمس إذا مرّت بموضع ندى أثارت بخاراً بحرارة مرورها فيكون كيفيّة ذلك البخار على طبيعة الموضع الذي يثور منه البخار. فأما كميّة فعلى قدر كبر ذلك الجسم المهيأ للثوران إن كان كثيراً وكانت الشّمس قويّة عليه أثارت بخاراً كثيراً من ذلك الجنس الذي هو طبيعة ذلك الموضع.

فإذا أشرقت الشّمس بدورانها على موضع ندى إذا سخن ثار منه بخار وذلك أنّ الحرارة إذا خالطت الرّطوبة لطفت أجزاؤها فصيرتها هواء. فإذا كثر ذلك البخار وتباعدت الشّمس عن ذلك الموضع الذي ثار منه البخار استقبل ذلك البخار البرد الذي هو فوق الأرض الذي يرد الهواء فرّده إلى الأرض، فتكاثف بالعصر فصار ماءً فانحدر. فإن كان ذلك المنحدر شيئاً يسيراً صغیر الأجزاء سُمّي ندى. ولذلك تكون الأنداء في الشّتاء أكثر لكثرة برودة الهواء وضغطها البخار الرّطب إلى الأرض ولذلك تكون الأنداء بالليل أكثر منها بالنّهار.

وإن كان المنحدر كثيراً كثير الأجزاء سُمّي مطراً، فهذه علّة التّدى والمطر وإن كان الذي يصعد من البخار يسيراً، وكان الذي هجم عليه من فوق شديداً جداً، صير ذلك البخار جليداً، وإن كان ذلك البخار الصّاعد كثيراً وكان الذي هجم عليه شديداً جداً، صار ذلك البخار ثلجاً، ففرّق بين الثّلج والجليد خلّتان، إحداهما: كثرة البخار وقلّته، كما فرّق بين التّدى والمطر كثرة البخار وقلّته. والخصلة الأخرى: أن الجليد إنما هو بخار جمّد في الهواء لا في السّحاب، والثّلج إنّما هو بخار جمّد في السّحاب.

وكذلك الفرق أيضاً بين التّدى والمطر، هذا لاختلاف أنّ التّدى إنّما هو بخار انحدر إلى الأرض من دون السّحاب، وأنّ المطر انحدر من السّحاب ولكنّ البخار الذي يصعد من

الأرض تميّز منه اللطيف فصار هواءً، والغليظ هو الذي يكون منه الندى والمطر.

وقال أبو زياد الكلابي: إذا احتبس المطر اشتدّ البرد. فإذا مطر الناس مطرةً كان البرد بعد ذلك فرسخ، أي سيكون من قولهم تفرسخ عني المرض وإنما سُمّي الفرسخ فرسخاً لأنه إذا مشي صاحبه استراح عنه وجلس.

وروى الأصمعي عن المنتجع بن نبهان أنّ شيخاً من العرب كان في غنيمة له، فسمع صوت رعد فتخوّف المطر، وهو ضعيف البصر، فقال لأمة ترعى معه: كيف ترين السماء؟ فقالت: كأنّها ظعن مقبلة، فقال: ارعي. ثم قال: كيف ترين السماء؟ قالت: كأنّها بغال دهم تجرّ جلالها، قال: ارعي. ثم قال: كيف ترين السماء؟ قالت: كأنّها ثروب مغزى هزلى، فكأنّها بطون حمير صحر. قال: انجي ولأنجاً بك، فلبجاً إلى كهف وأدخل غنمه، وجاءت السماء بما لا يقام ليلة، فقال الشيخ: هذا والله كما قال عبيد:

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكنّ كمن يمشي بقُرواح

الباب الحادي والثلاثون

في السحاب وأسمائه وتحليه بالمطر وهو فصلان

فصل

قال الله تعالى في ذكر ما عدّد من نعمه على خلقه فيما نصبه من الأدلة على وحدانيته في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار فقال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٤] والمراد أنّ في تعاقب الظلم والأنوار وما ينشئه تعالى جدّه من أنواع السحاب بين السماء والأرض وينزله من الأمطار ويخرجه من الثّبات أعظم الأدلة على حدوثها لما فيها من إحكام الصّنع وثباتها على ما ثبت عليه من العبرة، إذ لا تفاوت فيها ولا اضطراب، ولا تناقض، ولا فساد فمن تدبّرها وتأمل الأحوال التي تعتمدها من الحركة والسكون، والزيادة والنقصان، والانكشاف والتروية والإفلاق، أدّاه الاعتبار إلى أنّه واحدٌ ليس كمثله شيء، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وروي في الحديث: «السحاب غربال المطر، لولا ذلك لتهدّم البنيان» ويقال: سحاب، واجده سحابة ومثله الغيم والغيوم. ويقال ذلك في القليل والكثير والغمام والواحدة غمامة وهي الغراء البيضاء والجمع غر ويبيض.

ويقال: المزن والواحدة مزنة. ومنها الغماء وهي السحابة السوداء.

ومن دلائل الغيث أن يتقدّمه هبوب المبرّرات ثم يكون النّشأ من قبل العين فيحسن خروجه والنتامه. ثم استكشافه حتى لا ترى فتقاً، وذلك التطخّطخ ويسد الآفاق. ثم يكفّه ويرجع فيتدانى ويستأرض أركانه ويتمكّن رجاءه وتنوس هياديه، وتهمى أكفته، ويتعلق ريانه، ويتدحى عفا يده ويحمومي. ثم يصحار ويرج الرّعد رجاً. ويتمّ البرق أتماً، وهو الكيف من البرق. ثم ينفل ولا يزدهيه الرّيح حتى يتحرّر ويلين رعه، ويرقه يتعاون عليه

الجنوب والصبّ بالإنزال والإسباس. ثم ينتجفه الشمال حتى يستقصى ما فيه، وهذا نهاية ما جاءت أوصافهم وأخبارهم وأشعارهم.

ومنها السيق وهي كل ما طردته الريح وأفترزته من السحاب كان فيه ماء أو لم يكن. والخلق ما يرجى أن يكون فيه مطر والواحدة خلقة. والصبير من السحاب الذي تراه متراكباً في بياض والجمع الصبر. والسد النشا الأسود ينشأ من أي أقطار السماء شاء. قال:

تَبَصَّرَ هَلْ تَرَى الْوَاحَ بَرَقَ أوائله على الأفعاة قود^(١)
قعدت له وشيعني رجلاً وقد كثر المخايلُ والسُدودُ

المخايل: واحدتها مخيلة، ويقال سحابة مخيلة وسحابة ذات مخيلة: إذا كانت خليقة بالمطر. وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا رأى مخيلة أقبل وأدبر وتغير، قالت عائشة: فذكرت ذلك له، فقال: «ما يُدرينا لعلّه كقوم ذكرهم الله تبارك وتعالى» ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ٢٤].

ويقال للسحاب أيضاً: الخال، فإذا أرادوا أن السماء قد تغيّمت، قالوا وقد أخالت فهي مُخيلة بضم الميم.

ومنها الحماء وهي السواد. والعارض: السحابة تراها في ناحية السماء وهو مثل الجلب، إلا أن الجلب أبعد وأضيق من العارض. والعارض الأبيض والجلب أكثر ما يكون إلى السواد. وفي السحاب التضد وهي مثل الصبير وجمعه الأنضاد. والزكام: ما تراكم بعضه على بعض، وهو مثل التضد. ومنه الزباب: ولا يقال لها ربابة وإحدتها ربابة: وهي السحابة الدقيقة السوداء يكون دون الغيم في المطر، ولا يقال لها ربابة إلا في مطر.

ومنها الزيف: وهو أول السحاب الممطر. والكنهور: السحاب الضخام البيض، ويقال: غمامة كنهورة وغيم كنهور. ومنه الطخاء: وهو السحاب الزقاق والواحدة طخاة. ومنه القزع: وهو السحاب الصغار والمتفرق منه واحدة قزعة. ومنه: نمرة: وهي الغيم الذي يرى في خلله نقاط، الواحدة نقطة والجمع نمر، ومن أمثالهم: أريتها نمرة أريتها مطرة.

ومنه الجفل: وهو كل سحاب ساقته الريح قد صبّ ماءه. والجهام: مثل الجفل واحدته جهامة. ويقال للسحاب الذي هراق ماءه السيقة لأنّ الريح تسوقه لخفته، وهذا كما يقال لما تستلينه وتستهيته: لين وهين.

والصَّراد واحِدَتها صرادة، وهو مثل الجفل. ومثله الرَّهَج: من الغيم.

ومنه السَّيق والجِيء: وهو الغيم في عرض السماء الغريب الحسن. ومنه الحير وهو الغيم ينشأ مع المطر فتحير في السماء.

ومنه بنات نحر ونجر وهي سحائب يخرجن في السَّحر، بَيْنَ الخريف والزَّبيع وهُنَّ سحائب غُرَّ طوالٌ مُشمِخَرَات.

ومنه الزَّبرج: وهو مثل الرَّهَج والسَّيق.

ومنه الغماء: وهو شبه الدَّكان يركب رؤوس الجبال. قال:

ليلة غَماء طامسٌ هلالُها

ومنه الضَّباب، وهو شبه الدَّخان والتَّدَى يظللُ السماء، واحِدَتُه ضبابية، ويقال: أضيف السَّماء فهي مضبَّة.

ومنه الظَّلة وهي أوَّل سحابة تظلل.

ومنه الطَّخارير، واحدها طخورور وهو السَّحاب الصَّغار. والغياية: ظلُّ السَّحابة وقال بعضهم غياة. قال الشَّاعر:

كساعٍ إلى ظلِّ الغياية يبتغي مقيلاً فلَمَّا أن أتاهَا اضمَّحَلَتْ

وقال: ولغة الكلابيين امضحلت والمكفهر: السَّحاب الضَّخام الرِّكام ويقال: عجاجة مكفهرة، وطرة الغيم: أبعد ما يرى من الغيم، ويقال: طرة الكلا وطرة القف وهي ناحيتها. ومنها: النَّشاص: وهي الطَّوال والواحدة نشاصة وهي الطَّويلة البيضاء، وأكثر ما ينشأ من قبل العين. قال:

بل البرقُ يَبدو في دُرى مِنْ دَفائِهِ يضيءُ نشاصاً مكفَّهَر الغوارِبِ

وفي الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا نشأت السَّحابة بِخَرِيَّةٍ ثم تشامت فتلك عينٌ غديقة» يريد إذا ابتدأت من ناحية البحر، ثم أخذت نحو الشَّام فتلك عينٌ غديقة أي: مطر جود. والغديق: الكثير الماء من قول الله تعالى: ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ [سورة الجن، الآية: ١٦].

وكذلك إذا كانت السَّحابة سوداء فتلك من علامات الغيث، وفي الحديث الذي سأل فيه النَّبي ﷺ: «أَجَوْنُ هو أم غيره؟ فقالوا: جون، فقال: جاءكم الحياء» وكذلك إذا رأى الرِّباب دوين السَّحاب قال:

كان الرِّباب دوينَ السَّحاب نعام تعلق بالأرجل

وأنشد:

ومالي لا أغزو للدهر كرة وقد نبحت نحو السحاب كلابيا
يقول: كنت لا أغزو مخافة العطش على الخيل والأنفس، فما عُدري اليوم، وقد كثر
المطر، واتصل العشب وامتلات الغدران. وبعضهم:

أغرس ماكي كأن نشاصه قطار يخات أو جبال تقلع
تلألؤ غوريا كأن وميضه حريق بجزل في ضرام تشيع
رأته عيون محلات تابعت له سنوات فهو للغيث جوع
ملت دنا دون السحاب سحابة من الأرض حتى كاد بالراح يدفع

ويقولون: إذا رأيت السماء كأنها بطن أتان قمراء فذلك الجود. قال الهذلي:

يمد له جوالب مشعلات تخللهن أقمرد ذو انغطاط

ويقال: إن معقر بن حماد البارقي قال لابنته، وقد سمع صوت رعد: أي شيء ترين؟
قالت: أرى سحابة عقاقة كأنها حواء، ناقة ذات هيدب داني وسير وان. قال:

وابلي بي إلى جنب قفله فلئها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل
وإذا كانت السحاب نمرة فهي كذلك. وقال آخر في المخيلة:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقروح

أي طبق الأرض، فمن كان في الارتفاع كمن هو في الاستواء، ومن كان في ظهر
الصحراء كمن في بطنها، وإذا كان السحاب أصهب إلى البياض فذاك إمارة الجذب،
ويقولون: هو هف أو جلب إذا حمر الأفق. قال:

وسوذت شمسهم إذا طلعت بالجلب هفا كأنه الكثم

وقال الكمي:

إذا أمت الآفاق حمراً جنوبها لشيبان^(١) أو ملحان^(٢) واليوم أشهب

وقال الفرزدق يذكر قوماً مسافرين:

(١) شيبان: جمادى الثانية.

(٢) ملحان: جمادى الأولى.

يغضّون أطرافَ العصيّ تَلْفُهُم من الشّام حمراء الصّحى والأصائل
ومن أمثالهم: ما يضّرّ السّحاب نباح الكلاب، وزعموا أنّ الكلاب تنبح السّحاب من
كثرة المطر والحاجة. وفي صفة غيم المحل:

وهناج غمامٌ مقشعرٌ كأثّه بنيله نعلٌ بان منها شريحها
الفضل بن عباس:

كأنّ سيوفَ فارسٍ في ذراه وغرفاً من قيانٍ مسمعاتٍ
أقام على معاهدِهِنَّ شهراً فأقلع وهو مهتزّ التّبات
وقال حسين بن مطير يصف المطر والسّحاب، ورواه الأصمعيّ شعراً:

كُثِرَتْ لكثرة قطره أطباؤه فإذا تحلّب فاضتِ الأطباءُ
وكجوف ضرته التي في جوفه جوف السماء سجلاً جوفاء
وله ربابٌ هيدبٌ لرفيقه قبل التّعنق ديمةٌ وطفاءُ
وكأنّ ريعه ولما يحقل وكان بارقه حريقٌ يلتقي
مستضحك بلوامعٍ مستعبرٍ مستضحك بلوامعٍ مستعبرٍ
فله بلا حزن ودون مسرة ضحكٌ يؤلف بينه وبكاءُ
حيرانٌ منبعثٌ صباه يقوده وجنوبه كنفٌ له وكفاءُ
ودنت له نكباؤه حتّى إذا من طول ما لعبت به النكباءُ
غاب السّحاب فصار بحراً كلّه وعلى البحور من السّحاب سجاؤ
ثقلت كلاه فبهرت أصلابه وتعجبت من مائه الأحشاءُ
غدقٌ يسبح بالأباطح قد غدت بلد السيول وما له أفلاءُ
غزٌّ محجلةٌ دوالجٌ ضمنت حمل اللّقاح وكلّها غدراءُ
سجم فهنّ إذا كظمن أواجم وإذا ضحكَن فإنهنّ وضاءُ
لو كان من لجج السّواحل ماؤه لم يبق في لجج السّواحل ماءُ

وحكى أحمد بن يحيى قال: أخبرني ابن الأعرابي، قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالسٌ مع أصحابه إذ نشأت سحابةٌ فقليل: يا رسول الله هذه سحابةٌ فقال عليه السّلام: «كيف ترون قواعدها» قالوا: ما أحسنها وأشدّ تمكّنها. قال: «وكيف ترون رعاها»؟ قالوا: ما أحسنها وأشدّ استدارتها. قال: «فكيف ترون بواسقها»؟ قالوا: ما أحسنها وأشدّ استقامتها. قال: «فكيف ترون برقها أوميضاً أم خفياً أم يشق شقاً»؟! فقال عليه السّلام: «الحياء الحياء»

في كلام الأوائل، يتبين منه حال الأندية والأمطار والعيون والأنهار وغيرها

قال: فقالوا: يا رسول الله ما رأينا أفصح منك، فقال: «وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين» قواعدها أسافلها، ورحاها وسطها، ومعظمها، وبواسقها: أعاليها. وإذا استدار فيها البرق من طرفها إلى طرفها فهي أعاليها وهو الذي لا يشك في مطره وجوده، وإذا كان البرق في أسافلها لم يكذب يصدق. قال ابن الأعرابي: وقال رجل من العرب وقد كبر وكان في داخل بيته، وكان بيته تحت السماء: كيف تراها يا بني؟ قال: أراها وقد نكبت وتبهّرت، وأرى برقها أسافلها، قال: أحلقت يا بني. معنى نكبت: عدلت عن القصد، وتبهّرت: تقطعت. والبحر حفر يكون في الأرض، والومض: أن يومض إيماضة ضعيفة ثم يخفي، ثم يومض ثم يخفي ثم يومض، وليس في هذا بأس مطر قد يكون ولا يكون. وأما المسلسل في أعاليها فلا يكاد يخلف.

ويقال: خفي كأكيد الطير وأكيد الطير: نظره - ثم إغماضه ينظر نظرة - ثم يغمض - ثم ينظر نظرة - ثم يغمض. قال حميد بن ثور يصف البرق:

خَفِيَّ كَأَكِيدِ الطَّيْرِ وَاللَّيْلِ مَلْبَسٌ بِجَسَمَائِهِ وَالصَّبْحِ قَدْ كَادَ يَسْطَعُ
قال الهذلي شعراً:

فَسَائِلُ سُبْرِهِ الشَّجَعِي عَنَّا غَدَاةً يَخَالُنَا نَجْوَا خَبِيًّا

فصل

في كلام الأوائل، يتبين منه حال الأندية والأمطار والعيون والأنهار وغيرها

قالوا: إنَّ المطر إذا وقع على الأرض اجتمعت منه المياه، فإذا صادفت مكاناً إلى الانصباب ما هو جرت منه الأودية والأنهار، لأنَّ المياه من شأنها طلب الحدود، فإنَّ صادفت حوالها أرضين مرتفعة بقيت فلم تجر، فإنَّ كانت تحتها أرض رخوة غارت أبدأ إلى أن ينتهي إلى أرض أو جبل فلا يقدر على النفوذ فيقف فإذا كثرت المياه أكلت ما حولها من الأرضين اللينة حتى ينقب موضعها، فيخرج منه فيسمى ذلك الموضع عَيْنًا.

وربما انتقبت من ذلك الموضع الواحد مواضع كثيرة، فجرت أنهار كثيرة وكلها كانت أغزراً لتلك العيون. وإنَّ كانت المياه المستنقعة كثيرة جداً لم تنقطع تلك العيون في أول الصيف، وانقطعت في آخره على قدر القلة والكثرة. وربما كانت تلك العيون غزيرة سنين كثيرة، ثم ينقص ماؤها غير نقصان المطر وذلك أن ينتقب في جهة هذه العيون، فيخرج بعض تلك المياه إلى تلك الجهة فإنَّ كانت تلك الجهة منفسحة المذهب دام ذلك التقصان. وإذا كانت تلك الجهة ليست بمنفتحة بل استقبل الماء مكاناً عالياً أو جبلاً تراجع الماء،

ورجعت تلك العيون الأولى إلى ما كانت عليه ، وربما جرت الأودية والأنهار من ثلوج تقع على جبالٍ ، فإذا أصابها الحر ذابت قليلاً قليلاً ، فجرت منها الأودية والأنهار ، فإن كان ذلك الثلج كثيراً لم تنقطع تلك الأودية والأنهار ، وإن كان قليلاً انقطعت .

وأما البحار فإنما هي من مواضع عميقة في الأرض والماء من شأنه يطلب العمق ، فالمياه تنصب إلى تلك المواضع العميقة من الأنهار والأودية والسيول ، يستنقع فيه فما كان من ذلك الماء عذباً فإنه يصير فوق لحفة العذوبة وما كان منه مرّاً وملحاً صار إلى أسفل لثقله ، فإذا مرّت الشمس عليه رفعت ما كان منه عذباً لخفّته ولطافته ، وما كان منه لطيفاً جداً صار هواءً ، وما كان منه في اللطافة دون ذلك صار ندى ومطراً .

فأما ما يقال : لم لا تستبين الزيادة في البحار مع كثرة ما يجري فيها من الأنهار والأودية ، فذلك لكثرة سعتها وإنها لا تبقى بل ترفع الشمس لطيفها فيصير منها الدّري والأمطار ، وكذلك أيضاً لأنّ الذي يعود إليها في الأودية والأنهار وربما نقص بعض البحار في طول الأزمان أو زاد بعضها ، ولكنّ ذلك لا يستبين لطول الزّمان الذي يحتاج فيه إلى أن يستبين ، لأنّ ذلك لا يستبين في قدر عمر إنسانٍ أو إنسانين .

قالوا : وإن قلنا : إنّها تزداد وتنقص ، لم يبعد من قبل أنّه ليس من الواجب أن يكون البخار الصّاعد منها سواء مثل الأودية والأنهار السّائلة فيها ، بل قد يكون أحدهما أكثر من الآخر ، فلذلك قلنا : قد تزيد البحار وتنقص .

وأما ملوحة ماء البحر ومرارته ، فلكثرة مرور الشمس عليها فإنّ الرّطوبة إذا خالطتها الحرارة صارت مالحة ، فإن أفرطت الحرارة عليها صارت مرةً ، ومثال ذلك العرق والبول ، فإنّهما مالحان جميعاً لعمل الحرارة فيهما .

الباب الثاني والثلاثون

في الرعد والبرق والصواعق، وأسمائها وأحوالها
وهو فصلان

فصل

قال الله عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١٣] الآية. وفي موضع آخر: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩] الآية. قوله: أو كَصَيِّبٍ تشبيه بعد تشبيه وذلك أن الله تعالى شبه أعمال المنافقين واغترارهم بما اعتقدوه من مخادعة المؤمنين في إظهار موافقتهم وإبطان مخالفتهم، وأن ذلك يقضي لهم بالفلاح والنجاح فقال: مثَّلهم في ذلك وإن كان لا ينفعهم ولا يدفع السوء عنهم، بل يرجع بالوَبال عليهم، كَمَثَل رجلٍ أوقد ناراً وهو يظنُّ استبانة الطريق بها، فجاءت ضعيفةً في إنارتها، ولَمَّا أضاءت ما حولها وقدر بقاها على ما بها، خمدت فعاد وهو أسوأ حالاً وأشدَّ عَمًى لَأَنَّ النَّاطِرَ في ظلمةٍ بعد ضياءٍ أضعف تَبَيُّناً أو مثل قوم أصابهم صَيْبٌ استصحب رعداً وبرقاً ونكداً وخوفاً فخشوا رهبةً من صاعقة تحرقهم، وتنزل البلاء بهم وهذا القدر كافٍ ههنا.

ورُوي أنه سئل ابن عباس عن البرق، فقال: مخاريق الملائكة. وأصل المخراق خشبة في رأسها سنان عريض تحته عذبة، وكان القوم إذا انصرفوا من حربٍ ظافرين قدَّموا بشيراً معه مخراق، ليعلم الحال به وكان يوفي على نشرٍ بقرب منهم، ويلوح بالمخراق، فيجتمع ولدان الحي فرحين ويقولون: مخرق المخراق في رأس البيض، فالجيش لا شك كما بدا رجع، فلا يزالون كذلك حتَّى تطلع عناق الخيل، فيستقبلونها مَصْفِقِينَ، وإذا انصرف الخيل مغلوبين، أو طلبوا مدداً بعثوا رجلاً وأعطوه سيفاً فأوفى على النَّشز والأح بالسيف وصوت، ليعلم الحي بالحال فاجتمع الصَّيَّبان باكين ويقولون: رأى حتفاً والأح سيفاً، وهذا رواه أبو نصر عن الأصمعي رأى حيفاً، قال ثعلب هذا تصحيف ما يروي الزاؤون الأجنفاء، ومنه قول تأبَّط شراً:

يا نار شَبَّثْ فارتفعت لضوئها كالسيف لاحَ مَعَ النَّذِيرِ المقبلِ
وأُشْدَ ابنُ الأعرابي شعراً:

إِنِّي إِذَا مَا عَلَقْتُ عِلَاقٍ	وَشَمَرْتُ أَوْلَاذَهَا عَن سَاقٍ
شَمِطَاءَ ذَاتِ مِضْحَكٍ بَرَاقٍ	كَرِيهَةٍ الْمَنْظَرِ وَالْمَذَاقِ
وَصَافِحَتْ بِكَفِّهَا حَلَاقٍ	صَارَ بِهِ يَطْغُنُ لِلْأُرَاقِ
أَعْمَلَ خَلْقِ اللَّهِ بِالْمِخْرَاقِ	وَبِالشَّهَابِ اللَّامِعِ الْخَفَاقِ
وَيَنِينَاتٍ جَشْراً دَقَاقٍ	وَأَبْسَطَ الْكَمِّينَ لِلْعَنَاقِ

وإنما الدولة بالأرزاق

فسر المخراق منها على أنه السيف وعنى بينات جشاء: النبل، ويقال: رعدت السماء وبرقت، ويقال: أرعدت وأبرقت أيضاً، وبعضهم ينكره وينشد:

أُبْرِقْ وَأَرْعِدْ يَا يَزِيدُ فَمَا وَعِيدُكَ لِي بِضَائِرُ

ويقال: أرعد القوم إذا أصابهم الرعد، وفي الرعد الأرزام وهو صوت للرعد غير شديد، ويقال: أرزم الرعد. وفيه انهزم وهو اسم صوت الرعد شديدة وضعيفة، وهو الهزيم. ويقال: تهزَّم الرعد تهزَّماً وانهزم الرعد انهزاماً. وفيه القعقة وهو تتابع صوت الرعد في شدة، وجمعه القعاقع. وفيه الرجس والرجسان وهو صوت الرعد الثقيل. يقال: رجس الرعد والسماء يرجس. وفيه الصاعقة وجماعة الصواعق، وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد، ويقال: أصعقت علينا إصعاقاً، ويقال: صاعقة أيضاً. وقال:

يحكون بالمصقولة القواطع يشقُّ البرق عن الصواعق

وذكر بعضهم البرق فقال: يلتمع الأبصار، ويهلك الغض من الثمار، ويكنع بعاء البقل، وقيل: لا يكون برق لا رعد معه إلا أن يكون رزاً لا يعنى السحاب أو يكون خفواً لا يشق، ووصف بعضهم الرعد فقال: يرج الأرض، ويحرق الطير، ويمرق بيضها، ويصم السمع، ويسقط الأحبال، ويصدع القلوب. وفيه الأريز يقال: إن الرعد تأرَّز تأرَّزاً وترزرت السماء ترزراً. قال:

جارتنا من إبلى الأسلمي ترزرتاً من وراء الأكم
رَزَّ الرِّوَايا بالمزاد المعصم

ويقال: جلجل الرعد جلجلةً وهو الصوت يتقلب في جنوب السحاب وتهزج الرعد تهزجاً وهو مثل الجلجلة، وزمزم زمزمةً وهو أحسنه صوتاً وأثبته مطراً، وأرنت السماء إرناناً: وهو صوت الرعد الذي لا ينقطع، يقال: رنَّ وأرنت بمعنى واحد وجمع.

البروق ويقال: برقت السماء وبرق البرق، وبرق برقاً وأبرق القوم إبراقاً إذا أصابهم البرق، وتكشف البرق تكشفاً، وهو إضاءته في السماء، واستطار استطارَةً مثل التكشف. ولمع البرق يلمع لمعاً ولمعاناً وهي البرقة. ثم الأخرى المزة بعد المزة. ولمح يلمح لمحاً ولمعاناً مثل اللمع غير أنَّ اللمح لا يكون إلا من بعيد. وتبسم البرق تبسماً مثل التكشف، واستوقد البرق الذي يملأ السماء والسلسلة برق النهار أو برق السحاب، وهي البرقة الضعيفة قال:

تربعت والدهر عنها غافلُ آثار أحوى برقة سلاسلُ

ويقال: هذا برق الخلب، وبرق خلَّب، وهو الذي ليس فيه مطر.

ويقال: خفق البرق خفقاً وخفقاناً وهو تتابعه، وخفا البرق يخفو خفواً وهو أن تراه من بعيد خفياً، ويقال: هو أخفى ما يرى من البرق.

ويقال: أومض البرق إيماضاً، وهو الوميض وهو الضعيف من البرق.

ويقال: سنا البرق وهو ضوؤه تراه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه في موضعه، وإنما يكون السنا بالليل دون النهار، وربما كان بغير سحاب، والسماء مصحبة وضوء البرق مثل سناه.

وتشقق البرق تشققاً وهو أن تبرق البرقة فتشع في النثر. وتألَّق البرق تألُّقاً مثل التشقق. وتكلَّح البرق تكلُّحاً: وهو دوامه وتتابعه في الغمامة البيضاء وتلألأ تلالؤاً وهو السريع الخفيف المتتابع.

ومَصَع البرق يمصع مصعاً: ورمح يرمح رمحاً وهما سواء وهو البرق السريع الخفيف المتقارب.

وألهب إلهاباً: وهو سرعة رجعته وتداركه، وليس بين البرقين فرجة.

والعراص: الذي يلمح ولا يفتر نحو التبسم.

وقد عرصت السماء: تعرض عرصاً إذا دام برقها ورأيت السماء عراصة.

وفرى البرق يفري: وهو تلالؤه ودومه في السماء وكانوا يسمون البرق، فإذا لمعت سبعون برقة انتقلوا مستغنيين عن الرّواد لاستحكام ثقتهم.

ويقال: برق وليف إذا لمع لمعتين، وقد شبه ذلك بلمع يدين. قال امرؤ القيس شعراً:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في جبي مكلَّل

وقال الهذلي:

تبسم بعد شتات النوى وقد بئ أخيلت برقاً وليفا
وارتعج البرق إذا تتابع لمعاته - قال أبو عبد الله: سئل بعضهم عن البرق فقال: مصعة
ملك أي يضرب السحاب ضربة فترى التيار وأنشد:
وكان المصاع بما في الجون

ويقال: أزعج البرق وبرق مزعج قال:

سحاً أهاضيب وبقاً مزعجاً تجاوب الرعد إذا تبوَّجا
والتبؤج: مثل التكشف، ويقال: تبوَّج تبوَّجاً.
ويقال: أخفا البرق كأقيد الطير قال:
خفا كأقيد الطير وهناً كأنه سراج إذا ما يكشف الليل أظلماً
وقال عمرو بن معدى كرب: يلوح كأنه مصباح باز. قال أصحاب المعاني: أراد
مصباح رجل من بني باهلة فمصباح لا يطفأ.

فصل

في الرعد والبرق والسحاب من كلام الأوائل

قالوا: إذا علا البخار الرطب وبلغ إلى الموضع البارد والجبال دفعه البرد إلى أسفل،
فاتحقت هناك، وصارت الجبال القريبة له كالمغارات، وتكاثفت أجزاؤه فيكون منه السحاب
والضباب والنجدى، على قدر اختلاف البخار الذي يصعد.

فإذا اجتمع ذلك البخار الرطب هناك حصر ما فيه من البخار اليابس الصاعد من
الأرض معه، وإذا كان ذلك اضطرب البخاران اليابس الحار والبارد الرطب في جوف
السحاب، ففرق السحاب وصدعه فيكون من ذلك القرع صوت يسمى الرعد، ويكون من
ذلك التصدع تلهب، يقال له: البرق، وهما يكونان في وقت واحد، ولكن البصر ترى
الألوان بلا زمان والسمع لا يدرك الصوت إلا بزمان، وذلك الزمان على قدر بعد السحاب
من الأرض.

فإذا كان ذلك السحاب من الأرض قريباً تبين رؤية البرق، وسمع الرعد في زمانين
متقاربين. وإذا كان السحاب بعيداً من الأرض كان بين رؤية البرق وسماع الرعد زمان
طويل. وشبه ذلك الصوت الذي يكون من السحاب بالحطب الرطب الذي تشتعل فيه النار

فيسمع له صوت وقرقعة، فعلى قدر كيفية السحاب وكيفية البخار الحار اليابس المختنق فيه، يكون ذلك الصوت الذي هو الرعد والضوء الذي هو البرق.

فأما اختلاف ألوان السحاب فعلى قدر عمل الحرارة: فإن كانت الحرارة قد عملت فيه عملاً شديداً رؤي لون السحاب أسود، وإن كانت قد عملت فيه عملاً قليلاً رؤي السحاب أبيض، وإن كان فيما بينهما رؤي أحمر أو أصفر على قدر عمل الحرارة فيها لأن الحرارة تحرق الأجسام فتكون ألوانها على حسب إحراقها.

وأما صغر قطر المطر وكبره: فعلى قدر شدة دفع الريح السحاب وضعفه: فإن دفعته دفعاً شديداً اجتمعت أجزاؤه، فكان منه قطر كبار. وإن دفعته دفعاً ضعيفاً كان منه قطر صغار.

وأما اختلاف ألوان البرق فعلى قدر السحاب الذي يتصدع، فإن البرق أيضاً مختلف اللون، فربما كان إلى السواد ما هو، وربما كان إلى الصفرة ما هو، وإلى الشقرة، وذلك كله على قدر كيفية السحاب، فهذا ما في الرعد والبرق والسحاب.

فأما الصاعقة في اللغة فهي الواقع الشديد من صوت الرعد يسقط معه قطعة من نار، وصوت العذاب أيضاً. وقد صعقتهم السماء وأصعقتهم، ويقال: صعق إذا أغمي عليه من صوت يسمعه ومات أيضاً، ويقال: صعق وهو صعق الصوت أي شديده، والمصدر الصعق والصعاق. قال إذا ائتلاهنَّ صلصال الصعق. وفي القرآن: ﴿وَحَزَّ مَوْسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٤٣] أي مغشياً عليه بدلالة قوله: فلما أفاق.

وقال الخليل: الصاعقة: صوت العذاب. وقال بعضهم: ناز ريحاً وريح ناراً وذلك أنها إذا وقعت في الخشب أحرقتة وأشعلته. وإذا وقعت على ذهب أو فضة أحمته وأذابته. وهذا الفعل من أفعال النار. قال: فيقول: إنها وإن كانت ناراً فليست بالنار الحرة بل هي نار لهبانية. وذلك أنها إذا سقطت على الأرض لم يوجد جمرها بل يرى ذلك الموضع الذي تقع فيه الصاعقة كثير الدخان متصدعاً. وهذه من خواص النار والريح، والصاعقة أيضاً اللطف من جميع النار اللهبانية التي عندنا، وذلك أن النار التي عندنا لا تنفذ في الحيطان ولا في الأرضين. والصاعقة تنفذ في كل جوهر محسوس، وهي لا تبصر لأنها بلطافتها تفوت أبصارنا، لكن أفعالها تبصر، ولسرعة حركتها تجاوز الوقت الذي يمكن أن يكون فيه البصر. والصاعقة تكون لعلتين: إما لاكتمان النار في الغمام وإفلاتها بغتة، وإما لاكتمان الريح في الغمام واحتكاكها به وشدة خروجها بغتة، وفي مجيئها إلى الأرض تصير ناراً، كما ترى ذلك في الرصاص إذا رُمي بالمقلع، فإنه يسخن بمحاكة الهواء ويلتهب ويذوب.

البابُ الثالثُ والثلاثون

في قوس قُزح، وفي الدائرة حول القمر، وفي البرد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [سورة النور، الآية: ٤٣] الآية وهو ثلاثة فصول:

فصل

قال الخليل: قوس قُزح طريقة مستوسقة تبدو في السماء أيام الربيع. وفي الحديث عن ابن عباس أنه قال: «لا تقولوا قوس قُزح، فإنَّ قُزح من أسماء الشياطين ولكن قولوا: قوس الله عزَّ وجلَّ» وقال أبو الرِّقيش: القزح الطرائق التي فيها والواحدة قزحة والتقزيع إذا اتسع رأس الشجرة أو التبت شعباً مثل بُرثن الكلب. وفي الحديث: «نهى عن الصلوة خلف الشجرة المقزحة» فأما قول الأعشى شعراً:

جالساً في نفرٍ قد يئسوا في محلِّ القَدِّ من صحبِ قزح
فقرح لقب رجل.

وأما الهالة: فهي الدارة حول القمر، وقد مرَّ القول فيه في باب القمر ومن كلام الأوائل فيها: أن رؤيتها دالة على مجيء المطر، وكيونته، واضمحلالها وتحللها يدل على حدوث الصحو لكونه دالاً على ييس الهواء، وكما يدل على المطر يدل على هبوب الرياح، لأنَّ المحلل لتلك الرطوبة إنما هو البخار الحار اليابس الذي هو مادة الرياح، واللدأة تكون في أيام الغيوث وهي عندهم وعند بعض العجم من إمارات المطر، ومما يصفون به صدق مخيلة السحاب أن يروا القواري تكثر الطيران في الدجن. قال الجعدي شعراً:

فلا زالَ يسقيها ويسقي بلادها من المُنزِنِ رَخَافٌ يسوقُ القَواريَا
وكذلك المرع: ضربٌ من الطَّيْرِ يظهر في المطر، وهي طويلة العنق مشربة صفرة،

قال أبو زياد: الناس يستبشرون برؤية القواري.

ومن أسماء القوس: الدّاح ومن أمثالهم: لا يعرف الماح من الدّاح. فالماح: صفرة البيض. والدّاح: الذي يسمى قوس قزح. وهذه الدّائرة أكثر ما ترى بالليل، وقد ترى بالنّهار أحياناً، وأكثر ذلك نصف النهار وبالعشي. فإمّا عند طلوع الشّمس وعند غروبها، فقلّما ترى. وعلة هذه الدّارات كلّها واحدة وذلك أنّ البخار الرّطب إذا كثر في الجو وأشرقت الشّمس أو القمر والكواكب المنيرة فيها سطع نورها في الهواء. ثم عطف ذلك التور راجعاً من الهواء على البخار الرّطب فترى تلك الدّارة كذلك.

وقالوا في قوس قزح: إنّها لا ترى دائمة، وأكثر ما ترى بالغداة والعشي فأما نصف النهار فلا ترى، وأكثر ما ترى في الخريف. فأما في الصّيف فلا ترى وربما رؤيت قوسين، فأما علة كونها فهي من شعاع الشّمس الرّاجع إلى البخار الرّطب كمثّل ما يشرق في الماء.

ثم يرجع إلى الحائط وربما يرى قوس قزح بالليل من ضوء القمر، وقلّما يرى ذلك، وإنما يرى إذا رأيت في مثله ليلة البدر إذا كمل ضوء القمر.

فأما كدورة قوس قزح وصفائها فعلى ما تغلب عليها الرّطوبة كان اللون إلى الصّفا، والبياض، لأنّ صفاء الهواء وكدورته من قبل هاتين العلتين الرّطوبة واليبس، وقياس ذلك النّار فإنّها إذا كانت في حطب رطب كان لون النّار أحمر كدراً، وإذا كانت في حطب يابس كان لون النّار أصفر صافياً، فكذلك لون قوس قزح أيضاً.

أما الحمرة التي تُرى أحياناً في أيام الصّحو في الهواء: فمن قولهم فيها: إنّ الهواء إذا تكاثفت أجزاؤه وغلظ ثم سطع ضوء الشّمس أو الكواكب في موضع من الأرض، رجع ذلك الضّوء إلى الهواء كالضّوء الذي يرجع من الماء إلى الحائط، فكذلك الهواء إذا رجع إليه الضّوء من الأرض، أو من المياه قبله على قدر مشاكّته، لقبوله فيرى لون الهواء أحمر أحياناً، وعلى الهواء القابل لذلك.

والقول في الآية بدأ الله تبارك وتعالى يُدكّر بنعمه على خلقه، حالاً بعد حال ووقتاً بعد وقت، وبكمال تدبيره، مجملاً ومفصّلاً، ومقدّماً ومؤخّراً وكيف سبّب الأسباب ورُتب الأقدار فيما هيّأ من درور رزق ودرج من نزول غيثٍ فقال: انظروا كيف جمع فرق السّحاب بعد إنشائها، وكيف ألّف سياقها على تباينها، وفي أيّ حالٍ كشفها عقب رِقْتها وتخلخلها، حتى صار مع تراكمها يؤدي ما أودع وينخرق بما ضمّن، فيخرج من خلاله الماء، مرافقاً للنّار، جامداً وذائباً، ومتخلّلاً ومتماسكاً.

ثم يقسمه سحابة بين متظريه وطالبي الانتفاع به، كما يشاء فيعطي كما يحرم ويهب كما يمنع، مقلباً الليل والنهار، ومبدلاً الظلم والأنوار، واعتبروا ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

قوله: يزجي يعيد سوفاً على رفق، لذلك قال عدي: ويُرْجِي بعد الهذين جهة شمال كما يُرْجِي الكسير. لأنَّ الكسير يرفق به. والركام: الغليظ المتلبّد المتطارف، والودق: الماء والفعل منه ودق.

وقوله: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [سورة التور، الآية: ٤٣] فكلّ مستحجر صلب غليظ يوصف بأنّه جبلٌ وجبال. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَلُ الْأُولَى﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٨٤] وقوله تعالى: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [سورة التور، الآية: ٤٣] أراد من جبال بردٍ فيها، وهذا على التّكثير كما يقال: عند فلان جبال من المال. والمراد أنّ ما ينزله من الغيث يكون ذائباً وجامداً فيقسمه بين الخلق على ما يرى من مصالحهم وإنّما قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [سورة التور، الآية: ٤٣] لأنّ الضّوء الباهر إذا أديم التّظنر إليه أضّرّ بالعين، وكذلك الشيء الأبيض كالثلج وما أشبهه.

فصل

من كلام الأوائل في البرد والطلّ والدمق

قالوا: إنّ البرد إنّما يكون في البخار الحار إذا أصابه برد الهواء وذلك لتنافر الحرارة والبرودة. فإذا أصاب البرد السحاب انقبض الماء في داخل السحاب من كثرة حرارة ذلك البخار، فيجمد في جوف السحاب، وذلك لمضادة الحرّ للبرد ولذلك إنّما يكون البرد في الأيام الحارة لمضادة الحرّ البرد.

فأمّا في الأزمنة الباردة والبلاد الشديدة البرد وإنّ كان البرد منتشرًا في جميع الأماكن، فليس يقع هناك مضادة الحرّ للبرد فلا يكون برداً. فأمّا اختلاف خلقها فمن قيل بُعِدَ وقُرِبَ من الأرض: فإنّ كان بعيداً من الأرض كان صغير الحب وذلك لأنّه يذوب فيما بين مخرجه وبلوغه إلى الأرض، فيصغر قدره ويستدير.

فأمّا ما كان قريباً من الأرض فإنّه ينزل سريعاً فلا يستدير لكن يبقى كثيراً مختلف الشكل، وإنّ كان الصّغر والكبر فيه تبع قدر الماء، وكونه مضغوطاً في السحاب، وربما كان علّة كبر القطر من قِبَل قوّة الرّيح فيضغط أشدّ ضغط فهذا ما في البرد.

فصل في أسباب الطل

فأما أسباب الطل: فيكون إذا كان في الموضع السفلي واجتمع أو تصاعدت بخارات فغلظت من البرودة ينزل الشيء الذي يغلظ لما فيه من الثقل، لأنه ليس تحته من الهواء كثير فيمنعه من النزول كما يمنع الهواء فوق لكثرة الغمام من النزول والقطع الصغار. والدمق: يكون إذا جمد الطل بالبرودة، قالوا: والسبب في بياض الدمق ما تداخله من الهواء لأن الشيء الذي هو فوق ثلج، هو أسفل دمع والشيء الذي هو فوق مطر هو أسفل طل، ومن أجل ذلك قيل: إنَّ الدمق يكون من جمود البخار قبل أن يجتمع فيصير ماء.

البابُ الرَّابِع والثلاثون

في ذكر المياه، والتّبات ممّا يحسُن وقوعه في هذا الباب
وهو ثلاثة فصول

فصل

الأصمعيّ يقال: وقع الغيث بمكان كذا إذا مطر، ولا يقال: سقط. قال الشاعر:

وقع الرّبيع وقد يقاربُ خطوهُ ورأى بعقوّته أزلّ نسولاً
يعني بالأزل الذّئب. وقال آخر:

حتّى إذا وقع السّماك وعشرت عينٌ فمتبعُهُ وأخرى مقربُ

يريد وقع غيثُ السّماك، ولو أراد السّماك نفسه لقال سقط ولم يقل وقع، إنّما الوقع للغيث، والسّقوط للنّجم، قال السّاجع: إذا النّجم هبط، وإذا النّسر سقط، وإذا وقع الغيث قيل: نصرت الأرض فهي منصورة، وإذا وقع الغيث فابتلّ التراب فهو ثرى والأرض ثرية ما دامت رطبة، فإذا جفّ قيل: بلح ومصح. قال يصف إبلاً:

وبلح الرّب لها بلوحاً وأصغر في الأرض الثرى مصوحاً

وإذا اشتدّ ندى الثرى حتى يلزم بعضه بعضاً: فهو الثرى الجعد، فإذا زاد فهو كباب، فإذا ارتفع عنه فهو عمد.

قال الغنويّ: فإذا أصاب المطر وكان ثراه في الأرض إلى الرّبيع فهو المرسغ وهو ربيع، وخير ما يكون من المرسغ إذا كان في شحاح الأرض، وهو ما صلب منها، والرّسغ موصل الكف في الدّراع. وعن غيره إذا كان الثرى في الأرض مقدار الراحة فهو المرحى، قال أبو حنيفة: هكذا روي بتقديم الحاء يريد أنّه يجيء من الرّاحة مروح. قال الغنويّ: وإذا كان الثرى إلى مستحلّ الدّراع، ومستحلّها ما غلظ منها مما يلي المرفق فهو الرّسغ المنبت

النافع. وإذا كان إلى المرفق فهو المطر الجود وهو يجزي الأرض شهراً من المطر. فإذا بلغ الثرى نصف العضدين قيل: حيا. فإذا بلغ المنكب فهو حيا عند جميع الناس لما بعده. فإذا حفر الحافر الثرى فذهبت يده حتى يمس الأرض بأذنه وهو يحتفر. والثرى جعد. فقد اعتقدت الأرض حياستها. ويقال: غيث جدا، لا يحفره أحد ولا سكفه، أي لا يعلم أحد أين أقصاه.

وقال الأصمعي: إذا التقى الثريان فهو الجود يعني أن يتصل الندى الظاهر بالندى الباطن المستكن في جوف الأرض. وحكى الأصمعي عن رؤية: شهر ثرى وعشر ثرى - شهر مرعى - وشهر استوى. وقال ابن الأعرابي: قيل لابنة الخنسي: كم يعقد المطر في الأرض ولا يخرج؟ فقالت: عشر ثرى وعشر ثرى وعشر مرعى^(١). أرادت أن الماشية تشبع في ثلاثين. فهذان القولان متفقان، ومعنى استوى: اكتهل في الشهر الرابع ثم يشبع المعزى.

واعلم أن البلاد تختلف في ذلك: فإن منها الأنبت الممرح فلا يبطئ نباته، ومنه المصلاد التكد الجحد الإنبات. ويختلف أيضاً من قبل الزمان، فإن الأرض إذا جادت والزمان لين كزمان الصّفوى والدفيء والخريف لم تلبث الأرض أن تعشب. وإذا جادت والزمان قسيء بارد منعها البرد من الإعشاب فأبطأت به.

وقال ابن الأعرابي: قال أبو المجيب أعرابي من بني ربيعة: لقد رأيتنا في أرض عجفاء، وزمان أعجف، وشجر أعشم في قف غليظ، وجادة مدرعة غبراء فبينما نحن كذلك، إذ أنشأ الله من السماء غيثاً مستكفاً نشوؤه، مسبله عزاليه - عظاماً قطره - جواداً صوبه - زاكياً ودقه - أنزله الله رزقاً لنا فتنعش به أموالنا - ووصل به طرقات فأصابنا. وأما السوطة بعيدة بين الأرجاء فاهر مع مطرها حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء، وصهوات الطلح فضرب السيل التجاف.

وأما الأودية فرعها فما لبثنا إلا عشرأ حتى رأيناها روضةً تندى، فهذا اجزائها روضت في عشر وهو دون ما قدّمناه من قبل. والعلة فيه الزمان، وإذا اتفق الزمان اللين والأرض الممرح كان هذا ونحوه. وإذا وقع الغيث: فنجع ورؤي تبشير خيره قيل: رأينا أرض بني فلان غب المطر واعدة حسنة. حكاها الأصمعي، فإذا أبصرت شيئاً من النبات فذاك الإيشام والطرور والبقول والإيفال.

أوشمت الأرض توشم إيشاماً، وطر النبات طروراً كما يطر الشارب، فإذا تطررت

(١) كذا في الأصل والله أعلم.

الخضرة لعينك فقد خصبت الأرض تخصب خصباً وخصوباً ودست وتدوست حسناً،
والتربص مثل التدوس.

وكذلك الإبطار يقال: أبشرت الأرض، وما أحسن بشرتها ودسها وكنا التبت إذا طلع.
وإذا اتصل قيل: وصت الأرض فهي واصية قال:

وصي لها غراد وجاد ملبس كل أجرجا. فإذا بلغ اتصاله أن يغطي الأرض قيل:
استحلست الأرض. قال ذو الرمة:

حتى كسا كل مرتادٍ له خضلي مستحلست مثل عرض الليل يحموم
وحيتنذ ترى الأرض مُذهائئة.

وإذا رأيته كذلك فذاك الوراق، فإذا نهض البقل قليلاً وهو أغص ما يكون وأنعمه،
فذلك اللعاع والنعاع وقد ألت الأرض إلعاعاً حسناً. ويقال: تركت المال يتلقى أي يرعى
اللعاع، والشعند نحو من اللعاع، وإذا ارتفع عن ذلك حتى يشتد قيل: عرد يعرد عروداً.

والنقاء: القطع المتفرقة من التبات والواحدة نقاة. قال:

جادث سواريه وإذا رنية نقباء من الصفرء والزباد
وكذلك الثجر والواحدة ثجرة فإذا نهض حتى يملأ أفواه المال فهو جميم، أخذ من
الجمعة على التشبيه.

فإذا ارتفع عن ذلك فهو عميم. ويقال: اعتَمَّ التبت. قال ساعدة:

يرتدن ساهرة كأنَّ جميمها وعميمها أسداف ليلٍ مظلم
ويقال: جادت الأرض بالنبات وغيث جود، وذلك إذا طال وارتفع وقد غلا يغلو غلواً
واغلولب.

ويقال: استلَّ وذلك حين لا يرى فرجة لطوله وانتشاره.

ويقال: أغنت الأرض: وذلك إذا سمعت لها غنة لالتفاف التبات وكثافته وحيثنذ
يقال: استأسد، وقد يكون ذلك من أصوات الذبان. قال شعراً:

مستأسدٌ ذبائهُ في غَيْطِلٍ تُعلنُ للذبايدا عشبٌ أنزلُ

فإذا ظهرت أكمامه وهي غلف الثور فذلك البراعيم والواحدة برعومة. والكعابر
والواحدة كعبرة حتى يتفتح ثم ينشق عن الثور فتخرج زهرته وذلك التقصيح، والثور حيثنذ
فقاخ والبراعيم من قبل ذلك صمع واحدها صمعاء.

ويقال حيثئذ: جَنَّ النَّبْتُ جُنُوناً وأخذ زخرفه وزخاريه وألقى بهجته. قال ابن مقبل:

زخارى النَّبات كَأَنَّ فِيهِ جِيَادَ الْعَبْقَرِيَّةِ وَالْقَطُوعِ

ويقال: اقْتَنَانَ النَّبْتُ اقْتِيَاناً إذا تَزَيَّنَ وظهر حسنه وهو مأخوذٌ مِنَ الثَّقِينِ. ومنه قيل للماشطة: مَقْيَنَةٌ. قال:

وَهُنَّ مَنَاخَاتٌ تَحْلُلْنَ رَمَةً كَمَا قَتَلْنَ بِالنَّبْتِ الْعَهَادَ الْمَجُوزَ

ويقال: أزهَرَ النَّبْتُ إذا ظهرت زهرته وزهر وهو ألوان نوره.

ويقال: نور الثَّوَرِ ونواره وزهرته سواء.

وكذلك الفغو والفاغية. ويقال: أَفغَى النَّبْتُ إذا نور. فأما الأصمعيّ فَإِنَّ الفغو والفاغية عنده ورد كل ما كان من الشَّجَر طيب الرائحة.

وغير الأصمعيّ يجعل الجنون طوله يقول جَنَّ إذا طال فهو مجنون. قال الرَّاجِزُ يصف نخلاً: ينقص ما في السَّحْقِ المجانين. وقال ابن أحرمر:

تَنْفَقاً فَوْقَهُ الْقَلْعَ السَّوَارِي وَجُنَّ الْخَازِبَازَ بِهِ جُنُونَا

فإذا انتهى وبلغ فهو مكتهل، وكل ما انتهى متناه فهو كهل. قال ابن مقبل:

وَقَوْفاً بِهِ تَحْتَ أَطْلَالِهِ كَهَوْلِ الْخِزَامِيِّ وَقَوْفِ الظُّعْنِ

وهو في جميع هذا الأحوال خلا وعشب، ويقال: أَعْشَبَتِ الْأَرْضُ وَاَعْشَوْشَبَتْ وَأَعْشَبَتِ الْإِبِلُ أَصَابَتِ الْعِشْبَ.

وكذلك أخلت الأرض إذا نبت خلالها، فإذا جززته قلت: اختليت. قال:

سَوْفَ الْمَعَاصِيرِ خِزَامِي الْمَخْتَلَى. وهذا كله ما دام رطباً رطب وخضر. فأما الشَّجَرُ:

فإنَّ أَوَّلَ تَوْرِيقِهِ النَّضْحُ يقال: نَضَحَ الشَّجَرُ نَضْحاً إذا تَقَطَّرَ بِالْوَرَقِ وَهُوَ الْيَغْطُ وَالْفَقْحُ يقال: فَقَحَ الْوَرَقَ إذا انْفَتَحَ.

فإذا اكتسى خضرةً من الإبراق قيل: قد تَمَشَّرَ وَأَمَشَّرَ إِمْشَاراً وظهرت مشرته ومشرته بالتحريك والإسكان، والمشرّة من الشَّجَرِ كَاللَّعَاعَةِ مِنَ الْبَقْلِ. قال: وقصارها إلى مشرة لم تتعلق بالمحاجن.

ويقال: أَوْرَقَ الشَّجَرُ إِيرَاقاً وَوَرَقَ تَوْرِيقاً، وَلَا يُسَمَّى وَرَقاً إِلَّا مَا عَرَضَ وَتَبَسَّطَ.

فإذا طال طويلاً شديداً مع بعض التَّبَسُّطِ فهو خوص والواحدة خوصة.

فإذا ظالت مع اندماج، فلم يكن فيه تبسُّط فهو الهدب، والعبل نحو منه، عن أبي

عبدة وأبي عمرو يقال: قد أعبَلَ الأرطى إذا ورق.

وللإعبال موضع آخر: وهو أن يقال: قد أعبَل الشَّجر وذلك إذا تساقط ورقه في قبل الشتاء وكأنَّه من الأضداد.

فإذا نقصت غضاضة الثَّبات واشتدَّ عوده قيل عسا يعسو عسواً.

فإذا وَلَّت بلولته وأخذ يتهياً للجفوف قيل: ذوى يذوي وذأى يذأى أي فهو ذا وفي كلتا اللغتين: وألوى إلواءً وذلك نحو الذوي فيكون النبات حيثنذ لويأً.

فإذا تجاوز ذلك قيل: قد أَقْطَرَ اقطاراً وإقطاراً أيضاً.

فإذا شعفه اليبس قيل: هاج يهيج هياجاً وهيجاً وهو حيثنذ يبس الباء ساكنة ويبس وقفل.

قال أبو ذؤيب: فحزت كا تتابع الرِّيح بالقفل وهو الحفيف والغفيف والقف قال: كشيش أفعى في يبس قف.

وقد قَفَّت الأرض قفوفاً وهو في هذه الحال حشيش، وفي كلِّ حال كلاً ولا يقال له قبل أن يجف حشيش، فإذا تَمَّ فيه اليبس لوى، فإذا تكسَّر بعد اليبس فهو حطام وهشيم. وقال الكلابي: إذا يبس الثَّبت فما دام قائماً فهو ألقف. فإذا تكسَّر وسقط إلى الأرض فهو الحبة، قال أبو النجم:

في حبة جرف وحمض هيكل. فأما الأصمعي فالحبة عنده: حبة ماله حب من الثَّبات، قال ويقال: الإبل في حبة ما شاءت، فإذا ركب بعضه بعضاً فهو ألثن، قال: وأقام بعد الحذب في ثنٍ، فإذا اسودَّ من القدم فهو الدندن. قال:

كالسِّل يغشى أصول الدندن البالي. والدَّرين حطام جميع الثَّبت، والسِّفا شوك البهمي خاصة، والسِّفير ما تساقط من الورق لأنَّ الرِّيح تسفره أي تكتسه وإذا أخذ الثَّبت يجف وأصوله حيَّة ثم جاء المطر عليه فعاد أخضر فذلك النُّشر. قال شعراً:

وفينا وإن قيل اضطلحنا تضاغنُ كماطر أوبار البعير على النُّشر

وهو مطر يأخذ عنه الإبل إذا رعته السَّمام، والهرار ثم تشلح عنه فتهلك وأنشد:

كما نشأت في الجزء مزنةٌ صيفٍ وضمنت الأكوار عاقبة النُّشر

فأما ما نبت في أصول فهي الغمير.

والزَّبل: ما ينبت من غير مطر ببرد الليل ويقال: أربلت الأرض وأربل الشَّجر، ويقال له الخلفة كأنَّه يخلف ما يقدم.

ويقال: راح النَّبْت وتروح إذا اكتسى ورقاً. وحُكي عن الكلبي أنه قال: الرِّبْل والخلفة والريحة واحد، وكل هذا نبت مع طلوع سهيل وضروب من النبات تدوم خضرتها الصَّيف فلا يهيج مع هيج النبات.

يقال لها: الرِّبْب والواحدة ربة والنبات كله يجمعه الشَّجر والعشب. فالشَّجر ما قام على ساق، والعشب ما خالف ذلك ثم ينقسم العشب قسمين: بقلًا وجنيةً، فالجنية ما له أرومة فهو أقوى من البقل، والبقل أحرار وذكر فأحراره ما رَقَّ وعنق، وذكره ما غلظ منه.

البابُ الخامسُ والثلاثون

في ذكر المراتع المخصبة والمجدبة - والمحاضر - والمبادي - وهو فصلان

فصل

قال الأصمعي: إنّ الأوطان والمراتع تختلف في هذا الباب اختلافاً شديداً لأنّ منها ما يطول بقاء الرّطب ودوام الماء فيه . ومنها ما يقصر ذلك فيه .

ومن المراتع أيضاً مسهفة معطشة . ومنها مرواة ، ولذلك تراهم يختلفون في ذكر هيج التّبات وفناء المياه ، فيأتي توقيت زمانه مقدّماً ومؤخراً ، ويحضر قوم ويبقى قوم في النّجعة ، وربّما وجدت السّائمة متعلّفاً من بقايا الرّطب في مثاني الأرض ، ومحاني الأودية ، وأعماق البطون ، وأقام الحيّ يستحلف لهم من الاعداد على الزّوايا فيؤتون بالماء إلى مباديهم حتى يستنفدوا الرّطب فيكون حضورهم إذا لم يجدوا له مدفعاً ، ولا يجدون إلى الأجزاء سبيلاً .

واعلم أنّ المراعي تنقسم قسمين : خلة وحمضاً ، فالحمض ما كانت فيه ملوحة والخلة ما لا ملوحة فيه . والحمض : يرخي بطون الإبل ويعتق لحومها ، ويطيل أوبارها وينفشه ، ويغلظ ويكثر عليه شربها .

والخلة على خلاف ذلك ، والخلة للإبل كالجز ، والحمض كالأدم ، فإذا عافيت بينهما كان ذلك أفضل ما يكون .

وإذا أخضبَ الناس قيل : أحيوا الحيوان أحياء ، والحياء الخصب ، وجمع الخصب إخصاب ، وجمع الحياء أحياء ، وأنشد الأصمعي في جمع الخصب :
كأنّما يزيّنه الإخصاب بالمعر الحمر .

وهذا عام : حياء - وعام أوطف - وأعزل - وأقلف - وغيداق - وعام فتق - وكلّ ذلك معناه الخصب قال . لم ترج رسلاً بعد أعوام العتق . فإذا كان عاماً مشهوراً بالخصب قيل له : عام المال . قال :

رَأْتِي تَجَاذِبُ الْغَدَاةَ وَمَنْ يَكُنْ فَتَى قَبْلَ عَامِ الْمَاءِ فَهُوَ كَبِيرُ

ويقال: ربيع الرِّبيع، ونحن في ربيع رابع، والنَّاسُ في الرَّغد، والرَّغد وقد أرغدوا وهم في رفاهة ورفاهة ورهفئة، وبلهنية، ورخاخ من العيش، ورخاء ورفاغة وفي عيش دغفل، وغدفل وأغضف وغاضف، وهم في مثل حدة البعير وفي مثل الحولاء.

وذلك إذا كانت الأرض مخصبةً معشبةً وفي عيش إبله وأهني كل ذلك الخصب وهذا بلدٌ خصيبٌ وخصيب وخصب. وإذا كان ذلك عادته فهو مخصبٌ.

ويقال: أرتع القوم إذا رتعوا في خصب وتحقيقه: نالوا مرتعاً. وأفتقَّ القوم إذا أعشبوا، وأسمنوا وإذا أجذب النَّاسُ قيل: استنوا وهذا عام سنة. ومما حكى: الأرض وراءنا سنة، وأرضون سنون أي مجدبات.

وكذلك مُحول وأرض محل ومُحلة وأمحلث ومحلث، وبلد ممحل وما حل وأصابتهُم أزية وأزمة - ولأواء ولولواء - وشصاصاء - وفحمة وحجرة. ويقال: أحجر عامنا إذا قلَّ مطره قال:

إِذَا الشِّتَاءُ أَحَجَرَتْ نَجْوَاهُ وَاشْتَدَّ فِي غَيْرِ ثَرَى أَزْوَاهُ

ويقال: أصابتهُم كلبَةُ الزَّمان، وهلبة الزَّمان، والسَّنة القلالية الأمطار وقد قوي المطر، والعام الأبقع الذي قلَّ مطره.

ويقال: سنة سنواء، وأرض بني فلان جُرْز، ومجروزة وجرزات وفل ومخرجة وبقعاء.

ويقال: لم يصبها قابة أي قطرة، وإذا أخطأ الأرض الوسميَّ كله وصدر الولي ففي ذلك الشتاء بقلبه وإصراده، فذلك المحل لا شك فيه المجلى، وهذا المعنى عبَّرَ عنه الشَّاعر في قوله:

إِذَا غَرَدَ الْمَكَاءُ فِي غَيْرِ رَوْضَةٍ فَوَيْلٌ لِأَهْلِ الشَّاءِ وَالْحِمَرَاتِ

وذلك أنَّ المكاء لا يعدن بغير الرِّياض، ولا يقيم إلا في معاشيب الأرض وفيها تبيض وتفرخ وتزقو وتغرَّد. وقد بيَّن الرَّاعي، فقال: يفضلُ الإبل على المعزى والحرر.

إِنَّا وَجَدْنَا الْعَيْسَ خَيْرَ بَقِيَةٍ	مَنْ الْفَقْعُ أَذْنَاباً إِذَا مَا أَفْشَعَرَتْ
يَنَالُ جِبَالاً لَمْ يَنْلُهَا جِبَالُهَا	وَدَوِّيَّةَ ظِمَاىَ إِذَا الشَّمْسُ ذَرَّتْ
مَهَارِيسَ فِي لَيْلِ التَّمَامِ نَهْتَهُ	إِذَا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهَا الْجِنَّ فَرَّتْ

يعني بالفقع أذئاب المعزى، يقول الإبل: تستطيع أن تنال من البلاد ما لا تستطيعه الغنم، ويصبر على الظما وقال جندل الطهوي يصف عيراً:

رعى جماد ثادق فالقر قره	أزواج مزه زخري الزهرة
حتى إذا ما الهيف حث تمره	وأسبلت بعد الجناه الهيشرة
وودع العش فراخ الحمرة	ونشر اليسروع بردي حبرة
وظهرت ذات العشاء الحشرة	ونقض الفقع فأبدى بصرة
وقام للجندب ظهراً صرصرة	شد على أهل الورد ميرزة

أراد بالأزواج الألوان من التبات والمزهي: ذو الزهو والهيشرة نبت، ويعني ببردي حبرة جناحيه لأنه يسلخ فيصير فراشة في آخر الربيع وإنما ظهرت الحشرة ذات العشاء لبرد الليل. وإن حرّ النهار كان مانعها من الانتشار، والفقع ضرب من الكماة أبيض، فإن استبشر في أول الزمان، وإلا شقّ الأرض عن نفسه، وظهر ثم يصفر إذا تطاولت به الأيام واشتد الحر. لذلك قال الساجع: إذا طلعت الهقعة أدرست الفقعة، وتعرض الناس للقلعة، ورجعوا عن النجعة، وقال الزاعي في ظهور الفقعة من تحت التراب:

بأرض بين الفقع فيها قناعه كما أبتن شيع من رفاعه أجلع

شبه الفقعة برأس الشيخ لتجردها. وقال الساجع أيضاً في الظعن عن البدو والرجوع إلى الحضر: إذا طلع الشرطان خضرت الأعطان، وطلوع سهيل وقت لأول التبدي وغيوبته وقت لأول الحضور، وهو يطلع إذا ناء سعد السعود ويغيب قبل أن ينوء الغفر. فمدة طلوعه نحو من ثمانية عشر نوءاً وذلك قريب من ثلثي السنة، ومدة غيوبته نحو من عشرة أنواء، وهو قريب من ثلث السنة. وقال ذو الرمة يصف امرأة ويذكر وقت مبدئها ومحضرها شعراً:

غراء أنسة تبدو بمقلبه	إلى سويقة حتى يحضر الحضر
تشتو إلى عجمة الدّهن ومربعها	روض يناصي على ميثه العفرا
حتى إذا هزت البهمي ذوائبها	في كل يوم يشهي البادي الحضر
وزفزفت للرباني من بوارحها	هيف أنشت به الأصناع والخبرا
رّدوا لأحداجهم بزلأ مخيسة	قد هزل الصيف عن أكتافها الوبرا

وواحد الأصناع صنع، وهو محبس الماء وزفرقة الريح سوقه لحطام التبت فيسمع جرسها ومعنى أنشت أيسست، والخبرة القاع نبت السدر، والجميع الخبر فهذا ابتداء ذكر المبدأ والمحضر وسنحكم القول فيه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل

في ذكر ما كانت العرب تفعله وقت إمساك القطر في الجاهلية الجاهلاء

قال أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي: كانوا إذا استمطروا عمدوا إلى السِّلَع والعشر فَعَقِدُوها في أذنان البقر، وأضرَموا فيهما النَّارَ، وأصعدوها في جبل وعر وتبعوها يدعون الله عزَّ وجلَّ يستسقونه. قال ابن الكلبي: وكانوا يضرَمون تَفَاوُلًا للبرق قال لمية في ذلك:

سنة أزيمة تخيل للناس	تري للعضاة فيها صريرا
لا على كوكب ينوء ولا ريـ	ح جنوب ولا تري طُخُوروا
ويسوقون باقر السَّهْل للظُّو	د مها زيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في تكن الأذ	ناب منها لكي يهيج البُحُورا
سلع ما ومثله عشر ما	عايل ما وعالت البيقورا

بيقور: جماعة بقر، يقال: بقر وباقر وبيقور وغلط في هذا عيسى بن عمرو والأصمعي جميعاً، فأما الأصمعي فإنه روى وغالت البيقورا، واحتجَّ لتصحيحه بأنه ذهب إلى المراءة من أجل السِّلَع، فقال: يقال: ما أبقره وأمقره. وقال عيسى: لا معنى لقوله: سلع ما. وقال ابن السكيت: معنى قوله: وعالت البيقورا أنَّ السنة الجدبة بقلت البقر، ممَّا حملت من السلع والعشر، وأنشد أبو عثمان الجاحظ للورل الطَّالِي شعراً:

لا دَرَّ دَرَّ رجالٍ خابَ سعيُّهم	يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعلٌ أنتَ بيقوراً مسلعةٌ	ذريعة لك بين الله والمطرِ؟!

قوله مسلعة يعني ما عقد في أذنانها من السِّلَع. وقال أبو حنيفة: وكانوا إذا فعلوا ذلك توجَّهوا بها نحو المغرب من بين الجهات قصداً إلى العين، يعني عين السماء. وهذا الذي ذكرناه عن العرب من الزَّمن تشاركها الأمم في أمثاله كثير نجات الفُرس، ووهم الهند، وعقد الرُّوم.

وقالت الفلاسفة: رموز النَّفس تنقسم ثلاثة أقسام: قسم منها رمز فوق الطَّبيعة كالرَّقِي والوهم، وقد قال بعضهم: إنَّ للنَّفس كلمات روحانية من نحو ذاتها. وقسم منها رمز نحو الطَّبيعة كتعليق الحرز وما أشبهها. وقسم منها دون الطَّبيعة كالتمائيل واستعمالها، فهذا كما ترى وإنَّ عرض فيما يعمل ما يقتضي القول في شيء من الرُّموز أعدنا القول فيها إنَّ شاء الله تعالى.

الباب السادس والثلاثون

في ذكر أحوال البادين والحاضرين، وبيان تنقلهم وتصرّف الزمان بهم

قال الأصمعيّ: للعرب ظعنان: أحدهما ظعن للتبدي وذلك إذا أخرجوا وميقاته ما بين طلوع شهيل إلى سقوط الفرج المؤخر، فإذا أخرجوا تصدّعوا عن المحاضر ولقسمتهم المناجع، وحجروا الأعداد، واستبدلوا بها الأوراد، فظعنوا عن دار المقيظ.

والظعن الآخر: يكون عند انصرام الرطب وهيج الأرض ونضوب الماء، وهجوم الصيف كما قال: (حتى إذا العود انتهى الصبوحا) يعني شدة الحر، والعود أضبر على العطش من غيره، فإذا انتهى الماء في أول النهار فهو أشد الحر، وقد كثر متصرفاتهم في وصف المحليين، والتّردّد في الرحلتين، ومفارقة الحضارة، ومراجعة البداوة. وذلك أنّهم يقيمون على مياههم ما أقامت وقعات الحر، وعزات القيظ، فإذا سكنت نائرتها وأذنت بتوليها، فباخت سورتها وأمكن مَدَّ إظمائها، وأقبلت الأرض تربل، والعضاء تترّج ابتدؤوا يدون.

وقد أخبر بعضهم عن ذلك قال:

قد تشكى النساء وأظلم الأمعو دُ واخضّر جيبُ أمر قسيم

أي اتخذن الشكاكين، وأظلم أراد أنّ الظباء سمّنت وأشربت، فهي تتناطح، وأمر قسيم: إذا خرجت زهرتها من الثّبات فمن متبّطى ومتعجل، وذلك على حسب مساعدة الأحوال ومداورة الأزمان لأنّها كما تستنفض تستوقف، وعلى ما تقدم قد تؤخر، فبكاؤهم للظّاعنين وجزعهم في أثر المفارقين، وحينئذٍ على الخلطاء، والمجاورين للعارض المغير، كما أنّ مداناة المزالف ومراجعة النالف والمخالف لحادث آخر مُبدّل، فتارةً يبنون عرش الشجر وهو الخيام مظلمة بالتمام وتارةً يسكنون بيوت الصّوف والوبر منصبة بالعمد والحبال.

فمن ذلك قول ذي الرّمة شعراً:

ألا حَيَّ المنازلَ بالسَّلامِ على نحل المنازلِ بالكلامِ
لميةً بالغاً درجت عليها رياح الصَّيف من عام فعامِ
سَحَبْنِ ذبولَهَن بها فأضحَتْ مصرعةً بها دعم الخيامِ
أَقْمَنَ على بوارحِ كُلِّ نجمٍ وطَيَّرَتِ العواصف بالتمامِ

قال ذلك لأنهم إذا ظعنوا عن المحاضر تركوا الخيام على حالها أو نزعوها ونضدوها استعداداً للعودة، فتزعزعها الرياح إذا تقادم العهد بها. ومن ذلك قول امرئ القيس:

أمرخ خيامهم أم عشرُ؟ أم القلب في إثرهم مُنحدرُ؟

قصده أن يعلم بأي الماء نزلوا خيامهم من شجرها والمعنى أنجدوا أم غاروا أم اتهموا فأحدر القلب بانحدرهم، وهذا كما قال: ففرعنا ومال بها قضيب. لأنَّ قضيباً من تهامة، وكما قال الآخر: وسالت بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ.

وقال ابن الأعرابي: الحتمة ثلاثة أعواد أو أربعة يلقي عليها الثمام يستظل بها في الحر، والمظلة لا يكون إلا من الثبات، وتكون كبيرة، ويكون لها رواق وربما كانت شقة أو شقتين أو ثلاثاً. وربما كان لها كفاً وهو مؤخرها. قال: والخباء من شعر أو صوف، والقبّة: تكون من آدم. وكذلك الطّراف، وقال: المَظَلَّة بفتح الميم لا غير. قال زهير:

تَبَصَّرَ خليلي هل ترى مِنْ ظعائِنٍ تَحْمَلُنَ بالعلياء مِنْ فوقِ جُرُثِمٍ
جعلنَ القنَّانَ عن يمينِ وحزنه وكم بالقنَّانِ مِنْ محلٍّ ومحرمٍ
فلَمَّا وَرَدَنَ الماءَ زرقاً جمامُهُ وضغنَ عَصِيَّ الحاضِرِ المتَّخِمِ

فهذا الظَّن للبداوة فأما قول طفيل شعراً:

على اثر حي لا يرى النجم طالعاً من الليل إلا وهو قفرٌ منازلُه
فإنَّ مَنْ تبدَّى أوان التبدّي من الخريف لم ير الثريا طالعة أوّل الليل إلا وهو نازل
بالقفر لأنَّ أوّل طلوع الثريا عشاء هو لطلوع السَّمَك الأعزل بالغداة وسقوط الرّشاء، وذلك في الوسمي وبعد طلوع سهيل. وأما قول ذي الرّمة:

إذا عارضَ الشعري سهيلاً بجهمة وجوزأؤها استغنينَ عن كُلِّ منهلٍ

فهو يصف إبلاً واستوثق لهما، لأنَّ سهيلاً إذا طلع بقيّة من الليل وهي الجهمّة، فذاك قبل الوسمي، ودبر القيط، والزّمان زمان ندى، وروح وطل وغيث. وقد قال ساجعهم: إذا طلعتِ الصّرفة أميز عن الماء زلفه، لأنّها إذا طلعت ناء الفرع المقدم وهو آخر أنواء الخريف، وفي اثره الفرع المؤخّر وهو أوّل أنواء الوسمي فلا يزالون يتبعون مواقع الغيث

ويتحولون في معاشيب الأرض ويشربون ماء السماء ويجتزون بالزّطب، عن الورد وهم في سلوة من العيش، ورغد من الخفض يرمي التّوى بهم المرامي، فمن شعب يلتئم إلى شعب، ومن جمع يلتئم مع جمع ومزار تقرّب بعد بُعد، ومطاف يسهل عقيب وعير، ومواعيد بين الأحبة أنجزت وعقود من حبال جوار ووصال أوثقت حتّى إذا تحرّك الهيف وهو أوّل الحر ومبدؤ البوارح، بذلت الأرض والدّهر ذو تبدّل، فمن بقل ذابل وماء غايض ونهي ناضب، وصيف صائف، وهيج يشتد وورد يمتد، وكبد من الماء تحر، وصبر على بلواه ينفد ويقل، حينئذ ترى ذا الرّاحة يتعب، والمتأخّر يلحق، متصدّعين عن مباديهم، سعيّاً ومفترقين عن مقارّهم شفقاً فكم قلب لفراق الأحبة جزع، ودمع لوداعهم همع، وأنس لبيتهم يقطع، ووجد بيّعههم تجدد. وكلّ هذا أثّ به الأشعار وترادفت بأمثالها الأخبار، فمن ذلك قول جرير يذكر سائرة ضمتّها إليهم التّجعة ثم تفرّقوا فأسف لفراقهم. قال شعراً:

ألا أيّها الوادي الذي ضمّ سيله	إلينا نوى ظمياء حُيت واديا
فقد خفّت ألا تجمع الدّار بيننا	ولا الدّهر إلا أن نجد الأمانيا
وقولا لواديهما الذي نزلت به	أوادي ذي القيصوم أمرغت واديا

وقال ذو الرّمة:

حتّى إذا ما استقلّ النّجم في غلس	وأحصّد البقل أو ملو ومحصود
ظلمت تخفّق أحشائي على كبدي	كأنّني من حذار البين مورود

من ورد الحمي، وقال الجعدي يذكر امرأة جاورتهم في مرتع شعراً:

أقامت به حدّ الرّبيع وجارها	أخو سلوة مسى به اللّيل أملح
فلما انتهى في المربيع أزمت	حفوفاً وأولاد المصانيف رُشع
وحبّ السّفا واعترها القيظ بعدما	طباهنّ روض من زبالة أفيح
وحاربت الهيف الشّمال وأذنت	مذانب منها اللّدن والمتصوّح
وقمن يزورن الهوارج بعدما	مضى بين أيديها نعام مسرّح

يريد بأخي السّلوّة: الندى لأنّهم في سلوة ورخاء ما أقام لهم، وهو الأملح لبياضه. وقوله: مسى به اللّيل: لأنّ النّدى باللّيل يسقط. وقوله في المربيع: يريد سمنها. والمربيع: جمع المرباع وهي التي من عادتها أن تنتج في أوّل التّاج. والمصانيف: التي تنتج في آخر التّاج. والرّشع: جمع راشع وهي التي تمسكها أمّها لثلا تسقط وهو التّرشع. ويقول الرّجل لصاحبه: لقيت فلاناً يرشح ولد ناقته إذا فعل بها. وقوله: وحاربت الهيف الشّمال. لأنّ الشّمال والصّبا ريحا البرد. والجنوب والدّبور ريحا الحرّ. والمتصوّح: اليابس المشقّق، قال ذو الرّمة:

وصوَّحَ البقلُ ناجَ تجيء به هيفُ يمانيةً في مُرَّها نكبُ
فجعلها النكباء التي تلي الجنوب . وقال الكعبي المنقري :

تمرع إذ تسعى بها ذو إيالة من الحرِّ ما كانت مذاربه خُضرا
يصف راعياً تمرع طلب مريع الكلاء . تسعى بها : تتمادى في الطلب . ذو إيالة : حاذقاً
بمعالجة الإبل والقيام عليها . والمذارب : المشارب وذلك أنَّ الثريا إذا طلعت سحراً تحوَّل
جميع أهل المراتع إلى المحاضر ليس الكلاء ، ونضوب الماء ، وذهاب الجز ، فلا يبقى في
المراتع إلا مَنْ يتولَّى رعيه الإبل بنفسه ، ويتشيع سرار الغيطان ، ويطون الأودية . والعلان :
التي فيها بقايا الرطب ، ولا يكون ذلك التخلف إلا شهراً وبعض آخر ، وهو من وقت طلوع
الشرطين ، لست عشرة ليلة نحو من نيسان إلى وقت طلوع الثريا يخلو من أيار إلى طلوع
الدبران وهو لليلة من حزيران وأنشد :

أقمن شهراً بعد ما تَصَيِّفا حتى إذا ما طرد الصَّيف السَّفا
قَرَيْنَ بَزْلاً ودليلاً مُحَيِّفا وبُذِلَت والدَّهْرُ ذو تبَدُّلٍ
هيفاً دبوراً بالصَّبا والسَّمال

فلم تزل السَّمال عاليةً زمان العشب ووقت الحركة ، حافظة لبلولة النَّبات لروحها حتى
إذا انقضت أيامه ، ودخل الصَّيف ذهب سلطانها وهبت الجنوب فدافعتها .

وإنما سُمِّيَ الهيف لِحرِّها وبَيْسها ، ولذلك قيل للسَّريع العطش : المهيف ورجل
هاف ، وامرأة هافة ، وقد هاف الرَّجل إذا عطش .

وقال الكلابي : الهَيْف أوَّل السَّموم وقد يجعل كلَّ ريح هبت بحرُّ هيفاً وإن كانت
الشَّهرة في ذلك للجنوب والدُّبور . والنكباء التي بينهما . هذه أغلب الرِّياح على الهيف وقال
ذو الرِّمة يصف عيشاً ونساءً انتجعنه شعراً :

ألقى عصي النوى عنهنَّ ذو زهرٍ وحَفَّ على ألسِن الرِّواد محمودُ
حتى إذا وجفت بهمي لوى لبن واصفَرَّ بعد سوادِ الخضرة العودُ .
وغادر الفرخ في المثوى تريكتَه وكان من حاضر الرِّجلين تصعيدُ .
ظللَّت تخفق أحشائي على كبدي كأنني من حذار البين مورودُ

قوله : ذو زهر يريد بها نباتاً ثم واكتهل فظهرت زهرية يريد استغنى به عن انتجاع .
وقوله : وحفت : أي يبست فطيرته الرِّيح ، وقوله : غادر الفرخ تريكتَه أي بيضته التي خرج
منها ، وهذا باب واسع . فأما قول الآخر :

ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا زمناً ويطعن غيرنا للأمرع
فإنما تبجح بحسن صبره في دار المحافظة على العزّ والمنع عن الحريم، إلا أنه عد
الظن عيباً يدل على ذلك قوله من بعد:

يسيل تغر لا يسرخ أهله اسقم يُشار لقاءه بالأصبع
وأنشد الأصمعي:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

وهذا يحتمل وجهين: يجوز أن يكون جمعهما المربع، وكان ساكن النفس لاستمتاعه
بها وامتداد الوصال معها، حتى إذا رأى الجوزاء طالعة علم أنها تظعن وينقطع ما بينهما،
فترجع إلى بعض محاضرها، لأن ذلك وقت الانصراف عن البدو، فلذلك ظن الظنون السيئة
لا سيما وقد كان أبهم عليه منصرفها.

وأما أن يكون مبدؤه كان مخالفاً لمبدئها، فهو لا يدري مقرّها، لأنهم ما داموا
منتجعين فداؤهم حيث يصادفون الكلاء والماء فلما طلعت الجوزاء علم أنه لا بدّ لها من
الحضور، وقد عرف لها محاضر شتى، فالظنون تردده بينهما وتخالجه فلا يتملك متيقناً.

قال أبو ليلى: يفارق القمر الثريا في زمن الوسمي كله، وهو شهران، وشهر من
الدفيء ثم تأفل الثريا أربعين ليلة شهراً من الدفيء وعشر ليالٍ من الصيف. ثم تطلع صلوة
الغداة إلى أن تأفل ثانية من العام المقبل.

قال أبو حنيفة: وربما اعتاد الحيان مبدأ بعينه، فلا يزال الربيع يجمعهما فيه ثم
يصرفهما الصيف ولذلك قال ذو الرمة شعراً:

إذا الصيف قد أجلى نساء من النوى أمّلت اجتماع الحي في عام قابل

وقال أيضاً وهو يصف نساء آخرن الظن عن مرتعن حتى تصيفن:

تصيفن حتى اصفرّ أقباط مطرق وهاجت لأعداد المياه الأباعر
ولم يبق أنواء الثماني بقية من الرطب إلا بطن وادٍ وحاجر
فلما راين الصنع أسعى وأخلقت من العقربيات الهيج الأواخر
جذب الهوى من سقط حوضي بسدفه على أمر ظعان دعت المحاضر

نسب بوارح هذا الزمان إلى سقوط رقيب الهقعة، لذلك قال: الهيج الأواخر وقد
أكثر الشعراء في إشارات هذه الأوقات التي حدّدناها بما ذكرنا من أوصافها وبيننا كثيراً من
أحوال الحاضرين والبادين فيها وفي القدر الذي أوردناه كفاية.

الباب السابع والثلاثون

في ذكر الرّواد وحكاياتهم وهو فصلان

فصل

قال ابن الأعرابي: يقال: ماء مدرع: إذا أكل ما حوله من الكلاً وماء قاصر: إذا كان المال حوله يرعى.

وحكى الأصمعي في صفة رائد: هو شديد الناظر شديد الخابر، ينظر بملء عينه لنفسه وغيره. قال: وزعم أبو صالح التميمي أنّ رجلاً من العرب سأل أعرايين، فقال: أين مُطرتما؟ قالاً: مطرنا بمكان كذا وكذا. قال فماذا أصابكما من المطر؟ قالاً: حاجتنا. قال: فما سبل عليكما؟ قالاً: ملنا الوادي كذا وكذا فوجدناه مكسراً، وملنا الوادي كذا فوجدناه مشطياً. قال: فما وجدتما أرض بني فلان؟ قالاً: وجدناها ممطورة. قد ألس غميرها. وأخوص شجرها. وأخلص نصيضها، وأليث سخيرها. وأحلس حليها. ونبيت عجلتها. قوله: مكسراً يعني سالت جرفته وشعابه ومعنائه أي جوانبه، ومعنان لا واحد لها من لفظها ومعنى مشطياً سال شاطئاه، ومعنى نبيت صارت لها أنابيب. وأحلس حليها أي قد خرج فيه خضرة والخضرة الطرية. ويقال: قد أحلس وأليث سخيرها يعني اشتعل ورقاً.

قال: وقيل لآخر: كيف كلاً أرضك؟ قال: أصابتنا ديمة بعد ديمة على عهد غير قديمة. فالتاب يشبع قبل العظيمة. وقيل لابنة الحسن: ما أحسن شيء؟ قالت: غادية في اثر سارية في تنجاء قاوية. التنجاء: أرض مرتفعة لأنّ النبت في أرض مشرف أحسن. وقد قالوا: نفخاء رابية. قال: ليس فيها رمل ولا حجارة. والجميع نفاخي ونبت الزاوية أحسن من نبت الأودية. لأنّ السيل يصرع الشجر فيقذفه بالأودية فيلقى عليها الدمن.

وقالت أيضاً: أحسن شيء سارية في اثر غادية، في روضة أنف، أكل منها وترك.

وقيل لأعرابي: أي مطر أصابك؟ قال: مطيرة يسيل شعاب السخبر. وتروي التلعة المحلة شعاب السخبر. عرضها ضيق وطولها قدر رمية الحجر. والتلعة المحلة التي تحلّ

بيتاً. وقد حنأت الأرض تحناً وهي حانية أي اخضرت والتفت نبتها وإذا أدبر وتغير نبتها قيل: اصحامت فهي مصحامة.

وقال أبو داود الأعرابي: تركنا بني فلان في ضفيغة من الضفائف وهي الكلا والعشب الكثير.

ويقال: وعبنا رقة الطريقة وهي الصليان والتصى. والرقة أول خروج نبتها رطباً. وحكوا عن الينمة أنا الينمة أغبق الصبي قبل العتمة وأكب الثمال فوق الأكمة، كهية زيد الغنم يقال: ثمال لبنها كثير، وكلما كثرت رغو اللبن كان أطيب له، يعني دري بعجل للصبي لأن الصبي لأبصر والمراغي أطيب لبناً من المصاريح. والينمة بقله يشبه الباذروج. وقيل لأعرابي: هل لك في البدو؟ فقال: أما ما دام السعدان مستلقياً فلا قال، وهو أبداً مستلق كره البادية.

وعن غير ابن الأعرابي قال: خرج الحجاج إلى ظهرنا هذا فلقي أعراباً وقد انحدروا في طلب الميرة، فقال: كيف تركتم السماء وراءكم؟ فقال: متكلمهم: أصابتنا السماء هي بالمثل، مثل القوايم حيث انقطع الرمث يضرب فيه تفتير وهو على ذلك يعضد ويرسغ ثم أصابتنا سماء أمثل منها يسيل الدماث - والتلعة - الزهيدة - القليلة الأخذ فلما كنا حذاء الجفر أصابنا ضرس جود ملأ الآخاذ. واحدها أخذ وهي المصانع. فأقبل الحجاج على زياد بن عمرو العتكي، فقال: ما يقول هذا الأعرابي؟ قال: وما أنا وما يقول إنما أنا صاحب سيفٍ ورمح. قال: بل أنت صاحب مجذافٍ وقلس أسج، فجعل يفحص الثرى ويقول: لقد رأيتني وإن المصعب يعطيني مائة ألف، فما أنا أسبح بين يدي الحجاج.

قال: وسئل أعرابي عن المطر فقال: أصابتنا السماء بدث، وهو المطر القليل لا يرضي الحاضر ويؤذي المسافر - ثم رككت - ثم رسغت - ثم أخذنا جار الضبع فالأرض اليوم لو يقذف بها بضعة لم تقض بترب، أي لم يقع إلا على عشب قضت وأقضت إذا أصابها القفض أي كثر المطر، حتى لم يوجد القفض ورسغت، أي كثر المطر حتى يغيب الرسغ، والرك أكثر من الدث.

وقيل لأعرابي: ما أشد البرد؟ قال: إذا كانت السماء نقية - والأرض ندية - والريح شامية. وقيل لآخر: ما أشد البرد؟ فقال: إذا صفت الخضراء، وتذبت الدقعاء، وهبت الجرياء. وقيل لآخر: ما أشد البرد؟ قال: إذا دمع العينان وقطر المنخران، ولجلج اللسان.

وقال أعرابي: ليس الحياء بالسجية يتبع أذنان أعاصير الريح، ولكن كل ليلة مسبل رواقها، منقطع نطاقتها، نبيث أذان ضأنها تنطف إلى الصباح.

وحُكي عن أبي عبيدة قال: قلت لأعرابي: ما أسخّ الغيث قال: ما ألقخته الجنوب ومرته الصّبا ونجته الشّمال. ثم قال: أهلك واللّيل ما يرى إلا أنه قد أخذه. وقال الأصمعي: قيل لرجل: كيف وجدت أرض بني فلان؟ قال: وجدت أرضاً شبعث قلوبها، ونسيت شأنها يعني لا يذكر. قال: فهل مع ذلك خوصة؟ قال: شيء قليل كل ما خرج عود ثم قوي فهي خوصة. قال والله ما أحمدت وإن كان القوم صالحين.

قال ابن الأعرابي: أخصب الخصب عند العرب فيما ذكره أبو صالح إذا كان الخوص وافراً، وقال رايد مرة: تركت الأرض مخضرة كأنما حولانها قصيصة رقطاً وعرفجة خاصبة، وقنادة مزيدة، وعوسج كأثّة التّعام من سواده مزيدة أي قد أورقت.

وحُكي عن أبي المجيب ووصف أيضاً جذبة فقال: قد اغيّرت جادتها - ودرع مرتعها - وقضم شجرها - وألقى سرحاها - ورقّت كربتها - وخوّر عظمها - وتميّز أهلها، ودخل قلوبهم الوهل - وأموالهم الهزل. قال: الجادة الطريق إلى الماء. قوله: وألقى سرحاها: هو أن يأكل كلّ سرح مذيّلها، حتّى يلتقي من الجذب، قال: وإذا لم يكن لِلْمَالِ مرعى إلّا الشّجر رقت أكراشه، وخوّر عظمه. قوله: درع مرتعها: أكل ما عليه حتّى لم يبق شيء وهو مأخوذ من الشّاة الدّرعاء.

وقال أبو المجيب يصف أرضاً قد أحدها، فقال: خلع شيحها - وأقبل رمتها - وخضب عرفجها - وأسقى نبتّها - واخضرت قريها - وأخوصت بطنانها، . وأحلت آكامها - واعتم نبت جرائمها - وأحزت بقلتها - وذقتها وخبازتها - وخوّرت خواصر إبلها - وشكرت محلوبتها - وسمّنت قتبوتها - وعمد تراها، وعقدت تناهياها، وأماث ثمادها - ووثق الناس بصايرتها.

قوله: خلع شيحاً إذا أورق، والمخالع من العضة: الذي لا يسقط ورقه أبداً. ويقال: كلع الشّجر إذا انحرد. قوله: خضب عرفجها: أي اسودّ النّبات قبل أن يطلع، والرّمث من الحمص مخضب ثم عاد - ثم سقد - ثم يرمس - يقال: أطلع الشّجر إذا أورق وتفتّر - واتقد - وأربس - وأرمس - وأرى العرفج - وبقل الرّمث خاصة - وأجدر الشّجر إذا طلع ثمره حتى كأثّة الجدرى.

قوله؛ أخوصت: أي نبت فيها عيدان رطبة فهي خوصة ما دامت رطبة فإذا يبست فهي شجر، ولا يخصوص من الشّجر إلّا ما لم يكن له شوك. قوله: أحزت لفلتها أي نبت فيه الحزا، وهو نبات يُسمّى الحزا كما تقول العلقه - والحيلة - والفتلة - فالحيلة للسلم - والعلقه للطلح - والفتلة للسمر - والدّرق الحندقوق. قوله: خوّرت خواصرها: هو أن يؤخذ جنبها

فيضرب على خواصرها خوف أن يحبط فيبعد أُنْقُها - والأفق الخواصر. قوله: عمد تراها العمد أن يجاوز الثرى المنكب.

ويقال: إنَّ ذلك حيا ستين. قوله: عقدت تناهيها: فالتناهي حيث يتناهي السيل فيستقر فعقدها أن يمر السيل مقبلاً حتّى إذا انتهى منتهاه. دار بالأبطح حتى تلتقي طرفا السيل، ووثقوا بصائرهما: يراد بها ماؤها وكلاؤها.

وقال الأصمعي: وصف بعض الأعراب جذباً وعيشاً، فقال: بينما نحن في زمن أعجف - وأرض عجفاء - وقف غليظ - وجادة مدرعة - إذ أنشأ الله سبحانه مستكفاً نشوءه - ضخاما قطره، مسبلةً عزاليه - جعود صوبه فاهرمع المطر حتى ملأ الأودية، فرعبها وبلغ السيل النجاء حتّى لم ير إلّا الماء. وصهوات الطلح فلم يمكث إلا عَشْراً حتّى رأيتها يندى، فنعش الله به أموالنا، ووصل به طرفنا وكنّا بنوطة بعيدة بين الأرجاء. قوله: الجادة: يعني الطريق إلى الماء ومستكفاً أي مستديراً. ونشوؤه ما نشأ إليه. وعزاليه أفواه مخارجه. وصوبه ما سال منه وانصب. واهرمع اشتد. ورعبها ملؤها. والنجاء جمع نجوة وهو الموضع المرتفع لا يكاد يبلغه السيل. والصهوات عالي الطلح. والنوطة البعد. والأرجاء: النواحي.

وقال ابن الأعرابي: بعث قومٌ رائداً لهم فقالوا: ما رأيت؟ قال: رأيت جراداً كأنه نعامه جائمة، جراد جبل. قوله: نعامه جائمة يقول: فيه من الخصب والعشب الكثير حتّى كأنه نعامه، وإنّما أراد سواد العشب وأعلى النعامه أسود. وبعث آخرون رائداً لهم فقالوا: ما رأيت؟ قال: رأيت عشباً ينجع له كبد المصرم إذا رأى هذا، وجعت له يعني أنه لا مال له أي إيلاً ترعى هذا العشب حسرةً على ما رأى. ويقولون: وردنا على كلاً الحابس فيه كالمرسل يعني يستويان فيه لكثرته والتفافه. ويقولون: ورَدْنَا على كلاً لا يكتمه البغيض. وقال طرفة:

يرعينَ وَسميًّا وصى نبُّه فانطلقَ اللّون ودَقَّ الكشوخُ

وصى نبته أنصل واكتهل. وأنشد أبو العباس ثعلب شعراً:

دفاء عليه الليث أفلاذ كبده وكهله قلد من البطن مردمُ

يريد أنه مطر بنوء الأسد، ومن نجوم الأسد النثرة والجهة ونوؤهما غزير تسقط النثرة لاثنين وعشرين تخلو من كانون الثاني، وتسقط الجهة في ثمانى عشرة تخلو من شباط. والقلد النوبة يقال: القوم يتقالدون الماء أي يتصافيون ويتقسمونه. قال: والماء لا قسم ولا أفلاذ.

فصل

في ذكر مواقعهم ومسارحهم

قال النبي ﷺ لأَصِيل الخزاعي حين قدم عليه المدينة: «كَيْفَ تَرَكْتَ مَكَّةَ يَا أَصِيلُ؟» قال: تَرَكْتُهَا وَقَدْ أَحْجَنَ تَمَامُهَا، وَأَغْدَقَ أَذْخَرُهَا، وَأَمْشَرَ سَلْمَهَا، فَقَالَ: «يَا أَصِيلُ دَعِ الْقُلُوبَ تَقْرَ». وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابَ الْقَوْمَ وَعَكَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ فَقَالَ شِعْرًا:

كَلَّ امْرِئٌ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى عَامِرِ بْنِ فَهَيْرَةَ فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ فَقَالَ شِعْرًا:

وَجَدْتُ طَعَمَ الْمَوْتِ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ
وَالثَّوْرَ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرُوقِهِ

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ فَقَالَ شِعْرًا:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيَّنَّ لَيْلَةً بَفَجٍّ وَحَوْلِي أَذْخَرٌ وَجَلِيلٌ
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَيْدُونُ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلٌ

فَقَالَ ﷺ: «طَرِبَ الْقَوْمُ إِلَى بِلَادِهِمْ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ» وَقَالَ الرَّاجِزُ: جَاءَ بَنُو عَمِّكَ رَوَادَ الْأَنْقِ. وَقَالَ رُؤْبَةُ مِنْ طَوْلٍ بَعْدَ الرَّبِيعِ فِي الْأَنْقِ. وَقَالَ بَعْضُ الرُّوَادِ وَسُئِلَ عَمَّا وَرَاءَهُ فَقَالَ: هَلَمْ أَطْعَنَكُمْ إِلَى مَحَلِّ تَطْفَأُ فِيهِ النَّيْرَانُ، يَعْنِي لَا يَوْجَدُ عَوْدُ يَابَسٍ يَوْقُدُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِي: كَيْفَ كَانَ الْمَطَرُ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: مَطَرُنَا بَعْرَاقِي الدَّلْوِ وَهَمِي مَلِي.

وَقَالَ أَبُو زِيَادٍ: بَعَثَ شَيْخُ أَبْنِينَ لَهُ يَرْتَادَانِ، فَانصَرَفَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمَا فَقَالَ الشَّيْخُ: خَلَّ عَلَى مَا وَجَدْتُ، فَقَالَ: ثَادَ مَا، مَوْلَى عَهْدٍ، يَشْبَعُ مِنْهُ النَّابُ، وَهِيَ تَعْدُو أَقْفَرُ، يَعْنِي مَكَائِيَةٌ فَلَيْتَ وَلَمْ يَظْعَنْ، حَتَّى أَتَاهُ الْآخِرُ فَقَالَ: كَيْفَ وَجَدْتَ الْحَيَاءَ؟ قَالَ حَيَاءٌ مَاذَا؟ قَالَ: الْعَامُ وَعَامٌ مَقْبَلٌ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: خَلَّ عَلَى مَا وَجَدْتُ. قَالَ: وَجَدْتُ بَقْلًا وَبَقِيلًا وَسَبْلًا وَسَبِيلًا، خَوْصَهُ مِثْلُ اللَّيْلِ، قَدْ دَبَّ مَا تَحْتَ هُنَا كَمِ السَّيْلِ قَالَ: هَلْ بِهِ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ بِهِ بَنُو الرَّجْلِ لَا يَوْجَدُ أَثَرَهُمْ.

قَالَ أَبُو زَيْدٍ: بَقْلًا أَيْ وَشْمِيًّا كَانَ مَطَرُهُ قَبْلَ الشِّتَاءِ. وَبَقِيلًا كَانَ مَطَرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ. وَسَبْلًا كَانَ مِنَ الْوَشْمِيِّ. وَسَبِيلًا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ الَّذِي نَبَتَ مِنْهُ الْبَقِيلُ، قَالَ: وَعَنِ الْخُوصَةِ الْعَرْفَجِ وَالثَّمَامِ وَالسَّبْطِ وَمَا كَانَ فِي أَصْلٍ، قَالَ: فَلَمْ يَشْكُ بَنُوهُ أَنَّ الشَّيْخَ ظَاعِنٌ

إلى ما أخبر به ابنه الأول، فلما أصبح تحمّل جهة ما أخبر به الأخير ابنه، ففزع بنوه وقالوا: اهتَزَّ الشَّيْخُ فقالوا: تذهب إلى أرض بها النَّاسُ وتدع أرضاً قفراً لا يرعاها أحدٌ معك؟ قال: إنَّ تلك طغوة لا وأخيك وقد وجد أخوكم هذا الأخير حياء العام وعام مقبل ما يبقى من هذا العام، قال: فمضى وأتبعوه قوله: يشبع منه النَّاب وهي تعدو، ويعني لطوله واتّصاله لا تحتاج أن تقف عليه ولا أن تتبعه. قال: وقال رائد مرة، تركت الأرض مخضرة كأنها حولاء بها بصيص رقطاً، وعرفجة خاصبة، وعوسج كأنه النَّعام من سواد، وهذا كما قال الآخر: وجدت جراداً كأنه نعمة باركة، يريد كثرة العشب وسواده وشدة الخضرة سواده، قال: وسأل أبو زياد الكلابي صقيلاً العقيلي حين قدم من البادية عن طريقه، فقال: انصرفت من الحج فأصعدت إلى الرّبذة في مقاط الحرة، فوجدت بها صلالاً من الرّبع من خضمة وصليان وقرمل حتى لو شئت لأنختُ الإبل في أزراء القفعاء، فلم أزل في مرعى لا أحسّ منه شيئاً حتى بلغت أهلي. الصّلال: أمطار متفرقة. والقفعاء نبت من المذكور يقول: أخصبت حتى صارت تستر البعير المبارك.

وقال آخر: رأيت بيطن فلجٍ منظرًا من الكلأ لا أنساه، وجدت الصّفراء والخزامى يضربان نحر الإبل، وتحتها قفعاء، وحريث قد أطاع وأمسك بأفواه الإبل أغناها عن كل شيء وإذا نقع الجودان في الإجارع فذلك غاية ربي الأرض لأنّ الإجارع أشرب للماء، وإذا نقع الماء في الإجارع غرقت الأجالد، وقال ابن كناسة: بعث قومٌ رائداً فقيل: ما وراءك؟ فقال: عشبٌ وتعاشيب وكماة متفرقة شيب تندسها بأخفافها الثّيب، فقيل: هذا كذب. فأرسلوا آخر، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: عشبٌ ثاد ماد، مولى عهد، متدارك جعد، كأفخاذ نساء بني سعد، تشبع منها النَّاب وهي تعدو. وقد مضى تفسير ما فيه من الغريب.

وبعث رجل بنين له يرتادون في خصب فقال أحدهم: رأيت ماءً غللاً يسيل سيلاً، وخصوه يميل ميلاً، يحسبها الرّائد ليلاً. وقال الثّاني: وجدت ديمةً على ديمةٍ في عهدٍ غير قديمة، يشبع منها النَّاب قبل العظيمة. الغلل: الماء يجري في أصول الشجر. وقال بعضهم: إذا أحيى النَّاسُ قيل: قد أكلأت الأرض، واجرئفشت العنز لأختها، ولحسن الكلب الوضر اجرنفاشها، آزيرارها، وزفيانها في أحد شقيها لتنطح صاحبها، وإنما ذلك من الأشر حين سمت فأخضبت. ولحسن الكلب: يعني أنّه يجد وضراً ويلحسه، وإذا كانوا مجدين لم يتركوا للكلب شيئاً. وقيل لرجلٍ منهم: ما أخصب ما رأيت البادية؟ قال: رأيت الكلب يمرّ بالخصفة عليها الخلاصة فيشمّها ويتركها. وقال أعرابي: وقد قيل له: ما تركت وراءك؟ قال: خلّفت الصّان تظالم معزاها، يعني أنّها لنشاطها تنطح بعضها بعضاً.

وقال أبو زياد: بعث قومٌ رائداً لهم، فلما رجع إليهم قالوا له: ما وراءك؟ قال: رأيت

بقلاً يشبع منها الجمل البروك، وتشكّت منه النساء وهَمَّ الرَّجُلُ بأخيه. قال أبو زياد: لم يطل العُشبُ بعد، فإذا أقام البعيرُ قائماً لم يتمكّن منه.

وتشكّت النساء اتّخذن الشكّاء الصغار، لأنّ اللّبن لم يكثر بعد. وقوله: وهَمَّ الرجل بأخيه: أي همّ أن يدعوه إلى منزله، ولم يتسع له، ويحتمل من التفسير وجهاً آخر، وهو أن الجمل إذا برک شبع مما حوله من مبركه ولم يحتاج إلى أكثر منه. وقوله: وهَمَّ الرَّجُلُ بأخيه: يجوز أن يكون مثل قوله شعراً:

وأحياناً على بكرٍ أحنينا إذا ما لم نَجِدْ إلّا أخانا

ومثل قوله: يا بن هشام، أهلك الناس اللّبن، لأنّ الجذب يشغلهم عن طلب الطوائل، وفي الخصب يتفرغون للضغائن. ومثل قوله شعراً:

ثعالبُ في السنين محصّصات وأسدٌ حين يمتليء الوطابُ
ومثل قوله:

قومٌ إذا اخضرت نعالهم يتناهقون تناهق الحُمُرِ
وقيل في تشكي النساء ما رواه الشعبي عن برد وردوا على الحجاج وهو حاضر.

رواه عنه أبو بكر الهذلي قال: جاءه الحاجب فقال: إنّ بالباب رسلاً، فقال: ائذن لهم، فدخلوا وعماثمهم في أوساطهم، وسيوفهم على عواتقهم، وكتبهم بأيمانهم، قال: فتقدّم رجلٌ من سليم يقال له سيابة بن عاصم فقال الحجاج له: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من الشام. قال: هل كان وراءك من غيث؟ قال: نعم أصابني ثلاث سحائب فيما بيني وبين أمير المؤمنين، قال: فانتهنّ لي، قال: أصابني سحابة بجودان فوق قطر صغار وقطر كبار، فكأنّ الصغار لحمه الكبار ووقع بسيط متدارك وهو السح الذي سمعت به، فوَادِ سائخ، ووَادِ بارخ، وأرض مقبلة، وأرض مدبرة أي أخذ السيل في كل وجه، وأصابتنا سحابة بسواء، فلبّدت الدّمات وأسالت الغراز، وأدحضت التّلاع وصدعت عن الكّماء أماكنها. وأصابتني سحابةً بالقريتين، فقاءت الأرض بعد الرّي وامتلاّت الآخاذ وأنعمت الأودية وجنتك في مثل مجرّ الضبع.

ثم قال: ائذن فدخل رجلٌ من بني أسد، فقال: هل كان وراءك من غيث؟ فقال: لا، كثرت الأعاصير، واغبرت البلاد، وأكل ما أشرف من الجنبه، فاستيقناً أنّه عام سنة، فقال: بشس المخبر أنت، قال: خبرتُك بما كان.

ثم قال: ائذن فدخل رجل من أهل اليمامة فقال: هل كان وراءك؟ قال: نعم سمعت

الزّواد تدعو إلى ريادته، وسمعت قائلاً يقول: هلّم أظعنكم إلى محلة تُطفأ فيها النيران وتشكى منها النساء، وتنافس فيها المعزى. قال الشعبي فلم يدر الحجاج ما يقول: فقال: إنما تحدث أهل الشام فأفهمهم، قال: نعم أصلح الله الأمير أخصب الناس فكان السمن والزبد واللبن فلا توقد ناراً يختبز بها. فأما تشكى النساء فيحتمل وجهاً آخر من التفسير سوى ما تقدم، وهو أنّ المرأة تظلّ ترتقّ بهما وتمخض لبنها، فتبيت ولها أنين من التعب، ويكون التشكى من الشكوى لا من الشكوة.

وحكى أبو عبد الله قال: قدم رجل من سفر كان فيه، فقالت له ابنته: كيف كنت في سفرك؟ فقال: تقسمتني الأدوي والنجم، قال: يعني بالنجم طلب الهداية بالليل أن لا يضل. والأدوي يريد أن ينظر كم فيها من الماء أقليل أم كثير يشكو جزعه واهتمامه وخوفه من المتالف، وأنشد للمرار بن سعيد شعراً:

له نظرتان فمرفوعةً وأخرى تأمل ما في السقاء

قوله: مرفوعة أي ينظر إلى السماء يسأل ربّه النجاة، وأخرى إلى السقاء هل فيه ما يبلغه إلى الماء.

ولقي أعرابي آخر فسأله عن المطر فقال: أصابتنا أمطار غزيرة واشتد لنا ما استرخى من الأرض، واسترخى لنا ما اشتد من السماء، أي استرخى لنا جلد السماء، واشتد الرمل الذي ندي، وهذا مثل قول العجاج شعراً:

عزّز منها وهي ذات إسهال ضربت سوارى ديمّة وتهطال

وقال أعرابي ونظر إلى السماء فوجدها مخيلة: هذا صيب لا يؤمن معه الدوافع أن تدراً عليكم بسيولها فتحوّلوا بأخبيتكم، ولن تنجوا من الموت، وأنشدني بعضهم للكميت في المخيلة شعراً:

فإياكم واداهية ناد أظلتكم بعارضها المخيل

البابُ الثامن والثلاثون

في ذكر الوّراد وَمَنْ جرى مجراهم من الوفود

قال: العريجاء أن ترد غدوة وتصدر عن الماء فيكون سائر يومها في الكلاً وليلتها ويومها من غدها، ثم ترد ليلاً ثم تصدر عن الماء، ويكون بقية ليلتها في الكلاً ويومها من الغد وليلتها ثم يصبح الماء غدوةً، فهذه العريجاء، وهي من باب صفات الرّفه . وفي الرّفه الظّاهرة والصّاحية والآبة والعُريجاء وظاهرة الغب، وهي للغنم لا تكاد تكون للإبل، والظّاهر أن ترد كلّ يوم ضحوّة والآبة أن ترد كلّ ليلة، وظاهرة الغب أقصر من الغب قليلاً، وقال: أقصى ظمأ الغنم في الشتاء سدس، وفي الصّيف ترد كلّ يوم، والإبل أقصى ظمئها ثلاثة أعشار في غير الجزء، والجزء أن يكتفوا بالرّطب عن الماء، وأقصى ظمأ الحمار الأهلي غب في الشتاء والرّفه أن يرد كلّما أراد وأقلّ ظمأ الإبل الغب، وكلّ هذا حكاة ابن الأعرابي .

قال: ودخل رؤية على سليمان بن علي فقال: ما بقي من باتك؟ فقال: إنّي لأظمي فأورد فأقصب، قال: أقصب الرّجل: إذا أورد فلم يشرب إبله إلا شرباً ضعيفاً وقصبت هي . ودخل عليه مرة أخرى، فقال: ما عندك؟ فقال: يمتد فلا يشتد، فإذا أكرهته يرتد، فقال: إنّي لأجد ذلك .

وحكى غير واحد من الرّواة أنّه لما وردت وفود العرب على رسول الله ﷺ قام طهفة بن أبي زهير، فقال: أتيناك يا رسول الله من غور تهامة بأكوار الميس، ترتمي بنا العيس، نستحلب الصّبير، ونستحلب الخبير ونستعضد البرير، ونستخيل الرّهام، ونستجبل الجهام، من أرض غائلة التّطأ، غليظة الموطأ قد نشف الدّهن، ويبس الجعثن، وسقط الأملوج، وماد العسلوج وهلك الهذّي، ومات الودي، برّثنا يا رسول الله من الوثن والعنن، وما يحدث الزّمن لنا دعوة السّلام، وشرعة الإسلام ما طما البحر، وقام تعار، ولنا نعيم هملّ إغفال، ما تبض ببلال ووثير كثير الرّسل، قليل الرّسل، أصابتها سنة حمراء موزلة ليس

لها علل ولا نهل، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي مُحَضِّهَا وَمُخْضِهَا»^(١) ومَذْقُهَا، وابعث راعيها في الدَّثَرِ يبالغ الثمر، وبارك له في المال والولد من أقام الصَّلوة كان مسلماً، ومَنْ آتَى الزَّكوة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً لكم، يا بني نهْد ودائع الشَّرِك ووضائع الملك، لا تَلطَط في الزَّكوة ولا تَلحد في الحياة، ولا تناقل في الصَّلوة. وكتب معهم كتاباً إلى بني نهْد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى بني نهْد بن زيد: السَّلام على من آمن بالله ورسوله لكم يا بني نهْد في الوظيفة الفريضة، ولكم القارض والفريش وذو العنان الرُّكوب والقلو الضَّبيس، لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الآماق، وتأكلوا الرِّياق، مَنْ أَقَرَّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء والعهد والذَّمة، ومَنْ أبى فعليه الرِّبوة».

تفسيره قوله: نستحلب الصبير: يريد الغيم الأبيض المتراكم أي تتطلب منه الغيث ونستحلب الخبير: أي نحصد الخلب القطع ومنه المخبل والخبير: النبات، ومنه المخابرة في الزَّراعة، ومعنى نستحيل الرَّهام: أي الأمطار والواحدة الرَّهمة ونستحيل من قولك سحابة مخيلة وخيلت وتخيلت ومعنى: نستجيل الجهام^(٢) أي نجده جائلاً في الأفق، والجهام السَّحاب الذي قد أراق ماءه.

قال الهذلي: ثلاثاً فلما استجبل الجهام واستجمع الطَّفل منه رشوحاً. ويروى نستحيل بالحاء، ويكون من استحلت الشَّخص: إذا نظرت إليه هل يتحرك. وقوله: من أرض غائلة النَّطا يريد من أرض مغنية البعد، أي من ركبها أهلكته، يقال: غالته غول والنَّطاء البعد قال، وبلدة يناطها نطي. وقوله: نشف المدهن أي انتشف القارات ما تقع فيها من ماء المطر، وقوله ويبس الجعثن يعني أصول النبات.

ويقال: جعثنه أيضاً وجمعها جعاث. وقوله: وسقط الأملوج، الأملوج ورق لبعض الأشجار مفتول كالعبل. وقوله: وماد العسلوج أي مالت الأغصان وأنبث. ويقال: عسلوج وعسلج قال: أنبت الصَّيف عساليج الخضر.

وقوله: هلك الهدي يراد به الإبل وأصله فيما يهدى من القرابين، وفي القرآن: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٦] والهدي.

(١) في مجمع الأنوار المحض بحاء مهملة وضاد معجمة: اللَّبَن الخالص بلا ماء وهو بمعجمتين ما مخض من اللَّبن وأخذ زیده - الحسن النعماني كان الله له.

(٢) كذا في الأصل وقال في مجمع بحار الأنوار في خيل: بالحاء المعجمة ونستحيل الجهام هو نستفعل من خلت إذا ظننت أي نظته خليقاً بالمطر، وأخلت السَّحابة وأخيلتها ومنه حديث إذا رأى في السماء اختيلاً تغير لونه. الاختيال أن يخال بتوَّه المطر ١٢ الحسن النعماني المصحح كان الله له. الأزمنة والأمكنة / ٢٤م

وقوله: وملت الودي يراد به فسيل التخل.

وقوله: من الوثن والعنن، فالعنن الاعتراض والمخالفة، يريد برثنا إليك من المشاقّة وكل معبود من دون الله. وقام تعار: اسم جبل يريد الأبد.

وقوله: نعم إغفال أي لا ألبان لها. والغفل الذي لاسمة له.

وقوله: ما تنبض ببلال: أي لا تنطف ضروعها بما يتئل.

وقوله: وقير كثير الرّسل. فالرّسل اللّبن، وإنما وصف السنّة بالحمرة للجذب الشّامل لذلك. قال: إذا احمرّ آفاق السّماء من الفرس.

ويقال: جوع أغبر وموت أحمر. وقوله: موزلة من الأزل وهو الضّيق. ويقال: أزل أي صار في أزل، كما تقول أسهل وأحزن. والدّثر: المال الكثير.

وقوله: ودائع الشّرك ووضائع الملك. الوديع: العهد. يقال: توادع الجيش إذا عاهد كلّ واحد منهما صاحبه أن لا يرى له إلا ما يراه لنفسه، فكان بينهما تشارك ولا عرو بينهما ولا شر. ويقال: أعطيته وديعاً أي عهداً. والوضائع جمع الوضيعة: وهي ما وضع على المسلمين في أموالهم وأملاكهم. والمعنى: أنهم يساوون المسلمين فيما يلزمون لا زيادة عليهم ولا عتب، متى لم يَلْطُوا الحقّ أو لم يلحدوا في حياتهم عن واجب، ولم يتشاكلوا فيما اشترع من فرائض الدّين. والإلطاط: المنع ويقال: لَطَّ وألَطَ بمعنى. والإلحاد: العدول.

وقوله: لكم في الوظيفة الفريضة، فالفريضة الهَرمة، وكذلك الفارض والمعنى: لا يُعَدّ عليكم في الصّدقة مثله.

وكذلك العارض: هي الكبير وذات الآفة، من كلامهم: بنو فلان أكّالون للعوارض.

والفريش من الخيل: التي وضعت حديثاً فهي كالنّساء من النّاس والرّكوب الدّلّول والفلو^(١) الضّيبس: الصّعب، وهذا كما روي: «عفونا لكم عن صدقة الخيل».

وقوله لا يمنع سرحكم: يريد ما تسرحونه في مراعيكم لا تمنعون منها ولا تزاحمون فيها. ولا يعضد أي لا يقطع.

وقوله: يمنع دَرَكَم هو على حذف المضاف أي ذوات الدّراي لا يمنع من الرّعي، ويحشر أي إلى المصدق.

(١) في المجمع الفلو بفتح فاء وضم لام فمشدّدة وروي بسكون لام وفتح فاء.

والأماق^(١) العتّة والغِل، يُقال في فلان ماقّة.

وقوله: وتأكلوا الرِّباق: يعني العهود التي صارت كالأرباق في الأعناق.

وقوله ﷺ: «من أبى فعلية الرِّبوة» أي: الزيادة، يريد أن الخارج من الطّاعة يتضاعف عليه ما يلزمه، وهذا كما روي عنه ﷺ وقد قيل له: إن فلاناً قد منع الصدقة، فقال: هي عليه ومثلها.

حديث قيلة: روت قيلة: قالت وردت على رسول الله ﷺ فصليت معه الغداة حتّى إذا طلعت الشمس دنوتُ وكنتُ إذا رأيت رجلاً ذا رواء، وذا قشر طمع بصري إليه، فجاء رجلٌ فقال: السّلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السّلام»، وهو قاعد القرفصاء، وعليه أسمال مليتين، ومعه عسيب نخل مقشو غير خوصتين من أعلاه، قالت: فتقدّم صاحبي فبايعه على الإسلام ثم قال له: يا رسول الله اكتب لي بالذهناء، فقال: «يا غلام اكتب له» قالت: فشخص بي وكانت وطني وداري، فقلت: يا رسول الله الذّهناء مقيد الجمّل، ومرعى الغنم، وهذه نساء بني تميم وراء ذلك فقال: «صدقت المسكينة المسلم أخو المسلم بينهما الماء والشّجر، ويتعاونان على الفتان». وقال رسول الله ﷺ: «أيلامُ ابن هذه أن يفصل الخطة وينتصر من وراء الحجرة». يقال شخص بفلان: إذا أتى ما يقلقله ويحرّزه.

والفتان جمع فاتن وهم الشّياطين يفتنون ويفتح فاؤه فيقال: فتّان، على المبالغة. والرّواء: المنظر، والقشر: اللّباس، والقرفصاء: جلسة المحتبي، والعسيب: جريد النّخل، والمقشور: المقشور.

ومما روي من أخبار الوفود أن معاوية بن ثور وفد على رسول الله ﷺ وهو ابن مائة سنة، ومعه ابنه بشر، فقال معاوية للنبي ﷺ: إني أتبرك بمسك وقد كبرت وابني هذا برّبي فامسح وجهه، فمسح ﷺ وجهه بشر، وأعطاه أعزراً عفرأ، وبرك عليهم، قالوا: وكانت السّنة ربما أصابت بني البكاء ولا يصيبهم فقال محمد بن بشر شعراً:

وأبي الذي مسحَ النَّبي برأسه	ودعا له بالخيرِ والبركات
أعطاهُ أحمدُ إذ أتاهُ أعزراً	عفرأ نواحلَ لسنّ باللّجبات
يملاًنَ رَفَدَ الحيّ كلّ عشيّة	ويعود ذاك المُلءُ بالعدوات
بوركنَ من مَنَحٍ ويوركُ مانحاً	وعليه مَنّي ما حيئتُ صلاتي

وهذا باب له جوانب، وورد العرب مختلفة الطرق، فمنهم من قال:

ولقد وردت الماء لونَ حمامة لون الفريقة صفيت للمدنف
فصدرت عنه طامياً وتركته يهتر علقته كأن لم يُقشف
وقال آخر:

وماء قد وردت أميم طام على أرجائه زجل القطاط
فبك أنهته السرحان عنه كلانا وارد حراً ساط
وقال ليبد:

فوردنا قبل فراط القطا إن من وردي تغليس التهل
طامي العرمض لا عهد له بأنيس بعد حول قد كمل
فهرقنا لهما في دائر لضواحيه نشيش بالبلل
وقال العجاج:

وردته قبل الذباب العسال وقبل إرسال قطا فإرسال
بالقوم عبداً والمطي الكلال

وقال امرؤ القيس:

فأوردها من آخر الليل مشرباً بلالق خضراً ماؤهن قليص

يعني: غيراً وأثناً، فربما قصدوا التحج بركوب الفلوات التي لم تسلك، والمياه التي لم تورد ابعاداً في الغزو، واقتحاماً على المهالك. وربما ذكروا التوخش ومجاورة الوحوش لذلك قال الشنفرى:

طريد خبايات تياسزن لحمه عقيرته لا بأيماحن أول
بجناياته في القبائل حتى أسلمه ذوهه وتبرؤوا من موالاته.

وقال:

ويشرب أسارى القط الكدر بعدما سرت قرباً أحيائها يتصلصل

وربما قصدوا الافتخار فيه بورود أبواب الملوك ومنافرة الخصوم بها والسعي في تحمّل الديات وإصلاح ما بين العشائر. وجعل المياه فراطة لهم لسبقهم كل الإغراء إليها يدل على هذا قوله:

ولا يردن الماء إلا عشيّة إذا صدر الورد عن كل منهل

وذكر بعضهم هذا فقال: خير الورد ما كان أول النهار وشره ورد العشي حتى أنهم يتعابرون به، وذكر البيت وخالفه آخر فقال: خير الورد ما وافق الحاجة ثم أنشد:

أوردها مهجراً يساراً يسار لا يروي يدا العشار
ليس بإيراد العشي عار

قال أبو عبد الله: والذي بسط له النبي ﷺ رداءه أشج عبد القيس واسمه عائذ بن عمرو، وقال له: «فيك خصلتان يحبهما الله: الحلم والأناة» قال: هما فيّ أو شيء جبلي الله عليه، فقال: «جبلك الله عليه» فقال: الحمد لله الذي جبلي على ما أحب أو نحو ذلك.

وحكى هشام عن أبيه أنه أخبره رجلاً من رحبة حمير قال: كنت في جمعة فيينا نسير في بعض مفاوز اليمن فأصللهم بعارض عرض وقد سرت ثلاثاً لا أرى أنيساً إذ دفعتُ إلى شجر وظلّ وماء معين. وقد ظممت وأكلتُ فإذا أنا بشيخ له غديرتان بيضاوان كأنهما ينطفان بالذهان، وعليه حلة كأنها فارقت من يومها الصبيان، وبين يديه بغلان حضرميتان كأن لم تنالا بوطء، وهو قائم يصلي بقراب ما بين شجرات عم، فدنوتُ وسلّمت، وإنّ رأسه ليحاذي قمّة رأسي وإنّي لعلّى نجيب ساف عليك. ثم أنختُ وشربتُ من الماء وسقيتُ بعيري وجلست وراءهما، فلما أحس بجلوسي ركع وسجد ثم ردّ عليّ سلامي.

ثم قال: من أين وضع الرّاكب؟ فقلت: من رمع فقال: ما بالك على غير سمت؟ فقلت: ما زلتُ على لقم بهجم أؤم أطراف قوادم الفجر الأشمل، ومنكب الأريب الأيمن حتّى هبطتُ بالأمس غوطاً ملطاطاً، حين طفل الأصيل فبتُ حيثُ طخطخ الليل بصري، فلما تَهَوّر الليل شبه لي ثابّة رعاء فثاء ذلك عني بعض ما كان يشيزني، ثم ثبت فحلّه أن قد استثبت فقمّت إلى بعيري فغيرت عليه.

ثم ركبْتُ أؤم الأصوات وكأني في أكساء أهلها، وما يزداد إلا بعداً فتفرّع عني سربال الليل، بين نعاف متواصية، فزلت أخبطها سحابة يومي متوسماً تارةً ومتعسفاً أخرى، حتى رفع لي هذا السواد، حين نجهت من نقب، ذلك القف فرمته حتى أضافني إليك هذا الضّوح، فقال: حسبك بواقه الموقى جنه - ولو كنت ذا خبر تكنه، خطر ما هجمت عليه ما رأيت للنوم سميراً، فقابل-التّعمة بالسّلام بشكرها، فقال: يا بن أخي السّماء غطاء، والأرض وطاء. وأما موطن وراء هذا الضّراء فقد أخذتني منه وحشة، وقلت: يا عمي هل أنت بمخبري عمّا رأيت من عجائب الدّهر في مدة أيامك؟ فقال: نعم رأيت التّعاف المتقابلات، والغيطان المتواصيات اللّواتي جرعتهن سائر اليوم؟ قلت: نعم. قال: هل أحسست هنالك رسماً واضحاً، وإثراً واضحاً؟ قلت: لا. قال: والله يا بن أخي لقد عهدت بتلك البيضة الفيحاء مجادل كالشّناخيب، مشرفات المحاريب، يرى الرّاكب شعافها من منزلة ثلاث،

محفوظة بالجحافل المملمة، والكتائب المسومة، ينم على أبوابها الأحبوش، وتهز الآل ينم الأسد على الأشبال، وتحوص لربتها الآمال، في الأموال، فتأذى ثات، وماذ وثات الأسد الضرغام، الأبلح القمقام، الملك الهمام، يخضع لبيته الأذقان، وتذعر لهيبته الجنان، عطاؤه غمر، وأخذه قهر، وسلامه إنعام، ومحاله اضطلام، عمل بذلك سبعين خريفاً، وأغتن الحوادث عنه مَغْصِيَة، ثم شِواءه إليه يوم من الدهر، كدر المعاش، وبدد شمل الرياش، ثم اقتعد مطي تلك النعمة، ذو هلاهة تقمع الأضداد، وغمر الأنداد، وأنشأ المصانع، وبث الصنائع، فغتر بذلك أربعين حجة وسبعاً، لا تروعه حادثة ولا يعتن له عاتنة، ولا تعرض له هاتنة.

ثم كَشَرْتُ له عن أنيابها أم اللميم، فرمته بأقصد سهامها، ورهقتم بأفطع أيامها فحطتهم عن وثابه، دون حجابيه، ومصارع أبوابه، ولم يمنعه العز الصم، ولا العدير الذهب، ثم سحب والله الزمان على آثارهم ذيول البلاء، وطحنهم بكلاكل الفناء - فأصبحت الآثار بائدة - والعزة هامدة - وفي ذلك يقول شاعر من غابرههم:

وَحُلِقْنَا الْمُلُوكَ وَالْأَرْبَابَا	خُلِقَ النَّاسُ سُوقَةً وَعَيْدَا
يَحْسِبُ النَّاسُ سَيُّهُ أَحْسَابَا	كَانَ ذُو ثَاتِ الْهُمَامِ رَيْبِعَا
وَأَفْسَاراً حَتَّى أَذَلَّ الصُّعَابَا	وَطَىءَ الْأَرْضَ بِالْجُنُودِ أَفْتِدَارَا
نَ لَدَى بَابِهِ اللَّيُوثُ الْغَضَابَا	حَوْلَهُ الضُّهْبُ وَالْجِعَادُ يَخَالُوا
كَ مَايِدَا وَتَحْنُو الرِّقَابَا	وَتَغْضُ الْعَيُونُ مِنْ دُونِهِ الْأَمَلَا
غَادِرَ الْمَعْمَرِ الْخَصِيبِ يَبَابَا	فَرْمَانِي الزَّمَانُ مِنْهُ يَوْمُ
وَذَاكَ التَّعِيمِ كَانَ تَرَابَا	فَكَأَنَّ الْجَمُوعَ وَالْعَدَدَ الدَّهْمُ

ثم قال لي: عليك تلك الثنية فأسند فيها، فإذا فرعتها فمثلت لك الخورمات - على المازم، فتتكبها ذات اليمين، فهناك الطريق ثم غاب عني فلم أره بعد.

تفسير الألفاظ الغريبة

الماء المعين: الظاهر ويتعان: يقطران. ويقال: (وضح الرَّاكب): وأوضح أي طلع، واللهجم: البين، واللقم: الطريق، والأريب: ريح تهب متكبّة بين الصّبا والجنوب، فإذا هبّت من تحت مطلع سهيل فهي الجنوب الخالصة. وقوله: (قوادم الفجر): يعني جناحه، والغوط الملطاط: ما اعترض من الأرض في الغائط وحجب ما وراءه، وطفل الأصيل: أي أقبلت في الظلمة، وطخطخ الليل بصري: أي سترت الظلمة عيني، تهور الليل: أدبر، والثاقبة: الزّحر، فناء: سكن، تشيزني: تقلقني. والإكساء: الماخير الواحد

كسوء، والمتواصية: المتواصلة. نجهت: بدوت، التَّقب: الطريق الضَّيق، الضُّوح: منعطف الوادي، الأثر الماصح: الدَّارس، البيضة الفيحاء: الأرض الملساء، الشَّناخيب: أعالي الجبال، الواحد شنخوب. المحاريب: الغرف بلغة حمير وغيرهم، ذوئاث: قيل من أقيال حمير دون الملك المتَّوج. قوله: وسلامه إنعام، يريد أنه يسالم منعماً لا مضطراً، والمحال: الكيد والعقوبة، يقال: شصا بصره: أي شخص، وشصا برجله: دفعه، والزَّيَّاش: الهيئة، وثروة لا يعتن: لا يعترض. الهايثة: الدَّاهية وكذلك: أم اللَّميم. الوثابة: السَّيرير بلغة حمير، الصَّم: الشَّدِيد الثابت.

قال الأصمعي: كانت حمير تسمي الملك إذا لم يغز (موثبان) قال: وكانت ملوك حمير قد رتبوا المملكة أن يختار الملك ثمانية من أبناء الملوك، يسميهم المئمانية يخدمونه فإذا مات الملك انتخب أهل المملكة من المئمانية رجلاً إن لم يكن له ابن أو ابن أخ، ثم أخذ من الأقيال رجل يجعلونه بدل ذلك من المئمانية لتمام المئمانية وأخذ من أهل البيت رجل فجعل قِيلاً. والأقيال: ثمانون رجلاً، وأهل البيت أكثر من أن يحصوا، (والخورمات): ثنانيا الجبال، و (المآزم) المضائق.

البابُ التاسع والثلاثون

في السَّير، والنَّعاس، والميح، والاستقاء وورود المياه

قال ليبد شعراً:

ومجودٍ من صبايات الكدى	عاطف التمرق صدق المُبتذل
قال: هجدنا فقد طال السرى	وقدرنا إن خنا العيشُ غَفَلُ
قل ما عرس حتى هجته	بالتباشير من الصَّبح الأول
يلمس الأحلاس في منزله	بيديه كاليهوديَّ المصل
يتمارى في الذي قلت له	ولقد يسمع قولي حين هل

(المجود): أصله الذي قد مطر جوداً وجعله عاطف التمرق لانتثانه في النَّعاس وتمايل، ومعنى صدق المبتذل: إذا ابتذل نفسه للعمل كان صلياً، ومعنى (هجدنا): نومنا يريد أنَّ السَّير قد امتد واتصل وأنهم مالكون لورود المقصد إنَّ سلموا من آفات العيش، وجعله لامساً لحلسه كاليهودي في صلوته لزوال تماسكه، وغلبة التَّوابع قوله: (يتمارى) يبين به زوال تحصيله فهو شاكٍ فيما يدركه بسمعه وإن كان مميز الماء يخاطب به أبا حية التَّيمري:

وأغيدَ من طول السرى برحَّث به	أفانينُ مضاء على الأسن مرجم
سريتُ به حتى إذا ما تمرَّقت	توالى الدَّجى عن واضح اللَّون معلم
أنخنا فلمَّا أفرغت في لسانه	وعينه كأسُ السَّحر قلت له قم
يوذُ بوسطى الخمس منه لو أنَّنا	رحلنا وقلنا في المناخ له نم
حظاء الكره مغلوباً كأنَّ لسانه	بماردٍ من رجع لسان مرسوم

ذكر ابن الأعرابي أنَّ عقيل بن علقمة خرج في سفرٍ ومعه ابنه عملس وابنته الحرباء فقال

شعراً:

قضت وطراً من دير أروى وربَّما على عجلٍ ناطحته بالجماجم

فقال لابنه: أجز، فقال:

فأصبحن بالموماة يحملن فينةً تشاوى من الإدلاج ميل العمائم
ثم قال لابنته أجزى فقالت شعراً:

كأن الكرى يسقيهم صر خدّيه عقاراً تمشّت في الطلى والمعاصم
فقال: والله ما وصفتها حتى شربتها وضربه ابنه بسهم فاختل ساقه وقال شعراً:

إن بني رملوني بالدم من يلق أبطال الرجال يُكَلِّم
وما يكن من صعر يقوم شنشنة أعرفها من أخزم
قال ذو الرمة:

وليل كجلباب العروس أدزغته بأربعة والشخص في العين واحد
أجم غدافي وأبيض صارم وأعسر مهري وأشعث ماجد
أخو ثقة جاب الفلاة بنفسه على الهول حتى لوخّته المطارد
وأشعث مثل السيف قد لاح جسمه وحيف المهاري والمهوم الأبعاد
سقاه الكرى كأس النعاس برأسه لدين الكرى من آخر الليل ساجد
أقمت له صدر المطي وما درى أجائرة أعناقها أم قواصد؟
ترى النأشء الغريد يضحي كأه على الرّجل مما منه السير عاصد

قوله: (كجلباب العروس): في التشبيهات الظرفية لأن الليل لا يشبه جلباب العروس إلا في سبوغه واتساعه وقلة فرجه وتماحه ومثله قول الآخر شعراً:

إذا ما الثريا طلعت في سنائها طلاع العروس في ثياب جلاء
تنفست من علمي بما البين صانع وإن رداي ليس لسي برداء

وإنما ذكر الثريا لطلوعها في أطول ما يكون، وحينئذ تطلع في وقت غروب الشمس وذلك في أوّل الشتاء، فإذا طلعت طلعت في حمرة الأفق، فشبهها في تلك الحالة بثياب العروس في حمرتها وسبوغها. قوله: (تنفست): أي علمت أنّ الزمان قد تغير عن هيئته، وأنّ الإنسان لا يكتفي من الكسوة بما كان يكتفي به قبل ذلك لتحرك البرد، وأنّ الأحياء تتفرّق فيطلبون المحاضر ويهجرون البوادي ولابن أم صاحب:

وفتيّة أرقتهم من مهجع والنوم أحلى عندهم من العسل
لا يطعمون النوم إلا قللاً حسوا كحسو الطير من ماء الوسل

قلت لهم: أصبحتم فارتحلوا
فنهضوا مائلَةً أعناقَهُمْ
شَرِبْتُ ساقوا قرقفأ حمصيةً
وأشد أحمد بن يحيى:

إنِّي إذا ما اللَّيْلُ كان ليلَيْنِ
لم تلفني الثالث بعد العدلينِ
ولجلَج الحادي لسانينِ اثنينِ
ساد الرّقنين منهم ذو البردينِ

الرّقنين: المتكابس، وقد يعد من هذا الباب قوله:

إنني إذا ما القوم كانوا أنجية
وشدّ فوق بعضهم بالأردية
واضطرب القوم اضطرابَ الأريه
هناك أوصيني ولا توصي يه
وقال آخر:

يقولُ وقد مالت به نشوةُ الكرى
أنخَ نعطَ أنضاء النعاس دواؤها
نُعاساً ومن يعلق سرى اللَّيْل يكسل
قليلاً ورقة عن قلائص ذبل
فقلت له: كيف الإناخة بعدما
حدا اللَّيْلُ عريانَ الطّريقة منجل

وقال العجاج وذكر ماء:

كأنَّ أرياش الحمام النّسل
فويقَ طامي مائه المجلل
عليه ورقان القرآن النّصل
جفالة الأجن كحمر الجمل

يريد بالنّسل: السّاقطة، والقران: نبل صيغت صيغة واحدة وجعلها ورقاً لأنّها إذا
عرضت على النار تسودُ فتصير ورقاً، والنّصل: التي قد نصلت: أي خرجت من مواضعها،
والمجلل: المغطى بالعرمض وهو الطّحلب. قوله: جفالة: انتصب بالمجلل وجفالة كل
شيء ما أُخذ منه، وقلع من أعلاه، يريد أنّ الماء قد ييس مثل العباية مما لا يورده، فعلاه
مثل الحمر: وهو بقية الإلية إذا أذيت. والجمل: الذين يذبيون الشّحم يقال: جملة
الشّحم وأجملته، والجميل الودك المذاب ومثل هذا قوله:

يتجفّل عن جمانه دلو الدّالي عانه غشراء من آجن طال

الغشراء: البيضاء إلى الدّسمة، والآجن: المتغيّر والطّالي: الذي عليه طلاوة وهو ما
يلبسه. وأشد في الاستقاء:

قد علمت إنّ لم أجذ مُعينا لاخْلَطَنَ بالخلوق طينا

يعني امرأته، أي استعملها في الاستقاء إن لم أجد غيرها. وقال آخر يخاطب الدلو:

تملثي ثمَّ هلّمي حَيَّ إلى سواد نازعٍ مكبّ

يقول: ارتفعي إلى شخص المستقي وهو سواده والنّازع بالدلو: هو المكبّ وقال آخر:

لثروين أو لتيدنّ السّجل أو لأروحنّ أصلاً لا أشتمل

أي لا أقدر على الاشتمال من إعيائي وضعفي. وقال الآخر:

إن سَرَكَ الريُّ أخا تميم فاجعلْ بعبدين ذوي وزيم
بفارسي وأخي الزّوم

الوزيم: القوّة ورجل متوزم: أي شديد الوطء، أي اجعل السّاقين من جنسين مختلفين، لأنهما إذا كانا كذلك لم يفهم أحدهما كلام الآخر وكان آحتّ للعمل لقلة الإنس بينهما. وأنشد في معناه:

وساقيان سبط وجعدٍ وفارطان فارسن وبعد

وأراد وعاد فجعل الفعل بدله. وقال: وأنشده الأصمعي:

إذا بلغتِ قعرها فانشقّي واغترفي من تربها الأدقّ

انشقّي: انفتحي واجر ما فيها. ويقال: بل دعا عليها كأنه قال: انشقّي وحسي أن يكون حظك التراب. وقال وذكر إيلاً:

فوردت عذباً نقاحاً سمهجا فأعجلت شفتها أن تنفجا

نقاح عذب وسمهج: مثله يعني أن الإبل جاءت عطاشاً، فلم ينتظروا بها أن يبلوا الدلاء فألقوها كما هي يابسة. قوله وردت: قد تكلم الناس فيه من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص، الآية: ٢٣] الآية ومن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم، الآية: ٧١].

فمنهم من يقول: إنّ الورود يقتضي الاختلاط بالمرور ومشافهته والدخول فيه، بدلالة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [سورة مريم، الآية: ٧٣] فكيف ينجيهم منها وهم لم يأتبسوا بها، فعلى قولهم يجب أن يكون قد حتم على نفسه إيراد الخلق جميعاً التار، ثم ينجي منها المتقين ويذر فيها الظالمين. والحكمة في ذلك أن يشاهد المؤمنون موضع الكفار، فتكثر لديهم مواقع التعم ويزدادوا اعتداداً وفرحاً بما منحهم الله تعالى، قالوا:

وتصير النار عليهم يرداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم عليه السلام في الدنيا وإن كانت على الكفار عقوبةً وعذاباً، واستدلوا على ما قالوا بقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة مريم، الآية: ٧٢] فإنه لم يقل ويدخل الظالمين.

وقال بعضهم: إنَّ هذا يعني به الكفار خاصةً، واحتجوا بقراءة بعضهم: ﴿وإن منهم إلا واردها﴾ [سورة مريم، الآية: ٧١] مسوقاً على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ [سورة مريم، الآية: ٦٩] الآية. ويكون على هذا التأويل وفي هذا المذهب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [سورة مريم، الآية: ٧٢] يراد به يخرج المتقين من جملة من يدخل النار فكأنَّ الخلق على اختلاف طبقاتهم، يردون عرصة القيامة ثم يفترون فرقاً على ما بيّن الله تعالى في غير هذا الموضع.

وقال أهل النظر وكثير من المفسرين منهم الحسن وابن مسعود وقتادة: ليس الورود من الدخول في شيء. ألا ترى أنَّ الأصل في ذلك قصد المشارع والمناهل وقصدها ليس بالخوض فيها يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص، الآية: ٢٣] فالورود البلوغ إلى الماء ثم توسّع فيه فاستعمل في بلوغ كلِّ مقصد يقولون: وردنا بلد كذا وكذا.

وقال الخليل: الورد، يوم وقت الورود بين الظمائيين، يقولون: وردت الطير الماء ورداً ووردته أوراداً وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَةً﴾ [سورة مريم، الآية: ٨٦] وقالوا: أرنية واردة وهي المقبلية على السبلة وقال تعالى: ﴿فَارْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٩] يراد طالب الماء منهم وبالغ. وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زَرْقًا جَمَامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمَتَحِّمِ

وهذا أصدق شاهدٍ على أنَّ الورود ليس بالدخول، والحجة القاطعة في أنَّ المؤمنين وإنَّ حضروا حول جهنم مع الإنس والجن للحتم المقضي، والوعد من الله الزكي، فإنَّهم مُبعدون عن النار قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٠١] ونرجع إلى إتمام الباب لأنَّ هذا عارضٌ عَرَضٌ. وقال عجز السلولي:

وَلِي مَائِحٌ لَمْ يَورِدِ الْمَاءَ قَبْلَهُ مُعَلَّى وَأَشْطَانُ الطَّوَى كَثِيرٌ

(المائح): الذي يصير في البرِّ فيملاً الدلو من الماء إذا قلَّ الماء. قال:

يَا أَيُّهَا الْمَائِحُ دَلَوِي دُونَكَ إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ

واستعارة العجز لمن كان يمنحه عند السلطان ويستخرج له ما عنده ويعينه .

والمعلّى الذي رشاؤه فوق الأرضية . ويقال: هو الذي إذا زاغ الرّشاء عن البكرة علاه فأعاده إليه . وأنشد الأصمعيّ شعراً:

ما ليلة الفقير إلا شيطان مجنونةٌ تودي بروح الإنسان
يُدعى بها القومُ دُعاء الصّمان وهناً من الأنفسِ غيرِ عصيان

الفقير: بئر قليلة الماء ورودها وجعلها شيطاناً لما يلقون فيها من التعب، المعنى أنهم فتروا وضّعفوا فكأنهم صمّ من النّحاس، وإنّما وصف قوم وردوا وسقوا وهناً من الأنفس: أي ضعفاً من الأنفس لا عصياناً للرّاعي . ومثله لذي الرّمة:

كأنّي أنادي مائحاً فوق رحلها وفي غرفة والدّلو ناءً قليها
وقال الرّاعي:

حتّى وردنَ أتمّ خمس بايصٍ جذراً تعاوِذه الرّياح ويلا
سدماً إذا التمس الدّلاء نطافه صادفُن مشرقه المثاب دحولا

البايص: السّابق، والبوص: الفوت والسّبق أي أتمّ خمس ويعده . والجدر: البئر الجديدة الموضع من الكلاء، والوبيل: الثّقل غير المريء . سدم: مندفة، والنطاف: المياه . والمثاب: ها هنا الموضع الذي يثوب منه الماء، يقال: هذه بئر لها ثائب، والمثاب في غير هذا الموضع قد يكون مقام السّاقى، والدحول: بئر لها إرجاف . وأنشد الأصمعيّ:

أعددتُ للورد إذا الورد خَفَز عرياً حروراً وجللاً لا خزخز
وما دحا لا ينثني إذا احتجز في كلّ عضوٍ جرذانٌ وخزز

شبه عضل المائح ولحمه المتفرّق في أعضائه بالجرذان . والخزز: هو ذكر اليرابيع هنا وفي مثله قال أبو النّجم شعراً:

في لحمه بالقرب كالتزليل ينماز عنه دخلٌ عن دخل

أي تنفرج أعضاؤه من ثقل الدّلو وينماز: يصير كل قطعة لحم منه على حدة إذا تمطّى من ثقل الدّلو: يريد أنّ لحمه صار كتلاً .

البابُ الأربعون

في أسواق العرب

قال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، في إسناد ذكره أنَّ أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاث عشرة^(١) سوقاً.

فأولها قياماً: سوق دومة الجندل: وهي على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة، وعلى عشر مراحل من الكوفة، وعلى عشر مراحل من دمشق، حصنها متمرّد وبها التقى الحكمان، ثم صحار - ثم دبا - ثم الشحر - ثم رابية حضرموت - ثم ذو المجاز - ثم نطاة خيبر، ثم المشقر - ثم حجر باليمامة - ثم منى، ثم عكاظ - ثم عدن - ثم صنعاء.

وكانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم، ويقوم في غيرها. لكنّه لا يصل أحد إليها إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير.

دومة الجندل

قال أبو المنذر: كان أول هذه الأسواق قياماً دومة الجندل: يوافيها العرب من كل أوب، وقيامها أول يوم من شهر ربيع الأول إلى النصف منه، ثم ترق ولا تزال قائمة على رقتها إلى آخر الشهر - ثم يفترون منها إلى مثلها من قابل. قال: وكانت كلب وجديلة طيء جيرانها، وكان ملكها بين اكيدر العبادي من السكون وبين قنافة الكلبي، وكان غلبة الملكين عليها أن يتحاجبا فأئهما غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه، والسوق يفعل بها ما شاء ولم يبع فيها أحد من الشام ولا أهل العراق إلا بإذنه، ولم يشتر فيها ولم يبع حتى يبيع الملك كلّ

(١) وقال أيضاً في كنز المدفون إن أسواق العرب كانت في الجاهلية ثلاثة: مجنة وكانت بالظهران وعكاظ بين نجد والطائف وذو المجاز: بالجانب الأيسر إذا وقفت بعرفة ١٢ القاضي محمد شريف الدين عفا

شيء يريد بيعه مع ما كان إليه من مكسها، وكان للكلب فيها قنٌ كثيرٌ في حوانيت من شعر، وكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، فكانوا أكثر العرب قنًا، وكانت مبايعة العرب بها بإلقاء الحجارة، وذلك أنهم كانوا يجتمع التفر منهم على السلعة يسامون بها صاحبها فأئهم رضي ألقى حجره، وربما اتفق في السلعة الزهط فلا يجدون بدءًا من أن يشتركوا وهم كارهون، وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيوكسون صاحب السلعة إذا تظاهروا عليه، وكانت قريش تخرج قاصدة إليها من مكة فإن أخذت على الحزن لم تتخفز بأحد من العرب حتى ترجع، وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش، ولا يهتجمهم حليف مضري، مع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت.

قال: وكانت مضر تقول: قد قضت عتا قريش مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدَّين، وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن، وردوا مياه كلب، وكانت كلب حلفاء بني تميم، فلا يهتجمهم كلب، فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرنجا على طيء، فتعطيهم وتدللهم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد، فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمور مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها.

المشقر

ثم يرتحلون منها إلى المشقر بهجر، فيقوم لهم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة إلى آخر الشهر، يوافي بها أهل فارس يقطعون إليها تبعاً لعادتهم ثم يتشعرون عنها من مثلها إلى مثلها من قابل، وكانت عبد القيس وتميم جيرانها - وكانوا ملوكها من بني تميم، من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوي - وكانت ملوك فارس تستعملهم عليها كما يستعملون بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان، وكانوا يصنعون فيها ما يريدون، ويسIRON بسيرة الملوك بدومة في البيع، وكانوا يعشرونها أي يمكسونها، وكان جميع من يأتيها لا يقدر عليها إلا بخفارة من سائر الناس، وكانت أرضاً معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها، وكانت لا يقدمها لطيمة إلا تخلف بها منهم ناس، فمن هناك صارت بهجر من كل حي من العرب وغيرهم، وكان بيعهم فيه الملامسة - والهمة - والإيماء - يومئذ بعضهم إلى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا، وإنما فعلوا ذلك كيلا يحلف أحدهما على كذب أن يزعم أنه بذل له صاحب السلعة.

صحار

ثم يرتحلون منها إلى صحار أول يوم من رجب، في غير خفارة فيقدمونها لعشرين يوماً تمضي من رجب، فيوافيهم بها من لم يشهد ما قبلها من الأسواق، ومن شغل بحاجة

ولم يكن له إربٌ فيما يباع في الأسواق التي قبلها، فينشرون من بَزَّها وبياعاتها أو يبيعون بها خمساً، فكان الجلندي يعشرهم فيها وكان يبيعهم فيها بإلقاء الحجارة.

دبا

ثم يرتحلون منها إلى دبا، وكانت إحدى فرص العرب يجتمع بها تجار الهند والسند - والصَّين - وأهل المشرق والمغرب - فيقوم لها سوقها آخر يوم من رجب، فيشترون بها ببيع العرب والبحر، ويبيعهم مساومة وكان الجلندي يعشرهم فيها، وكان يصنع في ذلك فعل الملوك في غيرها.

الشَّحر

ثم يسرون بجميع من فيها من تجار البحر - والبر - إلى الشَّحر شحر مهرة فيقوم سوقهم تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود النَّبي عليه السَّلام وبييعونهم بما ينفق بها من الأدم - والبز - وسائر المرافق - ويشترون بها الكندر والمر - والصَّبر - والدَّخن - ولم يكن بها عشور، لأنها ليست بأرض مملكة وكان جميع من يختلف إليها من العرب بتجارة يتخفَّر بني يثرب وهي تقلل من مهرة، وكانت سوقهم تقوم للتَّصف من شعبان وبييعهم بها بإلقاء الحجارة.

عدن

ثم يرتحلون منها إلى عدن إلا تجار البحر، فإنه لا يرتحل منهم إلا من بقي من بيعه شيء ولم يبعه، فيوافي النَّاس بعدن من بقي معه من تجار البحر شيء ومن لم يكن شهد الأسواق التي كانت قبلها وكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان إلى عشر يمضين منه.

ثم ينتشع النَّاس منها إلى مثلها من قابل، وكانوا لا يتخفَّرون بأحد، لأنها أرض مملكة وأمر محكم وكانت تعشرهم ملوك حِمير - ثم من ملك اليمن من بعدهم.

وآخر من عَشَرهم الأبناء من فارس غلبوا على اليمن وكان لا يشتري في أسواقهم ولا يبيع، وكان طَيِّب الخلق جميعاً، بها يعبأ ولم يكن أحد يحسن صنعه من غير العرب، حتى أنَّ تجار البحر لترجع بالطَّيب المعمول تفخر به في السَّند - والهند - وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم، وإنَّ بالناس على ذلك اليوم ما يحسن اليوم عمله إلا أهل الإسلام بعدن.

صنعاء

ثم يرتحلون إلى صنعاء فيأتونها بالقطن - والزَّعفران - والأصباغ - وأشباهها مما ينفق بها، ويشترون بها ما يريدون من البز - والحديد - وغيرهما. وكانت تقوم في التَّصف من

شهر رمضان إلى آخره، ثم تنقشع إلى مثلها من السنة المقبلة ويبيعهم بها الجس جس اليد، ولم يكن أحد من أهل هذه الأسواق يريد السوق الأخرى إلا إذا اشترى رجل من أهل بلده، فإنه كان يشتري منه كما يتبايعون بتلك البلاد.

ثم رابية حضرموت وعكاظ

ثم يصدر الناس عنها إلى سوقين. أحدهما: رابية بحضرموت والأخرى عكاظ في أعلى نجد وعكاظ قريب من عرفات.

فأما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملوكة وكان من عزَّ فيها بزَّ صاحبه، فكانت قريش تتخفر ببني أكل المزار من كندة، وسائر الناس بآل مسروق بن وائل الحضرمي، فكانت مكرمة لأهل البيتين، وفضل أحدهما على الآخر كفضل قريش على سائر الناس، فكان يأخذ إليها بعض الناس وبعضهم إلى عكاظ، وكانتا تقومان بيوم واحد في النصف من ذي القعدة.

وكانت عكاظ من أعظم أسواق العرب، وكانت قريش تنزلها - وهوازن - وغطفان - وخزاعة - والأحباش - وهم الحارث بن عبد مناة - وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب ينزلونها في النصف من ذي القعدة فلا يبرحون حتى يروا هلال ذي الحجة. فإذا رأوه انقشعت ولم يكن فيها عشور ولا خفارة، وكانت فيها أشياء ليست في أسواق العرب، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد - والحلة الحسنة - والمركوب الفاره - فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعزَّ العرب، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته، وكان يبيعهم بها السرار، فإذا وجب البيع وعند التاجر ألف رجل ممن يريد الشراء ولا يريده فله الشركة في الرِّيح.

ذو المجاز ونظاة خيبر وحجر اليمامة

فإذا أهلوا هلال ذي الحجة ساروا بأجمعهم إلى ذي المجاز، وهو قريب من عكاظ وأقاموا بها حتى يوم التروية، ويواتيهم حينئذ حجاج العرب ورؤوسهم ممن أراد الحج ممن لم يكن شهد الأسواق، وكانت العرب في أشهر الحج على ثلاثة أهواء: منهم من يفعل المنكر وهم المحلّون الذين يحلّون الحرم فيقتالون فيه ويسرقون، ومنهم من يكف عن ذلك ويحرمون الأشهر الحرم، ومنهم أهل هوى شرعه، لهم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف من بني عمرو بن تميم فإنه أحل قتال المحلّين.

قال أبو المنذر عن أبيه وخراش: هذا قول بني تميم، فأما الثبت عندنا فهو القملس الكناني وأجداده من قبله وهو الذي نسأ الشهور - والمحلّون - طيء وخثعم وناس من بني

أسد بن خزيمة. وكان أشراف العرب يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف، لكل شريفٍ بسهمٍ من الأرباح، فكان شريف كل بلدٍ يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوبٍ ولا يوافيها شريف إلا وعلى وجهه برقع، مخافة أن يؤسر يوماً، فيكبر فداؤه، فكان أول من كشف القناع طريف العنبري لما رآهم يطلعون في وجهه ويتفرسون في شمائله، قال: قبح من وطئ نفسه إلا على شرفه، ورمى بالقناع وحسر عن وجهه، قال يذكر قصته وعذره في مخالفة من قبله. شعراً:

أو كلمّا وَرَدَتْ عكاظ قبيلةً بعثوا إلى عزيفهم يتوسّم

قال أبو المنذر عن أبيه: كان الرجل إذا خرج من بيته حاجاً أو داجاً والدّاج التاجر في الشهر الحرام، أهدى وأحرم، ثم قلّد وأشعر، فيكون ذلك أماناً له في المحلّين. وكان الدّاج إذا انفرد وخشي على نفسه ولم يجد هذياً قلّد نفسه بقلادة من شعرٍ أو وبرٍ، وأشعر نفسه بصوفة، فيأمن بها، وإذا صدر من مكة تقلّد من لحاء شجر الحرام. وكان الدّاج وغيره إذا أمّ البيت وليس له علم بذلك ولا هو في سيماء المحرم أخذ المحلّون ما معه، وكانت العرب جميعاً تنزع أسنّتها في الأشهر الحرم غير المحلّين والذين يقاتلونهم، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى الأشهر الحرم.

وكانت الخمس تدعُ عرفات تهاوناً بها وإخلالاً، وتدع الصّفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصّفا والمروة من شعائر الله﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٨] الآية وأنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢] الآية. هذا للمسلم: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢] فأذن لهم في الصيد بعد أيام التشريق وحرم عليهم الذي أهلّ لغير الله به مع المنخقة بالحبل إذا لم تدرك زكاتها، فهي حرام، والموقوذة كانوا يقدّون الدّابة العضل من الإبل - والبقر - والغنم - ليرخص لحمها. والمتردية التي تردى في بئر أو من جبل. والتطيحة التي تنطحها شاة أخرى فتموت. وما أكل السبع إلا ما زكّيتم أدركتموه وبه حياة. وما ذبح على الثّصب يعني ألّتهم التي كانوا يعبدون من دون الله.

قال أبو المنذر: وتزعم مُضَر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم، يكون ذلك في أفخاذهم الموسم على حدة - وعكاظ على حدة - وكان من اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظرب العدواني - وسعد بن زيد مناة بن تميم - وقد فخر المخبل بذلك في شعره فقال:

ليالي سعدٍ في عكاظٍ يسوقها له كلّ شرقٍ من عكاظٍ ومغرب

ثم وليه حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. ثم وليه ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم وليه مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ثم وليه ثعلبة بن يربوع بن حنظلة، ثم وليه

معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، ثم وليه الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد مناة بن تميم. ثم وليه صلصل بن أوس بن -مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم. فكان آخر من اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ. ثم قتل رجل من محارب بعكاظ فادّعى واحد قتله في قوله:

فإن فخرت يوماً رجالاً محاربٍ فيا طعنة ما قد طعنتُ أخا حُرٍّ

فشدَّ عليه رجلٌ من محارب بعكاظ فقتله، فقال: يؤباخي حر. وقد ذكر ذلك شعراؤهم ثم وليه سفيان بن مجاشع بن دارم، فمات فافترق الأمر فلم يجتمع القضاء والموسم لأحد منهم حتى جاء الإسلام، فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم.

وكان آخر من قضى منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس.

وأجاز بالموسم أحد بني عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وكان آخر من أجاز منهم كرب بن صفوان بن حباب بن شجنة بن عطار بن عوف وهو الذي قام عليه الإسلام.

قال أبو بكر الدريدي: لم يكن حديث الأسواق في كتاب أبي عبيدة وإنما ألحقه أبو حاتم فنقلناه من كتابه.

فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل وذلك قبل المبعث بخمس سنين حضر السوق من نراز واليمن - ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين فباع الناس ما كان معهم من إبل ويقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر - والشام - والعراق - وفيمن حضر السوق عمرو بن شريد السلمي وابناه معاوية وصخر، وحضر معمر بن الحارث بن الخيبري بن ظبيان بن حن بن حزام بن كثير بن عذرة جد جميل بن عبد الله الشاعر، فلما نظر إلى عمرو صافته وأمر ولده أن يخدموه، ففعلوا فلما تقوضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه صخرًا ومعاوية فقال لهما: إن معمرًا قد طوّقني ما لم يطوّقني أحد من العرب، وقد أحبيت أن أكافئه، فقالا: افعل ما بدا لك، فدعا بكاتب وصحيفة فكتب: هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي معمر بن الحارث بن الخيبري بن ظبيان بن حن بن حزام العذري منحه ماله بالوحيدة من أخلاف يثرب أطلال ذلك ومغانيه - ورسومه - وأعراصه - ودواويه - وزحاليقه - وقربانه - وبرادغه - وقصوره - وعجرمه - ريشامه - وينعه - وتاليه - وحماطه - وشبهه - وأراكه - وأجزته - وحذاريه - وآكامه - وبرقه - وعلجانه - وكل ما صاء وصمت فيه - وبكت السماء عليه - وضحكت الأرض عنه - فهو لمعمر دون عمرو، وممنوح به من نيات الصدر - لا يشوبه كدر الامتنان - ولا أمارات الامتهان - مستنزل من هضاب الجندل وجرثومة ود بعيد المحل، لا تخلق الأيام جدته - ولا يركد لمتنسم بارحه ما دام الزمان - وتوقد الحران -

وسمر ابنا سمير، وأقام حراء وثبير. وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل. ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد إلى معمر. قال الأصمعي: فهي باقية إلى الآن يفرض على ولده دخلها وذلك في أيام الرّشيد رحمه الله تعالى.

وقال ابن كناسة: إذا غابت الثريا مع غيوب الشمس لم ترها أربعين يوماً وذلك أفولها، قال: وأهل الشام يطلعونها لخمس وعشرين من غير أن تطلع أو يروها، فيقيمون أسواقهم فتقوم سوق (دير أيوب) وهي أول أسواقهم المذكورة، فإذا انقضت اعتدوا سبعين يوماً.

ثم تقوم سوق (بصرى) قال فأدركتها تقوم خمساً وعشرين ليلة، وأُخبرْتُ أنها كانت تقوم بولاية بني أمية ثلاثين إلى أربعين ليلة، فإذا انقضت اعتدوا سبعين ليلة.

ثم تقوم سوق (إذراعات) وهي اليوم أطولها قياماً، وربما لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد. ثم أصدر قبل أن تغلق، يقال: قلعت السوق خفيفة.

قال: وزاد بعضهم في الأسواق (المجنة) وهو قريب من ذي المجاز والأسقى خلف حضرموت.

قال أبو المنذر: كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعدّ مآثره، وأيام قومه من عام إلى عام، فيما أخذت العرب أئامها وفخرها وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان رضي الله عنه شعراً:

أولاء بنو ماء السماء توارثوا دِمَشْقَ بملكٍ كابرٍ بعد كابرٍ
يؤمنون ملك الشام حتى تمكّنوا ملوكاً بأرض الشام فوق المنابر

وكانوا إذا غدر الرجل، أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ، فيقوم رجلٌ يخطب بذلك الغدر فيقول: ألا إن فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهره، ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولاً فإنّ أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح، فنصب بعكاظ فلن ورجم وهو قول الشماخ شعراً:

دُعِرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وإنّ عامر بن جوين بن عبد الرضى رفع له كندة راية غدر في صنيعة بامرئ القيس بن حجر في وجهه إلى قيصر، ورفعت له فزار راية وفاء في صنيعة بمنظور ابن سيار، حيث اقحمته السنة فصار بماله وإبله وأهله إلى الجليلين فأجاره ووفى وصار الناس بين حامد له، وذام فذهبت مثلاً.

الباب الحادي والأربعون

في ذكر مواقيت الضراب والتّاج، وأحوال الفحول في الإلقاح والغرور، وما يتسبب من جميع ذلك، حالاً بعد حالٍ بقدره الله وإرادته .

قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [سورة التور، الآية: ٤٥] وقال تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦] ودخل تحت قوله تعالى : ﴿كُلٌّ دَابَّةٌ﴾ أصناف ما خلقه الله تعالى وسيفصل إن شاء الله تعالى .

قال ابن كناسة : إذا أنزي على الشاة عند إطلاع نجم من النجوم بالغداة جدت حين ينوء، والنخلة مثل الشاة سواء . وقال الغنوي : وقت إرسال الفحول في الإبل حين يسقط الذراع اليسرى، على أي حالٍ من جذب أو حياء، فأما إذا كان الحياء فإنهم يرسلون الفحول قبل ذلك لسمن المال فهذا هو الوقت الأوسط للضراب، وكذلك الوقت الأوسط العام للتّاج، لأن الميقات في حمل الناقة سنة .

وقال أبو عبيدة : سمعتُ الأصمعي يقول في نتاج الإبل قال : أجود الأوقات عند العرب فيه أن تترك الناقة بعد نتاجها سنة لا يحمل عليها الفحل ثم تضرب إن أرادت الفحل، ويقال لها عند ذلك : قد ضبعت . فإذا أورم حياؤها من الضبعة قيل : أبلمت . فإذا اشتدّت ضبعها قيل : قد هرمت . فإذا ضربها قيل قعا عليها وقاع والعيس الضراب . فإذا ضرب الفحل الإبل كلّها قيل : أقمها إقاماً، فإن كلّ عليها سنتين متواليتين فذاك الكشف . والبسر : أن يضربها على غير ضبعة، واليعارة : أن يعارضها الفحل فتحمل . قال الراعي :

فلائص لا يلحقن إلا يعارة عراضاً ولا يشرنين إلا غوالياً

قال : ومن الإبل جرر يزيد على ذلك، فإذا أتت الناقة على مضربها وهو الوقت الذي لقحت فيه لقد أتت على حقها ولدت أو أدرجت .

٣٩٠ _____ في ذكر مواقيت الضراب والتّاج، وأحوال الفحول في الإلقاح والغرور

وقال ابن كناسة: أقلّ التّاج بالبادية مع طلوع الهرايين، وهو نتاج سىء الغذاء لشدة البرد وقلة اللّبن والعشب.

وقال الغنوي: إذا تصوّب المرزم وهو الذّراع قبل سقوطه أرسلت الفحول في النّعم فضربت خيار الإبل ومتعطّراتها، وهي التي تحسن للفحل بنقيها وحسن حالها، وهذا نحو قول أبي يحيى في طلوع الهرايين، لأنّ طلوعهما مع سقوط الدّبران.

وإذا سقط الدّبران: فالمرزم منصوب لأنّ بينه وبين الأفق نجمين، وهما الهقعة والهنة، وقول السّاجع إذا طلع القلب: هَرّ الشّتاء كالكلب - ولم تمكن الفحل إلّا ذات شرب - شاهد لما قاله.

ألا ترى أنّه جعله وقتاً لأوّل الضّراب فكذاك يكون وقتاً لأوّل التّاج وإذا كانت الأنثى مخضبة حسنة الحال أسرع الضّبعة واحتملت الضّراب فيقدم الفحل في إلحاقها، وإذا كانت هزيلة لم تضع ولم تمكن الفحل إلّا أخيراً والوقت الذي ذكره الغنوي من سقوط المرزم هو وقت يتحرّك فيه الثّبت لذلك قيل: إذا طلعت البلدة - حممت الجعدة، وزعلت كل تلدّة، وقيل للبرد: اهده. وزعل التلدّة نشاطها يعني تلاد المال.

وقال الغنوي: فإذا سقطت الثّرة استحقّ ضراب الإبل، وعفصت الفحول في النّعم، فإذا سقطت الجبهة أقمّت الفحول النّعم. و (الإقمام) أن تلقح جميع النوق. فإذا سقطت الصّرفة: جفرت الفحول كلّها إلّا القليل إذا الفضل على الفحول في الهباب والقوة، والهباب: شدة الهيج.

قال ابن كناسة: وأفضل التّاج الرّبعي ولا يزال ما نتج فيه قوياً حسن الحال إلى سقوط الصّرفة، وهي آخر نجوم الرّبيع، ثم ينتجون في أوّل الصّيف إلى سقوط الغفر وذلك صالح. ويقال للذي ينتج بعد سقوط الغفر إلى أن يمضي الخريف يقال له: هيج، ويكون ضعيفاً لذلك سمّي هبعاً لأنّ الفصال الرّبعية أكبر منه وقد قويت فهو لا يلحقها إذا مشّت لأنها أذرع منها فهيج في مشيه. والهيج والهبان شبيه بالإرقال. وإذا نتجت الإبل تركت بواهل على أولادها إلى أن تبرك، فإذا بركت وأعتمت وذهبت فحمة العشاء حُلبت، فتلك حلبة العتمة وتكون للحى.

ثم لا تزال بواهل على أولادها حتى يحضروا المياه، فإذا حضروا حلبت كلّ يوم عند الظّهر، ثم لا تزال بواهل، ثم لا تصر، ثم تعنق بين الصّلوتين الظّهر والعصر فترضعها، ثم تصر وذلك الفواق حتى تحلب تلك السّاعة من الغد وربما قالوا: ثلث بها وذلك أن تيصروا ثلاثة أخلاف ويدعوا للفصيل خلفاً واحداً يرضعه وربما تركوها ترضع أمهاتها من أول

التَّهَار، ثم تَصَرَّ وإنما فعلت هذه الأشياء بالفصال حيث حضروا لأنها أعانت على نفسها وتناولت الشَّجر، فلا يزال للفصيل في أمه حظ حتَّى يطلع سهيل. فإذا طلع سهيل خلَّت، وهو أن يدخل عود في أنفه، فإذا أراد أن يرضع نخس خلال ما دنا منه فأوجَّعه فتزيفه، وربما أجروه، وهو أن يشقَّ لسانه فلا يقدر أن يمصَّ خلف أمِّه فإذا فطمَتْ أولادها واشتدَّ البرد حلبت الضَّرعين غدوةً وعشيَّةً.

والكَفَّاتان: وقد يفتح الكاف منه: أن يكون للرجل إبل يراوح بينها هذه تنتج وتحمل هذه.

والمخاض: إذا طلع سهيل مال وقال: إذا طلع سهيل أخذ أحدهم بأذن الفصيل ثم استقبل به مطلع سهيل يريه إيَّاه يحلف أنَّه لا يرضع بعد يومه قطرةً، ويفصله من أمِّه، وقد وصف أبو النِّجم ما ذكرناه فقال: يذكر غيراً رعت الرُّطب إلى أن تخرم وقته:

كان رعي الأنواء في تبكيرها	دلوبها الأوَّل من ظهيرها
حتى إذا ما طارَ من خيرها	وبانت العيدانُ من عصيرها
ولجت القروم في نذورها	واصفرت الأعجاز من جفورها
بعد الثرى الملبَّد من خطيرها	واختارت الماء على هديرها

واعلم أنَّ الرُّطب لما تَصَرَّم وحاجت الأرض لجت الفحول في الغدور وتركتِ الحَظْران والتَّهدار، وطلبتِ الورود. وقوله: بعد الثرى الملبَّد من خطيرها مثل قول ذي الرِّمة:

وقربن بالزُّرق الحمائل بعدما ثقبوب عن غريان أوراكها الخطرُ

وإنما يصف نساءً أقمن في مربع ما أقمن ثم قربن الفحول ليرتحلن عليها إلى المحاضر، وذلك أنَّها لما جفرت استغني عن ضرابها. وثقبوب الخطر تقلع ما لصق بأعجازها من أبوالها في أيام هبابها لأنها كانت تبول في أذنانها، ثم تخطر بها فتضرب أوراكها فتلبد. قال: وقد وقتوا وقتاً آخر للضَّراب وهو إدبار الحرِّ وإقبال البرد من آخر الخريف، وذلك قبل الوسمي يشهد بذلك قول الرَّاَجَز ينعت إبلاً شعراً:

مدالقُ الوردِ مكثاتُ الصَّدز	عنابلُ الخلق نجياتُ الخيز
جوفٌ لهنَّ بجرٌّ فوقَ بجز	حتى إذا شال سهيلٌ بسحر
كعشوة القابس يرمي بشرز	أرسل فيها مقرمأ غير قفز
أصهب ذيالاً غلافي الوبز	فَفَقْن تعسَّرنَ بأذنان عسر

فجعل الزَّمان الذي يرى فيه سهيل سحرأ شايلاً مرتفعاً وقتاً لإرسال الفحول في النعم،

وأدنى ذلك أن يكون الطَّالِع بالغداة الصُّرْفَة، وذلك لانصراف الحر وانصرام القيظ، وآخر الخريف وقبل الوسمي. وقال ذو الرُّمَّة يصف فحلاً، قال شعراً:

إذا شَمَّ أنف البردِ الحق بطنه مراس الأوابي وامتحان الكواثِم

أنف البرد: أوَّلُه فأخبر أنَّ هذا الفحل في الوقت الذي ذكره متعب بطروفته يمارس أوابيها، وهي التي لا تمكن من الضُّراب، وبامتحان كواثمها، وهي التي يظن أنها قد لقحت وليست بلائح، فيسرها ليعلم حقيقة اللقح، وذلك أنَّ النَّاقَة ربما تَلَقَّحت وليست بلائح، وتلقحها أن تشول بذنبها وتوزَّع ببولها وتستكبر، ويقال: لا يمكن شيء من الحيوان الأنثى منها إذا كانت حاملاً الفحل ولا يطلبها الفحل إذا حملت، وذلك أنه يجيئها ويتشممها، فيعرف أحامل هي أم لا فيولِّي عنها، فلا هي تمكَّنه ولا الفحل يطلبها، وذلك في الإبل والخيل والحمير والبقر والشاة، قال الشَّماخ.

شج بالريق إذ حرمت عليه حصانُ الفرج واسقَةُ الجنين

قال: يقول شجى هذا الحمار بريقه حيث لا يقدر أن يضربها لما حملت واسقة يقول: اتَّسَق يعني اجتمع جنينها في رحمها. والاتساق: الاستدارة والاجتماع، وفي التزليل: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [سورة القمر، الآية: ١٨]. وقال شعراً:

إنَّ لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقاتٍ لو يجدن سائقاً

وقال أعشى عكل:

حتَّى إذا لَقِحت وأخر حَوْلها وضعَ الغيار وأحرزَ الأرحاما

أي لما وجدها حولاً ترك الغيرة وأحرز أرحامها، ويقال لها في أوَّل ما تضرب أيضاً: هي في منيتها، وذلك ما لم يعلموا أيها حمل أم لا، فمنية البكر عشر ليال، ومنية العقبى وهو البطن الثاني خمس عشرة، وهي منتهى الأيام. وقول ذي الرُّمَّة: إذا شَمَّ أنف البرد يريد أنَّ النَّاقَة تتلقح له وليست بلائح، فقد أنضبه ذلك حتَّى الحق بطنه بظهره فجعل ذلك في إقبال البرد.

وقال الكلابي: إذا طلع سهيلٌ من آخر القيظ ثم لأوَّل ما لقح من المخاض عشرة أشهر فسَمَّيت العشار، وانقطع عنها ذكر المخاض. وقول السَّاجع: طلع سهيل. ويرد الليل، وللفضيل الويل. ويروى: ولأم الفضيل الويل. والفصل بين التَّروائتين أنه إذا جعل الويل للأم فلأنَّ الفصل إذا فطمت في هذا الوقت أسرع إلى ضعافها الفساد، فكثرت موتاهما، وكذلك قيل: إذا طلعت الجبهة تحانت الولهة، وطلوع الجبهة مع طلوع سهيل. وإذا جعل

الويل للفصيل فذكر الأم كما يقال للإنسان: لأمك الويل، وإنما يراد به هو، وكما قيل هَوَت أمُّه وفي القرآن: ﴿فَأُتَاهُ هَاوِيَةً﴾ [سورة القارة، الآية: ٩].

وإنما يعم الفِصال في هذا الوقت بالقطام، لأنَّ الأجواف تبرد فيه، وتكثر الأفياء والظلال، ويطيب الوقت، فتقوى على القطام. قال ويقال: امرأة نفساء وشاة ربِّي، وفرس عايز وأتان فريش: وهو أيام نتاجها، قال والعرب تقول: أحسن ما تكون المرأة غب نفاسها - وغب نباتها - وغب السماء - وغب الثوم - وأحسن ما تكون الفرس والناقة غب نتاجها.

وحكى ابن الأعرابي قال: قالت هند بنت الحسن بن حابس الإياديَّة لأبيها: يا أبت مخضتِ الفلانية الناقة لأبيها. قال وما علمك؟ قالت: المصلاراج - والطرق لاج. وتمشي وتفاج - قال: أمخضت يا بنية فاعقلي، قال فلم تصبح في مبركها. فقال أبوها لها: ما أراك إلا وقد ضيَّعت، قالت: أما أنا والله فقد رأيت عقدتي واجتهدت، متي ونقضت عذرتي. قال: استوثقت إذا قال، ويقال: قالت شدَّدتها شُدًّا اهتزت منه عُذرتي، وانقضت منه أزرتي. قال: حرَّكت يد ناقتك؟ ففضوها فوجدوها تفحص في مبرها. راج يرتج: لاج يلج في سرعة الطرف. تفاج: تباعد ما بين رجلها، مبرها: منتجها.

وحكى ابن الأعرابي عن بعضهم: أيُّهم أحب إليك من الإبل: المعشار أم المشكار أم المغبار؟ قال: فالمعشار: التي تغزر أيام تنتج، والمشكار: التي تغزر في أوَّل الزرع صيفها ثم ينقطع، والمغبار: الباقية الغبر التي تدوم على محلبها وهي الزفود المكود، والمجالح التي تقضم عيدان الشجر اليابس في الشتاء، فيبقى لبنها لذلك.

وحكى أيضاً ناقة مِقراع مضباع مسناع مرباع. قال: والمقراع: التي تلقح لأوَّل فرعة والمضباع: التي تعجل ضبعها، والمنساع: السنية العظمة القدر، والمرباع: التي تلقح في أوَّل الربيع وهي خيار الإبل. وأنشد: (طب بإظهار المربيع الشور) يصف فحلاً بأنَّه عالم بأحوال النوق والشور: جمع شورة يقال: ناقة شورة: إذا كانت خياراً وناقة شيار: إذا كانت سمينة، وأنشد ابن الأعرابي لغيره شعراً:

قامتْ تريكَ لقاحاً بعد سابعة والعينُ ساجيةٌ والقلبُ مستورُ
كانما بصلاحها وهي عاقدةٌ كور خمارٍ على غدراءٍ معجورُ

البكر من الإبل يسمَّى بعد أربع عشرة وإحدى وعشرين. والمسنة: بعد سبعة أيام، والاستماء: أن يأتيها صاحبها فيضرب بيده على صلاحها وينقر بها فإنَّ اِكْتَارَتْ بذنبها، وعقدت رأسها، وجمعت بين قطريها رأسها وذنبها، علم أنَّها لاقح، وقوله مستور: إذا لقحت ذهب نشاطها.

ويقال: مسيت التآفة إذا سطوت عليها وهو إدخال اليد في الرحم، والمسي: استخراج الولد، والمسط: أن تدخل اليد في رحمها فتستخرج وثرها وهو ماء الفحل يجتمع في رحمها ثم لا يلقح منه، يقال: قد وثرها الفحل يثرها وثرأ إذا أكثر ضرابها فلم تلقح.

فأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [سورة النور، الآية: ٤٥] وما تضمنته من تنويع الخلق فقد قيل فيه: إن ما مشى على رجلين فركبته في رجله مثل الإنسان والنعام والطير كلها، وما كان من الخلق كله يمشي على أربع فركبته في يديه خلافاً لما يمشي على رجلين مثل الإبل والبقر والخيول والحمير، وما كان في الرجلين فهو عراقيب ولا يقال ركب. وكل حيوان مصمت لا شق في قوائمها مثل الخيل وذواتها فليس لها أكراش، ولا تجتر ويكون لها أعفاج. الواحد: عفج وإنما تجتر ما كان لها كرش، وهو من ذوات الأربع من الذوات التي في قوائمها خف كالإبل والبقر والغنم فهي ذوات الأكراش وتجتر.

وما كان من الخلق له أذنان نائتتان فغرموله^(١) ناتئ ظاهر وكذلك مذاكيره ظاهرة بيّنة ترى. فما كان كذلك تلد ولادة مثل الإبل - والخيول والسباع - والفار - والخفاش - فإن أذنيه نائتتان وغرموله ناتئ - وهو يلد وإن كان من الطير.

وما كانت أذناه ممسوحيتين لا تظهران فكذلك ذكره لا يظهر وهو يبيض مثل الطير كلها والحيات - والسّمك - وجوارح الطير.

وأما من كان من الطير يغر فراخه أي يزفها فليس يزيد على فرخين لعظم مؤنثته على أبويه مثل الحمام الأهلي - والطوراني - والورشان - والفواخت - والقمارى - والدياسى - وما أشبهه.

وما كان يطعم إطعاماً، ولا يغر غراً فهو أخف مؤنثة على أبويه إذ كانا إنما يطعمانه إطعاماً فهو يفرخ الثلاثة - والأربعة - إلى السبعة - مثل البازي - والعقاب - والصقر - والهدهد - والغراب - والسوداني - والبلبل والفتر - والعقق والعصفور فلخفة مؤنثته زاد على الإثنين، وما كان لا يغر، ويطعم فهو أخف مؤنثة من هذين وهو يلتقط التقاطاً، ويفرخ العشرة والعشرين وأقل وأكثر لخفة مؤنثته، لأنه يأكل بنفسه مثل الدجاج - والنعام والبقج - فهو يلتقط التقاطاً ليس له مؤنثة على أبويه وهذا القدر في التنبيه على آثار صنعته كافٍ في هذا الموضع سبحانه ربنا من خبير.

(١) الغرمول: بالضم: الذكر أو الضخم، الرّخو قبل أن تُقطع عزله. القاموس المحيط.

البابُ الثاني والأربعون

فيما رُوي من أسجاع العرب عند تجدد الأنواء - والفصول - وتفسيرها وهو فصلان:

فصل

اعلم أنَّ العرب أحفظُ الأمم لما أدت إليه تجاربهم من أحوال الزَّمان - وتعاقب الشهور والأيام - واختلاف الفصول والأعوام - بما يتجدد فيها من الأحداث - ويتغير من تدبير المعاش - فهم على اختلاف ديارهم - وتباين أوطانهم وتفاوت همهم - يراعون من هبوب الرياح - وطلوع الكواكب - وتبدل الأوقات - ما لا يراعيه غيرهم من سكان المدر - والوبر - وقطان البدو - والحضر - وليس ذلك مستحدثاً فيهم . وإنما هو عادة منهم يتوارثونه الخلف عن السلف - والغابر عن الماضي - ومقياسهم طول الدَّرية - ودوام التفقُّد - فلهم اعتبار في كلِّ ما يتجدد في الجو من طلوع كوكب أو أفوله - وهبوب بارح - أو سكون يؤدِّيهُم إلى ما يبنون عليه أمرهم في مقامهم وظعنهم ومزالفهم، ومحاضرهم ويعتمدونه في مكاسبهم - ومعاشهم - ومناجهم - وملاقحهم - وسائر متصرفاتهم - من غزو - واستباحة - وانتجاع وملازمة - استغنوا به عن نظر أصحاب الحساب .

وتوغلَّهم من لطائف البحث والاستقصاء، فهم أتباع ما اعتادوا من البرق إذا لمع، والغيث إذا أصاب ووقع، والحر إذا أقبل وأدبر، والبرد إذا خفَّ واشتدَّ، لا يغفلون ولا يضيعون، فسبحان من جعل لكلِّ أمة خصائص صاروا لها بمنجاة من الشرِّ، وعوائد أصبَحوا فيها على شفا الخير، وقد سجع حكماؤهم أسجاعاً أبانوا بها فوائد يحبهم، أنا ذاكرٌ ما يحضرني مفسراً.

قال أبو حنيفة: وجدتْهم بدؤوا بالثريا وإن كان الشَّرطان قبلها في نسق المنازل، ولم أجد العلة في ذلك إلَّا تعطل الأنواء وانصرام الرِّطب، وهجوم الحر وقوة البوارح، فجعلوا الشَّغل بما هم فيه، وطلوع الثريا هو أمانة قوة الحر عند الجميع لا اختلاف فيه، فقال

ففيهم: إذا طلع النّجم - ويراد به الثريا تقي اللحم - وخيف السّقم - وجرى السّراب على الأكم. وقيل أيضاً: إذا طلع النّجم جعلت الهواجر تحتد، والعانات تكتدم، وقيل: طلع النّجم غديه، وابتغى الرّاعي شكيه، وحكى الكلابي طلع النّجم غدياً وابتغى الرّاعي شقياً، يجوز أن يكون شقوى لغة في شكوى، ويكون الشكوى بمعنى الشكوة، وقيل أيضاً: طلع النّجم عشاء، وابتغى الرّاعي كساء، وقيل أيضاً: إذا الثريا طلعت عشاء قبع الرّاعي الغنم كساء.

وحكى أبو زياد: إذا أمسى النّجم يقبل فشهر فتى وشهر جمل. وقيل أيضاً: إذا أمسى النّجم يدبر - فشهر نتاج وشهر مطر، وإذا أمسى الثريا قم رأس. فليلة فتى وليلة فاس - ومما يحفظ من كلام لقمان بن عاد: إذا أمست الثريا قم رأس ففي الدّثار فاحنس، وعظامها فاحدس وأنهس بليل وأنهس، وإن سئلت فاعبس ومما سير فيها قوله:

إذا ما قارن القمر الثريا بخامسة فقد ذهب الشّتاء

وحكى النّضر في صدر هذا الباب: أضاءت ذكاء - وانتشر الدّعاء - وإذا طلعت العقرب، وهي أول بروج الشّتاء - جسم المذنب ومات الجندب وفرفر الأشيب.

إذا طلع الدّبران توقّدت الحزان، وهي ظواهر صلبة من الأرض ليست بجبال، ويست الغدران واستعرت النّيران، واستنعت الزّديان - ورمت بأنفسها حيث شاءت الصّبيان.

وإذا طلعت الهقعة تقوّض النّاس للقلعة ورجعوا إلى النّجعة وأورست الفقعة وأردقتها المنعة.

وإذا طلعت الجوزاء توقّدت المغراء وأوفى على عوده الحرياء، وكُنست الطّباء، وعرقت العلباء وطاب الخباء. ويروى انتصب العود في الحرياء، وإنما ذكرت الجوزاء مع الهقعة لأنّها رأسها.

وإذا طلعت الذّراع حسرت الشّمس القناع، وأشعلت في الأفق الشّعاع، وترقرق السّراب بكلّ قاع.

وإذا طلعت الشّعري نشف الثّرى، وأجن الصّرى، وجعل صاحب النخل يرى. وقال بعضهم: إنما ذكر الشّعري مع الذّراع لأنّها أحد كوكبيها وقيل:

إذا طلعت الشّعري سقراً، ولم تر مطراً، فلا تغدوّن إمرة ولا أمراً. وأرسل العراضات ببغيتك في الأرض معمرأ.

وإذا طلعت الثّرة قنات البسرة، وجنى النخل بكرة، وأدّت المواشي حجره ولم تترك في ذات دَرّ قطرة.

وإذا طلعت الصّرفة بكرتِ الخرفة وكثرتِ الطّرفة، وهانت للضيف الكلفة.

وإذا طلعتِ الجبهة تحانت الولهة، وتنازّت السفهة، وقَلَّت في الأرض الرّفهة، وقيل أيضاً:

وإذا طلعت الجبهة تزَيّنت النّخلة. وإذا طلعت الثّرة تشفّحت البسرة.

وإذا طلعت العذرة فعكة بكرة على أهل البصرة، وليست بعمان بسرة، ولا لأكارها بذرة، وإنما ذكرت العذرة ها هنا لأنّها تطلع مع الطّرف أو قريباً منه.

وإذا طلعت الصّرفة احتال كلّ ذي حرفة وجفر كلّ ذي نطفة، وامتزج عن المياه زلفة.

وإذا طلع سهيلٌ خيف السّيل، وبرّد اللّيل، وامتنع القيل، ولام الحوار الويل، (القيّل) يريد القايلة يقال: قال يقيل قيّلاً وقايلةً ومقيلاً وقيلولةً. (وقيل أيضاً): إذا طلع سهيلٌ طاب الثرى وحر اللّيل، وكان للفصيل الويل، ووضع كيل، ورفع كيل. قال بعضهم: ذكر سهيل لأنّ طلوعه مع طلوع الجهة قال: وأهل البادية يعظّمون الفصال عند طلوع سهيل، وقيل: إذا طلعت الصّرفة احتال كلّ ذي حرفة، وقيل: احتال كلّ ذي جرفة، وجفر كلّ ذي نطفة، وامتزج عن المياه زلفة.

وإذا طلع العوّاء ضربت الخباء وطاب الهواء وكره العراء وشنن السّقاء.

وإذا طلع السّماك ذهب الحرّ والعكاك، واستفاهت الأحناك، وقَلَّ على الماء العراك.

وإذا طلع الغفر اقشعر السّففر، وتزَيّل النّضر وحس في العين الجمر.

وإذا طلع الرّبانى أحدثت لكلّ ذي عيال شباناً، ولكلّ ماشية هواناً وقالوا: كان وكانا. وبردت الثّنايا فاجمع لأهلك ولا تتوانى.

وإذا طلع الإكليل، حاجت الفحول، وشمرت الدّيول تخوّفت السّول.

وإذا طلع القلب، جاء الشّتاء كالكلب، وصار أهل البوادي في كرب ولم تمكن الفحل إلا ذات ثرب.

وإذا طلعت الشّولة أعجلت البولة، واشتدّت على العيال العولة، وقيل: شقوة وزولة.

وإذا طلع الهرازان هزلت السّمان واشتدّ الرّمان ووحوح الولدان. و (الهرازان): قلب العقرب والتسر الواقع وهما يطلعان معاً.

وإذا طلعت النّعائم توسّقت البهائم، وقيل أيضاً: إذا طلع النّعام، كثر الغمام وذلك

ليل التّمام، وقيل أيضاً: إذا طلعت النّعائم ابيضّت البهائم من الصّقيع الدّائم، وأيقظ البرد

كلّ نايـم . وروي خلص البرد إلى كلّ نايـم ، وتلاقت الرّعاء بالتّمايـم .

وإذا طلعت البلدة حممت الجعدة وأكلت القشدة وزعلت كل ثلدة وقيل للبرد اهده ،
والقشدة والقلدة والخلاصة : ما يُسَلّا به السّمن .

وإذا طلع سعد الدّابح حمى أهله النّاتج ، ونفع أهله الرّائح ، وتصبح السّارح وظهر في
الحي الأنافح .

وإذا طلع سعد بلع اقتحم الرّبع ولحق الهبع وصيد المرع وصار في الأرض بقع أولمع
وقيل تشكّى كلّ ربع .

وإذا طلع سعد السّعود : مضر العود ، ولانت الجلود ، وكره النّاس في الشّمس القعود .

وإذا طلع سعدُ الأخبية : ذهب الأسقية ، ونزلت الأخوية ، وتجاوزت الآنية ، وقيل إذا
طلع السّعد كثر الشّعد .

وإذا طلع الدّلّو ينبت الجزو ، وانسلّ العفو ، وطلب اللّهُو الحلو ، وقيل أيضاً : إذا
طلع الدّلّو فهو الرّبيع والبدو . والقيظ بعد الشّتو وكان فيه كل نوء أي مطر .

وإذا طلعت السّمكة : أمكنت الحركة وتعلّقت الحسكة ونصبت الشّبكة وطاب الزّمان
للنّسكة .

وإذا طلع الشّرطان استوى الزّمان وحضرت الأعطان وتوافت الأسنان وتهادت الجيران
وبات الفقير بكلّ مكان ، وألّقت الأوتاد في الأبطان وقيل أيضاً : إذا طلع الشّرطان ألّقت
الإبل أوبارها في الأعطان .

وإذا طلع البطين اقتضى الدّين وامتنع بالعين واقتفى العطار والقين . ومن هذا قول
الشاعر شعراً :

فإن كنتَ قيناً فاعترف بنسيه وإن كنتَ عطّاراً فأنتَ المخيّبُ
أفينا تسومُ السّاهرية بعدما بدا لك من شهر المليساء كوكبُ

المليساء : تصغير المليساء ، والسّاهرية : جنس من الطّيب ، والاقتفاء : الكرامة وقيل
أيضاً : إذا طلع البطين تزينت الأرض بكل زين . وقيل : إذا طلعت الهنعة تحمل النّاس
للقلعة .

وإذا طلع الدّراع : هرات السّناسن والكراع ، وهرأت : نضجت من قولهم : لحم
مهراء . والسّناسن فقار الظّهر والواحد سنسن .

وإذا طلعت النثرة التقط البلح بكره، وإذا طلع الطرف شقح الطرف.

وإذا طلعت الجبهة تزينت البهه، وهو ضرب من النخل.

وإذا طلعت الخرأتان: طابت أم الجرذان لضرب من التمر.

وحكى ابن الأعرابي: إذا طلع سهيل أخذ أحدهم بإذن الفصيل، ثم استقبل به مطلع سهيل، يريه إياه ثم يحلف أنه لا يرضع بعد يومه ذلك قطرة ويفصله من أمه.

وقيل: إذا طلع سعد الذابح - انحجرت الضوايح - ولم تهز التوايح - من الشتاء البارح.

وقيل: طلع الحوت - وخرج الناس من البيوت - وقيل: طلعت الأشرط، ونقصت الأنباط.

تفسير ما فيه إشكال من ألفاظ هذه الأسجاع: الاحتدام: الذكاء ويقال: احتدم الرجل: إذا تلبى غضباً. والحطم: الكسر. والشكوة: السقاء الصغير من مسك السخلة قبل أن يقرم. وقرمه: أكله الشجر، والقبل: أصله النثر من الأرض يستقبلك.

وقال أبو زياد: إذا أمسى النجم مقابلك من المطلع على قدر رمح أو رمحين قال: والدبران تراه قد انصب عن وسط السماء حين تبدو النجوم قم الرأس، بأن تكبد السماء حتى إن سقط لسقط على رأس القاييم، وقوله: (عظامها) يريد عظمي إبله وغنمه والمراد به الجنس.

والحدس: الصرع يقال: حدس بناقته فوجأها في سبلتها: إذا أناخها فوجأها في نحرها.

وحكي عن بعضهم حدس لهم بمطفئة الرضف، إذا ذبح لهم شاة يطفئ الرضف من سمنها. والرضف: الحجارة المحماة. واستفار: الذبان شدة أذاها ومعرتها. والإيراس: الاصفرار. وأردفتها: جاءت بعدها يقال ردفته وأردفته وإذا جعلته خلفك فليس إلا أردفته.

وقال يزيد بن القحيف الكلابي: يقول الرجل للرجل يلقاه: هل لك علم برفقة بني فلان؟ فيقول: نعم ها هي ذه مردفتنا أي وراءنا.

ويقول: حسرت الشمس القناع، وهو مثل، والمعنى أنها لم تدع غاية في الذكو.

ويقال للشمس إذا اشتد حرها ولم يحل من دون شعاعها شيء: انصلعت ويوم أصلع: أي حام وأنشد:

يا قردة خشيت على أظفارها حر الظهيرة تحت يوم أصلع

والخرقة: ما لقط من الرطب وخرقت فلاناً وأخرف لنا أي اجتنى.

وتشقيح البسرة أن تحمر: يقال شقق بسر وأشقق إذا تلون بحمرة.

قال الأصمعي: الأمر والقميد الصغير من أولاد الضأن، قال أبو عمر وهو السائمة كلها. والعراضات: الإبل العراض واحدها عراضة، لأن آثار أخفافها في الأرض عراض.

والولهة: جمع والهة وهي ما بقي في المداوس من الثبن بعد تنقيته من الحب. ومن أمثالهم: هو أغنى عن ذلك من التفه عن الرّفه. والتفه عنق الأرض وهو لا يقتات الثبن لأنه سيع. وأم جردان: نخلة بالحجاز يتأخر إدراكها.

قال الأصمعي: هو المشان بالعراق، والجفور: الانتهاء من الضراب والامتيار الشحي. واستفاهة الاحناك: شهوة الطعام، يقال: رجل فيه للجيد الأكل، واللّكاك: التدافع والتزاحم، والنّضر: الخضر من كل نابتة، والوحوة: حكاية صوت الولدان من البرد، والزّولة: المنكرة. وقوله قرب الأشيب أوفر الأشيب يعني الثلج والجليد، وبيضاض البهائم من السقيط الواقع على ظهورها. قال شعراً:

وأصبح مبيض الصقيع كأنه على سروات الثيب قطنٌ مندفٌ

والتوسف: التقشر. قال:

وأوقدت الشعري مع الليل نازها وأمسث محولاً جلدها يتوسفٌ

وتحميم الجعدة: أن تراها قد همت باطلاع كما تحمم وجه الغلام إذا همّ بالبول.

وقوله: كل تلدة فهو من التلاد والزّعل والتشاط، و (البلدة): من التليد، و (اقتحام الرّباع) إسرعه في عدو لأنه قوي، و (المرعة) طائر سمين طويل العنق يملأ كفي الإنسان، وأكثر ما يرى في الخضرة والعشب. وأنشد:

له مرعٌ يخرجن من تحت ودقّة مع الماء جونٌ ريشها يتصّبّبُ

ويقال: هو أحرص شيء على الطيران في المطر، وهي خضراء، أشربت صفرة، و (الثعد): العشب و (الغض): الرطب. ومن الأسجاع: كلاً ثعد ماد يشبع منه الناب، وهي تعدو، و (الماد): الناعم و (الحواء) قطعة من بيوت الأعراب. و (الحسكة): ثمرة السعدان وهي بقلّة تسطح على الأرض إذا نبتت، و (الأنباط): المياه المظهرة نحو الآبار. و (القني): ما أنبطه فهو نبط وفي المثل: لتجدن نبطه قريباً، و (الجزء) الاجتزاء بالرطب عن الماء، وإنما قيل: (هيب): لأنه يخاف انقطاعه و (العفو) ولد الحمار، يقال: نسل وأنسل بمعنى إذا ألقى وبرّه.

فصل

واعلم أنَّ الفصل اسم قد جرى في كلام العرب وجاءت به أشعارهم قال يصف حميراً شعراً:

نظائر حوّنٍ يعتلجْنَ بروضٍ بفصل الزَّبيعِ إذ تولّت ضبائبه
وسُمِّي فصلاً لانفصال الحرّ من البرد، وانقلاب الزَّمن عن الزَّمن الذي قبله.

ويقال للفصول: الفصيّات، الواحدة فصيّة وهي الخروج من حرّ إلى بردٍ ومن بردٍ إلى حرّ، والفصيّة تصلح في كل أوقات السّنة متى خرجت من أذى إلى رخاء، فتلك فصيّة، ولا يستعمل الفصل إلا في حينه. فأما الأصمعي فإنّه قال: الفصيّة: أن تخرج من بردٍ إلى حرّ، وأقصى القوم وهم مفصون ويقال: لو أفصينا لخرجت معك.

البابُ الثالثُ والأربعون

في ذكر العِيافة والقيافة والكهانة وهو ثلاثة فصول

فصل

حكى ابن الأعرابي قال: أضلَّ رجلُ ذوداً له وأمة، فخرج في طلبها فمر برجل من بني أسد يحلب ناقة فسأله هل أحسست من ذود فيه أمة سوداء؟ فقال: لا ولكن ادن مني أحلب لك فتشرب ثم أدلك على ذودك وأمتك فدنا فحلب له فسقاه، ثم قال له: ما سمعت حين خرجت من أهلك قال: نباح الكلب - وثغاء الشاء - ورغاء البعير - قال نواة تنهاك. قال ثم رأيت ماذا؟ قال: ثم عرض لي الذئب فقال: كسوب ذو حيلة، قال ثم رأيت ماذا؟ قال: عرضت لي النعامة، قال: ذات ريش واسمها حسن، هل تركت في أهلك مريضاً يعاد؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى أهلك فإنَّ ذودك وأمتك في أهلك فرجع، فوجد ذلك كما قال. قال: وإنَّما قال هل في بيتك مريض يعاد من قوله شعراً:

صعلٌ يعودُ بذِي العِشيرة بيضةً كالعبد ذي الفَرِّو الطَّويل الأَصْلَمِ

فصل

وقال هشام الكلبي: حدَّثني أبي عن أبي الدَّيَّال بن نغر عن الطَّرماح بن حكيم الشاعر، قال: خرج خمسة نفر من طيء من ذوي الحجى والرأي (منهم برج) بن مسهر وهو أحد المعمرين و (أنيف بن حارثة بن لام) و (عبد الله بن) سعد بن الحشرج أبو حاتم طيء و (عارق) الشاعر و (مرة بن عبد رضا) يريدون سواد بن قارب الدَّوسي وكان كاهناً ليمتحنوا علمه، فلما قربوا من السَّراة قال لِيَجْتَبِئَ كل واحدٍ منكم خبيثاً، ولا يخبر به صاحبه، لنسأله عنه، فإنَّ أصاب عَرَفْنَا علمه، وإنَّ أخطأ ارتحلنا عنه وأحللنا عنه، وأحللناه محله، فخبأ كل واحدٍ منهم خبيثاً.

ثم صاروا إليه فأهدوا له طرفاً من طرف الحيرة وإبلاً فضرب عليهم قبة ونحر لهم، فلما مضت ثلاث دعاهم فدخلوا عليه فتكلم برج وكان أسنهم فقال له: جادك السحاب - وأمرع لك الحباب - وضفت عليك النعم الرغاب - نحن أولو الآكال - والحدائق - والأغيال - والنعم الجفال - ونحن أصهار الأملاك وفرسان العراك - يُورِّي عنه أنه من بكر بن وائل - فقال سواد والسماء والأرض - والغمر - والبرض - والقرض - والفرض - إنكم لأهل الهضاب الشم - والنخل العم - والصخور الصم - من أجااء العيطاء - وسلمى ذات المرقبة السطعاء - فقالوا: إنا لكذلك، وقد خبأ كل رجلٍ منّا خبيئاً لتخبر الرجل باسمه وخبيئته. فقال لبرج: أقسم بالضياء والحلك - والتجوم - والفلك - والشروق والدلك في أسنخة الفلك لقد خبات برثن فرخ - في إعليط مرخ - تحت أسرة الشرخ. قال: ما أخطأت شيئاً، فمن أنا؟ قال: أنت برج بن مسهر عصرة المعور وثمان المحجر.

ثم قام أنيف بن حارثة فقال: ما خبيئي وما اسمي؟ فقال سواد - والسحاب والتراب - والأسباب - والأحداق والنعم الكتاب - ويروى الكباب - لقد خبات قطامة فسيط، وقدة مريط، في مدرة من مدى مطيط فقال: ما أخطأت شيئاً فمن أنا؟ فقال: أنت أنيف - قاري الضيف - ومعمل السيف - وخالط الشتاء بالضيف.

ثم قام عبد الله بن سعد فقال: ما خبيئي ومن أنا؟ فقال سواد أقسم بالسوام العارب والوقير الكارب - والمجد الزاكب - والمشيع الجادب - لقد خبات نغائة فن - في قطيع قد مرن - من أديم قد جرن - فقال: ما أخطأت حرفاً فمن أنا؟ قال: سعد النوال - عطاوك سجال - وشرك عضال - وعمدك طوال - وبيتك لا ينال.

ثم قام عارق فقال: ما خبيئي وما اسمي؟ قال سواد أقسم بتقف اللوح - والماء المسفوح - والفضاء المندوح - لقد خبات زمعة طلى أعفر - في زعنفة أديم أحمر - تحت جلس نضو أدبر - قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا؟ قال: أنت عارق ذو اللسان العضب - والقلب الندب - مضاء الغرب - مناع السرب - مبيح النهب.

ثم قام مرة بن عبد رضا قال: ما خبيئي وما اسمي؟ قال سواد: أقسم بالأرض والسماء - والبروج والأنواء - والظلمة والضياء - لقد خبات دمة - في زمة شيط لمة - قال: ما أخطأت حرفاً فمن أنا؟ قال: أنت مرة السريع الكره - البطيء الغرة الشديد المرة - القليل الغرة.

قالوا فأخبرنا بما رأينا في طريقنا إليك، فقال سواداً: أقسم بالنأظر من حيث لا يرى - والسامع من قبل أن يناجي - والعالم بما لا يدري - لقد عفث لكم عقاب عجزاء - على

شناغيب دوحه جرداء - تحمل جذلاء - فتماريتم إِمَّا يَدَا وَإِمَّا رِجْلًا، قالوا: كذلك كان ثم مه قال:

سنح لكم قبل ترجّل الشُّروق سيداً مق على ماء طروق
قالوا: ثم ماذا؟ قال: ثم تيس أفرق - فسند في إبرق - فرماه الغلام الأزرق - فأصاب
بين الواهلة والمرفق - قالوا: صدقت وأنت أعلم من تحمل الأرض ثم انصرفوا فقال عارق
شعراً:

ألا لِلّهِ عِلْمٌ لا يُجَارَى	إلى الغايات في جنبي سَوَادٍ
أَتِنَاهُ نُسَائِلُهُ امْتِحَانًا	ونحسب أن سيعمل بالعناد
نسائل عن خفي مخبئات	فأضحى سرّها للنّاس باد
حسام لا يليق ولا ثائنا	عن القصد الميمّم والسّداد
كأنّ خبيثنا لمّا انتخبنا	بعينه يُصرّح أو ينادي
فأقسم بالعشائر حيث قيس	ومن نسل الأقيصر باللبّاد
لقد جزت الكهانة عن سطّيح	وشقّ وكم فل من الإياد

تفسير ما يشكل منه، (النعم): الرّغاب هي الكثيرة منه (وأولو الآكال): يريد القطائع
وكانت ملوك الحيرة تقطع بكر بن وائل ولم يكن ذلك لغيرهم. و (الأغيال): جمع الغيل:
وهو الماء الجاري وبطن الوادي. وقوله: (نحن أصهار الأملاك): يريد بنت عمرو بن
الحارث الملك الكندي أم أناس منهم وهم أصهار ملوك لحم أم عمرو بن أمريء القيس
الذي كان يقال له: ابن ماء السماء - وابن ماء المزن. و (الغمر): الماء الكثير، و (البرض):
الماء القليل و (النخل العم): الطّوال، و (العيطاء): الطّويلة، و (السّطعاء): الطّويلة العنق،
و (أجاء وسلمى): جبلان. (الحلك): الظلمة، (الذلّك): السّود، (البرثن) الإصبع،
و (الشّرخ): من الرّجل بمنزلة القربوس من السّرج، و (الإعليط): وعاء تمر. (المرخ):
مثل وعاء الباقلي، و (المرخ): شجر، و (العصرة): الملجاء و (المعور): الذي قد ظهرت
عورته، و (الثمال): العصمة و (المحجر): الذي قد احجرتة السّنة. و (الأصباب): جمع
الصّبب وهو المنحدر من الأرض، و (الأحدب): جمع حدب وهو المرتفع من الأرض،
(الكتاب): المجتمع - والكباب الكثير، و (القطامة): ما قطعته بأسنانك، و (الفسيط):
قلامة الظفر، و (المريط): سهم تمرط ريشه، و (المدى): ما سال من الحوض من الماء،
و (المطيط): الخائر بما بقي في الحوض من الماء، و (الوقير): القطيع من الغنم برعائه،
و (العازب): البعيد في المرعى، و (القارب): القريب، و (الجادب): العايب،
و (النغاة): ما ترميه من السّواك، و (التّنف): الهواء بين السّماء والأرض، و (جرن

ومرن): بمعنى لان، و (اللّوح): الهواء، و (العفرة): حمرة أشربت غبرة، و (الزعراف): أطراف الأدم، و (الحلس): البرذعة والكساء، و (النضو): الذي أنضاه السّفر، و (الأدبر والحرب والسّرب): المال الرّاعية، و (النّذب): الخفيف، و (الدّمة): التّملة الصّغيرة، و (الرّمة): العظم البالي، و (المشيط): ما سقط من الشّعر عند المشط، وإذا كانت الرّيشة البيضاء ظاهرتة فالعقاب عجزاء. وإذا بطنت فهي كسعاء. و (الجدل): العضو بكماله، و (الشّناغيب): أطراف الغصون العلى، و (الأمق): الطّويل، و (الراملة): رأس العضد الأعلى، و (الأبرق): حجارة اختلط بها طين، و (البعل): والبقر الدهش ويقال ثنائاً الرجل عن المكارة، إذا زال، و (اللبّاد): موضع.

ومما رواه محمد بن إسحاق قال: ذكر وقع باليمن من الحبشة فيما بلغني عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس وغيره من علماء أهل اليمن ممن يروي الأحاديث ويرغب في جمعها يحدث بعضهم عن بعض الحديث، وبعضهم يحدث بعضاً كل ذلك قد اجتمع فيما أذكره، أنّ ملكاً من لخم كان باليمن فيما بين التّبايعه^(١) من حمير يقال له ربيعة بن نصر، وكان قبل ملكه باليمن ملك تبع الأول ثم كان بعد تبع شمر بن عث بن ياسر بن ينعم الذي غزا الصّين وبني سمرقند - وحير الحيرة وهو الذي يقول:

أنا شمرٌ أبو كرب اليماني جلبتُ الجندَ من يمنٍ وشامٍ
لناتي أعبداً مردوا علينا وراء الصّين في غيمٍ ويامٍ

وإنّ الملك ربيعة بن نصر رأى رؤيا هالته، فبعث إلى الخيرة من أهل أرضه والكهان والسّحار والعراف^(٢) والمنجمين ثم جمعهم فقال لهم: إنّي قد رأيت رؤيا أفزعّني وهالّتي فأخبروني بها، فقالوا: أقصصها علينا نخبرك بتأويلها، فقال: إنّ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عنها أنّه لا يصيب تأويلها إلا الذي يخبرني بها قبل أن أخبره، فلما قال لهم ذلك، قال رجل من القوم: إنّ كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطّيح وشق، فهما يخبرانه عما رأى من ذلك وهما أعلم من بقي، وكان سطّيح رجلاً من غسان يقال له: سطّيح الذّئبي نسب إلى ذئب بن عدي بن مازن بن غسان وكان شق رجلاً من قسر بن عبقر بن أنمار، وكانا كاهني اليمن في ذلك الزّمان وإليهما انتهت الكهانة، فأرسل الملك ربيعة بن نصر إليهما، فقدم عليه سطّيح قبل شق، فدخل عليه فقال له الملك: يا سطّيح إنّي قد رأيت رؤيا هالّتي وفطعت بها حين رأيّتها وإنّك إن تصبّتها قبل أن أخبرك عنها أصبت تأويلها.

(١) في القاموس والتّبايعه ملوك اليمن الواحد كسكر (تبع) ولا يسمّى به إلا إذا كانت له حمير وحضرموت

١٢ مصحح.

(٢) قال في كنز المدفون فرق بين -

قال: رأيت حممة خرجت من ظلمة - فوقعت تهمة - وفي رواية فوقعت بين روضة وأكمة. فقال الملك: ما أخطأت من رؤياي وسمه، فما عندك في تأويلها يا سطيح؟ قال: أحلف بما بين الحرّتين من حنش - لتنزّلن أرضكم الحبش - وليملكنّ ما بين أبين إلى جرش. قال له الملك: وأبيك يا سطيح إنّ هذا لنا لغائظ وموجع فمتى هو كائن يا سطيح؟ أفي زمني أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين - أكثر من ستين أو سبعين - يمضين من السنين. ثم يقتلون فيها أجمعين - أو يخرجون منها هارين. فقال له الملك: ومن الذي يقتلهم، ويلي ذلك من إخراجهم؟ قال الذي يليه ابن ذي يزن - يخرج عليهم من عدن - فلا يترك أحداً منهم باليمن. قال الملك: أيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال سطيح: بل ينقطع. ومن يقطعه؟ قال: نبي مكّي يأتيه الوحي من قِبل العلي. قال: ومن هذا النبي يا سطيح؟ قال: رجل من دار غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر. قال له الملك: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون - يشقى فيه المسيئون - ويسعد فيه المحسنون. قال له: أحقّ ما تقول يا سطيح؟ قال له: نعم والشفق والغسق والقمر إذا اتسق إنّ ما نبأتك لحقّ.

فلما فرغ من مسألته خرج من عنده وقدم عليه شق فقال له الملك مثل ما قال لسطيح، فقصص عليه الرؤيا على ما قصّها سطيح، فقال الملك: ما تأويلها يا شق؟ قال: أحلف بما بين الحرّتين ليغلبنّ على أرضكم السودان وليملكنّ كلّ طفلة البنان - ولينزلنّ ما بين أبين إلى نجران - قال الملك: وأبيك يا شق إنّ هذا لنا لغائظ فمتى هو كائن؟ أفي زمني أم بعده؟ قال بل بعده بزمان - ثم يستنفذكم منهم عظيم ذو شان، فيذيقهم أشدّ الهوان. قال له الملك: ومن هذا العظيم الشان يا شق؟ قال: غلام ليس يدني ولا مدن - يخرج من بيت ذي يزن - قال: فهل يدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسولٍ مرسل - يأتي بالحق والعدل - بين أهل الدّين والفضل - يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل - قال له الملك: وما يوم الفصل يا شق؟ قال: يوم يجزي فيه الولاة ويدعى فيه من السّماء دعوات، يسمع فيه الأحياء والأموات، ويُجمع الناس فيه للميقات، فيكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال له الملك: أحقّ ما تقول يا شق؟ قال: إي وَرَبّ السّماء والأرض - وما بينهما من رَفَعٍ وخفضٍ - إنّ ما نبأتك به لحقّ ما فيه من أمضٍ - فلما فرغ من مسألتها وقع في نفسه أنّ ما ذكرا له كائن من أمر السودان فجّهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم وكتب لهم إلى ملك من ملوك الفرس يقال له سابور بن خرزاد فأنزل الحيرة. وفي غير هذا أنّه قال للمنجّمين والكهنة لما سألوه أن يقصّ عليهم رؤياه أنّها انسلخت منّي فقالوا: ما عندنا علم المنسلخ ولكنا ندلّك على من يعلم.

قال الدّال على الفعل كفاعله فأرسل مثلاً فقالوا: أرسل إلى سطّيح الغساني فإنه يخبرك، فدعا سطّيحاً فأتي به محمولاً ولم يكن له عظم كان مستلقياً دهره يُفتي الناس يأتيه رُئي من الجن بأخبار السماء، وما يحدث في الأرض ولم تكن الشياطين ممنوعة من الاستراق إذ ذاك، وإنما رجعت بالنجوم وحجبت بعد مولد النبي ﷺ، فالمسترق للسمع الآن يرمى بنجم فيصيبه ولا يقتل بل يبقى مخبولاً إلى يوم القيامة.

وفي حديث إن الشيطان إذا رُجم وخاف الاحتراق رمى بنفسه في البحر.

وفي هذا الحديث أنّ سطّيحاً قال: أحلف بالله ما بين الحرتين إلى جرش - وما بينهما من ذي ناب وحنش - ليقطعن أرضكم الحبش - فليقتلنّ من دبّ وانكمش. وفي رواية الشّرقي ابن القطامي أنّه قال: فمن يلي قتل الأحبوش. قال: غلام من ذي يزن - يأتي بني الأحرار من قبل عدن - فلا يترك منهم أحداً باليمن. قال: فهل يدوم ملك بني الأحرار أو ينقطع؟ قال: يقطعه نبي زكي - يأتيه الوحي من قبل العلي. قال ومن هذا النبي الزكي؟ قال: رجل من ولد النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر.

قال الكلبي: اسم سطّيح ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذّئب بن الحارث. وقال الشّرقي: أخذته ذئبة - وهو طفل فذهبت به إلى غيضة - فجعلت تغذوه بأنواع الثمار حتى أدرك واشتدّ فهرب منها وأتى قومه فخبرهم بقصّتها، وأقبلت في أثره كالأم الثكلى تطلب ولدها فرموها حتى قتلوها.

قال هشام: وشق بن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن نذير بن قسر بن عبقري بن أنمار.

قال: وحديثنا أبو يحيى زكريّا بن يحيى السّاحي في إسناد ذكره ينتهي إلى سعيد بن مزاحم. وحديث أبو الحسن علي بن حرب الطّائي في إسناد ذكره ينتهي إلى مخزوم بن هانيء المخزومي، فقال: حدّثني أبي وقد أتت له خمسون ومائة سنة قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي السماوة وكان منقطعاً قبل ذلك بألف عام.

ورأى مؤيد المؤيدان إبلاً صعباً - تقود خيلاً عرباً - قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك وتصبّر عليه. ثم رأى أن لا يستر ذلك عن وزرائه ومرازبته فلبس تاجه وقعد على سريرته وجمعهم إليه فأخبرهم بالذي رأى فبينما هم كذلك، إذ ورد عليهم كتاب بخمود النّار فازداد غمّاً إلى غمّه.

قال مؤيد المؤيدان: وأنا أصلح الله الملك، فقد رأيت في هذه الليلة ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال كسرى: أي شيء يكون هذا يا مؤيدان؟ قال: حادث يكون من ناحية العرب، فكتب عند ذلك من كسرى ملك الملوك إلى التعمان بن المنذر، أما بعد فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقليلة الغساني، فلما قدم عليه قال: هل عندك علم بما أريد أن أسألك قال: ليخبرني الملك فإن كان عندي منه علم وإلاّ دللته على مَنْ يعلمه ويخبره فأخبره بما رأى. فقال: علم ذلك عند خال لي يسكن بمشارف الشام يقال له سطيح، قال: فأتيه فأسأله عما سألتك عنه، ثم انتبني بجوابه، فخرج عبد المسيح حتى ورد على سطيح، وقد أشفى على الموت، فسلم عليه وحيّاه فلم يرد عليه سطيح جواباً فأنشأ عبد المسيح يقول شعراً:

أَصُمُّ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفُ الِیْمَن؟	أَمْ فَاظْ فَأَزْلَمَ بِهِ شَاءَ وَالْعَنَنُ
يَا فَاضِلَّ الْخَطَّةُ أَعِثْ مَنْ وَمَنْ	وَكَاشَفَ الْكُرْبَةُ فِي الْوَجْهِ الْغَضَنُ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ	وَأُتِيَ مِنْ آلِ ذَنْبِ بْنِ حَجَنْ
أَزْرَقَ جَهْمُ الْوَجْهِ صَرَارَ الْأَذَنْ	أَبْيَضَ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنْ
لَا يَرْهَبُ الرُّعْبَ وَلَا رَيْبَ الرُّمَنْ	وَهُوَ رَسُولُ الْعَجْمِ يَسْرِي لِلْوَسَنْ
يَجُوبُ فِي الْأَرْضِ عَلَنَدَنْ ذُو فَرَنْ	بَلَّغَهُ فِي الرِّيحِ يَوْغَاءَ الدَّمَنْ

كأنما حثث من حضني ثكن

فلما سمع سطيح شعره فتح عينيه، ثم قال: عبد المسيح على جمل طليح - ويروى مشيح - يخبّ إلى سطيح - وقد أوفى على ضريح، بعثك ملك بني ساسان - لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المؤيدان، رأى إبلاً صعباً، تقود خيلاً عرباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في البلاد، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي السماوة، فليست الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت، ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى رحله وقال شعراً:

شَمَّرَ فَإِنَّكَ مَاضِي الْهَمِّ شَمِير	لَا يَفْزَعَنَّكَ تَفْرِيقُ وَتَغْيِير
إِنْ يَمَسْ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ	فَإِنَّمَا الدَّهْرُ إِفْرَاطُ دَهَارِيرُ
فَرَبِّمَا أَصْبَحُوا يَوْمًا بِمَنْزِلَةٍ	تَهَابُ صَوْلَتُهُمْ أَسْدُ مُهَاصِيرُ
وَرُبَّ يَوْمٍ لَهُ ضَحِيانٌ ذِي أَمْرِ	سَارَتْ بِلَهْوِهِمْ فِيهَا الْمَزَاهِيرُ
وَأَسْعَدَتْهَا أَكْفٌ غَيْرُ مَعْرِفَةٍ	بَخَّ الْحَنَاجِرُ تَنْنِيهَا الْمَعَاصِيرُ
مَنْ بَيْنَ لَاحِقِهِ الصَّقْلَيْنِ أَسْفَلُهَا	وَعَثَ وَعَسْلُجُ بَادِي الْمَتَنِ مُحْصُورُ

منهم أخو الصّرح بهرام وإخوته والهرمزان وسابور وسابور
والناس أولادُ علّاتٍ فمن علموا أن قد أقلّ فمحقور ومهجور
وهم بنو أم من رأوا له نسباً فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشرّ مقرونان في قرنٍ فالخير متبّع والشرّ محذور

وفي غير هذا أنّ الملك قال لعبد المسيح: هل بقي في العرب أحدٌ يخبرنا عمّا نسال عنه؟ قال: نعم ابن عم لي بباب الجابية يقال له سطيح، وكان سطيح لحماً يحمل في جلد لم يخلق له عظم، وإذا أرادوا تحويله من موضع طوي كما يطوى القرطاس، فإذا أرادوا أن يتكهّن مخض كما يَمْخَض الرّزق ثم علاه بهر وعرق، وعَلَّته برحاء ثم تكهّن. (وفيه) فلما قدم على كسرى أخبره بالخبر، فقال كسرى: إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملكاً يذهب دهرٌ طويلٌ، وكان الرّجل منهم ربّما ملك مائة سنة فهلك منهم تسعة في أربع سنين، وظهر أمر رسول الله ﷺ.

وحَدَّث أبو المنذر عن شيوخته عن زفر بن زرعة قال: خرجت مع نفرٍ من قومي في الشّهر الحرام في بغيةٍ لنا فسرنا ثلاثاً حتى إذا انخرقت لنا الفلاة نزلنا وادياً موحشاً فعقلنا رواحلنا. وقام رجلٌ منّا فنادى بأعلى صوته: أعود بعزير هذا الوادي من شرٍّ من فيه، وكذا كنّا نفعل في الجاهلية. وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن، الآية: ٦] قال: فلما أبهار اللّيل وقد نام أصحابي وقعدت أكلوهم وقد كنّا تحدثنا بخروج النبي ﷺ بمكة، وشاع خبره في العرب، سمعت هاتفاً يقول: يا وزر بن خوتع بن غزوان - هل راعك اليوم حديث الرّكبّان؟ عن نيا أيقظ كلّ وسنان - فأجابه آخر شعراً:

أربت يا هوبر من داعٍ دان روّعت معمود الفؤاد رويان

(أربت) قطعت إرباً، و (المعمود): الذي قد عمد المرض فؤاده، ورويان ناعس ثقيل مسترخ من النّعاس جل فقد أشازت قلبي الحيران - وقال الأول: قد لفظت مكة ذات أشبره. جمع شبر وهي أربعة أمار ما كان أبونا أثره امار علامة أثره. رواه أنّ امرأ بين المنطباح الضّفر، أي متداخل بعضها في بعض قد نجم القول الذي قد أظهر. فقال الثاني:

إن كان يابن نعجةً بن صبره ما قيل حقاً فابعثن حَبْشَةَ
في آل زلقوم وآل سجره إنّ التسي بنخلصة المستغفرة

حلت بها أم اللميم القشرة

العرب كانوا يستفرونها فإذا صوّت كصوت الرّعد من أحد أعداء الوادي يقول:
إنّ كان ما أنباتما قد كيانا فقد أقم القلت الأوثانا

ولم تزو جنانها الكهانا وصادفت دون العلى شهبانا
يمنعها أن تغرب الأغنانا

(أقم الفحل): شوله. إذا ضربها كلها و (الأعنانا): نواحي السماء. ثم صرخ صرخةً اشتعل منها الوادي ناراً، فخررت صعقاً، فما استيقظت إلا بأصوات أصحابي فاظ واللات فاظ ذلاً فانتبهت، واقتصصت عليهم قصتي ورجعنا من سفرنا وقد شاع خبر النبي ﷺ في العرب.

وحكى الهيثم بن عدي عن شيوخه قال: انطلقت أم مالك وطىء ابنا سبأ وهما ابنا أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان حين ترعرعا إلى كاهنة يقال لها: شهيرة بأرض سبأ بموضع يقال له: بلخع لتنتظر إليهما وتقول فيهما، وسأقت معها إبلاً فوجدت في طريقها سحق نعل، فجعلتها في كرية نخل، ثم دفعتها إلى رجلٍ معها من قومها يقال له: صعل، فقالت: أخبئ هذا معك حتى نثور الكاهنة بشيء قبل المسألة، فلما انتهت إليها عقلت ببابها ثم قالت: يا شهيرة إني قد خبأت لك خبئاً فأخبريني به قبل المسألة، فقالت: أقسم بالشمس والقمر، والكثكث والحجر - والرياح والمطر، لقد خبأت لي جلد بقر أشعر، وما به شعر محضر، أو ما به حضر. قالت أحلف بالسَّهل والجبل والجدى والحمل، والقمر إذا أفل، وما حنَّ بنجدٍ من جمل، أن قد خبأت لي فردَ نعلٍ، في كرنافة نخل - مع رجلٍ يدعى صعل - رب شاةٍ وحقل، قالت: صدقت فأخبريني عما جئت أسألك عنه، قالت: تسألين - عن غلامين ولدا في يومين - في بطن توأمين، (أحدهما): ربعة جعد، تعني طياً، و (الآخر): سبط نهد تعني مالكا. قالت: صدقت، فأخبريني عنهما، قالت: أهما معك؟ فأراهما أم نسجُ نبت عنهما؟ قالت: هما معي فنظرت إليهما ثم أقبلت على مالك فقالت: يكون من ولده قبائل وعدد ومصاليث نجد، ورأس وكند وحق وفند، يصيبون ويصابون، ويلحم عليهم ويلحمون الحق لا المين.

ثم نظرت إلى طيء فقالت: يكون في ولده سماح وجلد وإباء ونكد وعرام وسدد يأكلون ولا يؤكلون، شديدو الكلب، قليلو السلب، الحق لا الكذب.

فهذا عنوان ما يحكى عن كهانتهم وغيض من فيض ما يتلى من آياتهم وعبرهم وكل ذلك كان قبيل ما أراد الله تعالى اطلاعه من شأن النبوة بعد الفترة الممتدة، لأنه هو الحكيم العالم يُسبب الأسباب لما يقضيه - ويهيئ الآراب والدواعي لإتمام ما يمضيه، ويزيح العلل عما يتعبد به، ويسهل الطرق إلى ما يدعو إليه حتى تصير المدارج صاحبة للسالكين والدلائل متوافية للناظرين والمراصد ظاهرة للمعتبرين، وأبواب الفلاح مفتوحة للمسترشدين.

فلما دنا وقت خلق النبي ﷺ واصطفاه إياه لبعثه ورسالته وكان في الجن من يقعد

للسمع إلى سكان السماء والمتصرفين فيما يجري عليه أهل الأرض من خيرٍ وشرٍ، ورفع ووضع فيؤدّي ما يدركه إلى الكهنة، فيتسوقون به ويدعون علم الغيب فيه، حكى الله تعالى أمرهم في ذلك في غير موضع، ويبيّن أنّ الجنّ عَزَلُوا عَمَّا كَانُوا يَتَوَلَّوْنَهُ مِنَ التَّقَاطِ الْأَنْبَاءِ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَيُثَّهَا فَيَمْنُ كَانَ يَعْبُدُهُمْ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكَهْنَةِ.

فقال عزّ وعلا^(١): ﴿وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءِ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا﴾ [سورة الجن، الآية: ٨] ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [سورة الجن، الآية: ٩] يريد أنا طلبنا السماء جرياً على عادتنا من قبل في السَّمْعِ إلى أهلها وقد حجبتنا الآن دونها وملثت بمن يحرسها منا ويرميها بالنار إذا تعرّضنا له.

ثم ختم الكلام في الحكاية عنهم بأنّهم قالوا: لا نعلم ماذا أريد بما فعل لأهل الأرض من الغيِّ أو الرّشد أو الصّلاح، أو الفساد يريدون ما خفي عليهم من ايتناف الرّسالة واستحداث الشريعة والدلالة على أنّ لمسنا طلبنا قول الشاعر وهو يرثي ابنه له:

هوى ابني مِنْ أَشْرَفِي يهول عقابُه صَعْدَه
ثم قال:

أَلَا مُ عَلَى تَبْكِيهِ وَأَلْمَسَهُ فَلَا أَجْدُهُ

فاقتران الوجدان بقوله ألمسه: يدل على أنّ المراد به أطلبه فلا أجده، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا تَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ * وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنّهم عن السمع لمعزولون﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٢١٠-٢١٢] يريد تنزيه وخيه وتثبّت رسالته على لسان نبيه.

فإن قيل: إذا كان أمر الكهّان مع شياطين الجن على ما ذكرت ومؤدّى الغيب على ألسنتهم من نقلهم كما اقتضت، فما الفرق بين أخبار النّبي وأخبارهم؟ وبماذا يتميز ما مبناه على الحق والصدق لا تبديل يصحبه ولا خلف يعترض فيه مما هو بخلافه، ومبناه على التّمويه والتّشبيه والمخرفة والتزويق؟!

قلت: إنّ أولئك الكهّان إنّما تكهّنوا في أثناء أيام الفترة المتأخّرة، وقبل طلوع سوابق المعجزة، واستقام لهم ذلك لما أراد الله تعالى من تمرين الناس على ما يريد إظهاره من إعلام النّبوة يدل على هذا أنّه لم يحك ما يشبه بلاغاتهم عند الإخبار والاستخبار فيما تقادم من أخبار ملوك قحطان وعدنان والذّوين والتّبايعه وفيما ذكر قبلهم من أخبار طسم وجديس، ومن كان في الجاهلية الجهلاء، وإنّما قامت أسواقهم في أيام التّعمان والمنذر ابن ماء السماء وأشباههم.

(١) يعني حكاية عن الجن الذين أسلموا - الحسن النعماني.

وإذا كان الأمر على هذا فكما تناهت البلاغة نظماً ونثراً على ألسن فصحاء العرب لتعقبها التحدي بالقرآن، فبيّن شأن الإعجاز، كذلك تعالّت أشواطها الكهّان والحزاة فيما تهاذوا به وأدّعوه في أوقاتهم من علم مكتمن الأخبار ليعلوها شأن النبي عليه الصلوة السلام في إعلان المغيبات - وسائر ما أتى به من البينات.

هذا وقد كان امتلكتهم صرفةً من قبل الله تعالى تمنعهم فيما يأتونه من ادّعاء نزول الوحي عليه.

فإن قيل: بماذا يتفصل، مما قال لك إنَّ التحدي بالقرآن - وعجز مَنْ في زمانه عن الإتيان بمثله وبأقلّ سورةٍ منه ضمن تصوير المراد من تباري الخطباء والشعراء، والوصاف والبلغاء؟ إذ كان انبعاث همهم - وتحرك شهواتهم - واهتياج طبائعهم له لا داعي إليها، ولا مسبب لها عند الفحص والتأمل إلّا ذلك ويكشفه ما تراه من مساعدة دخلاتهم من غيرهم وتعاونهم عند الأخذ عنهم في طلب الزيادة عليهم كلّ ذلك لتصير المعجزة في كلّ أوّان مجددةً - كما كانت في زمانهم محققةً فما العذر في الكهانة؟ وكيف ينماز حالها عما خلّده النبوة؟ قلت: إنّ النبوة غايتها لا تدرك لأنّها محفوفة بالصدق والنزاهة والآيات البينة وعليها واقية من قبل الله تعالى يبعدها من الزّية، ويحفظها من دَرَن الشبهة والظنة، والكاهنين قد بيّن الله تعالى حاله في محكم كتابه فقال: ﴿هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٢٢١-٢٢٣] فحالهم حال المنجم فيما يحكم به وهو يردّد بين مصدّق ومكذّب ومؤمن به ومبطل، وإذا كان الأمر على هذا انسدت طرق المعارضات فالافتاء في تبين أمرهم بما ذكرته واجب.

فصل

في القيافة والعيافة

فأمّا القيافة: فقد خصّ بها قومٌ من العرب، وإنّما هو في الأنساب خاصة وقد ثبتها النبي ﷺ، ويحكم بها الشافعي وأصحابه، ويلحقون بها الولد وهذه فضيلة خُصّت بها العرب. روى سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأعرِف السّرور في وجهه، فقال: ألم تري أنّ مجزز المدلجي نظر إلى أسامة وزيد وعليهما قطيفة وقد غطيا رأسيهما وبدت أقدامهما فقال: إنّ هذه الأقدام بعضها من بعض، وهذا استدللّ به الشافعي وذكره المزني فيما حكى من مذهبه.

وروي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا قائفاً لرجلين ادّعيا ولدأ فقال: لقد اشتركا فيه، فقال عمر للغلام: والِ أيّهما شئت. ورُوي أنّ أنساً شكّ في ابن له فدعا القافة

للنظر في أمره. وهذه الأدلة تسوّغ في الدين القيافة، وإنّما هي علم يتبع أثراً أرشد الله له قوماً خصّهم بفضيلته ويقال: قفاه وقافه واقتافه واقتفاه بمعنى. وفي القرآن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٦].

وأما العيافة ففعل الزّجار. قال الأعشى:

ما تعيفُ اليومَ مِنْ طيرِ روحٍ من غرابِ البينِ أو تيسِ برحٍ

فقال في الإجمال: ما تعيف من طير روح، وفي التفصيل (قال): من غراب البين أو تيس برح، فجعل التيس من تفسير الطير لأنهم يقولون في تعارفهم: جرى طائره بكذا، وحكى أبو زيد عنهم: سألت الطير، وقلت للطير، وإنّما هو زجرانها. وفي القرآن: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [سورة يس، الآية: ١٩] و﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية: ٤٧] والأمر على اختلافها تفعلها. فمن ذلك قول الهذلي:

أُتِيجَ لَهُ مِنَ الْفَتِيَانِ خِرْقٌ أَخُوثَقَةٌ وَخَرِيقٌ حَشَوُفٌ
فَبِنَا يَمْشِيَانِ جَرَتْ عِقَابٌ مِنَ الْعَقْبَانِ خَاسِئَةٌ دَفَوُفٌ
فَقَالَ لَهُ: وَقَدْ أَوْحَتْ إِلَيْهِ أَلَا لِلَّهِ إِنَّكَ مَا تَعِيفُ
فَقَالَ لَهُ: أَرَى طَيْرًا ثَقَالًا تَبْشُرُ بِالْغَنِيمَةِ أَوْ تَخِيفُ

ففي هذا الذي قاله بيان، إنّ ذلك رجم ظن، وفي العرب من يشتق من اسم ما يعن له عند الطيرة، فيبني قصته عليه كقول القائل:

قالوا: حمام قلت: هم لي اللقاء. وقالوا: غراب قلت: غرب من النوى. وقد اشتق أبو تمام على ضد هذا فقال شعراً:

لَا تَشْجِيَنَّ لَهَا فَإِنَّ بَكَاءَهَا ضَحْكٌ وَإِنَّ بَكَاءَكَ اسْتِعْقَامٌ
هَنَّ الْجَمَامُ فَإِنَّ كَسْرَتَ عِيَافَةٍ مِنْ جَابِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حَمَامٌ

فأما ما يقولون في الغراب والظباء وهي: (السانح) و (البارح) و (الناطح) و (القعيد) و (الجابه) و (غراب البين) فقد اختلفوا في (السانح) و (البارح) فمن العرب من يتشاءم بالسانح ويتيمّن بالبارح على ذلك قول زهير:

جَرَتْ سَحًّا فَقُلْتُ لَهَا أَجِيزِي نَوَى مَشْمُولَةٌ فَمَتَى اللَّقَاءُ

وقال النابغة:

زَعَمَ الْيَوَارِخُ أَنَّ رَجُلَتَنَا غَدًا وَيَذَاكَ خَبَّرَنَا الْغُدَافُ الْأَسْوَدُ

فما تطير به زهير تترك به النابغة، (فالسانح): ما جاء من ميامنك فولاك مياسره،

و (البارح) ما جاء من مياسرك فولآك ميامنه، فأحدهما راعى من نفسه ما كرهه والآخر راعاه من الماربة، (فأما الناطح) فما يلقاك و (القعيد) ما استدبرك و (الجابة) ما جاء من أعلاك وقوله: (أجيزي نوى مشمولة) معناه اقطعي نوى هبّت عليها ربيع الشمال فبددت شملها وقوله: (فمتى اللقاء): استبعاد لوقوعه.

وحكى أحمد بن يحيى عن أبي المنهال المهلبى عن أبي زيد الأنصارى أنّ ما مر من ظبي أو طائر أو غيره فكلّ ذلك عندهم طائر. وأنشد في ذلك لكثير:

فلست بناسيها ولست بتارك إذا عرضَ الأدم الجوّاري سؤالها
ثم خبّر بعد أن قال الأدم الجوّاري أنه طائر فقال:

أدرك من أم الحكيم غبطة بها خبّرني الطير أم قد أتى لها

وقد فسّر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَةً فِي عُنُقِهِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٣] الآية على أنّ معناه حظّه، وقيل: عمله وما قدّمه من خير أو شر. ويكون ذلك في الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقال تعالى فيه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣٠] وفي موضع آخر: ﴿هَآؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهِ﴾ [سورة الحاقة، الآية: ١٩] وقال الكميت في تصديق ما ذكرناه شعراً:

وما أنا ممّن يزجر الطير همّه أصاح غراب أم تعرّض ثعلب
وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ذرني وعلمي بالأمور وسيرتي فما طائري فيها عليك مخيلا
رواه أبو زيد وفسره على أنّ المراد ليس رأيي بمشؤوم. وأنشد لكثير:

أقول إذا ما الطير مرّت مخيلة لعلك يوماً فانتظر أن تنالها

(مخيلة): مكروهة من الأخیل، وأنشد: ولقيت من طير العراقيب أخيلًا. ومن المأثور قولهم:

اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طيراً إلا طيرك، ولا ربّ غيرك، وقال خثيم بن عدي في ضدّ ما تقدّم:

ولست بهيّاب إذا شدّ رحله بقول عداني اليوم واقٍ وحاتم
قال:

فلذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

وكذلك لا خير ولا شر على أحدٍ بدائم، ويشبه هذا المعنى ما أنشده أبو عبيدة عن أبي

عمرو:

يا أيُّها المزمع ثم انسني	لا يشك الحادي ولا الشاحجُ
ولا قصيد أغضبَ قرنه	هاج له من مزبع هائج
هذا الفتى يسعى ويسعى له	تاجٌ له من أمره خالج
يترك ما ربح من عيشه	يعيثُ فيه همجٌ هامجُ
لا تكسع الشول بإغبارها	إنَّك لا تدري من الناتجُ
واضرب لضيفانك ألبانها	فلإنَّ شرَّ اللبنِ الوالجُ

البابُ الرابعُ والأربعون

في ذكر ما أبهم من الأوقات حتى لا يتبين للسامع حاله وما شرح منها.

اعلم أنَّ مذاهب العرب في التنبيه على أوقات الأفعال مختلفة وذلك لاختلاف أحوالهم فيما يقصدونه من البيان، فربما بالغوا في التعين والشرح حتى يصير المستدل عليه كما يشار باليد إليه، وربما أبهموها اعتماداً على القرائن لأنها قد تنوب عن الأوصاف المخصصة فيعتمد في الإبانة عليها أو ربما أبهموها حتى لا يكاد يتحصل للسامع منها تفقه على واحد منها بعينه لشمول صفاته للأوقات كلها وجميع ذلك موجود في أشعارهم، فمن ذلك قوله يصف امرأة:

سَاهَرْتُ عَنْهَا الْكَالِثِينَ فَلَمْ أَنْمِ حَتَّى التَّفْتُ إِلَى السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ
وَالسَّمَاءِ قَدْ يَطْلُعُ فِي كُلِّ آنَاءِ اللَّيْلِ وَمِثْلُهُ:

وَنَائِحَةٍ صَوْتَهَا رَائِعٌ بَعَثَتْ إِذَا ارْتَفَعَ الْمِرْزَمُ

و (ارتفاع المِرْزَم) ليس مما يكون وقد لا يكون، ويروى إذا خفق المِرْزَم، وحيث يُقرب التحديد به، ومثل هذا قول الآخر:

حَتَّى رَأَيْتُ عِرَاقِي الدَّلُو سَاقِطَةً وَذُو السَّلَاحِ مَصُوحَ الدَّلُو قَدْ طَلَعَا
قوله: (وذو السَّلَاحِ مَصُوحَ الدَّلُو): هو مما يكون على حالة واحدة أبداً، وذلك أنَّ السَّمَاءَ الرَّامِحَ متى طلع سقطت عِرَاقِي الدَّلُو، و (المصوح) الغيوبية وقد جاء في المصيح والفعول والفعليل يجتمعان في فعل واحد مصدرين، ومثله اللوكوف واللوكيف، ومثل قول الآخر:

قَلْتُ لَهُ وَالْجَدِي فَوْقَ الْفِرْقَدِ إِنَّكَ إِنْ تَصَخَّ بِهَذَا الْمَرْقَدِ
لَا تَرْدُ الْأُمُوَاهُ إِلَّا مِنْ غَدٍ

ومثله الكوف والكيف.

فلَمَّا استدارَ الفرقدان زجرُثُها وهبَّتْ شِمَالٌ ذو سلاحٍ وأعزلٍ

ومعنى هبّ طلع، فهذه أمثلة المبهمات، ومن المحدود قوله:

فلَمَّا أنْ تَغَمَّرَ صاح فيها ولمَّا يغلب الصُّبحُ المنيرُ

(والتغمّر): شرب دون الرّي وذلك من خوف الرّماة و (الصّبح المنير): الواضح أي

كان ذلك سَحَرًا قبل استنارة الصّبح. وقال الرّاعي في مثله:

فصبَّحَنَ مسجوراً سقته غمامةٌ دعاك القطا ينفضنَ فيه الخوافيا

وقال ذو الرّمة:

ففسلتُ وعمودَ الصّبحِ منصدعٌ عنها وسائرُها بالليل محتجبٌ

فهذه الأبيات كلّها وقّتت آخر الليل. ومما يستدل بالقرينة على حده قول امرئ

القيس:

إذا ما الثّريا في السّماء تعرّضت تعرّضَ أنشاء الوشاح المفصّل

ألا ترى أنّ هذا الوصف وإن كان يتفق في كل آناء الليل فقد حظره بقوله:

فجئتُ وقد نضّث لنوم ثيابها لدى السّتر إلا لبسة المتفصّل

فلما علم أنّ الموقت يكون من أوّل الليل وأنّ الذي وصف من تعرّض الثّريا إنّما يكون

عند انصبابها للمغيب، علم أنّ الزمان زمان الدفيء، فباجتماع هذه الأدلة عاد محظوراً بعد

أن كان مرسلًا، ومثله قول حاتم:

وعاذلة هبّت بليلى تلومني وقد غاب عيوقُ الثّريا فغَرّدا

(فغيبوبة العيوق): وإن كان قد يكون في كل آناء الليل ففي ذكره (العاذلة) دليل على

أنّه في آخر الليل، لأنّه وقت العواذل بدلالة قول زهير شعراً:

عَدَوْتُ عليه غدوةً فوجدتهُ قعوداً لديه بالصّريم عواذلهُ

(والصّريم): بقية من الليل لأنّهن يأتين بعد نومهنّ وبعد إفاقة المعذول.

وإذا علم أنّ هذا الوقت الذي عنى الشاعر هو في آخر الليل معلوم وهو زمنُ الشتاء

وليالي الثّمام، فقد صار الزّمان معلوماً والوقت محظوراً بالأدلة، (والتغريد): العدول إلى

الغرد، وأصله الغراد والخص، وفي الكلام تقديم وتأخير كأنه قال: وقد غردَ عَيَوقُ الثريا فغاب. وكذلك قول أبي ذؤيب شعراً:

فَوَرَدَنَ وَالْعَيُوقُ مَقْعَدُ رَأَى الضَّرْبَا خَلْفَ النَّجْمِ لَا تَبْلُغُ

(لأنَّ العَيَوقَ والنَّجْمَ) يكونان كما وصف، إذا تَوَسَّطَا السَّمَاءَ وتوسطهما السَّمَاءُ آخر اللَّيْلِ إِنَّمَا يكون في حمارة القِيطِ. وقوله: (مَقْعَدُ رَأَى الضَّرْبَا) في حمارة القِيطِ. وقوله: (مَقْعَدُ رَأَى الضَّرْبَا) في إعرابه كلام وقد بيَّنته فيما شرحت من شعر هذيل ومثله قول الآخر. كمقاعد الرِّقَابِ للضَّرْبَاءِ أَيْدِيَهُمْ نَوَاهِدُ. قوله: لَا تَبْلُغُ: أي لَا تَتَعَدَمُ، وذلك أَنَّ النُّجُومَ إِذَا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ خَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهَا تَنْتَحِيرُ، فَلَا تَبْرَحُ لِدَلِّكَ قَالَ: وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا فِي الْجَوِّ تَدْوِيمٌ، وَلَيْسَ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ يَكُلُّ مَغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ يَبْذِلُ

من هذا إنما يريد أن يصف اللَّيْلَ بِالطَّوْلِ فَكَأَنَّ كَوَاكِبَهُ لَا تَسِيرُ، وَالْأَوَّلُ يَرِيدُ رُكُودَ النُّجُومِ إِذَا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ خَاصَّةً، وَقَدْ أَحْسَنَ لَيْبِدٌ فِي قَوْلِهِ وَهُوَ يَصِفُ الْكَوَاكِبَ:

عِشْتُ دَهْرًا وَمَا يَدُومُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا بِرَمَرٍ وَتَعَارُ
وَالنُّجُومُ الَّتِي تَتَابَعُ بِاللَّيْلِ وَفِيهَا ذَاتُ الْيَمِينِ أَزْوَارُ
دَائِبًا مَوْرُهَا وَيَصْرِفُهَا الْغَوْرُ كَمَا يَصْرِفُ الْهَجَانُ الدَّوَارُ

وإنما (أَزْوَارُهَا ذَاتُ الْيَمِينِ) عطفاً إِلَى الْقُطْبِ لِأَنَّهَا جَمِيعاً تَدُورُ عَلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ مُرْتَفِعَةً فَإِذَا تَوَسَّطَ كَوْكَبٌ ثُمَّ انْصَبَتْ فَقَدَرَتْ لَهُ فِي نَفْسِكَ مَغْرِباً عَلَى أَمِّ قَاصِدٍ عَدَلَ عَنِ السَّمْتِ الَّذِي تَوَهَّمْتَهُ. (وَتَزَاوَرُ ذَاتُ الْيَمِينِ) حَتَّى يَغِيبَ فَوْقَ الَّذِي قَدَّرْتَهُ حَتَّى رُبَّمَا كَانَ الْبَعْدُ فِي ذَلِكَ بَعِيداً وَعَلَى هَذَا حَالُ جَمِيعِ الْكَوَاكِبِ فِي مَدَارِهَا، وَلَا زَوَارِهَا إِلَى الْقُطْبِ. قَالَ الشَّاعِرُ يَمْدَحُ رَجُلًا:

مَالَتْ إِلَيْهِ طَلَاهَا وَاسْتُطِيفَ بِهِ كَمَا يَطِيفُ نَجُومُ اللَّيْلِ بِالْقُطْبِ
وَلَعَلَّةَ ذَلِكَ قَالَ بَشَرٌ:

وَعَانَدْتُ الثَّرِيَا بَعْدَ هَذِهِ مَعَانِدَةً لَهَا الْعَيُوقُ جَارُ

لَمَّا تَدَانِيَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ حِينَ تَوَسَّطَا السَّمَاءَ وَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمَا بَعِيداً مِنْ صَاحِبِهِ فِي الْمَطْلَعِ جَعَلَ ذَلِكَ تَرْكاً مِنَ الثَّرِيَا لِطَرِيقِهَا، وَعَدُولاً إِلَى الْعَيُوقِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَعَانِدَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا بَيَّنَّتْهُ مِنْ أَزْوَارِ النُّجُومِ كُلِّهَا فِي مَدَارِهَا إِلَى الْقُطْبِ، إِذْ كَانَتْ عَلَيْهِ تَدُورُ، لِأَنَّ الْكَوَاكِبَ إِذَا كَانَتْ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ كَانَتْ أَعْظَمُ فِي الْمَنْظَرِ، وَكَانَ الْبَعْدُ الَّذِي بَيْنَهَا أَوْسَعُ فِي الرَّأْيِ،

فإذا توسّطت كانت في العين أصغر ورأيت أيضاً أشدّ تقارباً.

قال أبو حنيفة: لذلك أيضاً يرى الكوكب من الكواكب إذا طلع متقدماً لكوكب آخر، حتى إذا تدلّيا من وسط السماء يطلبان الغور صار المتقدم متأخراً منهما، والمتأخر متقدماً، وحتى يغيب أنطوؤها طلوعاً ويبقى صاحبه بعده مدة كالسمك الزامح، فإنه يطلع بين يدي الفكة بزمن، حتى إذا هما تصوّبا للمغيب تقدم السمك فغاب قبلها بمدة، وكالعَيوق فإنه يطلع قبل الدبران بزمن ثم يغيب بعده بحين.

وكذلك الردف يطلع قبل النسر الطائر بقليل، ويغيب بعده بزمن. وقول لبيد (دائب مورها) يعني جريها. وأما قوله: (يصرفها الغور) كما يصرف الهجان الدّوار، فقد أحسن التشبيه لأنّ النجوم إذا غابت ردّها الفلك إلى الطلوع كما يفعل الطائفون بالدّوار، فإنهم إذا قضوا طوافاً استأنفوا طوافاً، والدّوار: أنصاب كانت لأهل الجاهلية يطوفون حولها كما يطاف بالكعبة.

قال أبو حنيفة: ولازورار الكواكب ذات اليمين قال الشاعر شعراً:

ألا طرقت دهقانة الرّكب بعدما تقوّض نصف اللّيل واعترض النّسرُ
يعني النسر الطائر وإنما اعتراضه من قبل ازوراره في السّير وأنت تراه في وسط السماء
باسطاً جناحاً في جهة الجنوب، وجناحاً في جهة الشّمال حتى إذا تصوّب للمغيب اعتراض
فصار أحد جناحيه في جهة المغرب والآخر في جهة المشرق على خلاف الصّفة الأولى، من
هذا النّحو قول امرئ القيس شعراً:

إذا ما الثّريا في السّماء تعرّضت تعرّضَ الوشاح المفصّل

لأنها تتلّقاك في مطالعها بأنفها، وهو أدقّ طرفيها، حتى إذا تصوّبت للمغيب اعتراضت
فكانت أشبه شيء بانظام جمع طرفاها ثم طرح وتلقاك بعرضه وذلك أنّ الثّريا سطران فهي
كانظام مثني مثني ومنه قول المرار شعراً:

وبناتٍ نعشٍ يعترضنَ كأنّما تمسي الرّكاب معارضات صواريا

و (بنات نعش): من أشد الكواكب اعتراضاً لأنّها لا تغيب إلا في بعض المواضع فإذا
دار الفلك بها بحيث لا تغيب، نظرت إليها بكلّ منظر معترضات ومتنصبات ومنقلبات،
وكذلك جميع الكواكب المنتظمة على أشكال مما قارب القطب كذلك حالها حيث لا تغيب،
فأمّا تشبيهه إيّاها بالصّوار فإنّ من عادة الشّعراء تشبيه الكواكب بالبقر والطّباء، وإذا رأيت
الوحش سوارب في مراتعها رأيته بيضاء تلوح كأنّها نجوم.

الباب الخامس والأربعون

في الاهتداء بالنجوم، وجودة استدلال العرب بها وإصابتهم في أمهم

اعلم أن الاهتداء بالنجوم يحتاج إليها صنفان من الناس: سيطرة البحر وسائلة الإغفال والفقر، ولذلك مهر الهداية بالنجوم الصّارايون والأعراب وقد ذكره الله تعالى في جملة ما عدّد من نِعَمه على خلقه فقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٧] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَخُونَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٢] الآية. ثم قال تعالى: ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٧] وهؤلاء الذين فضّل لهم هذه الآيات واختصّهم بفضلٍ عليها هم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٦] فافهم عن الله قوله.

ثم اعلم أنه لا يجد من أحبّ علم الاهتداء بالنجوم بدأ من التقدّم بمعرفة أعيان ما يحتاج إليه منها، واعتبار النظر إليها في جميع آناء الليل حتى يعرفه كمعرفة خلطائه، لثلا يلتبس عليه إذا اختلفت أماكنها في أوقات الليل، فإن كثيراً ممن يعرف النجم من النجوم إذا كان في جهة المشرق حتى إذا دار به الفلك فنقله إلى جهة أخرى عَمِيَ عليه حتى لا يعرفه، ويتحير حتى لا يهتدي إليه، ويحتاج بعد الاستنبات في معرفة أعيانها إلى معرفة مطالعها ومغاربها، وحال مجاريها من لدن طلوعها إلى غروبها، لأنّ ذلك مما يبدّل أعيان الكواكب في الأبصار، ويدخل على القلوب الحيرة ويورث الشبهة ويحتاج أيضاً إلى أن يعرف سموت البلدان التي تقصد، وجهات الآفاق التي تعمد لثلا يعلم بأي كوكب ينبغي له أن يأتي.

والتوجّه إلى القبلة في كل بلد هو من هذا الجنس أيضاً، وعلم ذلك ليس بصغير القدر في خاصة الدين، لأنّه أمرٌ أمر الله به عباده فقال تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٠].

وليس بعد أدلة الحساب دليل أدلّ من أعيان النجوم، فليس الشمس بخارجة منها بل

هي أعظم النجوم خطراً وقدرًا. وهل الدليل في وضوح النهار إلا هي مع ما استعان به الإنسان من هبوب ريح، وكلّ ذلك في الدلالة دونها فإذا تقدّم المرء فأحكم عِلْمَ ما وصفت، ثم كان ثبناً في النظر، فطناً في العبر، أدركَ عِلْمَ الهداية.

وذكر جبار بن مالك عامر بن الطفيل فقال: كان لا يضلّ حتى يضلّ النجم ولا يعطش حتى يعطش البعير، ولا يهاب حتى يهاب السيل، كان والله خير ما كان يكون، حتى لا تظنّ نفس بنفس خيراً. والعرب تقول للدليل إذا كان هادياً إنه لدليل ختع وخوتع، وإنه لبرت وإنه لخريت، وإنه لدليل مخشف.

وذكر اللّغويون: أنه إمّا سُمّي خريّاً لأنه كان يهتدي بمثل خرت الإبرة وقال الشاعر في البرت:

وَمَهْمِهِ طَعْنَتْ فِي مَغْبَرَةٍ تَلَّهُ عَيْنِ الْبُرْتِ مِنْ ذِي شَرِهِ

(تله): من الوله وهو ذباب العقل، وقال رؤبة يصف أرضاً مجهلاً. ينبو بإصغاء الدليل البرت. يعني إذا توجّس، وقال ذو الرّمة في الختع فجاء به على فوعل ووصف فلاة:

يَهْمَاءُ لَا يَحْنَا بِهَا الْمَغْرَرُ بِهَا يَضِلُّ الْخَوْتُعُ الْمَشْهُرُ

يريد (بالمشهر) المعروف المشار إليه بالهداية وقال الخطفي:

حَتَّى إِذَا مَا طَرَدَ الْتَيْفَ السَّفَا قَرِينَ بَزْلاً وَدَلِيلًا مَخْشَفَا

قال أبو عبيدة: وللعرب في حسن الاهتداء في المعامي المضال، والمجاهل الاغفال أحاديث عجيبة في جاهليتها وإسلامها، كان الرجل منهم يعدو على الإبل ببلاد لخم وجذام وهي واغلة في الشام أو بسماوة كلب فيقطعها ثم يطردها متكرراً بها أوطان الانس متبعاً بها بلاد الوحش، حتى يلتقى بها الأسواق إما بصعدة من اليمن، أو بحجر من اليمامة، فيتبعهن ويفعل مثل ذلك باليمن. ثم يردّ سوق بصرى أو اذرعات ونحوهما من أسواق الشام، وكان الواحد من الزايل وهم الذين يغزون فرادى، وذو السرية وهو الذي يغزو في شيعته فيمضي في تلك المعامي وفي مناقع المياه فيأخذ بيض النعام فينقعها ويملؤها ماءً ويدفنها، فإذا بلغ غاية مراده وجاء الوقت الذي ينتظره، ولعلّ ذلك يكون في مدة شهر في مسيره، حتى إذا نضبت المياه، وانقطع الغزو وأمن الناس اعتمد مغزاه فلا يُخطيء السمت ولا يضلّ عن تلك الدفائن، فيمضي معتسفاً على غير هدى، مستثيراً ذلك البيض، ومعتمداً عليه في شراء به. ثم يرجع عوده على بذئه لا يستدلّ إلا بالشَّمْس أو الكوكب.

قال: وممن فعل ذلك وعلة الجرمي في الجاهلية، وله قصة، وكان السليلك بن السلّكة السّعدي، ثم أحد بني مقاعس ممن يفعل ذلك، وكان أول الناس بالأرض ومن هدايتهم

المشهورين في الجاهلية، وله قصة دميمص الرّمل العبدى يزعمون أنّه ورد الدّيار التي يزعمون أنّ بها إرم ذات العماد، ولم يردّها أحد قط غيره وخبره مشهور. وسُمّي دميمص الرّمل تشبيهاً بدعموص الماء.

وقال الأصمعي: يقال للدّخال الخراج، حيث لا يرام ديموص: قال الشاعر يصف رجلاً:

دعموصُ أبواب الملو كِ وجائب للخرق فاتح

يعني أنّه يلج أبواب الملوك ولا يحجب عنهم. وقال الأصمعي: حدثني شيخٌ من غطفان قال: أرسل زياد بن سيار أخاه من أرض بني عامر فقال: إني أسير عشراً ولا أدله، أي لا علّم لي بالهداية، قال: ادخل تحت هذا الكوكب حتى تبلغ.

وحكى ابن الأعرابي قال: يقال: دلّ يدل من الدلالة أي صار دليلاً، ودلّ غيره يدلّه دلالة ودلالة، ودلت المرأة تدل دلالاً، وأدلّ يدلّ من الإدلال.

وممن شهر بالهداية: عبد الله بن أريقط دليل رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، حيث هاجر وهما مطلوبان فتخلّل الطّرق حتى أوردتهما المدينة.

ومن المشتهرين منهم في الإسلام بالهداية: رافع بن عميرة الطّائي دليل خالد بن الوليد رضي الله عنه حين توجّه من العراق يريد الشّام، فخادعن جيش الرّوم وهم على طريقه ببلاد الجزيرة، فامتد رافع مفزاً به من قراقر إلى سوى وبينهما فلاة مجهل فقال فيه الشاعر:

لله عينا رافع أتى اهتدى فوّر من قراقر إلى سوى
خمساً إذا ما ساره الجيش بكى ما سارها من قبله إنس يرى

وممن شهر منهم أيضاً بصدق الأم: عبد الجبار بن يزيد الكلبي دليل بني المهلب حين فرّوا من يد الحجاج إلى سليمان بن عبد الملك، وكانوا محتسبين بلعلع فهربوا ولحقوا بالشّام، فتنكّب بهم عبد الجبار جواد الطرق وتتبّع معامي الأرض فتخيّر يوماً وهم بالسّماوة، واربتك، فاتهمه يزيد وأراد قتله، فقال له عبد الجبار: أنت على قتلي إذا شئت قادر، ولكن دعني أنم نومة فنام ثم انتبه، وقد تجلّت حيرته فسَمّت بهم السّمت المصيب حتى نفذ فقال شعراً:

ورھط من أبناء الملوك هديتهم بلا علم باد ولا ضوء كوكب
ولا قمر إلا ضئيل كائنه سواؤ جلاه صانع السور مذهب
على كل خرجوج كأَنَّ ضلوعها إذا حُلّ عنها الكور أعواد مُشجب

قوله: (ولا ضوء كوكب): يعني أنَّ الكواكب غَمَّت في القتام فهداهم بالقمر ثم أخبر أنَّ (القمر أيضاً ضئيل) لما دونه من القتام، فكأنَّه في تلك الحالة (سوار مذهب).

وذكر ابن الأعرابي وهو يعد أدلاء العرب في الإسلام، فقال: هم ثلاثة فذكر رافعاً وعبد الجبار وزاد في شعره:

تفرُّ فرارَ الشَّمسِ ممَّن وراءنا ونُمسي بجلبابٍ من اللَّيلِ غيهِبِ
فإِلا تصبح بعد خمس ركابنا سليمان مِن أَهلِ الملاء تناوب
قوله: (نفرَّ فرار الشَّمس) يريد أنا نتوجه إلى المغرب كما تغرب الشَّمس.

وجعل الثالث منهم خالد بن دثار الفزاري دليل ابن فزارة على بنات قين حين قتلت كلياً. وقال أبو ذؤيب: يشبَّه النُّجوم بالوحش وهو يذكر امرأة:

بأطيبِ منها إِذا ما النُّجومُ تعانقنَ مثلَ توالي البقرِ
وقال آخر:

وَرَدْتُ وأرادفَ النُّجومِ كأنَّها مهاةٌ علت من رمل ييرين رائباً
وقال ذو الرُّمة يشبَّه الوحش بالكوكب شعراً:

كَأَنَّ بِلادَهُنَّ سماءٌ ليلٍ تَكشِفُ عَنْ كواكِبِها الغيومُ
وقال آخر:

وردتُ وآفاقَ السَّماءِ كأنَّها بها بقر أَقناؤُه وهراقِئُه
الهراقب: المسان شبه الكبار بالهراقب، والصَّغار بالأقناء. وقال ابن كناسة وفي الاهتداء بالنُّجوم يقول الشاعر:

نَوُومٌ بِآفاقِ السَّماءِ وترتمي مغانيها - أرجاء دوايِةٍ قفر
وقال أبو حنيفة قول الشاعر:

رأت غلامي سفر بعيد يدْرِعان اللَّيلِ ذا الشُّدودِ
إِما بكل كوكب جريد

إنَّما اختص الفرد الحريد لأنَّ الجماعة يتغيَّر حالها في المظالم والمغارب والمجاري فتلتبس، وضبط السَّير بالحريد أسهل، ومَن لم يكن مدرباً بمعرفة أعيان الكواكب التبس عليه الحريد أيضاً إِذا تغيَّر مكانه.

وروي عن شيخ من العرب أنه سرى برفيق له فتعب، فقال لرفيقه: هذا الجدي جداه كثيرة فلم أدر أيها هو، ولذلك قال الآخر شعراً:

بَصَابَصَةُ الْخُمْسِ فِي زُرَاءَ مَهْلَكَةٍ يَهْدِي الْأَدْلَاءَ فِيهَا كَوَكَبٌ وَحِدٌ
وقال الفرزدق يهجو عاصماً العبدي، وكان أدل العرب وأعرفهم بالنجم وأقدمهم على هول الليل بالليل، وأراد أن يضل الفرزدق ويقتله غشاً وذلك أنه استصحبه إلى المدينة ليلقى سعيد بن العاص، ورغبه في جعله، فلما ركب الفلاة أراد أن يغتال الفرزدق ليحظى به عند زياد ويحبوه ويعطيه، فلما كانا في الليل وأمعنا في السير اتبته الفرزدق فإذا النجم على غير الطريق، فصاح بالعنبري إنك على غير الطريق، فاتبه فقال: أنت على الطريق، ناولني إداوتك فإني عطشان وخبأ إداوته، فقال الفرزدق: والذي أحلفُ به لتموتن قبلي، وشهر السيف عليه فأقامه على الطريق، وعرض لهما الأسد على الطريق، فقال العنبري هذا الأسد على الطريق، فأناخ الفرزدق ناقته وأخذ سيفه وجحفته وأقبل إلى الأسد وهو يقول:

فَلَأَنْتَ أَهْوَنُ مِنْ زِيَادَ شَوْكَةٍ اذْهَبْ إِلَيْكَ مُحَزَمَ الشَّغَارِ

فتنحى الأسد عن الطريق ومضيا، فقلب الفرزدق هذا المعنى كله ونسب العنبري إلى الجبن وأنه ليس بالخزيت راعٍ لا يصلح إلا لرعي الغنم وطعن في نسبه. فقال شعراً:

مَا نَحْنُ إِنْ جَارَتْ صُدُورُ رُكَابِنَا بِأَوَّلِ مَنْ عَزَّتْ هِدَايَةُ عَاصِمٍ
أَرَادَ طَرِيقَ الْعَنْصَلِينَ فَيَاسَرَتْ بِهِ الْعَيْسُ فِي نَايِ الصَّوَى مَتَشَايِمِ

(العنصلين) على طريق مكة، (وياسرت): أخذت يساراً و (المتشايم) الآخذ إلى الشام، قال: وسمعتُ فصيحاً يقول: توصلوا أتوا الموصل فأسقط الميم.

فكيف يضل العنبري ببلدة بها قطعت عنه سيور التمايم
أي لو كان عنبرياً لعرف بلاده.

فإن امرؤ ضلَّ البلاد التي بها تغتبر ثديي أمه غير حازم
(تغبر): أي أتم رضاعه، والغبر بقية اللبن.

بلادُ بها ذَلَّتْ يَدِيهِ وَرَأْسُهُ وَرَجْلِيهِ مِنْ جَارِ اسْتِهَا الْمُتَضَاجِمِ
يعني (بالجار) الفرج وأصل (الضجم) العوج في شفتي الرجل.

شعر:

ولو كان في غير الفلاة خنوعاً خنوعاً بأعناق الجداء التوائم

أي لو كان في رعي الجداء لأحسن رعيها وأخذها بأعناقها ففصلها عن أمهاتها.
شعر:

وكنْتُ إذا كَلَّفْتُ صاحب ثَلَاةٍ سرى اللَّيْلُ دنا أم فروج المخارِمِ
(الثَّلة): القطيع من الشَّاءِ و (الثَّلة) الجماعة من الناس و (دنا) قصر و (الفروج) الطَّرَق.

رأى اللَّيْلُ داغول عليه ولم يكن يكلفه المِعزى عظام المجاشِمِ
(الغول) الموت ومنه غالته غول.

أنحنا بهجر بعدما وَقَدَ الحصى وذابَ لُعَابُ الشَّمْسِ فوقَ الجماجِمِ
ونحنُ بِذي الأرطي يعيس ظماؤنا لنا بالحصى شرباً صحيحَ المقاسِمِ
أي ليس فيه ضيم، أي لا يفضل فيه أحد على أحد.
شعر:

فلما تضاماً في الإداوة أجهشتُ إلى غضون العنبري الجراضِمِ
(تضافى غضونه) عروق حلقة وثنيه، و (الجراضِم) الشَّدِيد الأكل، ويروى: فلما
تصافنا الإداوة، و (التصافن): التَّقاسم على الماء عند قلته وضيقه في المفاوز.

وجاء بجلمود له مثل رأسِه ليسقي عليه الماء بين الصَّرايِمِ
تشنع عليه بهذا لأنَّ المقلة حصاة صغيرة يقسم عليها.
فضاقَ عن الأنفيسة القعب إذ رمى بها عنبريٌّ مفطرٌّ غير صائِمِ
يريد أنَّ (القعب) لم يسع الجلمود لِعَظْمِه.

ولما رأيتُ العنبريَّ كَأَنَّهُ على الكفلي حزان الضَّبَاعِ القشاعِمِ
أي المسان، وقيل الضَّبْع لا صبرَ لها على العطش.

صدى الجوف يهوي مسمعة قد التظى عليه لَظَى يومٌ من القيظِ جاحِمِ
(جاحم): شديد، يهوي أي يجدد ما في رأسه من العطش.

شدتُ له أزري وخَضَخَضَتْ نطفَةً لِصديان يرمي رأسه بالسَّمايِمِ
أي تحيات لأثره على نفسه خوفاً من أن يموت.

وقلتُ له ارفع جلد عينيك إنَّما حياتك بالدَّهْنا وحيف الرّواسم
أمر صاحبه أن يشمّر للسَّير أي حياتك في قطع الطَّريق.

شعر:

عشيّة خمس القوم إذ كان فيهم بقايا الأداوي في النفوس الكرائم
فأثرته لما رأيته الذي به على القوم أخشى لا حقات الملاوم
حفاظاً ولو أنَّ الأداة تشتري غلت فوق أثمان عظام المغارم
على ساعة لو كان في القوم حاتماً على جوده ضنّت بها نفس حاتم
وكان كأصحاب ابن مامة إذ سقى أخا التمر العطشان يوم الضجاعم

(الضجاعم): من منازل الفرزدق، شبه الفرزدق بنفسه بكعب بن مامة الإيادي لما آثر العنبري على نفسه، وذلك أن كعباً نزل بموضع يقال وهب أو وهبين وقد اتّقد القيظ، وكان صديقه ورفيقه التمري في سفرته فعطش القوم فاقسموا وكاد التمري يهلك عطشاً، فقال لساقي القوم: اعط أخاك التمري يصطبغ، فجعل له الماء صبوحةً لعزه، وإنما يكون الصُّبوح في اللَّين والنبذ، ثم أعاد القوم القسم فنظر كعب إلى التمري قد غلبه العطش، ودارت عيناه في رأسه، فقال لصاحب القسم: اعط أخاك التمري يصطبغ، فأثره بشرته، ثم ثلّت السّاقى فأثره، وارتحل القوم، فلما ركبوا الفلاة أناخ كعب ناقته وقال: يا قوم النّجاء ألا ماء معكم فإنّي أحسّ الموت، فمات كعب وارتحل أصحابه، ومعهم نجيبته وسلاحه ومتاعه فأوردوه أهله فقال أبوه وقد كتم بعض الخبر شعراً:

أمن تطف الدّهنّا وقلّة مائها ذوات الرّمال لا يكلمني كعبُ
فلو أنّني لاقيتُ كعباً مكسراً بأنقاء وهب حيثُ ركبها وهبُ
لآسيت كعباً في الحياة التي ترى فعشنا جميعاً أو لكان لنا شربُ
وقال فيه:

ما كان من أحدٍ أسقى على ظمأ خمراً بماء إذا ناجوزها برداً
من ابن مامة كعبٍ ثم عى به زوء المنيّة إلا حرة وقدّا
يروى وقذا فيه:

أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له يا كعبُ إنَّك ورّادٌ فما وردا

ويروى ورد كعب. وأما التعاقب بها فمنه قول الفرزدق شعراً:

أقول لمقلوب أمان عظامه تعاقب أدراج النّجوم العوايم

سُتَدْنِيكَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِّيةِ فَاعْتَدِلْ سَأَقْلُ نَصْرَ الْيَعْمَلَاتِ الرَّوَاسِمِ
و (تعاقب النجوم): أَنْ يُؤَقَّتَ الْقَوْمَ لِمَقْدَارِ مَسِيرِهِمْ وَقَتّاً فَتَلْكَ عَقِبَتِهِمْ، فَإِذَا قَضَوْهَا
وَدَخَلُوا فِي غَيْرِهَا مِنْ أَمْثَالِهَا فَتَلْكَ عَقْبَةً ثَانِيَةً، فَإِنْ دَامَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَذَلِكَ تَعَاقَبُ أَدْرَاجِ
الْكَوَاكِبِ، وَمِنْ ذَلِكَ سَمَّوُا الطَّرِيقَ مَدْرَجَةً، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الرَّاجِزِ يَخَاطِبُ نَاقَتَهُ:

سَامِي سَمَامَاتِ النَّهَارِ وَاجْعَلِي لِفَلَكَ أَدْرَاجَ النُّجُومِ الْأَفْلِ
وَيَقَالُ لِلْكَوْكَبِ الَّذِي يَعَاقِبُ بِهِ: مَعْقَبٌ. فَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ يَذْكُرُ الْمَطَايَا وَدَوَامَ سِيرِهَا:
إِذَا اعْتَقَبْتَ نَجْماً وَغَابَ تَسَحَّرْتَ عِلَالَةً نَجْمٌ آخَرَ اللَّيْلِ طَالِعٌ
جَعَلَ السَّيْرَ سَحُوراً لَهَا فِي الْآخِرِ، كَمَا جَعَلَهَا غُبُوراً لَهَا فِي الْأَوَّلِ. وَقَالَ الرَّاعِي وَذَكَرَ
إِبِلَهُ:

أَرَى إِبِلِي تَكَالاً رَاعِيَاهَا مَخَافَةً جَارَهَا طَبَقَ النُّجُومِ
(تكالاً): تَحَارَسَ وَقَوْلُهُ: (طَبَقَ النُّجُومِ) أَيِ اللَّيْلِ كُلَّهُ فَتَكَالَوْهَا طَبَقَ النُّجُومِ وَهُوَ دَرَجُ
النُّجُومِ. وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْآخَرِ:

وَلَا الْعَسِيفُ الَّذِي يَشْتَدُّ عَقْبَةً حَتَّى يَبِيتَ وَيَأْقِي نَعْلَهُ قِطْعُ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

فَأَصْبَحْنَا لَا يَتْرُكُنْ مِنْ لَيْلَةِ الشُّرَى لَذِي الشُّوقِ إِلَّا عَقْبَةَ الدَّبْرَانِ
كَأَنَّهُمْ جَعَلُوا لِمَدَى سُرَاهِمِ طُلُوعَ نَجُومٍ مَعْلُومَةٍ، وَكَانَ الدَّبْرَانُ آخِرَهَا، فَقَضَوْا عَقْبَ
تِلْكَ النُّجُومِ كُلِّهَا إِلَّا عَقْبَةَ الدَّبْرَانِ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا السَّيْرَ حِينَ بَلَغُوهُ، وَكَانَ الْمَشْتَقُ يَهْوَى أَلَّا
يَقْطَعُوهُ وَقَالَ حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ شِعْراً:

قَدْ لَاحَ عَقْبُ النَّهَارِ وَسِيرُهُ بِالْفَرْقَدَيْنِ كَمَا يُلَاحُ الْمِسْعَرُ

الباب السادس والأربعون

في صفة ظلام الليل واستحكامه وامتزاجه

قال النضر: سدف الليل: ظلمائه وستره، وقد أسدَفَ علينا الليل أي أظلم، وقال غيره: السدف والسدفة بقيّة من سواد الليل في آخره مع الفجر. وقال الأصمعي: السدف الظلمة. قال العجاج: وأقطع الليل إذا ما أسدفا. والسدف: الضوء أيضاً. قال أبو داود:

فلما أضاءت لنا سدفَةٌ ولاخ مع الصُّبح خيَطُ أنارا

وقال الدريدي: كلّ العرب يسمي الظلمة سدفاً إلا هوازن فإنّها تقول: أسدفي لنا أي أسرجي لنا، فكان السدفة عندهم اختلاط بياض الصُّبح بباقي سواد الليل وذلك عند سائر العرب (الغطاط والغبش) بقية من سواد الليل في آخره والجميع أغباش. قال ذو الرّمة:

أغباش ليلٍ تمام كان طارقه تطخطنخ حتى ماله جوب

ويقال: غبش الليل وأغباش.

ويقال: غسا الليل غسواً وغسي غسّاً، وأغسى الليل أيضاً إذا أظلم. ويقال لمن أراد السفر أغس من الليل شيئاً ثم ارتحل أي أقم ساعة.

ويقال للظلمة والامر غير الرّشيد عشوة وعشوة وعشوة وتعشيتني أوطأتني عشوة، وأعشينا دخلنا في الظلمة، والعشواء بمنزلة الظلماء، ويقال: هو في عشواء من أمره. و (الغطش) السدف وقد أغطش الليل وغطش أيضاً.

وأغسينا: أمسينا. قال الأصمعي: أغسى الليل وغسى يغسى وغسا يغسو، غسواً، وهو مساؤه واختلاطه. وحكى أبو بكر الدريدي عن الأصمعي قال: قلت لأبي عمرو أتقول غس الليل يغسي؟ فقال: سمعت أعرابياً منذ ستين سنة ينشد:

كأنّ الليل لا يغسى عليه إذا زجر السبنداء الأمونا

وهذا من غسى يغسى، وسمعت بعد ذلك لسنين منشداً ينشده شعراً:

فلَمَّا غسى ليلي وأيقنْتُ أنَّها هي الأرباء جاءت بأم حبو كرا
فهذا من غسى يغسو. ثم سمعت رويتمك ينشد. (ومر أيام وليل مغس) فهذا من غسى يغسى.

ويقال: ليل دامس: وهو الأسود الذي ألبس كل شيء وقد دمست ليلتك تدمس دموساً. وأنشد:

لو كنتُ أمسيت طليحاً ناعسا لم يلق ذا رواية درابسا
يسقى عليها أغنماً خوامسا يحتابُ موماً وليلاً دامسا
وشركاً من الطريق دارسا يحمل سوطاً أو ويلاً يابسا

(الويل): الهراوة وأصل (الدمس): التغطية. وأنشد الفراء عن الكسائي شعراً:

إذا ذقتُ فهاها قلتُ علقُ مدمسٍ أريدُ به قيلُ فغودرُ في سَاب
أراد (بالعلق) الخمر و (المدمس) المغطى و (القليل) الملك و (السَاب) الرِّق.

ويقال: غلسنا الماء أي أتيناها قبل الصبح بسوادٍ من الليل وجنوح الليل إذا ذهب معارف الأرض لظلامه.

وجنوح الليل إظلامه، ويقال: جنَّ علينا الليل. التضر يقال: تطخطن الليل وأظلم في غيم وغير غيم إذا لم يكن فيه قمر، فإن كان فيه قمر فجاء غيمٌ وذهب بضوئه فقد تطخطن أيضاً، وليلة طخياء، وقد طخطن الليل على فلان بصره أي تركه لا يبصر من ظلمته، وتطخطن بصر فلان: أي عمي.

ويقال: تدرج الليل أيضاً: وهو اختلاطه وظلماؤه كان فيه غيمٌ أو لم يكن وتدرجت الظلّماء وأنشد:

حتى إذا ما ليله تدرجا وانجابَ لوْنُ الأفقِ البرندجا

ويقال: ليلة غدرة ومغدرة: بيّنة الغدر إذا كانت شديدة الظلمة، وفي الحديث: «المشي إلى المسجد في الليلة المغدرة يوجب كذا وكذا».

وليلة دامجة وليل دامج وخداري قال يعقوب: الخدارية الظلّماء الشديدة السواد البهيم، ويقال: ليلتك هذه خدارية قال العجاج:

وخدر الليل فيجتاب الخدر

ويقال: غطا الليل يغطو إذا ألبس كل شيء. وكل شيء ارتفع فقد غطا. وكذلك: دجا الليل يدجو إذا ألبس كل شيء، وتدجى أيضاً وأدجى. قال يعقوب: وليس هو من الظلمة إنما هو من الاشتمال. وقال الأصمعي: ودجا شعر الماعزة: إذا ألبس بعضه بعضاً. وأنشدني أعرابي أبي مذ دجا الإسلام لا يتجثف. وقال: وتدجى بعد نور، واعتدل، وقال غيره: ليلة داجية سوداء. وأنشد في أدجى شعراً:

إذا الليل أدجى واستقلت نجومه وصاح من الإفراط هام جوائم

وقال نضر: الدجى دجى الغيم وهو أن لا ترى قمراً ولا نجماً، لأن السحاب يواريه ولا يكون الدجى إلا بالليل، وهذه ليلة دجى، وما زلنا نسير في دجى حتى أتيناكم أبو زيد غمى مثل كسلى إذا كان على السماء غمى مثل رمى، وغم وهو أن يغم عليهم الهلال، وليل دجوجي قال:

وليل دجوجي تعسفت هوله بلا صاحب إلا الحسام المذكر

(غيره): ليلة مدلّهمة: مظلمة، وديجور وديجوج. والطرمساء الظلمة. يقال: أطرمس الليل أي أظلم. وقال الدريدي: الطرمساء تراكب الظلمة والغبار. ومنه طرمس الليل وطرسم. ويقال: الطلمساء أيضاً. وأنشد في ليلة طخياء طرمساء. والطرمسة والظلمسة ومَرَّ طرمساء من الليل: أي قطعة عظيمة. وحكى أبو حاتم طرفساء أيضاً.

والغيب نحوه، والمُلجوم الظلمة وكل شيء أسود. قال ذو الرمة: ظلماء علجوم: أي التي لا ترى معها من سوادها شيئاً. والمسحكنك الأسود، والملطخم مثله، الأموي ليلة غاضية شديدة الظلمة. يقال: ليل طيسل: مظلم، عن أبي عمرو ليل دحمس، قال أبو نخيلة:

وأدرعي جلباب ليلى دحمس أسود داج مثل لون السندس

(والغردقة): إلباس الليل، يقال: غردقت سترها إذا أرسلته، وتأطم الليل ظلمته. (وليلة مطلخمة): وقد اطلخمت علينا الظلمة فما يبصر منها شيئاً.

يقال: ليلة بهيم لا يبصر فيها شيء، وليال بهم. والحنس: الليل الشديد الظلمة. يقال: حنس الليل وليال حنادس قال شعراً:

وليلة من الليالي حُنس لون حواشيها كَلون السندس

ويقال: ليلة طخياء: بيّنة الطخاء، وذلك إذا كان السحاب بعد قمر، فاشتدت الظلمة

فطخا الليل، وسرنا إليكم في ليالٍ طخى، قال الرّاجز:

وليلة طخياء ترمعلُ فيها على الساري نديّ مخضِل

ترمعل: يسير يقال أرمعل دمعته: سال.

ويقال: ظلمة ابن جمير، وفحمة ابن جمير: لليلة التي لا يطلع فيها القمر.

قال: نهارهم ليلٌ بهيم، فإن كان بدرًا فحمة ابن جمير رماهم بالتلصص والتغيب بالتهار، وقال ابن زهير:

وإن أغارَ فلم يحلى بطائلٍ في ظلمة ابن جمير ساور القطما ،

قوله: لم يحلى: أتى بالفعل على التمام. وذكر بعضهم أنّ ابن جمير: الليل المظلم لاجتماع الناس إلى منازلهم. وابن ثمير: الليل المقبل، لأنّه يثمر انبساط الناس للحديث وغيره من التصرف. قال: وهذا من قولهم: هذا جمير القوم أي مجتمعهم وشعر مجمر أي مضغور ومجمور، وأجمروا على الآلاء أي أجمعوا.

وليلة معلنكة؛ أي مظلمة، وليلة ظلماء ديجور، وهي الدياجير أي الظلمة وليل عظم أي مظلم. قال:

وليل عظم عرّضتُ نفسي وكنْتُ مشيعاً رحب الذراع

ويقال: أغضن الليل وأغضى وأغضف وطلخم وادلهم وروق.

ويقال: أرخى رواقه وسجوفه وسدوله.

وغسق الليل: ظلمته، ومنه قول عمر حين غسق الليل على الضراب أي انصب.

وسجو الليل إذا غطى الليل النهار، ويقال: هو من التسجية، كقولك سجية بالثور.

قال:

يُورِّقُ أعلى صوتها كلّ فائح حزين إذا ليلُ التمام سجالها

وحكى قطرب الغبس بعد الفحمة. وقال الخليل: هو لون الذئب، يقال: ذئب أغبس

وليل أغبس، وغبس الليل وأغبس. وعسّس الليل إذا أظلم وإذا أدبر.

قال قطرب: هي من الأضداد، وحقيقة ذلك أنّها طرفاه، فهذا ما ذهب عن معظمه.

وقال ابن عباس: والليل إذا عسّس أي أدبر. وقال علقمة:

حتى إذا الصبح لنا تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسّسا

وقال آخر:

وردت بأفراسٍ عِناقٍ وَفِيَّةٍ فوارطٌ في أعجازٍ ليلٍ مُعَسَّسٍ

وقال آخر:

قوارب من غير دجنٍ مسسا مدرعاتِ الليلِ لَمَّا عَسَّسَا

والشميط: بياض الصبح في سواد الليل وهو عندنا مشبه بالشيب، وقد قيل في الثلاث من آخر الشهر الدادي، ثم جعل دادي صفة لشدة ظلمتهن كما قيل: حنادس ثم قالوا: أسود حنادس.

ويقال: إنَّ عليك ليلاً أغضف، وهو الذي علا كل شيء، وألبسه، وقد تضعف علينا الليل أي ألبسنا وأظلم علينا.

ويقال: إنَّ عليك ليلاً مرحجنأ، وهو المجلل والملبس وقد أَرْحَجَنَ الليل.

وليل اثجل: أي واسع وليلة ثجلاء، ويوم اثجل.

وعكس الليل: أظلم، وهو عكاس وعكس متراكم الظلمة كثيفها.

وأدلمس الليل: ليل دلامس: مظلم.

وحكى الدريدي: طرشم الليل وطرشم أظلم، وطرشم الليل بصره وطرشم: أظلم عليه.

والغيطل: اختلاط ظلمة الليل واختلاط أصوات الناس واشتقاقه من الغطل: وهو تغطية الشيء، يقال: غطلت السماء يومنا وأغطلت إذا أطبق دجها.

ويقال: أتانا حين وارى دمس دمساً وحين سد الليل كلَّ خصاص ودارى كل جداد. وأنشد:

والليل غامرٌ جدادها دُجا حين قلت أخوك أم الذئب

ويقال: ليلٌ أدعج، ويقال: التفت غياطل الليل، واسحنكك عساكره وتَلَاخَزَتِ المسالك به، وذلك تراكم الظلمة ومعنى تلاخزت: تضايقت.

وشجيج لحز: أي ضيق. والقتل إظلام الأرض من النخل والشجر.

ويقال: غتل يغتل غتلاً حكاه الدريدي. وقال أبو مالك: السديم الرقيق من الضباب. وأنشد شعراً:

وقد حالَ رُكْنٌ مِنْ أَحْيَمِرٍ دونهم كأنَّ ذراهُ جَلَلَتْ بِسَدِيمٍ

والجنان ذكر بعضهم في أسماء الليل. وأنشد:

وساري جنانٌ مُقَفَّعِلٌ بنائنه رفعت بضوءٍ ساطعٍ فاهتدى ليا
يعني رجلاً أقوى فاستنبح فأوقد له ناراً ليهتدي بها، وقال غيره: جنان الليل ظلمته
وأنشد:

ولولا جنانُ الليل أدرك ركضنا بذئ الأثل والأرطي عياض بن ناشب
وحكى عمرو عن أبيه قال: سمعت أعرابياً يقول: ما زلتُ أتعسف الهولول حتى سطع
الفرقان، قلت: ما الهولول؟ قال: ظلمته. قلت: وما الفرقان؟ قال: الصبح.

وحكى سلمة عن الفراء عن الكسائي قال: لم يسمع في الألوان فعلول إلا هذا،
وحلكوك، قال ثعلب: قلت: ذلك لابن الأعرابي فوافقه.

ويقال: أطم الدجى وأقفل باب التور بالظلمة قال:

بدالي كملتاح الجناحين والدجى مطمٌ وباب التور بالليل مقفل
وقالوا: قسورة الليل: شدته، وقسوره، وقال توبة بن الحمير: وقسورة الليل الذي بين
نصفه وبين العشاء قد أذابت أسيرها، وقيل في قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [سورة
المدثر، الآية: ٥١] إنه الأسد، وقيل: أريد به الرماة وأنشد:

وقسورة أكتافهم في قسيهم إذا ما مشوا لا يغمزون من النساء
ويقال: دبر الليل دبوراً وأدبر فدبر: ذهب وأدبر ولّى، وقيل: أدبر أخذ به في النقص،
وكما قيل: دبر وأدبر بمعنى قبل قبل وأقبل. وقال ابن عباس: إنما هو والليل إذا دبر. فأما
أدبر: فإنما يقال: أدبر: ظهر البعير وقرأه زيد إذا أدبر، ويقال: دبرني أي جاء من خلفي.

البابُ السَّابع والأربعون

في صِفَةِ طَوْلِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وقصرهما وتشبيه النّجوم بها

ويقال: متح الليل وهو يمتح متحاً إذا طال وكذلك النهار.

ومنه قولهم: بيننا وبينهم كذا فرسخاً متحاً أي مَدّاً وفرس متاح مداد.

وسرنا في ليلة عكامة وعكسة أي طويلة، حكاه أبو حاتم قال: ويقال: عكر عكاس أي كثير من الإبل.

ويقال: يوم اثجل أي واسع وليلة ثجلاء، ومنه الثجل في الخاصرة وليل التمام في الشتاء أطول ما يكون الليل، ويكون لكلّ نجم أي يطول الليل حتى تطلع النجوم كلّها في ليلة واحدة. قال: وسمعتُ أبا عمرو يقول: إذا كان اثنتي عشرة ساعةً فما زاد فهو ليل التمام. وأنشد:

لقد طرقت دهماء والبعثُ دونها وليلٌ كأثناء اللّقاء بهيم
على عجل والضّبح نالِ كآته بأدعجٍ من ليل التمام بريّم
فجعل ليل التمام للطويل من الليالي خاصةً آخر.

كَأَنَّ شَمِيطَ الصَّبْحِ فِي أَخْرِيَاتِهِ مَلَأَتْ تَجْلَى عَنْ طِيَالِسَةِ خُضْرٍ
تَخَالُ بِقَايَاهَا الَّتِي أَسَارَ الدَّجَى تَمَدَّ وَشِعَاءً فَوْقَ أَرْدِيَةِ الْفَجْرِ

ويقال: أغضب وهو انثاؤه وطوله واجتماعه وإقباله.

وحكي أنّ عليك ليلاً أغضف، قال العجاج: فانغضفت بمرحجن أغضفا.
(والمرحجن): الطويل الثقيل، وقال الدّريدي: ذكر أبو عبيدة أنّ المتلهب والمتمهل مثل المسجهر وهو امتداد الليل وغيره. وحكى ثعلب عن رجاله قالوا: ليل التمام في الشتاء أطول ما يكون لكل نجم طويل أي يطول الليل حتى تطلع النجم كلّها وقال أبو عمرو

الشَّيبَانِي وحده إذا كان ظلَّمته خالصةً فهو الخيط الأسود، وإذا خلص ضوءه فهو الخيط الأبيض. والبريم والشميط إذا اختلط، وفي القرآن: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧].

وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: ما كان من الأجسام والمعاین من الأشياء فهو التَّمَام بالكسر الفصيح العالي، ويجوز التَّمَام بالفتح وما كان من الكلام والأفعال وما شاكلها فهو التَّمَام بالفتح لا يجوز غيره، يقال: لَيْلُ التَّمَام وقمر التَّمَام والتَّمَام وولده للتَّمَام والتَّمَام. فإذا جئت إلى الأفعال والكلام قلت: تَمَّ الكلام تماماً، وتَمَّ الأمر تماماً، وإذا أردت أن القمر تَمَّ في نفسه قلت: تَمَّ تماماً وتم النَّهَار تماماً وتَمَّ اللَّيْل تماماً. وقال الأصمعي: لا يكسر التاء منه إلا في الحمل واللَّيْل وما يجري مجرى المثل طال عَلَيَّ اللَّيْل ولا أسب له أي لا أَكُنْ كالتَّسَيِّ فاستطيله يدعو لنفسه أن لا يتلي بما يطيل اللَّيْل عليه.

الأصمعي شهر المليساء أطول الشهور عليهم، وأتعبها لهم، ويكون على أثر الصَّفَرِيَّة وهو نجمان السَّمَك والغفر، فهم يشتغلون في أيام المليساء بأنفسهم ومواشيهم ومسيرهم، لأنهم يحتاجون إلى إعداد المئاثوي والبيوت ومأوى الإبل والغنم والعز والحظائر، والضرب في الأرض استعداداً للشتاء.

وحكى الدَّريدي: أَجْزَهْدَ النَّهَارَ أَوْ اللَّيْلَ طَال، واجرهد بالقوم السَّير: إذا امتدَّ بهم ظلام وشدة. وأنشد:

وَلَيْلَةٌ دَاجِيَةٌ طَخِيَاءٌ حَالِكَةٌ الْإِهَابَ وَالرُّدَاءُ
يَضْرِبُ بِالذَّاهِبِ وَجْهَ الْجَائِي

ابن المعتز:

أَقُولُ وَجَنَحَ الدَّجَى مَلْبَدٌ وَلَلَّيْلُ فِي كُلِّ فَجٍّ يَدُ

ويقال: عَجِبْتُ مِنْ سُرْعِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمِنْ سُرْعِيهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ جَمِيعاً قَالَ: فيقولون: أدركَ يومك أو ليلتك بربغة أي: بجنة وحدثاته، وهذا كما يقال: اتقِ النَّاقَةَ بجن ضراسها أي بحدثان نتاجها وسوء خلقها، ويدخل في هذا الباب قول الشاعر:

يَكُونُ بِهَا دَلِيلُ الْقَوْمِ نَجْمٌ كَعَيْنِ الْكَلْبِ فِي هَبِيءِ قِيَاعٍ

يعني أنَّ الكوكب بالظَّلام تعصَّب وبالقَتَام انتقب، فليس يظهر منه إلا شفاً وشبهه بعين الكلب: لدوام إغضائه واتِّصال نعاسه. والهبي جمع هاب وهو الذي حال دونه الهباء. والقباع: الدواخل في الظَّلام.

ويقال: قبع القنفذ إذا أدخل رأسه في قرونة قبعاً، وعلى هذا يقولون: تخاوَصَتِ

النجوم وتخاذرت. أبو تمام:

إليك هَتَكْنَا جَنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ قَدْ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدٍ

أبو نواس:

أَبْنُ لِي كَيْفَ صِرْتَ إِلَى حَرِيمِي وَنَجْمُ اللَّيْلِ مَكْتَحِلٌ بِغَارِ

فَأَمَّا تَشْبِيهِ النُّجُومِ فَبَابِهِ وَاسِعٌ إِلَّا أَنَا نَذَكُرُ مِنْهُ مَا يَسْتَحْسِنُ مِنْ شَعْرِ الْقَدَمَاءِ أَوْ يَسْتَغْرِبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَ مَهْلَهْلٍ:

أَلَيْتَنَّا بِذِي جِسْمٍ أَنِيرِي إِذَا أَنْتِ أَنْقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِي
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبْكَى مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ
وَأَنْقَضَنِي بِيَاضُ الصُّبْحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَضْتُ مِنْ شَرٍّ كَبِيرِ
كَأَنَّ كِرَاكِبَ الْجُوزَاءِ عَوْدُ مَعْطِفَةٌ عَلَى رِبْعٍ كَسِيرِ
كَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ ثَانِيَاتُ وَفَرَقْدُهُنَّ مَجْتَنِبُ الْأَسِيرِ
تَتَابَعُ مَشِيَةَ الْإِبِلِ الزَّهَارَى لَتَلْحَقَ كُلُّ تَالِيَةٍ غَيُورِ
وَتَحْنُو الشَّعْرِيَّانِ إِلَى سُهَيْلِ يَلُوحُ كَقَمَّةِ الْجَمَلِ الْغَرِيرِ
كَأَنَّ الْغَدْرَتَيْنِ مَكْفُوعُ سَاعِ أَلَحَّ عَلَى تَمَائِلِهِ ضَرِيرِ
كَأَنَّ التَّابِعَ الْمُسْكِينَ شَيْخُ يُزَجِّي أَعْنَزًا خَلْفَ الْوَقِيرِ
كَأَنَّ النَّجْمَ إِذْ وَلَّى سَحِيرًا فَصَالٌ جَلَنَ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ
كَأَنَّ الْفَرَقْدَيْنِ يَدَا مَغِيضِ يَكْبُ عَلَى مِقَاسِمَةِ الْجَزُورِ
كَأَنَّ مَجْرَةَ التَّسْرِينِ نَهْجُ لِكُلِّ طَرِيقَةٍ تَحْدَى وَغَيْرِ
وَعَارِضَهُنَّ نَاحِيَةً سُهَيْلُ عَرَاضَ مَجْرَبِ شَكْسٍ غَيُورِ
كَأَنَّ الْجَدِي جَدِي بَنَاتِ نَعَشٍ يَكْبُ عَلَى الْيَدَيْنِ كَمُسْتَدِيرِ
كَأَنَّ الْمُشْتَرِي حَسَنًا ضِيَاءُ بَنِي قَاهِرٍ مِنْ فَوْقِ قُورِ

وقال مضر بن لقيط:

وَلَيْلٌ يَقُولُ الْقَوْمُ مِنْ ظَلَمَاتِهِ سَوَاءٌ بِصِيرَاتِ الْعَيُونِ وَعُورِهَا
كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ بِيوتاً حَصِينَةً مَسُوحاً أَعَالِيهَا وَسَاجاً كُورِهَا

قال ابن هومة:

وَبَنَاتِ نَعَشٍ يَتَدَرْنَ كَأَنَّهَُا بَقَرَاتُ رَمْلٍ خَلْفَهُنَّ جَاذِرُ
وَالْفَرَقْدَانِ كَصَاحِبَيْنِ تَعَاقِدَا تَالِلُهُ تَبْرَحُ أَوْ تَزُولُ عَتَايِرُ
وَالْجَدِي كَالرَّجُلِ الَّذِي مَا إِنْ لَهُ عَضْدٌ وَلَيْسَ لَهُ حَلِيفٌ نَاصِرُ

وتزاور العَيوق عن مجداته
وترقُع النّسران هذا باسطُ
والنّطح يلمع والبُظَيْنُ كآته
والحوت يسبح في السّماء كسبحه
وكواكبُ الجوزاء مثلُ عوائد
وكانَ مرزَمها على آثارها
وتعرّضت هادي السّعود كأنّها
وبدا سُهيل كالشّهاب مشبه
وبدت نجومٌ بين ذاك كأنّها

وقال أبو الأشهب الأسدي:

ولاحث لساريها الثريا كأنّها لدى الأفق الغربي قرطٌ مسلسلُ

قال الهيثم بن عُدي: قال لي صالح بن حسان: أنشدني أحسن بيتٍ قيل في الثريا، قال
قلت: بيت عبد الله بن الزبير الأسدي رضي الله عنهما:

وقد خرّم الغربُ الثريا كأنّها به رايةٌ بيضاءُ تخفقُ للطّعن

قال: أريد أحسنَ من هذا، قلت بيت امرئ القيس:

إذا ما الثريا في السّماء تعرّضت تعرّضَ أُنْءاءُ الوِشاحِ المفضّلِ

قال: أريد أحسنَ من هذا، قلت: بيت ذي الرّمة:

ورَدْتُ اعتسافاً والثريا كأنّها على قمةِ الرأسِ ابن ماءٍ محلّق

قال: أريد أحسن من هذا، قلت: بيت يزيد بن الطّهرية:

إذا ما الثريا في السّماء كأنّها جمانٌ وهي من سلكه فتبدّدا

قال: أريد أحسن من هذا، قلت: قول أبي قيس بن الأسلت:

وقد لاح في الصّبح الثريا لمن يرى كعُنُقودٍ ملاحيةٍ حين نوراً

وقال الفرزدق:

كليلاً مهلهلٍ ليلي إذا ما تمئى اللَّيلُ ذو الليل القصيرِ

تهامى كأنَّ شامياتٍ جنحن لجانيه إلى الغُورِ

كانَ اللَّيل يعطفه علينا ضارراً أو يكرُّ إلى نذورِ

في صفة الليل والنهار، وقصرهما وتشبيه النجوم بها

لأزهر في مباركته عقيق
ولا ضوء لساريها منير

كأن نجومه ليلٌ تشئى
وكيف بليلة لا نوم فيها
وأنشد المبرد:

يراها الحديد العين سبعة أنجم
جيرة دُر ركبث فوق معصم

إذا ما الثريا في السماء تعرّضت
على كبد الجرباء وهي كأنها

(الجيرة): الدستنج العريض وشبه ابن الرّومي الثريا فقال: وذكر شعر امرأة:

بيضاء للناظرين معتذره
بعد غمام وحاسر حسره

يغشى غواشي قرونها قدماً
مثل الثريا إذا بدت سحراً

فأخذه ابن المعتز فقال:

قدمٌ تبدّت من ثياب حداد

وأرى الثريا في السماء كأنها

وقال كعب الغنوي في الجوزاء:

فساطيط ركب بالفلاة تزول

وقد مالت الجوزاء حتى كأنها

ولابن المعتز:

أغصان نورٍ أو وشاحٍ من ورق

كأنما الجوزاء في أعلى الأفق
وله:

رؤوس مدارٍ رُكبت في معاجر

كأن نجوم الليل في فحمة الدجى
وله:

خلال نجومها عند الصّباح
تفتّح بينها وزدّ الأقاحي

كأن سماءنا لما تجلّت
رياضٌ بنفسجٍ خضيل نداءه
وله:

زرقاء تنظر من نقاب أسود

ورنا إلي الفرقدان كما رنت
وله:

مريض مدنف من خلف سحر

تظلّ الشمس ترمقنا بلحظ

تَحَاوَلُ فَتَحَ غَيْمٌ وَهُوَ يَأْبَى
كَعَيْنٍ يَحَاوِلُ فَضْ بَكْرٍ
آخر:

مَا ذُقْتُ طَعْمَ النَّوْمِ لَوْ تَدْرِي
كَأَنَّ جَنْبِي عَلَى جَمْرِ
فِي قَمَرٍ مُسْتَرْقٍ نَصْفَهُ
كَأَنَّهُ مَجْرُفَةُ الْعُطْرِ
وآخر:

وَالْبَدْرُ يَأْخُذُهُ غَيْمٌ وَيَتْرُكُهُ
كَأَنَّهُ سَافِرٌ عَنْ حَدٍّ مُلْطُومٍ
وَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا
مَصَايِخُ رُكْبَانٍ تَشَبَّ لِقَالٍ
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مُسْلِمَةَ:

لَمَّا تَرَأَى رَخْلٌ
وَأَخْمَسَ التَّسْرِينَ شَخْصَ
أَطَارَ نَسْرًا وَاقْعَا
فَرَدَا وَوَأْفَى سِيرَهُ
وَعَنْ سَعْدٍ ذَابِحٍ
وَسَعْدٍ سَعْدٍ بَعْدَهُ
دَافِعٌ ذَا ذَاكَ وَذَا
أَمَّا مَهَارٌ أَمَّ إِذَا
يَتْلُو نَعَامًا وَارِدًا
يَطِيرُ مَا طَرْدَنَ فَلِنْ
وَعَقْرُبٌ يَقْدُمُهَا
لَهَا مَصَايِخُ دُجَى
يَتْلُو الزَّبَانَى فَلِذَا
وَوَارَنَ الْكَفَّ التِّي
قَالَ الدَّلِيلُ عَرَسُوا
هَذَا ظِلَامٌ رَاكِدٌ
وَالْعَيْسُ فِي دَوْتِهِ
مَمْتَدَّةٌ أَعْنَافُهَا
فَلِإِنَّهَا سَفَائِنٌ

ذَاتَ عَشَاءٍ فَمَشَّعَ
الرَّدْفِ بِالْحَمَلِ الذَّرْغِ
وَطَائِرِ التَّسْرِ يَقْعُ
وَسَارَ هَذَا أَقْشَعُ
يَتْبَعُهُ سَعْدٌ بَلْعُ
يَسْعِدُ سَعْدٍ ذُو تَبْعُ
دَافِعٌ هَذَا فَاَنْدَفَعُ
أَعْرَقَ فِي فَوْقٍ نَزْعُ
وَصَادِرًا حَيْثُ سَكَّغُ
وَقَعْنَ فِي الْأَرْضِ وَقَعُ
كَلِيلُهَا حَيْثُ دَسَّغُ
تَحْكِي مَصَايِخَ الْيَبِغِ
جَدَّ بِهَا السَّيْرَ طَلَّغُ
فِيهَا خَضَابٌ قَدْ نَصَّغُ
فَلَيْسَ فِي صَبْحٍ طَمَّغُ
مَا لِلْسَّرَى فِيهِ نَجَّغُ
تَعْمَلُ فِيهَا وَتَدَّغُ
لِلْوَرْدِ عَنْ غَبِّ التَّشَّغُ
يُولِجُ فِي الْمَوْجِ الدَّفَّغُ

فقلت سدّد قصدها لا كنت من نكس ورغ
أما ترى غفر الزبا نى ساجداً أو قد ركغ
وقبل ذاك ما لحا ضوء السّمَاك فخشغ
وانتشرت عواؤه تنائرَ العقد انقطغ
حتّى إذا الكباش ارتعى رغاؤه ثمّ نقغ
تتابع الخيلُ جرث فيها مذكٌ وجذغ
يعيد في خافاتها هينمةٌ ثمّ سَطغ
شعر:

كلمعة البرق اليمّا ني إذا البرقُ لمغ
أو سلّة السيْف انتضى سلتَه القَيْنُ الصَّنغ
في نقبه ينسجها بيضاء ما فيها لمغ
وانهزمت خيلُ الدّجى تركبُ من غير فزغ
والضُّبح في أعراصها يخبُ طورا ويضغ
فقلتُ إذ طار الكرى عن العيون وانقشغ
لما بدا في رحله تشوانٌ من غير جرغ
ليس المذكي سنة في الحرب كالغمر الضرغ
قال أبو الحسن العلوي الأصبهاني:

كأنّ سهيلاً والنجومُ أمّاه يعارضُهِ راعٍ وراعٍ قطيع
إذ قام من ريائه قلتُ راهبٌ أطال انتصاباً بعد طول ركوع
قال آخر:

فإذا كانت الشّعري العبورُ كأنّها معلقٌ قنديلٌ عليه الكنائسُ
ولاح سهيلٌ من بعيدٍ كأنّه شهابٌ ينجيهِ عن الرّيح قابسُ
وقال آخر:

سريتُ على الجوزاء وهي كأنّها شمائلُ رقاصي تميلُ مناطقه
قال محمد بن عبد الملك:

كأنّ كواكبَ الجوزاء لَمّا سئمت تعرّضتْ بالمنكيين
أخو حربٍ تقلّد قوسَ رامٍ وقلّد خصره بقلادتين

قال العلوي الأصبهاني في التشر شعراً:

وركب ثلاث كالأنافي تعاوروا دجى الليل حتى أومضت سنة الفجر
إذا جمعوا سميتهم باسم واحد وإن فرّقوا لم يعرفوا آخر الدهر

وقال أبو التّجم في إصغاء الشمس للمغيب:

صب عليه قانص لَمَّا عَقَلَ والشمس قد صارت كعين الأحول

ولابن الرّومي في طلوع الشمس من خلل السحاب:

ظَلْتُ تسترنا وقد بعثت ضوءاً يلاحظنا بلا لهب

قال ذو الرّمة في مثله وهو يصف امرأة:

تريك بياض لَبَّتْهَا وَوَجْهاً كقرن الشمس أفتق ثم زالا
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً كلاً وانفل سائره انفلا

قال آخر في دارة الشمس:

والشمس معرضة تمور كأنها ترس يقلّبه كمّي راميح

وأنشد ثعلب:

كأن ابن مزنتها جانحاً فسيط لدى الأفق من خنصر

وقد تركنا تقصّي الباب لأن في هذا القدر كفاية.

البابُ الثامن والأربعون

في ذكر السَّرَابِ، ولوامع البروقِ، ومتخيلات المناظرِ ووصفِ السَّحَابِ

(السَّرَابُ): هو الذي يتلألاً نصف النهار كأنَّه ماء، لازقاً بالأرض وهو الآل وقيل الآل يكون ضحوة، والسَّرَاب نصف النهار. وفي القرآن: ﴿كَسْرَابٍ بَقِيعَةٌ يَخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ [سورة النور، الآية: ٣٩] وقيل في الفرق بينهما: إِنَّ الآل هو الذي يرفع كلَّ شيء، وسُمِّي الآل لأنَّ الشخص هو الآل، فلما رفع الشخص قيل هذا آل. قال الأعشى:

حَتَّى لِحَقْنَاهُمْ تَعْدَى فَوَارِسُنَا كَأَنَّارٍ عَنْ قَفٍ يَرْفَعُ الْآلَا

وقيل: هذا من المقلوب، أراد كَأَنَّارٍ عَنْ قَفٍ يَرْفَعُهُ الْآل، والآل يرتفع عن وجه الأرض، واللَّعَاب الذي يتساقط من السَّمَاء كأنَّه زبد في مرأى العين ويسمى ريق الشمس. قال:

يَشْرَنُ الثَّرَى حَتَّى يِيَاشِرْنَ بَرْدَهُ إِذَا الشَّمْسُ مَجَّثَتْ رِيقَهَا بِالْكَلاكِيلِ

ويلمع اسم السَّرَابِ، وفي المثل: إِنَّمَا أَنْتَ يَلْمَعُ.

ويقال لبرق الخَلْبِ: يلمع أيضاً ولذلك قيل: أَكْذَبُ مَنِ يَلْمَعُ، واليَلامع من السَّلاح: مَا بَرَقَ نَحْوَ الْبَيْضَةِ، ولامعا المفازة جانبها.

ويقال: مَا بِهَا لَامِعٌ أَيُّ أَحَدٍ، و (الزُّقْرَاق) مثل السَّرَابِ وقيل زُقْرَاقُ السَّرَابِ تَرْقُرَقُهُ. قال الشاعر:

يَدُومُ زُقْرَاقُ السَّرَابِ بِرَأْسِهِ كَمَا دَوَّمتُ فِي الْأَرْضِ فَلَكَةً مِغْزَلِ

وقد صحا السَّرَابُ أَي انكشف ومصح الآل وتسعسع والذي تراه في الشمس كأنه خيطٌ ممتدُّ يقال له مخاط الشَّيْطَانِ. وقد كُتِّي عن السَّرَابِ بِأَبْوَالِ الْبَغَالِ قَالَ شِعْرَاءُ:

وَحَمِيرِ أَبْوَالِ الْبَغَالِ بِأَنْتِي تَسْدِيْتُ وَهَنًا ذَلِكَ الْبَيْنَا

قال بشرٌ يصف إبلاً:

فقد جاوزنَ مِن غمدانَ أرضاً لأبوالِ الْبِغالِ بها وَقِيعُ
يطانَ بها فروثٌ مقصراتٌ بقاياها الجماجمُ والضلوعُ

وإنما قالوا ذلك لأنَّ البغال لا تتناسل فلا ينتفع بأبوالها كما لا ينتفع بالسراب.

ويقال: فلانٌ كثير البول إذا كان كثير، و (الوقيع) الخضر تكون في الأرض.

وقال ابن الأعرابي: البغال باليمن، فيبين أنَّ هذه الأرض تكون باليمن.

قوله بطن: يعني قوائم الناقة، والمراد بالأرواث كروش إبل قصرن عن السير فتركت مخلفات فأكلهنَّ السباع.

ويقال للسراب المسجهر الكذوب اللون. وقال ذو الرمة يصف الأظعان:

تواری وتبدو لي إذا ما تطاولتُ شخوصُ الضحى وانشقَّ عنها غدِيرُها

(الشخوص): تطاول في وقت الضحى لأن السراب يرفعها يقول تبدو لي الأظعان في ذلك الوقت إذا رفعها الآل وتواري إذا انشقَّ عنها غدِيرها، يعني السراب، وهذا الذي يشير إليه لتخيل الشخوص في المناظر، لذلك قال ابن أحرر:

وازدادتِ الأشباحُ أخيلةً وتعلَّل الحرباءُ بالثغْرِ

وقال جرير

ومن دونه تيةٌ كأنَّ شخوصها يحلن بأمثالٍ فهنَّ شوافِئُ

وقال ذو الرمة في بيان السراب يصف فلاةً:

بها عُذُرٌ وليسَ بها بلاءٌ وأشباح تحولُ وما تريمُ
تموت قطا الفلاة بها أوماً ويحسر في مناكبها النسيمُ

قوله: (أشباح تحول): أي تتحرك ولا تبرح بل يخيل ذلك إليك. وقال الشماخ وذكر ناقةً:

إذا شرفاتُ الآل زالتِ ونصفتِ تناطَحَ ضبعاها به ويداهُما

قوله: نصفت: صار السراب إلى أنصافها، وقوله: ويداهما: جعل اليدين للضبعين

وقال:

وحومانة زرقاء يجري سرايها بمنسجة الآباطِ حذبٌ ظهورُها

٤٤٤ ————— في ذكر السراب، ولوامع البروق، ومتخيلات المناظر ووصف السحاب

(حومانة): أرض غليظة، و (المنسجة): المنصبة أي ليست بضيقه الفروج وقال
الكميت:

إذا ما الالْ أعرَضَ لم يجمعْ إليّ بأعْيُنِ الخوفِ الغيوبِ
(يجمع): ينظر نظراً شديداً، و (الغيوب): جمع الغيب وهو المتخفّض. وقال ذو
الرّمة:

تري الزبيعةَ القوداءَ منه كأنّها مُنادٍ بأعلى صوتِهِ القومَ لامع
الرّبعة: هضبة وهي الجبل الصّغير المفترش مع الأرض، أي كأنّها في السّراب،
(مناد): يلمع بثوبه، وقوله يصف قنه. قوداء طائقتها في الالْ محزوم الطائق حرف شاخص
في الفتنّة وقوله: كأنّما الأعلام فيها سير. أي كأنّها تسير في السّراب. قال جران العود وذكر
أرضاً:

ببلقعةٍ كأنّ الأرضَ فيها تجهزُ للتّحملِ والبُكُورِ
يريد أنّ السّراب يطردُ فيها فكأنّها تجهز. وقال ابن الدّمينّة:
برماحة الأنضادِ فماصة الصّوى تداوي المطايا من مروحِ العجازِ
(الأنضاد): جمع التّضد وهو ما تراكم من الجبل. و (الصّوى): الأعلام وتقسمها في
السّراب.

قال أبو النّجم:
بمهمّةٍ سابغةٍ جلاله ينفضُ في العينِ الضّحى أسماله
أراد ينفض الضّحى أسمال السّراب فيما ترى العين وقال:
حتى إذا الأكُمُ طَفَتْ في آلهَا مثلَ طفوِ الحُمِّ في آهالها
وقال:

إذا السّراب استشخصَ الأجدالا واطّردت دياسقاً أسمالا
واستنسج الأرام والثّلالا
الأجدال: أصول الشجر، (واطّردت دياسقه): وهو السّراب الأبيض وشبهه بأسمال
الثّياب. قال ابن مقبل:

ويوم يقسم ريعانُه رؤوسَ الأكام يُغشّين آلا
تري اليد تهدجُ من حرّه كأنّ على حزمِ راءِ بغالا

في ذكر السراب، ولوامع البروق، ومتخيلات المناظر ووصف السحاب ————— ٤٤٥

بغلاً عقارى تغشينه وكلّ تحملُ منه فزالا

جعلها (عقارى): لأنها لا تلد، و (ريعانه): أوله، (تهدج): تتحرك يعني أنّ الآل يتحرك فكأنّ (بغالا) على كل شرف توجف. ولأبي ذؤيب:

يستنّ في عرص الصّحراء فائزهُ كأنّه سبط الأهدابِ مملوجُ
وأنشد:

ونسجّت لسوامعُ الحرورِ سبائياً كسرقِ الحريرِ

فالمراد به السّراب يستدل من هذا البيت على أنّ السّرق يقع على الحرير الأبيض دون غيره. قال ذو الرّمة:

إذا تنازع جالا مجهلي قذفي أطراف مطردٍ بالحرّ منسوج
تلوى الشّنايا بأحقّيتها حواشيه لي الملاء بأطرافِ التفاريحِ

جعل أطراف السّراب المنسوج بالحرّ يتنازعها جانباً المفازة، وقد بالغ في الإبانة والتصوير. وهذا كما قال الرّاعي:

وإذا ترقّصت المفازة غادرت زبداً يُيغل خلفها تبغيلاً

ويعني بالزّبد حادي الإبل، وما أوردناه في السّراب ووجوه تشبيه كافٍ في هذا الموضع.

فأما البرق: فإنّ الأصمعيّ قال: أحسنُ ما قيل في وصف البرق والغيث قول عدي بن الرّفاع:

فقمْتُ أخبره بالغيبِ لم يرهُ والبرقُ إذانا محزونٌ له أرقُ

قال أبو نصر: كذا روينا عن الأصمعي، وهذا مما يعد من تصحيفه. ورواه أبو عمر والسيباني وابن الأعرابي وأبو عبيدة. والبرق إذانا محزوله أرق: أي مشترف مراقب. وتصحيح رواية الأصمعي:

لا كلفته فيه ويعده مرناً يسبح في ريحٍ شامية
مكلل بعماء الماء منتطق

معنى (يسبح): يعرض وروى يسبح أي الرعد. وقال:

ألقي على ذاتِ أحقادٍ كلاكه وشتّ نيرانه وانجابَ ياتلقُ
ناراً يعاودُ منها العودُ حدّته والنار تسفّع عيداناً فتحترقُ

وبات تجتلبُ الجوزاءَ درتها
بيكي ليدرك محلاً كان ضيِّعه
جونُ المسارب رقراقٌ تظَلُّ به
شم المخارم والأثناء تصطفقُ
يكاد يطلعُ ظلماً ثم يغلبه
عز الشواهد والوادي به شَرَقُ

ويقال في البرق: يشرى - ويومض - ويعن - ويعترض - ويوبض - ويستطير -
ويستطيل - ويلمع - ويتبوج - ويخطف - ويخفو - ويرق - ويتألق - ويتلألأ - ويستشري -
وينيض - ويخرق - ويسلسل - ويشتن - ويسسم - ويضحك - ويبعق - وينشق - ويرتعص -
ويقري - ويهص - ويثقب - ويلوح - ويتهلل - ويتكلل. ومما يستحسن في وصف البرق
وخفائه، والرَّعد في حدائه، والتَّليج واللاَّيَه - قول بعضهم:

ينبض نبضَ العرقِ في استخفاء
شُرارةٌ تطرفُ من قصباء
حتى إذا امتدَّت على السَّواء
وقععت بالرَّعد ذي الضَّوضاء
رجل جرادٍ ثار في عماء
وكرسفاً يندف في الهواء
أو حلباً ينطف من أطباء
أو كتفي الفضَّة البيضاء
أو كانتظام الودع في الإخفاء
فأشمطت الأرض على فناء
واستوفت الآكام بالصَّواء

وقال آخر:

وأرض أنستُ بأهوائها
وشمت بوارق أقطاره
وبات يعجَّ عجيجَ القطا
وقد هدا الصَّوت من غيره
وقلتُ له حين أبصرته
أأنتَ القطار أم أنتَ البحا
فأنبت ما لم يكن نابتاً
ولم تلبث الأرض أن صرَّحت
وصار على الأرض من وبله
وغيث سريث له إذ سرى
فبرق يلوخ ويرق خبا
وبات بجوالقها تمتري
ودارك بين البكا والفنا
يراوخ بين الخسا والزكا:
رُ أم أنت قاسم المرتجى؟
وقلع من نبتة ما عفا
عن النور واخصرا على الصَّفا
قناع السيول وإزر الري

شعر:

تَأَزَّرَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ ارْتَدَّتْ
وَصَارَ سَوَاءٌ إِذَا جُبَّتْهَا
قال العتابي:

أَرَقْتُ لِلْبَرْقِ يَخْبُو ثُمَّ يَأْتِلِقُ
كَأَنَّهَا غُرَّةُ شَهْبَاءٍ لَامِحَةٌ
أَوْ ثَغْرُ زَنْجِيَةٍ تَغْتَرُّ ضَاكِكَةً
أَوْ غُرَّةُ الصَّبْحِ عِنْدَ الْفَجْرِ حِينَ بَدَتْ
لَهُ بَدَائِعُ حُمْرِ اللَّوْنِ هَائِلَةٌ
وَالْغَيْمُ كَالثُّوبِ فِي الْآفَاقِ مُتَشِيرٌ
تَنْظُنُّهُ مَصْمِتاً لَا فَتَقَ فِيهِ فَإِنْ
إِنْ قَعَقَعَ الرَّعْدُ فِيهِ قَلْتُ يَنْخَرِقُ
تَسْتَكُّ مِنْ رَعْدِهِ أَذُنُ السَّمِيعِ كَمَا
فَالرَّعْدُ صَهْلَقُ وَالرَّيْحُ مَخْتَرِقُ
غَيْثٌ أَوْ آخِرُهُ تَحْدُو أَوَائِلُهُ
قَدْ حَاكَ فَوْقَ الرِّبَى نُوراً لَهُ أَرْجُ
فَطَارَ فِي الْأَنْفِ رِيحٌ طَيِّبٌ عَبَقُ
مِنْ خَضِرَةٍ نَبَتْهَا حُمْرَاءُ قَانِيَةٍ

ولبعض بني مازنة:

إِذَا اللَّهُ لَمْ يَسْقِ إِلَّا الْكَرَامَ
مِلْثًا مَرْبَالَهُ هِيدَبٌ
تَكَرَّكَرَهُ حَصْحَصَاتُ الْجَنُودِ
كَأَنَّ الرِّيَابَ دَوِينَ السَّحَابِ
كَأَنَّ الرِّكِيَّةَ مِنْ قِيْضِهِ

قال علي بن الجهم في السحاب شعراً:

وَسَارِيَةٌ تَرْتَادُ أَرْضاً تَجُودُهَا
أَتْنَا بِهَا رِيحُ الصَّبَا وَكَأَنَّهَا
تَمِيسُ بِهَا مِيساً فَلَا هِيَ إِنْ دَنَتْ

شَغَلْتُ بِهَا عَيْنًا قَلِيلاً هَجُودُهَا
فَتَاءٌ تَرْجِيهَا عَجُوزًا تَقُودُهَا
نَهْتَهَا وَلَا إِنْ أَسْرَعَتْ تَسْتَعِيدُهَا

تقاربها في كل أمر تريده
 إذا فارقتها ساعة ولهت له
 فلما أضرت بالعيون بروقها
 دعته إلى حلّ النطاق فأرعشت
 وكادت تمسّ الأرض إمّا تلهفًا
 فلمّا رأَتْ حرّ الثرى متعقدًا
 وأنّ أقاليم العراق فقيرةً
 فما برحت بغداد حتّى تفجّرت
 وحتّى رأينا الطير في جنباتها
 وحتّى اكتست من كل نور كأنّها
 ودجلة كالدرع المضاعف نسجها
 فلمّا قضت حقّ العراق وأهلكه
 فمرت تفوت الطير سبقاً كأنّها

ليسرح في أكنافها من يريدُها
 كأمّ وليد غاب عنها وليدُها
 وكادت تصمّ السامعين رعوذها
 يداها وخرّت سمطها وعقودها
 وإمّا حذاراً أن يضيع فريدُها
 بمازلّ عنها والرّبي تستزيدها
 إليها أقامت بالعراق تجودها
 بأودية ما تستفيق مدودها
 تكاد أكفّ الغانيات تصيدها
 عروسٍ عليها وشيها وبرودها
 لها حلقّ تبدو وتخفي حديدُها
 أتاها من الرّيح الشّمال يريدُها
 جنودٌ عبيد الله ولّت بنوزها

الباب التاسع والأربعون

في تَذَكُّر طَبِّ الزَّمان - والتَهْلِفِ عليه - والحنين إلى الأَلف - والأوطان

كنا قد ذكرنا فيما صدرنا به هذا الكتاب ما أنشأ الله عليه الخليفة من حبِّ الوطن والسكن، وما درج إليه أولي النحل السليمة - والعقد الصحيحة من الولوع بحفظ متقادم أعصارهم، بما اتَّفَق مِنْ سِيَرٍ وحكم نخبهم - وأنه حَبَّب إليهم ما يَأْتِره القرن بعد القرن، منهم ليظهر من جلائل صنعه - في كل حين وفوائد منحه على كلِّ حال ما توافَقَ فيه الرِّواة - وتلاحق به المدد والأوقات.

وذكرنا أيضاً شيئاً صالحاً من علّة الحنين إلى الأَلف والأوطان، وما تأسَّسَ عليه أسباب التنافس والتحاسد بين الرِّجال، إلى انكشاف الأحوال عن التراضي بينهم بمختلفات الأقسام، وإنَّ جميع ذلك حكمةٌ بالغّة من الله جلَّ جلاله في الأنام، فأحبينا أن نجدد هنا ما يتأكَّد به ما تقدّم، أنشد المبرد شعراً:

لعمري لئن جُلِيتُ عن مَنَهْلِ الصُّبا	لقد كنت ورّاد المشربة العذب
ليالي أعدو بينَ بردينِ لاهياً	أُميس كغصن البانة النَّاعم الرُّطبِ
سلامٌ على سير القلاصِ مع الرِّكب	ووصل الغواني والمدامة والشُّربِ
سلامٌ امرئٍ لم تبقَ منه بقيّةٌ	سوى نظر العينين أو شهوة القلبِ

قال أبو تمام:

إذا لا صدوف ولا كنود اسماهما	كالمعنين ولا نوار نوار
إذ في القتادة وهي أنجلُ أَيْكَة	نمر وإذ عودُ الزَّمان نضار

قال دريد بن عبد الله:

حَنَنْتُ إلى رِيّا ونفُسُك باعَدَتْ	مزارك مِنْ رِيّا وشعباكما معا
وأذكر أَيْامَ الحمى ثُمَّ أنْشَيْ	على كَيْدي مِنْ خَشْيَةِ أَنْ تَقَطَّعا

وجعْتُ من الإصغاء ليتاً وأخذعاً
عليكَ ولكنْ خلّ عينيكَ تدمعاً

تلقتْ نحو الحيّ حتّى وجدتني
وليسَتْ عشايتُ الحمى برّواجعٍ
أنشد أبو صالح الآمدي عن الأخفش:

إلينا وعصرَ العامريّة منْ عصرِ
تمرّ اللَّيالي والشّهور ولا أدري
وبين حياتي خالداً آخر الدّهْرِ
على غفلةِ الواشين ثم اقطعوا عمري

سقى اللّهُ أياماً لنا ليس رُجّعاً
ليالي أعطيتُ البطالةَ مقودي
مضى لي زمانٌ لو أُخَيّر بينه
لقلتُ دعوني ساعةً وحديثها
وقال آخر:

بنا بينَ المنيفةِ فالضّمّارِ
فما بعد العشيّة من عرارِ
وَرَيّا روضَه بعد القطّارِ
وأنت على زمانك غير زارِ
بأنصافٍ لهنّ ولا سرارِ

أقول لصاحبي والعيسُ تهوي
تمنّع منْ شميم عرار نجد
ألا يا حبّذا نفحات نجدٍ
وأهلك إذا يحلّ الحيّ نجداً
شهورٌ ينقضين وما شعرنا

قال ابن الرومي:

زماناً طوى شرخَ الشّباب فودّعاً
تقطّع من أقرانها ما تقطّعاً
بلهنيةً أقضي بها الحول أجمعاً
وأعمل فيه اللهو مرأى ومسمعاً

بكيت فلم تتركْ لعينك مدمعاً
سقى اللّهُ أوطاراً لنا ومآرباً
ليالي ينسين اللَّيالي حسابها
على غرة لا أعرف اليوم باسمه

قال معن بن زائدة:

يرى بجنوبِ الدّيرِ وهو قصيرُ
وما كحضور مَنْ يحبّ سرورُ
وأما الألى أقلّهم فحضورُ
ويشقى بما جرّت يدها وزيرُ
إذا شاء عن الألفه لصبورُ
يشير إليها بالبنانِ مشيرُ
يدير رحي جمع الهوى فتدورُ
ويسورق غصنٌ للشّباب نضيرُ

تمطّى بنسابور ليلي وربّما
ليالي إذا كلّ الأجرة حاضِرُ
فأصبحتُ أمّا من أحبّ فنازخُ
وإذ لا أبالي أن يضيق سائسُ
يحنّ إلى الآلآفِ قلبي وقلّبه
أبيتُ أناجي النفس حتى كأنّما
لعلّ الذي لا يجمع الشّمل غيره
فتسكنُ أشجاناً وتلفي أحبةً

أراعي نجومَ اللَّيْلِ حتى كأَنّي
بأيدي العداةِ الثّائرينَ أسيّرُ
وله :

باد الهوى وتقطّعتْ أسبابه
ذكر التّمرّئي الغواني بعدما
وتذكّر اللّهُو القديم فساقه
غشي المنازل بالسّليل فهاجّه
بانوا وما مِن بين حيٍّ راحلٍ
ولقد نراه للقتول وأهلها
صافت بوج في ظلال كرومه
وتذكّرت مترّعباً من أرضه
كم قد أربّ بجوّه من معذقي
فمحلّها منه رواء مبقّل
حلّ به ثمّدٌ ومحضّرٌ بهجة
يهوي إليها العالمون كأَنّهم
إنّ الذي يهوى فؤادك قرينه
أتى ينال إذا انتمت في مشرف
لجّ المتيمّم في البعاد سفاهةً
حتى إذا احتمل الحبيبُ تبادرت
إنّ امرأً كلّفاً بذكرك موزعاً
قد طال ما انتظر التّوال لديكم
لو تنطق العيسُ اشتكت ما عالجت

قال ابن ميّادة :

ألا ليت شعري هلّ ابتنّ ليلةً
بلاذّ بها نيطت عليّ تمائمى

قال ابن الرومي :

ولي وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعَه
عهدتُ بها شرخَ الشّباب ونعمةً
وقد ألفتَه النفسُ حتى كأنّه
والأرى غيري له الدّهر مالكا
كنعمة قومٍ أصبحوا في ظلالكا
لها جسدٌ إن غاب غودرتُ هالكا

مَارَبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هِنَا لَكَ
عَهْدُ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لَذَلِكَ

ودقةً في عظم ساقِي ويدي
عَضَّتْ من الوجد بأطراف اليَدِ

أتَقِفْ أم نثوي على الهمِّ والضَّجْرِ

لَهَا الهمِّ واستولى بها بعدها السَّخَرِ
فقد كُنْتُ أَشْكُو منه بالبصرة القصرِ
ويا حسنَ واديه إذا ماؤُهُ ذخيرِ
مع الماء تجري مصعدات ومحدِرِ
إذا مَدَّ في إبانهِ النَّهْرُ أو جزرِ
وسيماهم التَّحْجِيلُ في المجد والغرِ
ولا طيب نفساً بذاك ولا مقرِ
فقلْتُ لَهَا لا عِلْمَ لي فسلي القدرِ
ونَغْصَنِي عيشي عدمتك من سفرِ

كُلَّ هَمٍّ مصيره لانفراجِ
وغناء القمريِّ للقلب شاجِ
يا لقومِ لقلبي المهْتَاجِ
سير شهرين للبغال النَّوَاجِ
وهو في التَّوْمِ لي ضجيع مناجِ
مزاجاً أَحِبَّ به من مزاجِ
ومتى من غمومها أنا ناجِ
يبين دار المنجاب والحجاجِ
وجهه في الظَّلام فقد السراجِ
غرابتي يبا مؤلفَ الأزواجِ

وحَبَّبَ أوطانَ الرِّجالِ إليهم
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهم
اعتل رجل في غربته فتذكَّرَ أهله فقال:

لو أَنَّ سلمى أبصرت تحدّدي
ويُعدُّ أهلي وجفاء عودي
قال أبو عنية:

أَلَا خَبَرُوا إِنْ كَانَ عندكم خبر
شعر:

نفى التَّوْمَ عن عيني تغوَّضَ رحلةٍ
فإنَّ أَشْكَ من ليلَى ليلَى طوله
فيا حَبِّذا بطنُ الحزير وظهره
ويا حسنَ تلك الباسقاتِ إذا غدثِ
ويا حَبِّذا نهرُ الإبلَةِ منظراً
وفتيانُ صدقِ هَمِّهم طلبِ العلى
لعمري لقد فارقتهم غير طائعِ
وقائلة ماذا نَأْيُ بك عنهم
فيا سفرا أووى بلهوي وأنشي
وقال آخر:

أعلى اليأس أنت أم أنت راجِ
ما تغنى القمريُّ إلا شجاني
فلنؤج الحمام يهْتَاجُ قلبي
وخليلٍ سرى إليَّ ودوني
عامداً ما تراه يقظان عيني
جعلت نفسه لنفسي على البعدِ
كم بجرجانٍ ليت شعري مقامي
إنَّ أشهى إليَّ منها مقامِ
في فتومن كل أيلج يكفي
رَبِّ فاحفظْهم ورَدَّ إليهم

وقال آخر:

ألا ما لعينك لا ترقُدُ
وما بالُ ليلك ليل السّليم
وخلاك صَحْبُك في زفرة
فما لك من وحشة مؤنسٍ
فقاس الهوى وتقرد به
مللت بجرجان طول الثّوى
وكم لي بها من أخٍ أصيدٍ
مصاييحُ ليلٍ إذا أشرقت
إذا النَّاسُ غمّتهم أزمّةٌ
يؤمّل أو يرتجى رفده
ولم يدر حرّان ذو دريّة
سواء إذا ازدحم الواردو
إذا ما التقوا وثقوا عنده
ويغشون في الحرب حوماتها
وأعرضت الخيلُ مزورةً
إذا وعدوا أنجزوا وعدهم
مواريث آباء آبائهم
فلو كان يخلد أهل الندى
متى ألّهم بعد طول المغيب
ألا ربّما طاب لي مصدري

شعر:

وإنّ يقدر اللّهُ لي رجعةً
وإلا فلا حزني متقض
فيا سادة النَّاس أنتم مُنّاي
وأقسمُ ما طاب لي بعدكم
يغورُ هوائٍ إذا غرّتمُ
ألا ليتني جازكم بالعرا
ألا أيّها النَّاس إنّي لكم
فجديّ بقربهم الأسعد
ولا حرّ نيرانه يبرّد
على بعد داري فلا تبعدوا
مقامٌ ولا طاب لي مقعدُ
وإن تنجدوا فالهوى مُنجدُ
ق ما جاور الفرقد الفرقدُ
على خالديّ مشهد فاشهدوا

بكى مِنْ عِتَابِ تَوَالَتْ بِهِ قَوَافٍ يُرَدِّدُهَا الْمَشْدُ
فَكَيْفَ إِذَا مَا اسْتَحَرَّ الْهَجَاءُ إِذَا لَا يَقُومُ وَلَا يَقْعُدُ
قال محمد بن عبد الله بن ظاهر:

يَا جَبَلَ السَّمَاقِ سُقِيًّا لَكَ مَا فَعَلَ الطَّبِي الَّذِي حَلَاكَ
فَارَقْتَ أَوْطَانَكَ لِأَتِهِ فَارَقَكَ الْخَلَّ وَلَا مَلَاكَ
فَأَيَّ أَوْطَانِكَ أَبْكِي دَمَا مَاءَكَ أَوْ طِينَكَ أَوْ ظَلَاكَ
أَوْ نَفَحَاتِ مِنْكَ تَأْتِي إِذَا دَمْعُ النَّدَى تَحْتَ الدُّجَى بَلَاكَ

حدّث الزّبيدي قال: أخبرنا الزّبير بن بكار قال: كانت ظبية تحت محمد بن أبي بكر بن مسور وكانت ذات مال ولا مال له، فخرج يطلب الرّزق فلمّا كان في موضع يقال له: بلكنة، انصرف راجعاً فدخل إليها فقالت: الخير رجعت فقال شعراً:

بينما نحنُ بالبلادِ فالقا ع سراعاً والعيْسُ تهوي هَوَا
خطرتُ خطرةً على القلبِ من ذكرا كِ وهناً فما اسْتَطَعْتُ مُضِيّاً
ولو أنّ ما أهْدَيْنَ لي كان شربةً بيطن اللّوى من وطب راع شفانيا

وأنشد أبو بكر بن دريد قال: أنشدني أبو عمر أنّ الكلابي لرجل من قومه قال شعراً:
يحنُّ إلى الرّمل اليماني صباةً وهذا لعمرى لو رضى كُثْبُ
فأين الأراك الدّوح والسّدر والغصا ومستنجزٌ عما يحبّ قريبُ
هناك تغنينا الحمامَ ويجتني جنا اللّهُو يحلو لي لنا ويطيّبُ

قال أعرابي:

أيا أثلاثِ القاع من بين توضح حنيني إلى أظلالِكُنَّ طویلُ
ويا أثلاثِ القاع قد ملّ صاحبي ثوائي فهل في ظلّكُنَّ مقيّلُ
ويا أثلاثِ القاع ظاهر ما بدا على ما بقلبي شاهدٌ ودليلُ
ويا أثلاثِ القاع قلبي موكّلُ يكنّ وجدوى خَيْرَكُنَّ قليلُ
ألا هل إلى شَمِّ الخزامى ونظرة إلى قرقرى حتى الممات سبيلُ

قال أعرابي:

ألا حبّذا واللّه لو تعلمانه ظلالكما يا أيّها الطّلانِ
وماءكما العذب الذي لو شربتهُ وبى صالبُ الحمى إذا لشفاني

وأنشد الأحنش علي بن سليمان:

اقرأ على الوشل السّلام وقلّ له
سقياً لظّلك بالعشي وبالضحى
لو كنت أملك منع مائك لم يذق
كلّ المشارب مُذ هجرت ذميم
ولبرد مائك والمياه حميم
ما في فلاتك ما حيث لثيم

قال الزّياشي أنشدني أعرابي:

سلم على قطن إن كنت تاركه
قلت ليك إذ دعاني لك الشوق
ثم كروا صدور عيس عتاق
ذاك مما لقين من دلج الليل
سلام من يهوى مرة قطنا
وللحاد يّين كرا المطيا
مضمرات طوين السير طيا
وقول الحداة بالليل هيا

فقلت: لا جرم والله لأشاطرنك ملكي فشاطرته.

قال أبو تمام:

وما سافرت في الآفاق إلا
مقيم الظن عندك والأمان
معاد البعث معروف ولكن
وأين تجور عن قصدي لساني
ومما كانت الحكماء قالت
ومِنْ جدواك راحلتي وزادي
وإن تلفت ركابي في البلاد
ندى كفيك في الدنيا معادي
وقلبي رائح برضاك غاد
لسان المرء من خدم الفؤاد

قال البحتري:

أملني فيكم وحقني عليكم
واضطرابي في الناس حتى إذا عدت
وزواحي إليكم وإبتكاري
إلى حاجة فأتتم قصاري

قال أبو تمام:

كلّ شعب كتّم به آل وهب
إنّ قلبي لكم لكالكبد
فهو شعبي وشعب كلّ أديب
الحرى وقلبي لغيركم كالقلوب

أبو عبد الله بن الأعرابي قال: أنشدتني امرأة من أهل اليمامة لنفسها وكانت مرضت بمصر شعراً:

تحاشد جاراتي فجئن عوائد
وجئن برّمان وتين وفرسك
قصار الخطى تجر البطون حواليا
وبقل بساتين ليشفين دائيا

شعر:

أحِبُّهُ والذي أرسى قواعده
فليتنا لا نريم الدهر ساحتَه
ما مِن غريبٍ وإن أبدى تجلّده
قال أعرابي:

لا والذي إن كذبتُ اليومَ عاقبني
ما قرّت العينُ بالأبدال بعدكم
ومن المستحسن في هذا المعنى قوله:

شيبُ أيامِ الفراقِ بمفارقي
وقد لان أيام اللّوى ثم لم يكد
يقولون: ما أبلاك والمالُ غانمٌ
فقلتُ لهم: لا تعذلوني وانظروا

يعني بالنّازع المقصور: بعير حنّ إلى وطنه فقيّد مخافة أن يهيم على وجهه وهذا في الإبل معروف لذلك قال القائل:

لا تصبر الإبل الجلاذ تفرّقت
قال:

هبت وما في الأفق منه قزعةُ
فأنشأتَه قطعاً تمت ما
وطأطأت بالأرض من أكتافه
حتى إذا كان بعيداً فدنا
وأسمع الأصمّ صوتَ رعدِهِ
وأبصر الأكمه ضوءَ برقِهِ
وصرّ حتى قيلَ هذا حاصِبٌ
ونحنُ مصنوعٌ لنا مديِرٌ
حلّت عزاليه بسرّ من رأى
إذا تلكا هتف الرّعد به
ليل التّمام والنّهار كله

وليس منه أحدٌ على أمل
زال وما زالت به حتى انّصل
وسدّت منه الفروج والخلل
وكان في السّير خفيفاً فنقل
ووقّر السّمع الصّحيح وأعل
وخطف الطّرف الحديدَ وأكل
من السّماء وعذابٌ قد أظلم
فيه ولكنّا خلقنا من عَجَل
فلم تزل تعلّها بعد التّهل
وأومضت فيه البروق فهطَل
مُصلاً منذ غدوة حتى الأصل

فما دنا حتّى اتقى الناس أذى
شرقت فيما ضرّ منه أهله
ولا نقعت غلةً بمائه
ولا أجلتُ الطّرف في رياضه
ولا تحملتُ له صنيعاً
إلاّ بتحميل السّلام سيله
إلى بلادٍ جُلّ إخواني بها

إفراطه وقالتِ الأرض بجل
وما شركتُ في السّرور والجذل
في معشر قد نقعوا به الغل
ولا أسمتُ السّرح في الوادي البقل
يشملني مرفقها فيمن شمل
إلى مدينة السّلام إن حمل
ومن أعزّ من صديقٍ وأجل

خرج عوف بن محلم مع عبد الله بن طاهر إلى متصيّد، فكان عبد الله يحدثه وسمعه
يثقل عن الاستماع فأنبرى يقول شعراً:

إنّ الثّمانين وبلّغتها
وأبدلتني بشطاط الخنا
وعوّضتني من زماع الّذي
فتهت بالأوطان وجداً بها
وصرتُ ما فيّ لمستمع
أدعوه به اللّهُ وأثني به
وقرباني بأبي أنما
وقيل ينعاني إلي نسوة
سقى قصور الشّاذياخ الحيا

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وكنّت كالصّعدة تحت السّنان
وهمه همّ الدثور الهدان
وبالفواني أين مني الفوان
إلاّ لساني وبحسبي لسان
على الأمير المصعبي الهجان
من وطني قبل اصفرار البنان
أوطانها حرّان فالزّفتان
من بعد عهدي وقصور الميان

البابُ الخمسون

في ذكر أنواع الظل وأسمائه ونعوته

ويقال: ظلّ وفيء وتبع فجمع ظل ظلال وظلول وجمع الفيء أفياء وفيوء .
تتبع أفياء الظلال عشيّة على طرقٍ كأثهنّ سبوت
وقال آخر:

فسلامُ الإله يغدو عليهم وفيوء الفردوس ذاتِ الظلال
وإنما قال: أفياء الظلال، فأضاف الفيء إلى الظلّ، لأنّه ليس كلّ ظلّ فيء وكلّ فيء
ظلّ وكان رؤية يقول: الظلّ ما نسخته الشّمس وهو أولّ، والفيء ما نسخته الشّمس وهو
آخر.

وقالوا: الظلّ بالغداة والعشي، والفيء بالعشي. وقال أبو حاتم: الظلّ يكون ليلاً
ونهاراً، ولا يكون الفيء إلّا بالنّهار، وهو ما نسخته الشّمس ففاء وكان من أولّ النّهار ولم
تنسخه. قال الشاعر:

فلا الظلّ من بردِ الضّحى نستطيعه ولا الفيء من بردِ العشيّ ندوقُ
وقال:

لعمري لأنّ البيتُ أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل
والتّبع: الظلّ بالغداة والعشي. قال الشّاعر:

نردّ المياه حاضرةً ونفيضه وردّ القطاة إذا استمال التّبعُ
وإذا كان الظلّ تاماً لم ينقص ولم تنسخه الشّمس قيل: ظلّ دوم ودائم. قال: شتان
هذا والعناق والنّوم والمشرب البارد والظلّ الدّوم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [سورة المُلْك، الآية: ٣٠] أي غائراً - وظلّ

رفق ومسترفق، وجلس في أرفق الظل وظلّ ممدود ومديد، وظلّ واصب - وظلّ ساكن.
وظلّ راتب راسب ومعتد وعتيد. وظلّ أمم وعمم، فإذا كان كشيئاً ثخيناً لم تنسخه الشمس
أو نسخته ووفرته. قيل ظلّ قوي - وكشيف - وثخين رصين - وسجس - ووارف - ووريف.
قال:

غدا تحت فينان من الظل وارف

وظل وارف ضاف - وظلّ سابغ - وظلّ وحف نعف - وظلّ - واعد - وصادق -
وموثوق - وظلّ - مظّل - وظليل وظلّ فينان - وذو فيون - وظلّ مغطال - ومغطيل.
وإذا كان ضعيفاً شفا قيل شف هف. وشفيف هفيف - وشفشف - وشفشاف -
وهففهف - وهففاهف - وشعشع - وشعشاع - وخداع - وخدوع وكاذب - وكذاب -
وكذوب - وظنون - وحتيفور - وملذان - وملاق - وخفاق.
فإذا أكلته الشمس - وتحيفته قيل أخذ الظل يتراجع - ويتراد - ويزحل وينحلّ ويضهل -
ويذبل - وينحف - ويهرد وينزل - ويأفل - وينشل - ويشل - ويلح - ويلق - ويدق - ويموت -
ويأزي - ويحسر - ويقصر - ويمصح - ويهرب - ويجنح - ويرزح - وينفق - ويحول - ويزول -
ويصيف - ويضيف - ويقلص - ويضحى - ويكري. قال ابن أحر:

وتواهقت أخفائها طبقاً والظل لم يفضل ولم يكشر

ويتأزف - ويتجارف - ويتأزى - ويتقاصر - ويسمئيل - ويضحمل - ويغيب - وظلّ
منقوص.

وإذا ضاق كلّ ضيق قيل: أخذ يضيق - ويقع - ويسقط - وينصب - وكرب يغيب -
ويرزأ - ويفيء - ويلى - ويموت - وقد عاد - ولاذ - وعادذ - ولاوذ، والأذ - واسترق -
وانحمق - وانغفق - وانسرب - وانبتر.

والظلّ: ضيق - وضيق - وزناء - وأحمق - ومحقق - وضهل - وواشل - ناشل -
وشعى - ولقي - وهزيل - ونحيف - وحرص - ودنف - وهالك - وساقط - ومتكرس -
ومتزرب - وخانس كانس - وأعجف - ومحيف مذيق - وصحصاح.

فإذا أسرع الزوال - وتعجل في الانفتال - قيل ظلّ مستوفز - ومستقلص - ومستطرد -
ومالح - وراغش - ووالق - ودالق.

فإذا أخذ يترجح قيل يترجح - ويميد - ويمور - ويتراد - ويتغيف - فإذا وقف قيل قد
وقف - وصام - وقام - ومكد - وركد - ومصد - وحار - وتحير - ودوم - وتلد - وتبلد -
وعقل - واعتقل - ونخس - وتصبر - وظلّ حيران ثابت لا يزول.

ويقال: وردته والظل عقال - وحذاء - وطباق - وطراق - قال الشاعر:

وكان طَرَّاق الخف أو قل زائدا

وشعار ودثار - ورداء - وخف - ونعل - وجورب.

قال: وانتعل الظل فصار جورباً. وساق - وظل مثارب من الأرومة ومتجعتن من الجعثننة ومُتَجَرَّثَم من الجرثومة.

فإذا حوّل قيل حول - وفاء - وراع - ونسخ - وانتقل - وبدل - واعتدب.

ويقال: يزل الظل محولاً ومحولاً وطارداً، ومطروداً - وناسخاً - ومنسوخاً وسارقاً - ومسروقاً - ولاحقاً - وملحقاً.

ويقال: له أول ما يظهر في فيئه نبت الظل - ونجم - ونسم - وعسم - وبدا - وتولد - وظهر - وأنتج - ونبع - ونبع - وانتعش - وانتقش - وأحنى - وطلع - ونسغ وجلس في نسيغ الظل ورسيغه. وموكده - ومنتجه - ومنبته - ومستنبته - ومستنبطه - ومستوشاه - ومستعلقه - ومستذاقه - ومستطعمه - ومسترفقه - ومستحلقه - ومستودقه - ومستمتعه - ومسترفده - وملتقطه - ومستفاه - ومشتفه - ونفاشه - وجناه.

فإذا انبسط شيئاً في فيئه قيل: حي - وربا - ونبت - وسعى - ومشى - وحبا - وثار - وسار - وجسم - وسمن - واستطال - وفضل - ونمى.

ويقال: ظلّ شاب - وجذع - وقيان - وشارخ - وغض. قال قد صبحت والظلّ غض ما زجل - وظلّ دوم ودائم - وروح - ورايح وثل - وهابل - وظلال ثمل - وثملة وثوامل - وجاءنا في ثميلة الظل - وثامله - ومشملة - وثملة - وثمده - وشجرة مثملة وقد استبرد في الظلّ - واستروح - واستدفاً - وظلّ مدفيء - ودفيء - على فعيل - وسخن - وساخن - وسخاخن - وظلّ بارد - وكريم - وأدفأت الشجرة بظلالها - ودفأت وأبردت - وأروحت - وأراحت - وأطابت - وأطيبت - وتفتيات الشجرة بظلالها - وأفاءت ظلالها - وقد فاء الظلّ بفيء فاء وفيؤاً.

ويقال: ظل مومن - ومشمّل - وموسر - وميامن ومياسر - وقد أيمنت - ويامنت وأيسرت - وياسرت - وأشملت - ووقع ذات اليمين - وذات الشمال - وإذا تحرّك خلال الشجر قيل رمح الظلّ - وركض وارتكض - وصرخ - ورقص - ورنق.

ويقال: ركض الماء في المجر أيضاً.

ويقال: ظل أبيض - وأشهب - وأسمر لپس بشديد السواد - والعس - وأدعج وأظمى -

والأمى - وأحمر - وأحوى قال في ظلّ أحوى الظّل رفاف الورق - ويحموم وأدهم - وأدلم شديد السّواد - وأتيته في دلّمة اللّيل وظلمته أي في شدّة سواده .

ويقال: ظلّ يقق - رقق - وازغاز - وناضب غائب - ومنسرق منحموق - ومخنق مدنق - وحاسر - وقاصر - وعادل مائل - وزائل حائل - وناحل ضاهل - وجانح - أو ماضح ومنتقل - أو معتقل - وماكد راكد - ومشفش - وناسم - أو جاسم - وساه واه وعائذ لايد - ومعاوذ - ملاوذ - ومعافر - أو منافر - ومضمحل - ومسمثل - واللق دالّق - وملس محلس - وهفهب - شفشف - وهف شف - وهفهاف شفشاف - وهفهب أو رفرف وساج داج - ومتجارف متأزف - وصاييم قاييم - وثخين رصين - وناحل - أو زاحل ووحف - نغف - وأمم - أو عمم - وزائل آفل - وناشل واشل - ومكر مجن - ومتبلّد ومتلّد - وناقف عافق وشارخ أو مالخ وخانس كانس وسقيط - أو لقيط - وراتب راسب - ومنزب منسرب .

قال أبو عمرو ما يجري مجرى التفسير وهو أكثر سماع من أبي العباس ثعلب .

يقال: سجنس الظّل فهو سجنس إذا دام وسكن . ومنه سجنس الماء علاه الطّحلب فواراه . وكذلك لا أفعله سجنس اللّيالي وهو باقيها ودائمها . وظل ساج: أي ساكن . وقد سجا سجواً . وظل داج ملبس . وقد دجا دجواً وهو من قولهم دجا الإسلام أي ظهر وانتشر . قال شعراً:

وما مثل عمرو غير أعتم فاجر أبي مذ دجا الإسلام لا يتجنّف

ويقال: دجت شعرة الشاة: ضفت وسبغت . ورفق الظّل ما تسترق به منه .

ويقال: ماء رفق قليل للغشاء قريب الرّشاء . وظل مائع طويل . قال:

ماتعة رآد الضّحى أفيائها وقد متع الظّل ومتع النّهار ومتع النّبات

قال ابن مقبل: وعاد لويه بعد المتوع، وظل وحف كشف - وشعر وحف وقد وحف وحوقة ووحافة . ولغف مثله . وقد ألغف قناعه، وأغدفه، وظل واعد يعد بسكون، ودوام وسحاب واعد يعد يمطر، وفرس واعد يعد بجري . قال:

حتى إذا أدرك الرّامي وقد عربث عنه الكلاب فأعطاه الذي يعدّ

يصف ثوراً دافع كلباً بقرنه .

وظلّ مظل - وظليل - وقد أظلّ يومنا - وظل مغطال ومغطئل - قال وأغطال شكيرها - وشف هف - من قولهم: شف الثّوب إذا أدى ما وراءه، وهف رقيق .

ويقال: سحاب هف رقيق - وشهدة هف لا غسل فيه - وثوب هفهب رقيق - وهفهاف

كذلك .

ويقال: ظلٌ مشعشع أي رقيق. وشعشع كذلك وهما غير الظليل. قال الهذلي: والظل بين مشعشع ومظلل. وشعشع الشراب: أرقه بالمزج.

ورجل شعشاع طويل دقيق إلى كل شعشاع وأبيض فادعم وخادع وظنون لا يوثق بدوامه.

ويقال: سنون خداعة لا زكوة فيها، وكل شيء لا دوام له ولا بقاء فهو خيتعور، والدنيا خيتعور، وحب المرأة خيتعور. قال شعراً:

كل أنسى وإن بدا لك منها آية الحب حُبها خيتعورُ

والغول خيتعور وشيء يظهر على وجه الأرض، فلا يثبت خيتعور والملذات الكذوب.

ويقال: زحل الظل أي سار. قال: والظل غص ما زحل. وضهل قل: يقال ماء ضهل وضاهل وظل ضهل. وهرب الظل: غاب. قال: من هارب الورد. وأفل غاب وأفلت الشمس تأفل أفولاً وأفلت السحاب صحت، وأفل لبن الناقة، قل، والأفيل والإفال صغار الإبل لأنها تغيب في جلتها وكبارها.

ويقال: نشل الظل قل ويدنا شلة نحيفة ضئيلة، ووشل اللبن ووشل حظ الرجل وولق يلق أسرع. قال: جاءت به عنس من الشام تلق.

وودق: دنا من السقوط، ويقال: ودقت الأتان وأودقت واستودقت فهي وديق ومودق ومستودقة إذا اشتهد الفحل فدنت منه، وودقت السرة تدلت إلى الأرض، والوديقة الهاجرة لأن الشمس تنزل إلى الأرض بحرّها.

ويقال: أزي الظل يأزي أزيماً وأزيماً إذا قصر وصار نعلًا، وتأزى القوم في حلتهم إذا تقاربوا، وفلان أزه مال يلازمه فلا يبرحه. وأسمال الظل لاذ بأصل الشجر وأسمال الثوب أخلق، وكل ضعيف مسمثل وكل قوي مضمثل.

ويقال: قلص الظل قلوصاً وضحي يضحي ضحوأً. ومصح مصوحأً، وجنح جنوحأً، ورزخ رزوخأً، ونضب الظل ونضب الماء ونضب البرق. وأنشد أبو زيد في عماء ناضب. وزنا الظل وهو زناء. قال شعراً:

وتدخل في الظل الزناء رؤوسها وتحسبها هيماً وهن مصائحُ

وعادنا الشجر وجلست في عوذ الظل، وانسرق الظل.

ويقال: قواه منسركة أي ضعيفة، وغزال منسرق، وانغفق: ضعف وكاد ينتقل.

ويقال: تغفّق بظلّ الشجرة. قال:

تغفّق بالأرطي لها وأرادها رجالاً فبذّت نبلهم وكليب

وانسرب: دخل في السرب وانزرب دخل في الزرب وكنس وجنس وظل لقا وظلال
القاء وملخ الظل أسرع ملخاً. قال: تمير في الباطل مرأً مالخاً. وداغش لاوذ وقد داغش
الورد. قال عطشان داغش ثم عاد يلوب.

وقال: (أما تراهنّ يداغشن السرى): ويروى يواغشن وعقل الظلّ.

قال شعبة الساق إذا الظلّ عقل، والظلّ بالغداة محول وبالعشيّ محول. قال شعراً:

إذا حوّل الظلّ العشي رأيته حنيفاً وفي قرن الصّحى يتنصّر

ويقال: جلس في نسيغ الظلّ ورسىغه. قال: وفي نسيغ الظلّ أو رسيغه. وظلّ رقق
ورقيق ونفق سريع الزّوال واز قصير وغاز وقد غزا وطنه فقصر.

ويقال: غزا الماء أوطانه: إذا لحق بقرارة من الأرض وحسر عنه المدد.

ويقال: ساه راه وظلال أرهاء. قال شعراً:

واستكّن العصفور كُرْهاً مع الضّب وأوفى في عوده الحرباء

فنفى الجندب الحصا بذرا عيه وأودث بأهلها الإرهاء

والمعافر لم يفسر، وقالت امرأة لابنتها: لا تأتيني إلاّ معافرة أو منافرة.

ويقال: شجر المي الظلّ قال:

إلى شجر المي الظلال كأئّه رواهب أحلى من الشّراب عذوب

يقال: أخذ الظلّ يموت وقد مات وماتت الرّيح، قال: إني لأرجو أن تموت الرّيح،
وأقعد اليوم وتستريح. وقوله مشقة من قولهم: اشف الشّراب: إذا أخذ يتجرعه وأشف
جوز الفرس الحزام إذا استوفاه، قال: ودفان يشفان كل ظفان بمنزلة الحرام.

البابُ الحادي والخمسون

في ذكر التاريخ وابتدائه والسبب الموجب له، وما كانت العرب عليه لدى الحاجة إليه في ضبط آماذ الحوادثِ والموايد وهو فصلان:

فصل

تاريخ كل شيء في اللغة غايته ووقته الذي انتهى إليه. ومنه قولهم: فلان تاريخ قومه في الجود: يريدون الذي انتهى إليه ذلك، وسئل بعض أهل اللغة ما معنى التاريخ؟ قال: معنى التأخير. وقال آخر: بل هو إثبات الشيء.

ويقال: ورخت الكتاب تورخاً هو لغة بني تميم وأرخته تأريخاً لغة قيس وتاريخ وتاريخان وتواريخ.

ويقال: أرخ كتابك ورّخه. قال أحمد: جميع ما ذكرنا فيه من اختلاف اللغات وما دارت عليه الكلمة في التصارييف يدل على أنها جارية مجرى ما أصله العربية دون ما نقل إليه من العجمية، ولكل نبوة ومملكة تاريخ، فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً وهو أصل، ومنه صار الكتاب يقولون: نجمت على فلان كذا حتى يؤديه في نجوم ويجمع النجوم أنجمه.

ويقال: نجم له رأي أي ظهر، واشتهر لفظة النجم بالثريا فأما قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم، الآية: ١] كان الكلبي يقول: والقرآن إذا نزل نجوماً أو شيئاً بعد شيء وقال غيره: النجم ها هنا الثريا أقسم الله تعالى به على المعنى الذي فسرناه كأنه قال: وخلقني الذي لا يقدر أحد أن يخلق مثله، وعلى أقسامه بالطور والتين وما أشبههما، وفسروا قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٥] على النجوم الطوالع لقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٧] وعلى نجوم القرآن أيضاً، وقيل في قوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٧] إنَّ النجم ما نجم من الثبات ولا ساق له ويقال لواحد: هذا النجم نجمة. قال الحارث بن ظالم شعراً:

أحصي حمار بات يكدم نجمةً أثوكل جيرانني وجارك سالم
صغر أمره وشبهه بحمار سوء، وكانت العرب تؤرخ بكل عام ينفق فيه أمرٌ جليلٌ
مشهورٌ متعارف كتاريخهم بعام الفيل، وفيه وُلد النبي ﷺ وكان ذلك في السنة الثامنة
والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان.

وروي لنا عن أبي العيناء في إسناد يرفعه إلى أبي جعفر محمد بن علي قال: وُلد
رسول الله ﷺ ليلة الاثنين لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول، وكان الفيل في التصف من
المحرم بينه وبين مولد رسول الله ﷺ خمسٌ وخمسون ليلةً. وبذلك الإسناد أن رسول الله ﷺ
مات أمه وله ست سنين.
وروي جبير بن مطعم أنه قيل لرسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: أنا
يومئذ ابن ثمان سنين.

وروي عن الزهري أن أبا رسول الله ﷺ توجه إلى الحجاز ممثراً فمات ورسول الله ﷺ
حمل.

وروي أن أمنة أم رسول الله ﷺ ماتت وتركت أم أيمن وهي أم أسامة بن زيد، فأرثها
رسول الله ﷺ وكان إذا رآها قال: بقية أُمي. فهكذا كان يجري أمر التاريخ، وكما أرخوا قبله
بعام الخنान^(١) لأنهم تماوتوا فيه، وعظم أمره عليهم. قال التابغة شعراً:

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي مِنْ الشَّبَانِ أَيَّامِ الْخَنَانِ
مَضَتْ مَائَةٌ لِعَامٍ وَلِدَتْ فِيهَا وَعَشْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَحِجَّتَانِ
فَقَدْ أَبَقْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ مِنِّي كَمَا أَبَقْتُ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي

وروي من غير وجه أنه كان بعد النبي ﷺ كان الأقرع بن حابس يحكم العرب في كل
موسم، وكانت العرب تتيمن وهو أول من حرّم القمار، فانقادوا له لذلك قال البعيث:

وعَمِّي الَّذِي انْقَادَتْ مَعَهُ لِحُكْمِهِ فَأَلْقَوْا بِأَرْسِلَانٍ إِلَى حُكْمِ عَدْلٍ
قوله: القوا بأرسلان: كما قيل: ألقيت إليك المقاليد، وما أقل من أرخ في شعره على
أنه يروى للمستوعز بن ربيعة وهو من المعمرين:

وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ سَنِينَا
مَائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مَائَتَانِ لِي وَأَرَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ مِثِينَا
هَلْ مَا بَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمٌ يَكْزُرُ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

(١) في القاموس الخنान كغراب داء يأخذ الطير في حلوقها وفي العين وزكام الإبل. وزمن الخنान كان في
عهد المنذر بن ماء السماء ماتت الإبل منه - شريف.

قال أكثم بن صيفي:

إن امرأ قد سار تسعينَ حِجَّةً إلى مائة لم يسأم العيش جاهلُ
أنت مائتان غير عشر وفاءها وذلك من مرِّ اللَّيالي قلائل
أنشد المازني:

هَزَّئْتُ زَيْنَبَ وَإِنْ رَأَتْ يَرْمِي وَإِنَّ الْخَنَى لَيَقَالَ مِنْ ظَهْرِي
مَنْ بَعْدَ مَا عَهَدْتَ فَأَدْلَفَنِي يَوْمٌ يَجِيءُ وَلَيْلَةٌ تَسْرِي
حَتَّى كَأَنِّي خَاتِلٌ قَنْصَاً وَالْمَرْءُ بَعْدَ تَمَامِهِ يَجْرِي
لَا تَهْزِي مَنِّي زَيْنَبُ فَمَا فِي ذَاكَ مِنْ عَجَبٍ وَلَا سِحْرِ
أَوَّلَمْ تَرِي لَقْمَانَ أَهْلَكَهُ مَا اقْتَاتَ مِنْ سَنَةٍ وَمِنْ شَهْرِ
وَبَقَاءِ نَسْرِ فَلَمَّا انْقَرَضَتْ أَيَّامُهُ عَادَتْ إِلَى نَسْرِ
مَا طَالَ مِنْ أَبَدٍ عَلَى لَبَدٍ رَجَعْتُ مَحُورَتِهِ إِلَى قَصْرِ
وَلَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَعَلِمْتُ مَا أَتَى مِنَ الْأَمْرِ

وَأَزَّخْتُ الْعَرَبُ بِمَوْتِ هِشَامِ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ لَجَلَالَتِهِ فِيهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مَقْشَعَرًا كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ

ومات زهير بن أبي سلمى قبل مبعث النبي ﷺ بسنة، ومات التابعه قبله فقال زهير لبنيه: رأيت رؤيا وليحدثنَّ أمرٌ عظيمٌ ولست أدركه رأيت كأنني أصدعتُ إلى السماء حتى إذا كدت أنا لها انقطع السبب، فهويتُ فمن أدركه منكم فليدخل فيه فأتى ابنه بحير^(١) النبي ﷺ وكان زهير يكنى بحير فأسلم وأبى كعب أن يسلم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فقدم وأسلم، ومدح النبي ﷺ بقصيدته اللامية واعتذر مما كان فيها.

وروى الزهري والشَّعْبِيُّ أَنَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ أَرْخَوْا مِنْ نَارِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى بَنَائِهِ الْبَيْتَ حِينَ بَنَاهُ مَعَ إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ أَرْخَوْا مِنْ بَنِيَانِ الْبَيْتِ إِلَى تَفْرُقَ مَعَدُ، ثُمَّ أَرْخَوْا بِشَيْءٍ إِلَى مَوْتِ كَعْبِ بْنِ لُؤْيٍ، ثُمَّ أَرْخَوْا بِعَامِ الْفِيلِ إِلَى أَنْ أَرْخَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا مُوسَى كَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِينَا مِنْ قَبْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَ لَيْسَ لَهَا تَارِيخٌ، فَلَا نَدْرِي عَلَى أَيِّهَا نَعْمَلُ.

(١) في تجريد أسد الغابة بحير بن زهير بن أبي سلمى أخو كعب أسلم قبل أخيه وكلاهما شاعران مجيدان وأبوهما من فحول الشعراء. ١٢ الحسن النعماني.

وروي أنه قرأ صكاً منحلّه شعبان، فقال الشعابن الماضي أم الآتي؟ فكان ذلك سبب التاريخ من الهجرة بعد أن أرادوا أن يؤرخوا من المبعث، ثم اتفق الرأي على الهجرة، وقالوا: ما نجعل أول التاريخ؟ فقال بعضهم: شهر رمضان وقال بعضهم: رجب، فإنه شهر حرام، والعرب تعظمه، ثم اجمعوا على المحرم فقالوا: شهر حرام وهو منصرف الناس عن الحج، وكان آخر الأشهر الحرم فصبروه أولاً لأنها عندهم ثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب فكان الأربعة تقع في ستين. فلما صار المحرم أولاً اجتمعت في سنة، والتاريخ لغة قيس، وعليه استعمال الناس والتواريخ لغة تميم وما استعمله كاتب قط، وإن كان التكلم به كثيراً في السنة العرب.

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمود اليقين - مبد الشكوك - به تثبت الحقوق - وتحفظ العهود.

قال أبو بكر الصولي: وكان لا يقع التاريخ في شيء من الكتب السلطانية من رئيس أو مرؤوس إلا في أعجاز الكتب، وقد يؤرخ النظر والتابع ما خص من الكتب في صدورهما.

وقال إبراهيم بن العباس: الكتاب بلا تاريخ نكرة بلا معرفة، وغفل بغير سمة.

قال أبو عبد الله: وكتب عمر بن الخطاب إلى الأمصار أن يبعث إليه من كل مصر برجله، فوفد عليه عتبة بن فرقد السلمي من الكوفة - ومجاشع بن مسعود السلمي من البصرة - وأبو الأعور السلمي من الشام - ومعن بن يزيد السلمي من مصر فتوافوا عنده كلهم من بني سليم.

قال أبو الحسن علي بن سليم: قال بعض الشعراء في صاحب توقي وكان يؤرخ علم القرون فما هو اليوم أرخاء.

وذكر الصولي أنه كاتب أبا خليفة الفضل بن الحباب القاضي في أمور أرادها، قال: فأغفلت التاريخ، فكتب بعد نفوذ الثاني: وصل كتابك مبهم الألوان مظلم البيان، فادى جراماً القرب فيه بأولى من البعد، فإذا كتبت أعزك الله فلتكن كتبك موسومة بتاريخ لأعرف به أدنى آثارك، وأقرب أخبارك إن شاء الله قال: فكتبت إليه كتاباً جعلت التاريخ في صدره وقلت معه: قد قبلنا دلائل البرهان - واعترفنا بالبر والإحسان - وجعلت التاريخ بعد دعاء لائحاً للعيون كالقنوان.

شعر:

حبذا أنت من مفيد علوم وافادات بحكمه وبيان
هي أسنى ذكراً وأكثر نفعاً من كنوز اللجين والعقيان

فكتابي إليك يا زينة الدنيا لخمس خلون من شعبان

قال أبو العباس: آخر من مات بالكوفة من الصحابة من الأنصار عبد الله بن أبي أوفى - وبالبصرة أنس بن مالك، وبالشام أبو أمامة الباهلي، وبالمدينة سهل بن سعد، وبمكة عبد الله بن عمر رضي الله عنهم، وممن ذكر سنة في شعره وأرخه زهير بن خباب الكلبي في قوله:

ونادمتُ الملوكة من آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء
وحق لمن آتت مائتان عاماً عليه أن يمل من الشواء

قال الصولي: وكنا يوماً عند المغيرة بن محمد المهلب، فقال له رجل: كم كان سن يزيد بن المهلب يومئذ؟ فجعل جوابه إنشاداً بمبلغه فقال: أنشدني التوجي لحمزة بن بيض الحنفي فيه يرثيه:

أغلق دون السّماح والتّجدة والمجد باب خروجِه أثب
يان ثلاثٍ وأربعين مضت لا صريح واهن ولا ثلب
لا بطر إن تابعت نعيم وصابر في البلاء محتسب
برزت سبق الجواد في مهل وقصرت دون سبقك العرب

فصل

في حكام العرب في الجاهلية

قال أبو عبد الله: حكام العرب في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم - وأبو طالب بن عبد المطلب - والعاصي بن وائل - والعلاء بن حارثة الثقفي. وحكام كنانة: يعمر بن الشداخ وصفوان بن أمية بن الحارث، وسلم بن نوفل أحد بني الدّيك بن بكر. ومن بني أسد: ربيعة بن حدار أحد بني سعد بن ثعلبة بن دودان وله يقول الأعشى:

وإذا طلبت المجد أين محلّه فاعمد لبيت ربيعة بن حدار
يهبُ النّحية والجواد بسرجه والأدم بين لواقح وعشار

وهو الذي حكم بين حاجب بن زرارة وخالد بن مالك بن ربيعي بن سلمى بن جندل فنفر حاجباً على خالد.

وحكام قيس: عامر بن الظرب وسانن بن أبي حارثة المرّي، وغيلان بن سلمة الثقفي، وكانت له ثلاثة أيام: يوم ينشد الناس بشعره، ويوم يحكم فيه بين الناس ويوم يقعد فيه

للناس فيزار وينظر إلى سرره وجماله. وجاء الإسلام وعنده عشر نسوة فخيرهن النبي ﷺ فاختار منهن أربعاً فصارت سنة. قال: وقتلت بنو أسد من الأشراف حجر بن عمرو بن الشريد السلمي، وربيعه بن مالك الجعفري أبا لييد الشاعر، وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي. وزعموا أنهم قتلوا شهاباً جَدَّ عتيبة، وبدر بن عمرو بن جوية بن لوزان بن عيسى الفزاري وهو جد عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر.

فصل

في أوقات التواريخ

في أوقات التاريخ إنما غلبت العرب الليالي على الأيام في التاريخ، ف قيل: كتبت لخمس بقين، وأنت في اليوم لأنَّ ليلة الشهر سبقت يومه، ولم يلدها وولدتها ولأنَّ الأهلَّة للليالي دون الأيام، وفيها دخول الشهر، ولذلك ما ذكرهما الله تعالى إلا وقدَّم الليالي على الأيام قال تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [سورة الحاقة، الآية: ٧] وقال تعالى: ﴿يُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ﴾ [سورة فاطر، الآية: ١٣] وقال تعالى: ﴿سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمَنِينَ﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٨] والعرب تستعمل الليل في الأشياء التي يشاركها فيها النهار دون النهار، وإن كانت لا تتم إلا به قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٤٢] وقال الفراء: ولقد دعاهم تغليب الليل على الأيام إلى أن قالوا: صمنا عشراً من الشهر. قال: وقال أنوشروان: اليوم عشر من الشهر ويقولون: عندي عشر من الإبل وإن كانت ذكوراً، وعشر من الشاء وإن كانت كباشاً، ويقولون: أدركننا الليل بموضع كذا لأنه أول ألا ترى قول النابغة:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمَتَايَ عَنْكَ وَاسِعُ
ولم يقل كالنَّهَارِ.

وحكى بعضهم أنَّ العرب تقول في اللَّحْم: ابن يومه، وفي الخبز ابن ليلة، وفي النبيذ ابن سنة وأنشد:

وفتيانِ صِدْقٍ لَا تَغِبْ لِحَامُهُمْ إِذَا شَبَّهَ النَّجْمُ الصَّوَارِ الْمُنْفَرَا

ومدح حميد الطوسي علي بن جبلة بمثل قول النابغة، فقرن إلى الليل النهار فقال:

وَمَا لَامَرِيءَ حَاوَلْتُهُ مِنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ الطَّوَالِغُ
بَلْ هَارَبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظِلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

وقال عبيد الله بن عبد الله في معنى قول النابغة:

إني وإن حدثت نفسي أنني أفوتك إن الرأي مني لعاذب
لأنك لي مثل المكان المحيط بي من الأرض أتى استنهضني المذاهب

فجعل مكان الليل من قول النابغة، لأنك لي مثل المكان إذ كان لا بد للمخلوق من مكان وزمان، وقالوا: صمنا عشراً من رمضان، وأنشد أبو عبيدة:

فصامت ثلاثاً لا مخافة بينها ولو مكثت خمساً هناك لصلت

والشهور كلها مذكرة سوى جماديين، ولا يُذكرون من شهر كذا إلا في ثلاثة أشهر: شهر رمضان وشهر ربيع، لأنَّ الربيع وقت من السنة فخافوا إذا قالوا من ربيع أن يظن أنه من الربيع الذي قبل الخريف، وقال الزاعي:

شهري ربيع لا يذوق لبونهم إلا حموضاً وخمة ودويلا

الدويل كسار الحلى ينبت مجتمعاً، وكل ما يكسر من النبات وأسود فهو دويل ولو كتب كاتب في ربيع الأول وفي رمضان، ولم يذكر الشهر لجاز وليس بالمختار كما قال:

جارتُهُ في رَمَضانَ الماضي تقطعُ الحديثَ بالإيماضِ

واعلم أنه لا يكتب لليلة مضت لأنهم يعدون في الليلة، فإذا أصبحوا كتبوا لليلة خلت، ويكتب أول يوم من كذا، ولا يكتب مهلاً كذا، ولا مستهلاً كذا لأنَّ الهلال إنما يرى بالليل. وأنشد الأصمعي والشعر لنابغة بني جعدة، وعاش ثمانين ومائة سنة:

قالت أمانة كم عمرت زمانه وريحت من عز على الأوثان
ولقد شهدت عكاظ قبل محلها فيها وكنت أعد في الفتیان
والمنذر بن محرق في ملكه وشهدت يوم هجا بن التعمان
وعمرت حتى جاء أحمد بالتقى وقوارع يتلى من الفرقان
فلبست بالإسلام ثوباً واسعاً من سيب لا حرٍ ولا مئان

وقال حين أتت عليه مائة واثنا عشرة سنة:

مضت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان
وأبقى الدهر والأيام مني كما أبقى من السيف اليماني
يصم وهو مأثور جرار إذا اجتمعت بقائمة اليدان

قال أبو عبد الله فتاك الجاهلية: الحارث بن ظالم المرّي - والبراض بن قيس الضمري - وتأبط شراً واسمه جابر بن سفيان الفهمي - وحظلة بن فاتك أحد بني عمرو بن أسد. وفتاك

الإسلام: مالك بن ريب المازني - وعبيد الله بن الحر الجعفي - وعبد الله بن سبرة الجرشي -
وعبد الله بن خازم السلمي - والقتال الكلابي - ومرار بن يسار الفقعسي - وعنتية بن هبيرة
الأسدي - ومن باب التاريخ قول الشاعر:

ها أنا ذا أملّ الخلودَ وقد أدركَ عمري ومولدي حجرا
أيا امرأ القيس هل سمعت به هيهاتَ هيهاتَ طال ذا عمرا

وما يجري مجرى التاريخ بما يتضمّن من التشبيه ما أنشده ابن الأعرابي وأظن بعضه قد
مضى، وإن كان يسيراً، وأنشد أبو هفان وزعم أنّه من أحسن أشعارهم شعراً:

منعمة لم تلق بُوساً ولم تُسُقْ بعيراً ولم تضمم وليداً إلى نحرٍ
ولم تدري أي الناس أعداء قومها وتمضي الليالي والشهور ولا تدري
سوى أن تصوم الشهر فيمن يصومه وتسأل عن يوم العروبة والفطر
فلو كنت ماء كنت صوب غمامة ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة
كلفتُ بها عمري فلمّا تقطعتُ وسائلنا ودعّتُ ما فات من عمري
وأنشد نفطويه عن أبي العباس ثعلب:

فلو كنت ليلاً كنت ليلة صيفٍ من المشرقات البيض في وسط الشهر
ولو كنت ظلاً كنت ظل غمامة ولو كنت يوماً كنت يوم سعادة
ولو كنت يوماً كنت يوم سعادة ترى شمسه والمزن يهضب بالقطر

وفي هذه الطريقة ما أنشد به أحمد بن لجأ ويروى للعين المنقري:

فقيّم يا شرّ تميم محتداً لو كتّم ماءً لكتّم زيدا
أو كتّم ليلاً لكتّم صرداً أو كتّم شاءً لكتّم نقداً
أو كتّم صوفاً لكتّم فرداً أو كتّم عيشاً لكتّم جحداً

وأنشد:

لو كنت لحماً كنت لحم كلبٍ أو كنت ناراً لم تحل في عطبٍ
أو كنت ماءً لم تسع لشربٍ أو كنت سيفاً لم تكن بعضبٍ

وروى أبو عمر عنه أيضاً قال: أنشدني أبو عبد الله:

لو كنت من مال امرئ ذي نيقة لكنك خير ناقة مسوقة

من ناقة خَوَارة رقيقة ترميهم بيكرات رُوقه

وحكى ابنُ الأعرابي قال: غزا خالد بن قيس بن المضَلَّل فيمن تبعه من بني أسد فغنم وسبا فمَرَّت به جارية أعجبه فقال لها: كيفَ كان أبوك يطبخ اللَّبَاء؟ قالت: كان يهنيه ويمنيه حتى يستقر، ورضفه فيه، فأعرضَ عنها ثم دعا بأخرى فسألها عن مثل ذلك، فقالت: كان يهذره ويمذره، ويطعن الفارس فينثره، فأثخذها لنفسه، فجاءت بعاصم بن خالد، وكان يقال له: البر من بَرّه بأبيه وله يقول أبوه شعراً:

أرى كلَّ أمرٍ إلى عاصم فما أنا لو كانَ لم يُولَدِ
فلو كنتُ شيئاً من الأشربا تِ لكنْتُ من الأسوغ الأبرد

قول الأولى: يهنيه ويمنيه: أي يحسن علاجه وهذا مما يوصف بها الرّعاة.

وقول الثّانية: (يهذره ويمذره): أي يفسده فإذا طعن الفارس أشرقه بدمه فأنثره، ويشبه هذا عندي قول الآخر:

إنَّ عليها فارساً كعشرة إذا رأى فارسَ قومٍ أنثره
أورَدَهُ منكفياً أو أشعره

معنى أشعره: رماه بسهم جعله شعاراً له، وهذا شبيه بقول الجعدي:

فَتَنا بطيرٍ مُزهِفٍ جفرة المخرم مِنْهُ فسعل يريدُ

لما جافهُ بالطعنة أشرقه بدمه فسعل به، وأنشِدت عن نفطويه، قال: أنشدني ثعلب عن ابن الأعرابي:

لو كنت ليلاً من ليالي الشَّهرِ كنت من البيضِ تمامَ البَذْرِ
بيضاء لا يشقى به مَنْ يَسري أو كنت ماءً كنت غيرَ كَدْرِ
ماء سماء في صَفاتي صخر أظْلَهُ اللَّهُ بعِص الصَّدْرِ
فهو شفاءٌ من غليل الصَّدْرِ

وأنشدت عنه أيضاً قول الآخر:

فلو كنت يوماً كنت يومَ تَواصُلِ ولو كنت ليلاً كنت لي ليلةَ القَدْرِ
ولو كنت عيشاً كنت نعمةَ جنّة ولو كنت نوماً كنت تعريسةَ الفجرِ

وأنشده من غير هذا الوجه:

لو كنت من شيءٍ سوى بشرٍ كنت المنوّر ليلةَ البَدْرِ

وأشدد أبو العباس المبرّد في الذّم والإزراء:

لو كنت ماءً لم تكن بعذبٍ أو كنتَ عامماً كنتَ عام خصبٍ
أو كنت سيفاً لم يكن بعصبٍ أو كنتَ غيراً لم يكن بنذبٍ
أو كنت لحمًا كنتَ لحم كلبٍ

وأشدد ابن الأعرابي:

لو كنت ماءً كنت لا عذب المذاق ولا مسوساً
ملحاً بعيد القعر قد فلّت حجارته الفؤوساً

قال المسوس: كلّ ما شفى الغليل، لآته من الغلة وأصابها وأشدد:

يا جذا ريقك المسوس وأنت خودبادن شمس

ويقال: ماء قعاع، وزعاق وحراق وليس بعد الحراق في الملوحة شيء لأنه إذا شرب
الإبل أحرقت أكبادها.

وروى لنا أبو الحسن البديهي قال: سمعتُ أبا عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة
الأزدي يقول: سأل بعض أهل العلم أصحابه فقال: أتعرفون رجلاً من الصحابة يُروى عنه
الحديث، ويقال له أسد بن عبد مناف بن شيبه بن عمرو بن المغيرة بن زيد؟ قالوا: لا. قال:
علي بن أبي طالب: سمّته الله فاطمة أسداً وهي بنت أسد باسم أبيها، وعبد مناف اسم أبي
طالب، وشيبه اسم عبد المطلب وعمرو اسم هاشم، والمغيرة اسم عبد مناف، وزيد اسم
قصي.

وأخبر أنّ النبي ﷺ تولّى دفن فاطمة بنت أسد وكان أشعرها قميصاً له، فسمع وهو
يقول: ابنك، فسئل ﷺ فقال: إنّها سُئلت عن ربّها فأجابت، وعن نبيّها فأجابت، وعن
إمامها فلجلجت، فقلت: ابنك ابنك^(١).

البابُ الثاني والخمسون

فيما هو متعالَم عند العرب، ومن داناهم، وأدركوها بالتفقد وطول الدربة، ولم يدخل في أسجاعهم.

قال أبو حنيفة: يقولون إذا طلع فرغ الدلو المؤخر، وذلك أول الربيع اختال العشب، وأدرك الباقلي والفاكهة المنكرة بالعراق، وظهرت الهوام.

وإذا طلع بطن الحوت حصد أول الشعير بالعراق، وزعموا أنَّ النوء الذي فيه هو نوء السماك قلَّ ما يخلف.

وإذا طلع الشرطان أكل فريك الحنطة.

وإذا طلع البطين: فرغ من حصاد الشعير، وابتدىء بحصاد الحنطة والقطابي وهي الجنوب، وكثرت الفاكهة بالعراق والشام، وقيل: إنَّه قلَّ ما يعدمه سحاب.

وإذا طلعت الثريا عم الحنطة الحصاد، وأدرك التفاح، ومدَّ في آخره النيل.

وإذا طلع الدبران: هبت السَّمائم وأسود العنب.

وإذا طلعت الجوزاء فيها الهقعة أدرك البطيخ والفاكهة.

وإذا طلعت الهنعة: أدرك البسر والتين، وفيه تنقص المياه.

وإذا طلعت الدَّراع وفيها الشعري: أدرك الرمان، وحصد القصب النَّبطي.

وإذا طلعت العذرة وفيها الثَّرة: قُطف العنب بالعراق، وأكل الرطب وبلح النخل بالحجاز. وأدرك جميع الفاكهة بالعراق والشام.

وإذا طلع الطرف كثر الثمر في ذلك الوقت، واللبن الذي يستقضونه من الضروع، لفصال الأولاد عن الأمهات، ويطوف أهل مصر. ونوؤه ست ليالٍ وينسب في الشعر إلى الأسد.

وإذا طلعت الجبهة: كثر الرطب وسقطَ الطل.

وإذا طلعت الزبرة وطلع معها سهيلٌ بالعراق: برد الليل والماء وولّى القيظ.

وإذا طلعت الصرفة بردَ الليلُ واختلفت الرياح وتحرك أول الشمال وقطعت العروق، وشربت الأودية، وجدَّ النخل بالحجاز، وبكل غور ويشتار العسل.

وإذا طلعت العواء وطلع معها السماك الزامح: أخذ الناس في صرام النخل وقطف الزمان والسفرجل، وفيه، ينتهي غور المياه وتهيج الصبا.

وإذا طلع الغفر: زرع أول زرع الحنطة وزرع الرطاب وحصد القصب الفارسي وجد النخل وفي الثؤء الذي فيه وهو نوء الشرطين أول مطر يتتفع به.

وإذا طلعت الزباني دخل الناس البيوت، ويسقط الزبل: وهو الورق الذي نبت في دبر القيظ ببرد الليل.

فإذا طلع الإكليل لم يكد يخطيء الثؤء الذي فيه وهو نوء الثريا السحاب والغيوم، وقطعت الحداء والخطاطيف والرّخم إلى الغور.

وإذا طلع قلب العقرب: هبّت رياح الشتاء الباردة.

وإذا طلعت الشولة سقط الورق كلّه وكثر الرّذاذ والمطر.

وإذا طلعت التمايم وطلوعها لاثنين وعشرين ليلةً من كانون الأول وسقوطها لاثنين وعشرين يخلو من حزيران، يتشعب الرّعاء ويتلاقى التمايم لأنهم حيثئذ يفرغون، ولا يشغلهم رعي فيلاقون ويدس بعضهم إلى بعض الأخبار.

وإذا طلعت البلدة نقى البساتين وكرب الكروم.

وإذا طلع سعد الذابح لم يكد يخطيء الثؤء الذي فيه وهو نوء الثرة مطر وإن أخلفَ فريح.

وإذا طلع سعد بلغ نقت الصّفادع، وباضت الهداهد، وتزاوجت العصافير وهبت الجنوب، وأعشبت الأرض.

وإذا طلع سعد السعود وتحرك أول العشب، وأورق الشجر وزقا المكاء وجاءت الخطاطيف، وقلما يخطيء الثؤء الذي فيه، وهو نوء الجبهة المطر الجود.

وإذا طلع سعد الأخبية لم يكد يخطيء الثؤء الذي فيه، وهو نوء الزبرة مطراً شديداً وقلما أخلفَ المطر وفيه يُورق الكرّم.

وإذا طلع فرغ الدلو المقدم: يسلم الناس من الحاسة في الثؤء الذي فيه وهو نوء

فيما هو متعالِم عند العرب، ومن داناهم

الصَّرفة فقد أمنت بإذن الله من الحواس إلى آخر السنة، وفيه يقول القائل: إذا دخلَ آذار أخياء وآبار، لما يتخوَّف النَّاس من الآفات في هذا النوء وفيه يعقد اللُّوز والتفاح، وهذا الذي ذكره أبو حنيفة خرَّجه غيره على الشُّهور الرُّومية، فقال زائداً عليه:

تشرين الأوَّل

سلطان المَرَّة السَّوداء وهو ثلاثون يوماً آيته واحد، وهو بالفارسية شهريرماه وآيته أربعة، وهو أوسط الخريف وله من البروج الميزان وهو هوائي مؤتث نهاري شمالي. ربَّه بالنَّهار زحل وباللَّيل عطارد، والشَّريك المشتري وهو بيتُ الزَّهرة، وشرف زحل هبوط الشَّمس فيه. والإقليم الروم إلى إفريقية مصر، وله من المنازل الغفر والزَّبانى وثلاث الإكليل، وفي أوله يبتدىء أهل الحجاز بالزَّراعة وفي عشر منه تزرع الحنطة والشَّعير والزَّطاب ويقوم سوق القادسان بسوق الأسواق أسبوعاً. وفي خمس عشرة منه يبرد الزَّمان وتكثر الزَّيَّاح بإذن الله، وفي إحدى وعشرين يطلع الغفر ويسقط، وفيها يغلظ الشَّجر ويكون أول مطر، فإنَّ أخطأ فريخٌ شديدة، وتريح نيل مصر، ويقوم سوق حلب، وفي خمس وعشرين منه يطلع الزَّبانى ويسقط البطين، وفيها يدخل النَّاس البيوت واستقبل الوسميَّ ويقوم سوق ماسرجسان.

تشرين الآخر

سلطان المَرَّة السَّوداء: ثلاثون يوماً آيته أربعة، وهو بالفارسية مهرماه آيته ستة، وهو آخر شهور الخريف. وله من البروج العقرب، وهو من بروج الماء وهو بيت بهرام، وبهرام هو المَرِّخ، ومنزله فوق قلب العقرب وهبوط القمر فيه. ربَّه باللَّيل الزَّهرة وبالنَّهار المَرِّخ، والشَّريك القمر، والإقليم مكة. وله من المنازل ثلاث الإكليل والقلب وثلاث الشُّولة، في أول يوم تهبَّ الجنوب وفي الثاني يطلع الزَّبانان ويسقط البطين وتقوم سوق عند كنيسة الرِّقة ويبرد الماء ويبتدىء أهل الشَّام بالزَّراعة، ويذهب زمان المنّ والسلوى، ويلقط الزيتون ويدخل النمل ذوات الأجنحة بالشَّام وبكل أرض باردة جوف الأرض ويخرج الحداء والرَّخم من كل أرض باردة، وعند ذلك يعرف الشَّتاء من الصَّيف، وفي خمس عشرة منه يطلع الإكليل ويسقط الثريا وهو آخر الخريف ويكون المهرجان عيد المجوس، وفيها يبتدىء البرد ويرتج البحر ويجيء شيء من المطر، فإن لم يجيء هاجت الرياح، وتهلك كل دابة ليس لها عظم، مثل الدود والدَّباء والجراد واليعاسيب، ويسقط ورق الشَّجر، وما قطع فيه من الخشب لم يقع فيه أرضة، ويقع الجليد فوق الأرض وتتحرك فحولة الغنم. وفي أربعة وعشرين منه يكون النَّهار عشر ساعات، واللَّيل أربع عشرة ساعة، ولخمس وعشرين منه تعلق البحر فلا يركبه أحد. ولثمان وعشرين منه يطلع القلب، ويسقط الدَّبران ويطلع النَّسر

الواقع ويشتدّ القر، ويختار الناس ما يقل من الثياب ويشتد موج البحر ويقل صيده ويعصر الزيت ويلقط الجوز.

كانون الأول

سلطان البلغم، آيته واحد، وهو أول شهور الشتاء وله من البروج القوس وهو من بروج النار ذو جسدَيْن، وهو بيت المشتري. ربّه بالنّهار الشّمس وبالليل المشتري والشّريك زحل. الإقليم بابل وله من النّجوم ثلاثة، الشّولة والنّعيم والبلدة. وفي أول يوم منه يقوم سوق دمشق، وإحدى عشرة منه يطلع الشّولة وهي ذنب العقرب، تسقط الهقعة ويجيء مطر، وتهيج رياح ويخرج النّمل ذوات الأجنحة فتجيء القواري من الطّيَر فتصطادها وتولد الضّأن. ولائتي عشرة منه يرى أول الطّلع، وخمسين وعشرين منه تطلع النّعيم وتسقط الهنعة وهو حمية الشّتاء، وفيه ميلاد المسيح عليه السلام وهي أطول ليلة في السّنة وأقصر يوم يكون يومه تسع ساعات، وليله خمس عشرة ساعة. وهو عيد النصارى، يكون الميلاد الدّهر كلّ في خمسين وعشرين من كانون الأول وتطلع البلدة، ويسقط الدّراع، وذلك أشد ما يكون من القر وقت السّحاب والمطر ويطلع النّسر الطائر.

كانون الآخر

سلطان البلغم واحد وثلاثون يوماً، آيته اثنان، وهو بالفارسية آذرماه آيته ثلاثة، أوسط شهور الشّتاء، له من البروج الجدي، وهو برج منقلب من بروج الأرض وهو بيت زحل وشرف المريخ وهبوط المشتري. ربّه بالنّهار الزّهرة وبالليل المريخ، والشّريك القمر. وللجدي من النّجوم سعد الذّابح وسعد بلع وثلث سعد السعود. وفي اليوم الثّاني منه عيد النصارى يقال له القليدس، وتهبّ فيه ريح عاصفة، وَلِسْتُ خَلَوْنَ منه تطلع البلدة ويسقط الدّراع وهو ميلاد عيسى عليه السلام، الأخير يقال له الرّيح وهو حد الشّتاء يكون الرّيح الدّهر كلّ في سبع من كانون الآخر. وفيه تقفأ عيون الحيات وتموت الذّبان ويغمس النصارى أولادهم في الماء، يزعمون أنّ في تلك اللّيلة تعذب المياه المالحة ويطلع النّسر الطائر. وفيه يبدأ بكراب الكرم، وفي أربع عشرة تكون الثّلوج والأمطار ويكون آخر القر. وفي تسع عشرة منه يطلع سعد الذّابح وتسقط الثّرة ويشتدّ البرد، وهو حد الشّتاء، وفيه البرد وفيه يبتدىء أهل الرّوم بالكرباب وغرس الأشجار، وذلك وقت دوام المطر، ويجري الماء في فروع الشّجر، وفيه تقطع الزّرة بتهامة ويزرع القطني والبطيخ، وهو وقت رذاذ وطل ويكون معه الضّباب، وفي أربع وعشرين منه يطلع سعد بلع ويسقط الطّرف. والليل أربع عشرة ساعة، والنّهار عشر ساعات.

سُبَاط

سلطان البلغم ثمانية وعشرون يوماً، آيته خمسة، وهو بالفارسية ديماء آيته خمسة، وهو آخر شهور الشتاء وله من البروج الدلو وهو برج الرياح ثابت مذكر مغربي وهو بيت زحل، ربّه بالنّهار وبالليل عطارد، والشّريك المشتري والإقليم الشّام، وله من المنازل ثلثا سعد السّعود وسعد الأخبية وثلثا مقدّم الدّلو. وفي اليوم الأوّل منه يطلع سعد بلع ويسقط الطرف وينكسر البرد، ويرى الحداء والرّخم. وفيه ينسك النّصارى، وهو وقت كثرة الأمطار. وفيه يورق الشّجر، ويخرج النّمل وينبت العشب وتكثر الدّباب، ولسبع منه تهبّ الرياح اللّواقح وتغرس الكروم. واليوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر صوم قوم يونس عليه السلام حين صرف الله تعالى عنهم العذاب. وفي أربع عشرة منه يطلع سعد السّعود وتسقط الجبهة، وفيه يسخن جوف الأرض وتؤكل الكمأة والفطر والهليون وتسقط الجمرّة الأولى، ويخرج النمل ذوات الأجنحة والدّر ويجري الماء في العود، وتسقي الدروع ويخرج بقول الفرس، والورد والياسمين وتنشر دواب الأرض، وتزرع بقول الصّيف، وتسبع عشرة منه أول يوم من أيام العجوز، وفي أربع وعشرين منه يكون النّهار إحدى عشرة ساعة واللّيل ثلاث عشرة، ولسبع وعشرين منه يطلع سعد الأخبية ويسقط الخرّاتان، وتقع الجمرّة الوسطى، ولا يغرس فيه إلى أربع من آذار لا غرس ولا كرم، فإنّه يفسده السّوس وفيه: تتزاج الطّيور ويتوالد الوحش.

آذار

سلطان البلغم أحدٌ وثلاثون يوماً، آيته خمسة، وهو بالفارسية بهمن ماه آيته سبعة، وهو أوّل شهور الصّيف، وله من البروج الحوت، وهو ذو جسدَيْن مؤنث من بروج الماء، فيه هبوط عطارد وشرف الزّهرة، وهو بيت المشتري، ربّه بالنّهار زحل، وبالليل عطارد، والشّريك المشتري، والإقليم الصّين وله من النّجوم ثلاثة: الفرغ المقدّم والفرغ المؤخّر ويطن الحوت. وفي أول يوم منه يطلع الدّلو وتسقط الصّرفة وهي الحمرة الأخيرة، ويلقى حرّ السماء وحر الأرض وتخرج كلّ دابة ليس فيها عظم، وفي اليوم الثّاني يزرع قصب السكر بالأهواز، والبطيخ ويلقى النخل. وفي اليوم الخامس يطلع الغفر، وهو وقت ذهاب الحواس وأول الصّيف وتختلف الرياح، وتجري السّفن في البحر، وتفتح عيون الحيات. وذاك أنّها تغمضها في الشّتاء، وفيها ترى معالم الصّيف ويستبل الزّرع. وفي أربع وعشرين منه يطلع مؤخّر الدّلو، ويسقط العواء ويستوي اللّيل والنّهار. وفي سبع وعشرين منه يسخب جنان، وتخرج الهوام ويكثر موج البحر ويؤذر الأرّز بالأهواز.

نيسان

سلطان الدّم ثلاثون يوماً، آيته واحد، وهو بالفارسية اسفندارمزماء، آيته اثنان، وله من البروج الحمل، وهو بيت المريخ، برج منقلب مذكر من بروج النار، وللحمل من النجوم الشرطان والبطين وثلث الثريا، وهو شرف الشمس وهبوط زحل. ربه بالليل المشتري والنهار الشمس، ويشاركه بالليل والنهار زحل، والإقليم بابل، في أول يوم منه قام يوحنا وهو غداة يوم الأحد بعد ثلاثة من نزول المريخ. ولست منه تأفل الثريا، فلا ترى أربعين ليلة. ولسبع منه يطلع الحوت، ويسقط السماء، وقلما يخطئ المطر فيه بإذن الله تعالى، ويبدأ بحصاد الشعير، وتفيض العيون والأنهار، وتقوم سوق الدبر بأرض سوارت من سوق الأهواز ستة أيام، ولعشر منه توفي آدم عليه السلام، وفي ثلاث عشرة منه يطلع الشرطان ويسقط الغفر، ويظهر ما استخفى من الهوام، وهو فيهما ظل وغيوم ويمد الفرات المد الأعظم، وتهب الرياح الشريفة كالصبا، وفيها يفرخ الطير. وفي ست بقين منه يطلع البطين، ويسقط الزبانيان، ويقوم سوق كرو بفلسطين سبع ليالٍ، ويكون النهار فيه ثلاث عشرة ساعة، والليل إحدى عشرة ساعة.

أيار

سلطان الدّم واحد وثلاثون يوماً، آيته ثلاثة، وهو بالفارسية فروردين ماه آيته واحدة، وهو من شهور الصيف وهو التبروز رأس سنة القمر، وهو عيد المجوس الأكبر ثمانية أيام، له من البروج الثور وهو برج أنثى من بروج الأرض وهو بيت الزهرة وشرف القمر، ربه بالنهار الزهرة وبالليل القمر، ويشاركه بالليل والنهار المريخ، والإقليم الترك والخزرج. وله من النجوم ثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة. وفي ثلث منه يطلع البطين ويسقط الزبانيان. وفي اليوم السابع تطلع الغميصاء، ويكون فيه ريح ومطر، وفي اليوم الرابع عشر يجري الماء في منتهى العيون، وفي ستة عشر منه تطلع الثريا ويسقط الإكليل وهو أول يوم من الصيف وآخر الربيع، وبطلوعها يطيب ركوب البحر، ويبدأ أول السمائم ويفرك القمح ويبرد نيل مصر، وتغور المياه، ويخرج الجراد وتهيج الصبا. وفي أربع وعشرين منه يكون النهار أربع عشرة ساعة، والليل عشر ساعات، ينقص ساعة لتمام ثلاثين يوماً. وتزرع الدرة والدخن بأرض تهامة واليمن وأرض التوبة. وفي سبع وعشرين منه يرتفع الطاعون بإذن الله تعالى من كل أرض، ولتسع وعشرين منه يطلع الدبران ويسقط القلب وتهيج فيها البوارح والسمائم، ويسود أول العنب وتستبين زيادة نيل مصر وتهب الشمال.

حزيران

سلطان المرأة الصفراء ثلاثون يوماً، آيته ستة، وهو بالفارسية ارد بهشت ماه، آيته ثلاثة وهو أول شهور القيظ، وله من البروج الجوزاء، وهو ذو جسدین وهو التوأمين من بروج الرياح، برج مذکر مغربي شرف رأس التین، ربّه بالنّهار زحل وبالليل عطارد. ويشاركه بالليل والنّهار المشتري. الإقليم بربر وإفريقية، وله من النّجوم ثلاثة: الهقعة - والهنة - والذراع - وفي إحدى عشرة منه تطلع الهقعة وتسقط الشّولة، وفي أربع وعشرين منه تطلع الهنة ويسقط النّعائم، ويرجع الشّهر، ويهبط من صعودها الأعلى، وهو أطول يوم في السّنة، وهو اليوم الذي ولد فيه يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما زعموا ويزعم أهل العلم أنّ داود النّبي عليه السلام فيه افتتن، وفي ثلاثين منه يطلع الذراع ويسقط البلدة، وفيه تسكن الرياح ويشتدّ الحر.

تموز

سلطان المرأة الصفراء واحد وثلاثون يوماً، آيته واحدة، وهو بالفارسية خرداد، آيته خمسة، وهو أوسط القيظ، وله من البروج السرطان برج منقلب أنثى من بروج الماء، وهو شرف المشتري وهبوط المريخ، ربّه بالنّهار المريخ وبالليل الزّهرة، ويشاركه بالليل والنّهار القمر. والإقليم الشام والجزيرة والروم، وله من النّجوم الثّرة - والطرف - وثلاث الجبهة - ويشتدّ الحر فيه، ولسبع منه يطلع الذراع وتسقط البلدة. ويقوم سوق سليمة جمعيتين، ويرتفع الطّاعون بإذن الله تعالى، وفيه يحرق ما يصلح في تلك السّنة من الزّرع، وما يفسد منه، ويؤخذ لوح قبل أن تطلع الشّعرى بتسع ليالٍ، فيزرع عليه من كل صنف حتى إذا كان ليلة تطلع الشّعرى وضع ذلك فوق بيت على مكان مرتفع لا يحول بينه وبين السّماء شيء فما أصبح منه مخضراً فإنه يصلح بإذن الله تعالى، وتطلع الشّعرى الغامضة في خمس منه. وفي عشرين منه تطلع الثّرة ويسقط سعد الدّابح، وفيه مولد السّنة أبداً، فاحفظ منه أعلام الشّتاء، ويزرع البطيخ الشّوي في أرض اليمن.

آب

سلطان المرأة الصفراء واحد وثلاثون يوماً، آيته أربعة، وهو بالفارسية تيرماه، آيته سبعة، وهو آخر شهور القيظ. وله من البروج الأسد، وهو برج ثابت مذکر مشرقي من بروج الملوك توافقاً، وهو بيت الشّمس، ربّه بالنّهار الشّمس وبالليل المشتري، ويشاركه بالليل والنّهار زحل، الإقليم بابل. وللأسد من النّجوم ثلثا الجبهة - والخراتان - وثلثا الصّرفة - في

يومين منه يطلع الطرف ويسقط سعد بلع ويقوم سوق بيت جبرين^(١) ويطلع سهيل ولا يرى بالعراق. وفي خمس عشرة منه تطلع الجبهة، ويسقط سعد السعود وفيها يبرد آخر الليل ويرتفع سهيل، حتى يرى بالعراق وتطيب البوارح وإن تخللها السمايم ويهيج الزكام، ويكون فيه عيد عسقلان، وهو عيد كبير جامع للتصاري. وهو يوم ماتت مريم بنت عمران فيما يزعم أهل الكتاب. ويبرد جوف الأرض، ويُرجى فيه المطر-بالسند. وفي أربع وعشرين يكون النهار ثلاث عشرة ساعة، وهو أول الشتاء، والعرب تسمي ذلك الزمان الخريف. وفي ثمان وعشرين منه يطلع الخراتان، ويسقط سعد الأخبية، وتهب الشمال، وهو فيما يذكرون يوم قتل يحيى عليه السلام، وهو آخر يوم من القيظ، وفيه تسقط المن والسلوى بأرض الشام وأرض بني إسرائيل.

أيلول

سلطان المرة السوداء، ثلاثون يوماً، آيته سبعة، وهو بالفارسية مردادماه، آيته اثنان، وله من البروج السنبلة برج ذو جسدين أرضي أنثى، وهو بيت عطارد وشرفه وهبوط الزهرة، وربّه بالنهار الزهرة، وبالليل القمر ويشاركه بالليل والنهار المريخ. الإقليم الشام والجزيرة، وله من النجوم ثلث الصرفة والعواء والسماك. في ثلث منه تُوقد النار بأذربيجان وبكل أرض باردة. ويقوم سوق منيح بالجزيرة، وسوق هرمردان بجند نيسابور. وهو رأس سنة اليهود، وتزرع فيه البقول الشتوية، ويسقط الندى، وتحرك أول الشمال. ولعشر منه يطلع الغفر ويسقط مقدّم الدلو. ويزرع أهل مصر والجزيرة. وثلاث عشرة منه يكون عيد الصليب وهو الصوم الأكبر. وتجري فيه ريح شديدة الهبوب، يتقى فيها على السفن، وإحدى وعشرين ييني النصاري في كنائسهم، يريدون بذلك تقويم قلوبهم، وفيه يقوم سوق رحبة بالجزيرة وسوق بردرايا بالسوس، ويقوم سوق اسبايرار بتستر أسبوعاً. ولأربع وعشرين تطلع العواء ويسقط مؤخر الدلو، ويستوي الليل والنهار، ويجري الماء في فروع الشجر، وهو آخر القيظ وأول الخريف وأول الصرام بالبصرة. وقال أبو عبد الله أول نجوم القيظ والبوارح الثريا، وسهيل، وإذا مضى سهيل آخرها وإذا مضى سهيل طالت الأظماء، وبرد الليل، فإذا طلعت الجبهة انكسر الحر وامتد الظماء، وتباعدت الإبل في مراعيها، ويكثر الكرش ويغلظ فيمسك الماء ويطول لذلك ظمؤها، وإذا قصر الظماء رعت حول الماء، فإذا طلعت الصرفة فهو انقطاع الحر وتحرك ريح الشتاء، ثم نجوم القر الشديد وأولها سقوط الذراع، فإذا سقطت الجبهة سخفت الأرض ولانت على الماشي وأطلعت الأرض ذخائر وسميها من النبات، واختلفت الإبل في مراعيها يعني تباعد بعضها من بعض. ونظرت الأرض بإحدى عينيها فإن

(١) في القاموس بيت جبرين بين غرة والقدس - الحسن النعماني.

كان في ذلك الوقت كان مخصباً بإذن الله تعالى، وكان أنفع مما قبله وما بعده، ويقال: ما امتلاً واد من نوء الجبهة إلا امتلاً بقللاً، وهي أنفع النجوم للأرض إذا صدق نوؤها وهي من نجوم الشتاء وأنفع نجوم الوسمي مطر الثريا، فإن صدق نجمها حمد الوسمي في ذلك العام، فإن ولتها الجبهة في وقتها كان عاماً حياءً، وخير بإذن الله تعالى، فإن ردفها السماك في الصيف، وهو أحد نجوم الصيف فهو حياء تلك السنة، فإذا سقطت الصرفة نظرت الأرض بعينها وأخرجت كل ذخيرتها، وانصرف القرّ وصفت فأول الصيف العواء وآخرها سقوط الشولة وطلوع الهنعة.

البابُ الثالث والخمسون

في انقلاب طبائع الأزمنة وثباتها، وامتزاجها والاستكمال والامتحاق وأزمان مقاطع النجوم في الفلك، ومعرفة ساعات الليل من رؤية الهلال، ومواقيت الزوال على طريق الإجمال.

اعلم أنه قد تقدّم القول في أنه متى انتقلت الشمس إلى أول نقطة الحمل اعتدل الليل والنهار، وأخذ النهار في الزيادة على الليل، وذهب برد الشتاء، ورطب الهواء ومالت الشمس إلى الشمال، وفي الارتفاع إلى سمت الرؤوس في البلدان الشمالية ومواضع العمارة في الصعود إلى ذروة فلكه الخارج المركز وابتداء النشوء والنمو في النبات والحيوانات والمعادن والمياه وتورّقت الأشجار.

وإذا انتقلت إلى أول السرطان صار النهار في نهاية الطول والزيادة على الاعتدال، واشتدّ الحرّ ولسس الهواء، وأخذ النهار في النقصان.

وإذا انتقلت إلى أول الميزان اعتدل الليل والنهار ثانياً، وأخذ الليل في الزيادة على النهار ويغلب اليبس على الهواء مع ابتداء البرد، وكل شيء من أحواله يخالف أحوال الربيع، وتأخذ الشمس في الميل إلى الجنوب وتتباعد عن سمت الرؤوس ويكون في انحطاط من الارتفاع، وانحدار إلى حضيض فلكه الخارج المركز.

وإذا انقلب إلى أول الجدي يصير النهار في نهاية القصر، والليل في نهاية الزيادة والطول. والليل في التقصان إلى أن تعود الشمس إلى أول الحمل وقد بان بما وصفنا أنّ ابتداءهم بالحمل دون سائر البروج للأحوال التي ذكرنا.

ولكل فصل من هذه الفصول ثلاثة أبراج من البروج الاثني عشر. (فبروج الربيع): الحمل - والثور - والجوزاء. (وبروج الصيف): السرطان - والأسد - والسنبلة. (وبروج الخريف): الميزان - والعقرب - والقوس. (وبروج الشتاء): الجدي - والدلو - والحوت.

ولذلك سمّيت الحمل والسرطان والميزان، والجدي منقلبة لأنها متى نزلت الشمس أول الحمل انقلب الزمان من طبيعة فصل الشتاء وأحواله إلى طبيعة فصل الربيع، وإذا نزلت السرطان انقلب الزمان من طبيعة فصل الربيع إلى طبيعة فصل الصيف وأحواله. (وإذا نزلت الميزان انقلب الزمان من طبيعة فصل الصيف وأحواله إلى طبيعة فصل الخريف وأحواله.

وإذا نزلت الجدي انقلب الزمان من طبيعة فصل الخريف إلى طبيعة فصل الشتاء وأحواله، وسمّيت الثور والأسد والعقرب والدلو ثابتة لأنه إذا نزلت الثور ثبتت طبيعة فصل الربيع، وإذا نزلت الأسد ثبتت طبيعة فصل الصيف، وإذا نزلت العقرب ثبتت طبيعة فصل الخريف، وإذا نزلت الدلو ثبتت طبيعة فصل الشتاء، وسمّيت الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت ذوات جسدتين، لأنه إذا صارت الشمس في النصف من الجوزاء تمتزج طبيعة فصل الربيع وطبيعة فصل الصيف، وإذا صارت في النصف من السنبلة تمتزج طبيعة فصل الصيف بطبيعة فصل الخريف، وإذا صارت في النصف من القوس تمتزج طبيعة فصل الخريف بطبيعة فصل الشتاء. وإذا صارت في النصف من الحوت تمتزج طبيعة فصل الشتاء بطبيعة فصل الربيع.

واعلم أن الشهر إذا تمّ فكان ثلاثين يوماً طلع الهلال^(١) بعدما تجاوز:

(١) قال في كنز المدفون: يُقال للهلال: هلال لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخره، ويُسمّى ما بين ذلك قمراً، وقيل إنه خُصّ كلُّ ثلاث ليالٍ باسم، فالثلاثة الأولى يُقال لها هلال، والثلاثة الثانية يُقال لها قمر، والثلاثة الثالثة يُقال لها بهر، والثلاثة الرابعة يُقال لها زهر، والثلاثة الخامسة يُقال لها: بيض، والثلاثة السادسة يُقال لها درع، والثلاثة السابعة يُقال لها ظلم، والثلاثة الثامنة يُقال لها حنادس، والثلاثة التاسعة يُقال لها: دآدى، والثلاثة العاشرة يُقال لليلتين منها محاق وليلة وهي آخره سرار.

وقيل: غير هذه ثلاث غرر، وغرة كل شيء أوله، وقيل: شهب وثلاث زهر والزهرة البيضاء، وقيل نفل وثلاث تسع لأن آخر يوم منها هو التاسع وثلاث بهر لأنه يبهز فيها الظلام، وثلاث بيض لأن لياليها بيض بطلوع القمر من أولها إلى آخرها وثلاث درع لأن أوله يكون أسود وباقيته أبيض وثلاث دهم، وفحم وثلاث حنادس وثلاث دآدى وثلاث محاق لانمحاق الشهر، وقيل: إن العرب تسمي الليلة الثامنة والعشرين دعباء وليلة تسع وعشرين دهماء، وليلة ثلاثين ليلاء (من كلام الشيخ كمال الدين الدميري). قال شعراً:

ثم ليالي الشهر ما قد عرفوا	كل ثلاث الصفات تعرف
فغرر وتفل وتسع	وبهر والبيض ثم الندع
وظلم حنادس دآدى	ثم المحاق لانمحاق بادي

(١) القاضي محمد شريف الدين المصحح عفا الله عنه.

الشمس بمنزلة ونصف ويرى عظيماً فيدخل تلك المنزل في مسيره حتى يستتر في ثمان وعشرين ونصف، فيكون استتاره في ذلك الشهر يوماً ونصفاً ويطلع وهو خفي، ويكون ذلك الشهر تسعة وعشرين يوماً، ويكون استهلاله بعد ما تجاوز الشمس بمنزلة فإذا رُوي الهلال على رأس منزلة من الشهر كان أدق ما يكون وأخفاه لقربه من الشمس، ويكون ذلك الشهر ثلاثين يوماً. وإذا رُوي على منزلة ونصف من الشهر كان أعظم ما يكون وأبينه لبعده من الشمس، ويكون ذلك الشهر الذي يعظم فيه الهلال تسعة وعشرين يوماً فأقل ما يستتر يومان.

واعلم أنك إذا رأيت الهلال لليلة فإنه يمكث في الشتاء ستة أسابيع الساعة - وإذا كان لليلتين فإنه يمكث ساعة وخمسة أسابيع الساعة، وإذا كان لثلاث فإنه يمكث ساعتين وأربعة أسابيع الساعة. وإذا كان لأربع فإنه يمكث ثلاث ساعات وثلاثة أسابيع الساعة، وإذا كان لخمس فإنه يمكث أربع ساعات وسبعي الساعة، وإذا كان لست فإنه يمكث خمس ساعات وسبع الساعة، وإذا كان لسبع فإنه يمكث ست ساعات وإذا كان لثمان فإنه يمكث ست ساعات وستة أسابيع الساعة، وإذا كان لتسع فإنه يمكث سبع ساعات وخمسة أسابيع الساعة. وإذا كان لعشر فإنه يمكث ثمان ساعات وأربعة أسابيع الساعة، وإذا كان لإحدى عشرة فإنه يمكث تسع ساعات وثلاثة أسابيع الساعة، وإذا كان لاثني عشرة فإنه يمكث عشر ساعات وسبعي الساعة، وإذا كان لثلاث عشرة فإنه يمكث إحدى عشرة ساعة، وسبع الساعة وإذا كان لأربع عشرة فإنه يمكث اثني عشرة ساعة، وذلك ساعات الليل كله، وإذا كان لخمس عشرة فإنه يطلع بعد ستة أسابيع الساعة. وإذا كان لست عشرة ليلة فإنه يطلع بعد ساعة وخمسة أسابيع الساعة، وكذلك ينقص في كل ليلة ستة أسابيع الساعة حتى يستتر تحت الشعاع ليلة ثمان وعشرين.

واعلم أن الشمس تقطع البروج الاثني عشر التي هي جماع الفلك على ما ذكره بعض المتقدمين في ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وست ساعات وخمسي الساعة، وتسير في كل برج ثلاثين يوماً وعشر ساعات.

ويقطع القمر البروج في ثمانية وعشرين يوماً، ويصير في كل برج يومين وثمان ساعات.

ويقطع زحل البروج كلها في ثلاثين سنة، ويصير في كل برج خمسة وأربعين يوماً.

ويقطع المشتري في اثني عشرة سنة، ويصير في كل برج اثني عشر شهراً.

ويقطع المريخ في سبعة عشر شهراً يصير في كل برج خمسة وأربعين يوماً.

وتقطع الزهرة في عشرة أشهر وتصير في كل برج خمسة وعشرين يوماً.

ويقطع عطارد البروج كلها كما يقطع الشمس سواء ويسير في كل برج كما تسير الشمس لأنه معها لا يفارقها.

وتقطع الجوزاء البروج في ثماني عشرة سنة ويصير في كل ثمان عشر شهراً.

فأما الكلام في مواقيت الزوال في الشتاء والصيف ونقصان ذلك وزيادته في كل شهر من شهور الفارسية، والداعي إليه ضبط أوقات الصلوة المفروضة والاحتياط في إقامتها سنتها وفي أوقاتها.

ولما كان يختلف في السنين والبلدان من أجل اختلاف العروض والسموات، عمدت إلى حلول الشمس أوائل البروج وقسمت عليها أقدام الظل ببلدنا الذي هو أصبهان سنة ثلاث مائة واثنين وتسعين ليزدجرد إذ كان أبعد من الاختلاف وأقرب إلى الدوام والثبات، ولئلا يجب أن يغير في كل سنة عند تحولها، وعلمت أن من يكمل للنظر في هذا الكتاب يكون متمرنًا بمعرفة حلول الشمس أول كل برج، ومتدرباً بعلم وقته والله الموفق.

فأول حلول الشمس برج الحمل يكون الظل عند الزوال أربعة أقدام ونصف العشر، وإذا سار عشر درجات منه يكون ثلاثة أقدام وربع وخمس، وإذا سار عشرين درجةً منه يكون قديمين ونصف وثلاث وعشر.

وأول حلولها برج الثور يكون الظل قديمين وثلثي قدم وثلثي عشر. وإذا سار عشر درجاتٍ يكون قديمين، وإذا سار عشرين درجةً يكون قدماً وثلثي قدم.

وأول حلولها برج السرطان يكون الظل ثلثي قدم وخمساً وعشرًا. وإذا سار عشر درجاتٍ يكون قدماً وعشرًا ونصف العشر.

وأول حلولها برج الأسد يكون الظل قديمين وربعاً وسدساً. وإذا سار عشر درجاتٍ يكون الظل قديمين وثلثين وربعاً. وإذا سار عشرين درجةً يكون ثلاثة أقدام ونصف قدم.

وأول حلولها برج الميزان، يكون الظل أربعة أقدام وعشرًا، وإذا سار عشر درجاتٍ يكون أربعة أقدام وخمس وسدس وعشر قدم.

وأول حلولها برج العقرب يكون الظل ستة أقدام وسدس قدم. وإذا سار عشر درجاتٍ يكون سبعة أقدام، وإذا سار عشرين درجةً يكون سبعة أقدام ونصف وربع.

وأول حلولها برج القوس يكون الظل ثمانية أقدام وربع وخمس قدم. وإذا سار عشر درجاتٍ يكون تسعة أقدام، وإذا سار عشرين درجةً يكون تسعة أقدام وربع وعشر قدم.

وأول حلولها برج الجدي يكون الظل تسعة أقدام ونصف قدم. وإذا سار عشر درجات يكون تسعة أقدام وثلاث قدم، وإذا سار عشرين يكون ثمانية أقدام ونصف وثلاث وعشر قدم.

وأول حلولها برج الدلو يكون الظل ثمانية أقدام وثلاث قدم، وإذا سار عشر درجات يكون سبعة أقدام ونصف وخمس قدم، وإذا سار عشرين درجة يكون ستة أقدام ونصف وثلاث وعشر قدم.

وأول حلولها برج الحوت يكون الظل ستة أقدام وسدس قدم وإذا سار عشر درجات يكون خمسة أقدام وثلاث وعشر قدم، وإذا سار عشرين درجة يكون أربعة أقدام وثلاثي ونصف عشر قدم.

البابُ الرابع والخمسون

في اشتداد الرّمان بعوارض الجذب وامتداده بلواحق الخصب

يروى عن النبي ﷺ أنّه قال في دعائه على الكفار: «اللهم اشدّ وطأتك على مضر، واجعل عليهم سنين كسني يوسف» فدعاهم جهد البلاء إلى أن أكلوا العلهز وهو المعجون من الوبر بدم القراد أعاذنا الله تعالى من السوء برحمته ومن ذلك قول الشاعر شعراً:

هلاً سألت بني ذبيانَ ما حسبي إذا رعائي راحت قبل حطّابي

وذلك إذا اشتدّ البرد فراح الرّاعي بإبله قبل الحطّاب، لقلة المرعى ولأنّ المحتطين يحتسبون مستكثرين من الحطب لشدة البرد، وقال النابغة في مثله:

هلاً سألت بني ذبيانَ ما حسبي إذا الدّخان تغشى الأشمط البرما

ويقال: أنا فلان من الطّيخة إمّا في فتنة وإمّا في جذب وبلاء، وأنشد:

وكتابها بعد ما طيخت عروضهم كالبهرقية يبغي ليطها الدّسما

والمطيخ: الفاسد وقال ابن مقبل:

ألم تعلمي أن لا يذم فجاءني دخيلي إذا اغتبر العضاة المجلّح

يريد أنّ الدّخيل لا يذمه إذا غشيه في وقت لم يكن مستعداً للاحتفال به والمجلّح الذي أكلته الإبل حتى ذهبت بغصونه، وصار كالرأس الأجلح، ومثله قول الأعشى:

وإني لا يشتكيني الألوک إذا كان صحو السّحاب الضّريبا

أراد بالآلوک ذو الآلوک وهي الرسالة، يريد لا أرّد صاحبها بغير شيء فيشكوني في هذا الوقت البارد الجذب، ويّين هذا المعنى لبيد وبسطه فقال:

وغلام أرسلته أتمه بالآلوک فبذلنا ما سأل

أو نهته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ریح واجتمَلَ

زاد على الأول لأنه قال: تطلب إذا طلب ونبتدئه إذا أمسك، وقال الكميت يذكر سنة

جذب:

وكأنَّ السوفَ للقيَناتِ فوقاً تعيش به وهنيت الرقوبُ
وصار وقودُهم للنارِ أمّا وهان على المخبأة الشحوبُ
قال أيضاً:

وأنت ربيعنا في كلِّ محلٍ إذا المهداءُ قيل لها العفيرُ
(المهداء): الكثيرة البر على الجيران، والعفير الذي لا يهدي من الجذب، والأصل
في التعفير أن يعلل العظيم بالشئ ليستغني به عن اللبن ويشهد للمهداء قوله:

وإذا الجراد اغبررن من المحل وكانت مهداؤهن عفيرا
وقال لبيد:

يكبون العشارَ لمن أتاهم إذا لم تسكت المائة الوليدا
أي لا يوجد في المائة من اللبن ما يعلل به صبي إذا بكى وقال أوس في مثله:
وذاتٍ هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولباً جدعا
(الهدم): الخلق، (التولب): ولد الحمار، واستعاره للعظيم والجذع السيئ الغذاء.
وقال الفرزدق: وعام تمشي بالفراع أرامله، الفراع: الجرب، وإنما يتمشى بها تسأل الصدقة
وقال الهذلي:

وليلة يصطلي بالفرث جارزها يختص بالنضرى المثرين داعيها
يريد أن الجارز لشدة البرد يدخل يده في الكرش ليدفأ وقال الفرزدق:

إذا السنة الشهباء حلّ حرامها

أي: يأكلون فيها الميتة والدّم، وقال رؤبة جدباء فكّت أسر القعوس. والقعس:
الهودج أي فكّوها وأوقدوا بها من شدة البرد، وقال الكميت:

فأيّ عمارة كالحَيِّ بكرٍ إذا اللّزياتُ لقيت السنينَا
أكُرُّ غداةً أبساسٍ ونقرٍ وأكشفُ بالأصايلِ إذ عرينَا

اللّزيات: الشدائد، واللّزية تلقب بالسنة حتى بني منه الفعل، فقيل: أسنت القوم
أصابتهم السنة، والثاء في أسنت قال أصحابنا: هي بدل من الواو الظاهرة في الجمع، إذا

قبل سنوات، ومثله التاء في قولهم أخت.

ويقال هذا عام سنة والأرض وراءنا سنة. ومن ألقاب الجذب قولهم: كحل وتحوط. قال: والحافظ الناس في تحوط إذا لم يرسلوا تحت عائد ربعا. ويروى في تحيط.

ويقال: أصابتهم لزية - وحطمة - وأزمة - ولأواء - ولولاء - وقحمة - وحجرة وشصاصاء وأكلتهم الضبع والفاشورة قال:

قومٌ إذا صرحت كحلٌ بيوتهم عَزَّ الدَّلِيلُ ماوى كلِّ قرضوبٍ
وأحجرنا عامنا وهي الحجرة قال:

إذا الشتاء أحجرت نجومُهُ واشتدَّ في غير ثرى أزومُهُ
والسنة القاوية، وقد قوي المطر إذا قحط، ويقال: حقد المطر: إذا احتبس وقوله: إذا عرينا: يريد بردن، ويقال: ليلة عرية ويوم عرى أي بارد، يقول: يكشفون تلك الأصائل بالإطعام وتفقد الناس، وقال الكميت يصفُ زمن الجذب شعراً:

وجالت الرِّيح من تلقاء مغربها وضنَّ من قدره ذو القدرِ بالعقبِ
وكهكَّه المدلجُ المقرورُ في يدهِ
واستدفأ الكلب في الماسور ذي الذئب

(العقبة): شيء كان يرده مستعير القدر من المرق في القدر وهو العافي. و (كهكه): نفخ في يده من شدة البرد - وأنشد الأصمعي في العافي:

إذا ردَّ عافي القدر من يستعيرها

وقال الفرزدق:

وهتكت الأطناب كلَّ ذفيرة لها تامكٌ من عاتق التي أعرفُ
(التامك): السنام، و (الأعرف): الطويل العرف، يقول: إذا أصابها البرد دخلت الخباء فقطعت الأطناب. وقال الكميت:

فأي امرئ أنبت أي امرئ إذا الرّجر لم يستدِر الرّجورا
ولم يعط بالعصب منها العصور ب لا التهييت وإلا الطّخير

(التهييت): الصياح والرغاء، و (الطّخير): الضرب بالرجلين و (الرّجور): التي لا تدر حتى تزجر، وهذا في شدة الزمان. وقال أيضاً:

بعام يقول له الموكفو ن هذا المعيم لنا المرجل

وكان سواء لنا تجين تمام الحوارين والمعجل

والمرجل أي جعلهم رجالاً، وقوله: وكان سواء أي ليس للأمهات لبن، فالتمام يموت أيضاً، قال أبو عمر: وهما حواران أحدهما، (تمام): والآخر. (معجل).

وحكى ابن الأعرابي: هذا عام صار الروم فيه علوقاً، والرفود زجوراً، فالرؤوم العطوف على ولدها، والرفود التي تملأ رفدين في حلبة أي قدحين والعلوق التي ترام بأنفها وتمنع دَرَّها والزجور التي لا تدر حتى تزجر، وكل ذلك الانقلاب للصر والشدة وكلب الزمان وقال ابن مقبل شعراً:

ولا اصطفى لحم السنام ذخيرة إذا عز ريح المسك بالليل قاتره

قاترة من القطار، عزه غلب عليه، يقول في زمان الجذب: يكون ريح القطار أطيب من ريح المسك وقال:

بلى إن الزمان له صروف وكل من مغاركة السنين
فيسمن ذو العريكة بعد هزل ويغتر الهزيلة بالسمين

العريكة من قولهم ناقة عروك إذا لم يكن في سنامها إلا شيء يسير، والمعنى إن صروف الدهر تقلب: فيسمن المهزول ويهزل السمين والهزال من الشحم والهزل من الجذب والموت وقال عروة شعراً:

أقيموا^(١) بني أمي صدور فنائكم فإن منايانا الناس شر من القتل

ويقال عام: (مجرنم) إذا كان المطر وسطه دون أوله، والمجداب الأرض لا تكاد تخصب، والرمد القحط وأرمد القويم هلكوا جذباً.

ويقال: سنة سنوء - وحصاء - وشهباء - وغبراء - وأرض بني فلان جرز والجمع أجزاز ومجروزة، وأنشد ابن الأعرابي الأسودان أبردا عظامي. الأسودان الفت والماء، والفت حب يطحن ويخبز منه خبزاً أسود، وهذا كما قيل في التمر والماء الأسودان ومعنى: (أبردا عظامي) أي أذهب مخي، والفت يأكله الضركاء. قال الطرماع:

لم يأكل الفت والدعاع ولم يتعف هيداً بجنبه مهتبد

(الهيبد): حب الحنظل، قال حسان رضي الله عنه:

لم يعللن بالمغافير والصمغ ولا شرى حنظل الحظبان

(١) أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأنيل

المغافير: جمع المغفور وهو شيء ينضجه التمام.

ويقال: عيس عزيز - وزمان عزيز: أي لا يفزع أهله وعام غيداق. وسيل غيداق، وماء غداق. ويقال: زمن مخضم لا مقضم. وحكى الفراء عام أرب.

قال أبو عبيدة: عيش حزم وهي عربية وأنشد لأبي عيينة:

وَجَنَّةٌ فَاقَتْ الْجَنَانَ فَمَا	تَبْلُغُهَا قِيمَةٌ وَلَا تَمُنْ
أَلْفَتْهَا فَأَخَذَتْهَا وَطْنًا	إِنَّ فَوَادِي لَأَهْلَهَا وَطَنٌ
زَوْجَ حَيْثَانِهَا الضَّبَابِ بِهَا	فَهَذِهِ كِنَةٌ وَذَا خَتَنٌ
وَانْظُرْ تَفَكَّرَ فِيمَا يَطُوفُ بِهِ	إِنَّ الْأَرِيْبَ الْمَفَكَّرَ الْفَطِنُ
مَنْ سَفَنٍ كَالنَّعَامِ مَقْبَلَةٌ	وَمِنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا سَفَنٌ

أخذ هذا من قول الخليل بن أحمد شعراً:

زُرْ وَادِي الْقَصْرِ نَعْمَ الْقَصْرِ وَالْوَادِي لَا بَدْ مِنْ زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِعَادٍ
يَرْفَى بِهَا السَّفَنُ وَالظَّمَانُ وَاقِفَةٌ وَالضَّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادِي

وقال بعضهم: سقياً لزمان حضنتني أحشاؤه - وأرضعتني أحساؤه - فما هو في الأزمان
إذا قيس حاله - واعتبر نشوه ونماؤه - ألا أخ عرفت مذاهبه - وجزت خلائقه - فصح لك
غيبه - وبعد عنك عيبه - فهو شقيق روحك - وباب الزوح إلى روعك.

وقال بعض البلغاء: من أتى قصر أنس بن مالك ظهراً يرى أعرابياً يحدو بزوملته -
ورأى ملاحاً يغني على سكاكه - ورأى صياداً قد طرح شبكته - ورأى غلاماً عند جحر ضب
يربغ صيده - ثم رأى أرضاً كان ترابها الكافور - ولا تسفيه الريح لأنها تربة - فمتى شئت
رأيت بساطاً موشياً - ومتى شئت رأيت جنةً وحريراً - وقال أبو عيينة شعراً:

تَذَكَّرْنِي الْفُرُودَسَ طَوْرًا فَأَرْعَوِي	وَطَوْرًا تُؤَاتِينِي عَلَى الْقَضْبِ وَالْفَتْكِ
بَغْرَسٍ كَأَبْكَارِ الْجَوَارِي وَتَرْبَةٍ	كَأَنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرِدَّ عَلَى مَسْكِ
فِيَا حَسَنَ ذَاكَ الْقَصْرِ قَصْرًا وَمَنْظَرًا	بِأَفْيَحٍ سَهْلٍ غَيْرِ وَعَرٍ وَلَا ضَنْكَ
كَأَنَّ قَصُورًا لِقَوْمٍ يَنْظُرُونَ حَوْلَهُ	إِلَى مَلِكٍ مَوْفٍ عَلَى مَنبَرِ الْمُلْكِ
يَدُلُّ عَلَيْهَا مَسْطِيلاً بِحَسَنِهِ	وَيُضْحِكُ مِنْهَا وَهِيَ مَطْرَفَةٌ تَبْكِي

وأنشد ابن أبي ناظرة، قال أنشدني الرياشي عن الأصمعي:

إِنَّمَا يَتِمُّ الْفَوَادُ غَزَالٌ	ذُو دِمَالِيَجٍ يَوْمَ سَالِ الْعَقِيقُ
مَالِيءُ الطَّرْفِ مِنْ بَعِيدٍ عَمِيمٍ	وَمَلِيحٌ إِذَا دَنَسَتْ عَتِيقُ

لو رآه رهبان مَذِين طاروا واستخف المطران والجائليق
ولها مربعٌ بطيئةٌ لَدَّ ولها بالحمى مبدي أنيقُ
سلوةُ العيش والتدى فإذا ما ودَّعَتْها رواعدٌ وبروقُ
سَكَنَتْ دسكراتها وأطبأها ظلُّ عيشٍ نضر العيون وريقُ
في رياضي تحفُّهنَّ نخيلٌ باسقاتٌ تعلو عليها الوُسوقُ
وإذا أهل جنَّةٍ حصَّنها حين تعرو نوائبٌ وخفوقُ
ثلموها لابن السَّييل وللعا في ففيتها للمعتقين طَريقُ

ومن كلامهم: وقع في الأهيفَيْن: أي الطَّعام والشراب. وسئل بعضهم ما أطيب العيش
أو الأوقات؟ فقال: ما قَلَّ أذاه. وكثُر جداه، أيام تربع الحمى وقصيفه، ويريح من الهوى
ظلُّ المني وريقه.

وحكى الأصمعي: موثٌ لا يجزُّ إلى عارٍ خيرٌ من عيشٍ في رماقٍ: أي قدر ما يمسك
الرَّمق. وقال طرفة:

نحنُ في المشتاةِ يدعو الجفلى لا ترى الآدابَ فينا يَنْتَقِر

ويقال: فلان يدعو الجفلى والأجفل إذا عمَّ بدعائه، وفلان يدعو النقرى إذا خصَّ قوماً
دون قوم، وقال كلُّ الطَّعام يشتهي ربيعة: الخرس والنقيعة. (الخرس): للولادة.
(والأعذار): للختان و (الوليمة) للعرس، و (النقيعة): طعام القادم من سفره و (المأدبة) كلُّ
طعام صنع ودعي إليه و (الوكيرة) الطَّعام يصنع عند بناء البيت وقال الشاعر:

فظللنا بنعمةٍ واثكأنا وشربنا الحلالَ مِن قَلله

اثكأنا طعمنا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَدْتَ لَهُنَّ مُتَكَأً﴾ [سورة يوسف، الآية: ٣١] أي
طعاماً (القلل) جمع قَلَّة، وقال حرملة بن حكيم:

يا كعبُ إنك لو قصرت على حُسْنِ التَّدَامِ وقَلَّةِ الجِرمِ
وسماع مدجنَةٍ تعلَّلنا حتَّى نؤوبَ تناوم العجمِ
لصحوتُ والنَّمريَّ يحسبُها عمَّ السَّماكِ وخالة النَّجمِ

ويروى على شرب المدام (المدجنة) الدَّاخلة في الدَّجن وهو اليوم المطير، وأراد حتى
نؤوب نتناوم تناوم العجم، وكانوا لا ينامون إلَّا على ضرب الأوتار وشرب الرِّحيق.

وقال ابن الأعرابي: يقول لو أحسنتِ المنادمة لنادمْتُك حتى الصُّبح إلى صياح الديكة.
قال: والنمريُّ: هو كعبٌ نفسه، أي لصحوتُ وأنت تحسب هذه المسمعة. كذلك في عظم

القدر، وهذا كقولك ما يحسبه إلا ابن ماء السماء وقال لييد:

يُثْنِي ثَنَاءً مِنْ كَرِيمٍ وَقَوْمِهِ أَلَا اٰنْعَمَ عَلَىٰ حُسْنِ الثَّحِيَّةِ وَأَشْرَبِ

قوله: يثني ثناء أي يديم ما كان عليه من الثناء. وقال آخر:

كَرَامٌ إِذَا نَابَ الْبَحَارُ أَلَدَهُ مَخَارِيقُ لَا يَزْجُونَ فِي الْخَمْرِ

والذه مخاريق أي يخرقون في العطاء كما قال:

فَتَىٰ إِذْ هُوَ اسْتَغْنَىٰ تَخَرَّقَ فِي الْغِنَىٰ وَإِنْ قَلَّ مَا لَمْ يَضَعْ مَتْنُهُ الْغَقْرُ

البابُ الخامسُ والخمسون

في حَدِّ ما يشتمل على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزمان

قال ذو الرِّمة شعراً:

فلَمَّا نصفن اللَّيل أو حينَ نصَبْتُ له من خذي آذانها وهو چانح
يروى لبسن اللَّيل يعني الحمر، ونُصِبْتُ للتَّوجُّه إلى الماء، وقال بعضهم حين فعل من
الحينونة والمراد أو حين دنا اللَّيل للتَّصَفِّف فحذف وأنشد سيبويه:

أرواحٌ مودَّعٌ أو بكـوـرُ لك فاعند لأيِّ حال تصيرُ
وقيل: جعل الزَّواح هو المودَّع على السَّعة، وقيل: أراد ذو رواح أنت أم بكور
فحذف.

وروى سيبويه: أنت فانظر ومعناه انظر أنت، فانظر، وقال هذا يرتفع على الحدِّ الذي
يتنصب به عبد الله إذا قلت عبد الله ضربته، وقال: أي حال ووجه الكلام أية حال لكنَّه حملة
على لفظة الحال. وقال ابن أحمر شعراً:

ألا فالبشا شهرين أو نصفَ ثالثٍ إلى ذاكما ما غَيَّبَنِي غياييا
أراد شهرين أو شهرين ونصف ثالث، وقيل: أراد بل وأو يكون بمعنى بل وقيل: أو
بمعنى الواو كأنه أراد ونصف ثالث، قوله: ما غَيَّبَنِي غيايياً أراد بالغياب الغيبة، لذلك أنَّت
كما قال تعالى: ﴿فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٠] إنَّه حذف الهاء مع الإضافة لأنَّ
المضاف إليه كالعوض مثل: لَيْتَ شعري وهو أبو عذرها.

ويجوز أن يكون غيايية وغياب مثل قتادة وقتاد، فحملة على التَّأنيث مثل نخل خاوية.
وقالت أمية بنت عتيبة بن الحارث:

تروحنّا من اللَّعباء قصرأ وأعجلنا الإلهة أن تَؤوبا

في حد ما يشتمل على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزمان

ويروى: وأعجلنا الحمائل أن تؤوبا. يُريد به الشمس أي استعجلناها مخافة أن تثوب ولثلا تثوب ومعنى تثوب: تغيب كما قال:

وليس الذي^(١) يتلو النجوم بأي

ويروى: وأعجلنا الإله وقيل الإله اسم للشمس، لأنه كانت تعبد. وقال الفرزدق:

فَسَدَ الزَّمَانُ وَمِنْ تَغْيَرِ أَهْلِهِ حَتَّى أُمِيَّةً عَنْ فِزَارَةٍ تَنْزَعُ

أي ومن تغير أهله فسد، فحذف وقيل: ومن تغير أهله أمية تنزع، وقيل: بل أراد أن يجعل حتى معلقة لا تعمل في شيء، ويكون بمعنى الواو. سبب هذا الشعر أن أمية بن خالد بن أسد عزل عن عمله لعمر بن هبيرة، ويُسببه هذا قوله شعراً:

فِيَا عَجَباً حَتَّى كَلَيْبٌ تَسْبِي كَأَنَّ أَبَاهَا نَهَشَلٌ أَوْ عَطَارْدُ^(٢)

وقال عبد العزيز بن وداعة المزني:

نَسَأْتُ الْقُلُوصَ عَلَى لَاحِبٍ وَمُرُّ اللَّيَالِي يَزْلَنُ النَّعِيمَا

مرُّ اللَّيَالِي: هو الليالي، لذلك قال يزْلَنُ ومثله لجبر:

رَأْتُ مَرَّ السَّنِينَ أَخَذَنَ مَثِي كَمَا أَخَذَ السَّرَارَ مِنَ الْهِلَالِ

وأشد سيويه في مثله:

لَمَّا أَتَى خَيْرَ الرُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سَوْرُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخَشَعُ

وقال الفرزدق:

عَلَى حِينٍ وَلَى الدَّهْرُ إِلَّا أَقْلَهُ وَكَادَ بَقَايَا آخِرِ الْعِيشِ تَذْهَبُ

جعل لآخر العيش بقايا، والبقايا من العيش لا من آخره، والمعنى كادت بقايا ذلك الأقل تذهب أيضاً. وقال وعلة الجرمي:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ تَتْرَى أَتَاجِجَا عَلِمْتُ بِأَنَّ الْيَوْمَ أَحْمَسُ فَاجِرُ

يروى حاذر وحاذر، أي: محذور. وقال الفرزدق:

مِثْلُ النَّعَامِ يَدِينَهَا تَنْقَلُهَا إِلَى ابْنِ لَيْلَى بِهَا الْهَجَرُ وَالْبَكْرُ

(١) يرعى النجوم. للتأبغة الذبياني.

(٢) أو مجاشع.

ارتفع التهجر والبكر على أن يكون فاعل يدينها وانتصب تنقلها على البدل من المضممر في يدينها. وقال حميد بن ثور:

تعلّلت ريعانَ الشّباب الذي مضى بخمسة أهليّن الزّمان المذبذب

الزّمان: بدل من الشّباب، وجعله مُذبذباً استقصاراً لوقته، وقال أيضاً شعراً:

فإمّا تريني اليوم أمسكتُ بعدما تردّيته بردَ الشّباب المجر
انتصب برد على البدل من المضممر في تردّيته، يريد بعدما لبست برد الشّباب أي استمتعت به. وقالت امرأة منهم شعراً:

صاح الغرابِ بدارِ هنديّ سدفَةً صمّ الغرابِ وخرس ماذا ينثر
دعّت عليه بالصّم والخرس.

ومرّ القول في السّدفة. وأنشد ابن الأعرابي لبعض بني أسد:

ولقد رأيْتُك بالقَوادم مرّةً وعَلَيّ من سدفِ العَشيّ رياحُ

أي أريحيةً وخَيْلاً من الشّباب. فقال رياح وأنشد سيويه لعمر بن قمية:

لما رأْتُ سائيدُ ما استعَبَرْتُ لَلَّه دُرُّ اليَومِ مِنَ آلامِها

فرّق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف كما يفرّق بينهما بالقسم. وقال عمر بن ربيعة:

أما الرّحيلُ فدون بعد غدٍ فمتى تقولُ الدّارُ تجمُعنا

أجرى: تقول مجرى تظن في الاستفهام، أعمله عمله.

وإذا كان كذلك فانتصاب الدّار على المفعول الأول، وتجمعنا مفعول ثان: المعنى متى تظن الدار جامعةً لنا تقول. وأنشد سيويه:

أكلُ عامٍ نَعَمٌ تحوونه يلقيه قومٌ وتتجوّنه

قوله: تحوونه صفة للنعم كأنه قال: نَعَم محوياً، فكونه صفة منع من أن يكون عاملاً فيما قبله. وأنشد للهدلي:

حتّى شاءها كليلٌ موهناً عمل بانّت ظراباً ويات اللّيل لم يُيسم

جعل سيويه كليلاً يتعدّى إلى موهن كما يتعدّى ضارب إلى مفعوله، وخالفه جمع

٤٩٨ ————— في حد ما يشتمل على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزمان

التحويون كلهم، وجعلوا موهناً ظرفاً وقد تكلمت له وعليهم فيما عملته من شعر هذيل وأنشد سيويه لعدي بن زيد:

أرواحٌ مـودّعٌ أم بكـوورٌ؟ أنتَ فانظر لأيِّ حالٍ تصيرُ

قال: أراد ذو رواح أنت أم بكور فحذف. وقال سيويه: معناه: انظر أنت فانظر وقال هذا يرتفع على الحد الذي ينتصب به على شيء ما بعده تفسيره، ومثال ذلك المنصوب إذا قلت زيد أضربته لأنَّ المعنى أهنت زيدا ضربته. وقال شعراً:

ذكرتُك لما أتلتعت من كناسها وذكرك سبات إلى عجيب

قال: إلى بمعنى عند والسبة القطعة من الدهر. وقال آخر:

أرى كلَّ يوم زرتها ذو بشاشةٍ ولو كان حولاً كلَّ يوم أزورها

يقول: أراد ولو كانت زيارتي كلَّ يوم حولاً. قال:

على حين عاتبْتُ المشيبَ على الصِّبا فقلتُ ألمَّا أصحُّ والشَّيبُ وازغُ؟!

قوله: على حين بناه على الفتح أي في حين وأراد عاتبني المشيبُ فجعل الفاعل مفعولاً. وقال الأصمعي في قول سحيم بن وثيل:

وإنِّي لا يعودُ إليَّ قرني غداة الورد إلا في قريني

أراد: مع قرين أي مع أسير آخر أقرنه إليه، وقال غير الأصمعي: أراد بالقرين الحبل. وقال متمم بن نويرة:

فلمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لِطَوْلِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

قال: أراد مع طول اجتماع، وقيل: أراد كأن طول الاجتماع كان سبب التفرق، لأنَّ الشيء إذا تناهى عاد ناقصاً. وقال آخر:

إنَّ الرِّزْيَةَ لا رِزْيَةَ مِثْلَهَا أَخَوَايَ إِذْ قُتِلَا بِيَوْمٍ وَاحِدٍ

أي في يوم واحد.

ومن القلب والإبدال قوله: كان لون أرضه سماؤه، أراد كان لون سمائه أرضه. قال الأعشى:

لقد كان في حولٍ ثواء ثويةٌ تُقْضِي لَبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمُ

أراد في ثواء: حول ثوية، وقوله: ويسأم سائم: أراد سامة سائم وقال:

مروانُ مروانُ أخو اليوم اليمي

قال: أراد اليوم اليوم فأخّر الواو وقدم الميم، ثم قلب الواو حين صار ظرفاً كما يقال في جمع دلو: آدل، وقيل: بل أراد أخو اليوم اليوم كما يقال في الحرب عند التّداعي اليوم اليوم، أي هو أخو هذا المقالة. وأنشد الأخفش بيت الفرزدق:

كم عمّة لك يا جريزٌ وخالو فداء قد حلبت عليّ عشاري

قال: يجوز في عمة الرفع والنصب والخفض. قال فرفعه على الابتداء ويجعل كم ظرفاً وخالة، ونصبه على نية التّوين في كم فشبه بعشرين درهماً وما أشبهه، والخفض على الإضافة، كما يقول كم رجل قد رأيت لأنه أجري مجرى عدد لا تّوين فيه، نحو ثلاثة أثواب. وقال عمرو بن معديكرب ويروى لغيره:

وكلُّ أخٍ مُفارقُهُ أخوه لعمرُ أيك إلا الفرقدان

ارتفع الفرقدان عند أصحابنا البصريين على أنّه بدل من قوله: كلّ أخ والكوفيون يجعلون إلا بمعنى الواو، كأنه قال: والفرقدان أيضاً. وقال جرير شعراً:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
ومثل هذا كثير.

قال سيويه: جعل التّوم لليل كما جعل التّابغة السّهر له في قوله:

كتمتُك سرّاً يا لجومين ساهراً وهمين هما مُستكناً وظاهراً

والتحقيق ما ليل المطي بذي نوم، وقال غيره: أراد لا ينام من قاساه، فحذف لأنّ المعنى معروف. وقال ولة الجرمي شعراً:

ولما رأيت الخيل تترى أتايجاً علمتُ بأنّ اليوم أحمرُّ حاذِرُ

قالوا: أراد بالحاذر المحذور، وروي فاجر أي شديد ذو فجور، وكانوا يسمّون من يغزو في الأشهر الحرم فاجراً، قالت ليلي الأخيلية:

على تقاها دائماً وفجورُها. وأنشد:

بني أسدٍ ما تعلمون بلاءنا إذا كان يومٌ ذو كواكب أشعنا

جعل أشنعاً حالاً ولعنترة:

أَمِنْ سَمِيَّةَ دَمْعُ الْعَيْنِ مَذْرُوفُ لَوْ كَانَ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْبَيْتِ مَعْرُوفُ

قال: أراد لو كان القصة، وقال الفراء: لو كان ذا في موضع نصب. وقال أحمد بن يحيى في الأمر وكان مجهول، وهذا يقارب طريقة أصحابنا. قال: ومن العرب من يجعل العفل للصفة فيرفعه كما قال: قلت أحبي عاشقاً يحبك مكلّف: أي هو مكلّف. قال الأعشى:

أَسْرَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيَزُودَا وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قَتْلِهِ مَوْعِدَا

أخلف: أي وجده كذلك كما قال:

وَأَهْيَجَ الْخُلُصَاءَ مِنْ ذَاتِ الْبَرْقِ: أَيِ وَجْدِهِ هَائِجَةُ النَّبْتِ، وَكَقَوْلِ الْعَبَّاسِ:

لَعَمْرَةَ رَسَمْتُ أَصْبَحَ الْيَوْمَ دَارِسًا وَأَقْفَرُ مِنْهَا رَحْرَحَانُ وَرَاكِسًا

أي وجدهما قفراً. وقال جرير:

إِذَا خِفْتُ يَوْمًا أَنْ يَلْجَأَ بِكَ الْهَوَى فَإِنَّ الْهَوَى يَكْفِيكَ مِثْلَهُ صَبْرًا

أراد: فإنّ الهوى يكفيك هوى مثله، أي هوى آخر، وتمّ الكلام ونصب صبراً على معنى فاصبر صبراً. وقال آخر: أراد يكفيكه أن تصبر صبراً. وقال الأعشى:

هَذَا النَّهَارُ بَدَا لَهَا مِنْ هَمِّهَا مَا بِأَلْهَا بِاللَّيْلِ زَالَ زَوَالُهَا

نصب النهار: أي في النهار ونصب، زوالها: كأنه دعاء على الليل فقال: زال زوالها: أي مع زوالها، فلا يكون ليل إذ زالت أثارق فيه وأسهر. قال أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: زال زوالها: كلمة تقال بالرفع فتركها على حالها، ولم يلتفت إلى القافية، وقال الأصمعي: لا أدري ما هو. وقال الأخفش: أزلته عن مكانه وزلته لغة، فأراد أزال الله زوالها بزوال زال. قال أبو صخر الهذلي شعراً:

أَرَأَيْتَ أَنْتَ يَوْمَ اثْنَيْنِ أَمْ غَادَ وَلَمْ تُسَلِّمْ عَلَى رَيْحَانَةِ الْوَادِي

العرب تقول: هذا يوم اثنين بغير ألف ولا م، وكان أبو زيد يقول: مضى الإثنين بما فيها، ومضت الجمعة بما فيها، ومضى الثلاثاء بما فيها. وقال جرير:

فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

أراد الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، والقمر، لأنها طلعت لفقدك ضعيفة النور. وقيل: انتصب القمر لأنه مفعول معه أراد مع القمر. وروي: تبكي عليك نجوم الليل

على أن تكون نجوم الليل مفعول تبكي، يقال: باكيته فبكيته، أبكيه ويكون من أفعال المبالغة، كأنَّ الشَّمس تغالبُ في البكاء التَّجوم والقمر فتغلبها وأفعال المبالغة تجيء في الماضي على فاعلته أفعله بضم العين، يقول: طاولته فطلته أطوله، إلا ما كان من بنات الياء، فإنَّه يحامي على الياء منه لثلا يختلط بنات الياء بينات الواو. هذا الباب المعتمد فيه على السَّماع فاعلمه. وقال الطَّرَمَاح شعراً:

فإنني وإيتاكم وموعد بيننا كيوم ليدي يومَ فارَقَ أربدا

يريد: أنَّ يومنا ويومكم ويوم ميعاد بيننا كيوم ليدي، والأجود في تفسير البين أن يكون المصدر لا الظرف. وقوله: يوم فارَق العامل فيه معنى الفعل الذي دلَّ عليه قوله: يوم ليدي لأنَّه يريد به الشَّدة والصَّعوبة. وأخبره أنَّ السَّيْل ثنية صعوداً ينادي كلَّ كهل وأمردا، صعود فمن يعمل يلمع به اليوم بأنها، ومن لا يلهي بالضَّحاء فأوردا. أربد أخو ليدي مات فقال:

وأرى أربد قد فارَقني ومنَ الأرزاء رزءٌ ذو جَلَل

والمعنى؛ فجعتُ بكم وأنا أتبعكم فما الخلق فيما كتب من آجالهم إلا سابق ولاحق، على ذلك نحن ومن تقدَّمتنا في تواعدنا، والسَّيْل يريد به سبيل الموت وأنَّ الاقدام تتساوى فيه فمن دُعِيَ أجاب، وقوله: فمن يلمع به الصَّعود يأتيها، يريد إذا أشارت إليه أولاً، وهذا كما قال أوس: أشار بهم لمع الأصم. وقوله: ثنية صعود يريد أنَّها عقبة شاقة. وقوله: ومن لا يلهي بالضَّحاء، وضع الماضي موضع المستقبل أراد ومن لا يلمع به في أوَّل التَّهَار يلمع به من بعد، والضَّحاء للإبل وهو وقت الغداء للناس، يريد به قرب ما بين الأحياء والأموات في الموت ومثل قوله: ومن لا يلهي به في حذف الشَّرط منه قول الآخر:

والأ يقيموا صاغرين الرُّؤسا. لأنَّ المعنى: الآ تقيموا تقيموا كما أنَّ التقدير في هذا لا يلمع به يلهي. وقوله: فأوردا. في موضع الجزم لأنَّه معطوف على من لا يلهي. والمعنى من لم يتله فيورد وفيه وجه آخر. قال زهير:

إنَّ الرِّزِيَّة لا رزيَّةَ مثَلها ما يتغني غطفانُ يومَ أَصَلَّتْ

(لا رزية): مثلاً في موضع الصَّفة للرزية وما ينبغي في موضع الخبر.
شعر:

إنَّ الرِّكَّاب ليتغني ذا مرَّة بجنوب نخلٍ إذا الشُّهور أَحَلَّتْ

يعني: إذا انقضت الأشهر الحرم. وقال آخر:

وبادَ الشَّباب ولذَّائِه وما كانَ للدَّهرِ الأَحِلَّ

أي أكلها أكل الحشيش وفي طريقته قوله: فلست خلاة لمن أوعدن. قال حميد بن ثور:

أتنسى عدوَّ إسارٍ نحوك لم يزلْ ثمانينَ عاماً قبضَ نفسك تطلبُ
وتذكرُ سرداحاً من الوصل باقياً طویل القرى أنضبتَه وهو أحذبُ
تقعَدته عصراً طويلاً أروضه يلينُ وينبو تارةً حين أركبُ

أراد بالعدو الدهر، والسرداح الطويل من الإبل، ضربه مثلاً للعيش الذي قضاه قوله: يلين وينبو أي: يأتي مرةً بالبؤس ومرةً بالتعم. قال آخر:

وصاحب المقدار والرديف أفنى الوفا بعده ألوف

يعني بالرديف النجوم التي تتعاقب، يقول: يعاقبها على مرّ الدهور لا يَبْقِي أحداً. أنشد أبو العباس:

أَجَدَّكَ لَنْ تَرَى بشعِلباتٍ ولا يبداءَ ناجيةً ذمولا
ولا متداركُ والشمس طفلاً يبعض جوانبِ الوادي حمولا

قال لك: إن تقول ما زيد قائماً ولا قاعداً، ولا قائم ولا قاعد. من رفع توهم أن الأول مرفوع. وكذلك الخفض، ولو خفض الأول جاز في المنسوق عليه ثلاثة أوجه. وكذلك لو كانت صفة قلت ما زيد خلفك ولا محسن ولا محسناً ولا محسن، يتوهم أن المقدم فعل ويجوز ما زيد بقائم ولا بقاعد، وأنشد: بطعنه لاغس ولا بمعمر. وأنشد الكسائي: أما ترى حيث سهيلٌ طالعاً.

قال: رفع حيث وأضافها وخفض بها، وإذا خفض بها فينبغي أن ينصب ووجه الكلام عبد الله حيث زيد نصبت حيث، وأضفتها. وأنشد للنابغة شعراً:

تبدو كواكبها والشمس طالعةً لا النور نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

قيل: أراد شدة الأمر بقوله: تبدو كواكبها كما قال: ويريه النجم يجري بالظهر. وكما يقال: لأرينك الكواكب، وقيل بل أراد لمعان السيوف وبريق البيض ذهباً بظلمة الغبار. وإن الغبار غطى الشعاع الساطع منهما، فلذلك حال كل عن المعهود. وأنشد أبو الحسن عن يونس:

إذا أنا لم أومن عليك ولم يكن كلامُك إلا مِن وراء وراء

وراء من أسماء الزمان. قال الشعر مرفوع. وقد جَوَّز فيه غير وجه منها الضم فيها ويكون الثاني بدلاً من الأول، وقد جعل غايته وجوزَ إلا من وراء وراء ويرى فحذف ياء

الإضافة، وترك الكسرة عليها، وتكون الثانية بدلاً أو تكريراً ويكون من وراء وراء على أن يجعل وراء معرفة فلا يصرفها للتأنيث والتعريف، وتكون الثانية تكريراً وروى ابن حبيب عن أبي توبة إلا وراء وراء أضاف وراء إلى وراء فجزه للإضافة ووراء المضاف إليه بني على الضم مثل تحت ودون ويجوز إلا من وراء وراء تضيف وراء الأول إلى الثاني. وقد جعلته لا ينصرف للتأنيث والتعريف، ووراء الأول التقدير فيه الأفراد كما يقدر في سائر ما يضاف. قال زهير شعراً:

لَعَبَ الرِّيحُ بِهَا وَغَيَّرَهَا بَغْدِي سَوَافِي المَوْرِ والقَطْرِ

القطر: لا يسفي. فقال الأخفش: هذا الباب يشير إلى مثل قوله:

مَتَقَلَّدُ أَسْفَاً وَرَمَحاً وَعَلَفْتُهَا تَبْنَأَ وَمَاءَ بَارِداً

وقول جرير شعراً:

تَبَيَّنَ فِي أَنفِ الفِرْزَدِقِ لَوْمُهُ يَقْبَحُ ذَاكَ الْأَنفُ أَنْفَاً وَمَشْفَرا

كله إنما جاز بإضمار فعل آخر كأنه قال: وحاملاً رمحاً وسوافي المور، وضوب القطر

وقال:

مَا كَانَ مِثْلُكَ يَسْتَخِفُّ لِنَظَرَةٍ يَوْمَ المِطْيِ لَغَرِيبَةٍ مَر حَوْلِ

وهذا مثل أتيتك زمن الحجاج أمير. وقال حميد الأرقط:

فَأَصْبَحُوا وَالتَّوَى عَالِي مَعْرَسِهِمْ وَلَيْسَ كُلُّ التَّوَى يَلْقَى المَسَاكِينَ

قال سيبويه: أضمم القصّة أو الأمر وقدم مفعول الخبر، وهذا لا يجوز لو لم يكن فيه إضمار كأنه قال: وليس الأمر كلّ التوى يلقى المساكين، لأنّه لا يلي ليس ولا كان ما يعمل فيه فعل آخر، لا يجوز أن يقول: كانت زيدا الحمى تأخذ فيفرق بين كان واسمها بمفعول غيرها، ولو كان مفعولها لجاز كقولك: كان زيد قائماً لأنّ قائماً مفعول كان. وأنشد سيبويه لعمر بن أبي ربيعة شعراً:

مُعَاوِي إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجَحِ فَلَسْنَا بِالجِبَالِ وَلَا الحَدِيدِ

وقال: هذا مما يجري على الموضع لا على الاسم الذي قبله لأنّ المعنى فلسنا جبلاً ولا حديداً. وقيل: إن سيبويه دسّ هذا البيت لأنّ القصيدة مجرورة، وفي هذا كلام. وقال آخر:

فَأَوْهَ لَذِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا وَمِنْ بَعْدِ أَرْضِي بَيْنَنَا وَسَمَاءِ

في حد ما يشتمل على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزمان
من قولك: أَوْه وأراد من بعد أرض، ومن بعد سماء، فجعله للصفتين ونحوه قول
القطامي:

ألم يحزنك أن جبال قيسٍ وتغلب قد تباينت انقطاعاً

يريد: وجبال تغلب. وقال الثابتة الجعدي شعراً:

غدا فتيا دهرٍ وراحاً عليهم نهائٍ وليلٍ يكثران التواليا

وإنما يغدو واحد ويروح آخر، ويجوز على هذا أن يقول: غلامان قد طبخا خبزاً
وأحدهما طبخ والآخر خبر. وقال آخر:

تعلمنَّ واللّه ما أبالي تعودُ عندَ آخر الليالي

أراد أن يقول: أخرى الليالي، وهو وجه الكلام. وقال جرير شعراً:

مطاعيمُ الشتاء إذا استَحَنَّتْ وفي عرواء كل صبا عقيمُ

قال ابن الأعرابي: استَحَنَّتْ بفتح التاء بمعنى حَنَّتْ يعني الشمال، وقال عمار: بضم
التاء، وقال: أراد استَحَنَّ الشتاء الشمال أي هيَّجها، والشمال: مستحنةً فلذلك روى
استَحَنَّتْ.

سَبَقْنَا الْعَالَمِينَ بِكُلِّ نَجْمٍ وبالمستَمْطِرَاتِ مِنَ النُّجُومِ

وقوله: وليست يعني النجوم وأضمر لأنَّ في الكلام دليلاً عليه. وقال جرير شعراً:

يَأْوِي إِلَيْكَ فَلَا مَنٌّ وَلَا جَحْدُ من سَاقَتِ الضَّيْعِ الْحَصَا وَالذُّبُّ

فاعل يأوي من سَاقَتِ، وأراد بالضَّيْعِ الحصا السَّنة الجذبة لا نبت فيها، قوله: والذُّبُّ
يريد أنَّ الذُّبُّ تطمع في الناس لضعفهم. ورُوي أَنَّهُ سئل السَّنة: أي الجذب ما عوانك،
فقال: الحرب والذُّبُّ. وقال الفرزدق شعراً:

يَدَاكَ يَدُ ربيعِ النَّاسِ فِيهَا وفي الأخرى الشَّهْوُ مِنَ الْحَرَامِ

أراد في إحدى يديك ربيعُ النَّاسِ، يعني إنَّه يغنيهم، والأخرى كالأشهر الحرم يعني
عقد جوارح، فأخرج الكلام كما ترى. وأنشد ثعلب:

ولعلَّ خيراً منك قرماً ماجداً ضَحَاكَ سَاعَاتِ النُّجُومِ سُمَيْدَعُ

يعني طلاقة وجهه في الجذب إذا خوت النجوم، واللفظ على ما يشاهد وفي طريقته قال شعراً:

قفاً إذ العام المسمى تزعزعت بشيفائه هوج الرياح العقائم

قوله: المسمى. يعني المشتهر بصفاته. وأنشد للعجاج أو رؤية:

كأنه لو لم يكن حماراً بهنّ تالي النجم حيث غارا

يجوز أن يكون المراد بقوله: بهنّ بطردهنّ فحذف المضاف، ويجوز أن يريد كأنه باجتماعه معهنّ، ويكون في الباء تقديران: أحدهما: أن يكون العامل فيه ما في كان من معنى الفعل، أي يشبه العير تطرده الأتّن تالي النجم، والآخر: أن تعلقه بكان أي لو لم يكن حماراً بطردهنّ أو بالاجتماع معهنّ، والمعنى أنّ كونه حماراً يمنع أن يكون كتالي النجم على الحقيقة، وإن كان كونه خلفها، يطردها ككون الدبران خلف الثريا وقال: مرّت على آثارها دبرانها. يشبه هذا ما أنشده أبو زيد. كوني بالمكارم ذكريني. قولهم زيداً ضربه، وزيد ليقيم، فبالمكارم متعلّق بذكريني فكأنه قال: أنت ذكرتني فرفع أنت بالابتداء ثم دخل الفعل عليه، ويشبهه قول الجميع: إن الرياضة لا ينصبك للشيء. فإن قلت: بيت الجميع أحسن في القياس أو ما أنشده أبو زيد، قيل: جهة قياسهما في الارتفاع بالابتداء واحد. وقوله: لا ينصبك أحسن من كوني بالمكارم ذكريني لأنّ قوله ذكرتني يدل على كوني، ونظيره قولهم: كان زيد قام، وقد أجازته النحويون إجازة حسنة وزعموا أنّ أخوات كان ليس في ذلك لكان والله أعلم.

البابُ السادس والخمسون

في ذكر الكواكب اليمانية والشامية وتميز بعضها عن بعضٍ وذكر ما يجري مجراه من تفسير الألقاب.

واعلم أنَّ القوم لما أرادوا تميز الكواكب قسموا الفلكَ قسمين، وسمّوا أحدَ النّصفين جنوبيّاً، وهو الذي يلي الجنوب، وسمّوا النّصف الآخر شماليّاً وهو الذي يلي الشمال، وسمّوا كلّ ما وقع في النّصف الجنوبي من البروج والكواكب جنوبيّة، وسمّوا ما وقع في النّصف الشمالي من البروج والكواكب شماليّة، وسمّيت العرب تلك الشّمالية شاميّة، والجنوبية يمانية، والمعنيان واحد، لأنّ مهبط الشّمال عندهم من جهة الشّام، ومهبط الجنوب من ناحية اليمن ولذلك جعلوا ما بين رأس الحمل إلى رأس الميزان من البروج شاميّة. وجعلوا ما بين رأس الميزان إلى رأس الحمل من البروج يمانية. وكذلك جعلوا ما بين الشّرطين من المنازل إلى السّمك شاميّة، وجعلوا ما بين الغفر إلى الرّشاء يمانية. فكلُّ كوكب مجراه ما بين القطب الشمالي إلى ما بين مدار السّمك الأعزل أو فوقه قليلاً فهو شاميّ، وكلُّ كوكب مجراه دون الفلك إلى ما يلي القطب الجنوبي فهو يماني. والتّسيران أحدهما الطّائر والآخر الواقع وهما شاميتان. فأما الواقع فهو منير، وخلفه كوكبان منيران، يقولون: هما جناحاه، وقُدّامه كواكب يقال لها: الأظفار. وأما الطّائر فهو إزاء الواقع، وبينهما المجرة، ولا يستتر إلا خمس ليالٍ. وأما قول ذي الرّمة شعراً:

يُحِبُّ امرؤ القيس العلى أن ينالها وتأبى مقاريها إذا طلع النّسرُ

فإنّما يذمّهم بأنهم لا يطعمون في الشّتاء، والمقاري الجفان.

قال أبو حنيفة: وكذلك مدار الكوكب الذي تسميه العرب: الفرد وهو قريب من الفصل بين شاميّ الكواكب ويماتيّها. وقولُ عمر بن أبي ربيعة في سهيل بن عبد الرّحمن: وتزوّجه الثّريا العبلية من بني أميّة، يضرب لهما كوكبي سهيل والثّريا مثلاً فقال:

أَيُّهَا الْمَنْكِحُ الثَّرِيَا سَهِيلاً عَمْرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ؟
 هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسَهِيلاً إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ
 وقال آخر في نغمة سهيل إذا طلع صباحاً:

أَرَأَيْتَ لِمَحاً مِنْ سَهِيلٍ كَأَنَّهُ إِذَا مَا بَدَأَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ يَطْرَفُ

وقيل: هو كوكب ذكر نكاح، حريص عليه، وربما طلع في الليلة الواحدة مرّتين، ويغيب مرّتين. ويقال: غيبته بعد طلوعه لدنوه من كوكبته وصاحبته.
 وحكي عن بعض علماء العرب: النّظر إلى سهيل يشفي من البرسام، ولذلك يقول مالك بن الرّيب:

أَقُولُ لِأَصْحَابِي ارْفَعُونِي فَإِنِّي يَقَرُّ بَعِينِي أَنْ سَهِيلاً بَدَأَ لِيَا

ويقال: سهيل أشفق الكواكب على الغرباء وأبناء السبيل، وبين رؤية سهيل بالحجاز وبين رؤيته بالعراق بضع عشرة ليلة، وقالت الهند: إذا نظر ناظرٌ إلى سهيل عند نهيق الحمار وبه صداعٌ عوفي. من خرافات العرب: أنَّ سَهِيلاً طلع بأرض العراق وقابل الزهرة، فضحكت إليه وقالت: أَلَسْتُ الذي يقال فيكَ إِنَّكَ كُنْتَ عِشَاراً فَمَسَخَكَ اللَّهُ شَهَاباً، عَقُوبَةً لَكَ؟ فَأَجَابَهَا وَقَالَ: لَيْسَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ النَّاسُ حَقّاً، فَقَدْ قَالُوا فِيكَ: إِنَّكَ كُنْتَ امْرَأَةً فَاجِرَةً فَمَسَخَكَ اللَّهُ كَوْكَباً مُضِيئاً يَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ.

فأما معرفة الشّرقيّ من الكواكب والغربي فيجب أن تعلم أنَّ الكواكب إذا كانت خلف الشّمس بخمسة عشرة درجة فهي شرقية في ذاتها إلى ما تَبَاعَدَتْ. وإذا كانت قُدَّامَ الشّمس بخمسة عشرة درجة فهي غربيّة في ذاتها إلى ما تَبَاعَدَتْ. والكوكب الشّمالي إذا جاز رأس جو زهرة إلى أن يبلغ ذنبه، والجنوبي إذا جازَ ذنب جو زهرة إلى أن يبلغ إلى رأسه.

وأما معنى اقتران الكوكبين فهو مسامّة أحدهما الآخر، لأنَّ أحدهما أعلى من صاحبه، وفلكه خلاف فلك الآخر، فيُسامِئُ أحدهما صاحبه فيحاذيان موضعاً واحداً من ذلك البرج، ويتحرّكان على سمت واحد، فيراهما الناظر مقتربين لبعدهما من الأرض، وبين أحدهما وصاحبه في العُلُوِّ بُعدٌ كثيرٌ فهذه العلّة صار اقتران الكوكبين، وهذا كما يقال: البروج المتصادفة إذا اتفقت في جميع الجهات، كالبروج النّارية مثل الحمل - والأسد - والقوس - والجوزاء - والميزان - والدّلُو. والبروج المتعادية: وهي المتصادة في كل وجه كالحمل - والسرطان - لأنَّ أحدهما ناري والآخر مائي. ومن هذا النوع قولهم: البروج الجامعة إذا دلّت على صلاح الحال. والبروج المبدّدة إذا دلّت على التّبديد والبروج

المعطية: تدل على اليسار والإحسان. والبروج الآخذة تدل على خلافه ومما يبين ما ذكرناه في سهيل قوله:

إذا ما نجومُ الليل أضت كأئها هجأينُ يطلعنَ الفلاةَ صواذِرُ
شاميةً إلا سهيلاً كأئه فنيقٌ غدا عن شوله وهو جافِرُ

ألا ترى أنه جعل يمانياً إذ كان مداره في شق اليمن. وجعل الثريا شاميةً إذ كان مدارها في شق الشمال. وقال آخر في سهيل:

فمنهنَّ إدلاجي إلى كلِّ كوكبٍ له من عماني النجوم نظيرُ

فجعله عمانياً إذ كان مجراه في ذلك الشق، كما جعل الأول يمانياً وفي معنى قوله: فنيقٌ غدا عن شوله وهو جافِرُ. يقول الآخر شعراً:

وقد لاح للسماري سهيلٌ كأئه قريعُ هجانٍ يتبعُ الشول جافِرُ

شُبّه في انفراده بفحلٍ انقطع عن الضراب فتنحى عن الإبل وتركها. وقال آخر:

إذا سهيلٌ لاح كالوقودِ فرداً كشاةِ البقرِ المطرودِ

فهذا يريد ويبصه وشعاعه وانفراده كما قال غيره يريد التّهيج، قال شعراً:

حتى إذا لاح سهيلٌ بسحرِ كعشوةِ القابسِ ترمي بالشرو

وقال آخر يصف ثور وحش:

فباتَ عذوباً للسماء كأئه سهيلٌ إذا ما أفردته الكواكبِ

الغذوب: القائم الذي لا يطعم. وقال آخر في انفراده:

مَن يكُ ذا مالٍ يكاشِرُ لِماله وإن كان أنأى من سهيلِ الكواكبِ

ويعارضُ عن مجرى النجوم ويتّحي ويسري إذا يسرينَ غير مصاحب

وقال آخر يصف رفقاءً تجمّعوا:

وفتية غيدٍ مِنَ التّسهيدي والنجمُ بين الغمِّ والتّعريدِ

فرداً كشاةِ البقرِ المطرودِ ولاحبِ الجوزاء كالعُنودِ

كأئها من نظيرٍ ممدودِ بالأفق إنظامان من فريدِ

الإنظام: القلائد ينظم فيها، والفريد: الشّدر، وإذا نظرتَ إلى الجوزاء وهو على الأفق

فتأملت نظمها رأيتها أشبه شيء بما وصف. وهذا من حسن التشبيه، وهذا كما شبهوا الكوكبين المتدانيين اللذين على منطقة الجوزاء بالعذبة، والعذبة في اللغة طرف السوط، وما أرسل من شراك التعل، وكذلك عذبة العمامة والغصن، والعذبة الطرادة أيضاً. وكما قال بعضهم: راية السماك يعني رمحه، ويسمى السماك وحده جارس السماء، لأنه يرى أبداً لا يغيب تحت الشعاع فلا طلوع له ولا غروب.

الباب السابع والخمسون

في ذكرِ الفجر - والشَّفَق - والزَّوال - ومعرفة الاستدلالِ بالكواكب وتبيين القبلة .

روي عن عُدي بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧] قال: عمدتُ إلى عقائين أحدهما أبيض، والآخر أسود، فجعلتهما تحت وسادي، فلما تقارب مرُّ اللَّيْلِ جعلتُ أنظرُ إليهما فلم يتبين لي شيء، فلما أصبحتُ غدوتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فضحك وقال: «وسادتكَ إذن لعريض اللَّيْلِ والنَّهار، إذن تحت وسادتكَ إنما ذلك اللَّيْلِ والنَّهار».

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنّه صَلَّى الفجر ركعتين ثم جلس على مجلس له ثم قال: هذا حين تبيّن لكم الخيطُ الأبيض من الخيطِ الأسود.

واعلم أنّ الفجر فجران: أحدهما قبل الآخر: فالفجر الكاذب يستدقّ صاعداً في غير اعتراض، ويسمى ذنب السّرحان لدقته، ولا يحلّ شيئاً ولا يحرمه، وإنما يؤذن بقرب النهار. وقال الخليل: الفجر ضوء الصّباح وقد انفجر الصّبح، والفجر المعروف منه. يقال: ما أكثر فجره وفي التّنزيل: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٦٠] لأنّ الحجر كان يفجر منه الماء في اثني عشر موضعاً عند نزولهم، فإذا ارتحلوا غارت مياهها. والفجر الثاني: هو الصّادق والمصدّق، قال أبو ذؤيب يذكر الثور والكلاب شعراً:

شغف الكلاب له الضّاريات فؤاده فإذا يرى الصّبح المصدّق يفزعُ
وإنما قال: يفزع لأنّه وقت القائض الفجر الثاني هو المستطير المنتشر الضّوء ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. قال أبو داود:

فلما أضاءت لنا سدفَةٌ ولاح من الصّبح خيطُ أنارا

وقال آخر:

نميتُ إليها والنّجوم شوايِبُ تداركها قدّام صبح مصدّق

والصُّبْح - والصَّبَاح - والإصباح واحد. وفي التَّنْزِيل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٦] والصَّبِيح: الحسن الوجه. وكذلك الصُّبْحَان، وقد صبح صباحة والحق الصَّابح البَيِّن، وقد صبح الحق يصبح صباحاً. والمِصْبَاح السَّراج وكما قيل: وَجْهٌ صَبِيحٌ قِيلَ أَيْضاً وَجْهٌ مَسْرُجٌ. قال: وفاحماً ومرسناً مسرجاً.

وكذلك الشَّفَق شفقان: أحدهما قبل الآخر، ومثاله من أول اللَّيْلِ مثال الفجرين من آخره، فالأول هو الأحمر وإذا غاب حُلَّت صلاة العشاء الآخرة. والثاني: هو الأبيض والصلاة جائزة إلى غروبه وهو يغرب في نصف اللَّيْلِ وآخر أوقات العشاء الآخرة نصف اللَّيْلِ.

والزَّوَال: يشار به إلى ما دلَّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] ودلوك الشمس: غروبها وزوالها، فدلَّ بالذُّلُوك على صلاة الظهر، وعلى صلاة المغرب، ودلَّ بقوله: إلى غسق وهو الظلام على صلاة العشاء الآخرة. وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٣٨] وهي العصر، وجعلها الوسطى لأنها بين صلاتين في النهار وصلوتين في اللَّيْلِ. وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] فدلَّ على صلاة الصُّبْح. وكان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا دحضت الشمس. يراد إذا زالت، وأصل الدَّحَض الزَّلَق وذاك أنها لا تزال ترتفع حتى في جَوْ السَّمَاء فتراها تقف شيئاً ثم تنحط، فحيثُ تزول وتحول الظِّل من جانب إلى جانب، ويسمى شيئاً. قال رسول الله ﷺ: «أَمْنِي جِبْرَائِيلَ مَرَّتَيْنِ فَصَلَّى الظَّهْرَ حِينَ مَالَتْ الشَّمْسُ قَيْدَ الشَّرَاكِ، وَصَلَّى الْعَصْرَ وَظَلَّهُ مِثْلُهُ، وَصَلَّى الْمَغْرِبَ حِينَ رَفَعَتِ الشَّمْسُ وَصَلَّى الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى الصُّبْحَ حِينَ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ صَلَّيْتُ الظَّهْرَ وَظَلَّهُ مِثْلُهُ، وَصَلَّى الْعَصْرَ وَظَلَّهُ مِثْلَاهُ، وَصَلَّى الْمَغْرِبَ حِينَ رَفَعَتِ الشَّمْسُ، وَصَلَّى الْعِشَاءَ حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، وَصَلَّى الْغَدَاةَ فَأَسْفَرَ بِهَا وَقَالَ: الْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ». ويروى أنه قال: إِنَّ الصَّلَاةَ فِيمَا بَيْنَهُمَا. فقوله ﷺ حين مالت الشمس قيد الشراك: يريد أنها زالت، فصار للشخص فيءٌ يسيرٌ قدر الشراك، وليس يكون هذا في كل بلد إنما يكون في البلد الذي ينتقل فيه الظِّل عند الزَّوَال، فلا يكون فيءٌ أصلاً. وقال الرَّاجِز:

إذا زقا الحادي المطيِّ اللَّغْبَا وانتقلَ الظِّلُ فصارَ جَوْرِبَا

وقال ابن مقبل وذكر فرساً:

يبنى على حاميهِ ظلٌّ حاركه يومَ توقَّده الجوزاء مسمومٌ

والحاميان: جانباً حافره. والحارك: فروع كتفيه وإذا قام ظل كل شيء تحته صار ظل الحارك على حامي حافره، فالحجاز وما يليه ينتقل فيه الظل، فأما البلد الذي تزول فيه الشمس، وللشخص ظل فإنه يعرف به قدر الظل الذي زالت عليه، فإذا زاد عليه مثل طول الشخص فذاك آخر وقت الظهر، وأول وقت العصر، فإذا زاد عليه مثلاً طول الشخص فذلك آخر وقت العصر، على ما روي في الحديث. فأما قول الشاعر:

إنني على أوني وأنجراري أوُم بالمنزل والذراري

فالأون: الرّفق والانجرار: سير الإبل وعليها أحمالها وهي ترعى وأوُم: يريد أقصد بمنازل القمر وكبار الكواكب فأهتدي. وقال ذو الرّمة وذكر الإبل:

تَيَاسَرَنَ عن جَزِي الفراقِد في الشُّرى وَيَأمَنُ شَيْئاً عن يَمِينِ المِغاورِ
يعني: أنهن قصدن وسطاً فيما بين الفرقدين وبين المغاور، وهي المغارب وذلك أن ابتداء المغارب قريب من منحدر بنات النّعش وقال لناقة:

فقلْتُ اجعلي ضَوْءَ الفَراقِد كلّها يميناً ومَهوى النّسرِ مِنْ عَن شِمَالِكِ

فإنما يصف سمتَ جهةٍ وأجراها أنه يريد في مسيره ما بين منحدر النّسر للمغيب وبين الفرقدين، فإذا أردت الاهتداء بالنّجوم فاعرف البلد الذي تؤمّه وفي أي أفق هو، فإن كان في ناحية المشرق كخراسان وما صاقبها، استقبلت منازل الشمس والقمر، إن كان مسيرك ليلاً والسماء مضحيةً وجعلت الجدي وبنات النّعش على يسارك والشّعريين وسهيلاً عن يمينك، وإن كنت في ناحية المغرب استدبرت منازل القمر وجعلت الجدي، وبنات نعش وراءك والشّعريين وسهيلاً عن يسارك. وإن كان في ناحية اليمين جعلت منازل القمر على يمينك وجعلت الجدي وبنات نعش أمامك، وسهيلاً وراءك، فإذا أنت فعلت ذلك فأنت على سمت الوجه الذي تريد إن كنت على الطريق غير راجع ولا جائز وإن كان مسيرك ليلاً والسماء غائمة استدلتك أيضاً بالمشرق والمغرب، فإن اشتبهت عليك استدلتك على المشرق بنسيم الصّبا وروحها، فإنها تأتي من ناحيته وعلى المغرب بريح الدّبور وحرّها في الصّيف.

وأما القبلة فالاستدلال عليها بالجدي: وذلك أن تجعله حذاء منكبك الأيمن، أو أخدعك، وإن كان مسيرك نهراً، فبالشمس، فإن ما بين المشرق والمغرب قبله المسافر.

وقال محمد بن كناسة: إذا سقط منزل من منازل القمر بالغداة عند نومه فعُدّ منها سبعة أنجم على موالاة العدد، فالسابع هو القبلة إلى أن يسقط العقرب. فإذا سقطت العقرب فالعائم قبله. والبلدة بعد تلك الساعة قليلاً قبله. ثم يعود الحساب فإذا سقط سعد الدّابع فالحوث قبله وهو السّابع. ومثال ذلك أنه إذا سقط الشّرطان كان السّابع منه الدّراع وهو

القبلة. وإذا سقط البُطين فالثَّرة قبله. وإذا سقط الثريا فالطرف قبله. وإذا سقطت الدبران فالجبهة قبله. وإذا سقطت الهقعة فالزبرة قبله، وإذا سقطت الثرة فالسماك قبله، وإذا سقط الطرف فالغفر قبله، وإذا سقطت الجبهة فالزباني قبله. وإذا سقطت الزبرة فالإكليل قبله، ثم يقع الشك في القبلة عند سقوط الصرفة - والعواء - والسماك - والغفر - والزباني - والإكليل - والقلب - والشولة - والتعايم - والبلدة.

وذلك لأنَّ العقرب تسقط جميعاً فلا يستقيم الحساب على سبعة أنجم، غير أنَّه إذا سقطت العقرب كلها كانت التعايم قبله. ثم البلدة قبله والقبلة قريب منها. ثم يسقط سعد الذابح فيكون رأس الحوت قبله. وهو مذموم بالكف الخضيب ويرجع الحساب إلى السابع. وقال ابن كناسة في ذلك وذكر طريق مكة، قال شعراً:

يوم النجوم السابغات من التي تأوب إلا أن تأوب عقربُ
فإن هي أنت فالتعايم أبها وبلدتها ثم السوابع أصوبُ

قال: وكواكب العقرب أربعة: منازل تطلع في الأوقات التي يَبْنَتْ وتسقط كلها في وقت واحد.

فصل

في صرف القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

ذَكَرَ الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٥] قال: بعث رسول الله ﷺ سريةً فأتتهم ضباباً، فصلَّوا لغير القبلة، فسألوا رسول الله ﷺ فلم يأمرهم بالإعادة، وكانوا يصلُّون نحو بيت المقدس فنزلت: فأينما ولَّوا فثم وجه الله، فقال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «وددتُ أنَّ ربي جلَّ جلاله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها»، فقال جبرائيل: إنما أنا عبد مثلك، فادع ربَّك وسلِّه ثم ارتفع جبرائيل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه بالذي سأل، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٤] الآية. قال: فنسخت هذه الآية ما كان من الصلوة قبلها نحو بيت المقدس، قال: وكانوا يصلُّون نحو صخرة بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، بعد أن قدم المدينة ثم حوَّل إلى الكعبة إلى الميزاب قبل بدر بشهرين.

وروي عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الذين ماتوا وهم يصلُّون إلى البيت المقدس فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣] وذكر سعيد بن المسيب أنَّ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٠] هم أهل القبلتين.

واعلم أنّ الذي لا غنى لمؤمن عنه ولا يتم إيمانه إلا به هو: العلم بأنّ الله ليس بناسخ مديحه، ولا حسن الثناء عليه، ولا أسماء الحسنى، ولا ما أضيف من الصفات العلى إليه، ولا ينسخ شيئاً من أخباره عمّا كان أو يكون، لأنّ نسخ المديح ذم وتقبّح ونسخ الأسماء الحسنى إثبات الأسماء السوءى، ونسخ الصفات العلى إيجاب للصفات السفلى، ونسخ الأخبار انصراف المخبر من الصدق إلى الكذب وعن الحق إلى الهزل واللّعب. وهذا من جَوَّزه على الله تعالى فيما مدح به نفسه، وأخبر به عباده الحد في أسمائه والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٠] يقول أيضاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١١٥] وهذا كافٍ، والاقتصار عليه واجب، لأنّ الكتاب لم يوضع لذلك فاعلمه إن شاء الله تعالى.

الباب الثامن والخمسون

في معرفة أيام العرب في الجاهلية، وما كانوا يحترفونه ويتعايشون منه . وذكر ما انتقلوا إليه في الإسلام على اختلاف طبقاتهم .

اعلم أنَّ احترام العرب في الجاهلية وقرب الإسلام على وجوه خمسة: قود الكتائب - وجَرُّ الغارات - وشَنُّها على القبائل حين كان الزَّمان من عزيز - وأخذ الرؤساء منهم المرباع - وما يجري مجراه من الصِّفية والفضول والنَّشِيطَة، وصنوف الاحتكام منهم . ثم الوفادات على الملوك في فكِّ الأسرى - وحقن الدِّماء وحمل الدِّيَّات - وإصلاح ذات البين وغيرها، ثم ترقية^(١) العيش من ظهور الإبل وبتونها ونتاج الخيل، ثمَّ غراس النَّخل - لذلك روي عنه ﷺ: «خير المالِ مهرةٌ مأمورة أو سكةٌ مأبورة» .

وروي أيضاً: الخيرُ معقودٌ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة إلى كثيرٍ تركناه لشهرته، كقوله ﷺ: «ارتبطوا إناث الخيل، فإنَّ ظهورها حرٌُّ وبتونها كنزٌ» . وكقوله ﷺ: «الخيـل تعدو بأحسابها فإذا كان يوم الزَّهان عَدت بحدودِ أربابها» وكقوله: «جعل رزقي في أطراف الأُسنة» يعني من الغزو، ثم طبقة العسفاء والجمالين وهذه حرفةٌ يرغب عنها كرامهم وصرحاؤهم فهذه وجوهٌ مكاسبهم، ومعالم حرفهم عليها تدور أزمتهـم قبل الإسلام وبها شافهت ما داناه .

ثم صارت في الإسلام على أربع طبقات:

الأولى: مهاجرون يقبضون الدَّواوين ويحفظ بهم البيضة فيغزون الثَّغور ويقاتلون العدو . حكى عن جعفر بن محمد قال: قال علي رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «الخيرُ في السِّيف والخير مع السِّيف والخير بالسِّيف» .

والثانية: مقيمون يعتملون سوارح الإبل وروائحها، ويتبعون مساقط الكلام، ومدافع المطر، ويكرّون عواملهم إلى الأمصار والكور ويتواردون الأرياف وجوانبه الخضر .

(١) في القاموس ترقية المال صلاحه والقيام عليه . ١٢ محمد شريف الدين .

والثالثة: طبقة مقيمة في مياهها ومحاضرها ومرابعها ومزالفها، راضيةً من العيش بما يحفظ عليهم التّجمل وينفي عنهم التقشّف والتبدّل، فيتّجرون فيما يعتنون جلباً، وينقلون ما به يقضون أرباباً.

والرابعة: العسفاء والأجراء ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الخيل العرب تراث أبيكم إسماعيل فاقتنوها واركبوها، وكان أول من ركبها إسماعيل وبنوه، وكانوا اثني عشر رجلاً يسمّون الفوارس». قال أسد بن مدركة متمياً في شعره إلى إسماعيل عليه السلام.

أبونا الذي لم يركب الخيل قبله	ولم يدر شيخ قبله كيف يركب
وعودنا فيما مضى من ركوبها	فصرنا عليها بعده نتلقب
لعمرك ما عمّاي شمّر ويهسّر	ولكنّما عمّاي بكرّ وتغلب
فإن يك أقواماً أضاعوا أباءهم	سفاهاً فما ضلّت ربيعة أكلب

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ هذه الخيل كانت وحشاً في الفلوات، لها أجنحة في مواضع أكتافها» قال: وكان في دور العجم مثل خلق الخيل صوراً لها كالأجنحة في مواضع أكتافها تسمّى بالفارسية درواسف وتفسيرها بالعربية ذو الأجنحة من الخيل، فلم أعرف معناه حتى سمعت هذا الحديث، قال ثم ذلت لاسماعيل وكانت معه في جزمهم فلما توفاه الله عادت وحشاً إلى مواضعها، حتى جاء زمن داود فذلت له ثم ورثها سليمان، وكان يعجب بها وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [سورة ص، الآية: ٣١] وكان أصحاب النّخل أكثر دعة وأرفع عيشاً، وأندى جناباً وأحضر نفراً من أرباب الإبل، إذ كانت الإبل أشدّ امتناناً لأهلها وابتدالاً لمتخذها مع ما يلحقها عند سقوط الغيث، ونبات البقل، ودرور الألبان من الفارة والتدود والشرود مع الكلف اللاحقة من لوازم الرّعاء والتّحفظ من الحزابة والسّلة ومع ما ينالها في شهب السنين من السّواف وسائر العاهات، وفي استقبال بارد الرّياح من الأدواء المهلكة، وتلحقها من عدوة السّباع الضّارية، حتى أنّ ربّها يمسي غنياً مكثراً ويصبح فقيراً مدقّاً.

والخيل ثلاثة أصناف: فمنها ملوك الخيل التي لا تُجارى، وهي تسبق بعنقها وكرمها وحسبها مع حسنها وتمام خلقها واستوائها وهي الرّوابع. والصّنف الثّاني المضامير: وهي سباع الخيل المتعالية اللّحوم، وخلقتها غير خلقة الأولى لكنها أخفّ وأرقّ منها. والصّنف الثّالث: ضباع الخيل قويّة شديدة تحمل الرّاد والمزاد في السّهل والجبل، وهي الغلاظ الشّداد، مع جودة الأنفس، لأنّ الغليظ أحوج إلى شدّة النّفس من غيره.

وقال أبو داود الإيادي يصف الجواد من الخيل بصفة جامعة يُستغنى بها عن تخصيص المفردات بما يحمّد منها:

وقد أغروا بطرفٍ هيكَل ذي مِيعَةٍ سَكَب

ذو مِيعَةٍ؛ أي جَزِي سائل، وكذلك السَّكَب، ويقال: فرس سكب وبحر وحت.

أَسِيل سلجَم المَقْبِل لا شَخْت ولا جَاب

السَّلْجَم: الطويل والشَّخْت: الدَّقِيق، والجَاب: الغليظ يريد أنه بين وصفين.

طَوِيلٌ طامَحُ الطَّرَفِ إلى مَفْزَعَةِ الكَلْبِ

يريد أنه يسمو بطرفه إلى حيث يفزعه الكلب من الصَّيْد إذا طلبه.

مَسَحٌ لا يُوَارِي العِيرَ مِنْهُ عَصَرَ اللَّهَبِ

اللَّهَب: شق في الجبل أي من إشراقه يراه، وإن كان مستسراً فيه بشيء.

مَكْر سَبَط العَذْرَةَ ذِي عَفْوٍ وَذِي عَقَبٍ

العَذْرَةَ: شعر النَّاصِيَةِ، والعَقَب: آخر الجري.

كَشَخَصِ الرَّجُلِ العَرِيانِ فَعَم مَدْمَجِ العَصَبِ

العَصَب: إدماج الخلقة.

لَهُ ساقَا ظَلِيمٍ خاضِبٍ فَوْحَى بِالرَّعْبِ

الخاضِب: الذي قد رعى الرِّبْع.

وَقَصْرِي شَبَحَ الْإِنْسَانَ بِنَاحٍ مِنَ الشَّعْبِ

الشَّعْب: الملتوية القرون.

وَمَتْنَانِ خَطَانَانَ كَزَحْلُوقٍ مِنَ الْهَضْبِ

الرَّحْلُوق: الأملس وكذلك الرَّحْلُوف.

يَهْزُ العُنُقَ الْأَجْرَدِ فِي مُسْتَأْمَقِ الشَّعْبِ

الأجْرَد: يريد به المحكم الأمر.

مِنَ الْحَارِكِ مَخْشُوشٍ بَجَنْبِ مَجْفَرٍ رَحْبِ

أي أدخل: في الجنب. والجفر: الواسع.

تري فاه إذا أقبلَ مثل الساقِ الجذبِ
السَّق: الأرض المتجرّدة من الثّبات.

نبيل سلجم اللّحين صافي اللون كالقلبِ
القلب: السّوار.

جواد الشّد والإحضار والتّقريب والعقبِ
عريض الخَدّ والجهة والصّهوة والجنبِ
يخذ الأرض خَد الصّمل سلط وأب
الصّهوة: مقعد الفارس، والصّمل: الشّد من الحوافر، والوَاب: الثّعب.

صحيح النّسر والحافر مثل الغمر القعبِ
لُه بين حواميه نسورٌ كنوى القسبِ
القسب: الثمر الرّديء.

وأرساغ كأعناقِ ضباعٍ أربعٍ غلبِ
والمستفرغ: الميعة بعد التّزع. والجذب: الميعة التّشاط.

يعني الخاضب الأخرج في ذي عمدٍ صهبِ
وعير العانة القب الحماص التّحص الحقب
يزيز البيت مربوطاً ويشفي قرم الرّكبِ

فبهذه الصفات وما يشبهها يختار جياد الخيل. وقال مرار بن منقذ يفصل النّخل على
سائر ما يحترف منه إذا أخرج الحقوق منها، قال شعراً:

كأئن من فتى سوء تراه	يعلكُ هجمة حمراً وجونا
يَضَنّ بحقها ويدمّ فيها	ويتركها لقومٍ آخرينا
وإنك لن ترى إبلاً سوانا	وتصبح لا ترين لنا لبونا
فإنّ لنا حظائر ناعمات	عطاء الله ربّ العالمينا
طلبن البحر بالأذنان حتّى	شرّبن جمامة حتّى رونا
تطاول محزمي صدي أشتى	بوايك لا ييالين السّينا
كأنّ فروعها في كلّ ربح	جوارٌ بالدّوائب يتتصينا

بنات الدَّهْر لا يحفلنَ محلاً
يسير الضَّيفُ ثمَّ يحلَّ فيها
فتلك لنا غنا والأجر باقٍ
بنات بناتها وبناتٍ أخرى
ولأحيحة بن الجَلَّاح في مثله:

لقد لامني في اشتراء التَّخِيلِ
وأهل الذي باعَ يلحونه
هو الظِّلُّ في الصَّيفِ حقَّ الظِّلِّيلِ
تغشى أسافلها بالجنوب
وتصبحُ حيث تبيتُ الرِّعَاءُ
ولا يُصبحون ييغونها
فَعَمَّ لعميكم نافعٌ

وقال كعب بن زهير يذمُّ الغنم، وقد أخذ مالاً ومعيشةً، شعراً:

يقولُ حَيَّان من عوف ومن جشم
من لي منها إذا ما جلبَةٌ أزمَتْ
أخشى عليها كسوباً غيرَ مدَّخِرٍ
إذا تولَّى بلحمِ الشَّاةِ تبذرها
إنَّ يَغْدُ في شِيعَةٍ لا يثنه نهرٌ
وإنَّ أغارَ فلا يحلَّى بطائِلَةٍ
إذ لا يزالُ فريش أو مغيبةٌ

الكسوب: يعني به الذَّئب. لا يشوي: أي لا يصيب غير المقتل وقوله: لا يثنه نهر: أي نهار، يقال: ليلة نهرة أي مضيئة. وقوله: في شِيعَةٍ: يعني أصحابه من الرِّباب، وابن جمير: أظلمُ ليلةٍ في الشَّهر، وهي التي لا يطلع القمر فيها من أولها إلى آخرها. والعظم: السَّخال التي قد فطمت. يقول: جاء يطلب الكبار فلما لم يجدهنَّ ساور الصَّغار. والمغيبة: التي قد دنت من الموت، وفيه بقية. والصَّيداء: التي قد التوت عنقها وتنشج: أي ما لها نشج وصوت من الدَّم.

قد ذكر بما اقتصر كيف كان أصل خيل العرب، فأما النبي ﷺ فكان له خمسة أفراس: الظَّرب - والسَّكَب - واللَّزَّار - واللَّجاف - والمرتجز، سُمِّي به لحسن صهيله.

ثم خيل أصحابه كان لجعفر بن أبي طالب فرس أنثى يُسمّى سبحة يقال اسمها سمحة، وكان عرقها يوم استشهد وهو أول من عرق الخيل في الإسلام، كانت تحته يوم استشهد في غزوة مؤتة. ولحمزة بن عبد المطلب فرس من بنات العقال قال فيه شعراً:

ليس عندي إلا السلاحُ ووردُ فارخُ من بناتِ ذي العقال
أَتَقِي دونه المنايا بنفسِي وهو دوني تغشى صدورَ العوالي
وفي هذا ألمٌ بقولِ الآخر:

أقيه بنفسِي في الحروب وتقي بها دية إنّي للخليل وصولُ

وكان تحت الزبير بن العوام يوم بدر فرس يُسمّى يعسوب. وتحت المقداد بن الأسود فيه فرس يقال له: ذو العنق، ولأبي ذر فرس يسمّى الأجدل، ولمحمد بن مسلمة فرس يسمّى ذا الجناح، ولعبّاس بن مرداس فرس يسمّى العتيد، ولعكاشة بن محصن فرس يقال له: أطلال كانت تحته يوم القادسية، وتحدث أنّ الناس أحجموا عن عبور نهرها أو خندقها، وكان عرضها أربعين ذراعاً، فصاح بها فخلفته وثباً، حتى قال أهل النظر: ذلك من معجزات النبي ﷺ.

وسباق: خيل العرب مشاهير. كأعوج الكبير، وأشقر مروان. والزّعفران فرس بسطام بن قيس، وثادف واليحموم وزهدم وإنما المراد التّنيه على مكاسب صميم العرب وفضلاتهم، والإشارة إلى ما تنطوي عليه أيامهم في الجاهلية وقبيل الإسلام، وفيمن صحب النبي ﷺ.

وأما فرسان العجم فلم يذكر لهم خيل ولا فرس سابق إلا أدهم اسفنديار - وشبديز كسرى - ورخش رستم - وذكروا عنها أحاديث ظريفة.

فأما الشجاعة والصبر على المجاهدة فناهيك ما روي عن رسول الله ﷺ، وما حكي عن قول القائل: كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ، وما قاله عبد الملك بن مروان في حديث عمرو بن ود. خرج عمرو يوم الخندق معجباً بخيلائه، فبرز له أبو الحسن فضربه ضربةً سطحه بها، وكان لمثلها فعلاً. وقيل لعلي: هل رأيت أحداً؟ قال: نعم الوليد بن عتبة كان حدثاً، فضربه ضربةً على رأسه فبدرت منه عيناه.

ومتّما يشهد لما آثرناه عن العرب من حسن تفقّدهم للخيل، واشتغالهم بمصالحها واشتراكهم في إثارهم إيّاها على أنفسهم، والتّوفر على مناقبها ومذاها لما يرجونه من جميل العقبي، منها: ما روي عن امرئ القيس وعلقمة بن عبدة العجلي. وذكر أنهما تنازعا في الشعر واحتكما إلى أم جندب، امرأة امرئ القيس، وادّعى كلّ منهما أنّه أشعر من

صاحبه، فقالت قولاً شعراً في صفه الخيل على روي واحد، فقال امرؤ القيس في قصيدته:

خَلِيلِي مَرَا بِي عَلَى أُمِّ جَنْدَبٍ لَتَقْضِي حَاجَاتِ الْفَوَادِ الْمَعْدَبِ
فَلِلْسَوِّطِ الْهَوْبِ وَلِلْسَاقِ دَرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعُ أَخْرَجَ مَتْعَبِ

وفي نقيضها قال علقمة:

فَوَلَّى عَلَى آثَارِهِنَّ بِحَاصِبٍ وَغِيَّةَ شُؤْبِوبٍ مِنَ الشَّدِّ مَلْهَبِ
فَأَدْرَكَهُنَّ ثَانِيًا مِنْ عَنَانِهِ تَمُرُّ كَمُرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فحكمت لعلقمة على امرئ القيس، وقالت: أما أنت فحمدت نفسك بسوطك وزجرك ومريك إياها بساقل. وأما هو فإنه أدرك فرسه الطريدة ثانياً من عنانه لم يمره بساق، ولم يضربه بسوط، ولم يزجره بنده، فقال امرؤ القيس: ما هو أشعر مني ولكنك تعشيقه فطلقها. وقال طفيل شعراً:

وَلِلْخَيْلِ أَيَّامٌ فَمَنْ يَصْطَبِرْ لَهَا وَيَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا الْخَيْرَ يَغُفِّبْ
وَقَالَ مَالِكُ بْنُ نَوِيرَةَ شِعْرًا:

جَزَائِي دَوَائِي ذُو الْخِمَارِ وَصُنْعَتِي بِمَا بَاتَ مَطْوِيًّا بَنَى الْأَصَاغِرُ
رَأَى أَنَّنِي لَا بِالْقَلِيلِ أَهْوَرُهُ وَلَا أَنَا عَنْهُ بِالْمَوَاسَاةِ ظَاهِرُ

أهوره: أي لا أظن القليل يكفيه، يقول: هو يهار بكذا ويهابه: أي يتهم ويزن. قوله: ولا أنا عنه ظاهر: من قولك: ظهرت لجاجة فلان إذا لم يعن بها. وقال عنترة لامرأة:

لَا تَذْكُرِي مَهْرِي وَمَا أَبْلِيئُهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرِبِ

يعني: أنه إن آذته ضربها حتى يظهر عليها أثر الضرب.

شعر:

إِنَّ الْغُبُوقَ لَهُ وَأَنْتِ مَسْوּءَةٌ فَتَأْوْهِي مَا شِئْتَ ثُمَّ تَحْوِبِي
فَذَوْقُوا كَمَا ذُقْنَا غَدَاةَ مَحْجَرٍ مِنَ الْغَيْظِ فِي أَكْبَادِنَا وَالتَّحَاوِبِ
كَذَبَ الْعَتِيقُ وَمَاءُ شَنْ بَارِدٌ إِنْ كُنْتَ سَائِلَتِي غُبُوقًا فَادْهَبِي
إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْخَلِي وَتَخْضَبِي
وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَرَجْلَهُ وَابْنَ التَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي
وَأَنَا امْرُؤٌ إِنْ يَأْخُذُونِي عَنْوَةً أَقْرَنُ إِلَى شَرِّ الرِّكَابِ وَأَجْنَبِ

وقد قال بعض الرواة: لم يكن قوم أشد عجباً بالخيل، ولا أعلم بها، ولا أصنع لها

ولا أطول لها ارتباطاً، ولا أهجى لمن لم يتخذها، أو اتخذها وأهزلها، ولا أمدح لمن اتخذها وأكرمها منهم.

وكذلك أضيفت إليهم بكلّ لسان - ونسبت إليهم بكلّ مكان - وفي كلّ زمان - حتى قالوا: هذا فرس عربي، ولم يقولون: رومي، ولا هندي، ولا فارسي فحسبوا تحصين الحرم، وصانوها صون المهج، ليبدلوا يوم الرّوع ويأمنوا بها أوان الخوف، وليجعلوها درية يوم اللقاء، ووصلة إلى درك الثّار حتى قالوا: إنّ الحصون الخيل، لا مدّر القرى، كما قال الآخر شعراً:

ولمّا نأت عنّا العشيرة كلّها أنخنا فخالفنا الشّيوف على الدّهر

وكانوا يصبرون على مؤنتها في الجذب، ويغتبقون الماء القراح في الأزل ويؤثرونها على العيال بالصّنيعة، ليكافئ عند الطلب، أو الهرب، ولذلك قال الأشعري مالك الجعفي:

لكنّ قعيدةً بيننا محفوةً بادٍ جناجنُ صدرها ولها غنى
تقفى بعيشة أهلها وثابةً أو جرشع عبل المحازم والشّوى

وقال خالد بن جعفر الكلابي:

أريغوني أراغتكم فإني وحذفة كالسّجى تحت الوريد
أسوّيها بنفسي أو بحرّ وأحفها ردائي في الجليد
أمرت الرّاغيين ليؤثروها لها لبنُ الحلوبة والصّعود

البابُ التاسع والخمسون

في ذكر أفعال الرياح لواقحها - وحوائلها - وما جاء من خواصها في هبوبها وصنوفها.

قال مؤرخ من خواص الجنوب: أنها تثير البحر حتى يسود، وتظهر كل ندى كائن في بطن الوادي حتى يلتصق الأرض، وإذا صادفت بناءً بُني في الشتاء والأنداء أظهرت نداه وحسنه، حتى يتناثر ويطيل الثوب القصير، ويضيق الخاتم في الإصبع، ويسلس بالشمال والجنوب تسرى بالليل. تقول العرب: إنَّ الجنوب قالت للشمال: إنَّ لي عليك فضلاً أنا أسري، وأنت لا تسرين. فقالت الشمال: إنَّ الحرة لا تسري وقال الهذلي:

قد حال دون دريسمة ماوية مسعُ لها بعضاة الأرض تهزيرُ

الماوية: التي تهب بالتهار كله إلى الليل ثم تسكن، قال الله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ [سورة سباء، الآية: ١٠] أي: سبّحي النهار كله. ومسح الشمال والدريس: الثوب الخلق، والشمال تستدري منها بأدنى شيء، ويترك منها رحلك، وذرى الشجرة والجنوب لا يستر منها شيء، وربما وقع الحريق بالبادية في اليبس، فإن كانت الريح جنوباً احترق أياماً، وإن كانت شمالاً فإنما يكون خطأ لا يذهب عرضاً. وللشمال ذرى الشجرة، وذلك أن يجتمع التراب من قبلها فيستدري بالشجر، فإن كان الشجر عظماً كانت لها جراثيم، وإن كانت صغاراً ساوى التراب غصونها، ولا ذرى للجنوب ترى ما يلي الجنوب منها عارياً مكشوفاً. والشمال تدم بأنها تقشع الغيم وتجيء بالبرد، وتحمد بأنها تمسك الثرى، وتتصاحب الضباب، فتصبح عنها كأنها ممطرة، وتصبح الغصون وتنظف وأكثر ما يكون عن غب المطر، فإذا ارتفعت الشمس ذهب الندى وتقطع الضباب وانحسر، وليس من الرياح أدوم في الشتاء والصيف من الشمال، كما أنه لا شيء منها أكثر عجاجاً وسحاباً، لا مطر فيه وهي هيف، تقشر الأرض، ويحرق العود من النكباء التي بين الجنوب والدبور التي تهب من مغيب سهل.

وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿وأزسلنا الرياح لواقح﴾ [سورة الحجر، الآية: ٢٢]

جمع ملقحة على لواقع. قال: ورأيت العرب تجعل الرياح لقاحاً للرياح لأنها تنشئ السحاب وتقلبه وتصرفه وتحله. قال الطرماح وذكر برداً استظل به:

قَلِقْ لَأَفْنَانِ الرِّياحِ للاقح منها وحائل

فاللاقح: الجنوب لأنها تلقح السحاب، والحائل: الشمال لأنها لا تنشئ سحاباً، وكما سموا الجنوب لاقحاً سموا الشمال عقيماً، لأنها عندهم لا تحمل كما تحمل الجنوب. وقال كثير: ومَرَّ بِسَفَسافِ الترابِ عقيماً.

وقال أبو وجزة:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوْىَ مِنْهُنَّ فِي مَسَدٍ مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مَهْدَاجٍ

يذكر حميراً وردت ماءً يقول: أدخلت قوائمها في الماء، وهذا الماء من نسل جوابة الآفاق، أي ريح تجوب البلاد، أي هي أخرجته من الغيم واستدرته، فجعل الماء لها نتاجاً ولداً، فالرياح على هذا هنَّ اللواقح.

وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشئ السحاب، وتسدده وتصف بواقي الرياح بقلة المطر، والهبوب في سني الجذب. قال أبو كثير الهذلي:

إِذَا كَانَ عَامٌ مَانَعِ الْقَطَرُ رِيحُهُ صَبَا وَشَمَالَ قَرَّةٌ وَدَبُورُ

فأخبر أنَّ هذه الثلاثة لا قطر معها، وأنَّ القطر مع الجنوب.

وقال طرفة:

وَأَنْتَ عَلَى الْأَدْنَى شَمَالَ عَرِيَّةٍ شَامِيَّةٍ تَزْوِي الْوُجُوهُ بَلِيلُ

وَأَنْتَ عَلَى الْأَقْصَى صَبَا غَيْرَ قَرَّةٍ تَدَأْبُ مِنْهَا مَزْرَعٌ وَمَسِيلُ

فأخبر أنها إذا لم تكن باردة كان معها القطر، ولعلَّ الهذلي أراد مثل هذا فاكتفى بذكر الشمال ووصفه. وقال آخر:

فَسَائِلُ سَبْرَةِ الشَّجَعِيِّ عَنَّا غَدَاةٌ تَحَالِيَا نَجْوَا جَنِيَا

والنَّجو: السحاب، والجنيب: الذي أصابته جنوب، فشبّه حفيفهم في القتال بحفيف المطر، وقال المسحل:

حَارَ وَعَقَّتْ مَزْنَةُ الرِّيحِ وَالْعَارِيَةِ الْعَرَصِ وَلَمْ يَشْمَلِ

حار: تحير وتردد، وعقت: قطعت، ولم يشمل: أي لم تصبه الشمال فيقشعه.

وقال أبو كثير:

حَتَّى رَأَيْتَهُمْ كَأَنَّ سَحَابَةً صَابَتْ عَلَيْهِمْ لَمْ يَشْمَلْ وَذُقْهَا
وقال آخر من هذيل:

مَرَّتْهَا التَّعَامَى وَلَمْ تَعْتَرِفْ خِلَافَ التَّعَامَى مِنَ الشَّامِ رِيحًا

التَّعَامَى: الجنوب، وَمَرَّتْهَا: استخرجَتْ مطرها، وَمِنَ الشَّامِ: يريد الشَّمال، فهذه
كَلَّهَا تجعل العمل في المطر للجنوب، وتجعل الشَّمال يقشع السَّحاب، ويسْمُونَهَا محوَّةً،
لأنَّهَا تمحو السَّحاب.

قال العجاج:

سَغَرُ الشَّامِ الزَّبْرَجِ الْمَزْبَرَجَا قَدْ بَكَرَتْ مَحْوَةً بِالْعَجَاجِ
فَدَمَّرَتْ بَقِيَّةَ الرُّجَاجِ

السَّغَرُ: القشر، والزَّبْرَجِ: السَّحاب.

وكان الأصمعي يحكي عن العرب: أَنَّ ما كان من أرض الحجازة فالجنوب هي التي
تمرّ السَّحاب فيه والشَّمال تقشعه. وما كان من أرض العراق، فالشَّمال تمرّ فيه
السَّحاب ويؤلفه، ولم يقل إنَّ الجنوب تقشعه، ولا أَنَّهُ لا عمل لها فيه. قال: وأحسبه أراد
أَنَّ الشَّمال والجنوب تفعلان ذلك جميعاً بأرض العراق دون الحجاز، وعلى هذا وجدتُ
بعض الشعراء. قال الكُميت، وكان ينزل الكوفة:

مَرَّتْهُ الْجَنُوبُ فَلَمَّا اكْفَهَرَّ حَلَّثَ عَزَالِيهِ الشَّامُ

فجعل الجنوب تستدرّه والشَّمال تحلّه. وقال عدي وكان ينزل الحيرة وينتقل في أرض
العراق: وجيء بعد الهدو يزجيه شمالاً كما يُزجي الكسير فاستدرَّتْ به الجنوب على
الحرير، فالجنوب سيره مقصور، يريد لثقله وجعل الشَّمال تسوقه والجنوب تستدرّه، لأنَّ
الجنوب عند أهل الحجاز وما يليه هي التي تأتي بالغيث حتَّى جعلوها مثلاً للخير. قال
حميد:

لِيَالِي أَبْصَارِ الْغَوَانِي وَسَيْرِهَا إِلَيَّ وَإِذْ رِيحِي لَهَنَّ جَنُوبُ

وعلى حسب تيمّنهم بالجنوب وتصييرهم إيّاها مثلاً للخير، تشاؤمهم بالشَّمال
وتصييرهم إيّاها مثلاً للشر. قال أبو وجزة يذكر امرأة:

مَجْنُونَةُ الْأَنْسِ مَشْمُولٌ مَوَاعِدُهَا

جعلها لا تفي بوعدها كالشمال لا تأتي بالغيث. قال زهير شعراً:

جَرَتْ سَحًّا فَقَلْتُ لَهَا أَجِيزِي نَوَى مَشْمُولَةً فَمَتَى اللَّقَاءُ

وقال بعضهم: أراد جرت الطير بها من ناحية الشمال، ولذلك قيل: اليمَن والشُّؤم، فاليمَن من اليمَن، والشُّؤم من اليد الشُّؤمى، قال: وقد يتشاءمون بها من جهة البرد، قيل لبعضهم: ما أشدَّ البرد؟ فقال: ريح جرياء في أثر عماء، في غب سماء. والجرياء: الشمال والعماء: السحاب يريد شمالاً هبَّت بعد مطر، وقيل لآخر: أي الأيام أقرَّ فقال: الأحصُّ الورد، والأزب الهلوف.

قال أبو عمرو: الأحص الورد: يوم تطلع شمس، وتصفو شماله، ويحمر فيه الأفق، ولا يجد لشمسه مساً. والأحص: التي لا سحاب فيه كالرأس، والأحص: الذي لا شعر عليه، قال والهلوف: يوم تهب فيه التكباء تسوق الجهام والصراد لا تطلع شمس، والأزب: من الإبل الكثير الوبر.

يقال: لحية هلوفية إذا كانت كثيرة الشعر، واليوم إذا كان بهذه الصفة كان ذا زمهرير، وكانوا يقولون مع هذا: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض وإذا ذخرت الأودية بالماء كثرت الثمر، والمؤتفكات: الرياح البوارح وهي شمال حارة في الصيف، وذات عجاج، سميت لتقلبها العجاج، مؤتفكات ولا أحسبهم أن لها عملاً في ذلك، وإنما يريدون أن عضوفها، إذا اشتد وكثر كان ذلك إمارة الزكاء، ويجوز أن يكونوا أرادوا بالمؤتفكات الرياح كلها إذا اشتدت.

قال بعض الحكماء: الرياح على ثلاثة أضرب: منها ما هي من الملائكة وصفتها أن تكسح من الأعلى إلى الأسفل، وتهب صافية ثم تنقطع، ومنها ما هي حركة الجو، وصفتها دوام هبوبها صافية، وكدرة سفلاً وعلواً.

وروى طائوس في خبر يرفعه: لا تسبوا الرياح ولا المطر ولا الرعد ولا البرق، بعثن رحمة للمؤمنين وعذاباً على الكافرين. وفي حديث آخر: لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن. وفي آخر: ما هلك قوم ولا عاش آخرون إلا بهبوب الرياح ودور السحاب.

وذكر بعضهم أن الروم تسمي الأمطار والرياح نقالات الدول. وعن سفيان الثوري: الدعاء عند هبوب الرياح وتحت المطر لا يُرد.

وقال بعضهم: التسيم الطيب صديق الروح، قال: والرخاء: ريح سليمان وكانت تحمل عرشه، وقيل: التسيم يدو كل ريح، يقال: نسمت الريح.

ويروى عن عبد الله بن عباس أنه قال: الرياح في كتاب الله ثمان: أربع منها رحمة:

الناشرات والمبشرات والذاريات والمرسلات، وأربع منها عذاب: القاصيف والعاصف والعقيم والصّرصر.

وقال الحكماء: الجنوب ريح، ذكر سعد شرقي حار لاقح يقوّي السحاب ويفجّر الأمطار، ويلقح الأشجار.

وقال؛ راح تمرّ به الصّبا ثم انتحى فيه شؤوب جنوب، منفجرٌ ويُسمّى الأرنب والنعامي.

ويروى عن جعفر بن محمد أنّه قال: إنّ الجنوب تخرج من الجنة وتمر بالنار فيصيبها وهجها، فما فيها من حرٍّ فمن ذاك، وهي ريح بروج الرّبيع، كما أنّ الشّمال ريح بروج الصّيف، وهي أبرد الرّياح.

ويروى عن جعفر بن محمد الشّمال: تمر بالجنة جنة عدن فتأخذ من طيب عرفها، فتمرّ بها على أرواح الأبرار والصّديقين. والدّبور تهيج الرياح وتثيرها وهي أشدّ الرّياح على ركاب البحر، ولا تهب إلا عاصفاً، وهي التي أرسلت على قوم عاد.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصّبا وأهلكْتُ عادٌ بالدّبور»، وهي ريح بروج الخريف. والصّبا لطيب نسيمها وهبوبها لقبْتُ بريح العشاق.

وقال ابن دمية:

ألا يا صبا نجد متى هجّت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجدي
وقال امرؤ القيس:

إذا قامتا بضوئ المسك منهما نسيم الصبا جاءث بريح القرنفل
وقال آخر:

أريد لأنسى ذكرها فيهيّجني نسيم الصّبا من حيث ما يطلع الفجر

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجَنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٩] هي الصّبا. وقالت العرب: عصف الجنوب في الخريف دليل النّقمة، وعصف الدّبور في الرّبيع دليل العذاب، وعصف الشّمال في الشّتاء دليل الوفاء، وعصف الصّبا في الصّيف دليل البؤس. وقيل في الدّبور: هي ريح بروج الشّتاء.

وقالت الحكماء: مهبّ الجنوب من مطلع الشّمس إلى زوالها، ومهبّ الشّمال من مطلع الشّمس إلى غروبها. ومهبّ الدّبور من مغرب الشّمس إلى شطر اللّيل. ومهبّ الصّبا من شطر اللّيل إلى طلوع الشّمس، لا تطلع هذه في هذه ولا هذه في هذه.

البَابُ السَّتُون

في ذكر الأوقات المحمودة للتَّوَّءِ والمطرِ وسائر الأفعال، وذكر ما يُنْطَيَّرُ منه أو يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ به .

اعلم أنَّ العرب تحمد الولد إذا وُلِدَ في الهلال، فإنَّ حملته في قبل الطَّهر كان ذلك أعجب إليها، ولذلك قالت الفارعة أخت لقمان بن عاديا لإمرأة إني امرأة نזור وزوجي رجلٌ محمق، وأنا في ليلة طُهرِي، فهي لي ليلتك، واسميني على فراشك فإذا رجع لقمان من عند الشَّرب ثملاً، فوجدني على فراشك. وقع عَلَيَّ، وهو رجلٌ منجبٌ فعسى أن ألد منه ابناً نجيباً، فأجابتها إلى ذلك، فوقع عليها لقمان فحبلت بلقيم بن لقمان. ولذلك قال النمر بن تولب لقيم بن لقمان: فإنَّ ولدته قبلَ النَّهار كان ذلك الغاية . قال:

ولدتُ في الهلالِ مِنْ قَبْلِ الطَّهْرِ وقد لَاحَ لِلصَّبَاحِ بِشِيرُ
وقال الرَّاعي:

وما أُمُّ عبد الله إلا عطيةٌ من الله أعطاهَا امرأً فهو شاكِرُ
هي الشَّمْسُ وافاهَا الهلالُ فنسلُها نجومٌ بِأَفَاقِ السَّمَاءِ نظائرُ

والمنجَمون يزعمون أنَّ الهلالَ نحسُّ، ونحن نجد عامة حاجات النَّاسِ إنما تجزىء مع الأهلة منها التاريخات كلَّها، ومحل الدِّيون، وفراغ الصَّنَاع والتَّجار، ويوم الفطر، وآجال المستغلات، وقدوم الولاة، وزيادة المد، ونقصان الجزر، ما بين الصَّيبين إلى المزار، والمواعيد، والإجازات، وأكثر الحيض الذي جعله الله مصححة أبدان النساء . ثم نزول الغيث الذي نشر الله به رحمته فأحيا به الأرض بعد موتها، وفي حياتها حياة مَنْ عليها ولأسد بن ناغضة جاهلي في شأن عبيد بن الأبرص شعرُ:

غداة توخَّى الملك يلتمسُ الحيا فصادف نحساً كانَ كالذِّبرانِ
وللأسود بن يعفر يهجو رجلاً:

ولدتَ بحادي التَّجمِ يحدو قريته وبالقُلبِ قُلبِ العُقرِبِ المتوقِّرِ

وقال آخر جاهلي:

فسيروا بقلب العقربِ اليومَ إنَّه سواءٌ عليكم بالتحوسِ وبالسَّعدِ
وقال آخر:

فإنَّك قد بعثتَ عليك نحساً شقيت به كواكبُه ذكُورُ
وقال آخر:

فإن يك كوكب الصَّمعاء نحساً به ولدت وبالقمر المحاقُ
وقال الأصمعي: إذا كان المطر عندهم في سرار الشَّهر كان محموداً، ورجوا غزارته، وكثرة الخيرات به. وأنشد للرَّاعي:

تلقي نوءَهـنَّ سرارُ شهرٍ وخيرُ النَّوء ما لقي السَّرارُ
وقال الكميت:

هاجث له من جنوح اللَّيل رائحةٌ لا الضبُّ ممتنعٌ منها ولا الوزلُ
في ليلةٍ مطلعِ الجوزاءِ أولها دهماءٌ لا قرخٌ فيها ولا رَجُل
يريد إنَّ هذه الليلة من السَّرار، فلا ضوء في أولها، وهو القرخ، والقرخ: بياض وجه الدَّابة. وقوله: مطلع الجوزاء أولها يريد أنَّها من الشَّتاء، والجوزاء في الشَّتاء يطلع أول اللَّيل.

وقال الحطيئة:

باتت لها يكسب حريه ليلة وطغاء بين جماديين درورُ
قوله: بين جماديين يريد أنَّها ليلة لا يدري أي آخر من الشَّهر الأول، أو أول ليلة من الشَّهر الثاني. وأراد أنَّ المطر كان في السَّرار أو في الغرة.
وإذا كان أيضاً في الغرة كان محموداً.

قال الكميت:

والغيثُ بالمتألقات من الأهلة في النَّواحرِ
النَّواحر: جمع ناحرة وهي اللَّيلة التي تنحر الشَّهر، أي تكون في نحره.

وقال ابن أحمر:

ولا مكللة راجَ الشَّمال بها في ناحراتِ سرارٍ بعدَ إهلالِ

وقد توافقوا كلهم على هذا إلا أبا وجزة، فإنه ذكر نصف الشهر فقال:

في ليلةٍ لتمام التّصف من رجبٍ خوارة المزنِ في أفتارها طولُ
وليس يحمدون المحاق إلا في المطر وحده، وقال جران العود، وذكر امرأة تزوّجها
فلم يستوفّقها: قال شعراً:

أتوني بها قبلَ المحاق بليلاً وكان محاقاً كلّ ذلك الشهرُ
وحكى المفضل أن زبّان بن سيار خرج غازياً ومعه النّابغة فرأى جراداً، فقال النّابغة:
جرادة تجرد ذات ألوان. فانصرف متطيّراً، ومضى زبّان فغنم وسلم فلما قفل قال شعراً
يخاطب به النّابغة من ذلك قوله شعراً:

شعر:

تعلّم أنّه لا طيرَ إلا على مُتطيّر وهو الثّبورُ
بلى شيء يوافقُ بعض شيء يفاجئنا وباطله كثيرُ
ومن يبرخ به لا بُدَّ يوماً يجيء به نعيٌّ أو بشيرُ
وقال الكميّ:

اللّورق الهواتف أم لبالكِ عمّ عمّا يزنّ به غفولُ
البائي: الغراب يقول: يزن بأنه ينعب بالفراق وهو غافل عن ذلك. وقال الكميّ
لجذام في انتقالهم إلى اليمن شعراً:

وكان اسمكم لو يزجرُ الطيرَ عائفٌ لبيّنكم طيراً منبئةً الفألِ
أي اسمكم جذام، والزّجر فيه الانجذام، وهو الانقطاع. وقال أيضاً يمدح زياداً:
واسمُ امرئ طيره لا الطيّبيّ معترضاً ولا النّعيق من الشّحاجة النعبِ
فقال اسمه زياد، فالزّجر فيه الزيادة والشّحاجة الغربان.

وقال آخر:

دعا صردً يوماً على ظهر شوحطٍ وصاح بذاتِ البين منها غُرأبها
فقلتُ: أتصريدٌ وشحطٌ وغربةٌ فهذا لعمري نأبها واغترأبها
وقال في مخالفته آخر:

وقالوا: عقابٌ قلتُ: عقبى من النّوى دنتُ بعد هجرٍ منهم ونزوحُ

فزجر في العقاب الخير ثم قال :

وقالوا حماماً قلت حمّ لقاؤها وعادَتْ لنا ريح الوصال تفوح
وقالوا تغتّى هدهدٌ فوق ليلة فقلتُ هدى نغدو به ونروح

قال أبو العباس المبرد: ولم أرهم زجروا في الغراب شيئاً من الخير لكتي سمعتُ بيتين
أنشدتهما بعضهم في المدح والتفاؤل به أحدهما:

نعبُ الغراب فَرَّقَ بالمشتاق فدنا وصاح بِرؤية وتلاق
لا سُلَّ ريشك إذا نعبت بقربهم ووقاك من ريبِ المنية واق
والآخر:

نعب الغراب بِرؤية الأحباب ولذاك صرثُ أحبُّ كلِّ غراب
لا سُلَّ ريشك إذ نعبت بقربهم وسقيت من نام صيب سحاب
وسكنت بين حدائق في جنة محفوفة بالتخلي والأعنان

ولم أسمع غير ذلك، ويقال للعائف الحازي، وكان أصل التطير في الطير، وكذلك
الرجز بأصواتها وعددها والتغلي والتنسف، ثم صاروا إذا عابوا الأعور والأعصب والأبتر
زجروا وزجروا بالسnoch والبروح. وقد تقدّم فيه كلام وقال رؤية:

يشقى به العرآن حتى أحسبا سيداً مغيراً أو ليحاً مغرباً

اللياح: الثور الأبيض، وكانوا يتشاءمون بالمغرب وقال:

قد علم المرهتون الحمقى ومن تجزي عاطساً أو طرقاً
ألا نيالي إذ يدرنا الشرقاً أيوم نحس أم يكون طلقاً

وقال:

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكلٍ سديدٍ مسكٍ الجنب فغم المنطق

وقال:

وخزق إذا وجهت فيه لغزوة مضيت ولم يحبسك عنه الكوايس

الكداس: العطاس وكانوا يتطيرون منه. وكانوا إذا عطس العطاس قالوا: قد أنجمنا أي
منعنا. وقال ابن الأعرابي: يقال: عطست فلاناً النجم أي أصابه الهلاك الذي يتطيّر فمات،
قال والنجم أيضاً دويبة صغيرة. وقال ذو الرمة:

ولا أبالي النجم العواطسا

وقال طرفة:

لعمري لقد مَرَّت عواطسُ جمَّةٌ ومَرَّ قَيْلَ الصَّبْحِ ظَبْيٌ مَصْمَعٌ
قال عواطس لأتة رأى أشياء مما يتشاءم بها، فجعل كل واحد كالعاطس وجعل الظبي مصمعاً: وهو الصَّغِيرُ الأذن استقباحاً له. وقيل: المصمع: المسرع. قال:

وعجراًء دَفَثَ بالجنّاح كَأَنَّهُ مع الفجر شيخٌ في بجادٍ مُقَنَّعٍ
فإن تمنعي رزقاً لعبدٍ يصيبه ولن تدفعي بُؤْسِي وما يتوقَّعُ

قال الفرزدق:

إذا وطناً لمغتنيه ابن مدرِكٍ فلقيتُ من طيرِ العراقِيبِ أخِيلاً
ويقال: صَبَّحَهُم بأخيل: أي بشؤم. ويقال: بَعِيرٌ مخيول: إذا وقع الأخيل على عجزه فقطعه. وقال الأعشى:

انظر إلى كفٍّ وأسرارها هل أنت إن أوعدتني صابِراً
جعله مثلاً لأنَّهم كانوا ينظرون إليها يستدلُّون بها. وقال جرير في طريقته:
وما كانَ ذو شغبٍ يمارس عيصنا فينظر في كفيّه إلا تندّما
العيص: الأكمة شبه حسبهم بها، ومعنى ينظر في كفيه أي إذا تعيف علم أنه لاقٍ شراً.
وقال المرقم السدوسي مخالفاً لهم شعراً:

ولقد غدوتُ وكنْتُ لا أغدو على واقٍ وحاتمٍ
فإذا الأشائم كالأيام من والأيامن كالأشائم

الواق: الصرد، والحاتم: الغراب. وأنشد الجاحظ:

ولستُ بهيَّابٍ إذا شدَّ رحلُه يقول: عداتي اليوم واقٍ وحاتمٍ
ولكنّه يمضي على ذاك مقدماً إذا صدَّ عن تلك الهناتِ الخنارمُ

الخنارم: المتطهَّر من الرِّجال.

قال الجاحظ: ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا التمام والزَّنائم وعشروا إذا دخلوا القرى كتعشير الحمار، واستعملوا في القداح الآمرة والنَّاحية والمترَبص، وهي غير قداح الإيسار ويشتقون من اسم الشيء المعاین أو المسموع ما يقيمون به العادة في ذلك، فجعلوا الحمام مرةً من الحمام ومرةً من الحميم، ومرةً من الحمى. وجعلوا البان مرةً من البين، ومرةً من البيان.

وقال الحارث بن حلزة، وكان ينكر الطيرة: يا أيها المزمع ثم انثنى. الأبيات وقد مرّت في باب العيافة والقيافة. وأنشد المفضل شعراً:

تغتالُ عرضَ الرّويّة المذالة ولم ينطعها على غلاله
إلاّ بحُسن الخلق والتّباله آذن باليين صريدُ الصّاله
فبات منه القلبُ في البلباله ينزو كنز والطير في الجباله
صريد: تصغير صرد، وأضاف إلى الصّالة، وهذا كما يقال: غراب البين.

ولقي النبي ﷺ حضرمي بن عامر في ناس من قومه فنسبهم النبي ﷺ وقال: «من أنتم؟» فقل: نحن بنو الرّنية فقال عليه السلام: «بل أنتم بنو الرّشدة» فقالوا: لا نرغب عن اسم أينا، ولا نكون مثل بني محوله، يعنون بني عبد الله بن غطفان. قال: «بل أنتم بنو عبد الله فسّموا بني محوله».

وما ذكرناه في هذا الباب كافٍ في موضعه، وقد استقصيت الكلام في فنونه وشعبه في كتابي المعروف (بعنوان الأدب) وذلك في الباب الجامع لذكر الرّموز والعادات. وهو باب كثير الفوائد، غريب الموارد.

وفي الحديث: أنه كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، واعترض بعضهم عليه فقال: إذا كان الفأل لا يوجب إلّا مثل ما توجب الطيرة فيما يرجى أو يخاف، فلا فصل بينهما وذاك أن قول القائل يا واجد وأنت باغ، لا يوجب أمراً بخلاف ما يوجب قوله: يا مضلّ، لأنّ مطلوبك على ما كان عليه لا حقيقة تبدّله، ولا مجاز يغيّره، فيؤدّي الحالتين على طريقة واحدة. قلت: إنّ تسمع كلمة في نفسها مستحسنة وتكون قد أحدثت من قبل طمعاً في أمرٍ من عند الله تعالى فيعجبك سماعك لها إذ كان الطمع خلاف اليأس، ولأنّ الكلمة وافقته. ومثاله أن تسمع وأنت خائف يا سالم، فالفأل لا يوجب السّلامة، ولكن كأنّه يبطل اليأس، ويدفع سوء الظّن، والرّجاء بالله وحسن الظّن به محمودٌ مندوبٌ إليه، وإذا ظنّ أنّ المرجو من حيث وافق تلك الكلمة كالأقرن، وفرح بذلك فلا بأس عليه. وإذا كان الأمر على هذا فالطيرة بعيدة من هذا، وكذلك المتطرّف فيما يأتيه أو يذرّه وهذا ظاهر.

وحكى الجاحظ عن الأصمعي، قال: هرب بعضُ البصريّين من بعض الطّوايعين فركبَ حماراً ومضى بأهله نحو سفوان، فسمع غلاماً له أسود يحدو خلفه ويقول: لن يسبق الله على حمار، ولا على ذي ميعّة مطار أن يأتي الحتف على مقدار، قد يصبح الله أمام السّاري، فلمّا سمع ذلك رجع بهم، ومن أعجب ما لهم قول الشّاعر:

فإنّ ييراً فلم أنفث عليه وإنّ يفقد فحقّ له الفقد

وقول آخر:

فلم أرفه إن ينح منها وإن يمت فطعنة لاغسٍ ولا بمغمـر

لأنَّ ظاهر هذا الكلام يقتضي أنَّهم كانوا إذا شكوا سلامة رميهم رقوا نبالهم برقية، ونفثوا فيها نفث السّواحر في عقد ما يرمونه من سحرها. وهذا كما اعتقد في النيران وهي كثيرة ينسب بعضهم إلى العجم، وبعضهم إلى العرب وفي أثنائها نيران الديانات حتى عُبِدَت. ويذكر هنا ما يأخذ كتابنا هذا منه بحظ، فقد استقصى الجاحظ القول فيها، وذكر أحوال المعظمين لها والمستهينين بها وقد قال الله تعالى في ذكر الثقلين: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فِئَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الزحمن، الآية: ٣٥-٣٦] وليس يريد أنَّ التعذيب بالنار نعمة يوم القيامة، ولكنه أراد التحذير بخلقه لها والوعيد بها غير إدخال النَّاس فيها، وإحراقهم بها، وفي ذلك نعمة من الله مجددة، إذ كان حال من حذر مخالفاً بحال من أهمل وترك وما يختاره. وقال الشاعر يد الخصب شعراً:

في حيث خالطت الخزامي عُرفُجاً يأتيك قابسُ أهله لم يقبُس

ومن أمثالهم: في كلِّ شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. وفي الجاهلية الأولى إذا تابعت عليهم الأزمات، وركد البلاء، واشتدَّ الجذب، واحتالوا إلى استمطار جمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذناها وبين عراقيها السِّلَع والعشر ثم صعدوا بها في جبلٍ وعِرٍ وأشعلوا فيها النَّار وضجّوا بالدعاء والتضرع، وكانوا يرون أنَّ ذلك من أسباب السّقيا. لذلك قال أمية بن أبي الصلت:

سنة أزمة تخيل بالناس ترى للعضاة فيها صريرا
سلع ما ومثله عشر ما عايل ما وعالت البيقورا

ويقال: بقر وبافر وبيقر وبيقور وبقير. وقال بعضهم: تقربوا بذلك، كما تفرّد بعضهم بقربان تأكله النَّار فإنهم كانوا يأتون بالقرايين ويوقدون ناراً عظيمةً وتدنى تلك القرايين في لخلف منها وهم يطوفون حولها ويتضرعون، فإذا أكلت النَّار وقد أشعلوها تلك القرايين عدّوا ذلك قبولاً لها، وإسعافاً بالمطالب منها. وأنشد القحذمي للورل الطائي في لاستمطار:

لا دَرَّ دَرَّ رجالٍ خابَ سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعُشْر
أجاعلُ أنتَ بيقوراً مسلعةً ذريعةً لك بينَ الله والمطر

وعلى ذِكْرِ النَّار فللعرب منها ما يذكر في الرموز. ومنها ما يجعل علامةً لحوادث نحذر. ومنها ما يُضرب بذكره مَثَلٌ، أو يعقد به ديانة، أو يقام به تشبيه وسنة، والجاحظ قد

أثار الزَّهَج في جمعها ووصفها، والكلام عليها وعلى المتدِّينين بعبادتها، وأنا أذكر منها هنا ما يكتفى به إن شاء الله تعالى.

قال الجاحظ: قال الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً إِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [سورة يس، الآية: ٨٠] النار من أكبر الماعون، وأعظم المرافق، ولو لم يكن فيها إلّا أنّ الله تعالى جعلها الزّاجرة عن المعاصي، لكان في ذلك ما يزيد في قدرها ونباهة ذكرها وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَراً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة، الآية: ٧٣] فالعقل المعتبر إذا تأمل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَراً﴾ تصوّر ما فيها من النّعم أولاً ومن النّقم آخراً. وقد عذّب الله تعالى الأمم بأنواع العذاب ولم يبعث عليهم نارا لأنّه جعلها من عذاب الآخرة.

قال: ومن النيران بعدما ذكرها من أنَّ العرب في الجاهليَّة كانت تستمطر بالنَّار التي كانوا يوقدونها عند التحالف، فلا يعقدون حلفهم إلَّا عندها، وكانوا يقولون في الحلف: الدَّم الدَّم والهدم الهدم لا يزيده طلوع الشَّمس الأشدا، وطول اللَّيالي الأمداء، وما بُلَّ البحر صوفة، وما أقام رضوى في مكانه، إذ كان جبلهم رضوى أو ما أنفق من مشاهير بلادهم يؤكدون العقود بمثل ذلك، وعلى هذا ما ورد في الخبر أنَّ النبي ﷺ قال للأَنْصار لَمَّا أرادوا أن يبايعوه، فقال أبو الهيثم بن التَّيهان: إنَّ بيننا وبين القوم حبلاً نحن قاطعوها ونخشى إنَّ الله أعزُّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك، فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال: «لا بل الدَّم الدَّم، والهدم الهدم، والدَّم الدَّم» أي حُرمتي مع حرمتكم أطلب الدَّم بطلبكم، وأعفو بعفوكم، فأجرى الكلام ﷺ على ما كان يجريه حينئذٍ عند التحالف وقال الشاعر:

ثم الحقني بهدمي ولدمي: أي أصلي وموضعي. والهدم متحركاً المهذوم. وقال أوس بصف عرباً:

إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمَهُولِ حَالِفُ
وَكَانَ قَوْمٌ اخْتَلَفُوا عِنْدَ نَارٍ فَغَشَرُوهَا حَتَّى مَحْشَتِهِمُ النَّارَ، فَسَمَوْا الْمَحَاشِ. لَذَلِكَ قَالَ
النَّبِیُّ یُخَاطَبُ رَئِیسَهُمْ.

جَمَعَ مُحَاشِكَ يَا يَزِيدُ فَإِنِّي جَمَعْتُ يَرْبُوعاً لَكُمْ وَتَمِيمَا
وَنَارَ أُخْرَى: وَهِيَ الَّتِي كَانُوا يُوقِدُونَهَا خَلْفَ الْمَسَافِرِ وَالزَّائِرِ الَّذِي لَا يَرِيدُونَ رَجُوعَهُ.
لِذَلِكَ قَالَ بَشَارُ:

صَحُوتِ وَأَوْقَدَتْ لِلجَهْلِ نَارًا وَرَدَّ عَلَيْكَ الصَّبِيُّ مَا اسْتَعَارَا
ونار أخرى توقد لجمع النَّاسِ للحرب، وتوقُّع جيش عظيم. قال عمرو بن كلثوم:
وَنَحْنُ غَدَاةٌ أَوْقَدَ فِي خَزَازِي رَفَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرَّافِدِينَا

ونار أخرى: وهي نار الحرّتين وهي نار خالد بن سنان، ولم يكن في بني إسماعيل نبياً قبله، وهو الذي أطفأ الله تعالى به نار الحرّتين، وكان حرّةً ببلاد عبس، فإذا كان الليل فهي نارٌ تسطع في السماء، وكانت طيء ينفس بها إبلها من مسيرة ثلاث، وربما ندرت منها العنق فتأتي على ما تقابله فتحرقه. وإذا كان النهار فهي دخان يفور فبعث الله تعالى خالد بن سنان عليه السلام، فأطفأها وله قصة مروية.

وروي أن ابنته قدمت على رسول الله ﷺ فبسط لها رداءه وقال: «هذه ابنة نبيّ ضيّعه قوم» وأنشدوا شعراً:

كنار الحرّتين لها زفيرٌ تصمُّ مسامع الرّجل البصيرِ

ونار أخرى وهي التي أطفأها خالد بن الوليد لما أرسله رسول الله ﷺ إليها، وكان السّادن احتال حتى رماه بشرّ يوهمه أنه لتعرّضه لها فقال: كفرانك لا سبحانك إني رأيتُ الله قد أهانك، فكشف الله تعالى ذلك الغطاء برسول الله ﷺ.

فأما نيران السّعالي والجن والغيلان فلها شأن آخر. والنّار التي توقد للطّباء وصيدها معلومة.

ومن النّيران المذكورة نار أبي حباب، ونار الحباب أيضاً، وقيل أبو حباب رجل كان لا يتنفع به في ماعون ولا في موقد نار، فجعل ناره مثلاً لكلّ نار تراها العين، ولا حقيقة لها عند التماسها ونسبت إليه. وقال القطامي:

ألا إنّها نيرانٌ قيسٍ إذا شتّوا لطارق ليلٍ مثل نارِ الحبابِ
ويشبه نار الحباب نار البرق.

ونار اليراعة، واليراعة: طائر صغير يصير بالليل كأنها شهاب قذف أو مصباح يطير. وكانوا ربّما أوقدوا ناراً واحدة وربّما أوقدوا نيراناً عدة، وربّما أوقدوا نارين. فالواحدة توقد للقرى، ويستدلّ بها الضالّ والمتحير في الظلمة في الليل البهيم. والمطعم يوقد الليل كلّهُ في الشّتاء. ولذلك قال الشاعر شعراً:

له نارٌ تشبُّ بكلّ وإدٍ إذا النيران ألّبت القنّاعا
وما أن كان أكثرهم سواماً ولكن كان أرحبهم ذراعاً

وقال مزرد:

وشبّت له ناران نارٌ برهوة ونار بني عبد المدان لدى الغمر

فأما الإكثار من النيران في مجمعهم فكما يكثرون من الدّبح فيه مخافة أن يجزرهم

جازر، فيستدل بقلّة الذّبح والتّيران على قلّة العدد وضعف العدد، وهذا من مكائدهم.

ومن أحسن ما قيل في نار الصّيافة قول الأعشى:

لعمري لقد لاحث عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ في بقاع يحرقُ
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها ويات على الثّار النّدى والمحلّق
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحهم داج عوض لا نفرقُ
وقول الحطيئة أحسن منه وهو:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجدُ خير نارٍ عندها خيرُ موقد
ونار أخرى وهي نار الميسم: ويقال: ما نارك؟ فيقول: علاطة أو خباطة، أو كذا
لذلك قال بعض الحزاب:

تساكني الباعة أين دارها إذ زعزعوها فسّمت أبصارها
فكلّ دارٍ لأناسٍ دارها وكلّ نار المسلمين نارها

قد وفرنا قسط هذا الباب لفوائده، وقد أتى الجاحظ على ذكر نيران العرب والعجم
ونيران الديانات، فبلغ الغاية، ولم يترك لمتتبع مقالة، وإن كان أخلّ بذكر نارين، إحداهما:
نار الغدر، وهي التي أرادها زبير في قوله شعراً:

وتوقد ناركم شرراً ويرفع لكم في كلّ مجمعةٍ أواء

والثانية: نار الوشاة: وهي التي أرادها أبو ذؤيب في قوله:

أبى القلب إلا أم عمرو فأصبحت تحرق ناري بالشّكاة ونارها

البابُ الحادي والستون

في ذكر الاستدلال بالبرق، والحمرة في الأفق، وغيرهما على الغيث

قال أبو عمرو تقول العرب في السحابة: تنشأ إن تبهزت متنكبةً وميضها ضعيف يخفى مرّةً ويظهر أخرى، فقد أخلفت ومعنى تبهزت: تقطعت والبهز حُفَر تكون في الأرض، ومعنى تنكبت: عدلت عن القصد، ومنه التكبء في الرياح.

وحُكي عن أبي عبيدة قال: قلت لأعرابي: ما أسخّ الغيث؟ قال: ما ألحقته الجنوب ومرته الصّبا، ونتجه الشمال، وإذا كان السحاب أبيض يبرق بضوء فذاك دليل مائه، ويقولون: إذا رأيت السماء كأنه بطن أتان قمراء، فذلك الجود. قال الشاعر:

وأضحى يحطّ المعصمات حزيرة وأصبح رجّاف اليمامة أقمرا

الرجّاف: ما رجف من السحابة. وقال آخر: وهو المتنخل الهذلي يذكر مطراً شعراً:

تمدّ له حوالبُ مشعلاّت تجلّلهنّ أقمر ذو انعطاطٍ

قالوا: وإذا كانت السحابة تبرق كأنها حواء ناقة، وهو ما يخرج مع الولد فذلك من علامات.

وإذا كانت السحابة نمرة فهي خليقة بالمطر لذلك قال قائلهم: أرينها نمرّة - أركها مطرّة. والتمرة التي ترى سحابها صغاراً يتداني بعضها من بعض، ويكون كلون التمر، وإذا كان السحاب بطيئاً في سيره، فذاك دليل على كثرة مائه ولذلك قال الهذلي يصفه:

وأقبل مرّاً إلى بحدلٍ سباق المقيّد يمشي رسيفاً

وقال عبيد:

دانٍ مسفٍّ فويقَ الأرض هَيْدْبُهُ يكاد يدفعه مَنْ قام بالزّاح

جعل له هدباً يتدلّى لثقله ودنّوه من الأرض.

شعر:

فَمَنْ بِنَحْوَتِهِ كَمَنْ بَعْقَوْتِهِ وَالْمُسْتَكَنَّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْزَوَاحٍ
ومثله قول الآخر:

أَسْدَفُ مُنْشَقِّ عِرَاهِ فَذُو الْأَدْمَاتِ مَا كَانَ كَذِي الْمَوْتَلِ
الأسدف: الأسود وجعل عراه ينشقّ بالماء والدمث: السهل اللين، والموتل: المكان المرتفع الذي يثل الناس إليه من السيل.

وروي أن المعقّر البارقي سأل ابنته عن السحابة وقد كفّ بصره، وإنما سمع صوت رعدة فقالت: أرى سحماً عفاقة، كأنها حواء ناقة ذات هيدبٍ دانٍ وسيرٍ وإن فقال: يا بنية وأتلي بي إلى جنب قفلة، فإنها لا تنبت إلا بمنجاةٍ من السيل. القفل: ضرب من الشجر لا ينبت إلا مرتفعاً من السيل وإذا كان السحاب أذهب إلى البياض فذاك دليلٌ على أنه لا ماء فيه وعلى الجذب. قال النابغة شعراً:

صَهْبَاءُ ظَمَاءُ أَيْبَنَ الْيَبَنِ عَنْ عَرَضٍ يَزْجِينَ غِيماً قَلِيلاً مَاؤُهُ شَبَمَا
وقال أمية بن أبي الصلت يذكره شدة الزمان في الشتاء:

وَشَوَذَتْ شَمْسُهُمْ إِذَا طَلَعَتْ بِالْجَلْبِ هَفَاً كَأَنَّهُ الْكُتْمُ

شوذت: عليت وعممت، ويقال للعمامة المشوذ والجلب: سحاب لا ماء فيه، والهف: الرقيق. وذلك من علامات الجذب.

وقد يعترض في الأفق حمرة بالغداة والعشي من غير سحاب في الشتاء فيستدل به على قلة الخير وشدة الزمان. وقال النابغة شعراً:

لَا يَيْرُمُونَ إِذَا مَا الْأَفْقُ جَلَّلَهُ صَرُّ الشِّتَاءِ مِنَ الْإِمْحَالِ كَالْآدَمِ

يريد: لا يخلون في هذا الوقت، والبرم: الذي لا يدخل مع القوم في المسير. وقال الكمي:

إِذَا أَمَسَتْ الْأَفَاقُ حُمْراً جَنُوبُهَا لَشِيَّانَ أَوْ مِلْحَانَ فَايَوْمَ أَشْهَبُ
وقال الفرزدق:

يَغْضُونَ بِأَطْرَافِ الْعِصِيِّ تَلْفَهُمْ مِنَ الشَّامِ حَمْرُ الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ

يريد حمر الأفاق: أول النهار وآخره، فهذه الحمرة التي بينتها ودلت عليها بشواهدا

من الشعر وغيره هي التي تدلّ على الجذب.

وقد يستدلّ بالحمرة إذا اشتدّت جداً في السحاب المخيل وإنّما تكون من شعاع الشمس عند الطلوع وعند الغروب على المطر. والفرق بينهما أنّ تلك تكون بغير سحاب أو تكون مع شيء رقيق منه، وحمرة الغيث تكون شديدة عند الطلوع وعند الغروب في سحاب متكاثف مخيل. والحمرة التي يشير إليها إنما هي من قرص الشمس لأنك تراه في المشرق والمغرب للغبار والبخار، والضباب المعترض بينك وبينها أحمر وأصفر للهواء الملابس لها، وقد توجد النار تختلف على قدر اختلاف النعظ الأزرق والأبيض والأسود.

وذلك كلّه يتغيّر في مرأى العين بالعرض الذي يعرض للعين، وعلى قدر جفوف الحطب ورطوبته، وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان تجدها حمراء أو صفراء أو خضراء.

ولذلك يوجد برق السحاب مختلفاً في الحمرة والبياض على قدر المقابلات والأعراض، وتجد السحابة بيضاء، فإذا قابلت الشمس بعض المقابلة فإن كانت السحابة غريبة والشمس منحطة، رأيته صفراء ثم حمراء ثم سوداء تعرض العين لبعض ما يدخل عليه، وقال الفلتان الفهمي في النار:

ويوقدها شقراء في رأس هضبة

وقال مزّرد:

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعلياء يشز للعيون التواظير

وقال الراعي وهو يريد أن يصف لون ذئب:

كدخانٍ مرتجلٍ بأعلى تلعة غرثان حزم عرفجاء ميلولا

المرتجل: الذي أصاب رجلاً من جراد وهو يشويها وجعله غرثان لأنه لغرث لا يميز الرطب من اليابس، فهو يشويها بما حضره، وأدلة هذا الكلام كلّه ليكون لون الدخان ولون الذئب الأطل متفقين، فأما شيم البروق فكانوا يقولون: إذا بلغت سبعون برقة انتقلوا ولم يبعثوا رائداً لثقتهم بالمطر، وإذا كان البرق عندهم وليفاً وثقوا بالمطر. والوليف: الذي يلمع لمعتين. قال الهذلي شعراً:

لسماء بعد أشتاب النوى وقد بكّ أجبت برقاً وليفاً

وإذا تتابع لمعانه كان مخيلاً للمطر.

ويقال: ارتعج البرق إذا كثر وتتابع. وقال الرّاجز شعراً:

سحاً أهاضيب وبرقاً مرعجاً يجاوب الرعد إذا تبوجا

وإذا تتابع بلمعتين لمعتين شَبَّه بلمع اليدين. قال امرؤ القيس شعراً:

أصاح ترى بزقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حَبِيٍّ مَكْلَلٍ
الحبي: السحاب المشرف، مَكْلَلٌ بعضه على بعض.

ويقال: مَكْلَلٌ بالبرق وإذا كان خفوّاً كان دليلاً على الغيث. وقال حميد بن ثور شعراً:

خفا كاختذاء الطير وهناً كأنه سراجٌ إذا ما يكشفُ اللَّيْلَ أَظْلَمَا

واختذاء الطير: تغميضها أعينها وفتحها إياها، كأنها تلقي القذى منها، وكلهم يجعل البرق يمانياً ولا يجعله أحدٌ شامياً، لأنَّ الشامي أكثره خَلَبَ عندهم، وهذا يدلُّ على أنَّ المطر للجنوب لأنها يمانية. وقال آخر شعراً:

ألا حَبَّذا البرقُ وحَبَّذا جنوبٌ أتانا بالعشيِّ نسيْمُها

ويقال: أوسم البرق إذا بدا وألاح إذا أضاء ما حوله. وأنشد لأبي ذؤيب شعراً:

رأيتُ وأهلي بوادي الرّجيع مِنْ آلِ قِلَةٍ برقاً مليحاً

ويقال: أوسمت المرأة؛ إذا بدا ثديها ينوء. قال أبو عبد الله وقال العقيلي: إذا رأيتُ

السَّمَاءَ قد أصحابت فكانها بطن أتان قمرء. ورأيتُ السَّحابَ متدلياً كأنه اللَّحْمُ الثَّنت، مستمسك منه ومنهرت، فحيثُ الغياث. وقال أبو صالح الفزاري: كنا نقول: إذا رأيتُ البرق في أعلى السَّحابة أو في جوانبها فهي بإذن الله ماطرة غير مخلقة، وإذا رأيتُ البرق في أسافلها فقد أُخْلَقَتْ.

الباب الثاني والستون

في الكواكب الحُسن وفي هلال شهر رمضان

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ [سورة التكويد، الآية: ١٥ - ١٦]
وقد تقدّم القول في أنّها خمسة: زحل - والمشتري - والمريخ - والزهرة - وعطارد. وأنّها
سيّارة كالشمس - والقمر. وقد يسمّى بعضها بغير هذه الأسماء المريخ بهرام. ويسمّى
المشتري البرجيس - ويسمّى الزهرة أناهيد - ويسمّى زحل كيوان - ويسمّى القمر ماه -
وتسمّى الشمس مهر - ويسمى عطارد نير - وقال رؤية:

أسقيه نضاح الصبا بجيسا كافح بعد الثرة البرجيسا
البرجيس: المتفجّر، وفي القرآن: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [سورة الأعراف،
الآية: ١٦٠].

ويقال: هذه أرض تنبجس عيوناً، وكافح: واجه. والثرة: من ذوات الأنواء،
والبرجيس: هو المشتري، ولا حظّ له في المطر عندهم، وظن رؤية أنه من ذوات الأنواء،
وهذا كما أنّ الكميّ قال وهو يصف ثوراً بشدّة العدو شعراً:

ثم استمر وللاشباه تذكيرة كأنه الكواكب المريخ أو زحل

أراد أن يشبّهه بكوكب منقصر، فظنّ أنّ المريخ وزحل ينقضّان، وقيل في عذر رؤية:
إنه كان سمع البرجيس وإنه اسم كوكب، وخفي عليه أنه اسم المشتري في لسان غيرهم.
وقيل في عذر الكميّ: إنّ انقضاض الكوكب إسلامي رجم به مسترقة السمع، ولم يعرف
قبل الإسلام فلذلك خفي عليه أنّ المريخ وزحل ليسا من الرجوم. وإنما سمّيت هذه
الكواكب خُنُساً لأنها تسير في الفلك ثم ترجع، بينا أحدها في آخر البروج كَرَّ راجعاً إلى
أوله، ولذلك لا ترى الزهرة في وسط السماء أبداً، وإنّما تراها بين يدي الشمس أو خلفها.

وذلك أنّها أسرع من الشمس، فتستقيم في سيرها حتى تجاوز الشمس فتصير من
ورائها، فإذا تباعدت عنها ظهرت بالعشاء في المغرب، فتري كذلك حيناً ثم تكرر راجعة نحو

الشمس حتى تجاورها، فتصير بين يديها فتظهر حيثئذ في المشرق بالغداة، هكذا هي أبداً، فمتى ظهرت في المغرب فهي مستقيمة ومتى ظهرت في المشرق فهي راجعة، وكل شيء استمر ثم انقبض فقد خنس، ومنه سُمي الشيطان خناساً لأنه يوسوس في القلب، فإذا ذكر الله خنس، وسُميت كُنساً بالاستسرار كما تكس الظباء. وصفات الخنس الزهرة أعظمها في المنظر، وأشدّها بياضاً ثم المشتري في مثل هيئتها. وفي زحل كمودة. وفي المريخ حمرة وفي عطارد صفرة. وقد تقدّم القول في استسرار القمر، وأنه يقطع المنازل في استساراه كما يقطع في ظهوره. وأنهم يسمّون آخر ليلة في الشهر البراء لتبرؤ القمر من الشهر فيه. وأما قول الشاعر شعراً:

يا عينُ بكي عامراً وعسا يوماً إذا كان البراء بخسا

فالمراد إذا لم يكن فيه مطر، لأنّ المطر يُستحب في سرار القمر.

فأما هلال شهر رمضان فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا غَمَّ عليكم فأكملوا العدة». وهذه رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي حديث آخر: «إذا غَمَّ عليكم فاقدروا له» رواية ابن عمر رضي الله عنهما. ومعنى أقدروا له: قدّروا له المسير والمنازل.

يقال: قدرت الشيء وقدرته بمعنى، والتقدير له يكون إذا غَمَّ على الناس ليلة ثلاثين في آخر شعبان لليلة ويعلم أنه يمكث ستة أسابيع ساعة من أولها ثم يغيب وذلك في أدنى مفارقتة للشمس، ولا يزال يزيد في كل ليلة على مكثه في الليلة قبلها ستة أسابيع ساعة، فإذا كان في الليلة السابعة غاب في نصف الليل، وإذا كان في ليلة أربع عشرة طلع مع غروب الشمس، وغرب مع طلوعها ثم يتأخر طلوعه عن أول ليلة خمس عشرة ستة أسابيع، ولا يزال يتأخر طلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة فإن لم يُرَ صُبح ثمان وعشرين، علّم أن الشهر ناقص وعدته تسعة وعشرون يوماً.

وإن رُوي علّم أن الشهر تام وعدته ثلاثون، وقد يُعرف أيضاً يمكث الهلال في ليالي النصف الأول من الشهر ومغيبه، وأوقات طلوعه ليالي النصف الآخر من الشهر، وتأخره عن أول الليل، ويتعرف من المنازل بأن الهلال إذا طلع في أول ليلة من شعبان في الشرطين، وكان شعبان تاماً طلع في أول ليلة من شهر رمضان في الثريا، وإن كان شعبان ناقصاً طلع في البطين، وهذا أمرٌ يضيق ويصعب على الناس، ويكثر فيه التنازع والاختلاف، فنسخه رسول الله ﷺ بقوله: «إذا غَمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» ولا يمكن أن يرى الهلال بالغداة في المشرق بين يدي الشمس وبالعشي في المغرب خلف الشمس في يوم واحد، ولكن يمكن ذلك في يومين فهو حين يستسر ليلة واحدة، وإذا كان في ثلاثة فهو حين يستسر ليلتين.

وأما ما روي من قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» فإن اللّام فيه بمعنى بعد ومثله قوله تعالى: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِئَدَّتِهِنَّ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ١] واللّام لإضافة عدّة مواضع. وقد ذكرتها أو أكثرها في غير هذا الموضع، وقال بعض أهل النظر: المراد صوموا لما أقبل من رؤيته.

وكذلك طلقوهنّ لما أقبل من عدّتهن. قال وقيل كلّ شيء وجهه وأوله، كما أنّ دُبره آخره، وكلّما يؤقّت فله أوّل وآخر، فما دام زائداً فهو مقبل، فإذا أخذ في التّقصان فهو مدبر مثل النهار فهو مقبل من الفجر إلى الاستواء لأنّه في الزّيادة ثم مدبر، لأنّه في التّقصان إلى اللّيل، ولا يقال: هو مقبل وقد أقبل إلّا عند دخول وقته. ومنه قوله ﷺ: «إذا أقبل اللّيل وأدبر النهار فقد أفطر الصائم». ولا يجوز أن يقال: أقبل اللّيل إلّا بعد مغيب الشّمس، لأنّ الصّائم لا يعود مفطراً إلّا به لقوله: فقد أفطر الصّائم. أي انقضى صومه لذهاب وقته ودخول وقت آخر لا يكون الصّوم فيه ويؤيد هذا الذي ذكرناه قول الرّاجز شعراً:

وقلّة الطّعّم إذا الزّاد حَضَرَ وتركى الحسناء في قَبَل الطّهر

لأنّ المراد أوّل طهرها لا ما قبله من الحيض، فمراد الشّاعر فيه مثل مراد الأخطل حين قال شعراً:

قومٌ إذا حاربوا شَدّوا مآزرهم دونَ النّساء ولو باتت بإطهارٍ

وقد بيّن غيره بأنّهم من هذا الذي قال:

أفبعدَ مقتلِ مالكِ بن زهير ترجو النّساء عواقبَ الأطهار

وهذا ظاهر ولو جاز أن يكون إقبال شيء في إدبار غيره الذي هو ضده لكان الصّائم مفطراً قبل مغيب الشّمس، إذ اللّيل عنده يقبل في إدبار النّهار، وقبل انقضائه كلّهُ وهذا لا يقوله أحد. وإذا كان الأمر على هذا فأذن الله تعالى في الطّلاق بقوله: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِئَدَّتِهِنَّ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ١] لا يكون واقعاً إلّا بعد دخول وقت العدة التي أذن الله في الطّلاق له، والطّهر وبعد انقضاء إدبار الوقت الذي منع من الطّلاق فيه وانتهائه وهو الحيض، فكذلك قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» يعني الهلال والصّوم لا يكون إلّا بعده بساعات ووقت مديد، ومن مواضع اللّام قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه، الآية: ١٤] لأنّ المعنى أديم الصّلوة لتسبحني وتمجّدي، وذلك هو الذّكر إذ كان علّة له وسبباً، وهذا يخالف: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشّمس﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٨] لأنّ ذلوك الشّمس بيان وقت، ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢] في أنه بيان وقت، ألا ترى أنّ الحشر لم يكن علّة لإخراجهم، بل كان علّة لإخراجهم كفرهم وإبائهم الإسلام.

البابُ الثالثُ والسّتون

في ذكر مشاهير الكواكب التي تُسمّى الثّابتة وهذه التّسمية على الأغلب من أمرها إذ كانت حركة مسيرها خافيةً غير محسوسة .

قال أبو حنيفة: اعلم أنّ سير هذه الكواكب على خفائه مستمرٌّ على تأليف البروج الاثني عشر لا يعرض لشيء منها رجوع، فقد ميّز قدماء العلماء كواكب السّماء على وجه الدّهر وصنّفوها فجعلوها منزلةً في منازل سبعةٍ من الأقدار فجعلوا كبارها في القدر الأوّل، وهي التي يسمّيها العرب الدّراري، والواحد دري منسوب إلى الدّر في الصّفاء والحسن، وفي التّزليل: ﴿كأنّها كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾ [سورة التّور، الآية: ٣٥] وقال الرّاجز:

أتى على أوني وانجراري أوم بالمنزلِ والدّراري
الأون: الثقل، والانجرار: أن يترك الإبل في مسيرها وعليها الأحمال ترى.

يقال: جرّ الإبل يجرّها جرّاً ويعني بالمنزل والدّراري منازل القمر ودّراري الكواكب، وهي مشبوباتها ذوات السّطوع والتّوقّد. قال الشّماخ:

وعنّس كألوان الأران لضاتها إذا قيل للمشبوبتين هماهما

لضاتها ونساتها بمعنى أي زجرتها وهيّجتها. وقيل: أراد بالمشبوبتين الشعريّين. وقيل الزّهرة والشّعرى العبور وهما أنور نجوم السّماء. فالذي أحصى العلماء من دراري النّجوم سوى الخمسة المتحرّية خمسة عشر كوكباً، وهي في القدر الأوّل من العظم وهي الشّعريان - وسهيل - والمحتّث - العتيق - والسّماكان - واليدان - وقلب الأسد - والتّسر الواقع - والصّرفة - ومنكب الجوزاء - ورجلها وأضوأ كواكب الفرعّين.

والذي أحصوا مما هو دون هذه وهي في القدر الثّاني من العظم خمسة وأربعون كوكباً: كالفرقدين وبنات نعش الكبرى وقلب العقرب والرّدف والتّسر الطائر، ورأس الغول - والعناق - وقلب الحوت - وأشباهاها مما ترك ذكر سائرهما للأقدار الباقية لأنّ مواضعها غير

كتابنا هذا. وقد ميّز أصحاب الأحكام من المنجمين من هذه الكواكب الستين ثلاثين كوكباً وجعلوا لكل كوكب منها خراجاً من طبائع الكواكب الخمسة المتحيرة ووضعوها أساساً للأفضية التي يحلفونها والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فإن قيل: كيف تميّز للعلماء مواضع هذه الكواكب ومقاديرها في سيرها على خفائها وعجز الحس عن إدراكها؟ قلت: أدركوا ذلك في الأزمنة المتعاقبة والدهور المترادفة، فكان أحدهم يقف في عمره مع تفقده البليغ لها على بعض أحوالها، ثم يرسم ما يقف عليه لمن يخلف بعده، وقد شاركه فيما مضى ثم قاس الأخلاف بعدهم قرناً بعد قرن، فوجدوها وقد تقدّمت عن تلك الأماكن الأول، وكذلك فعل الأخلاف للأخلاف، وقد ضبطوا تواريخ تلك الأزمنة معتبرين فوجدوها تتحرك بأسرها معاً حركة واحدة، فتقطع في كلّ مائة عام درجة واحدة، حيثئذ حكموا بما قالوا، فهذه حال هذه الكواكب المسماة ثوابت، إلا كوكباً واحداً، فإنه سيار خلاف سيرها، وخلاف سير السيارات كلّها وهو الكوكب الذي سمّاه المنجمون ذا الضفيرة وذا الذؤابة وهو الذي تسمّيه العامة كوكب الذنب، وإنما يظهر في الزمان بعد الزمان ولأصحاب الملاحم فيه روايات.

فعلى هذا عرف العلماء مواضع هذه الكواكب من الفلك وحكموا بما حكموا في كتبهم من شأنها.

ولما أرادوا تميّز كواكب السماء قسموا الفلك قسمين، فسموا أحد القسمين جنوبياً، والتّصف الآخر شمالياً، ولذلك سمّوا ما وقع من البروج والكواكب فيهما، وسمّيت العرب تلك الشّمالية شامية، والجنوبية يمانية، ولا فرق بين المقصودين، ولذلك جعلوا ما بين رأس الحمل إلى رأس الميزان من البروج شامية، وما بين رأس الميزان إلى رأس الحمل من البروج يمانية.

وكذلك جعلوا ما بين الشّربين من المنازل إلى السّماك شامية، وجعلوا ما بين الغفر إلى الرّشاء يمانية، وجميع ذلك قد تقدم القول فيه، فأقرب مشاهير الكواكب إلى القطب بنات النّعش الصّغرى وهي شامية سبعة كواكب في نظم بنات نعش الكبرى، أربعة منها نعش وثلاث بنات، والمنجمون يسمونها ذنب الدّب الأصغر. فمن الأربعة الفرقدان وهما المتقدّمان المضيّتان، والآخران وراءهما خفيّان. ومن البنات وهي ثلاث أولها: الكوكب الذي يسمّى الجدي وهو الكوكب الذي يتوخى الناس بها القبلة، لأنّه لا يزول وتسمّيه العرب جدي بنات نعش، يكبّ على اليدين فيستدير. وقال الأخطل وذكر بني سليم شعراً:

ولا يلاقون فراضاً إلى نسبٍ حتى يلاقي جدي الفرقد القمر

نسب الجدي إلى الفرقد كما نسبته الآخر فقال يذكر المطايا:

تياسرَن عن جدي الفراقد في الشرى وياَمَنَ شيئاً عن يمين المغاور
وهذا الجدي ليس من البروج ولا منازل القمر فهو لا يلقي القمر أبداً، وكذلك بنات
نعش، لذلك قال بعضهم وهو يهجو:

أولئك معشرُ كبناتِ نعشٍ خوالفُ لا تسير مع النجوم

خوالف: أي متخلّفة عن النجوم، والخالفة ما لا خير فيه فيقول: لا نفع عندهم ولا
فائدة من جهتهم.

ويروى: ضواجع ومعناه: رواكد لا غناء عندهم، كما أنّ بنات نعش لا توء لها ولا
نسب شيء إليها. وقال بشر بن أبي حازم في دورانها حول القطب:

أراقب في السماء بنات نعشٍ وقد دارت كما عطف الطّوّارُ

يريد أنّه سهر ليلته كلّها إلى أن دارت بنات نعش وهي تنقلب في آخر الليل وخص
بنات نعش لأنّها لا تغيب لذلك لا يجعلون الاهتداء بها بالفرقدين. وقال الراعي شعراً:

لا يتخذَنَّ إذا علونا مفازةً إلاّ بياض الفرقدين دليلاً

قال أبو حنيفة: فالكواكب الثلاثة التي هي البنات وكوكبان من النعش فيهما أحد
الفرقدين، هؤلاء الخمسة في شطر فيهما واحد كقوس، وقد قابله شطر آخر مثله فيه كواكب
خفيفة متناسقة، أخذت من الجدي إلى الفرقدين حتى صار هذان الشطران شبهان بخلق
السّمكة، والنّاس يسمونها بالفأس تشبهاً بفأس الرّحى التي القطب في وسطها، يظنون أنّ
قطب الفلك في وسط هذه الصّورة. قال: وليس كذلك بل القطب بقرب الكوكب الذي يلي
الجدي من هذا الشطر الخفي الكواكب فوجدت هذه الكواكب أقرب كواكب السّماء كلّها من
هذا القطب، لم أجد بينه وبين القطب إلاّ أقلّ من درجة واحدة. وليس القطب بكوكب بل
هو نقطة من الفلك.

ومن السّامية بنات نعش الكبرى، وهي أيضاً سبعة كواكب على عدد الصّغرى وفي
شبهه تنظّمها ثلاث بنات وأربعة نعش، والعرب تسمي الأول من البنات، وهو الذي في
الطرف القائد وتسمي الأوسط العناق: وتسمي الثالث الذي يلي النعش، الجون: وإلى
جانب الكواكب الأوسط منها كويكبٌ صغيرٌ جداً يكاد يلزق به ويسمى السّهي وبه جرى
المثل في قولهم: أريه السّهي ويريني القمر، ويقال له: الصّيدق ويعيش والنّاس يمتحنون به
أبصارهم فمن ضعف بصره لم يره.

ويروى أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يفعلون ذلك، وتقول العرب لبنات نعش بنو نعش وآل نعش. قال:

تمرَّزْتُها والديكُ يدعو صباحه إذا ما بنو نعشٍ دنوا فتصَّوبوا
وإنما قال: دنوا فتصَّوبوا لأنَّه لما أخبر عنها كما يخبر عن العاقلين جعل ضميرها ضمير العاقلين. وقال الشاعر:

فنيْتُ وأفناني الزَّمان وأصبحْتُ لداي بنو نعشٍ وزهرِ الفراقِدِ
وقال آخر:

وَهَلْ حَدَّثْتُ عَنْ أَخَوَيْنِ دَامَا عَلَى الْإِيَّامِ إِلَّا ابْنِي شَمَامٍ
وَالْأَ الْفِرْقَدَيْنِ وَآلَ نَعَشٍ خَوَالِدَ مَا تَحَدَّثُ بَانْهَدَامٍ
وقال آخر يذمُّ قوماً:

وَأَنْتُمْ كَوَاكِبُ مَسْحُولَةٌ تُرَى فِي السَّمَاءِ وَلَا تُعْلَمُ
فهذا في طريقة قوله:

أولئك معشرُ كبناتِ نعشٍ

والمسحولة: المردولة. وبالقرب من الفرقدين كوكبان مقترنان بينهما في رأي العين بعد القامة، إذا اعترض الفرقدان انتصبا، وإذا انتصب الفرقدان اعترضاً، يسميها العرب: الحرَّين ويسميان أيضاً: الذَّنين، ويسميان أيضاً: العوهقين.

وقال الزجاج:

بحيث بارى العوهقين الفرقدا عند مَسَدِّ القطب حيثُ استوسقا

وقال أبو زيد الكلبي: الحرَّان كوكبان أبيضان بين العوائذ، والفرقدين بينهما قدر ثلاثة أذرع في رأي العين، ويسميان الذَّنين، وقدَّامهما كواكب صغار تسمى: أظفار الذَّئب، وهناك كوكبان أوسع من كوكبي الحرَّين يقال لهما: كوكبا الفرق وعند الأعلى منهما كواكب صغار خفية مستديرة تسمى: القدر والقرحة كوكب أسفل من كوكبي الفرق كموضع قرحة الدَّابة من الأذنين. وزعموا أنَّ القرحة إذا طلعت استقبلت قبلة الكوفة وفيما هنالك الهلبة: وهي كواكب ملثَّفة يظنُّ من لم يتَّثبت من تأملها أنَّها الثَّريا، والعامَّة تسميها السَّنبله ومعنى الهلبة الخصلة من الشَّعر. والعرب تسمي هلبة الأسد، وهي فيما بين البنات من بنات نعش الكبرى.

وأما الصرفة فهي الكوكب الثَّيِّر المنفرد الذي على أثر الزبرة، والعرب تقول:

ضرب الأسد بذنبه فنغزت الطُّبَا، ونغزات الطُّبَا ثلاث: كلُّ نغزة منها كوكبان متقاربان كأثر ظلفي الطَّبِي.

ويقال لها أيضاً: التوافز والفقرات ويسمى أيضاً القراين وأشعيلبات، والطُّبَا كواكب خفية مستطيلة مثل الحبل الممدود من عند الهلبة إلى العيوق، وأولاد الطُّبَا كواكب صغار فيما بين الطُّبَا والفقرات. وفيما هنالك الحوض وليس بمُتَّصل الاستدارة والعواذ وهي كواكب أربعة مربعة غير متباعدة في وسطها كوكب كأنه لطحخة غيم يسمى الرِّبع شَبَّهَهُنَّ بأنيق أربع، عطفن على ربع وهي من الشَّامِيَة عن يسار النَّسر الواقع فيما بينه وبين بنات نعش.

ومن الشَّامِيَة الفكة: وهي كواكب مستديرة فيها مرجة، والعامة تسميها قصعة المساكين من أجل الثَّلمة التي فيها. ومن كواكبها كوكب هو أنورها يقال له: منير الفكة والأوائل من المنجمين سمّوا الفكة الإكليل الشمالي وإذا توسّطت الفكة السَّماء أو قاربت فنظرت إليها رأيت السَّماك الرَّامح بين يديها، ورأيت رؤية السَّماك خلفه بينه وبين الفكة وهو كوكبٌ متبذُّ عنه، يعارضه كوكب بالقرب منه كأنه عذبة في رمح. ولذلك قيل له: الرَّامح وذو السَّلاح وقيل للسَّماك الآخر الأعزل.

والنَّسقان: شطران ابتدأ أحدهما إلى قرب النَّسر الواقع، وهو النَّسق الشَّامي، والآخر إلى جهة النَّعام الوارد حتّى شرع في المجرّة وهو النَّسق اليماني.

ويقال لما بين النَّسقين الرّوضة، وفي داخل الرّوضة كوكب أبيض منفرد يقال له الرّاعي. وبالقرب منه كواكب صغار، ويقولون هي غنمة يرعاها في الرّوضة، وفي أضعاف تلك الكواكب كوكبٌ وباضٌ صغيرٌ، يقولون: هو كلبة ويقال للنَّسق النَّسيق أيضاً.

ومن الشَّامِيَة النَّسر الواقع، وإليه ينتهي النَّسق الشَّامي وهو كوكب أزهر خلفه كوكبان منه كأنهما وإياه أثنافي قِدرٍ، وكذلك تسميها العامة، وإنّما قيل له: الواقع لأنَّ الكوكبين اللذين معه بمنزلة جناحيه قد ضمّهما إليه، ولأنَّ هناك نَسراً آخر يقال له: الطائر، وسمّى القدماء من المنجمين النَّسر الواقع الأوزة.

وبإزاء النَّسر الواقع مما يلي الجنوب النَّسر الطائر ثلاثة كواكب مصطفة والأوسط منها هو أنورها، وهو النَّسر والآخران جناحاه، وقد بسطهما ولذلك قيل له الطَّائر، والعامة تسميها الميزان، لاستواء كواكبه في اصطفاها واعتدال الأوسط منها بين الآخرين.

ووراء النَّسر الواقع كواكب أربعة على اختلاف قد قطعت المجرّة عرضاً ويسمّيها العرب الفوارس، تشبيهاً بفوارس أربعة يتسايرون.

ووراءها بالقرب كوكب أزهر منفرد في وسط المجرّة تسمّيها العرب الرّدف كأنه ردف

الفوارس يتبعها، والمنجمون يسمون هذا الكوكب: ذنب الدجاجة، وقد وضعوه في الاصطراب للقياس به، ويسقط الفوارس والزدف مع طلوع النثرة وتطلع مع طلوع الشولة.

وكذلك السران وهما من الكواكب الشامية، وعلى أثر النسر الطائر كواكب أربعة مصلبة النظم تسميها العامة الصليب، وتسميها العرب القعود ويسقط الصليب مع طلوع سهيل، وتطلع مع سقوط الشعري.

وراء الزدف في حومة المجرة كف الثريا الخضيب، وهي كواكب خمسة بيض مختلفة النظام وهي أيضاً سنام الناقة، والناقة في مثل خلقة التجيب الضامر الدقيق الخطم، وخطمها في جهة الجنوب، وعنقها كواكب تتابع من عند الرأس، فأنحدرت انحدار العنق، ثم ارتفعت إلى سنامها، وهناك لطخة سحابية في مثل موضع الفخذ، يقولون: هي وسم الناقة، وهذه اللطخة هي معصم الثريا ورأس الحوت في لبة الناقة، وهو في مثل صورة السمكة غير أنها عظيمة.

وفي جملتها كوكب هو أضوؤها يقال له: قلب الحوت. وفوق رأس الناقة حوت آخر، ورأس الناقة ذنبه وهو أقصر من الحوت الأسفل وأعرض.

وراء الكف الخضيب العيوق، وهو كوكب عظيم نيز في حاشية المجرة التي تلي الشمال يقال له: عيوق الثريا، وذلك كأنهما يطلعان معاً، وإذا توسطت السماء تدانيا في رأي العين. قال الشاعر شعراً:

كأن صديا والملامة ما سقى لكالنجم والعيوق ما طلعا معا

يقول: لا يتخلف اللوم عن صدى كما لا يتخلف واحد من الثريا والعيوق عن صاحبه، وفي إضافة العيوق إلى الثريا قال الشاعر:

وعاذلة هبت بليل تلومني وقد غاب عيوق الثريا فعددا

ولتدانيهما إذا توسطت السماء قال بشر:

وعاندت الثريا بعد هذه معاندة لها العيوق جاز

ظن أن الثريا تركت طريقها وعاندت إلى العيوق وذلك من أجل البعد الذي بينهما في المطلع والقرب الذي بينهما في وسط السماء، وهو فيقول من العوق والعيق جميعاً والعوق الذي لا حر فيه.

ويقال: العيق وهو من قولهم ما يعيق به حر ولا يليق. ووراء العيوق غير بعيد كواكب

ثلاثة: زهرٌ مصطفةٌ متقوسةٌ قد قطعتِ المجرةَ عرضاً ويسمى: توابع العيوق. ويقال لها: الأعلام أيضاً. ويقال للذي تحته: رجل العيوق.

ومن أمثالهم فيما يبعد من الطمع: هو أبعد من العيوق، كما يقولون: هو أبعد من الثريا. وهناك سطر من كواكب امتدت في الشمال على انعطاف تسمى: الكفّ الجذماء لقصرها، ويقولون للثريا: الرأس فيما بين اليدين وفي اليمنى كواكب هي أنورها فيها العاتق وهو أقربها إلى الثريا، ثم المنكب بعده، ثم المرفق كوكبٌ صغير يقال له: إبرة المرفق، وهناك أيضاً المابض.

أما إبرة المرفق من الإنسان فهو طرف عظم الساعد وهو الذي يذرع بذراع والطرف الآخر الذي يثنى إذا قبضت ذراعك إليك يقال له: القبيح. حيث تلاقي الإبرة القبيحا.

ويقال لما بين المرفق والمعصم الساعد ويصغر فيقال: الشويعد. ويقال ما بعد المعصم وهي الكف، الخضيب كف الثريا. وهناك كوكب تير قدر كوكبي المرفق والعضد فهو معهما في صورة مثلثة واسعة كل كوكب في زاوية من زواياها والمنجمون يسمون هذا الكوكب: رأس الغول. وقريب منه كوكب تير فيما بين قلب الحوت ومرفق الثريا يسمى: عناق الثريا وهي غير العناق الذي في بنات نعش.

ورى ابن الأعرابي عن العرب: قال عند بنات نعش كوكب يقال له: رأس الحية ورأس الحية مثل رأس الخلخال، والتنين فيما وصفه المنجمون هناك عند رأسه.

ويوجد من بنات نعش كوكب أحمر يُقال له: الذبح. وهو ذكر الضباع. وهناك كواكب صغار فيما بين القرحة والجدي. والزاعي كوكب من كواكب الشاء. وكلب الراعي: كوكب صغير قريب منه.

وأسفل من بنات نعش كواكب كثيرة مختلطة يقال لها الضباع.

ويوجد كواكب صغار عن يمين الضباع بينها وبين بنات نعش. والخباء كواكب في مثل هيئة الخباء أسفل من أولاد الضباع.

وخلف العاتق كوكبان بينه وبين العنق يسميان: المرجف والبرجس.

وقال عن يمين الكف الجذماء البقر أسفل من الكفّ الجذماء متصلة بالثريا فهذه مشاهير الكواكب الشامية.

ونذكر الآن الكواكب اليمانية فمنها: منكبا الجوزاء وهما أيضاً يداها. والأيمن منهما كوكب أحمر، وقد وضع في الاصططلاب، والعرب تسميه مرزم الجوزاء، والهلقة بين

المنكبين وهي عند العرب رأس الجوزاء لأنَّ الجوزاء في المنظر شبيهة بصورة الإنسان. وربما سمّوا المنكب الأيسر النَّاجِد.

وأما الكواكب البيض المستعرضة في وسط الجوزاء البواضة فإنَّ العرب تسميها النِّظْم وتسميها أيضاً: نطاق الجوزاء وفقار الجوزاء. ويسمّون الكواكب الثلاثة المنحدرة من عند هذه الأولى الجوّاري وكأنّها في موضع الرّجل من ظاهر الصّورة.

وهناك كوكب أبيض وباض في مثل القدم يقال له: رجل الجوزاء اليسرى وقد وضعه المنجّمون للقياس، ورجلها اليمنى كوكب أبيض أصغر من الأول وقال الشاعر:

فلما رأى الجوزاء أول صابح

وضرتها الكواكب التي معها. وقال الآخر فيهما جميعاً. وفتية غيد من التّسويد. الأبيات. وقد مضت في الباب السادس والخمسين، ومن نظر إليها وهي على الأفق بان له حسنّها.

وتحت كلّ واحدة من رجل الجوزاء كواكب أربعة تسمّى كرسى الجوزاء، وأحد الكرسيّين أبين من الآخر، ويسمّى كرسى الجوزاء التّهل.

وفوق رأس الجوزاء كواكب صغار كالعقد الموزج يسمّى تاج الجوزاء ويسمّيها العرب أيضاً ذوائب الجوزاء.

وأسفل من الجوزاء على يسارك إذا نظرت إليها الشّعرى العبور، وهي الكوكب العظيم البواض، وقد ذكرنا الأخرى في منازل القمر، وإنَّ المجرة تمرّ بين الشّعريين وأسفل من كرسى الجوزاء.

ومن الشّعرى العبور ثلاثة كواكب بيض مختلفة التّثلث تشبّوها العرب عذرة الجوزاء وقد يجعلها قوم خمسة كواكب. وهناك كواكب إنَّ ضمَّ بعضها إلى الثلاثة صارت خمسة، وقد تسمّيها العرب: العذارى وهي في حاشية المجرة الغربيّة.

وإذا انحطّت الجبهة عن كبد السّماء فنظرت رأيتَ بينها وبين الشّعرى الغميصا أربعة كواكب مربعة فيها استطالة كهيّة وجه الفرس، تسمّى رأس الحيّة، وقد امتدت من عنده كواكب متناسقة على تعريج، حتى قربت من عرش السّماك الأعزل، وهذه الكواكب هي بدن الحيّة، وفيها كوكب هو أضوأ كواكبها يسمّيها المنجّمون: عنق الحيّة، ومنهم من يسمّيه فقار الحيّة، لأنّه بعيد من الأوّل، وقد وضع هذا الكوكب في الاضطراب، والعرب تسمّيه الفرد، وإياه عنى الشاعر بقوله:

وقد مالتِ الجوزاء بالكوكبِ الفَرْدِ

وسُمِّي فرداً لانفراده عن أشباهه.

والخيل كواكب كثيرة أكثر من العشرة نيرة، وفيها ستة كواكب في ثلاثة أمكنة متفرقة في كل مكانٍ منها كوكبان. وفيما بين كواكب الخيل كواكب صغار تسمى أفلاء الخيل، وهي كلها بين يدي الشولة فوق المجرة وأسفل من الخيل.

ومن شولة العقرب كواكب يقال لها: القبة، وإذا رأيت الزبانيّن مرتفعتين عن أفق المشرق رأيت فيما بينهما وبين عرش السماء أسفل منها كواكب مجتمعة نيرة مختلطة على غير نظم، تسمى الشماريخ، لأنها كأنها شماريخ كباسة.

وإذا توسّطت الشعري العبور السماء ثم نظرت على سمتها قريباً من الأفق رأيت سهيلاً قد توسّط مجراه أو قريباً وذلك أرفع ما يكون في السماء وهو قليل العلو، قريب المجري من الأفق، وهو عند المنجمين طرف سكان السفينة، وهو كوكب منير عظيم أحمر منفرد عن الكواكب، وأقرب مجراه من الأفق تراه أبداً يضطرب، ولما يعرض لسهيل من ذلك ولانفراده قال الشاعر:

أراقبُ لوحاً من سهيلٍ كأنه إذا ما بدا من آخر الليل يطرفُ
يعارضُ عن مجرى النجوم وينتحي كما عارضَ الشول البعيرُ المؤلفُ
ولويضيهِ وشعاعهِ وانفراده. قال الآخر يصف ثوراً شعراً:

خبأتُ عذوباً للسماء كأنه قريعُ هجان يتبع الشول جافراً
شبهه في انفراده بفحلٍ انقطع عن الضراب فتحنى عن الإبل ولتوهجه قال الآخر:
حتى إذا شال سهيلٌ بسحر كعشوة القابس ترمي بالشُرر
وطلوعه بالعراق لأربع ليالٍ بقين من آب وذلك مع طلوع الزيرة، ويطلع بالحجاز لأربع عشرة ليلة تمضي من آب مع طلوع الجبهة. قال الشاعر شعراً:

إذا أهل الحجاز رأوا سهيلاً وذلك في الحسابِ بشهر آبٍ
ويُسمى سهيلُ كوكبُ الخرقاء. قال الشاعر:

إذا كوكبُ خرقاء لاحَ بشحرة سهيلٌ أذاعت غزلها في القرائب
يريد أن الخرقاء لعبت صنعها، وضيعت وقتها، ولم تغزل، فلما طلع سهيلٌ وجاء الشتاء وضاق الوقت استغزلت قرايبها، وفي نحوه قال الآخر شعراً:
علك أن تنسجي وتدأبي إذا سهيلٌ فاق كل كوكب
فتعلمي قرضك غير معجب

وإذا طلع مغربَ الشمس استبدلت الإبل الأسنان قال:

إذا سهيلٌ مغربَ الشمس طلغ فابنُ اللَّبون الحق والحق جَدَع

وفي مجرى سهيلٍ كوكبان يقال لهما: حضار والوزن وهما يطلعان قبل سهيل ومن كلامهم حضار والوزن محفان.

وذلك أنه إذا طلع أحدهما فرآه الرائي قال لصاحبه: طلع سهيل فيقول صاحبه: ليس بسهيل فيتماريان حتى يحلفا، فلا بدّ من حنث أحدهما، وإذا كان الشيء يعرض فيه الشك كثيراً قيل: إنه لمجلف ومحنث، ولذلك قيل كميت محلّف قال:

كميت غير محلّفة ولكن كلون الصّرف غلّ به الأديم

وهناك أيضاً الفروء وهي كواكب صغار عند حضار. قال الشاعر:

أرى نارَ ليلى بالعقيق كأنّها حضارٌ إذا ما أعرضت وفروءها

وذكر ابن الأعرابي أنّ في مجرى قدَمي سهيل من خلفهما كواكب زهرٌ ألا ترى بالعراق يسميها أهل تهامة الأعيار.

وبعد السّعود الأربعة المذكورة في منازل القمر، سعود ستّة متناسقة في جهة الدّلّو كلّ سعد منها كوكبان، بينهما كُنحو ما بين سعود المنازل، وهي أربعة، وهي كواكب خفيفة غير تيّرة، فأولها سعد ناشرة، وهو أسفل من سعد الأخبية وهو يطالع الشّرطين أي يطلع مع طلوعه.

وعلى أثره سعد الملك ثم سعد البهام، ويقال له: مِريق البهام، وأسفل منه كواكب صغار تسمّى: الرّبق، والرّبق: جبل يمد بين وتدين يربق إليه البُهم، وعلى إثره سعد البارح ثم سعد مطر.

وروى ابن الأعرابي عن العرب في الكواكب اليمانية أشياء، قال: سهيل اليمن وتحتة سهيل بلقين وهو غير حضار وغير الوزن، وقال: فيما بين الفرد وبين زباني العقرب الخباء.

قال أبو حنيفة: إن كان عنى بالخباء عرش السّماك فذاك، وإلا فليس هناك خباء غيره، وقال: على أثر الخباء كواكب يقال لها: الشّراسيف وهي كواكب مستطيلة مثل الجبل.

وقال: بين الشّراسيف والخباء كواكب مستديرة متبدّدة على غير نظام يقال لها: المعلف. قال: وبعد المعلف: الشّماريخ.

وراء القبة الصّردان، أحدهما يجري قريباً من الأفق والآخر فوقه بحياه. قال: وخلف الصّرد الأعلى اليمامتان: وبينهما وبين الصّردين في رأي العين نحو من عشرين

ذراعاً. قال: وهنالك: القطاء، وهي كواكب متقاطرة كتقاطر القطاء وهي كواكب غير نيرة إلا كوكبان.

قال: وثم الظليمان فوق ذلك وهما كوكبان نيران بينهما في رأي العين إذا استويا في السماء قدر مائة ذراع وبينهما الزال.

وقال السفينة كواكب خفيفة متتابعة متقدمها عند سعود البهائم ومؤخرها السمكة.

وقال: في مقدمها الضفدع الأول في مؤخرها الضفدع الآخر.

فهذا ما أردنا ذكره من مشاهير الكواكب.

تم الباب وبتمام هذا الباب تم الكتاب والله الحمد بلا عدد. وعلى المصطفى محمد، وآله وأزواجه وذرياته وأصحابه وأنصاره أبد الأبد صلوات ورضوان وسلام وغفران.

فرغت منه ضحوة يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وأربع مائة، حامداً الله تعالى على نعمه وأياديه الظاهرة والباطنة، ومصلياً على أنبيائه ورسله ومُسْلِماً.

قال الشيخ أبو علي المرزوقي رحمه الله هذا الفصل خاتماً به كتابه حرس الله ما خوّلك من الشتات، وحفظ ما نَوَّلَكَ من عارض الانبتات، وأعانك في طلب الأدب على الازدياد. ووفقك في سائر متصرفاتك لصالح البدء والمعاد.

قد سهّل الله تعالى وله المنّ ما تمنيت بلوغه من الفراغ من كتاب الأزمنة فجاء على حدّ من الكمال، طاب له العيش وخفّ على النفس فيه التعب، وما أذاني إلى ذلك إلا لطيف هداية الله تعالى جدّه وكريم كفايته، فبهما اشتدّ أزمري واستبد ما اختلّ من خاطري وذهنِي، فأما ما كنتُ أشكوه من قبل حتى استطيلت مدة الانتظار في عمله، فلما ألزم حواملي وجوارحي من الضعف العارض والوهن الحادث، وقد أبدل الله تعالى على كريم عادته به استجمام الأمل في زواله واستحكام الطمع في انحسامه على تطوّل الله المعول في تحقيق المرجو وهو حسْبُنَا وحْدَه ونعم الوكيل.

واعلم أنّ هذا الكتاب ينقسم أقساماً ثلاثة وهذا الحكم يتناول جماهير أبوابه وفصوله لا يختصّ به بعض دون بعض.

أحدها: التنبيه على نعم الله جل جلاله فيما نصب للمكلّفين في آناء اللّيل والنهار من الأدلة الواضحة والحكم البالغة، وأفادهم فيما سخره لهم وأعانهم به في جوانب البر والبحر من النعم الظاهرة والباطنة قولاً وفعلًا وجمالاً وتفصيلاً في بدهة العقل، وعلى السنة الرّسل

فإنَّ صِلَةَ إحدى النِّعمتين بالأخرى فيهما كصلة الإبصار بالضوء - والأنفاس بالجو - وكما هدى إلى الاستدلال بالشاهد على الغائب - وبالجلي على الخفي، وكثر ما أشرتُ إليه يمْزُ عليه المارّون، وهم عنها معرضون.

والثاني: التذكير بحكم العرب في لغاتهم - وآدابهم - وعاداتهم - ومآربهم - مع تلاحق أقطارهم - وتضايق أوطانهم - ورضاهم بالعفو من مقاماتهم - ومآبهم على اختلاف أسبابهم - وطرقهم، واقتنان همهم - ووجههم - هذا إلى ما خُصّوا به من الفضائل دون الأمم، وتَوَحَّدوا به من جلائل المنح والنعم، وفوائد هذين القسمين في الاتساع كالشمس في ضيائها - والريح في هبوبها يتكافأ في نيل الحظ منهما المحب والكاره، ويعترف بهما إذا أنصف المسلم والمعاد.

والثالث يحوي لمعاً من الأشعار - وغرراً من النوادر والآثار - اقتضى ذكرها مناسبتها للأزمان التي هي من همّنا وفرضنا على أنفسنا الوقوف تحت ظلّها، ولو تقصينا أبوابها لفني العمر وبقي منه الكثير فتطرّفتنا منها ما تطرّفتنا إيذاناً بأنَّ الغفلة لم تحل دونها ولثلا تخلو تضاعف الأبواب من بعضها فليعذر الناظر فيه هذا الكتاب. إذا انتهى إلى المواضع التي أشرنا إليها متصوّراً حالنا، وليحذر إلحاق الغائب بنا، ففي مستحسنه إن شاء الله ما يشغل عن مستهجنه، والشمس يطمس نورها - ما أحاط من الكواكب بها - وقد قيل: لكلّ حسناء ذامٌّ.

واعلم أنّ من حقّ المصنّف إذا جمع الأصول بحقائقها - واستوفى الفروع بلواحقها - أن يمنع خاطر من تجاوز الأنس باليسور، إلى وحشة المعسور، ويدفع الهاجس من الخروج عن مساعدة الألوف إلى مشامسة الثغور، حرصاً على بلوغ غاية شأوه لا يلحقها، ودفعاً في وجه ممكنة جهده لا يحيط إلا بها، لأنّ التحفظ مع الإقلال أقرب - وهو مع الإكثار أبعد - ونصرة الرأى في مجاذبة الهوى حصن من الندامة - وأمن من الملامة، ولأنّ البليغ وإن كان مؤيداً في خصله مسدداً في نقده، يصحب التثبت ويجتنب التجوّز لا يعجزه ما غاب - ولا يغلبه ما راب، فمن الواجب عليه أن يجتنب الاستبداد - عند الاستعداد - ويحاذر الملل - قبل حصول الكلال، لأنّ من عاف مصادر الغرور - لم يركن إلى موارد الحبور - فتراه يصافح المذموم بيد الاحتقار - مُتَهَاتِفاً فيطرّحه، ويكافح المرذول بسيف القباحة متأنفاً فيتزّه عنه وترك الشر قبل الاختيار - أفضل من ملابسة على الاغترار والأدب حبس العقول، والتأدّب اكتساب القلوب - والاستنباط جوالب الأفكار، والبحث عن المكامن بأداة البصائر والأبصار، ولكلّ منها أسباب مكرمة - وأعلام مرفعة - يسيره كاسب الجمال - وكثيره كاسي الجلال ولا غرور فإنّ السجايا تدخلها المتاجرة والمرايحة، فمنها ما هو أمحض من الكرم - وأنزّه من الدّنس - وفي الثناء الباقي الدّهر خلف من نفاذ العمر.

تقريظٌ وجد آخر الأصل

بسم الله براعة الاستهلال، والتخلص بالصلاة على محمدٍ رسوله والآل. ثم براعة الختام عليه وعلى آله وصحبه السّلام، ويعد فمن قابل أبواب هذا الكتاب وسلك أرجاء المطرزة بالآداب وجد حديقةً موشحةً ببديع الطّريقة، مرصعةً بدراري البيان موشعةً بلوامع التّبيان، مرشحةً بعقود اللّآلئ، مدبّجةً كالغزالي، منسجمة الألفاظ والمعاني، موزونة الأركان والمباني، مطيبةً بأفواه البلاغة، مسورةً بلجين لا لجين الصّناعة، فكأنّ بانيها قد خطّها في ذهنه الوقاد قبل الشّروع، ومهّد أصولها لاستنباط الفروع ثم أسّسها بأساس التحقيق، ورفعها بلبن التدقيق، ورّينها بمصابيح الفصاحة، وأنارها بثوابت السّماحة، حتى أتت جنةً عالية، قطوفها دانية، فيها أعين فوائد جارية، وحوار خرائد لقلوب المدنفين فارية، وموائد للمعاني وللمعاني قارية، وغرائب لم تكن على الأفئدة طارئة، وطرائق للسّالكين واضحة كافية، ودبارق لقلوب العاشقين فنون البلاغة شافية، بيّد أنها جامعة للغة الغريبة، والنكت العجيبة وخرائد الأذهان الحصان، التي لم يطمئنّ أنسٌ قبله ولا جان، فَبِحُّ له من لوذعي نحري، وألمعي تنقيح وتقرير، ما أَرشَق براعة استهلاله وتخلّصه، وما أوفق حسن مقطعة وتربّصه، إلى أن حافَظَ على براعة الختام، بأوقات الصّلوة بخير اهتمام، وجعلها تذكرةً مدة الأعوام والأيام، وها أنا أختُمُ بالسّلام على سيّدنا محمد خير الأنام، وعلى آله الأعلام وخير صحبه الماسكين زمام الإسلام.



فهرس
كتاب
الأزمنة والأمكنة

الفهرس

٣ المقدمة
٥ مقدمة المصنف
١٥ ذكر أبواب الأزمنة والأمكنة ، وفصولها
١٩ الباب الأول
٦٧ فصل في بيان النسيء
	فصل في تأويل أخبار مروية عن رسول الله ﷺ والصحابة وبيان ما يحمد ويذم من
٦٩ معتقدات العرب في الأنواء والبوارح
٧٦ فصل آخر في جواب مسائل للمشبهة من الكتاب والسنة مما تستدل به المشبه
٨١ فصل في تبيين المحكم والمتشابه
٨٦ فصل الاستدلال بالشاهد على الغائب
	فصل في أسماء الله وصفاته وأحكامه (وبيان الأصوات كيف تكون حروفاً ، والحروف
٨٨ كيف تصوير كلاماً)
	الباب الثاني : في ذكر أسماء ومعان للزمان والمكان ، ومتى تسمى ظروفأ ، ومعنى قول
١٠١ التحوين الزمان . . . وإبطال الفاسد منها وما يتعلق بذلك وفصوله أربعة :
١٠٣ فصل في ماهية الزمان
	الباب الثالث : ويشتمل على بيان الليل والنهار على فصول من الأعراب يتعلق بهما وهي
١١٣ ظروف الفصل الأول
	الباب الرابع : في ذكر ابتداء الزمان وأقسامه والتنبيه على مبادئ السنة في المذاهب كلها
١٢٠ وما يشاكل ذلك من تقسيمها على البروج
١٢٦ الباب الخامس : في قسمة الأزمنة ودورانها واختلاف الأمم فيها

- الباب السادس : في ذكر الأنواء ، واختلاف العرب فيها ، ومنازل القمر ، مقسمة الفصول
على السنة وأعداد كواكبها وتصوير مأخذها ضارة ونافعة ١٣٢
- فصل في بيان الاختلاف الواقع بين العرب في أوقات الأنواء والكلام في الضيقة ١٤٦
- الباب السابع : في تحديد سني العرب والفرس والروم وأوقات فصول السنة ١٥٠
- الباب الثامن : في تقدير أوقات التهجد التي ذكرها الله تعالى في كتابه عن نبيه والصحابة
وبين ما يتصل بها من ذكر حلول الشمس البروج الاثني عشر ١٥٤
- الباب التاسع : في ذكر البوارح والأمطار ، مقسمة على الفصول والبروج ، وفي ذكر المراقبة ١٦٠
- الباب العاشر : في ذكر الأعياد ، والأشهر الحرم ، والأيام المعلومات ، والأيام
المعدودات ، الصلاة الوسطى ١٦٥
- الباب الحادي عشر : في ذكر - سحر - وعدة - وبكرة - وما أشبهها ، والحين والقرن
والآن وإيان وأوان والحقة والكلام في إذ وإذا وهما للزمان وما أشبهها ١٧٢
- فصل في المحدود من الزمان وغير المحدود ١٧٥
- الباب الثاني عشر : في لفظ أمس - وغد - والحول - والسنة - والعام - وما يتلو تلوه ،
ولفظ حيث - وما يتصل به - والغايات - كقبل - وبعد - وذكر أول - وحينئذ - وقط - ومنذ
ومذ وإذ المكانية ١٨٠
- الباب الثالث عشر : فيما جاء مشئ من أسماء الزمان والليل والنهار ، ومن أسماء الكواكب
وترتيب الأوقات وتنزيلها ١٨٩
- فصل في ترتيب الأوقات وتنزيلها ١٩٣
- الباب الرابع عشر : في أسماء الأيام على اختلاف اللغات ومناسبات اشتقاقها وتشنيها
وجمعها ١٩٩
- الباب الخامس عشر : في أسماء الشهور على اختلاف اللغات ، وذكر اشتقاقاتها ، وما يتصل
بذلك من تشنيها وجمعها وهو فصلان ٢٠٥
- الباب السادس عشر : في أسماء الدهر وأقطاعه ، وما يتصل بذلك وهو فصلان ٢١٤
- الباب السابع عشر : في أقطاع الدهر وأطراف النهار والليل - وطوائفهما وما يضارعهما
من أسماء الأمكنة أو يداخلها من ذكر الحوادث فيها . وهو ثلاثة فصول ٢٢١
- الباب الثامن عشر : في اشتقاق أسماء المنازل والبروج وصورها ، وما يأخذ مأخذها
والكواكب السبعة وهو فصلان ٢٣٠
- فصل في بيان الكواكب السبعة ٢٣٦
- الباب التاسع عشر : في أقطاع الليل - وطوائفها - وما يتصل به ويجري مجراه ٢٣٩

٢٤٧	الباب العشرون : في أقطاع النهار وطوائفه - وما يتصل به ويجري مجراه
٢٥٥	الباب الحادي والعشرون في أسماء السماء والكواكب والفلك والبروج وهو ثلاثة فصول ..
٢٥٥	فصل
٢٥٨	فصل
٢٦٠	فصل في بيان امر المجرة وشرح بعض أحوالها
٢٦٣	الباب الثاني والعشرون في برد الأزمنة ووصف الأيام والليالي به
٢٦٩	فصل فيما وضع على السنة البهائم
٢٧١	الباب الثالث والعشرون في حر الأزمنة ووصف الليالي والأيام به
٢٧٦	الباب الرابع والعشرون في شدة الأيام ورخائها وخصبها وجديها وما يتصل بها
٢٨٥	الباب الخامس والعشرون في أسماء الشمس وصفاتها وما يتعلق بها
٢٩٤	الباب السادس والعشرون في أسماء القمر وصفاته وما يتصل بها من أحواله
٢٩٤	فصل
٣٠٠	فصل في أسماء ليال من أول الشهر
	الباب السابع والعشرون في ذكر أسماء الهلال من أول الشهر إلى آخره وما ورد عنهم فيها
٣٠٢	من الاسجاع وغيرها
	الباب الثامن والعشرون في ذكر أسماء الأوقات لأفعال واقعة في الليل والنهار وأسماء
٣٠٦	لأفعال مختصة بأوقات في الفصول والأزمان
٣١٤	الباب التاسع والعشرون في ذكر الرياح الأربع وتحديد مهاياها وما عدل عنها
٣١٤	الفصل الأول
٣٢١	الفصل الثاني في تبين ما ذكر من كلام الأوائل في ذلك
٣٢٣	الباب الثلاثون في أسماء المطر وصفاته وأجناسه
٣٢٣	الفصل الأول
٣٢٧	الفصل الثاني في علة ما ذكرنا من كلام الأوائل
٣٢٩	الباب الحادي والثلاثون في السحاب وأسمائه وتحليه بالمطر
٣٢٩	فصل
٣٣٤	فصل في كلام الأوائل يتبين منه حال الأندية والأمطار والعيون والانهار وغيرها
٣٣٦	الباب الثاني والثلاثون في الرعد والبرق والصواعق وأسمائها وأحوالها
٣٣٦	فصل
٣٣٩	فصل في الرعد والبرق والسحاب من كلام الأوائل

٣٤١	الباب الثالث والثلاثون في قوس قزح وفي الدائرة حول القمر
٣٤١	فصل في قوس قزح
٣٤٣	فصل في كلام الأوائل في البرد والطل والدمق
٣٤٤	فصل في أسباب الطل
٣٤٥	الباب الرابع والثلاثون في ذكر المياه والنبات مما يحسن وقوعه في هذا الباب
٣٤٥	فصل
٣٥١	الباب الخامس والثلاثون في ذكر المراتع المخضبة والمجدبة والمحاضر والمبادي
٣٥١	فصل
٣٥٤	فصل في ذكر ما كانت العرب تفعله وقت إمساك القطر
٣٥٥	الباب السادس والثلاثون في ذكر أحوال البادين والحاضرين
٣٦٠	الباب السابع والثلاثون في ذكر الرواد وحكاياتهم
٣٦٠	فصل
٣٦٤	فصل في ذكر مواقعهم ومسارحهم
٣٦٨	الباب الثامن والثلاثون في ذكر الورد ومن جرى مجراهم من الوفود
٣٧٦	الباب التاسع والثلاثون في السير - والنعاس والميح - والاستسقاء ورد المياه
٣٨٢	الباب الأربعون في أسواق العرب
	الباب الحادي والأربعون في ذكر مواقيت الضراب والتناج وأحوال الفحول في
٣٨٦	الألقاح والغرور وما يتسبب من جميع ذلك حالاً بعد حال بقدرة الله وإرادته
	الباب الثاني والأربعون فيما روى من اسجاع العرب عند تجدد الانواء - والفصول -
٣٩٥	وتفسيرها
٣٩٥	فصل
٤٠١	فصل
٤٠٢	الباب الثالث والأربعون في ذكر العيافة والقيافة والكهانة
٤٠٢	فصل
٤٠٢	فصل
٤١٢	فصل في القيافة والعيافة
	الباب الرابع والأربعون في ذكر ما ابهم من الأوقات حتى لا يتبين للسامع حاله وما
٤١٦	شرح منها
	الباب الخامس والأربعون في الاهتداء بالنجوم وجودة استدلال العرب واصابتهم في

٤٢٠ أهمهم
٤٢٨ الباب السادس والأربعون في صفة ظلام الليل واستحكامه وامتزاجه
٤٣٤ الباب السابع والأربعون في صفة طول الليل والنهار وقصرهما وتشبيه النجوم بها
٤٤٢ الباب الثامن والأربعون في ذكر السراب ولوامع البروق ومتخيلات المناظر ووصف السحاب
٤٤٩ الباب التاسع والأربعون في تذكر طب الزمان - والتلهف عليه والحنين إلى الآلاف - والأوطان
٤٥٨ الباب الخمسون في ذكر أنواع الظل وأسمائه ونعوته
٤٦٤ الباب الحادي والخمسون في ذكر التاريخ وابتدائه والسبب الموجب له وما كانت العرب عليه لدى الحاجة إليه في ضبط آمار الحوادث والمواليد
٤٦٤ فصل
٤٦٨ فصل في حكام العرب في الجاهلية
٤٦٩ فصل في أوقات التاريخ
٤٧٤ الباب الثاني والخمسون فيما هو متعالَم عند العرب ومن داناهم، وأدركوها بالتفقد وطول الدرية ولم يدخل في اسجاعهم
٤٨٣ الباب الثالث والخمسون في انقلاب طبائع الأزمنة وثباتها وامتزاجها والاستكمال والامتحاق وازمان مقاطع النجوم في الفلك ومعرفة ساعات الليل من رؤية الهلال ومواقيت الزوال على طريق الاجمال
٤٨٨ الباب الرابع والخمسون في اشتداد الزمان بعوارض الجذب وامتداده بلواحق الخصب
٤٩٥ الباب الخامس والخمسون في حد ما يشتمل على ذكر ما في اعرابه نظر من حديث الزمان
٥٠٦ الباب السادس والخمسون في ذكر الكواكب اليمانية والشامية وتميز بعضها عن بعض وذكر ما يجري مجراه من تفسير الألقاب
٥١٠ الباب السابع والخمسون في ذكر الفجر - والشفق - والزوال - ومعرفة الاستدلال بالكواكب وتبيين القبلة
٥١٣ فصل في صرف القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة
٥١٥ الباب الثامن والخمسون في معرفة أيام العرب في الجاهلية وما كانوا يحترفونه ويتعايشون منه . وذكر ما انتقلوا إليه في الإسلام على اختلاف طبقاتهم
٥٢٣ الباب التاسع والخمسون في ذكر أفعال الرياح لواقحها - وحوائلها وما جاء من خواصها في هبوبها وصنوفها

- الباب الستون في ذكر الأوقات المحمودة للنوء والمطر وسائر الأفعال وذكر ما يتطير
منه أو يستدفع الشر به ٥٢٨
- الباب الحادي والستون في ذكر الاستدلال بالبرق والحمرة في الأفق وغيرهما على الغيث . ٥٣٨
- الباب الثاني والستون في الكواكب الخنس وفي هلال شهر رمضان ٥٤٢
- الباب الثالث والستون في ذكر مشاهير الكواكب التي تسمى الثابتة ٥٤٥
- التقريظ المكتوبة على الأصل ٥٥٧